جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة كركوك
كلية التربية الأساسية

ONLINE ISSN: ٣١٠٦-٥٤٢٢
PRINT ISSN: ٣١٠٦-٥٤١٤

العدد: ٢
المجلد: ١

مجلة أرّابخا

للدراسات التأريخية والآثارية والأنثروبولوجية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدر عن كلية التربية الاساسية - جامعة كركوك

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٨٧٩) لسنة ٢٠٢٥

E-MAIL : JOAHAS@UOKIRKUK.EDU.IQ

مجلة أرابخا

للدراسات التاريخية والاثارية والأنثروبولوجية

مجلة عملية محكمة تبحث في الدراسات التاريخية والاثارية والأنثروبولوجية

تصدر من كلية التربية الاساسية / جامعة كركوك

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٨٧٩) لسنة ٢٠٢٥

العدد: الثاني ١٤٤٨هـ/ ٢٠٢٦م

المجلد: الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

اعضاء هيئة تحرير المجلة

الاسم	الجامعة	الاختصاص	الدولة	صفته في هيئة التحرير
أ.م.د. عثمان فاضل عباس	جامعة كركوك	التاريخ الاسلامي	العراق	رئيس التحرير
أ.م.د. أميد اسعد عمر	جامعة كركوك	التاريخ الاسلامي	العراق	مدير التحرير
أ.د. عبدالله علي محمد	جامعة تكريت	الاثار / الدراسات المسمارية	العراق	عضواً
أ.د. رياض ابراهيم محمد	جامعة كركوك	الاثار / الاثار القديمة	العراق	عضواً
أ.د. زياد مهدي السلامين	جامعة محمد بن زايد للعلوم الانسانية	الاثار / اثار العرب القديمة	الامارات	عضواً
أ.د. عميدة محمد شعلان	جامعة صنعاء	الاثار / اللغات القديمة	اليمن	عضواً
أ.د. عبدالله عبدالسلام صالح	جامعة الملك سعود	الاثار / الاثار الاسلامية	السعودية	عضواً
أ.د. محمد جميل احمد	جامعة بغداد	علم الاجتماع / الأنثروبولوجيا	العراق	عضواً
أ.د. عبدالواحد مشعل عبد	جامعة بغداد	علم الاجتماع / الأنثروبولوجيا	العراق	عضواً
أ.د. عبدالله صالح علي	جامعة تكريت	علم الاجتماع / الأنثروبولوجيا	العراق	عضواً
أ.د. خليل خلف حسين	جامعة تكريت	التاريخ الاسلامي	العراق	عضواً
أ.د. احمد محمود علو	جامعة سامراء	التاريخ الحديث والمعاصر	العراق	عضواً
أ.د. ابتهال عادل ابراهيم	جامعة كركوك	التاريخ القديم	العراق	عضواً
أ.د. حمد محمد سراي	معهد الشارقة للتراث	التاريخ القديم	الامارات	عضواً
أ.د. حيدر قاسم مطر	بيت الحكمة – بغداد	التاريخ الاسلامي	العراق	عضواً
أ.د. الياس احمد كريم	جامعة كركوك	التاريخ الاسلامي	العراق	عضواً
أ.د. ايناس نور الدين رمضان	جامعة المنوفية	التاريخ / العصور الوسطى	مصر	عضواً
أ.د. ابراهيم حسين حمد	جامعة كركوك	الاثار القديمة	العراق	عضواً

هيئة التحرير

رئيس هيئة التحرير

أ.م.د. عثمان فاضل عباس

مدير التحرير

أ.م.د. أميد اسعد عمس

مقوم اللغة العربية

م.د. ولاء عبدالكريم ناص

مقوم اللغة الانكليزية

أ.م.د. ولاء هاشم محمد

التنسيق والتنضيد

م.م. بان عبدالله جمعة

التصميم

م.م. الآن هيوا صابر

قواعد النشر في المجلة

١. تقبل المجلة الابحاث في مجال التاريخ والاثار واللغات القديمة والانثروبولوجيا.

٢. ان لا يكون البحث قد تم نشره سابقاً او قيد النشر في مجلة اخرى او مستلاً من ملكية فكرية لباحث آخر وعلى الباحث ان يقدم تعهداً خطياً بذلك عند تقديم البحث للمجلة.

٣. يجوز نشر البحث إذا كان مستلاً من اطروحة دكتوراه او رسالة ماجستير بشرط الا تكون هذه الرسائل منشورة او مقبولة للنشر، ويجب الاشارة الى ذلك في الصفحة الاولى وقائمة المصادر والمراجع والافصاح عن ذلك في الاقرار والتعهد. (يرفق مع البحث)

٤. تقدم البحوث الى المجلة باللغات (العربية – الانكليزية).

٥. تطبع البحوث بنظام (Word) على ورق A4 وبحجم (١٤)، ومسافة (١,١٥) بين الاسطر وبخط (Simplified Arabic) للغة العربية و(Times New Roman) للغة الانكليزية.

٦. يجب ان يحتوي البحث على ملخص باللغتين العربية والانكليزية على ان لا يزيد عن ١٠٠ كلمة، وتوضع في قالب الملخص العربي والإنكليزي وبخط ١٢ (Simplified Arabic) للغة العربية و 12(Times New Roman ، وفي حال زيادة كلمات الملخص وخروج النص عن القالب الى الصفحة التالية من حق المجلة حذف أجزاء من الملخص بما يتناسب وفق القالب.

٧. ان يحتوي على كلمات مفتاحية تتعلق بموضوع البحث، وعلى ان لا تزيد عن خمسة كلمات.

٨. يُكتب اسم الباحث او الباحثين باللغة العربية والانكليزية، كما تذكر عناوين وظائفهم (الجامعة – الكلية – القسم) ومراتبهم العلمية والبريد الالكتروني ورقم الهاتف.

٩. يلتزم الباحث بصورة جدية في الاخذ بتعديلات ومقترحات الخبراء واسلوب النشر في المجلات العلمية، ويمنح مدة اقصاها ١٠ ايام لإجراء التعديلات المطلوبة إن وجدت، ومن حق هيئة التحرير بعد ذلك الغاء الملف البحثي في حال تجاوز المدة المذكورة اعلاه.

١٠. يلتزم الباحث بدفع الاجور المالية المترتبة على اجراءات التقويم العلمي واللغوي في حال طلبه بسحب البحث من المجلة وعدم متابعة اجراءات النشر.

١١. تطبع الجداول والاشكال والرسومات والخرائط داخل المتن وترقم حسب ورودها في البحث وتزود بعناوين ويشار الى كل منها بالتسلسل، وان تكون عالية الدقة.

١٢. تدون المصادر والمراجع وفق نظام الجمعية الامريكية لعلم النفس (APA) –يكون المصدر او المرجع داخل متن البحث–، مثال (العراقي، ٢٠٠٨: ٢١٤) **بشكل آلي وليس يدوي**، وتضاف التعليقات على شكل هوامش بين قوسين مثال: [١] ، [٢]...الخ ، وترد متسلسلة في نهاية كل صفحة من البحث، وتثبت والمراجع **آلياً وفق النظام دون اضافتها يدوياً** ويتم تدقيق ذلك من المجلة (حلمي محروس اسماعيل. (١٩٩٧). الشرق العربي القديم وحضارته. الاسكندرية، مصر: مؤسسة شباب الجامعة).

١٣. عدم إضافة مختصر (ص، ج) حين يتم إضافة رقم الصفحة، ويتبع المنهج على سبيل المثال (١٥٩/٢).

١٤. على الباحث دفع اجور النشر البالغة (١٢٥,٠٠٠) مائة ألف دينار عراقي، وإذا زاد عدد الصفحات عن (٢٥) صحيفة يتم استيفاء الاجور بواقع (٤,٠٠٠) اربعة الاف دينار عراقي لكل صفحة.

١٥. تكون اجور نشر البحوث للباحثين من خارج العراق مجانية دون اي تكلفة مالية.

١٦. بعد استيفاء الشروط أعلاه ترسل مسودة البحث، والتعهد الفكري للباحث، واستمارة المعلومات، ونسخة من الاستلال الالكتروني (على ان يكون مختوم وموقع من وحدة الاستلال الالكتروني من احدى الجامعات الحكومية) إلى البريد الالكتروني joahas@uokirkuk.edu.iq .

١٧. للمزيد من الاستفسار التواصل مع الرقم (٠٠٩٦٤٧٧٠٠٠٠٣١٩٤).

المحتويات

اسم الباحث	عنوان البحث	الصفحات
أ.د. سعاد هادي حسن الطائي	الدور الاداري والسياسي للوزير چينغاي (ت ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢م)	١٤-١
أ. مشارك. د. مبروك محمد يحيى الذماري د. حسن لطف احمد الرصاص	نقشان شاهديان لأولاد الامام المهدي (صاحب المواهب) بذمار- اليمنية من القرن (١٢هـ/١٨م) دراسة اثرية فنية مقارنة	٣٨-١٥
أ.م.د. جعفر أصغر عباس	واقعة قولالي (١٨٥٩م)	٧٨-٣٩
أ.م.د. سياف عبد حسين	الحالة الاجتماعية للمرتحلين من بلاد الشام الى مصر في العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)	١١٠-٧٩
أ.م.د. جاوان حسين فيض الله	المسألة الكردية وأثرها في رسم سياسة العراق الخارجية (١٩٦١-١٩٧٥)	١٣٧-١١١
أ.م.د. عماد حمد صالح عبد الحليم	تطوير سكك الحديد في الدول الغربية وأثره على الامبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر والعقدين الأول والثاني من القرن العشرين	١٧٣-١٣٨
أ.م. دەشتی إسماعيل اومر	الأرشيف العثماني (من خزائن السلطان إلى أرشيف الدولة)	١٩٧-١٧٤
أ.م. نورمان نوری عبدالله أ.م. دەشتی إسماعيل اومر	دور المصاهرة السياسية في إعادة تشكيل الخارطة الجيوسياسية لأوروبا في العصر الحديث (١٤٦٩-١٩١٤)	٢٢١-١٩٨
م.د. رشا عبد الصمد إسماعيل	العلاقات الإيرانية الإيطالية في عهد رضا شاه بهلوي (١٩٢٥-١٩٤١): دراسة في الأبعاد السياسية والاقتصادية والعسكرية	٢٥٢-٢٢٢
م.د. مثنى حاضر حسن	محبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأثرها على بقائه في السلطة	٢٧٤-٢٥٣
م.د. علي سامي فرحان منخي	النحت البارز للمعبودة اللات في مدينتي الحضر وتدمر دراسة فنية	٢٩٩-٢٧٥

م.د. أحمد شهاب أحمد كسار	موقف العلماء من الحياة الاجتماعية والسياسية في العراق في العصر العباسي الاول (١٣٢-٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٦م)	٣٠٠-٣٢٦
م.د. زهراء احمد عبد الزهرة	دور ليخ فاليسا في نقابة التضامن في بولندا ١٩٨٠-١٩٨١	٣٢٧-٣٦٨
م.د. عمار حسين مصطفى	القير واستخداماته في العراق القديم	٣٦٩-٣٩١
م.د. معاد إبراهيم محمد	نظام الالتزام الضريبي في تونس وآثاره الإدارية والاقتصادية والاجتماعية (١٧٠٥-١٨٣٧) دراسة تاريخية	٣٩٢-٤٢١
م.م. سامي حسن حمود أ.د هاشم صائب محمد الجنديل	صلح الحديبية (٦ هـ): الظروف، المفاوضات، النتائج السياسية	٤٢٢-٤٣٨
م.م. عامر عبود ادهام عكله	دور علماء العصر العباسي في ازدهار علوم الطب والفلك (١٣٢هـ-٧٥٠م/٢٣٢هـ-٨٤٧م)	٤٣٨-٤٦٤
م.م. عماد احمد حميد	عون الرفيق بن محمد ١٨٤١-١٩٠٥ دراسة في شخصيته وعلاقته بالدولة العثمانية	٤٦٥-٤٨٢
م.م. عتاب عماد داود سلمان	الاحوال الزراعية في المدن اليمنية من خلال كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي (٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م)	٤٨٣-٥٠٣
ضياء الحق مشعل شويش أ.د. اديب صالح عبد	نشأة وتكوين رالف بنش الأكاديمي في سياق التمييز العنصري بالولايات المتحدة الامريكية (١٩٠٤- ١٩٣٤)	٥٠٤-٥١٨

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: أ.د. سعاد هادي حسن

الجامعة: بغداد

الكلية: تربية ابن رشد للعلوم الإنسانية

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:suaadhadi9@gmail.com

الهاتف: ٠٧٨٠٣٦٠٣٩٦١

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ١٠/ حزيران/٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٢٤/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (الامير، الرسائل، الوزير، المستشار، النبلاء، محاكمة، الاطباء، قبيلة)

عنوان البحث

الدور الاداري والسياسي للوزير چينغاي
(ت ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢م)

ملخص البحث

اسهم عدد من الوزراء والمستشارين بدور كبير في ادارة الامبراطورية المغولية وكان لهم اثر كبير في منغوليا وخارجها ،واسهم دورهم السياسي في تغيير كثير من القرارات المصيرية .ويعد الوزير چينغاي (ت ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢م) في مقدمتهم ،لذا نال أهتمام جنكيزخان (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٧م) ،ومن بعده اوكتاي خان(٦٢٦-٦٣٩هـ/١٢٢٨-١٢٤١م) ،و كيوك خان(٦٤٤-٦٤٧هـ/١٢٤٦-١٢٤٩م).اما مشكلة البحث فتتجلى في بيان سياسة الوزير چينغاي في الدولة المغولية .تكمن اهداف البحث في بيان اهمية الدور السياسي والاداري للوزير چينغاي وتسليط الضوء على نسبه ،ودعم جنكيزخان له وارتقائه مناصب مهمة في الدولة.

اما اهمية البحث فتتجلى في بيان دوره السياسي والاداري في عهد اوكتاي خان وارتقائه اعلى المناصب في عهد كيوك خان، اذ حظي بدعمه وكان له تأثير كبير عليه. اتبع البحث منهجية تحليل الروايات التاريخية ومناقشتها.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Prof. Dr. Suaad Hadi Hassan
University: Baghdad
College: Education, Ibn Rushd for Humanities
Department: History
Country: Iraq
Email: suaadhadi9@gmail.com
Phone: 07803603961

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 10/ June / 2026
Acceptance Date: 24 / June / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Prince, letters, minister, counselor, nobles, trial, doctors, tribe)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Administrative and Political Role of Minister Jinghai (D. 650 AH/ 1252 AD)

Abstract

Several ministers and advisors played a significant role in the administration of the Mongol Empire,exerting considerable influence both within Mongolia and beyond.Their political roles contributed to the shaping of many crucial decisions. Foremost, among them was Minister Jinghai (D.650 AH/1252 AD),therefore, he gained the attention of Genghis Khan(D.624AH/1227AD), followed by Ögedei Khan(626-639 AH/1228-1241 AD)and Güyük Khan (644-647 AH /1246-1249 AD).The research problem lies in explaining the policies of Minister Jinghai in the Mongol state.The research aims to demonstrate the importance of Jinghai's political and administrative role, highlighting his lineage, Genghis Khan's support for him,and his rise to prominent positions within the state. The research's significance is further emphasized by examining his political and administrative role during the reign of Ögedei Khan, and his ascent to the highest ranks during the reign of Güyük Khan, where he enjoyed his support and had a significant influence on him. The research followed a methodology of analyzing and discussing historical accounts.

المقدمة

اهتم جنكيز خان (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٧م) ومعظم خانات المغول باختيار العناصر الكفوءة واصحاب الخبرة الادارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والعمرانية للإسهام في بناء دولتهم المترامية الاطراف ولاسيما بعد الحملات التوسعية التي قادوها من بعده، مما يؤكد عدم اهتمامهم بديانة، او قومية الشخص بقدر ما يمتلكه من امكانيات ومهارات وخبرات ولاسيما الادارية والعسكرية والاقتصادية والعمرانية.

سلط البحث الضوء على الوزير والمستشار چينغاي (ت ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢م) الذي أسهم بدور فاعل في ادارة الامبراطورية المغولية منذ عهد جنكيز خان، فكان له اثر كبير فيها واستمر بدوره هذا في عهد اوكتاي خان (٦٢٦-٦٣٩هـ/١٢٢٨-١٢٤١م) الذي جعله مستشارا ووزيرا له ووثق به ومنحه صلاحيات واسعة.

اشار البحث الى موقف توراكينا خاتون (٦٣٩-٦٤٤ هـ/ ١٢٤١-١٢٤٦ م) ارملة اوكتاي خان من الوزير چينغاي، اذ حاولت اقصائه عن منصبه وابعاده عن البلاط المغولي، بسبب عدم تأييده لها، غير انه سرعان ما تمكن من استعادة مكانته ومنصبه بعد تولي كيوك خان (٦٤٤-٦٤٧هـ/١٢٤٦-١٢٤٩م) الحكم وحظي بدعمه وثقته.

و تضمن البحث موقف الوزير چينغاي من منكو خان(٦٤٩-٦٥٨هـ/١٢٥٠-١٢٥٩م) ورفضه توليه الحكم مساندا في ذلك ارملة كيوك خان اوغول غايميش(ت ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢م) وابنائها ،فتآمروا ضده محاولين اقصائه ،غير انه سرعان ما كشف امرهم واحالهم للتحقيق واصدر حكم الاعدام بحقهم جميعا وفي مقدمتهم الوزير چنيغاي سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٢م بسبب خيانته له.

اولاً: نبذة تاريخية عن الوزير چينغاي (ت ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢م):

چينغاي ،او " چينقاي" –تشنكاي–, Chingai ، تعود اصوله الى قبيلة الكراييت، وذُكر انه اويغوري (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٢٥)؛ (بارتولد ،١٩٨١، ص٥٥٧، ٦٧٣–٦٧٤)؛ (العريني ،١٩٨٦، ٢٠٥)؛ (بياني ،٢٠١٣، ص١٣٠) ، ديانته المسيحية النسطورية (بارتولد ،١٩٨١، ص٥٥٧)؛ (العريني ،١٩٨٦، ص١٦٢–١٦٣،ص ١٨٨)؛ (الصياد ،١٩٨٠، ص١٩٩)؛ (بياني ،٢٠١٣، ص١٠٧) ،اصبح فيما بعد على رأس الإدارة المدنية للإمبراطورية (بارتولد ،١٩٨١، ص٥٥٨) ، نال چينغاي ثقة جنكيزخان (ت٦٢٤هـ/١٢٢٧م) فأصبح مستشار الإمبراطورية المغولية، فما من مرسوم يصدر عن الصين الشمالية إلا مُقترناً بخطه، اذ كان مُلماً بالكتابة باللغة الأويغورية ومُتقناً لها (العريني ،١٩٨٦، ص١٦٣).

ثانياً: الدور الاداري والسياسي للوزير چينغاي في عهد اوكتاي خان (٦٢٦–٦٣٩هـ/١٢٢٨–١٢٤١م):

كان چينغاي موضع ثقة اوكتاي خان (العريني ،١٩٨٦، ص١٦٢) ،وكان الوزير الاعظم له (الصياد ،١٩٨٠، ص١٩٦) ؛ (بياني ،٢٠١٣، ص١٠٧)، ومستشارا له (الصياد ،١٩٨٠، ص١٩٩) ، واصبح من أهم أركان دولته المشهورين (الهمذاني ،١٩٨٣، ص١٥٦) ، وبذل قصارى جهده لتعزيز الديانة المسيحية بين المغول وأقصاء المسلمين والبوذيين من المناصب المهمة في الامبراطورية المغولية (بياني ،٢٠١٣، ص١٣٠)

وسأل أوكتاي خان أخاه چغتاي خان (ت ٦٣٨هـ/١٢٤٠م) يوماً قائلاً له:" أوزيرك أفضل ام وزيري؟! ... فأجاب جغتاي لابد وان يكون چينكقاي، – چينغاي – أفضل" (الهمذاني ،١٩٨٣، ص١٥٦)

هذه المفاضلة بين الوزير چينغاي ووزير جغتاي خان ليست مطلقة تماماً فكل من اوكتاي خان وجغتاي خان يرى ان وزيره أفضل من الآخر، غير أن جغتاي خان لم يرد هنا أن يحط من شأن الوزير چينغاي الذي كان فعلاً يتمتع بكفاءة كبيرة لا تقل عن كفاءة وزيره.

وفي عهده ارسل اليه براق الحاجب(ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) قبل وفاته ابنه ركن الدين خواجه لخدمته ، وقبل أن يصل الى بلاطه وصله خبر وفاة أبيه براق الحاجب سنة ٦٣٢ هـ /١٢٣٤م غير أن ركن الدين خواجه استمر في مسيرته لبلاط اوكتاي خان ، وعندما وصل اليه استقبله أحسن استقبال باذلاً له كل أنواع مرحمته وعاطفته ونظراً الى أنه كان سباقاً بالوصول الى خدمته قبل غيره وامتثاله بين يديه ،

أمر بمنحه حكم امارة كرمان في ٢٨ شعبان سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م ، وجعل وزيره چينغاي مربياً له (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص٢٣٦) ؛ (ابن العبري ،١٩٥٨، ص ٢٥٧)؛ (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٩٣) ؛ (ابن الفوطي،١٩٦٣،ق٣،ج٤،ص٣٩٨)؛ (الشيرازي ،١٩٢٧،ج٤،ص١٢٨)؛ (ميرخواند،١٨٢٣،ج٥،ص١٧٣)؛ (خواندمير ،١٩١٤، ج٣ ،ص٣٣١)؛ (الصياد ،١٩٨٠، ص١٩٨) ؛ (العزاوي ،١٩٣٥،ج١،ص١٤١).

كما توضح دور چينغاي عندما ساعد الامير كوركوز(٦٣٧-٦٤١هـ/ ١٢٣٩-١٢٤٣م) في تحقيق طموحاته و ما حظي به من دعم واهتمام على يديه (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٢٤)؛ (اقبال ،٢٠٠٠، ص١٨٧) (واكيم ،د.ت، ص١١٩)،إذ رشحه لمرافقة والي خراسان جنتيمور (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) عند توجهه الى مدينة اوركانج فلازمه هناك (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٢٤)؛ (اقبال ،٢٠٠٠، ص١٨٧) ؛ (واكيم ،د.ت، ص١١٩). نظراً لأنتمائهما لقبيلة واحدة (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٢٥)؛ (بارتولد ،١٩٨١، ص٦٧٣، ٥٥٧-٦٧٤)؛ (العريني ،١٩٨٦، ص٢٠٥).

كان الشعور القومي بين الأويغور بمختلف طوائفهم الدينية أقوى بكثير من الشعور الديني، وخير دليل على ذلك الموقف الأيجابي الذي اتخذه وزير أوكتاي خان الأويغوري النصراني چينغاي حيال الأمير كوركوز الأويغوري البوذي قبل اعتناقه الاسلام وحمايته له عندما تعرض للاساءة على يد عدد من الأمراء المغول على الرغم من انه كان على خلاف مع عقيدته الدينية(بارتولد ،١٩٨١، ص٥٥٧)

ونرى ان الامر هنا كان حفاظاً على المصالح السياسية بين الطرفين وليس فقط مراعاةً للشعور القومي.

أما علاقته مع الأمير باتو خان(ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦ م)، فلم تكن ودية،وإتضح هذا الأمر عن طريق مُجريات التحقيق الذي خضع له ادكو تيمور،أحد أتباع الأمير باتو خان بسبب نزاعه مع الأمير كوركوز الذي تولى ولاية خراسان للسنوات(٦٣٧-٦٤١هـ/ ١٢٣٩-١٢٤٣م) وبعد وفاة الامير نوسال سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٦٩-٧٠) .

وهذا يؤكد لنا مرةً أخرى أن خصوم الأمير كوركوز وفي مقدمتهم الامير ادكوتيمور كانوا جادين فعلاً بتصفيته نهائياً بسبب الخطر الذي شكله على مصالحهم، على الرغم من محاولة أوكتاي خان للصلح بينهما.

فقرر چينغاي وغيره ممن حضر مجلس الخان أوكتاي عرض ما حصل بين المتخاصمين من أحاديث وأحداث على شكل تقرير لغرض تقديمه لأوكتاي خان مرةً ثانية ، فجلس الخان للاستماع

لأقوالهم للمرة الثانية ، وبدأ بسؤال كل طرف بنفسه ، فركع عدد من ابناء كلبلات وهم من اتباع الامير ادكوتيمور امام الخان مُعتذرين منه عما بدر منهم (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٣١).

ثم صرخ اوكتاي خان قائلاً: "ما مبرر وجودكم بين الخصوم؟ تقدموا وقفوا الى جانب حملة السلاح. وهكذا حسم الحديث" (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٣١)

ثم وجه التهمة الى الامير ادكوتيمور واصحابه قائلاً لهم: " انت من اتباع باتو كما يتضح من كلامك ، وسأرسلك اليه ، وهو يعرف كيف يجادلك" (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٣١)؛ (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٦٩-٧٠)، اما چينغاي وزير اوكتاي خان خاطب الامير ادكوتيمور قائلاً له : " يقول ادكوتيمور ان حاكم باتو هو القاآن .....ان دولة الملك حاكم الارض القاآن يعلم ما هو اللازم" (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٣١).

في حين أشار الهمذاني الى ان چينغاي قال: " إن القاآن هو الحاكم على باتو، و من هو هذا .... الذي يحتاج الملوك الى التشاور بشأنه ؟؟!!....ان القاآن وحده يعرف الجزاء" (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٧٠)

وبعد أن ثبتت التهمة على الأمير ادكوتيمور واتباعه (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٧٠) ، أمر أوكتاي خان بالعفو عنه (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٣١)؛ (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٧٠) ؛ (بارتولد ،١٩٨١، ص٦٧٤) ، وربما يكون أمره هذا اكراماً للامير باتو خان ومن انه سيعاقبه بما يستحق ، فضلاً عن رغبته في حل هذه القضية سلمياً نظراً لتردي الأوضاع في خراسان.

وبذلك انتهت هذه المحاكمة بعقد الصلح بين الطرفين دون اراقة الدماء ، مُعطياً الحق لصالح الامير كوركوز بفضل الجهود الكبيرة التي بذلها اوكتاي خان (بارتولد ،١٩٨١، ص٦٧٤)

ومن المهم ان نذكر هنا انه وبعد عودة الامير كوركوز الى خراسان (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٣٣) طلب اتباعه ممن كان معظمهم من امراء خراسان واعيانها وممن رافقوه في رحلته الى اوكتاي خان ان يمنحهم ما منحه اياهم الخان ووفق ما جاء في الامر الملكي من حقوق وتكريم لهم (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٣٣) غير ان الامير كوركوز اتفق سراً مع چينغاي وزير اوكتاي خان على عدم منحهم أي شئ (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٣٣) ،قائلاً احدهما للآخر: "ائذا حصل كل واحد منهم على نصيبه فماذا يبقى له " (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٣٣).

وبناءاً على هذا الاتفاق لم يعط الامير كوركوز أي احد منهم حقه مما ورد في الامر الملكي من بايزات [١] وغيرها (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٣٣)

لا يُعدُ تصرفهما هذا حكيما وعادلا بحق هؤلاء الذين ناصروه ضد خصومه، فكان من الافضل اعطاؤهم ما منحه اياهم اوكتاي خان اكراماً لهم ولموقفهم الايجابي معه. ولعل هذا احد الاسباب التي دفعتهم فيما بعد للتخلي عنه عندما حاول خصومه التخلص منه للمرة الثانية .

كما ان هذا الامر يُعد وجهاً من اوجه الفساد الاداري في الدولة، وربما كان واحداً من الاسباب المهمة التي أدت الى محاكمة الوزير چينغاي لاحقاً.

ثالثاً: موقف توراكينا خاتون (٦٣٩-٦٤٤ هـ/ ١٢٤١-١٢٤٦ م) من الوزير چينغاي:

تقربت فاطمة خاتون حاجبة توراكينا خاتون (٦٣٩-٦٤٤ هـ/ ١٢٤١-١٢٤٦ م) من چينغاي وزير اوكتاي خان واصبحت من اهم حفاظ اسراره وموضع ثقته وفرضت سيطرتها عليه، وتقرب اليها كبار رجال الدولة طالبين ودَّها ومساعدتها لهم على تذليل الصعاب غير ان السعايات والوشايات كثرت حوله (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص٢٢٦)

وبعد وفاة أوكتاي خان سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م حاولت ارملته توراكينا خاتون التي تولت ادارة امور البلاد بعده وبشكل مؤقت تحجيم نفوذه وتصفيته بسعايةٍ من عدد من الحاقدين (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص٢٢٢-٢٢٣، ج٢، ص١٣٨)؛ (الهمذاني ،١٩٨٣، ص١٧٦-١٧٧)؛ (اقبال ،٢٠٠٠، ص١٧٣) ؛ (بارتولد ،١٩٨١، ص٦٧٥) ؛ (الصياد ،١٩٨٠، ص١٩٥-١٩٦)؛ (العريني ،١٩٨٦، ص١٨٨-١٨٩) ؛ (بخيت ،٢٠١٠، ص١٧١).

اذ ارسلت توراكينا خاتون سفيرها الى بلاد الخطا لاستدعاء الصاحب محمود يلواج؛ ليقتص لها من الوزير چينغاي (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص٢٢٢-٢٢٣). وسرعان ما وصلت اخبار ذلك الى الوزير

---

(١) بايزات :مفردها بايزة ،هي من اعظم الاوسمة واهمها ، وهي عبارة عن لوحة من الذهب، او الفضة ،او الخشب وذلك حسب رتبة المهداة اليه، وهي تشبه المدالية في العصر الحديث، وتهدى البايزة الى من يثق بهم المغول من كبار رجال الدولة، ويتمتع حاملها بامتيازات عدة فله الطاعة على كل من في دولة المغول، ومن اهمها ما كانت تزينه صورة الاسد، وهذه خاصة بالملوك، وتهدى بايزات اصغر حجماً لاصحاب الرتب المتوسطة في الدولة ويُكتب عليها اسمه، وكانت هناك بايزات خاصة لرسل البريد مستديرة الشكل ويُكتب عليها بايزة الخزانة، اما بايزة رسل البريد الرسمي فكانت مستطيلة الشكل منقوش عليها صورة القمر، وهناك انواع اخر تُهدى للامراء وابناء المغول والخواتين. (الهمذاني ، ٢٠٠٠ ، ص٣٣٢-٣٣٣)؛ (العزاوي ،١٩٣٥ ، ج١، ص٢٣٦)

الذي سرعان ما ادرك سبب استدعائها له، فأسرع هارباً للنجاة بنفسه واللجوء عند ابنها كوتان ، لطلب الامان منه ومساعدته (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص٢٢٢-٢٢٣ ، ج٢،ص١٣٨؛ الهمذاني ١٩٨٣، ص١٧٦-١٧٧). كما انها طالبته بتسليمه لها غير انه رفض ذلك (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص٢٢٢-٢٢٣، ج٢، ص١٣٨)؛ (الهمذاني ،١٩٨٣، ص١٧٦-١٧٧) ؛ (اقبال ،٢٠٠٠، ص١٧٣) ؛ (بارتولد ،١٩٨١، ص٦٧٥) ؛ (الصياد ،١٩٨٠، ص١٩٥-١٩٦) ؛ (العريني ،١٩٨٦، ص١٨٨-١٨٩، ١١٢) ؛ (بخيت ،٢٠١٠، ص١٧١)

رابعاً: الدور السياسي والاداري للوزير چنيغاي في عهد كيوك خان (٦٤٤-٦٤٧هـ/١٢٤٦-١٢٤٩م):

عندما تولى كيوك خان الحكم اصبح چنيغاي مستشارا للامبراطورية (العريني ،١٩٨٦، ص١٩٢) ومن أهم أركان دولته المشهورين (الهمذاني ،١٩٨٣، ص١٥٦)، وقربه اليه (اقبال ،٢٠٠٠، ص١٧٥)؛ (الصياد ،١٩٨٠، ص١٩٩) ،وأرتفع شأنه عنده، وأغدق عليه رعايته وعطفه ، وقلده منصب الوزارة مرةً أخرى (الهمذاني ،١٩٨٣، ص١٧٩، ١٨٤)؛ (اقبال ،٢٠٠٠، ص١٧٥) ؛ (الصياد ،١٩٨٠، ص١٩٨-١٩٩). وأسهم چينغاي أيضاً في تشجيع كيوك خان على الأهتمام بالمسيحيين ومراكز عبادتهم، فارتفع شأنهم في عهده (ابن العبري ،١٩٥٨، ص ٢٥٧) ؛ (الهمذاني ،١٩٨٣، ص١٨٨)؛ (الرمزي ،١٩٠٨، ج١، ص٣٩٧) (اقبال ،٢٠٠٠، ص١٧٥) ؛ (الصياد ،١٩٨٠، ص١٩٩) ،كما كانت توراكينا خاتون تدين بالمسيحية؛ فعهدت بتربية ابنها كيوك خان ورعايته للأمير قُداق المسيحي (اقبال ،٢٠٠٠، ص١٧٥) ؛ (الصياد ،١٩٨٠، ص١٩٩).

كما وجد نفسه فيما بعد تحت تأثير وزير مسيحي هو چينغاي لذا كان من الطبيعي أن يُحسن إلى النصارى دون سواهم من أتباع الديانات الاخرى. لذا زار النصارى بلاطه من جميع الأنحاء، من بلاد الشام والروم وبغداد وروسيا؛ وكان بينهم ممثلو جميع الطبقات، من رجال الدين ومن الأطباء الذين فاق عددهم عدد رجال الدين،و ترك كيوك خان أمر الحل والعقد في الدولة في يدي قداق و چينغاي (بارتولد ،١٩٨١، ص٦٧٨).

بعد أن وصل كيوك خان إلى منصب الحكم، أسهم كل من قداق و چينغاي على استمالته لمساعدة النصارى، فأصبح الرعايا المسيحيون في البلاد الاخرى كالأرمن والكرج والسريان والروس موضع رعايته واهتمامه، وكان لأطبائهم نفوذ كبير في البلاط، وانتشرت بعض العادات المسيحية بين المغول، وعلى أساس هذه المشاعر، عقد كيوك خان تحالفاً مع الأرمن ربما كان الغرض منه غزو الشام ومصر ، كما كان عاجزاً عن إدارة دفة الحكم بنفسه وذلك بسبب ضعفه وإدمانه للخمر؛ فتولى كل من

قـداق و چينغـاي إدارة شـؤون الـبلاد نيابـةً عنـه (اقبـال ،٢٠٠٠، ص١٧٥) ؛ (الصـياد ،١٩٨٠، ص١٩٩)

واشار الجويني قائلاً:" ولم يجرؤ رجاله والمقربون منه على الدنو منه، ولم يستطيعوا الكلام وهم في مواضعهم لعرض رغباتهم، حتى القادمون من بلاد بعيدة يتهيبون للقائه، ويتمنون أن يعودوا من حيث أتوا من غير أن يلقوه، والذي طبعه بهذه الطباع ورسخها في تربيته كالنقش في الحجر قداق المسيحي العقيدة، فقد كان مربيه منذ نعومة اظفاره، فعلمه أن يكون شديداً قاسياً، وأضاف چينقاي على هذه الشدة التي تلقنها الخان من القساوسة والنصارى، فعلمه حسن الاستقبال أيضاً.....، وكان أطباؤه الذين يلازمونه نصارى غالباً، ...." (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص٢٣٧-٢٣٨)

كما استمر كيوك خان بعد توليه حكم الامبراطورية المغولية سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦م برعاية قطب الدين ابي الفتح وكان يرى أنه من مصلحة المغول هو تعيينه على إمارة كرمان ، و كان چينغاي هو مربي ركن الدين خواجة مبارك والمقرب منه لذا كف كيوك خان يده عنه ، ومنحه حق التصرف في جميع نواحي كرمان وادارتها على ان يُرسل اليه الضرائب والدواب عن طريق الأمراء والموظفين المكلفين بذلك (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١١٤).

ونرى أن كيوك خان أبقى على ركن الدين خواجة في منصبه احتراماً وتقديراً للوزير چينغاي ولمكانته الادارية والسياسية في الدولة.

خامساً: تآمر الوزير چنيغاي ضد منكو خان (٦٤٩-٦٥٨هـ/١٢٥٠-١٢٥٩م) ومحاكمته واعدامه سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢م:

أمر الأمير باتو خان أن تفوض أمور الدولة بعد وفاة كيوك خان إلى أرملته اوغول غايميش(ت ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢م) ، إذ بعث لها رسولاً حاملاً معه رسالةً اليها يأذن لها فيها بالتصرف في أُمور الممالك المغولية حتى يتفقوا بالاجماع على اختيار الشخص المناسب ليتولى الحكم، وجعل الوزير چينغاي مساعداً لها لادارة دفة الحكم (ابن العبري ،١٩٥٨، ص ٢٥٨-٢٦١) ؛ (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص١٤٦)؛ (الهمذاني ،١٩٨٣، ص١٨٦) ؛ (خواندمير ،١٩١٤،ج٣،ص٥٨-٥٩) ؛ (اقبال ،١٩٨٩، ص١٥٦) (بروكلمان،١٩٦١،ج٢،ص٢٦٩)؛ (بارتولد ،١٩٨١، ص٦٨١) ؛ (العزاوي،١٩٣٥،ج١،ص١٤١)؛ (فهمي ،١٩٨١، ص١٠٦).

وفي هذه المدة كانت أوغول غايميش وأبناؤها يتولون زمام الحكم، اذ كانت تميل الى قضاء معظم وقتها مع رجال الدين، وكانت على خلاف دائم مع ولديها اللذين كانا يتصرفان وفق أهوائهما، لهذا كان

الأمراء المغول يحكمون ويتصرفون على هواهم، ويصدرون الأوامر ويُحررون الرسائل من غير إستشارة أحد منهم، أما وجهاء القوم كانوا يميلون نحو الأمراء وفق ما تمليه عليهم مصالحهم، لهذا ازدادت الفُرقة بين الأم وولديها ولاسيما بعد تدخل بعض من الأصدقاء والمقربين بينهم، فابتعدوا عن جادة الصواب بحيث أصبح هناك ثلاثة حكام في وقتٍ واحد، وفشل الوزير چينغاي الذي كان مساعداً لهم في الحكم في الإصلاح بينهم ورفضهم لسماع نصائحه لهم، وأصبح عاجزاً عن كيفية تصريفه للامور، اذ استبد الابنان بأرائهما الخاطئة، وابتعدت أمهما عن أهل الرأي والصواب (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص٢٤٢).

وعندما وافق الجميع على تعيين منكو خان على ان يبقى الحكم بأيديهما حتى يحين موعد الاجتماع الرسمي (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص٢٤٢) ، وأرسلوا إليهم رسولاً يؤكد لهم بما ان الوزير چينغاي محل الاعتماد منذ زمن طويل وله القدرة على التصدي للمعضلات وترتيب المصالح وبقي في خدمة الدولة فليكتب المرسوم الذي اتفقوا عليه (الجويني ،١٩٨٥، ج١، ص٢٤٢).

اما اوغول غايميش وابنها خواجه اللذان لم يصلا الى معسكر منكو خان فبعث الامراء المغول لهما برسائل عدة محاولين اقناعهم بالحضور بأقصى سرعة لتسويغ موقفهما والدفاع عن نفسيهما (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٢١٢) ؛ (الطائي ،٢٠١٤، ص٧٥) ، وتضمنت واحدة من هذه الرسائل التالي:" اذا لم يكن لكما دور المشاركة في هذه المؤامرة ، فإن سعادتكما تكون في المبادرة بالمجئ الى الحضرة" (الجويني ،١٩٨٥، ج٣، ص٢١٧) ؛ (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٢١١).

فبعثت مع هذا الرسول رسالةً تقول لهم فيها: " انكم معشر الامراء الانجال قد تعهدتم وقدمتم وثيقة خطية بأن يظل الحكم دائماً في اسرة اوكتاي قاآن، وألا تخالفوا اولاده، ولكنكم الان قد نقضتم العهد، ولم تنفذوا هذا الكلام" (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٢١١) ، فاثارت هذه الرسالة غضب منكو خان فأمر بقتلها وقذفها في البحر (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٢١٢) ؛ (الطائي ،٢٠١٤، ص٧٦).

وذكر الهمذاني ان منكو قال:"واذا كان قامان وقدان وچينقاي وبلا الذين كانوا امراء معسكر كيوك خان –ينادون بشخص ملكا او ملكة ،او يرفعونه الى العرش ،فيصير حسب قولهم ملكا او ملكة ،فسوف يرون ما يرون" (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٢١٢)

في حين ذكرت عدد من المصادر ان منكو خان بعث رسله للقبض على اوغول غايميش (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٢١٢) (اقبال ،٢٠٠٠، ص١٧٧) ، فاحضروها بعد ان خاطوا يديها بخيوط مصنوعة من جلد الثور، فلما وصلت الى معسكر منكو خان بعثوا بها مع والدة شيرامون حفيد اوكتاي

خان التي كانت تُدعى قداقاج خاتون الى معسكر سيورقوقتيتي بيكي، وهناك بدأ المحقق منكسار باستجوابها (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٢١٢) ؛ (الشيرازي،١٩٢٧ ،ج٤،ص٣٣٠).

وبعد ان انتهى من التحقيق معها في التهم المنسوبة إليها جميعها والتأكد من صحتها ، لفوها في لباد [١] وقذفوها الى البحر (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٢١٢) ، وكان ذلك سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م (الهمذاني ،١٩٨٣، ص٢١٢).

كما أمر منكو خان بالقاء القبض على شيرامون و چنيغاي (اقبال ،٢٠٠٠، ص١٧٧) . وعقد محكمة كبرى لمحاكمة الأمراء المتهمين بالتآمر ضده، وحاكم بنفسه أمراء البيت الحاكم وترك محاكمة الأمراء والنبلاء إلى" اليرغوجي " أي القاضي الأكبر منكسار نوين [٢] (بارتولد ،١٩٨١، ص٦٨٣)

وصدر قرار المحكمة بأعدام الوزير چنيغاي على يد دانشمند الحاجب في رمضان من سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢م بسبب اشتراكه مع اوغول غايميش للاطاحة بمنكو خان (بارتولد ،١٩٨١، ص٦٨٣).

---

(١) اللِّبد (اللبّاد): واللبَد مِنَ الصُّوفِ لِتَلَبُّدِهِ أَي مَا لَهُ ذُو شَعَرٍ وَلَا ذُو صُوفٍ ،وهو قماش غير منسوج على شكل حصيرة من شعيرات الصوف تتشكل في شروط الحرارة والرطوبة فتتفتح حراشفها، وتتسع؛ لتتشابك مع حراشف الشعيرات المجاورة، وتتماسك فتمنعها من التفكك والانزلاق، وتساعد الرطوبة على انكماشها، فتصبح أكثر تماسكاً واندماجاً، وعند إضافة الضغط مع الحرارة والرطوبة تصبح الكتلة الشعرية مفلطحة، وتتشكّل حصيرة أو شبكة من شعيرات شديدة الاندماج نسميها اللبّاد، وهو من أقدم أشكال الأقمشة . (ابن منظور ، ١٩٩٣ ،ج٣،ص٣٨٧)؛ (الزبيدي،١٩٧١،ج٩،ص١٢٨)؛ (مجموعة مؤلفين ،مج ١٦، ص٨٧٤).

(٢) نوين ،نويان:هي كلمة مغولية معناها رئيس تومان اي رئيس فرقة مكونة من عشرة آلاف رجل، اذ ان الامراء عند المغول اربع طبقات اعلاها نوين، وهو امير العشرة الاف ويُدعى امير تومان، اذ ان تومان تعني عندهم عشرة الاف، ثم امير الف ثم امير مائة ثم امير عشرة. (الهمذاني ، د.ت، مج٢ ،ج١ ،ص٢١٤)؛ (بارتولد ،د.ت، ص٢٠١)؛ (اقبال ، ١٩٨٩ ، ص٣٩١)؛ (الطائي ،٢٠١٤، ص١٦).

الخاتمة

تمخض عن البحث عدد من النتائج المهمة من أبرزها التالي:

١-اهتم خانات المغول بأختيار العناصر الكفوءة وممن يمتلكون الخبرات الادارية والسياسية والاقتصادية لتطوير امبراطوريتهم وبناء مؤسساتها.

٢- حظي چينغاي بمكانة مهمة في الدولة المغولية منذ عهد جنكيز خان فكان مستشارا ووزيرا له، واستمر دوره هذا في عهد اوكتاي خان الذي منحه صلاحيات واسعة فضلا عن اقراره على منصبه وزير ومستشارا له.

٣-حاولت توراكينا خاتون زوجة اوكتاي خان بعد تولت الحكم اقصاء چينغاي عن منصبه وتجريده من جميع الصلاحيات لعدم مؤازرته لها ورفضه التعاون معها.

٤-حظي چينغاي بمكانة مهمة في عهد كيوك خان الذي اعاده الى منصبه وزيرا له ومن المقربين له مما إثر في شخصيته وفي ادارة الدولة.

٥-وقف چينغاي بالضد من منكو خان ورفض توليه الحكم وآزر زوجة كيوك خان اوغول غايميش وابنائها، فأصدر منكو خان قرارا بإجراء التحقيق معهم وأصدر حكم الاعدام بحقهم سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م.

ملحق (١)

الاسرة المغولية وخانياتها

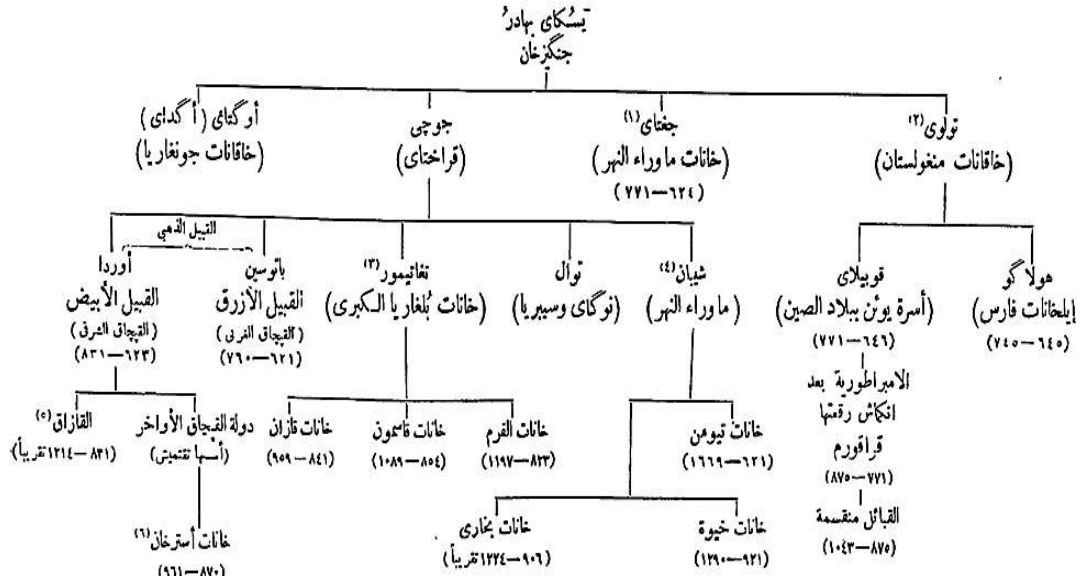

ينظر: (زامباور ،١٩٨٠، ص٣٥٩)

ملحق (٢)

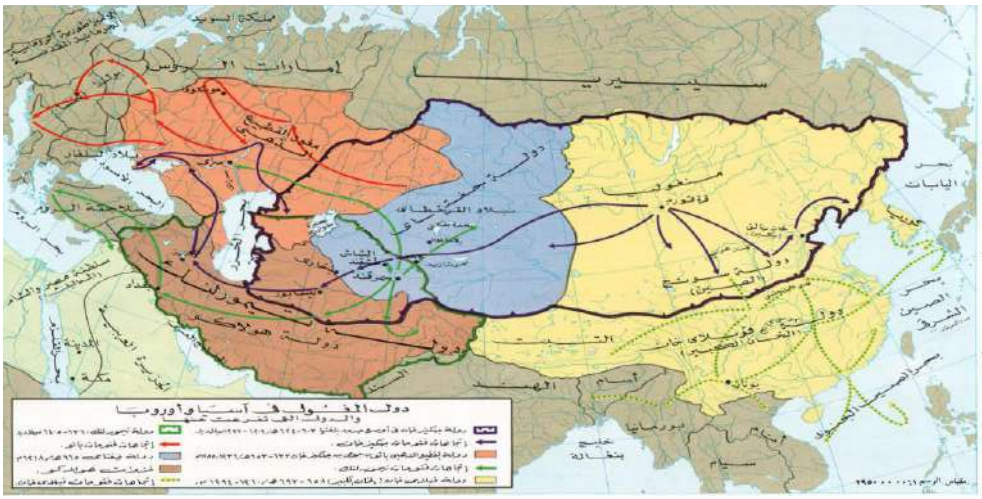

ينظر: (مؤنس ،١٩٨٧، ص٢٢٨)

المصادر والمراجع

اقبال، عباس. (١٩٨٩). تاريخ ايران بعد الاسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية(٢٠٥ هـ/٨٢٠م – ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥م) ، نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه: د. محمد علاء الدين منصور، راجعه: أ.د. السباعي محمد السباعي، دار الثقافة والنشر والتوزيع،القاهرة.

ـــــــــــ .(٢٠٠٠). تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة : د. عبد الوهاب علوب ، المجمع الثقافي، ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة .

بارتولد، فاسيلي فلاديميروفتش .(د.ت).تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة : د. أحمد سعيد سليمان ، راجعه : إبراهيم صبري ، مكتبة الانجلو المصرية ، مصر.

ـــــــــــ.(١٩٨١). تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، أشرف على طبعه قسم التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

بخيت، رجب محمود. (٢٠١٠). تاريخ المغول وسقوط بغداد ، مكتبة الايمان ، ط١، القاهرة.

بروكلمان، كارل . (١٩٦١). تاريخ الشعوب الاسلامية والامبراطورية العربية وانحلالها، ترجمة :نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين ، ط٣، بيروت.

بياني، شيرين. (٢٠١٣). المغول التركيبة الدينية والسياسية،ترجمه عن الفارسية: سيف علي، راجعه وقدم له: د.نصير الكعبي، شركة المطبوعات للتوزيع ،الناشر المركز الاكاديمي للابحاث، بيروت.

الجويني، علاء الدين عطا بن بهاء الدين محمد بن محمد (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م). (١٩٨٥). تاريخ جهانكشاي، نقله عن الفارسية وقارنه بالنسخة الانكليزية :د. محمد التونجي،دار الملاح للطباعة والنشر، سوريا.

خواندمير، غياث الدين بن همام الدين الحسني. (ت٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م) .(١٩١٤). تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد بشر، از انتشارات كتابخانه خيام ، خيابان ناصر خسرو ،تهران.

الرمزي.م.م. (١٩٠٨). تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، المطبعة الكريمية والحسينية ،ط١، اورنبورغ.

زامباور ،أدورد فون. (١٩٨٠). معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، اخرجه. د.زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمد ، واشترك في ترجمة بعض فصوله : د.سيدة إسماعيل كاشف وحافظ أحمد حمدي واحمد ممدوح حمدي، دار الرائد العربي، بيروت.

الزبيدي ، محب الدين أبو الفضل محمد مرتضى الحسيني. (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) .(١٩٧١). تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق:عبد الستار احمد فراج ،مطبعة حكومة الكويت،الكويت .

الشيرازي،اديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله .(ت في النصف الاول من القرن ٨هـ/١٤م) .(١٩٢٧). تاريخ وصاف الحضرة، تحرير:عبد المحمد آيتي، انتشارات بيناد فرسك ،ايران .

الصياد ،فؤاد عبد المعطي. (١٩٨٠). المغول في التاريخ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

الطائي. سعاد هادي حسن .(٢٠١٤). اعلام امراء البلاط المغولي دراسة في دورهم العسكري والسياسي والاداري والاقتصادي والعمراني (٦٢٤-٦٧٣هـ/١٢٢٧-١٢٧٤م) ، دار ومكتبة عدنان .بغداد . دار صفحات ، ط١، دمشق.

ابن العبري،غريغوريوس الملطي .(ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) .(١٩٥٨). تاريخ مختصر الدول ، وقف على طبعه ووضع حواشيه: الأب انطون صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، ط٢، بيروت.

العريني، السيد الباز. (١٩٨٦). المغول، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت.

العزاوي، عباس. (1935). موسوعة تاريخ العراق بين الاحتلالين- حكومة المغول – ٦٥٦- ٧٣٨هـ/ ١٢٥٨- ١٣٣٨م ، مطبعة بغداد، ط١، بغداد.

فهمي ، عبد السلام عبد العزيز. (١٩٨١). تاريخ الدولة المغولية في ايران، دار المعارف، القاهرة.

ابن الفوطي، كمال الدين ابو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين احمد. (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م). (١٩٦٣). تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ، تحقيق: د. مصطفى جواد ، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ومطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، المطبعة الهاشمية ، دمشق.

مجموعة مؤلفين .(٢٠٠٦).الموسوعة العربية ، د.م ، دمشق. https://arab-ency.com.sy/details/6416

ابن منظور ، جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/ ١٣١١م) .(١٩٩٣).لسان العرب ، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين ، دار صادر ،ط ٣، بيروت.

مؤنس ،حسين. (١٩٨٧). أطلس تاريخ الإسلام ، تصميم ورسم الخرائط: جيوفاني دي اجوستين ،مطابع تين واه – سنغافوره ، الناشر : الزهراء للأعلام العربي ،ط١، القاهرة.

ميرخواند، مير محمد بن سيد برهان الدين خوارند شاه (ت٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م) .(١٨٢٣). تاريخ روضة الصفا، شيوه شرو نكارشركم نظير دراو بيات فارسى درسده نهم هجرى،كتابفروشيهاى ،تهران.

الهمذاني،رشيد الدين فضل الله. (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م). (د.ت ، ١٩٨٣ ،٢٠٠٠). جامع التواريخ ، ترجمة: محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد، راجعه وقدم له: يحيى الخشاب، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة ،وطبعة ترجمة :د. فؤاد عبد المعطي الصياد راجعه وقدم له: د. يحيى الخشاب ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط١، بيروت. وطبعة الجزء الخاص بتاريخ غازان خان دراسة ، ترجمة: د. فؤاد عبد المعطي الصياد، الدار الثقافية للنشر، دار النصر للطباعة الاسلامية ،ط١، القاهرة.

واكيم، سليم. (د.ت). امبراطورية على صهوات الجياد، دار الكتاب العربي ،القاهرة.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: أ. مشارك. د. مبروك محمد يحيى الذماري

الجامعة: ذمار

الكلية: الآداب

القسم: الاثار والمتاحف

البلد: اليمن

البريد الالكتروني: mabrookalthamari@tu.edu.ye

الهاتف: ٠٠٩٦٧٧٧٧١٧٢٢٦٢

الباحث الثاني

الاسم: د. حسن لطف احمد الرصاص

الجامعة: صنعاء

الكلية: الآداب والعلوم الانسانية

القسم: الاثار والسياحة

البلد: اليمن

البريد الالكتروني: Alrassas@su.edu.ye

الهاتف: ٠٠٩٦٧٧٧٧١٧٦٣٥٩

تاريخ الاستلام: ٨/ حزيران/٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٢٨/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (نقشان شاهديان، القرن (١٢هـ)، المواهب بذمار، زيد بن المهدي، علي بن المهدي)

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

عنوان البحث

نقشان شاهديان لأولاد الامام المهدي (صاحب المواهب) بذمار – اليمنية من القرن (١٢هـ/١٨م) دراسة اثرية فنية مقارنة

ملخص البحث

تتناول هذه الدراسة نقشان شاهديان لثلاثة قبور إسلامية يرجعان إلى بداية القرن الثاني عشر الهجري، ويقع النقشان في ضريح الامام المهدي محمد بقرية المواهب في محافظة ذمار بالجمهورية اليمنية، أحدهما لعلي بن الإمام المهدي، بينما الثاني يخص أخويه زيد وشرف الدين. وتكمن أهمية الدراسة في أن الشاهدين ذوا قيمة أثرية وفنية، ويحملان مضمون كتابي وزخارف متميزة، وهما يسدان فجوة تاريخية تتمثل في خلو المصادر من ترجمة لابني الإمام المهدي: زيد وشرف الدين. وتهدف الدراسة إلى توثيق الشاهدين أثرياً (وصفاً وتحليلاً)، واستقراء مضامينهما الكتابية، والكشف عن خصائصهما الفنية. وأظهرت النتائج أن الشاهدين ليسا في موقعهما الأصلي، وأن زيداً وشرف الدين يشتركان في شاهد قبر واحد، وتوفيا صغيرين في سنة (١١١٧هـ)، مما يطرح تساؤلات حول ظروف وفاتهما.

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Assoc. Prof. Dr. Mabrook Mohammed Al-Dhamari
University: Thamar
College: Arts
Department: Archaeology and Museums
Country: Yemen
Email: mabrookalthamari@tu.edu.ye
Phone: 00967777172262

Second Researcher
Name: Dr. Hassan Lutf Ahmed Al-Rassas
University: Sana'a
College: Arts and Humanities
Department: Archaeology and Tourism
Country: Yemen
Email: Alrassas@su.edu.ye
Phone: 00967777176359

Receipt Date: 8/ June / 2026
Acceptance Date: 30/ June / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Two tombstone inscriptions, 12th century AH, Al-Mawahib in Dhamar, Zayd son of Al-Mahdi, Ali son of Al-Mahdi)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

Two Tombstone Inscriptions of the Sons of Imam Al-Mahdi (Sahib Al-Mawahib) in Dhamar, Yemen, Dating to the 12th Century AH / 18th Century CE: A Comparative Archaeological and Artistic Study

Abstract

This study examines two tombstone inscriptions belonging to three Islamic graves dating back to the early 12th century AH. The inscriptions are located in the shrine of Imam Al-Mahdi Mohammed in Al-Mawahib village- in Dhamar, Yemen. One of the tombstones belongs to Ali, son of Imam Al-Mahdi, while the second is for his two brothers, Zayd and Sharaf Al-Deen. The importance of this study lies in the archaeological and artistic value of these tombstones, which feature distinctive inscriptions and decorative elements. They also fill a historical gap, as historical sources lack biographical information about the two sons of Imam Al-Mahdi, Zayd and Sharaf Al-Deen. The study aims to document the two tombstones archaeologically (through description and analysis), examine their textual content, and reveal their artistic characteristics. The findings indicate that the tombstones are not in their original location, and that Zayd and Sharaf Al-Deen share a single tombstone. Both died at a young age during the year 1117 AH, raising questions about the circumstances of their deaths.

المقدمة

تعد مدينة المواهب إحدى أهم المدن اليمنية التي برزت أهميتها التاريخية منذ تأسيسها سنة (١١١١هـ) (الحجري، ٢٠١١: ٧٢٤؛ المقحفي، ٢٠١١: ٢٠٣٦)، إذ مثلت هذه المدينة عاصمة سياسية لليمن خلال عهد مؤسسها الإمام المهدي محمد بن الامام المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم، حتى وفاته فيها سنة (١١٣٠هـ)[١] ودفن في الضريح الذي أنشأه لابنه علي حينما توفي سنة (١١١٨هـ) (المقحفي، ٢٠١١: ٢٠٣٦؛ أبو طالب، مخطوط: ٣٢٢، ٤٤٦؛ الشهاري، ٢٠٠٩: ٧ –١٢، ٤٩). وتقع مدينة المواهب الأثرية في عزلة منقذة بمحافظة ذمار (الحجري، ٢٠١١ :٧٢٢، ٣٤١–٣٥٠؛ المقحفي، ٢٠١١: ٦٥٥–٦٥٦، ٢٠١٨). وتبعد المواهب عن مدينة ذمار من جهة الشرق بحوالي (٥كم)، (صورة جوية: ١) يحدها من الشمال قرية ذي ماجد، ومن الجنوب قرية خرابة نشطان ومصلى العيدين، ومن الغرب قرية المشواف، ومن الشرق قرية رخمة، وتتربع المدينة القديمة على هضبة عالية ومحصنة تحصيناً طبيعياً، وتشرف على الفجاج والأودية الممتدة حول سفحها (المقحفي، ٢٠١١: ٢٠٣٦).

صورة جوية (١) توضح موقع مدينة المواهب، باستخدام برنامج google earthe

ويتمتع موقع مدينة المواهب الأثرية الإسلامية بأهمية بارزة في محافظة ذمار، بما تحمله من دور تاريخي وحضاري. ويبرز الضريح الأثري للإمام المهدي محمد كمعلم جنائزي وعنصر فريد، إذ يكتسب

(١) هو الإمام المهدي: محمد بن أحمد بن الحسن بن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد الحسني، كان إماماً عالماً، ولد فجر يوم الثلاثاء (٧ جماد الآخر ١٠٤٧هـ/٢٦ أكتوبر ١٦٣٧م)، ووالدته حورية بنت الحسن بن أحمد بن حميد الدين بن المطهر بن الإمام شرف الدين. ونشأ في حجر والده وأخذ العلم عنه وعن علماء عصره، فأحكم القراءات السبع، وحذق الطب، وأجاد الخط والرماية والفروسية. وتولى اللحية، ومور، وبيت الفقيه والضحي، وصعدة. دعا لنفسه ثلاث مرات، ولقب بالناصر والهادي ثم المهدي، وتوفي في ٥ رمضان سنة (١١٣٠هـ/١٧١٧م). (الطالبي، ٢٠١٢: ٣٧٩–٣٩٠؛ الشوكاني، ٢٠٠٧: ٣٠–٣٢؛ زبارة، ٢٠١٢: ١٤٠٣–١٤١٢؛ الشهاري، ٢٠٠٩: ٤٩).

أهمية معمارية ورمزية نادرة، وتكتسب هذه الأهمية بعداً آخر من خلال المقبرة الأثرية التي تكتنف الضريح من جميع الجهات، إذ تحمل معها تاريخ المدينة القديمة (صورة جوية:٢). ويضم الضريح شواهد قبور متعددة، يتقدمها شاهد قبر علي بن الإمام المهدي وإخوته زيد وشرف الدين. وتكمن القيمة الكبرى لهذين الشاهدين في تمتعهما بخصائص فنية وجمالية فريدة، إذ يحتويان على عناصر زخرفية ونقشية تعكس ذوقاً راقياً. وإلى جانب ذلك قيمتهما التاريخية والمعلوماتية. وتسعى هذه الدراسة إلى توثيق الشاهدين من الناحية الأثرية من خلال وصف وتحليل المادة النقشية والزخرفية لهما، كما تهدف إلى استقراء وتفسير المضامين الكتابية للشاهدين، بما يخدم استكمال الصورة غير المكتملة عن أبناء الإمام المهدي في المصادر التاريخية. وفيما يلي الدراسة الوصفية والتحليلية للشاهدين:

م	الوحدة	م	الوحدة
١	الضريح	٤	مقابر
٢	مسجد	٥	بركة
٣	فناء	٦	البئر

صورة جوية: (٢) الموقع العام لضريح الامام المهدي محمد، قرية المواهب – محافظة ذمار.
باستخدام برنامج google earth

الدراسة الوصفية:

أولاً: شاهد قبر رقم (١): زيد وشرف الدين (ت: ١١١٧هـ):

١,١. موقع الشاهد: ثبت شاهد القبر حديثاً في واجهة الجدار الفاصل بين الفناء الغربي لضريح علي بن الإمام المهدي، والمقبرة الغربية؛ وذلك ببناء صف من قطع الحجارة البازلتية الحديثة، التي تحيط بالشاهد، غير أن الموقع الأصلي الذي كان يقع فيه الشاهد غير معروف على وجه التحديد؛ وربما أن الشاهد كان مثبتا على قبر أحدهما والقبر الآخر إلى جواره، كما هو معتاد في بعض القبور اليمنية، التي جُعل لها شاهداً واحداً، ولم تشر المصادر إلى مكان هذين القبرين. ويستحيل معرفة قبري صاحبي الشاهد – زيد

وشرف الدين – في الموقع الأثري، وذلك لأن هناك الكثير من القبور التي تتضمنها المقبرة الأثرية لمدينة المواهب، والتي تحيط بضريح والدهما الإمام المهدي محمد.

١,٢. الوصف الفني للشاهد: لوح من الحجر الجيري، مستطيل الشكل، طوله (٨٤سم)، وعرضه (٥٥سم)، مثبت على الجدار الغربي الذي يفصل الفناء الغربي للضريح عن المقبرة الغربية. وشاهد القبر مكسور إلى نصفين، كسرتاه في حالة جيدة، أدت عوامل التعرية والترسبات الملحية على سطحه إلى تغير لونه إلى اللون الأصفر، كما أدت الترسبات الملحية إلى تآكل بسيط في سطحه مع بدايات الطمس في كتاباته. والشاهد مقسم إلى قسمين بواسطة خط أفقي عريض يتوسطه نتوء للأعلى مثلث الشكل، قسمه الأعلى أفقي مستطيل الشكل يشغله عقد مفصص[١] ذو سبعة فصوص تشغل تجويفه وكوشتيه كتابات بارزة. أما القسم الأسفل فيشمل معظم سطح الشاهد، في مساحة رأسية مستطيلة الشكل معقودة الأعلى بعقد نصف دائري الشكل، مدبب الأعلى تنبثق من تدبيبه ورقة نباتية، وهي محصورة من الجانبين والأعلى بإطار كتابي داخلي. وتضم مساحته بحور أفقية عدا بحرها الأعلى المعقود، وتشغلها كتابات النص الرئيس، في كل بحر منها سطر كتابي بارز، ويحيط به من الجانبين والأعلى الإطار الداخلي المعقود بعقد مدبب وله كوشتان زخرفيتان مثلثة الشكل. ويحيط بالشاهد من الجانبين والأسفل إطار كتابي خارجي، بحوره الثلاثة منفصلة ومستطيلة الشكل. ويشغل كل بحر سطر كتابي بارز، وكتابات الشاهد منفذة بخط الثلث البارز على أرضية غائرة، كما يخلو الشاهد من توقيع الصانع (صورة:٣، شكل:١).

(١) العقد المفصص: عقد زخرفي ذو سلسلة من العقود الصغيرة أو الأقواس نصف دائرية متتالية، يسمى كل منها فص، والعقد المفصص عنصر معمارية ساساني ظهر في طاق كسرى، وأقدم أمثلته في العمارة الإسلامية توجد في الشبابيك الوهمية لواجهة باب بغداد في مدينة الرقة المؤرخ بسنة (١٥٥هـ/٧٧٢م) وتعود للعصر العباسي المبكر، يليه العقد المفصص في قصر الأخيضر بكربلاء العراق (١٦١هـ/٧٧٨م)، وكوى جدار القبلة في الجامع الكبير بسامراء (٢٣٤-٢٣٦هـ/٨٤٨-٨٥٠م)، بعدها شاع استخدامه في عمارة المغرب والأندلس. ينظر: (حسن، ١٩٤٢: ١٥١؛ شافعي، ١٩٩٤: ٢٠٩؛ محمد، ١٩٨٩: ١٠٩، ١١٨؛ رزق، ٢٠٠٠: ٢٠٠؛ نظيف، ١٩٨٩: ١٠٩؛ عبد الدائم، ٢٠٠٧: ١٥٧).

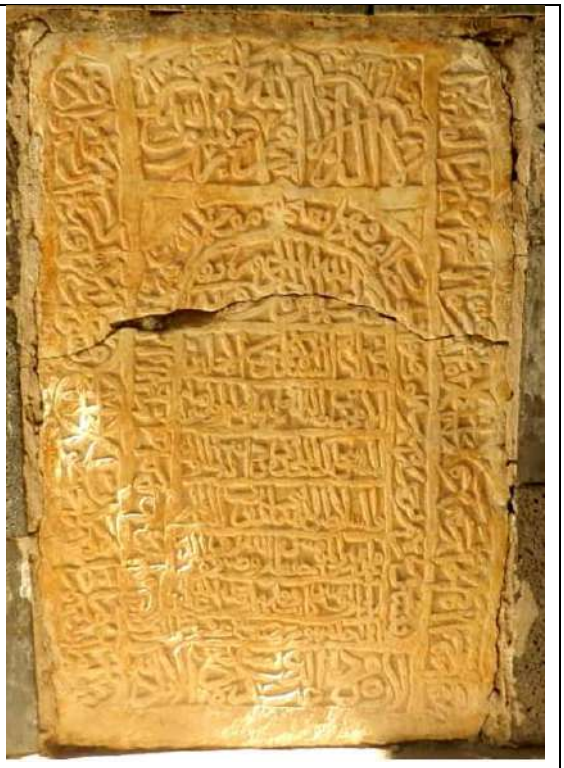

صورة (٣) شاهد قبر زيد وشرف الدين

شكل (١) تفريغ لشاهد قبر زيد وشرف الدين

١,٣. القسم الأعلى: جاءت مساحته أفقية مستطيلة الشكل محصورة بين حافة الشاهد من الأعلى والنص الرئيس من الأسفل وبحري الإطار الكتابي من الجانبين. وشغلت مساحته بعقد مفصص ذو سبعة فصوص، تشغل كوشتيه بقية كتابة الإطار الكتابي، ويشغل تجويف العقد سطر كتابي بارز تسير كتابته مع سير تجويف العقد. ويشغل الفراغات بين كتاباته مراوح نخيلية وأنصافها (شكل: ٦) وأوراق ثلاثية (شكل:١١)، ونص كتابته كالآتي:

"لا إله إلا الله محمد رسول الله".

١,٤. الإطارات: للشاهد إطاران كتابيان خارجي وداخلي، يمكن وصفهما على النحو الآتي:

الإطار الخارجي: يحيط بقسمي الشاهد والإطار الداخلي من الجانبين والأسفل على شكل بحور مستطيلة الشكل منفصلة، حصر بحره الأسفل بين النهاية السفلية لبحريه الأيمن والأيسر الممتدان بطول الشاهد وتتوسطهما ميمات زخرفية شغل تجويفها بزخرفة هندسية على شكل نجمة ثمانية الرؤوس، ويشغل كل بحر سطر كتابي بارز، ونصوص كتاباتها كالآتي:

السطر الأيمن: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

السطر الأسفل: الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ

السطر الأيسر: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

السطر الأعلى (كوشتي العقد): استكملت كتابات الإطار في سطر مقلوب، نصفه في الكوشة اليسرى والنصف الآخر في الكوشة اليمنى، ونصه: "وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا – وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ"(١).

الإطار الداخلي: صمم بداخل المساحة المستطيلة الشكل المخصصة للنص الرئيس، ويتكون من عقد مدبب طويل الرجلين يحيط بالنص الرئيس للشاهد من الجانبين والأعلى، له كوشتان مثلثتا الشكل تشغل كل منهما زخرفة نباتية قوامها ورقة ثنائية البتلات. ويشغل واجهة الإطار سطر كتابي بارز، تبدأ كتابته أسفل الرجل اليمنى للعقد، وتسير صاعدة حتى ينتهي عند تدبيب العقد، ثم تستكمل نازلة حتى تنتهي أسفل الرجل اليسرى للعقد، ونصه:

"يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢)" صدق الله العظيم.

1.5. النص الرئيسي: شغل معظم وسط سطح الشاهد بمساحة رأسية مستطيلة الشكل معقودة الأعلى بعقد نصف دائري الشكل مدبب الأعلى متوج بورقة ثلاثية مفرغة البتلة الوسطى (شكل٧)، محاطة بالإطار الكتابي الداخلي من الجانبين والأعلى، ومقسمة إلى ثمانية بحور، بحرها الأعلى معقود ويشغل تجويفه أول سطور النص الرئيس ونفذت كتابته بالحفر البارز. أما السبعة البحور التي أسفله فهي بحور أفقية مستطيلة الشكل، تفصلها عن بعضها خطوط بارزة نميمة وجيدة التسطير، تشغلها سبعة سطور كتابية بارزة، ونصوص كتابتها كالآتي:

(١): بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي.

(٢): هذا ضريح السيدين الأكملين الأجلين

(١) القران الكريم، سورة البقرة، آية الكرسي، الآية: (٢٥٥).
(٢) القرآن الكريم، سورة التوبة، الآيتان: (٢١-٢٢).

(٣): الأمجدين ضياء الدين زيد[١] بن أمير المؤمنين إمام

(٤): المتقين شحاك الملحدين من دانت له الملوك

(٥): والسلاطين المهدي لدين رب العالمين

(٦): محمد بن أمير المؤمنين حفظه الله وصنوه شرف الدين[٢]

(٧): بن أمير المؤمنين كانت وفاتهما رحمة الله عليهما

(٨): في أحد شهور سنة سبع عشرة ومائة وألف.

1.6. التعليق على الشاهد: تميز الشاهد بكتاباته المنفذة بخط الثلث، بأسلوب الحفر البارز على أرضية غائرة، يسودها التزاحم وتراكب الكلمات على بعضها، ويتزايد التراكم في الكتابات الموجودة داخل تجويف العقدين، كما تزيد استطالة الحروف القائمة، وتتقاطع مع بعض الكلمات. ويخلو الشاهد من توقيع الصانع، وعلامات الإعراب، والإعجام، والرموز التوضيحية، واقتصر وجود العلامات التوضيحية أعلى وأسفل الحروف الكتابية في سطر القسم الأعلى. ويذكر الشاهد تاريخ وفاة زيد وشرف الدين ابني أمير المؤمنين الإمام المهدي لدين رب العالمين، في أحد شهور سنة (١١١٧هـ/١٧٠٥م). ولم يُشِر الكاتب لذكر وقت أو ساعة الوفاة لأي منهما، كما لم يحدد اليوم أو الشهر الذي توفيا فيه، وإنما اكتفى بذكر السنة فقط. واقتصرت الزخارف في الشاهد على العقد الزخرفي، وورقتان ثنائية البتلات في كوشتيه، والميمات في بحري الإطار الخارجي. كما اقتصرت الزخرفة الهندسية على النجمات الثمانية في تجويف ميمات الإطار الخارجي. ويلاحظ كتابة حروف السين والشين في الكلمات (سِنَةُ، يشفع، وسع، كرسيه، السموات، سبع، عشرة، سنة) بسمات خط الرقعة، ورسمت كلمة (السماوات) برسم المصحف (السموات)، ورسمت الهاء مخطوفة في كلمة (حفظه)، ومُعلَّقة في كلمتي (وفاتهما، وعليهما)، وقد صُنع للمتوفيين شاهد قبر واحد كما هي العادة في كثير من المتوفين في اليمن، وخاصة الصغار منهم أو الأقارب؛ ومن أقدم أمثلتها شاهد قبر: سيدة بنت الحسن (ت:٦٣٦هـ) الذي ذكر فيه ابنيها: محمد بن حسين الأصبهاني (٦٤٣هـ)، وعلي بن حسين الأصبهاني (٦٤٤هـ)، الذين دفنا في قبرين بجوارها، وشاهد قبر: أبو فراس

(١) هو: زيد بن الإمام المهدي محمد صاحب المواهب بن المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد الحسني الهادوي، توفي قبل وفاة أبيه. ينظر:(زبارة، ٢٠١٢: ١٤١١).

(٢) أغفلت المصادر ذكره.

بن أحمد الرقيمي وزوجته فاطمة بنت أحمد (ت: ٦٤٥هـ)، وصُنع لهما شاهداً واحداً (الرصاص، ٢٠١٩، صفحة ٤٤، ٤٥).

ثانياً: شاهد قبر رقم (٢): علي بن الامام المهدي (ت: ١١١٨هـ):

٢,١. **موقع الشاهد:** يقع شاهد قبر علي بن الإمام المهدي حالياً داخل الضريح الخاص به وبوالده، وكان مثبتاً في الجدار الشرقي للضريح مقابل قبره، ثم نقل من مكانه بسبب عوامل التلف التي لحقت بجدران الضريح، وعمليات ترميمها التي لم تستكمل حتى وقت اعداد الدراسة؛ مما حال دون إعادة تثبيته في موقعه الأصلي.

٢,٢. **الوصف الفني للشاهد:** لوح من الحجر الجيري مستطيل الشكل، في حالة حفظ جيدة، يبلغ طوله (٨٤ سم)، وعرضُه (٥٥سم)، وسمكُهُ (٨سم)، ونفذت زخارفه وكتاباته بخط الثلث البارز على أرضية غائرة. وينقسم الشاهد من حيث الشكل إلى قسمين بواسطة خط هندسي بارزة جيد التسطير؛ قسمه الأعلى يتألف من مستطيل أفقي محصور بين حافة الشاهد من الأعلى والنص الرئيس من الأسفل، وبحري الإطار الخارجي من الجانبين الأيمن والأيسر. ويضم الشكل المستطيل بداخله عقد مفصص يشغل تجويفه سطر كتابي بارز، له كوشتان تشغلهما زخرفة نباتية. أما القسم الأسفل من الشاهد فيشمل معظم المساحة الوسطى، ويتخذ شكل رأسي مستطيل، يضم بداخله عقد الإطار الداخلي، وله كوشتان تتشابهان مع كوشتي القسم الأعلى، وتشغلهما زخرفة نباتية. ويشغل واجهة العقد سطر كتابي بارز. أما تجويف الإطار الداخلي فتشغله كتابات النص الرئيس في مساحة رأسية مستطيلة الشكل معقودة الأعلى بعقد مدبب، متوج بورقة نباتية ثلاثية البتلات (شكل: ٨). وقُسِّمَت مساحة النص الرئيس إلى بحور أفقية، بحرها الأول معقود، ويشغل كل بحر منها سطر كتابي بارز (صورة: ٤، شكل:٢).

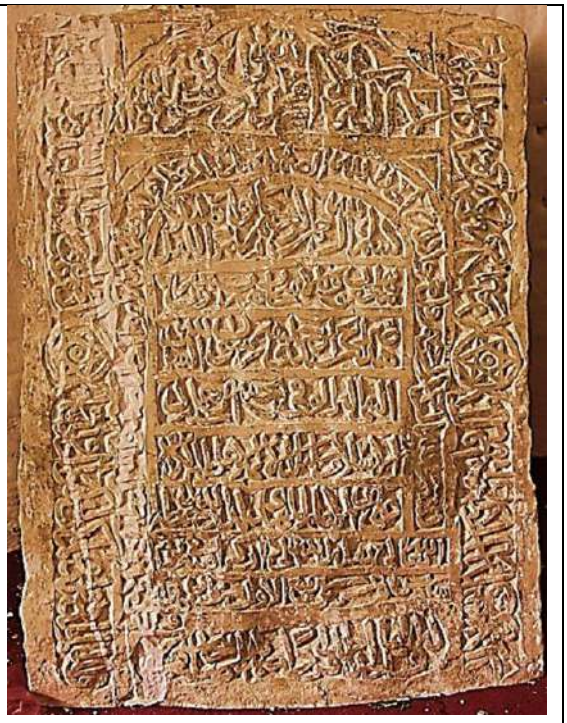

صورة (٤) شاهد قبر علي بن الامام المهدي

شكل (٢) تفريغ لشاهد قبر علي بن الامام المهدي

٢,٣. **القسم الأعلى:** يتكون من مساحة أفقية مستطيلة الشكل محصورة بين حافة الشاهد من الأعلى والنص الرئيس من الأسفل، وبحري الإطار الخارجي من الجانبين الأيمن والأيسر. ويضم هذا القسم في تجويفه عقد خماسي الفصوص، الاوسط أكبرها، وله كوشتان مثلثتا الشكل، يسير جانبهما الأسفل مع سير فصوص العقد، تشغلهما زخرفة نباتية قوامها ورقة ثنائية البتلات مصمتة، في حين يشغل تجويف العقد المفصص سطر كتابي بارز، نصه:

"لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله".

٢,٤. **الإطارات:** يضم الشاهد إطاران كتابيان: خارجي، وداخلي، ويمكن وصفهما كالآتي:

الإطار الخارجي: يحيط بقسمي الشاهد وإطاره الداخلي من الجانبين والأسفل؛ ويتكون من ثلاثة بحور مستطيلة الشكل، بحران رأسيان في الجانب الأيمن والأيسر للشاهد، تتوسطهما ميمات زخرفية بداخلها نجمة سداسية الشكل مفرغة[١] يتوسطها دائرة مفرغة أيضاً. ويحصر البحران الجانبيان بين نهايتهما

(١) النجمة السداسية: وحدة زخرفة هندسية إسلامية قوامها مثلثان متداخلان يشكلا نجمة سداسية الرؤوس، وجدت أمثلة لها في شواهد القبور الإسلامية على شاهد قبر: حميدة بنت حميد في بني سليم (٣-٤هـ/٩-١٠م). وفي شواهد القبور اليمنية وجدت على شاهدي قبري: الإمام القاسم بن حسين (١١٣٩هـ)، وآمنة بنت اسماعيل الطبري (ت:١١٩٥هـ). ينظر: (الباشا، ١٩٩٩: ١٩٦- ١٩٧؛ سيف، ٢٠٠٨: ١١٤؛ الرصاص، ٢٠٢٥: ص٣٦١- ٣٦٢).

السفلية البحر الأسفل للإطار. ويشغل كل بحر منها سطر كتابي بارز. وتبدأ كتابات الإطار نازلة في السطر الأيمن، ويستمر أفقياً في سطره الأسفل، وينتهي صاعد في السطر الايسر، ونصوص كتاباته كالآتي:

السطر الأيمن: الحمد لله الذي لا يبقى الا وجهة ولا يدوم إلا – ملكة وأشهد أن لا إله إلا الله وحدة لا شريك

السطر الأسفل: له إلهاً واحداً احداً فرداً صمداً لم يتخذ صاحبه ولا

السطر الأيسر: ولداً " لم يلد ويولد ولم يكن له كفواً أحد"(١) وأشهد – أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

2.4.1. الإطار الداخلي: عبارة عن إطار معقود بعقد مدبب ذو مركزين[٢] صمم بداخل إطار رأسي بارز مستطيل الشكل؛ وهو عقد طويل الرجلين له كوشتان مثلثتا الشكل، يسير جانبهما الأسفل مع سير فصوص العقد، وتشغلهما زخرفة نباتية قوامها ورقة ثنائية البتلات مصمتة. أما تجويف العقد المفصص فيشغله كتابات النص الرئيس؛ في حين يشغل واجهته سطر كتابي بارز تبدأ كتابته أسفل جانبه الأيمن، وتسير صاعدة حتى الجانب الأيمن للورقة المتوجة لعقد النص الرئيس (شكل٨)، ثم نازلة من يسار الورقة حتى أسفل جانبه الأيسر، ونص كتابة الإطار كالآتي:

الجانب الأيمن: "بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد

الجانب الأيسر: لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد"[٣] صدق الله العظيم

---

(١) اقتباس في أصل الشاهد من الآيتين (٣، ٤) من سورة الإخلاص.

(٢) العقد المدبب ذو المركزين: يتكون من قوسين مرسومين من مركزين مختلفين يلتقيان قمة العقد، ظهر في قصر ابن وردان المؤرخ (٥٦٠-٥٦٤م). ويوجد أقدم أمثلته في العمارة الإسلامية على الواجهة المطلة على صحن البلاطة الوسطى للمسجد الأيوبي في دمشق. ومن أهم أمثلته في المساجد اليمنية عقود مسجد التحيتة، والعقود الزخرفية في جامع الأشاعر بزبيد، ومن أقدم أمثلته على شواهد القبور يوجد على شواهد قبور كلاً من: أسعد بن أحمد بن شعبان (ت:٦٢٦هـ)، وعمرو بن علي التميمي الصنعاني (ت:٦٣٧هـ)، عبد الفاضل بن احمد شرحة (ت:٦٩٩هـ). ينظر: (شافعي، ١٩٩٤: ٢٠٧؛ نظيف، ١٩٨٩: ٥٠؛ عكاشة، ١٩٩٠: ٢٥؛ الرصاص، ٢٠١٩: ٣٠٦؛ الرصاص، ٢٠٢٥: ٣٥٣؛ 1986 : 425, 427 (Instituto Italiano

(٣) القران الكريم، سورة الإخلاص، الآيات: (١-٤).

٢,٥. النص الرئيسي: يتكون من مساحة رأسية مستطيلة الشكل معقودة الأعلى بعقد مدبب ذو مركزين، متوج بورقة ثلاثية البتلات. والنص الكتابي الرئيس يتوسط مساحة سطح الشاهد ويشغل معظمه، وينقسم إلى ثمانية بحور، بحرها الأول معقود الأعلى بعقد مدبب تتوجه ورقة نباتية ثلاثية البتلات، تنصف واجهة عقد الإطار الداخلي، وبقية بحوره السبعة أفقية مستطيلة الشكل، تفصل بينها خطوط بارزة غير منتظمة التسطير. ويشغل كل بحر منها سطر كتابي نفذ بخط الثلث البارز على أرضية غائرة، وكتاباتها كالآتي:

(١): "بسم الله الرحمن الرحيم كانوا قليلا من الليل

(٢): ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون"[١].

(٣): هذا ضريح ابن سيدي خليفة رسول الله الشاب

(٤): التقي البر الوفي ريحنة [٢] الجنة جمال

(٥): الإسلام وسليل الأئمة الأعاظم الكرام

(٦): علي بن الامام المهدي لدين الله حفظه

(٧): الله تعالى نقلة الله الى دار كرامته في يوم الإثنين

(٨): سادس وعشرين شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائة وألف.

٢,٦. التعليق على الشاهد: تميز الشاهد بتشابه كتابته مع كتابة الشاهد السابق، الذي نفذه بخط الثلث البارز، إلا أنه أكثر إتقاناً منه، كما تميز الشاهد بوجود إطارين كتابيين، ويخلو من توقيع الصانع. وتندر في كتاباته علامات الإعراب الإعجام والعلامات التوضيحية، ولا توجد فيه رموز توضيحية. وتتضمن كتاباته ذكر وفاة صاحب الشاهد، بتاريخ يوم وفاته، والشهر، والسنة (١١١٨هـ/١٧٠٦م)؛ ولم يتطرق الكاتب لذكر لحظة وفاته. واقتصرت زخارف الشاهد على العقد المفصص والعقد المدبب، وورقتان ثنائية البتلات في كوشتيهما، والميمات التي تتوسط بحري الإطار الجانبيين؛ اللتان تضمان بداخلهما نجمات سداسية. ويلاحظ أن حرف اللام اخترق بداية كلمات شهادة التوحيد في الجانب الأيمن لبحر القسم الأعلى. وتميزت كتابته باستطالة حروفها القائمة وتقاطعها مع بعض حروف الكلمات وسير كتابته مع تجاويف العقد المفصص. كما تميزت بحور الإطار بتدبيب أطرافها، وفي القسم الأعلى رفع الصانع لفظ الجلالة أعلى الكلمات الكتابية للسطر، وذلك تقديساً لها، وتشكيلاً زخرفياً كتابياً متناسقاً. كما ركب كلمة

(١) القرآن الكريم، سورة الذاريات، الآيات: (١٧-١٨).

(٢) كذا كتبت في الشاهد حيث أهمل الصانع ألف المد في وسط الكلمة، والصواب: ريحانة.

لفظ الجلالة أعلى البسملة في البحر الأول للنص الرئيس، وكذلك أعلى كلمة رسول في السطر الثالث، وأعلى كلمة لدين في السطر السادس؛ في حين جعلها على تسطير سطره السابع. وتميزت كتابات الشاهد بزيادة حشد وتراكب معظم كتاباته، ورسمت حروف السين والشين في الكلمات بسمات خط الرقعة (رسوله، يستغفرون، سادس، عشرين، شهر، سنة، شريك، وسلم) [١]؛ وأهمل الصانع ألف المد وسط كلمة (الريحانة) وكتبها (ريحنة الجنة).

الدراسة التحليلية:

أولاً: تراجم الأعلام الواردة في الشاهدين:

١,١. **ضياء الدين زيد بن أمير المؤمنين:** هو زيد بن الإمام المهدي لدين رب العالمين محمد صاحب المواهب بن المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد الحسني الهادوي، توفي قبل وفاة أبيه (زبارة، ٢٠١٢: ١٤١١)، وأهملت المصادر الترجمة له، ويرجح أنه مات صغير السن فأهمل المؤرخون ذكره؛ بعكس غالبية إخوته الذين كانت لهم أدوار سياسية وحربية، فنالوا نصيباً وافراً من العناية التاريخية والتراجم.

١,٢. شرف الدين بن أمير المؤمنين: هو: شرف الدين بن أمير المؤمنين الإمام المهدي محمد صاحب المواهب بن أحمد بن الحسن بن القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد الحسني الهادوي، توفي قبل وفاة أبيه(٢)، وينطبق الإهمال التاريخي لشرف الدين أيضاً، فلم ينل من العناية ما ناله بقية إخوته.

١,٣.**علي بن الامام المهدي لدين الله:** هو الأمير: علي بن الامام المهدي لدين الله محمد (صاحب المواهب) بن المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد الحسني الهادوي. كان محبوباً لدى والده، وله محلاً أزيد من إخوته إكراماً، فكبى به فرسه فسقط وهضَّه[٣] وفَضَّهُ[٤]، فلم يسع الأطباء معالجته، وسقي المومياء فقل جدواها، فتوفي في حياة أبيه

(١) حيث ترسم هذه الحروف في خط الرقعة دون رسم سِنَنُها.

(٢) أهملت المصادر ذكره ويرجح أنه مات صغيراً فأهمل المؤرخون والنسابة ذكر اسمه وتاريخ وفاته.

(٣) هَضَّهُ: هَضَّ الشي يَهَضُّهُ أي كسره ودقه. ينظر: (الجوهري، ٢٠٠٩: ١٢٠٢؛ الفيروآبادي، ٢٠٠٣: ١٦٩٦).

(٤) فَضَّهُ: فَضُّ الشيء كسرهُ وتفريقه، وانفَضَّ أي انكسر، والفُضَاضُ ما تَفَرَّقَ من الشيء عندَ كسره. ينظر: (الجوهري، ٢٠٠٩: ٨٩٢؛ الفيروآبادي، ٢٠٠٣: ١٢٥١– ١٢٥٢).

سنة (١١١٨هـ/١٧٠٦م)، فمشى في جنازته، ودفن خارج قلعة المواهب، وأمر والده بعمل قبة عليه (مانع، ٢٠٠٤: ٤٤٥؛ زبارة، ٢٠١٢: ١٤١١؛ أبو طالب، مخطوط: ق٣٠١ أ).

ثانياً: تحليل التصميم الفني والأشكال الزخرفية:

٢,١.التصميم العام للشاهدين: يتقارب الشكل العام للشاهدين في شكلهما الرأسي المستطيل، وكلاهما مقسم إلى قسمين، ولهما إطاران كتابيان، الداخلي يحيط بالقسم الأسفل من الجانبين والأعلى، وإطار كتابي خارجي يحيط بقسمي الشاهدين من الجانبين والأسفل، وهي نفس السمة في إطارات أغلب شواهد القرن (١٢هـ/١٨م) (الرصاص، ٢٠٢٥: ٦٠١).

٢,٢. أقسام الشاهدين: قسم الشاهدان إلى قسمين، القسم الأعلى جاء على شكل بحر معقود الأعلى بعقد مفصص في مساحة أفقية خصصت لشهادة التوحيد، بينما القسم الأسفل مصمم على شكل مستطيل رأسي. وخصصت مساحة القسم الأسفل لكتابة النص الرئيس في الشاهدين. ويحيط بالشاهد رقم (١) إطار كتابي خصص لكتابة لآية الكرسي، بينما اختلف في الشاهد رقم (٢)، حيث خصص لكتابة عبارات: الحمدلة، والبقاء والدوام، وشهادة التوحيد متبوعة بالآيتين (٣-٤) من سورة الإخلاص، وشهادة الرسالة، والصلوات والتسلم على محمد وآله. وخصص الإطار الداخلي في الشاهد رقم (١) للآيتين (٢١-٢٢) من سورة التوبة، وفي الشاهد رقم (٢) خصص للبسملة وسورة الإخلاص كاملة، وعبارة التصديق والتعظيم، وهو المتبع في بعض شواهد القرنين (١١-١٢هـ/١٧-١٨م).

٢,٣. الشكل العام لبحور الشاهدين: اتخذ البحر الأعلى للشاهدين الشكل المعقود الأعلى بعقد مفصص، لكنهما اختلفا في نوع العقد الأسفل؛ إذ جاء نصف دائري مدبب الأعلى في الشاهد رقم (١)، وذو عقد مدبب ذو مركزين في الشاهد رقم (٢). وصممت مساحة النص الرئيس في الشاهدين على شكل مستطيل رأسي بحره الأول معقود. أما بقية بحور النص الرئيس فجاء تصميمها كلها مستطيلة الشكل، في وضع أفقي منتظم. كما تميز بحر الإطار الداخلي في الشاهدين بشكله المعقود، كما صممت بحور الإطار الخارجي في الشاهدين بأشكال مستطيلة منفصلة عن بعضها.

٢,٤. المادة الخام للشاهدين: صنع الشاهدان من الحجر الجيري(١)، ويعد أقدم الشواهد التي صنعت من هذا الحجر في اليمن شواهد قبور كلاً من: الإمام المختار القاسم بن أحمد بن الهادي إلى الحق

(١) الحجر الجيري: نوع من أنواع الأحجار الرسوبية المكونة من مجموعة الكربونات المُكونة لنحو ١٠% من الصخور على سطح الأرض، ويعتمد تكوين هذه الأحجار على المعادن، منها: كربونات الكالسيوم (الكالسايت) وهي عبارة عن=

يحيى بن الحسين (ت:٣٤٥هـ)، والإمام الداعي إلى الله يوسف بن يحيى بن الناصر أحمد (ت:٤٠٣هـ)، محمد بن عبدالله بن أبي النجم (ت:٦١٣هـ)، والإمام عبدالله بن حمزة بن سليمان (ت:٦١٤هـ) وعلي بن يحيى العزب(ت:٦٤٨هـ)، وعطية بن محمد النجراني(ت:٦٦٥هـ). (المطاع،٢٠٠٠: ٣٣٨، ٣٤٢، ٣٤٨؛ سيف، ١٩٩٨: ٥١٢؛ الرصاص، ٢٠٢٥: ٣١، ٤٦، ٥٠).

٢,٥. أسلوب الكتابة: اتبع صانعا الشاهدين الأسلوب الكتابي والزخرفي نفسه، وذلك بالحفر البارز على أرضية غائرة في الشاهدين، وهي السمة ذاتها المتبعة في أسلوب الكتابة والزخرفة في شواهد القبور في القرن (١٢هـ/١٨م) (الرصاص، ٢٠٢٥: ٦٠١).

٢,٦. خط الكتابة: نفذت كتابات الشاهدان بخط الثلث، واختلفا في إتقان الكتابة (شكل:٣)؛ إذ جاءت في الشاهد رقم (٢) أكثر اتقاناً من الشاهد رقم (١). وتتشابه كتاباتهما مع الشواهد التي كتبها صلاح السودي في الفترة ما بين (١١٠٥-١١٤٣هـ)، وكتابات الصانع قاسم بن محمد الحلم ومن أهمها شاهدا قبري: صلاح بن علي الكبيش (ت:١١٠٥هـ) وسيلان بن هادي الوشلي (ت: ١١٤٥هـ) (الرصاص، ٢٠٢٥: ٦٠١).

=بلورات معينة الشكل حادة الزوايا، كما أنها قد تتكون من خليط معدني من كربونات الماغنسيوم يشكل معدن الدولوميت وبلورات معينة الشكل لها وجوه مقوسة. ينظر: (خطاب، ٢٠٠٧: ١٤- ١٥؛ عوض الله، ١٩٩٤: ٥٩).

وجه المقارنة	الشاهد رقم (١)			الشاهد رقم (٢)		
	أول الكلمة (أو مفردة)	وسط الكلمة	نهاية الكلمة	أول الكلمة (أو مفردة)	وسط الكلمة	نهاية الكلمة
الألف						
الباء						
التاء						
الثاء						
الجيم						
الحاء						
الخاء						
الدال						
الذال						
الراء						
الزاي						
السين						
الشين						
الصاد						
الضاد						
الطاء						
الظاء						
العين						
الغين						
الفاء						
القاف						

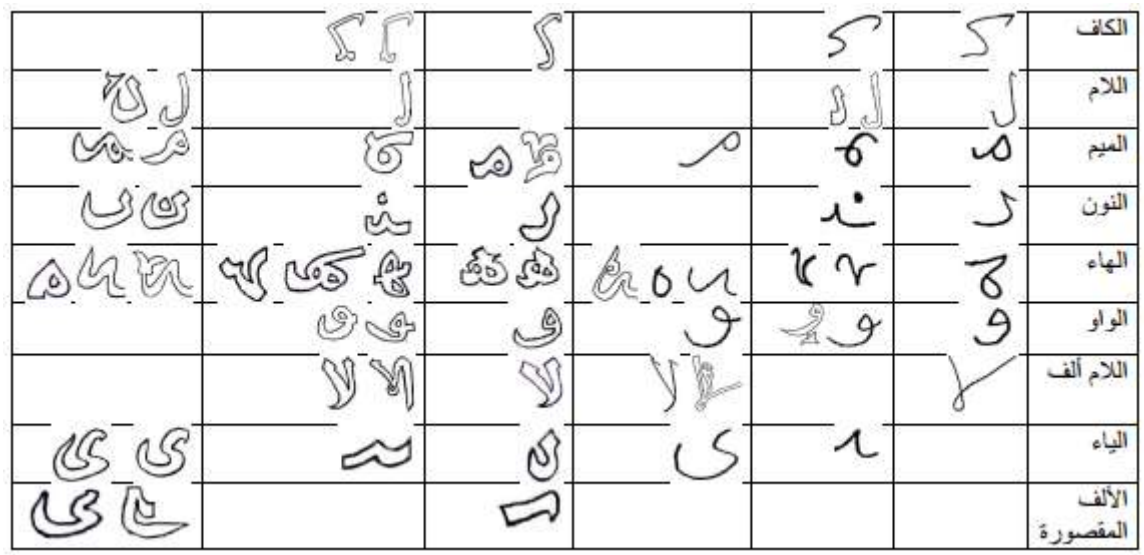

شكل (٣) جدول مقارنة حروف خط الكتابة في الشاهدين

٢,٧. كوشتا العقد: شغلت كوشتا العقد في القسم الأعلى للشاهد رقم (١) ببقية كتابات الإطار فاستكملت فيها آية الكرسي في سطر مقلوب (شكل:٤ أ)، أما كوشتا العقد في القسم الأسفل فشغلت زخرفة نباتية مصمتة (شكل:٤ ب)؛ بينما اختلف الأمر في الشاهد رقم (٢) إذ شغلت كوشتي عقديه في قسميه الأعلى والأسفل بزخرفة نباتية مصمتة تتشابه مع الزخرفة في كوشة العقد الأسفل في الشاهد رقم (١)، وهي السمة المتبعة غالباً في شواهد القرنين (١١-١٢هـ/١٧-١٨م) (شكل: ٤ ب، ٥).

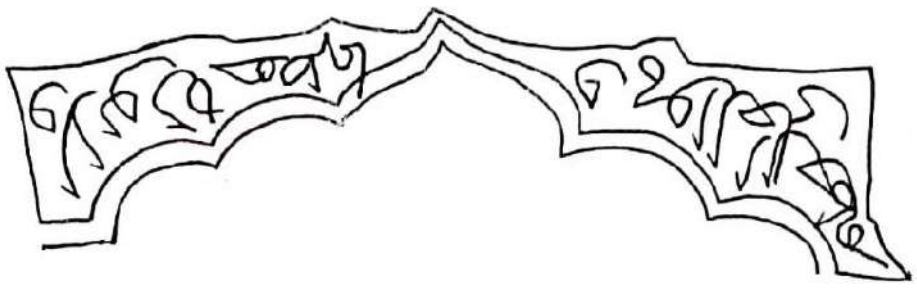

شكل (٤ أ) كوشتا عقد القسم الأعلى للشاهد (١)

شكل (٤ ب) الأوراق الثلاثية في كوشتي عقد القسم الأسفل للشاهد (١)

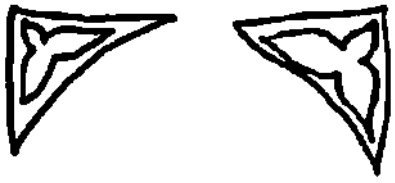

شكل (٥) الأوراق الثلاثية في كوشتي عقدي القسم الأعلى والأسفل للشاهد (٢)

٢,٨. الميمات الزخرفية: اشتملت الإطارات الخارجية للشاهدين على ميمات زخرفية متأثرة بالزخرفة نفسها المتبعة في شواهد القرنين (١١-١٢هـ/١٧-١٨م)، لكنها اختلفت في الزخرفة الوسطية التي تشغل تجويف الميمات؛ ففي الشاهد رقم (١) تضم زخرفة هندسية على شكل نجمة مفرغة ثمانية الرؤوس (شكل:٦)، بينما شغلت ميمات الشاهد رقم (٢) بنجمة سداسية الرؤوس مفرغة، شغل فراغ وسطها الشبيه بخلية النحل بدائرة صغيرة مفرغة الوسط (شكل:٧).

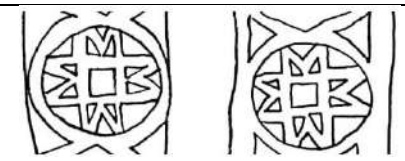

شكل (٦) الميمات وبداخلها النجمة الثمانية في الشاهد (١)

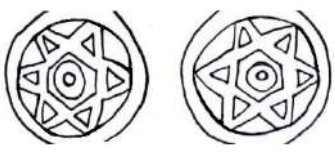

شكل (٧) الميمات وبداخلها النجمة السداسية في الشاهد (٢)

٢,٩. العقود الزخرفية: زين الشاهدان في قسمهما الأعلى بعقود زخرفية مفصصة، يتألف عقد الشاهد رقم (١) من سبعة فصوص؛ بينما صمم عقد الشاهد رقم (٢) من خمسة فصوص، وتتشابه هذه العقود الزخرفية المفصصة مع شواهد القرنين (١١-١٢هـ/١٧-١٨م). أما عقد القسم الأسفل للشاهد رقم (١) فعقده نصف دائري الشكل مدبب الأعلى ومتوج بورقة ثلاثية، في حين أن عقد القسم الأسفل في الشاهد رقم (٢) فمدبب ذو مركزين تتوجه ورقة ثلاثية البتلات.

٢,١٠.الزخرفة النباتية: اقتصر وجود الزخارف النباتية على تلك التي تشغل كوشتي العقد الداخلي للشاهدين (شكل:٤ ب، ٥)، إضافة إلى أوراق ثلاثية ومراوح نخيلية وأنصافها تشغل الفراغ بين كتابة سطر القسم الأعلى للشاهد رقم (١) (شكل:٨، ٩)، وأوراق كأسية ثنائية وثلاثية البتلات (شكل:١٠، ١١، ١٢) تنبثق من نهاية حرف الهاء في كلمتي (إله، الله) في السطر الكتابي للقسم الأعلى من الشاهد رقم (٢). وهي تشبه الزخارف النباتية التي كانت سائدة في شواهد قبور القرنين (١١-١٢هـ/١٧-١٨م).

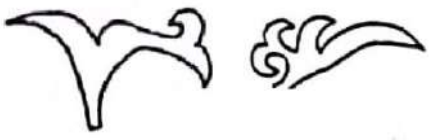

شكل (٨) المراوح النخيلية وانصافها – الشاهد (١)

شكل (٩) الورقة الثلاثية المتوجة للعقد – الشاهد (١)

شكل (١٠) الورقة الثلاثية المتوجة لعقد الشاهد (٢)

شكل (١١) الأوراق الثلاثية - الشاهد (١)

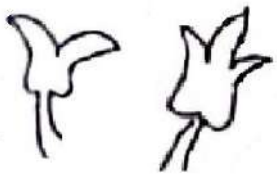

شكل (١٢) الأوراق الكأسية الثنائية والثلاثية البتلات – الشاهد (٢)

ثالثاً: تحليل المضمون الكتابي:

٣,١. البسملة: وردت بداية النص الرئيس للشاهدين (شكل:١٣، ١٤)، وتكررت بداية الإطار الداخلي للشاهد رقم (٢) (شكل:١٥).

شكل (١٣) البسملة في القسم الأعلى للشاهد (١)

شكل (١٤) البسملة في القسم الأعلى للشاهد (٢)

شكل (١٥) البسملة في الإطار الداخلي للشاهد (٢)

٣,٢. الآيات القرآنية: وردت آية الكرسي (٢٥٥) من سورة البقرة في الإطار الخارجي للشاهد رقم (١) (شكل:١)، بينما وردت في الإطار الداخلي للشاهد رقم (٢)؛ ونصها: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي/ الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ/ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ/ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ" (شكل:٢).

وفي الإطار الداخلي للشاهد رقم (١) وردت الآيتان (٢١، ٢٢) من سورة التوبة ونصهما: "يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[1]" (شكل:١). كما وردت في الإطار الخارجي للشاهد رقم (٢) الآيتان (٣، ٤) من سورة الإخلاص (شكل:٢)، ووردت سورة الإخلاص كاملة في الإطار الداخلي للشاهد نفسه (شكل:٢)، وتفرد النص الرئيس لهذا الشاهد بأن وردت فيه الآيتان (١٧، ١٨) من سورة الذاريات ونصهما: "كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون" (شكل٢).

(١) القرآن الكريم، سورة التوبة، الآيتان: (٢١-٢٢).

٣,٣. الشهادتين: اختلف لفظ الشهادتين فجاءت مجردة من أي عبارات في الشاهد رقم (١) ونصها: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، بينما ألحقت بها عبارة الصلوات في الشاهد رقم (٢) ونصها: "لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله".

٣,٤. شهادتا التوحيد والرسالة: انفرد الشاهد رقم (٢) بشهادة التوحيد مسبوقة بالحمدلة والبقاء والدوام ومتبوعة بالآيتين (٣، ٤) من سورة الإخلاص، وتتلوها شهادة الرسالة متبوعة بالصلوات في بحور الإطار الخارجي ونصها: "وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك/ له إلهاً واحداً احداً فرداً صمداً لم يتخذ صاحبه ولا/ ولداً لم يلد ويولد ولم يكن له كفواً أحد وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

٣,٥. عبارة الترحم: وردت هذه العبارة في الشاهد رقم (١) بلفظ المثنى ونصها: "رحمة الله عليهما"، ولم تذكر عبارة الترحم في الشاهد رقم (٢).

٣,٦. الحمدلة: تفرد بها الشاهد رقم (٢)، ولفظها: "الحمد لله الذي لا يبقى إلا وجهه ولا يدوم إلا ملكه".

٣,٧. الصلوات: وردت عبارة الصلوات في السطر الأيسر للإطار الخارجي في الشاهد رقم (٢)، ونصها: "صلى الله عليه وعلى آله وسلم"، بينما لم ترد في الشاهد رقم (١).

٣,٨.عبارة الثقة بالله: وردت نهاية السطر الأول من النص الرئيسي للشاهدين رقم (١) ونصها: (وبه ثقتي)، ولم ترد في الشاهد رقم (٢).

٣,٩. عبارة التصديق والتعظيم: وردت في نهاية الإطار الداخلي للشاهدين ونصها: "صدق الله العظيم".

٣,١٠. عبارة الحفظ: وردت في النص الرئيس للشاهد رقم (١) ونصها: "حفظه الله"، ويقصد به الامام المهدي محمد بن أحمد، ولم ترد في الشاهد الثاني، وهي سمة جديدة لم تظهر في شواهد القرن الثاني عشر.

٣,١١. تاريخ الوفاة: لم يحدد في الشاهد رقم (١) يوم وفاة أي من زيد أشرف الدين، أو تاريخ ذلك اليوم، كما لم يذكر أيضاً شهر وفاتهما، وإنما اكتفى الصانع بكتابة " أحد شهور سنة سبع عشرة ومائة وألف". ومن المرجح أن هذا النص الأثري يدل على أنهما توفيا في الشهر نفسه، وربما في يوم واحد، ففضَّل والدهما الإمام المهدي محمد بأن يصنع لهما شاهد قبر واحد. أما في الشاهد رقم (٢) سجل يوم وفاة صاحب الشاهد (علي) وتاريخ ذلك اليوم وذكر اسم الشهر والسنة كتابة، ونصه: "نقلة الله الى دار كرامته في يوم الإثنين سادس وعشرين شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائة وألف".

٣,١٢. الألقاب:

٣,١٢,١. الألقاب الجديدة: ويوجد في الشاهدين ستة ألقاب جديدة لم تتناولها دراسات سابقة هي:

٣,١٢,١,١. جمال الإسلام: جمال الإسلام: الجمال لغة: الحسن، وجمال الشيء: حسنه، وأضيفت إليه عدة ألفاظ (الدنيا والدين، الملة) لتكوين ألقاب مركبة تطلق على العلماء والقضاة وأرباب الأقلام والشرفاء والتجار (الصديقي، ١٩٦٧: ١٦٦؛ مصطفى، ٢٠٠٤: ٢٨٠؛ العمري، ٢٠٠٨: ٢٢٠-٢٣٠؛ القلقشندي، ١٩٢٢: ٤٨٩؛ الباشا، ١٩٨٩: ٢٣٩)، وأضيف إلى (الإسلام) لتكوين لقب مركب جديد، لقب به علي بن الإمام المهدي صاحب المواهب.

٣,١٢,١,٢. خليفة رسول الله: لقب مركب كان أول ظهوره بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوّل من لقب به أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان رضي الله عنهم، ثم لقب به الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (القلقشندي، ١٩٢٢: ٤٧٠)، وأول من لقب به على شواهد القبور اليمنية هو الإمام المهدي محمد (صاحب المواهب) بن المهدي أحمد، على شاهد قبر ابنه الأمير علي، حسب ما وصل إلينا من شواهد القبور اليمنية المدروسة.

٣,١٢,١,٣. ريحانة الجنة: الريحانة نَبْتتٌ معروفةٌ طيبة الرائحة (الجوهري، ٢٠٠٩: ٤٧٦؛ الفيروزآبادي، ٢٠٠٨: ٦٨٠)، تتخذ للتطيب لريحتها العطرة، و(ريحانة الجنة): لقب مركب أطلق على الأمير: علي بن الإمام المهدي محمد صاحب المواهب بن المهدي أحمد في شاهد قبره.

٣,١٢,١,٤. سليل الأئمة الأعاظم الكرام: السَّليلُ: الولد، لأنه يُسُلَّ من بطن أُمِّه: أي يجُذَبَ يدوياً برفق وعناية، ويضاف لعدة ألفاظ مثل: (سليل الأطهار، سليل أهل المفاخر، سليل العلماء الموحدين، سليل الملوك والسلاطين،) ويطلق على الشرفاء (الفراهيدي، ٢٠١١: ٤٣٧؛ الفيروزآبادي، ٢٠٠٨: ٩٣٤؛ الباشا، ١٩٩٨: ٣٣٩؛ الرصاص، ٢٠٢٥؛ ٥٠٠). وفي اليمن و(سليل الأئمة الأعاظم الكرام) لقب مركب الأمير علي بن الإمام المهدي محمد صاحب المواهب بن المهدي أحمد.

٣,١٢,١,٥. ضياء الدين: لقب مركب مضاف إلى الدين، وجد على بعض نقود السلاطين البحرية وبني بويه في بلاد فارس (الباشا، ١٩٨٩: ٣٨١)، وسجل لأول مرة في شواهد القبور الإسلامية اليمنية على شاهد قبر الأمير: زيد بن الإمام المهدي محمد صاحب المواهب بن المهدي أحمد.

٣,١٢,١,٦. الوفي: مأخوذ من الوفاء نقيض الغدر، والوفي لقب أطلق على أحمد بن عبد الله في مسكوكاته في نيسابور سنة (٢٦٨هـ) (الباشا، ١٩٩٨: ٥٤١)، ووجد مسجلا لأول مرة في شواهد القبور اليمنية على شاهد قبر الأمير: علي بن الإمام المهدي محمد صاحب المواهب بن المهدي أحمد.

٣,١٢,٢. الألقاب التي تناولتها دراسات سابقة: جاءت في الشاهدين أربعة عشر لقباً قد تناولتها دراسات أثرية سابقة لهذه الدراسة نورد هذه الألقاب كما وردت كالآتي: الأجلين، الأكملين، الامام، إمام

المتقين، الأمجدين، أمير المؤمنين (تكرر ثلاث مرات في الشاهد رقم:١)، البر، التقي، سيدي، السيدين، الشاب، شحاك الملحدين، المهدي لدين الله، المهدي لدين رب العالمين.

النتائج

١. بينت الدراسة أن الموقع الحالي لشاهدي القبرين ليس هو الموقع الأصلي الذي كانا فيه، إذ كان شاهد قبر: علي بن الامام المهدي مثبت بجوار قبره في جدار ضريحه ووالده. أما شاهد قبر: زيد وشرف الدين ابني الامام المهدي فما زال الغموض يكتنف الموقع الأصلي الذي كان فيه.

٢. أوضحت الدراسة تاريخ وفاة الأمير علي بن المهدي محمد صاحب المواهب: "يوم الإثنين سادس وعشرين شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائة وألف"؛ وبذلك تؤكد هذه النتيجة ما ورد في المصادر التاريخية أن وفاته كانت سنة (١١١٨هـ)، ويضيف الشاهد ذكر يوم وفاته وتاريخ ذلك اليوم، ويذكر أيضاً الشهر الذي توفي فيه والذين لم تذكرهما المصادر.

٣. اشترك ابنا الإمام المهدي محمد (زيد وشرف الدين) في شاهد قبر واحد.

٤. كشفت كتابات شاهد القبر رقم (١) عن اسم شرف الدين بن الامام المهدي محمد بن أحمد الذي لم تذكره المصادر.

٥. توفي زيد وشرف الدين إبني الامام المهدي محمد في أحد شهور سنة (١١١٧هـ)، وربما أنهما كانا طفلين صغيرين، ولذا لم يهتم بترجمة سيرتهما المؤرخين، مما يكتنف ظروف وفاتهما غموض تام لعدم ذكرها في المصادر التاريخية.

٦. ظهرت في شاهد قبر زيد وشرف الدين (الشاهد رقم:١) عبارة "حفظه الله" وهي سمة جديدة في شواهد القبور اليمنية، ويقصد بها حفظ الله والدهما الإمام المهدي محمد، الذي كان حياً حين وفاتهما.

٧. كشفت الدراسة عن ستة ألقاب جديدة لم تظهر في شواهد القبور اليمنية من قبل.

٨. خلا شاهدا القبر من توقيع صانعهما، وأظهرت الدراسة أن صانع كل شاهد يختلف عن الآخر من خلال المقارنة بين خطوط الشاهدين.

٩. تميز الشاهدان بالخصائص الفنية والزخرفية لشواهد القبور الزيدية في اليمن التي سادت في القرن الثاني عشر الهجري، برغم قلة الزخارف النباتية والهندسية.

١٠. حملت المضامين الكتابية للشاهدين سمات شواهد القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري، خاصة في القسم العلوي والأطراف.

وتوصي الدراسة بضرورة ترميم وصيانة شاهدي القبرين، وإعادة تثبيت شاهد قبر علي بن الامام المهدي في موقعه السابق بجوار قبره داخل الضريح.

المصادر والمراجع

إبراهيم أحمد محمد المطاع. (٢٠٠٠). جامع الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين والمنشآت الملحقة به في مدينة صعدة باليمن (دراسة أثرية مقارنة). مصر: أطروحة دكتوراة غير منشورة، جامعة جنوب الوادي.

إبراهيم أحمد المقحفي. (٢٠١١). معجم البلدان والقبائل اليمنية. صنعاء، اليمن: مكتبة الجيل الجديد.

إبراهيم مصطفى. (٢٠٠٤). المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية، القاهرة: دار الدعوة.

أحمد بن علي القلقشندي (ت:٨٢١هـ). (١٩٢٢). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. القاهرة: (نسخة مصورة عن نسخة المطبعة الأميرية)، دار الكتب المصرية.

أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (٧٤٩هـ). (٢٠٠٨). عُرْف التَّعرِيف في المكاتبات. تحرير: سمير الدروبي، عمان: دار ابن الجوزي بدعم من وزارة الثقافة.

إسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٨هـ). (٢٠٠٩). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. المحررون محمد تامر، وآخرون، القاهرة: دار الحديث.

ثروت عكاشة. (١٩٩٠). المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية. بيروت: مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر.

الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت:١٧٥هـ). (٢٠٠٣). كتاب العين (المجلد ١). تحقيق عبد الحميد هنداوي. بيروت: دار الكتب العلمية.

حسن الباشا. (١٩٩٩). موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية (المجلد ١). بيروت: أوراق شرقية.

حسن الباشا. (١٩٨٩). الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار. القاهرة: الدار الفنية للتوزيع والنشر.

حسن لطف أحمد الرصاص. (٢٠١٩). شواهد القُبور الإسلامية في مقبرة العِشَرَة بمدينة حوث(دراسة في الشكل والمضمون). صنعاء: رسالة ماجستير، غير منشورة، قسم الآثار والسياحة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة.

حسن لطف أحمد الرصاص. (٢٠٢٥). الكتابات الشاهدية الإسلامية في مقبرة القرضين بمدينة صعدة –دراسة أثرية مقارنة. صنعاء: أطروحة دكتوراة، غير منشورة، قسم الآثار والسياحة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صنعاء.

زكي محمد حسن. (١٩٤٢). فنون الإسلام. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

عاصم محمد رزق. (٢٠٠٠). معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية. القاهرة: مكتبة مدبولي.

عامر علي الطالبي (ت:١١٣٥هـ). (٢٠١٢). بغية المريد وأنس الفريد إلى معرفة انتساب ذرية السيد علي بن محمد بن علي بن الرشيد المسمى تاريخ الدولة القاسمية في اليمن حتى سنة ١١٣٠هـ (المجلد ١). صنعاء: مكتبة الجيل الجديد.

عبدالسلام أحمد نظيف. (١٩٨٩). دراسات في العمارة الإسلامية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

علي سعيد سيف١. (٢٠٠٨). جامع الإمام عبدالله بن حمزة بظفار ذيبين في اليمن دراسة أثرية معمارية، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الجزيرة العربية من القرن الخامس حتى نهاية القرن السابع الهجري، الكتاب السادس، كلية الآثار والسياحة، جامعة الملك سعود، ٤٨٩– ٥٧٣.

علي سعيد سيف ٢. (٢٠٠٨م). نقش إسلامي شاهدي ومرثية للإمام المتوكل على الله القاسم بن الحسين (١١٣٩هـ/١٧٢٧م) بقبته الضريحية بمدينة صنعاء. مجلة أبجديات، مكتبة الإسكندرية، العدد ٣، ١٠٤– ١٢١.

علي سعيد سيف. (١٩٩٨). الأضرحة في اليمن من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وحتى نهاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. صنعاء، اليمن: جامعة القاهرة، جامعة صنعاء.

فريد محمد شافعي. (١٩٩٤). العمارة العربية في مصر الإسلامية (عصر الولاة). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

محسن بن الحسن أبو طالب. (مخطوط). تاريخ اليمن المسمى طيب أهل الكسا والفلك الذي على جودي النجاة رسا المقدم على من وشى صنعاً والبالغ إليه إن شاء الله على الابتهاج في المسمى، مخطوط مصور لدى الباحث نسخة إلكترونية منه مصورة عن نسخة الخزانة السليمانية.

محمد علي الشهاري. (٢٠٠٩). اليمن في ظل حكم الإمام المهدي المعروف بصاحب المواهب (١٠٩٧–١١٣٠هـ/ ١٦٨٦–١٧١٨م) (المجلد ١). صنعاء: الجيل الجديد ناشرون.

محمد أحمد الحجري. (٢٠١١). مجموع بلدان اليمن وقبائلها (المجلد ٥). صنعاء: مكتبة الإرشاد.

محمد بن علي الشوكاني (ت:١٢٥٠هـ). (٢٠٠٧). البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع. (محمد أحمد عبد العزيز سالم، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ). (٢٠٠٨). القاموس المحيط. (أنس محمد الشامي، و زكريا جابر أحمد، المحررون) القاهرة: دار الحديث.

محمد طاهر بن علي الصديقي. (١٩٦٧). مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، ط٣، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.

محمد عبدالمقصود خطاب. (٢٠٠٧). الصخور من المنشأ والتكوين إلى الحضارة والعمارة والفنون. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

محمد فتحي عوض الله. (١٩٩٤). المعادن والصخور والحفريات. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

محمد محمد زبارة. (٢٠١٢). نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف (نبلاء اليمن بالقرن الثاني عشر للهجرة) (المجلد ١). صنعاء: مكتبة الجيل الجديد.

نادر محمود عبد الدائم. (٢٠٠٧). العقود الزخرفية على الفنون والعمارة الإسلامية في مصر حتى نهاية العصر المملوكي. المؤتمر العلمي الأول للعمارة والفنون الإسلامية الماضي والحاضر والمستقبل، ٢٧-٢٩ أكتوبر، القاهرة: رابطة الجامعات الإسلامية، ١٥٣- ١٦٥.

Italiano Istituto. (1986) Archaeological Activities in the Yemen Arab Republic. Istituto Italiano per l'Africa e l'Oriente (IsIAO): Archaeological Activities in the Yemen Arab Republic, East and West, Vol. 36, No. 4 (December 1986), pp. 425, 427.: Istituto Italiano per l'Africa e l'Oriente (IsIAO).

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: أ.م.د. جعفر أصغر عباس

الجامعة: كركوك

الكلية: الآداب

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:
jaafar_abbas@uokirkuk.edu.iq

الهاتف: ٠٧٧٠٥١٢٥٢٣٦

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ١٤/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ١٠/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (الدولة العثمانية، قولالي، عبد المجيد، التنظيمات، المعارضة، فرمان الإصلاح)

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

عنوان البحث

واقعة قولالي (١٨٥٩م)

ملخص البحث

تعد واقعة قولالي في ١٨٥٩م من الأحداث السياسية الخطيرة في التاريخ العثماني وأول محاولة جادة لتغيير سياسة الدولة في عصر التنظيمات، وهي حركة معارضة سياسية ذات تنظيم سري ضمت أعضاء من مختلف الشرائح الاجتماعية والثقافية، واشتقت اسمها من اسم الثكنة العسكرية التي شهدت محاكمة المعارضين الذين تم اعتقالهم قبل ان تدخل خطتهم حيز التنفيذ. استهدف التنظيم تغيير المسار السيِّئ للدولة وإقامة إدارة نزيهة وذات كفاية في ظل سلطان جديد للقيام بإصلاح الأوضاع وضمان التطبيق الصحيح للشريعة، وانتهاج كل السبل لضمان تحقيق تلك الأهداف حتى وان لزم تغيير السلطان بخلعه او اغتياله. وشكّلت ظروف حرب القرم والأزمات المالية التي اعقبتها والحقوق الممنوحة لغير المسلمين بموجب فرمان الإصلاح (١٨٥٦م) دافعا قويا لتحريك الفئات المحافظة والساخطة للانتظام في سلك المعارضة. وعلى الرغم من فشل الحركة في تحقيق أهدافها، الا انها كشفت عن عمق المشكلات الاجتماعية والسياسية التي كانت تعيشها الدولة في عهد التنظيمات، كما انها كشفت عن طبيعة المعارضة السياسية التي بدأت في الظهور في الدولة العثمانية وطريقة استجابة الدولة لها، و شكّلت نموذجا اوليا ومثالا للأجيال المثقفة اللاحقة التي تلتها في مسار المعارضة السياسية.

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Asst. Prof. Dr. Jaafar Asghar Abbas
University: Kirkuk
College: Arts
Department: History
Country: Iraq
Email: jaafar_abbas@uokirkuk.edu.iq
Phone: 07705125236

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 14/ June / 2026
Acceptance Date: 10/ July/ 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (The Ottoman State, kuleli, Abd al-Majid, organisations, the opposition, the Reform Edict)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Kuleli Incident (1859)

Abstract

The Kuleli Incident of 1859 is regarded as one of the most significant political events in Ottoman history and the first serious attempt to change state policy during the era of the Tanzimat. It was a political opposition movement with a secret organisation that included members from various social and cultural backgrounds; Its name was derived from the military barracks where the opposition members who had been arrested were tried before their plan could be put into action. The organisation aimed to reverse the state's downward trajectory and establish an honest and efficient administration under a new sultan to reform the situation and ensure the proper application of Sharia law, pursuing every means to achieve these goals, even if it meant changing the sultan by deposing or assassinating him. The circumstances of the Crimean War, the financial crises that followed, and the rights granted to non-Muslims under the Reform Edict (1856) provided a powerful impetus for conservative and disaffected groups to join the ranks of the opposition. Although the movement failed to achieve its objectives, it revealed the depth of the social and political problems facing the state during the era of the Tanzimat. It also revealed the nature of the political opposition that was beginning to emerge in the Ottoman State and the state's response to it, serving as an early model and example for subsequent educated generations who followed in its footsteps on the path of political opposition.

المقدمــة

يمثل القرن التاسع عشر أحلك وأعقد مراحل التاريخ العثماني؛ لما شهده من احداث وتطورات مهمة وخطيرة على مختلف الأصعدة، ومن ذلك تحولات في الإدارة الحكومية تحت تأثير الضغوط الداخلية والخارجية. وقد بادر رجال الدولة القائمون على ادارتها الى اجراء إصلاحات مستلهمة من النظم والقوانين الأوروبية في محاولة من أجل إعادة بناء الدولة وحلّ مشكلاتها. وتعد محطات مثل الغاء الإنكشارية (١٨٢٦م) ومرسوم التنظيمات (١٨٣٩م) ومرسوم الإصلاح (١٨٥٦م) نقاط تحول جوهرية في طريق الإصلاحات.

وفي السياق ذاته يُعد عهد التنظيمات (١٨٣٩-١٨٧٦م) من أي منظور نقطة تحول في التاريخ العثماني، وخلال هذا العهد نفذت الدولة برنامجا للتحديث والإصلاح في مؤسساتها الإدارية والعسكرية والاقتصادية. غير ان التحديث الذي استهدف معالجة مشكلات الدولة وتطويرها كما سبقت الاشارة، أدى أيضا الى ظهور مشكلات جديدة تمثلت في ظهور مواقف وحركات معارضة نبعت من دوافع مختلفة سواء كانت رفضا للتحديث بحد ذاته او آليات تطبيقه او اعتبار تلك الإصلاحات غير كافية.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تمثلت اول استجابة كبيرة ومنظمة ضد إصلاحات عهد التنظيمات في واقعة قولالي (ذات الأبراج) التي تركت بصمتها على تاريخ حركات المعارضة السياسية في الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. ومع ان تاريخ الدولة العثمانية حافل بالمؤامرات وحركات تمرد ومعارضة منذ تأسيسها. غير ان واقعة قولالي فاقت جميعها في اثارة الاهتمام لدى الأوساط العلمية والسياسية، واستمر النقاش والجدل حول ماهيتها، فانتج سيلا من التفسيرات والتقييمات المتناقضة ما لم يتحقق لحركة معارضة أخرى في التاريخ العثماني. ومن هنا تكتسب دراسة هذه الواقعة أهميتها التاريخية والعلمية في مساهمة اكاديمية من اجل الوقوف على مجرياتها وحقيقتها، وإزالة اللبس حول أهدافها وطبيعتها، من خلال مراجعة وتحليل المعلومات والاحداث والتفسيرات والادعاءات المختلفة التي وردت واثيرت حول الواقعة، ومدى تطابق تلك الآراء والتفسيرات مع الحقيقة التاريخية التي ننشدها او خضوعها للمؤثرات السياسية وظروفها مع محاولة قراءة الخلفيات المتعلقة بمواقع الأطراف التي عبرت عن آراءها حول الواقعة ومقاصدها.

الظروف الممهدة لواقعة قولالي:

بدأ عهد التنظيمات في الدولة العثمانية بصدور مرسوم التنظيمات (خط همايون كولخانه) في ٣ تشرين الثاني ١٨٣٩م الذي يعد منعطفا مهما في التحديث العثماني، وجاء اعلان المرسوم في جو من الفوضى بسبب تمرد والي مصر محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨م)، وكان يهدف لمنع تدخل القوى العظمى في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية وتعزيز ولاء الرعايا غير المسلمين للدولة في وقت اشتدت فيه موجات القومية (Kurt ve Mengüaslan , 2017,S.405) . وعلى صعيد آخر كان صدور المرسوم محاولة من أجل إعادة بناء الدولة التي بدأت تتجه نحو الانهيار بسبب تآكل أسسها الاقتصادية والاجتماعية بمبادئ جديدة مستوحاة من الغرب(İnalcık ve Seyitdanlıoğlu,2006, S.28-29)، ولبناء إدارة داخلية قائمة على أسس ثابتة محددة وصريحة بوصفها السبيل الوحيد لإنقاذ الدولة العثمانية (Akandere ve Polat,2019 , S. 1291)، وبموجب هذا المرسوم قبل السلطان العثماني لأول مرة تقييد سلطته بارادته (Kurt ve Mengüaslan, 2017,S.405)، كما تضمن مواداً مهمة مثل ضمان أمن الأرواح والممتلكات والأعراض لجميع رعايا الدولة بدون تمييز، وتنظيم الضرائب، ومسألة الخدمة العسكرية (Dalgali, 2023, S.52)، وأدى السلطان اليمين على الالتزام بالمرسوم والقوانين التي ستصدر بموجبه مستقبلا . ان صياغة المرسوم واعلانه من قبل وزير الخارجية العثماني مصطفى رشيد باشا [١]، ودعوة السفراء الأجانب لحفل الإعلان اظهر ان المرسوم قد انتج تحت تأثيرات خارجية، لذا

(١) مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠-١٨٥٨م) : من ابرز رجال الدولة في عصر التنظيمات واحد ابرز الدبلوماسيين في التاريخ العثماني، بدأ مسيرته في السلك الحكومي منذ ١٨٢١م من وظيفة امين الاختام ثم تدرج في المناصب لمهارته الكتابية، شارك في مفاوضات سلام أدرنة (١٨٢٩م)، وكذلك في حل المسألة المصرية وتولى رئاسة الكتبة في (١٨٣٢م). ثم عُيّن سفيراً استثنائيا ودائما في باريس ولندن بين عامي (١٨٣٤ – ١٨٣٦م)، حيث اكتسب خبرة عميقة في الدبلوماسية الأوروبية وأتقن الفرنسية. تولى وزارة الخارجية عام ١٨٣٧م، ثم تربع على قمة الهرم الإداري بتوليه منصب الصدر الأعظم ست مرات متفرقة ما بين (١٨٤٦ – ١٨٥٧م). يُعد مهندس مرسوم التنظيمات التاريخي الذي هدف إلى تحديث الدولة العثمانية ونشر التنوير وتعميم التعليم وفق النموذج الأوروبي، نجح عبر الدبلوماسية وبدعم من بريطانيا في كبح طموحات محمد علي باشا وحصر نفوذه قانونيا في مصر وحماية الدولة العثمانية من التفكك. أنشأ المحكمة التجارية المختلطة، وحظر التعذيب، وأسس وزارة المدارس العامة، ومبنى أرشيف الخزانة. آمن بأن بقاء الدولة العثمانية يعتمد على موازنة العلاقات بين القوى الأوروبية، وركز بشكل أساسي على بناء تحالف قوي مع بريطانيا، وعلى الرغم من توجهه الإصلاحي، انتقد المساواة الكاملة والحرية التامة الممنوحة لغير المسلمين في معاهدة باريس لاعتقاده بأنها تتجاوز الحد وتضر بالطابع التاريخي للدولة وستؤدي لصراعات طائفية. للتفصيل ينظر: . Beydilli, 2006 , S.348-350

قوبل بارتياح كبير في أوروبا، بينما تسبب في استياء الأوساط المحافظة محليا[١]. ونشر في الجريدة الرسمية للدولة (تقويم الوقائع)، كما ترجم وارسل الى السفارات (Dalgali, 2023, S.52).

اما الخطوة الثانية المهمة فهي مرسوم الإصلاحات الذي أصدره السلطان عبد المجيد في ١٨ شباط ١٨٥٦م اثناء انعقاد مؤتمر باريس، وقد ورد ذكر المرسوم أيضا في المادة التاسعة من معاهدة باريس(٣٠ اذار ١٨٥٦م) التي انهت حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية (١٨٥٣-١٨٥٦م) (Armaoglu,1997,S. 258)، وواجهت الأخيرة موقفا صعبا خلال الحرب، وكانت بحاجة الى المساعدة والدعم البريطاني والفرنسي بعد التحالف معهما، ولكن كان لهذا الدعم ثمن وهو اصدار المرسوم المذكور(Dalgali, 2023, S.53) الذي استهدف إرساء نظام متساو بين المسلمين والمسيحيين . ومن هذه الزاوية لا يوجد اختلاف بين المرسومين، الا ان هناك اختلاف بينهما في جوانب أخرى منها: ان مرسوم الإصلاح استمد مصدره ومواده بشكل كبير من تدخلات الدول الكبرى ونشر بناءً على طلبها، وانبثق نتيجة لأحداث السياسة الخارجية. وهذه مسائل او خصائص غير موجودة في مرسوم التنظيمات، كما ان مرسوم الإصلاح منح حقوقا جديدة للمسيحيين وصدر لأجلهم ولا يتضمن أي حقوق جديدة للمسلمين [٢] (Armaoglu,1997,S.259) . وهناك قضية أخرى تجب الإشارة اليها في عهد

---

(١) فيما يتلق بالحقوق الجديدة كان مرسوم التنظيمات قد حدد المبادئ المتعلقة بتأمين الحقوق الطبيعية لكافة الرعايا مثل حق الحياة وصون المال والعرض والكرامة، وضمان تنظيم الضرائب والخدمة العسكرية على أساس العدالة، ولم يتطرق الى الحقوق السياسية . اما في فرمان الإصلاح ففضلا عن الحقوق الطبيعية المشار اليها في خط كولخانه فقد قبل مبدأ الحرية والمساواة امام القانون لكافة الرعايا دون تمييز في الدين او العرق. وبذلك ازيل عدم المساواة القائم بين المسلمين وغيرهم، ومنح غير المسلمين حقوقا سياسية مثل التعيين في كافة وظائف الدولة، والتمثيل في مجالس الولايات والألوية، وفي المجلس الأعلى للاحكام القضائية، فضلا عن ذلك فبينما منحت حرية المعتقد للرعايا غير المسلمين فقط وحافظوا على تنظيماتهم الدينية خارج اطار الدولة، لم تمنح أي إمكانية للشعب المسلم لتأسيس أي تنظيم خارج سلطة الدولة . للتفصيل ينظر : . Karal, 2007 . S. 3-6

(٢) من الأمور التي اثارت ردود فعل غاضبة لدى المسلمين عند التطبيق ما جاء في مرسوم التنظيمات من ممارسات تهدف الى تغيير نظام الملل التقليدي القائم على أساس ديني في المجتمع العثماني، فعلى سبيل المثال لم يعد يسمح اطلاق تعبير (غاور : Gâvur) أي كافر على غير المسلمين بسبب معناها التحقيري في لغة الشعب، واصبح قرع الاجراس في المناطق ذات الأغلبية المسيحية امرا متاحا، كذلك ما يتعلق بالتعيينات الإدارية التي تحولت في الممارسة العملية الى تمييز إيجابي لصالح غير المسلمين وان لم تكن كذلك في جوهرها، كما ان طول مدة الخدمة العسكرية وعدم وضوحها كان سببا آخر من أسباب السخط الاجتماعي، فضلا عن رفض فئة الاشراف والولاة والاعيان وبعض القضاة والعلماء النظام الجديد الذي أراد مرسوم التنظيمات ارساءه لتقاطعه مع مصالحهم التي كانت في استمرار الوضع القائم، واشخاص آخرين انزعجوا من الغاء نظام الالتزام . ينظر: . Albaş , 2020 , S.42

عبد المجيد وهي المشكلات الاقتصادية. ففي عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) ومن اجل كسب الدعم البريطاني في المسألة المصرية تم التوقيع بين الطرفين على اتفاقية بلطة ليماني (Baltalimanı) التجارية عام ١٨٣٨م [١]، والتي أدت الى انهيار الصناعة العثمانية الناشئة وانماط الإنتاج التقليدية محوّلة الدولة الى شبه مستعمرة للقوى العظمى وعلى رأسها بريطانيا، وعقب هذه الاتفاقية وبسبب الموارد التي انفقت على الإصلاحات واستثمارات البنية التحتية، والتكاليف الباهظة لحرب القرم لجأت الحكومة العثمانية الى الاقتراض الخارجي (Kurt ve Mengüaslan , 2017, S.406) . فبعد اول قرض تم الحصول عليه من بريطانيا وفرنسا في اب ١٨٥٤م والذي بدا مغرياً للسلطان ورجال الدولة، تلتها قروض أخرى في أعوام ١٨٥٥م و١٨٥٨م و١٨٦٠م، ثم أصبحت سياسة الاقتراض الخارجي مألوفة كل سنتين او ثلاث وأحيانا كل عام، ولكن القروض لم تستثمر في مشاريع اقتصادية، بل استخدمت في نفقات مثل الحروب وقمع التمردات وشراء الأسلحة، وبناء القصور، ودفع الرواتب. ولما أدرك الدائنون ذلك بدأوا بفرض شروط قاسية للاقتراض. وتزامنا مع ذلك تفشى الاسراف والفساد في القصر، ومن ذلك بلغت نفقات حفل زفاف ابنة السلطان عبد المجيد في ١٨٥٤م الذي استمر خمسة عشر يوما مليوني قطعة ذهبية، وعلى الرغم من محاولات رجال التنظيمات بين الحين والأخر فرض إجراءات تقشفية على القصر، الا انهم كانوا يدركون ان البقاء في السلطة يتطلب التغاضي عن اسراف السلطان وانغماسه في الملذات. وكان من ابرز أسباب هذا الاسراف انتشار نمط الحياة الغربي داخل الحدود العثمانية، وتجلى ذلك في الملابس والأثاث والعمارة، وكان بناء قصر دولمه باغجه في ١٨٥٣م فاتحة المنشآت المعمارية التي صنفت ضمن دائرة الاسراف في تلك المرحلة (Akşin, t.y , S.132-133).

(١) تم التوقيع على هذه الاتفاقية التجارية في ١٦ اب ١٨٣٨م وبموجبها تم إلغاء مبدأ اليد الواحدة (الاحتكار) بشكل كامل في كافة الأراضي العثمانية، وقبول حرية التجارة الكاملة، كما أضيفت امتيازات جديدة إلى الامتيازات القديمة، وبذلك فقد التجار والصناعيون العثمانيون الموجودون داخل الأراضي العثمانية بعض امتيازاتهم الخاصة، وأصبحوا غير قادرين على منافسة البضائع الأوروبية. وقد أحدثت هذه الاتفاقية تأثيراً مدمراً على الصناعة القائمة في البلاد، كما تعسرت عملية تصدير البضائع من قبل التجار العثمانيين بسبب الرسوم الجمركية الداخلية. أما ممارسة التجار الأجانب للتجارة بحرية تامة داخل البلاد، فقد أحدثت تأثيرات سيئة للغاية على الاقتصاد العثماني. فضلا عن ذلك فان التغيرات المفاجئة التي طرأت على مقتنيات الطبقة العليا وأسلوب حياتها قد جعلت البلاد تعتمد على الخارج من جميع النواحي، ولم يتم تلبية تلك الاحتياجات محليا، بل عن طريق التجار الأجانب، فتدفق الذهب من داخل البلاد إلى الخارج دون مبرر. للتفصيل عن اضرار هذه الاتفاقية على الاقتصاد العثماني ينظر: Aksun, 1994, S. 225-227.

وبذلك بدأ يبرز للعيان تيار الحياة المترفة التي اوجدتها العادات الغربية المقبولة لدى الطبقة العليا من المجتمع، واللافت ان تطور وتوسع هذا التيار كان من خلال الأموال المقترضة من الأجانب كما أشرنا، كما ان تدخل الدول الكبرى في شؤون الدولة كان موضوع آخر يثير الاستياء والشكوى في أوساط المجتمع حتى ان العلماء في مساجد إستانبول كانوا ينتقدون السياسة العامة للحكومة علانية، فضلا عن أسلوب السلطان في تغيير المسؤولين الكبار بمن فيهم الصدر الأعظم بشكل متكرر لم يكن مرضيا للرأي العام (Karal, 2007 , S. 95).

ان ارتفاع تكاليف المعيشة الناجم عن تدهور الوضع المالي للدولة بعد حرب القرم كان يزيد من تذمر الشعب الذي يقيّم اعمال الحكومة من خلال اثارها الملموسة في تحسين وضعه المادي (Karal, 2007,S.95).

والى ذلك كان الاستياء الناجم عن مرسوم الإصلاح الذي عزز الاحكام الواردة في مرسوم التنظيمات، واضاف احكاما جديدة، وفي هذا السياق كانت مسألة تنظيم الحقوق والامتيازات الممنوحة لغير المسلمين موضوع نقاش، اذ فقد مبدأ المساواة الذي أكد عليه مرسوم التنظيمات أهميته مع مرسوم الإصلاح، وأدت الامتيازات الممنوحة لغير المسلمين إلى تقدمهم خطوة على المسلمين، مما عكس اتجاها مغايرا في سياسة الدولة (Dalgali, 2023, S.54). وفضلا عن ذلك اثار صدور مرسوم الإصلاح تحت التأثير الأوروبي معارضة أوسع واكثر شدة حتى في صفوف رجال الدولة، وفي هذا الصدد كان من بين منتقدي المرسوم مصطفى رشيد باشا الذي صاغ مرسوم التنظيمات، وعلى الرغم من انه دافع عن فكرة الإصلاح وبذل جهودا لسنوات طويلة في هذا السبيل، الا انه عارض الحقوق الممنوحة للرعايا المسيحيين في هذا المرسوم، وعبر الباشا عن هذا الموقف في تقرير رفعه الى السلطان عبد المجيد، واكد بانه يؤمن بوقوع خطأ سياسي في التسرع بمساواة الرعايا المسيحيين بالمسلمين، ويرى ان هذا الامر كان يجب ان يتم تدريجيا ودون تدخل رسمي من الدول الأجنبية، معترضا بشكل خاص على ذكر المرسوم في معاهدة باريس، كما لم يستحسن وجود مواد في المرسوم قد تخضع لتفسيرات سيئة من طرف الدول الأجنبية عند الحاجة، واعرب عن قلقه من عدم تقبل الشعب المسلم لهذه الحقوق الممنوحة للمسيحيين، وما قد ينجم عن ذلك من تمردات ضد الحكومة في الولايات ذات الأغلبية المسلمة (Cevdet Paşa, 1953, S.76-86) .

على الرغم من ان مصطفى رشيد باشا لم يكن في ذلك الوقت في أي منصب حكومي، الا انه كان يحتفظ بمكانة كبيرة في اوساط المجتمع العثماني، لذا اتسع نطاق تأثير آرائه حول مرسوم الإصلاح بمرور الوقت، وشاركه في هذه الرؤية العديد من الوزراء السابقين وقسم من العلماء مما تسبب في حالة من الارباك داخل السلطة الحاكمة. ثم جاء رد الفعل الأكبر ضد مرسوم الإصلاح من الشعب المسلم، فحتى اعلان المرسوم كان الرعايا المسيحيون يتمتعون، كما سبقت الاشارة، بصيانة الأرواح والممتلكات وحرية المعتقد، كما كان لهم حق إدارة شؤونهم الخاصة على وفق تقاليدهم، وكان الفرق الجوهري بينهم وبين الشعب المسلم هو عدم اشراكهم في إدارة الدولة والجيش والقضاء (Karal, 2007 , S. 8-9). ولكن بموجب مرسوم الإصلاح تقرر وجوب مساواة المسلمين وغير المسلمين في كافة الحقوق. الامر الذي ترك تأثيرا بالغا، وقوبل بمرارة من قبل الشعب المسلم، واصبح الناس يتداولون مثل هذه العبارات: «لقد فقدنا اليوم حقوقنا الوطنية المقدسة التي اكتسبناها بدماء ابائنا واجدادنا»، « بينما كانت الامة الإسلامية هي الملّة الحاكمة حرمت اليوم من هذا الحق المقدس »، « هذا يوم بكاء وعزاء لأهل الإسلام» (Cevdet Paşa, 1953, S. 68).

هكذا لم يقبل المسلمون الذين اضطلعوا بمهمة العسكرية لسنوات طويلة بهدف خدمة الدولة المساواة في المجال السياسي، فقد أدى تواجدهم في مهام الدولة المختلفة ومشاركتهم في الحروب ضمن واجب العسكرية الى ابتعاد الشعب المسلم عن مجالات التجارة والحرف، مما أدى لبروز تفوق اقتصادي للرعايا غير المسلمين، كما ان انخراط الأخيرين في التجارة والفنون مكنهم من التطور . بناء على ذلك لم يتقبل المسلمون الحقوق الجديدة لغير المسلمين مما أدى الى معارضة علنية للمرسوم (Dalgali, 2023, S.55).

اما الرعايا غير المسلمون فبما انهم خرجوا يوم اعلان المرسوم من صنف الرعية، واكتسبوا المساواة مع الامة الحاكمة فقد كان بالنسبة لهم يوم مسرّة في الوهلة الأولى، ولكن عندما انتقل المرسوم الى مجال التطبيق اثار سخط فئات متعددة منهم، وفي هذا الصدد عبر البطاركة والزعماء الروحيين عن عدم رضاهم تماما لأن واجباتهم وصلاحياتهم أدرجت ضمن المرسوم بصيغة تقيد صلاحياتهم (Cevdet Paşa, 1953, S. 68) في ادارة أوقاف الكنائس، كما ان تطبيق النظام الضريبي الجديد كان يعني حرمانهم من مكاسبهم القديمة، واستحالة استمرار حياتهم المرفهة (Okumuş, 2003, S. 96). كما عبرت شريحة الفلاحين والحرفيين والتجار عن عدم رضاها عندما ادركوا ان المرسوم جلب لهم مع مبدأ

المساواة في الحقوق التزاما جديدا وهو الخدمة العسكرية، ولعدم وجود شعور بالمواطنة لديهم، لم يشعروا بأي رغبة في العسكرية بل اعتبروها عائقا كبيرا لاعمالهم، ومجالات كسب عيشهم التي توفر لهم حياة رغيدة (Karal, 2007 , S. 10) . وطالبوا بالاستمرار في دفع البدل، كما هدد البعض منهم بالهروب الجماعي إلى الجبال أو اللجوء للدول المجاورة اذا فُرضت عليهم الجندية، وهكذا قُوبل المرسوم بردود فعل سلبية لدى الكثيرين من غير المسلمين أيضا بدعوى أنه غير كاف، مطالبين بمزيد من الحقوق، وكان المحرض والداعم الأكبر لهم هو الدول الغربية (Okumuş, 2003, S. 96).

وينقل لنا المؤرخ المعاصر للأحداث جودت باشا[1] الجو العام الذي رافق اعلان مرسوم الإصلاح قائلا : « بينما كان العرف جاريا في الدولة العلية على اعتبار الروم في المرتبة التالية لأهل الإسلام، ثم الأرمن، ثم اليهود، فقد اصبح الجميع بموجب المرسوم في مرتبة واحدة، مما دفع بعض الروم للاعتراض قائلين : لقد كنا راضين بتفوق الإسلام، والآن ساوتنا الدولة باليهود . وبناء عليه فكما كان الجو ضبابيا في ذلك اليوم كانت وجوه اغلب الحاضرين في قاعة العرض اثناء قراءة المرسوم عابسة » (Cevdet Paşa,1953,S. 68).

هكذا أدت الاحداث والتطورات الداخلية والخارجية وما نجم عنها من مشكلات اقتصادية، واشتداد الضائقة المالية بعد حرب القرم، وتزامن ذلك مع تأثيرات مرسوم الإصلاح في زيادة رد الفعل الغاضب للرأي العام العثماني تجاه الحقوق الممنوحة لغير المسلمين، فضلا عن التدخل الأوربي لصالح الأقليات بشكل متكرر(Kurt ve Mengüaslan , 2017, S.406)' وحياة الترف والاسراف في القصر أدت الى

(١) أحمد جودت باشا (١٨٢٢–١٨٩٥م) يُعد أحد أبرز شخصيات عصر التنظيمات، كان مؤرخا، قانونيا، مفكرا، أديبا، ورجل دولة، ولد في بلدة لوفجه الواقعة اليوم ضمن حدود بلغاريا، وانتقل عام ١٨٣٩م إلى إستانبول حيث أكمل تعليمه الديني ونال الإجازة العلمية وعمل بالتدريس في سن مبكرة. أنجز أول كتاب له بعنوان (القواعد العثمانية)، وكُلف بكتابة التاريخ العثماني الممتد بين (١٧٧٤–١٨٢٦م) فأصدره في ١٢ مجلداً والمعروف بـ (تاريخ جودت)، وعُين مؤرخا رسميا للدولة في ١٨٥٥م. تولى رئاسة لجنة الأراضي التي أعدت قانون الأراضي ونظام الطابو، وفي ١٨٦٢م، رُشّح لتولي منصب شيخ الإسلام، غير أن منافسيه حالوا دون ذلك، وفي شباط ١٨٦٦م، حُولت رتبته العلمية إلى الرتبة الوزارية وعُين واليا على ولاية حلب، وفي ١٨٦٧م عُيّن رئيسا لديوان الأحكام العدلية، وتولى رئاسة جمعية مجلة الأحكام العدلية المعنية بصياغة أحكام الفقه الإسلامي المتعلقة بالمعاملات. ثم قضى جودت باشا حياته في تقديم خدمات جليلة للدولة متنقلا بين وزارات المعارف والاوقاف والعدلية والداخلية والزراعة والتجارة، ووالياً على عدة ولايات ورئاسة لجان التفتيش وتنظيم الإصلاحات والقوانين وتأليف الكتب اللغوية والدينية والتاريخية . للتفصيل ينظر: Halaçoğlu, 1993, S. 443-450.

خلق جو من الاستياء الذي خيّم على السنوات الأخيرة من عهد السلطان عبد المجيد ضد السلطان والإدارة (Dalgali, 2023, S.56) . وبدأت فكرة المعارضة التي تشكلت واتسعت تدريجيا في عاصمة الدولة منذ صدور المرسوم الأول لتتحول الى فعل، حيث اتحد بعض الأشخاص من فئات متنوعة غير راضين عن وضع البلاد لتنظيم انفسهم في حركة معارضة سياسية سرية تعد الأولى في التاريخ العثماني خلال عصر التنظيمات عرفت باسم واقعة قولالي (Kuleli Vakası) (Yılmaz, 2017, S.518).

واقعة قولالي:

شهدت مدينة استانبول في يوم ١٤ أيلول ١٨٥٩م [١] تحركا غير عاديا، فبناء على البلاغ الذي قدمه مير لواء(العميد) حسن باشا الى حكومة محمد امين عالي باشا، افاد فيه بوجود تنظيم معارض ضد السلطان، وعلى الفور ألقت السلطات الحكومية القبض على الشيخ احمد [٢] ومجموعة من الضباط من رتب عسكرية مختلفة، وتجار، وطلاب مدارس دينية، وعلماء مدرسين، وذلك اثناء اجتماع لهم في جامع قليج علي باشا . حيث جرى حبسهم في ثكنة قولالي (Kuleli Kışlası)، وقد عرفت هذه الحادثة في التاريخ باسم واقعة قولالي(Düzen, 2015, S.5).

عند ذكر الواقعة المذكورة بهذا الاسم قد يتبادر الى الاذهان وقوع حدث ما داخل ثكنة قولالي، ولكن الحقيقة لم يشهد المكان حدوث أي واقعة فعلية، بل لم يحث شيء في أي مكان آخر، وانما سميت

(١) اشارت بعض المصادر ان تاريخ كشف التنظيم السري كان يوم ١٣ أيلول ١٨٥٩م . ينظر : ; Karal, . S. 96 Kuran, 2012 , S.62

وجاء اعتمادنا على التاريخ المثبت في المتن بناء على رأي اغلب المصادر والمراجع المعتمدة في كتابة البحث .

(٢) المعلومات المتوفرة عن السيرة الذاتية للكادر القيادي قليلة جدا في المصادر، وفيما يتعلق بالشيخ احمد تستند في الأساس على ما ادلى بها اثناء التحقيق، ووفقا لذلك ينتمي الى عائلة ثرية وعريقة في منطقة السليمانية في شمال العراق، وذكر انه ولد في قرية سيرفيبش (Servibeş)، وبما انه ذكر انه يبلغ من العمر(٣٥) عاما في ذلك الوقت، فمن المرجح ان تكون ولادته في ١٨٢٤م . اسم والده الشيخ مولانا ينتمون عائليا الى الطريقة الصوفية النقشبندية، وقد ساق مبرر السياحة سببا لمغادرة قريته في ١٨٤٦م قاصدا استانبول، وبعد ثلاثة أيام انتقل الى ادرنة التي اقام فيها مدة سنة، التقى فيها عبدالله باشا والي اليمن الأسبق الذي ينتمي الى اسرة بابان الشهيرة . ثم انتقل بعد ذلك سائحا في انحاء ازمير ومغنيسيا وكوتاهية لمدة(٢-٣) سنوات، ثم عاد الى استانبول وبقي فيها اسبوعان ليرتحل الى مصر حيث التحق بجامع الازهر، واقام هناك نحو ستة اشهر، ثم توجه الى دمشق قاصدا أداء فريضة الحج، وفي هذه الاثناء اندلعت حرب القرم فعدل نية الحج الى نية الجهاد . للتفصيل ينظر : . Varol , 2015 , S.100-101

بهذا الاسم لأن أعضاء في تنظيم سري[١] معارض تم القبض عليهم قبل الشروع في تنفيذ مخططاتهم، ونقلوا الى ثكنة قولالي العسكرية الواقعة على مضيق البسفور، وجرت محاكمتهم هناك(Danişmend , 1972, S.188) . ومن هنا يتضح ان واقعة قولالي لم تكن حركة عملياتية، بل تم كشفها وهي لا تزال في مرحلة التحضير(Yılmaz, 2017, S.521).

ونظرا لكون التنظيم كان سريا كما سبقت الاشارة، ولعدم العثور على مذكرات شخصية للمشاركين فيه. فان المعلومات حول هذه الحركة (أسبابها، طبيعتها، أعضائها، أهدافها) قد وردت في الأساس في البيانات الرسمية للحكومة العثمانية والكتابات والصحف المحلية والأجنبية المعاصرة او قريبة العهد من الواقعة، وكذلك من دراسات اعتمدت السجلات الرسمية لإفادات المعتقلين اثناء استجوابهم خلال المحاكمة والمحفوظة في الارشيف العثماني. ثم توالت كتابات المؤرخين والباحثين مستندين على تلك الأسس، ولكنها خرجت بنتائج وتقييمات مختلفة سنتوقف عندها في محاولة من اجل الوصول الى فهم حقيقة هذه الواقعة واهميتها وأهدافها وآثارها.

عندما بدأت ملامح واقعة قولالي في الظهور، سعت الإدارة العثمانية آنذاك جاهدة لإبقاء المعارضين والحدث الذي تسببوا فيه بعيدا عن الأنظار لمدة من الزمن، وعلى الرغم من كافة إجراءات السرية التي اتخذتها الحكومة، الا ان الاخبار الأولى حول الواقعة نشرت في صحيفة تايمز(Times) البريطانية، و صحيفة القسطنطينية (Journal de Constantinople) الصادرة في استانبول باللغة الفرنسية بتاريخ ١٩ أيلول ١٨٥٩م، و ٢١ أيلول ١٨٥٩م على التوالي . وعلى الرغم من ان المعلومات التي أوردتها الصحيفتان كانت فيها شيء من المبالغة، الا انها لم تكن كافية لتوضيح جوهر الحادثة بشكل كامل، اذ ذُكر ان عدد المتورطين بلغ مائتي شخص، وان أعضاء الحركة لديهم مشكلات مع الإدارة (Düzen, 2017, S.109).

(١) اختلف المؤرخون والباحثون في وصف البنية التكوينية لمعارضة قولالي بين كونها (تنظيم سري، حركة معارضة، جمعية سرية، تحالف سري، حركة انقلاب، حركة تمرد وعصيان، مؤامرة)، وبطبيعة الحال جميع هذه الآراء تعبر عن وجهات نظر علمية ناتجة عن فهم وقناعة أصحابها وهي محل تقدير واحترام، كما انها قد لا تخلو من أغراض سياسية، لذلك لا يسع الباحث ان يتقيد او يفرض رأيه في المتن بالوصف الذي اقتنع به لبنية الواقعة من خلال هذه الدراسة احتراما للقناعات العلمية حول موضوع لا يزال يتقبل المزيد من النقاش في الأوساط الاكاديمية، لذلك فان التعبيرات المتغيرة في المتن عن وصف الواقعة بين العناوين المشار اليها بين القوسين في أعلاه انما تعني قناعة صاحب المصدر المقتبس منه المعلومة، اما قناعة الباحث فسيتم تأكيده في الخاتمة ضمن الاستنتاجات.

مع بدء الصحافة الأوروبية في نشر معلومات حول الحادثة، اتخذت الحكومة العثمانية خطوات متنوعة لتوجيه الرأي العام بما يخدم مصالحها، فقامت بتزويد صحيفة (جريدة الحوادث: Ceride-i Havadis) الصادرة في ٢٢ أيلول ١٨٥٩م بمعلومات جزئية حول الحادثة (Düzen,2017,S109). جاء فيها: وردت انباء تفيد بان بعضا من ضعاف العقول، وبنية فاسدة تهدف لإخلال الامن العام، رغبوا في تشكيل جمعية، وبناء عليه تم في الحال القاء القبض على نحو أربعين شخصا ممن تجرؤوا على ذلك، وأودعوا السجن في ثكنة قولالي. ولما كانت افعالهم هذه تستوجب التأديب، فقد تقرر تشكيل لجنة تضم الصدر الأعظم عالي باشا وسماحة مفتي الانام وقائد الجيش عطوف باشا، ورؤساء المجلس الأعلى للتنظيمات والمجلس الأعلى للاحكام القضائية ودار الشورى العسكرية من الباشوات ذوي الدولة، لمباشرة التحقيق واستجواب المعتقلين، وفور اكتمال التحقيقات والمحاكمات سيتم اعلان الحكم والقرار. كما سيتم لاحقا اعلان أسمائهم وطرقهم ووظائفهم. عندئذ سيعلم الجميع انهم مجرد اشخاص منحرفون لا قيمة لهم (Düzen,2015,S.10).

احدث كشف واقعة قولالي صدى واسعا في المجتمع العثماني (Kurt ve Mengüaslan , 2017, S.406)' بينما كانت الحكومة تسعى لاطلاع أهالي العاصمة عبر قنواتها الرسمية، كان هناك في المقابل اشخاص يقومون بلصق منشورات على بعض المدارس وأماكن أخرى، حاولوا من خلالها توجيه الرأي العام جاء فيها: «اذا كان خصمك القاضي فليكن الله في عونك، يا أمة محمد ان اخوانكم في الدين الذين يسعون لإظهار دينكم وشريعتكم معتقلون في قولالي، وسيقومون بقتل بعضهم ومعاقبة الآخرين قانونا. ألم يبق دين ولا حمية؟ لماذا لا تذهبون لانقاذهم؟» (Cevdet Paşa, 1960, S. 84).

ومن جهة أخرى قدمت الدول الاوربية مذكرة مشتركة الى الباب العالي جاء فيها: لم يتم البدء بالإصلاحات الموعودة منذ الحرب، والوضع المالي للدولة ساء جدا، وآثار العصيان التي ظهرت مؤخرا ناتجة عن ذلك، وان أوروبا لن تنظر الى هذا الوضع طويلا (Çelik , 2016, S. 41).

نشرت الحكومة نتائج المحكمة بعد استكمال اللجنة الخاصة اعمال التحقيق والاستجواب مع المعتقلين في ١٧ تشرين الثاني ١٨٥٩م، وجاء في البيان الحكومي: لقد أعلن سابقا عن قيام بعض الأشخاص بتشكيل اتفاق سري بقصد اثارة الفتنة والفساد ضد السلطنة السنية، فقد تم اعتقالهم ونقلهم الى ثكنة قولالي، وعقب ذلك باشرت لجنة خاصة شكلت لهذا الغرض إجراءات التحقيق والمحاكمة بشكل منفرد ووجها لوجه. وبعد إتمام واجبات المحاكمة والتحقيق والتدقيق تم عرض محاضر الاستجواب

والتقارير التلخيصية في جلسة خاصة عقدت في الباب العالي، وجرى مطالعتها بدقة عالية، وثبت من خلال الاقرارات والاعترافات ان المحرض الرئيس الحقيقي لهذا الفساد هو شخص يدعى الشيخ احمد من أهالي سنجق السليمانية أصلا والمقيم في مدرسة بايزيد، حيث بدأ المذكور يفكر في تنفيذ هذا العمل غير القويم منذ خمسة او ستة اشهر، وبعد عودة الفريق حسين دائم باشا[١] من جانب الروم ايلي اتحد معه في هذه الأفكار الفاسدة، ثم انضم اليهما جعفر دم باشا [٢] و راسم بك عضو مجلس الانشاءات وعارف بك كاتب الطوبخانه العامرة[٣] . وقد عمل هؤلاء بمعاونة بعضهم البعض على استقطاب اشخاص اخرين من

---

(١) حسين دائم باشا : ينحدر من أصول شركسية خدم في قصر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م)، ومن هناك انطلق في مسيرته العسكرية، وربما كان من الذين رفدوا الجيش الجديد بعد الغاء الانكشارية في ١٨٢٦م، وخلال ثلاثينات واربعينات القرن التاسع عشر ارتقى في الرتب العسكرية، وابلى بلاء حسنا في حرب القرم وبرز في معركة قورودره (Kurudere) في شرق الاناضول في ١٨٥٤م، وفي العام التالي، كان جزءاً من الفيلق الخاضع لإمرة الجنرال البريطاني فينويك ويليامز (Fenwick Williams)، والذي تولى الدفاع عن مدينة قارص ضد الهجوم الروسي. وقد وصفه العديد من القادة الأوروبيين الذين خاضوا تلك المعارك في قارص بأنه كان جنديا شجاعا ورجلا نزيها، وقبيل تسليم المدينة للروس في خريف عام ١٨٥٥م، رُقي حسين دائم إلى رتبة (فريق) . وإلى جانب ترقيه في السلك العسكري، كانت الحرب أيضا هي المناسبة التي التقى فيها حسين دائم باشا بالشيخ أحمد. ينظر: Riedler,2011, p. 21.

(٢) جعفر دم باشا : شخصية بارزة أخرى في الجناح العسكري للجمعية وانضم إليها عن طريق حسين دائم باشا، ينتمي إلى احدى اكثر العائلات الارستقراطية في جنوب ألبانيا. وكانت والدته تدعى (Dem hanoum) تتبادل الرسائل مع ملكة إنجلترا وتلقت منها هدايا ثمينة. وكان جعفر باشا رجلا مهذبا ملما ببعض الثقافات الأجنبية زار عدة مدن أوروبية مثل البندقية وفيينا وكورفو وتريستا، ودفعه ذوقه الى التردد على الأوساط الأوروبية. وخلال حرب القرم تعرف على ابنة قائد بريطاني، وكان مستعدا لاعتناق المسيحية لأجل الزواج منها. ومع ان الزواج لم يتم، الا ان الباشا اصبح مقربا من دائرة النفوذ البريطاني وحاصلا على حمايتهم. ينظر : ; Wanda, 1884, p. 69-70

وكانت مشاركته في حرب القرم مع قوة من الجنود الالبان مكونة من (٢٠٠) مقاتل، واظهر كفاية في معارك منطقة الدانوب، وبعد انتهاء الحرب لم يتم الوفاء بالوعود التي قدمت له، ولم يستطع العودة الى بلده وبقي مع قواته التي كان يتحمل مصاريفهم بنفسه في استانبول. ينظر : . Uygur , 2019 , S. 1324

(٣) الطوبخانه العامرة : طوبخانه : تعبير مركب من كلمتين، الأولى تركية (طوب) وتعني مدفع . والثانية فارسية (خانه) وتعني بيت او منزل. وبذلك يشير التعبير الى مركز صب المدافع وتخزين جميع أنواع الأسلحة والذخائر. اما كلمة العامرة المرافقة فتعني (المملوكة للدولة) ويعود تاريخ بناء هذا المصنع للمدافع الى عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م) بعد فتح القسطنطينية مباشرة بالقرب من حي غلطة، وفي العصور اللاحقة اعيد بنائها من جديد واضيفت اليها مرافق وورش جديدة وتطويرها بالاستعانة بالخبرات الاوربية، وخلال عهد السلطان عبد العزيز ضمت المنشأة الصناعية ورشا مختلفة الى جانب سبك المدافع مثل (ورشة المحركات البخارية ،النجارة، الحدادة، السروج، الصناديق ،البنادق، المعادن، عربات المدافع، السيوف ... وغيرها) حتى أصبحت الطوبخانه مصنعا ومستودعا لمختلف أنواع الأسلحة والذخائر والمستلزمات العسكرية . وإدارة هذه المؤسسة كانت تابعة لرئيس المدفعية. للتفصيل ينظر :

=Ersoy Zengin ,Tophâne, İslâm Ansiklopedisi , https://islamansiklopedisi.org.tr/tophane

فئات مختلفة الى دائرة التنظيم. وكان هدفهم اثارة الهرج بين الناس وخرق القوانين والأنظمة وسفك الدماء وارتكاب أنواع الفضائع والقبائح. فضلا عن ذلك ومن اجل اغفال ضعاف العقول لإيقاعهم في شرك مفاسدهم ادّعوا كذبا بان هناك آلاف من الأشخاص يتفقون معهم، وان عدد من الوزراء والعلماء يؤيدونهم. وعموما فقد ثبت اتخاذهم للأفكار والحركات المخالفة للشريعة وقوانين العدالة والأمان والإنسانية شعارا لهم. لقد تبين جليا حجم الضرر والمخاطر الجسيمة التي كانت ستلحق بالدين والدولة والشعب جراء هذه الفتنة التي حاولوا إيقاظها واثارتها بين الناس تحت ستار من الرياء والتزوير زاعمين كذبا انتسابهم للشريعة الغراء وهي منهم براء. وعليه فان اعدام هؤلاء الأشخاص الذين تجرؤوا على هذه الفظاعة العظيمة وأعدوا أسباب تنفيذها، والذين لم يكتمل فسادهم المصمم فعليا الا بسبب اكتشافه في الوقت المناسب يعد امرا ضروريا وطبيعيا لحماية الدولة والملك والأمة من شرهم العظيم وفسادهم الجسيم. الا انه لما كانت درجات تورط ومشاركة هؤلاء الأشخاص في تلك الأفعال والحركات غير متساوية فقد قسمت مراتب جرمهم وجنايتهم الى أربع درجات، وبما ان جعفر دم باشا (احد متهمي الدرجة الأولى) قد لقي جزاءه بإلقاء نفسه في البحر، فقد تقرر سياسة اعدام البقية وهم الشيخ احمد وحسين دائم باشا وعارف بك وراسم بك. كما تقرر الحكم على ثلاثة عشر نفرا من الدرجة الثانية بالأشغال الشاقة المؤبدة، وعلى أصحاب الدرجتين الثالثة والرابعة بالنفي والحبس والطرد بمدد متفاوتة. ولكن بعد عرض مضبطة الحكم النهائي على الحضرة السلطانية وبناء على مقتضى الرحمة والشفقة السنية صدرت الإرادة السنية بتبديل عقوبة الإعدام بحق الجناة الأربعة المذكورين في الدرجة الأولى الى الحبس المؤبد، وتحويل عقوبة المستحقين للأشغال الشاقة المؤبدة في الدرجة الثانية الى النفي المؤبد في القلاع المناسبة ... وحرر هذا البيان ليكون الامر معلوما للجميع (Düzen, 2015, S.12-13).

اللافت في البيان الحكومي الى جانب كونه يمثل الموقف الرسمي للحكومة العثمانية من الواقعة وجود بعض التناقضات منها: استخدام عبارات قاسية بحق معارضي قولالي مثل: نية اخلال الامن وسفك الدماء، وضعاف العقول، واثارة الفتنة والفساد. في محاولة من اجل تحقيرهم امام الشعب والتقليل من شأنهم وتصويرهم كشخصيات لا يتمتعون بأي قيمة أخلاقية وفكرية.

وفي هذا السياق حاول الصدر الأعظم عالي باشا تصوير الحدث امام الأوساط المحيطة به كفعل غير ذات أهمية، مدعيا انه مجرد تحرك قامت به مجموعة من الشراكسة والكورد الساخطين بقصد تعكير

=تاريخ الزيارة : ٢٠٢٦/٥/٢٦ ١١:١٥ مساء

صفو الامن(Davison , 2005,S.105) . وبهذا الموقف ناقض نفسه عندما ترأس اللجنة التي شكلت من كبار المسؤولين في الدولة لكشف ملابسات الواقعة. وبذلك يتضح ان الحادثة لم تكن بسيطة او غير مهمة كما روج لها امام الرأي العام بل العكس تماما تكتسي أهمية بالغة لدى الحكومة .(Düzen,2017,S.110)

وبما ان البيان الحكومي كان مقتضبا ويحمل منطق ادانة المعتقلين دون الإفصاح عن التفاصيل المتعلقة بالأسباب والظروف التي جمعت ذلك العدد من فئات وشرائح مختلفة. لذلك تستوجب معرفة حقيقة هذه الحركة من مصادر ودراسات اولت أهمية خاصة للواقعة. ووفقا للمصادر التي توافرت لدينا:

كان الشيخ احمد قائد التنظيم السري المشار اليه احد شيوخ الطريقة النقشبندية، قدم الى استانبول لأول مرة في ١٨٤٦م (Kurt ve Mengüaslan , 2017, S.407). واثناء اندلاع حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا (١٨٥٣-١٨٥٦م) كان في دمشق قاصدا الحج، وحال سماعه باخبار الحرب قطع رحلة الحج، وقرر الانضمام الى الجيش العثماني مع نحو ثلاثة آلاف متطوع كان بضمنهم مجموعة من مريديه، وحارب في الجبهة حتى نهاية الحرب (Varol , 2015,S.99).

اتضح من افادة الشيخ احمد التي دونت اثناء التحقيق انزعاجه من مرسوم الإصلاح، وتبين انه كان متواجدا في جبهات حرب القرم اثناء صدور المرسوم، وقال في هذا الشأن : « عندما صدر المرسوم الذي يقضي بمساواة المسلمين مع غيرهم في الدرجة، وان لا يكون هناك فرق بين الإسلام والنصرانية حينها برد قلبي (أي الشعور باليأس وخيبة أمل)، وكان وصول الخبر الى الجيش في أواخر الحرب ولو تلقيت الخبر قبل ذلك لما ذهبت الى الحرب، لأن اصبح لا وجود للدين، والمحاربة أصبحت عندئذ لأجل الدولة وليست لأجل الدين» (Karaaslan, 2025, S. 16).

شرح الشيخ احمد أفكاره واستياءه من المرسوم للفريق الشركسي حسين دائم باشا الذي تعرف عليه خلال حرب القرم، وابدى الأخير موقفا متوافقا مع رؤية الشيخ، وبعد انتهاء الحرب عادا الى استانبول وكانا يلتقيان كثيرا في منزل حسين دائم باشا، واحيانا في مدرسة بايزيد حيث كان الشيخ يعمل مدرسا فيها. ويبدو ان فكرة تأسيس التنظيم السري قد تبلورت خلال هذه اللقاءات، وتم وضع حجره الأساس قبل نحو خمسة اشهر من تاريخ كشفه (Çelik , 2016,S.32) .

لقد شكّل الشيخ احمد مع أربعة أعضاء آخرين ثلاثة منهم عسكريون ذوو رتب رفيعة وهم: الفريق حسين دائم باشا، والعميد جعفر دم باشا الالباني، والرائد راسم بك عضو مجلس الانشاءات، وعارف بك بيروقراطي يعمل كاتبا في إدارة الطوبخانه العامرة، شكل هؤلاء النواة الصلبة والكادر القيادي للتنظيم السري (Riedler,2011,S.16). ثم عزز التنظيم صفوفه تدريجيا باستقطاب اشخاص آخرين من طلاب المدارس الدينية مثل بكر ومحمد افندي، ومن معلمي مدرسة الفاتح نصوح افندي والشيخ فيض الله والشيخ إسماعيل افندي. ثم ان بنية التنظيم ترسخت اكثر بانضمام اشخاص آخرين من فئة العلماء والتجار والطلاب والعسكريين، واحتل العلماء موقعا مركزيا في حركة معارضة قولالي، اذ نجح الشيخ احمد بتدينه وخطاباته في التأثير على الناس وضمهم الى صفوف التنظيم (Çelik , 2016, S. 32)' وكان لكل فرد انضم الى التنظيم أسبابه الخاصة، والتي تنوعت بين تأخر رواتب العسكريين وعدم القدرة على دفعها، والوضع الاقتصادي للتجار والحرفيين، الا ان الرؤية الأساسية كانت تتمحور حول فكرة عدم تطبيق الشريعة (Düzen, 2017, S.114).

أما أسلوب الانضمام للجمعية، فيشبه الأساليب التي كانت تتبعها الجمعيات التي تأسست في الدول الأجنبية في ذلك العصر، ولا سيما في إيطاليا للنضال ضد الدولة، فكان الأعضاء يقسمون اليمين على العمل من أجل أهداف الجمعية وعدم إفشاء أسرارها، كما انهم يوقعون أو يختمون على وثيقة اتفاق بهذا الشأن، ولكسب المؤيدين كان المؤسسون يقومون بالدعاية بأن الجمعية تعمل من أجل الشريعة، وأن لديها العديد من الأعضاء من العلماء والوزراء (Karal, 2007 , S. 95-96).

وعندما كان الشيخ احمد يجتمع مع بقية العلماء، كان الحديث يدور غالبا حول عدم تطبيق الشريعة واسراف بيت المال، وكانت الانتقادات توجه الى الحكومة على أساس هذه المسائل. ولم تكن حساسية الشريعة في معارضة قولالي مقتصرة على الشيخ احمد وحده، فبعد الشيخ احمد كان الشخص الثاني والأكثر تأثيرا داخل الجمعية هو حسين دائم باشا الشركسي وذلك نظرا لموقعه الرسمي ونفوذه في الدولة بصفته رئيس مجلس الشورى في قيادة الجيش آنذاك، ورتبته العسكرية، وامواله، والذي كان بدوره يشتكي باستمرار من عدم تطبيق الشريعة ومن اسراف بيت المال (Düzen,2015,S.58-59 ; Türkmen,2002,S.356) . يتضح من مواقف أبرز شخصيتين في التنظيم ان العامل الديني والوضع المالي للبلاد كانا المحرك الأساس لمعارضة قولالي.

والى جانب الشيخ احمد وحسين دائم باشا كان لعارف بك مكانة مهمة بين أعضاء الجمعية، وتميز بهويته المتأثرة بالثقافة الفرنسية، فقد كان بمثابة السكرتير العام للجمعية ومكلفا بإدارة الدعاية باسمها، وكتابة البيانات وجمع الأنصار، وقدم معلومات مهمة ومفصلة عن خطة واهداف الجمعية اثناء التحقيق((Akandere ve Polat,2019,S.1291 ; Kurt ve Mengüaslan,2017,S.407 ; Türkmen,2002,S.356)

لقد انضم عارف بك الى الجمعية عن طريق حسين دائم باشا، وكان من أنشط أعضاء الكادر القيادي، وحظي بثقة عمياء من لدن الشيخ أحمد الذي استودعه المستندات المختومة لأعضاء الجمعية، وكان يمتلك أفكاراً ثورية ولديه اطلاع واسع على الفكر الغربي، وكان يُلقب بـ (ديدون عارف)[١].

لقد أعد عارف بك كراسات للانقلاب، وذكر أنه سيُنفذ وفقا للطريقة الأوروبية، وكانت إحدى هذه الكراسات تتعلق مباشرة ببرنامج الإصلاح «نظاميات» الذي ستباشر به الجمعية بعد نجاح الانقلاب. تضمنت هذه المسودة برنامجاً إصلاحياً شاملاً يشمل البنية الإدارية، العسكرية، المالية، الاقتصادية، والقانونية، فضلا عن الصحة العامة والأمن في المدن، وقد استخدم عارف بك تعبير (الطريقة الفرنسية) عدة مرات كنموذج للإصلاحات المنشودة في بعض المجالات. وخلال المحاكمات لم يجد ضرورة لإخفاء توجهاته الأوروبية، حيث قال في محضر استنطاقه: لقد استحسنُت بعض مسالك أوروبا، وبما أنني رأيتها في ذهني جيدة على الطريقة الأوروبية، فقد كنت أكتب في ذلك الاتجاه أحياناً وأعدل أحياناً أخرى. (Karaaslan, 2025, S. 32-33).

ظهرت آراء متنوعة حول اسم التنظيم الذي تأسّس تحت قيادة الشيخ احمد، ومع عدم وجود معلومات جازمة في محاضر التحقيق حول اسمه، غير ان بكر الهاريوتي احد أعضاء التنظيم من طلاب مدرسة سينكلي اعترف اثناء استجوابه بان الشيخ احمد أعطاه ورقة، وانه انضم تحت اسم محافظة الشريعة (Muhafazi Şeriat)، وبعد اكتشاف امر الجمعية وصفتها الصحف الرسمية والمصادر

(١)كلمة (ديدون) دخلت اللغة التركية كنطق للتعبير الفرنسي (Dis-donc) بمعنى (قل إذاً) الذي كان يستخدمه الضباط الفرنسيون الذين جاؤوا إلى العاصمة العثمانية خلال حرب القرم . وبسبب تكرار سماع هذا التعبير، أطلق سكان العاصمة لقب ديدون على هؤلاء الضباط، ولكن اللقب صار يُطلق لاحقاً ليس فقط على الفرنسيين، بل أيضا على العثمانيين المهتمين بنمط الحياة الغربي والأناقة. وقد نال عارف بك هذا اللقب لأناقته وأطواره الغربية، واستخدامه تعبير (Dis donc) بين كلماته وحديثه المتكرر عن فرنسا وتقديمها كنموذج للدولة العثمانية. ينظر : Karaaslan, 2025 , S. 32-33.

العثمانية المعاصرة للحدث بـ (الجمعية الفسادية)[١]، ولكن بعض الباحثين فضل تسميتها بـ جمعية الفدائيين (Fedailer Cemiyeti) نظرا لكون غالبية أعضائها من اشخاص انضموا كفدائيين، ويعطى لهم تعهد مختوم مكتوب باللغة العربية نصه : « انا الفدائي المعاهد قبلت العهد الذي بيني وبين الشيخ احمد السليماني » . ثم صار هذا الاسم الأكثر قبولا لدى الباحثين، وتم اعتماده للإشارة الى الجمعية المذكورة. كما قيم مجلس الامة التركي الكبير (TBMM) رسميا الجمعية باسم جمعية الفدائيين وعدّها اول الأحزاب السياسية في تاريخ تركيا (Çelik,2016,S.33 ; Düzen,2015,S.35-36).

مع توسع الجمعية تم البدء في تنظم سلسلة من اللقاءات والاجتماعات بشكل منهجي، لاسيما بين الكادر القيادي. وحتى مغادرة الفريق حسين دائم باشا الى جهة الروم ايلي في مهمة رسمية كانت الاجتماعات تعقد في منزله، وبعد مغادرته انتقلت الاجتماعات الى غرفة الشيخ احمد في مدرسة بايزيد او في منزلي عارف بك وراسم بك. وكانت تلك الاجتماعات تعقد بمعدل مرة واحدة في الأسبوع، مع اظهار نوع من التسامح مع الأعضاء الذين لا يستطيعون الحضور بانتظام بسبب مهامهم في خدمة الدولة (Düzen, 2017, S.117-118). كما ارتبطت المجموعة ببعضها عبر أداء القسم، ووقعت وختمت البرنامج الذي أعدته. وورد في البرنامج إشارة الى التجاوز على أحكام القرآن من خلال مؤسسات مخالفة للشريعة مقتبسة من الكفار، ودعا كل مسلم للانضواء تحت راية الانتفاضة، وكان قادة الجمعية فقط يعرفون بعضهم البعض، وكل واحد منهم يتبعه ما بين مائة وثلاثمائة عضو، واختار القادة لأنفسهم اسم خُدائي (Hüdai) أي الهي، بينما اطلقوا على الأعضاء النشطين في الجمعية اسم الفدائيون (Kayabaş ,2008,S.106-107). ومع استمرار كسب المزيد من الأعضاء بدأ عدد أعضاء الجمعية في ازدياد يوما بعد آخر، وتكثفت اللقاءات لاتخاذ خطوات ملموسة حيث بدأت مناقشة الأفكار والخطط التنفيذية.

خطط الحركة وكشف أمرها:

كان الاعتقاد السائد لدى أعضاء حركة قولالي ان المسار السيء للدولة يمكن إيقافه بطريقة ما، وذلك عبر التخلص من كل من يعيق تطبيق الشريعة بما في ذلك السلطان عن طريق الاغتيال. وفي هذا الصدد فتحت تصريحات الشيخ احمد امام أعضاء الحركة الباب للتمرد والاغتيال عندما ذكر قائلا:

(١) بهذا الشأن ينظر : ; Cevdet Paşa, 1960 , S. 82 ؛ مدحت، ١٢٩٨، ص ٥٤٩ .

«سنكون كفارا اذا لم نسفك دماء الظالمين الذين غيبوا الشريعة المحمدية، ونهبوا بيت مال المسلمين، وفضلوا الكفار على العلماء وسائر المسلمين، وقالوا لا فرق بين الكافر والمسلم سواء كان السلطان او اعوانه من الظالمين (الوزراء)، وسنكون ملعونين مثل قارون ومطرودين مثل ابي جهل». لقد رسم بيان الشيخ معالم الخطة المزمع تنفيذها من قبل أعضاء الجمعية، ومع ازدياد عدد أعضائها تم البدء في وضع الخطط للانتقال الى مرحلة التنفيذ الفعلي (Düzen, 2017, S.118).

ناقش الكادر القيادي خططا عديدة لاغتيال السلطان عبد المجيد تحت قيادة الشيخ احمد شخصيا، وتضمن النقاش تحديد يوم وتوقيت العملية. ووفقا للإفادات الواردة في محاضر التحقيق فقد نفى الشيخ احمد وحسين دائم باشا بان حركتهم كانت تنوي اغتيال السلطان، بل ذكروا ان الهدف كان المطالبة بتطبيق الشريعة، ومنع اسراف بيت المال بطريقة سلمية من خلال تقديم التماس الى الصدر الأعظم او شيخ الإسلام او الى السلطان مباشرة للمطالبة بتغيير الحكومة واستبدال السلطان بشقيقه لضمان التطبيق الصحيح للشريعة (Onaran,2009,S.2).

على الرغم من انكار الشيخ احمد وحسين دائم باشا نيتهم اغتيال السلطان، الا ان أعضاء آخرين وفي مقدمتهم عارف بك اعترفوا بوجود تحضيرات لاغتياله (Yılmaz, 2017, S.523)، ووفقا لما جاء في استجواب عارف بك وهو قيادي بارز في التنظيم كم اشرنا، اذ قال: نظرا لصدور قرار نقل حسين دائم باشا الى جيش الروم ايلي، ارتأى الكادر القيادي بضرورة حسم مسألة اغتيال السلطان قبل رحيل حسين دائم باشا، وفي هذا الصدد اقترح جعفر دم باشا على حسين دائم باشا ان تتم عملية الاغتيال يوم الجمعة اثناء مراسم صلاة الجمعة. ولكن خطة جعفر باشا لم تلق قبولا من حسين دائم باشا، اذ كان الأخير شخصية ذات خبرة نظرا لخدمته الطويلة في أجهزة الدولة، فطرح أسبابا وجيهة لرفض الخطة المذكورة تضمنت الخشية من ان يؤدي الاغتيال وتغيير السلطان الى حالة فوضى وفقدان السيطرة على الوضع، وتحرك أوروبي (Düzen, 2017, S.119). ولكن هذه الأمور الباعثة للقلق لدى الكادر القيادي تم تلافيها لاحقا بتدابير تنظيمية، فوجه حسين دائم باشا بإعداد بيانات موجهة للسفارات والبطريركيات والأهالي كان من المقرر ايصالها الى تلك الجهات يوم الانتفاضة، وبذلك سيتم استباق أي تدخل محتمل من السفارات بذريعة حماية امن المسيحيين، كما يتم طمأنة الشعب والحفاظ على النظام (Onaran,2007,S.15). لقد تبنى حسين دائم باشا هذا الامر لدرجة انه صرح بانه لن يتراجع عنه حتى لو عرض عليه منصب قائد الجيش (Düzen, 2017, S.119).

ووفقا لما فهم من ملفات التحقيق كان لدى الجمعية خططا مختلفة، وعند تجميع أجزاء الخطة الأكثر احكاما، يتضح انهم كانوا يخططون للبدء تدريجيا بسلسلة من الاحداث الصغيرة قبل شن هجوم مباغت على السلطان، وكان من المفترض ان يبدأ الهجوم من قبل مجموعة من الشركس المأجورين (المرتزقة) يرتدون ملابس أوروبية لإرباك السلطات حول مصدر الهجوم، ومنع القنصليات الأجنبية من اتخاذ إجراءات فورية ضد المتآمرين (Onaran,2009,S.3).

ووفقا لهذه الخطة تم اختيار يوم الجمعة اثناء مراسم الصلاة ليكون الوقت والمكان المناسبين لتنفيذ العملية (Akandere ve Polat,2019 , S. 1296)، وفي حال نجاح العملية باغتيال السلطان كانت هناك مجموعة من التدابير التي أعدها حسين دائم باشا لتكون موضع التنفيذ تباعا، وتشمل اغلاق الجسور وتعطيل حركة السفن، وقطع المواصلات، وتمزيق اسلاك التلغراف، ويتحرك جعفر دم باشا بجنود ألبان للسيطرة على المدينة، بينما يقوم راسم بك مع مجموعة من الفدائيين بقطع اسلاك التلغراف لمنع المراسلات. اما الشيخ احمد فقد كانت خطته تنفيذ عملية الاغتيال ليلا (Çelik,2016,S.34)، وان لا تقتصر العملية على الهجوم على السلطان واغتياله، بل يجب اظهارها كحركة تمرد شاملة، وانتفاضة تندلع في جميع انحاء المدينة بشكل متزامن وبمشاركة آلاف الأشخاص يجب حشدهم للمهمة. ولكن تنظيم انتفاضة بهذا الحجم كان يتطلب شرطين أساسيين: الأول ضرورة مضاعفة عدد المشاركين قدر الإمكان، والثاني توحيد وقت تحركاتهم في يوم الانتفاضة (Onaran ,2013,S.135-136). وبالنسبة للشرط الأول تعهد الأعضاء البارزون بضمان ذلك، فقد تكفل الشيخ بكر افندي مفتي الطوبخانه بضمان دعم طبقة العلماء، اما الفريق حسين دائم باشا فكان عليه اقناع الشراكسة الذين هاجروا من القوقاز الى استانبول في عام ١٨٥٩م، وكانوا عاطلين عن العمل آنذاك، وضمهم الى صفوف الجمعية (Afyoncu ve Digerleri, 2010,S.154 ; Çelik, 2016, S. 34)، كما قدر ان يتم تأمين ألف من مريدي الشيخ فيض الله، وثلاثة آلاف من مريدي الشيخ احمد، فضلا عن طلاب المدارس الدينية (Kurt ve Mengüaslan , 2017, S.408). وبالنسبة للشرط الثاني الخاص بضرورة ضمان تحرك المشاركين بشكل متزامن اقترح الشيخ احمد حلا بسيطا وفعالا، وذلك من خلال تكليف بعض الأعضاء في مناطق مختلفة من المدينة بالصعود الى مآذن المساجد في احيائهم لمراقبة الوضع وانتظار إشارة الانطلاق التي ستكون عبارة عن العاب نارية يتم اطلاقها من قارب في البحر (Onaran 2013,S.137). الا ان هذه الخطط التي وضعها الشيخ احمد والكادر القيادي قد ارجئت ووضعت

جانبا بعد ذهاب حسين دائم باشا الى مكان عمله الجديد في الروم ايلي لدرجة ان الشيخ احمد فقد الأمل، ولكنه عاد واستمر في نشاطه معلنا انه لن يتراجع عن طريقه. وبعد رحيل حسين دائم باشا جرت محاولات لضم شخصيات ذات رتب رفيعة في الدولة لسد الفراغ الذي تركه حسين باشا، وتولى عارف بك هذه المهمة بشكل خاص، فحاول الأخير اقناع العميد حسن باشا قائد قوات مضيق البسفور بالانضمام الى الجمعية بعد اطلاعه على أهدافها (Çelik,2016,S.35).

بعد حديثه مع الشيخ احمد بهذا الشأن، أعدّ عارف بك لقاءً بين حسن باشا والكادر القيادي. على الرغم من انتظار قيادات المعارضة لحسن باشا لمدة طويلة، الا انه لم يحضر، فانفضّ الاجتماع، وقد ارتاب الشيخ احمد من هذا الموقف وسأل عارف بك بقلق: لماذا افشيت له السر قبل ان تأتي به اليّ وتجعله يؤدي القسم؟ لكن عارف بك كان واثقا من حسن باشا لدرجة انه اخبر حسن بك السليماني احد أعضاء الجمعية بكل ثقة ان العميد حسن باشا قد انضم للجمعية. وعلى الرغم من ثقة عارف بك الا ان مخاوف الشيخ احمد كانت في محلها، ففي يوم الأربعاء ١٤ أيلول ١٨٥٩م كان الشيخ احمد وعدد من الأعضاء ينتظرون حسن باشا في جامع قليج علي باشا في منطقة الطوبخانه، ولكن من حضر لم يكن حسن باشا بل قوات الأمن التابعة للدولة. وهكذا فان مسيرة معارضة قولالي التي بدأت فعليا في مايس ١٨٥٩م في منزل حسين دائم باشا انتهت بعد قرابة خمسة اشهر في أيلول من العام نفسه بمداهمة امنية نتيجة بلاغ قدمه حسن باشا الذي تظاهر بالرغبة في الانضمام للجمعية (Düzen,2017,S.122).

وهكذا تم اعتقال الشيخ احمد ومجموعة من الأعضاء [1]، اما بقية الأعضاء المعروفين فقد تم القبض عليهم من منازلهم او احيائهم بحلول يوم الخميس ١٥ أيلول ١٨٥٩م (Çelik,2016,S.35)، وبلغ العدد النهائي للمعتقلين الذي حوكموا وصدرت بحقهم عقوبات (٤١) شخصا، ينتمي (١٥) منهم على الأقل للطريقة النقشبندية، و (١٧) عنصرا من السلك العسكري كان الكثير منهم قد تعارفوا مع بعضهم اثناء الخدمة خلال حرب القرم (Onaran ,2016,S.52)، اما الفريق حسين دائم باشا وهو من

(١) لم ترد معلومات في اغلب المصادر عن تحديد الكادر القيادي ليوم محدد للتحرك وتنفيذ مخططاتهم، الا ان بعض المصادر اشارت الى ان العميد حسن باشا قدم بلاغه الى قائد الجيش رضا باشا عن وجود جمعية سرية وأهدافها قبل ثلاثة أيام من موعد الانقلاب فبدأ الأخير بتعقب المعارضين حتى تمكن من القاء القبض عليهم وهم في حالة اجتماع في الطوبخانه في يوم الانقلاب . ينظر : Kayabas ,2008 , S. 107 ;

اما الضابط الفرنسي واندا فقد اشار في مذكراته ان كشف المؤامرة واعتقال المتآمرين تم قبل يوم من التنفيذ Wanda,1884, p. 74 .

الكادر القيادي فقد اعتقل في الروم ايلي، وارسل بحرا الى استانبول (Düzen, 2015, S.47). وبذلك انتهت مسيرة معارضة قولالي، وبعد المحاكمات التي أجريت في ثكنة قولالي، أعلنت الحكومة في ١٧ تشرين الثاني ١٨٥٩م عن العقوبات التي صدرت بحق المتهمين كما سبقت الإشارة.

وفيما يتعلق بعقوبة المتورطين ولا سيما عقوبة الإعدام التي صدرت بحق الكادر القيادي لمعارضة قولالي واستبدالها بعقوبة النفي والسجن المؤبد. اختلفت المصادر في سبب ذلك، فبينما كان البيان الحكومي واضحا والذي ربط ذلك بالعطف والشفقة من السلطان. ولكن جودت باشا كان لديه تفسير آخر لتعديل احكام الإعدام. فقد ذكر ان سبب ذلك ثغرة قانونية، وأشار الى ذلك قائلا: «من الغريب انه وفقا للقوانين الاوربية اذا قصد شخص قتل آخر وحالت دون تنفيذ الفعل عوائق معينة، فانه يحكم عليه بالسجن مع الاشغال الشاقة، اما من ينوي السوء في حق الملك يجب ان يعدم. وقد صيغت لائحة قانون العقوبات السلطاني على هذا النحو. وكنت انا مسؤولا عن عرض مواد هذه اللائحة على لجنة مختصة من الوزراء، واعتماد الصيغة المناسبة بناء على قرارها، وعندما قرأت هذا البند قال الراحل شوكت باشا احد أعضاء مجلس التنظيمات: لا ينبغي ان يخطر ببال احد ان يسيء النية الى السلطان وليس من المناسب كتابة ذلك في القانون واعلانه. وبذلك تم حذف المواد الخاصة بالحكام من القانون. وكان عالي باشا وفؤاد باشا ورشدي باشا أعضاء في تلك اللجنة في ذلك الوقت، والآن ظهرت الحاجة الى تلك المواد في واقعة قولالي بعد ان ثبت سوء نية الفدائيين بحق السلطان، الا ان حذف تلك المواد من القانون الهمايوني حال دون تطبيق حكم الإعدام بحقهم. ووُجد ضرورة معاقبتهم بالأشغال الشاقة او النفي والحبس في القلاع كمن قصد السوء بسائر افراد الناس. وعندما تم استدعائي من قبل عالي باشا وفؤاد باشا وسألاني عن مادة تصلح لأن تكون مستندا لإعدام هؤلاء ذكرت لهما قصة شوكت باشا، فاعربوا عن اسفهم لترك القانون ناقصا بناء على رأيه» (Cevdet Paşa, 1960, S.83). وهناك إشارة وردت في رسالة خاصة بعث بها السفير الفرنسي ثوفونيل (Thouvenel) الذي كان سفيرا لبلاده في استانبول اثناء وقوع حادثة قولالي، كانت الرسالة موجهة الى زوجته جاء فيها : لقد قمت للتو بعمل صالح سيرضيك، انقذت حياة حسين باشا والشيخ احمد افندي وهما المحرضان الرئيسان على المؤامرة قد حُكم عليهما بالاعدام، وقرر السلطان المضي في المحاكمة . لم اكن على معرفة بهذين الرجلين البائسين، ولكن بدا لي ان عقوبة الإعدام قاسية بحقهما في حين ان لصوصا مثل صهر السلطان القبطان محمد علي باشا وامثاله هم من شكلوا المحكمة، لذا طلبت رسميا العفو عنهما، وتمت الاستجابة لطلبي، وسيتم

ارسالهما الى قلاع محصنة (Thouvenel,1897, p.354). كما افادت السجلات الأرشيفية لوزارة الخارجية الفرنسية لعام ١٨٦٧م بأن حسين دائم باشا كان قد حُكم عليه بالإعدام، ولكن تم العفو عنه وإطلاق سراحه بفضل مساعي السفارتين الفرنسية والبريطانية (Karaaslan, 2025, S. 27). واستنادا الى هذه المعلومات ذهبت بعض الآراء الى احتمال وجود دور للقنصليات الأوروبية في تبديل احكام الإعدام الى النفي (Onaran, 2007,S.18). بينما نشرت صحيفة المناقشات السياسية والأدبية (Journal des Débats Politiques et Littéraires) الفرنسية بتاريخ ٢٦ تشرين الأول ١٨٥٩م استنادا لخبر وارد من استانبول ان أهالي العاصمة لديهم تعاطف تجاه المعتقلين في قولالي، ولهذا السبب لم يتمكن السلطان من قتلهم، وعلى الرغم من ان عقوبتهم كانت الإعدام، فقد تم ارسالهم الى المنفى، وبعد ذلك لوحظ أن عقوبات المحكوم عليهم بالإعدام والسجن مع الأشغال الشاقة قد خُففت وتم تحويلها إلى عقوبات سجن في قلاع مختلفة(Uygur,2019,S.1331-1332). والى ذلك أشار الضابط الفرنسي واندا (Wanda) الذي كان يخدم في استانبول حينئذ، أشار في مذكراته قائلا : ان الوزراء طلبوا من السلطان معاقبة المذنبين بالإعدام، ولكن عبد المجيد اجابهم بالرفض، وقال انهم لم يرغبوا في التمرد عليّ، وان كانوا قد ساءت نواياهم تجاهي، فأنا من هيأ الفرصة لذلك، لأنني اخترت هؤلاء الوزراء ووضعت ثقتي العمياء بهم، وفشلت في إدارة الحكومة كما ينبغي، وتجاهلت اساءاتكم وتغاضيت عن اخطائكم واهمالكم، لن اعاقبهم بالموت سأتركهم يعيشون، وعليكم ان تصححوا تصرفاتكم . وعندما طلبوا من السلطان زيادة عدد حرسه الشخصي وحراس أبواب القصر، رفض ذلك، وامر بتجهيز عربة مكشوفة تجول بها في المدينة حيث استقبله الناس بالحب والحماس اثناء مروره (Wanda,1884,P.75-76).

من خلال هذه البيانات المتضاربة، ومع الأخذ بصحة رواية جودت باشا، فان هناك ما يلفت الانتباه وهو اذا كان أعضاء اللجنة وهم أصحاب أعلى المناصب في الدولة في عهد التنظيمات يعلمون عدم وجود سند قانوني لعقوبة الإعدام، فلماذا ضمنوها في قرارهم النهائي قبل عرضه على السلطان؟ الامر الذي يضفي شيئا من الضبابية على التبرير الحكومي في تغيير العقوبات. وبهذا يبدو ان عامل الضغوط الخارجية وحجم التعاطف الداخلي مع المعارضين كان لهما الدور الأكبر في حمل السلطان (الذي لم يتوان عن التفكير في التخلص من شقيقه كما سيتبين لاحقا) على الغاء عقوبة الإعدام.

الأمير عبد العزيز ومعارضة قولالي: وردت في الكثير من الدراسات التي تناولت واقعة قولالي إشارة الى نية معارضة قولالي التي استهدفت تغيير السلطان اما بخلعه او اغتياله، وتنصيب أخيه الأمير عبد

العزيز مكانه (Kuran,2012,S.62 ; Dalgali, 2023, S.61; Akandere ve Polat,2019 , S. 1297).

ونظرا لما شهده التاريخ العثماني من تنافس وصراعات على العرش داخل الاسرة الحاكمة سواء في حياة السلطان القائم او بعد وفاته، لذا فان هذه الظاهرة تعد من الأمور المألوفة وغير المستهجنة في السياق العثماني. ومنذ عام ١٨٥٠م سعى عبد المجيد او وزرائه المقربون ووالدة الأمير مراد الى إيجاد سبيل لضمان حق الأمير مراد بن عبد المجيد في وراثة العرش بدلا من عبد العزيز (شقيق عبد المجيد)، كان هذا بلا شك سببا كافيا للتلميح الى دور عبد العزيز في واقعة قولالي(Onaran ,2013,p.138) .

وفي هذا الصدد نقل لنا المؤرخ المعاصر للأحداث ورجل الدولة جودت باشا التنافس والصراع الخفي في عهد عبد المجيد قائلا: عندما تولى عبد المجيد العرش كان شقيقه عبد العزيز صغيرا جدا، ولم يعره أي اهتمام، ولكن مع نشأته وبروزه بدأ يلفت الانتباه. وفي احدى المرات عندما عُرض على السفير البريطاني ستراتفورد كانينغ (Stratford Canning) فكرة تعديل أصول وراثة العرش العثماني بما يضمن انتقال العرش من الأب الى الابن بدلا من الأمير الأكبر في العائلة الحاكمة . قال كانينغ: بهذه الطريقة مع عدم امكان حبس الامراء الذين ستنتزع حقوقهم، سيتحركون بحرية، عندئذ قد يظهر بينهم مطالب بالعرش . وان عدم وجود معارض مطالب بالسلطنة يعد من أهم عوامل قوة هذه الدولة. هكذا تم التخلي عن هذه الفكرة (Cevdet Paşa,1980,S.26).

وفي أحد الأيام أثناء مروره من أمام مركز شرطة بكلربكي، أرسل الأمير عبد العزيز حزمة هدايا إلى المركز، وعندما بلغ الخبر السلطان، انزعج من هذا التصرف، فاستدعى الصدر الأعظم رشيد باشا وقال له: ما رأيك فيما فعله أخينا عبد العزيز لاستمالة العسكر إليه ؟، ثم شرح له الموقف، وطلب منه تعيين عبد العزيز والياً على طرابلس الغرب. ولكن رشيد باشا لم يستحسن هذه الفكرة معللا ذلك بقوله: ان ابعاد عبد العزيز الى مكان بعيد ولكونه ولي العهد سيجعل الكثيرين يوالونه، ولا احد يعلم ما قد يؤول اليه الحال؟ ان حال الدنيا غريب لا يوجد شيء يمكن الوثوق به تماما. ثم ختم رأيه مفضلا إبقاء الأمير عبد العزيز تحت المراقبة من قبل موظفين مخلصين للسلطان، فاقتنع الأخير بذلك. وفيما بعد عندما جاء محمد عالي باشا الى الصدارة افصح له السلطان عن مشاعره قائلا: انا متضايق من عبد العزيز، فاجابه عالي باشا: ان لدينا رجال معتمدون يمكن تكليفهم للقيام بمهمة اطلاق النار على الأمير عبد العزيز اثناء

عودته ليلا من المزرعة. عندئذ سأله السلطان هل هذا ممكن؟ اجابه نعم بكل تأكيد، وعلى الرغم من تشجيعه على ذلك، الا ان السلطان شعر بالقلق وتردد في الامر وفضل التفكير جيدا في الامر (Cevdet Paşa,1980,S.26-27).

ثم أشار جودت باشا الى حقيقة أخرى قائلا: على الرغم من ان السلطان عبد المجيد كان يحظى بشعبية واسعة بين عامة الشعب، الا انه في الآونة الأخيرة وبسبب البذخ واسراف القصر وحريم السلطان، بدأ البعض يتمنى تولي عبد العزيز الحكم، بينما بعض الحاشية والمقربين غير الراضين عن عبد العزيز كانوا يفضلون صعود مراد بن عبد المجيد الى العرش. وقد انتشر هذا الخبر حتى في أوروبا، فأرسلت بريطانيا وفرنسا تعليمات الى سفيريهما في استانبول بالاحتجاج على أي محاولة لتنصيب مراد لكونه مخالف للنظام القائم في الدولة.

وبخصوص دقة هذه المعلومات التي أوردها جودت باشا ذكر قائلا: بعد تولي عبد العزيز العرش (١٨٦١-١٨٧٦م) قام رئيس المجلس الأعلى كامل باشا الذي كان واقفا على هذا السرّ، وبعد التحقق منه، نقله الى خادمهم حافظ الاسرار (يقصد نفسه). وفي ذلك الوقت كان معظم الوزراء يجهلون مثل هذه الاسرار، ولكن بحكم حالي وموقعي كنت اعلم ببعض هذه الأمور الغامضة وقت حدوثها، والبعض الآخر بعد حين. ولأنني كنت معروفا ومجربا بحفظ الاسرار لم يتردد احد في كشف اسراره لي، ولأن سجلات التاريخ الرسمي لم تكن تنشر الا بعد ثلاثين او أربعين عاما، لذا لم يتردد الكثير من الشخصيات في تدوين الاحداث في سجل الوقوعات (Cevdet Paşa,1980,S.27).

يتضح من المعلومات أعلاه بما لا يقبل الشك عدم ارتياح السلطان عبد المجيد من ولي عهده وبروز شخصيته ودوره، ومساعي اقصائه من خلال محاولة تغيير أصول وراثة العرش. وفي المقابل كشفت التطورات المرتبطة بواقعة قولالي عن تكهنات قوية بوجود صلة بين الأمير عبد العزيز ومعارضة قولالي. وفي هذا الصدد وردت في إفادات بعض أعضاء الجمعية ان عبد العزيز كان على علم بالتنظيم السري او كان من المقرر اطلاعه عليه (Düzen, 2017, S.123). وفي هذا السياق أشار الباحث التركي بوراك اوناران الذي استند في عمله على محاضر الاستجواب والتحقيق ان عددا من المعتقلين ذكروا انهم سمعوا من الشيخ احمد او حسين دائم باشا او عارف بك تصريحات من قبيل: «العقل المدبر للمؤامرة موجود في الداخل» و «عبد العزيز نفسه من يدبر هذا» و«يأتي قائد من مساعدي عبد العزيز كثيرا»، ومن جانبهم نفت الشخصيات الثلاث بشكل قاطع أي إشارة الى مثل هذا التواطئ. فضلا عن

ذلك جاء في افادة المفتي بكر، ان الألعاب النارية كانت لها غرض مختلف تماما، إذ كان من المقرر إطلاق تلك الالعاب من البحر قبالة الطوبخانه، وكانت هذه الإشارة بمثابة دعوة لعبد العزيز إلى الطوبخانه، حيث كان من المقرر أن تبدأ مراسم التنصيب بأداء البيعة، وتستمر في اليوم التالي بزيارة أيوب سلطان، وأخيرا بعد إتمام جميع مراسم التنصيب المعتادة، ستتولى الحكومة الجديدة المسؤولية (Onaran ,2013,p.137-138). وفضلا عن هذه المعطيات ذكر الباحث اوناران ان الخضوع للمطاليب الأوروبية من خلال مرسوم الإصلاح في ١٨٥٦م، ومعاهدة باريس، والانهاك الذي اعقب حرب القرم، وعدم دفع رواتب الجيش، وتزايد الديون الخارجية من جهة، وبناء القصور والشائعات المتعلقة بنفقات الحريم السلطاني من جهة أخرى، قد خلق مناخا من المشاعر العامة السلبية تجاه عبد المجيد. وفي هذا المناخ برز اسم عبد العزيز كمنارة امل في مواجهة سلطان مقصر في مجالات عديدة، عندئذ اصبح عبد العزيز غير المعروف للعامة المرشح الأمثل للعرش. وحتى بالنسبة لمعارضي قولالي لم يترددوا بمن فيهم أولئك الذين أنكروا بشكل قاطع خطط اغتيال السلطان، لم يترددوا في التصريح علنا برغبتهم في رؤية عبد العزيز على العرش. ومما لا شك فيه أن إيصال فكرة أن عبد العزيز كان يقود المؤامرة أو يأمر بها إلى الأعضاء كان بمثابة دليل لهم على أن الحركة تحظى بتأييد الوريث الشرعي للعرش، مما طمأنهم بشأن جدوى المشروع. وسواء أكان لعبد العزيز صلة بالمؤامرة أم لا، فمن المرجح أنهم لم يكونوا الوحيدين الذين أرادوا له اعتلاء العرش. ومع ذلك اصبح معارضو قولالي وحدهم هم من تجرأوا على اتخاذ إجراء للتخلص من السلطان غير المرغوب فيه، واستبداله بسلطان مثالي (Onaran ,2013,p.139-140).

من جهة أخرى اثار موقف عبد العزيز تجاه أعضاء الجمعية بعد اعتلائه العرش شكوكا متزايدة حول وجود تعاون بين الطرفين، ومن ذلك قيام عبد العزيز بعد توليه العرش في ٢٥ حزيران ١٨٦١م بإصدار عفو عن محكومي قولالي بعد ثلاثة اشهر. والموقف الآخر استعادة حسين دائم باشا لرتبته العسكرية في عهد عبد العزيز بعد ان كان قد حكم عليه بالسجن المؤبد وفصل من الخدمة العسكرية، بل عين أيضا عضوا في المجلس العسكري الأعلى (Akandere ve Dalgali, 2023, S.61 ; Polat,2019,S.1305).

مع كون الرأي الذي طرحه الباحث اوناران في تحليله بشأن العلاقة بين الأمير عبد العزيز ومعارضة قولالي وجيها وموضوعيا. يمكن اضافة ما يلي: ان تحليل المعطيات والمعلومات المستندة على

محاضر استجواب بعض المعتقلين، وموقف عبد العزيز بعد توليه مقاليد السلطنة بإصدار عفو عن المحكومين خلال وقت قصير من اعتلائه العرش لا يمكن تفسيره الا في نطاق وجود نوع من العلاقة او الصلة الخفية بين عبد العزيز ومعارضة قولالي. ومن غير المستبعد ان يكون الإيحاء من قبل الكادر القيادي بوجود دعم الأمير عبد العزيز للتنظيم هو من قبيل تعزيز معنويات الأعضاء، وهو بحد ذاته يؤكد اعتقاد المعارضين بشرعية حكم السلالة العثمانية، وان موقفهم او تحركهم لا يستهدف شخص السلطان بقدر ما يستهدف سياسته، وهذا الاعتقاد بالشرعية كان يحتم عليهم اختيار أحد أعضاء الاسرة العثمانية حتى ولو من باب التمني بديلا عن السلطان الذي يخططون للإطاحة به، وهنا لا يوجد افضل من ولي العهد الذي يمثل الوريث الشرعي والقانوني. اما موقف عبد العزيز بالعفو فيمكن تفسيره اما تأكيدا لوجود صلة او تعبيرا للامتنان تجاه أماني المعارضين في رؤيته او تنصيبه على العرش العثماني لكونه افضل من شقيقه في منظورهم.

آراء وتقييمات حول طبيعة وماهية واقعة قولالي: لقد حدثت واقعة قولالي مرة واحدة في أيلول ١٨٥٩م، وانتهت بشخوصها في ذلك التاريخ. بيد أن صداها لم يتوقف عند ذلك العام إذ تحولت الواقعة إلى مادة خصبة تباينت حولها قراءات المؤرخين والباحثين وتطورت بتعاقب العصور، مُثيرةً نقاشات شتّى حول طابعها السياسي والفكري. ومع أن هذا التنظيم السري قد أُغلق ملفه دون أن يحقق معارضوه أهدافهم، إلا أن الحادثة حظيت بزخم واسع يفوق وزنها الفعلي وأثرها الميداني. ولم يقف السجال حولها عند حدود زمن وقوعها، بل امتد إلى يومنا هذا محكوما بتفسيرات متباينة طرحت من قبل نخبة من المؤرخين والكتاب والباحثين، وهو تفاوت يُعزى بالدرجة الأولى إلى المؤثرات الأيديولوجية والسياسية، فضلاً عن طبيعة البيئة الثقافية والظروف الراهنة لكل مرحلة زمنية خرجت فيها تلك الآراء والتقييمات. وبناءً على ذلك، لا يزال الجدل قائما حول ما اذا كانت واقعة قولالي تمثل حركة انقلابية، او تمرد وعصيان، ام حركة ثورية مطالبة بالحرية والإصلاحات والدستور، ام حركة رجعية محافظة؟

وفي هذا السياق روّجت الحكومة العثمانية لمعلومات متنوعة حول الحادثة أخذة في الاعتبار مواقف الأطراف التي تخاطبها حيث أبلغت القنصليات بان الأمر عبارة عن محاولة تمرد قام بها اصوليون متشددون، وكان الهدف من تقديم هذا التفسير هو محاولة موازنة الضغوط الاوروبية بخصوص الإصلاحات المتعلقة بغير المسلمين المرتبطة بمرسوم ١٨٥٦م عبر الإشارة الى ردود الفعل الشعبية (Onaran ,2013,p.52). كما تضمن الوصف الحكومي للمعارضين المعتقلين بدعاة الفتنة والفساد،

وخرق القوانين والأمن، ومخالفة الشريعة الغراء في محاولة من اجل التقليل من شأنهم في نظر الشعب (Yılmaz, 2017, S.521).

وفي هذا السياق وصف جودت باشا الذي كان يشغل موقع المؤرخ الرسمي للدولة خلال المدة (١٨٥٥-١٨٦٦م) وصف معارضة قولالي بـ « الجمعية الفسادية : Cemiyyte-i Fesadiyye »، كما وصف قائد الجمعية الشيخ احمد السليماني بأنه الرأس الحقيقي للفساد، والذي كان قد عزم على اثارة فتنة ضد الدولة منذ وصول فرمان الإصلاح العالي الى منطقة قارص اثناء حرب القرم حيث كان الشيخ يخدم هناك ...(Cevdet Paşa,1960,S.82). وأشار المؤرخ احمد مدحت في كتابه (أسّ انقلاب) الى قيام عدد من الضباط والموظفين في الدولة لم يكونوا راضين عن مسار الدولة واوضاعها السيئة، وبهدف تحقيق الإصلاح خططوا بأفكارهم المريضة إحداث بلبلة وتنفيذ مآربهم باغتيال السلطان، غير ان المحاولة فشلت والقي القبض عليهم، وبعد محاكمتهم لم يتم إيلاء الجمعية المذكورة تلك الأهمية الجسيمة، وتقرر الاكتفاء بإنزال عقوبة النفي والابعاد بحق المتهمين (مدحت، ١٢٩٤، ص ٧٥).

وفي عمل آخر له أشار المؤرخ الى تأثيرات حرب القرم في الوضع المالي الذي كان ضعيفا في الأساس، وادخلت الدولة تحت طائلة الديون، وهنا بادرت جماعة من أصحاب الحمية العثمانية والغيرة الإسلامية الساخطين على التجديدات الى تشكيل جمعية سرية، ولكن تم كشفها ومعاقبة أعضائها بالنفي والابعاد، وبذلك تم وضع نهاية لهذا الفساد (مدحت، ١٢٩٨، ص ٥٤٩).

اما عبد الرحمن شرف فهو آخر مؤرخ رسمي للدولة (١٩٠٩-١٩٢٢م) فقد وصف حركة قولالي بأنها لم تستند الى فكرة تحقيق اصلاح أساسي في الدولة، وانما استهدفت فقط شخص السلطان عبد المجيد، ولذلك لم تترك أي نتيجة مؤثرة (شرف، ١٣٣٩، ص١٧٢).

يتضح من تقييمات المؤرخين المشار اليهم والمعاصرين للأحداث او قريبي العهد منها، على الرغم من ذكرهم لبعض الحقائق المتعلقة بأوضاع الدولة السيئة الا انهم لم يستطيعوا تقييم الواقعة بموضوعية وحياد خارج التأثير السياسي، فجاءت آرائهم متطابقة الى حد كبير مع الموقف الرسمي الذي قلل من شأن الحركة ووصفها بالفسادية وذات اهداف تخريبية للإخلال بالأمن والنظام.

غير ان نامق كمال (١٨٤٠-١٨٨٨م) وهو من ابرز مفكري عصر التنظيمات قيّم واقعة قولالي على أنها كفاح من اجل الحرية، وذكر ان طريقة محاكمة المتورطين كانت مخالفة لمبادئ التنظيمات،

وانتقد كلا من هيأة المحكمة ومسؤولي الحكومة، وذهب الى ابعد من ذلك بالقول: ان العقوبات التي فرضت على أعضاء الجمعية كانت قاسية، وخاصة ان الانقلاب تم احباطه وهو لا يزال في مرحلة التخطيط (Afyoncu ve Digerleri ,2010,S.154 ; Yılmaz, 2017, S.521).

من ناحية أخرى رسمت رسالة مجهولة المصدر موقعة باسم مسيحي شرقي تُركت في السفارة الفرنسية صورة مناقضة لموقف وبيان الباب العالي الرسمي حول الواقعة. ووفقا للرسالة التي يعتقد انها كتبت من قبل ارمني يعمل في قيادة الشرطة والدرك، فان أعضاء الجمعية كانوا يطمحون الى تأسيس نظام دستوري، وجعل النظام السياسي العثماني متوافقا مع الأنظمة الاوربية وتجديد البلاد (Onaran ,2013,p.53). كما ان موقف السفارات الاوروبية ولا سيما البريطانية والفرنسية التي حصلت على معلومات من مصادر محلية ومترجمين جاء متوافقا مع هذا الرأي، واعتقد السفراء بان الدافع وراء خطة الاغتيال والانقلاب هو الرغبة في إقامة نظام دستوري عبر إضفاء طابع أوروبي على النظام العثماني. وما ورد في مضمون الرسالة المذكورة جعلت السفارات تميل الى اعتبار واقعة قولالي محاولة تعبر عن انفتاح ورغبة اكبر نحو برنامج الإصلاح المتعلق بالرعايا غير المسلمين، وبذلك استغلت السفارات الأوروبية الحادثة لتفسيرها بشكل يخدم مصالح دولها بدلا من كشف حقيقتها. وفي النتيجة هناك تطابق واضح بين موقف السفارات وبعض الكتاب الغربيين الذين كانوا يعملون في استانبول آنذاك اما بصفة دبلوماسي او ضباط يخدمون في الجيش العثماني (Karaaslan,2025,S.25-26).

ومهما يكن فقد استندت المصادر الأوروبية على الرسالة المذكورة لتروج ان الحركة كانت الخطوة الأولى في طريق تأسيس إدارة دستورية، كما اشارت تلك المصادر ان الأفكار اللبرالية انتشرت في أوساط ضباط الجيش العثماني بفضل الاتصال مع ضباط انكليز وفرنسيين وخاصة اثناء حرب القرم(Engelhardt,1882,p.158-159 ; Wanda,1884,p.69-72).فضلا عن تأثير ثورات ١٨٤٨م في أوروبا، ولجوء الثوار المجريين إلى الدولة العثمانية بعد قمع محاولاتهم الثورية في النمسا، مما عجل بتبني فكرة الثورة داخل الجيش العثماني، خاصة وأن بعض هؤلاء اللاجئين المجريين اعتنقوا الإسلام وارتقوا إلى رتب قيادية داخل المؤسسة العسكرية(Yapici ,2016,S.291).

وفي السياق ذاته تبنى بعض الكتاب الروس أيضا فكرة ان الحركة استهدفت إقامة نظام دستوري، وتأسيس جمعية وطنية (Pedrosyan ,1969,S.589). وفي مقال نشره المستشرق والرحالة المجري ارمينوس فامبيري (Arminius Vambery) في صحيفة تصوير أفكار الجديدة (Yeni Tasvir-i

Efkar) بتاريخ ٣ حزيران ١٩٠٩ م أكد فيه ان واقعة قولالي كانت محاولة تمرد دستورية، وانها تشكل مقدمة الحركات الثورية في تركيا(Onaran ,2013,p.53) . وكان فامبيري مقيما في استانبول اثناء وقوع حادثة قولالي، وتعرف شخصيا على ابرز قيادات أعضاء الحركة وهما الفريق حسين دائم باشا والشيخ احمد افندي، وقيّم الحركة في مذكراته بانها استهدفت إزاحة السلطان عبد المجيد ورجال إدارة الدولة، وذكر بان المتآمرين اعتقدوا ان جميع اسباب انحطاط الدولة ستزول بذلك، وانه بضربة واحدة يمكن اعادة الدولة العثمانية الضعيفة الى قوتها القديمة (Vambery,1889,p.30-31). اللافت ان فامبيري لم يشر في مذكراته المنشورة في ١٨٨٩م الى فكرة النظام الدستوري، ولكن ضمنها في مقالته المنشورة ضمن أجواء الحرية والدستورية في الدولة العثمانية بعد ١٩٠٨م، مما يؤكد دور او تأثير الظروف السياسية في تقييم الواقعة لدى بعض الكتاب.

ظلت الروايتان الحكومية وما روجت له المصادر الأوروبية هي السائدة بشكل عام حول تقييم واقعة قولالي، بل ان بعض المفكرين الاتراك في السنوات الأولى من العهد الجمهوري التزم مسار المصادر الأوروبية. وفي هذا السياق اكد يوسف اقجورا [1] في ١٩٣٣م على أهمية واقعة قولالي،

(١) ولد يوسف آقجورا في ١٨٧٦م في إقليم قازان بروسيا القيصرية لعائلة ثرية، وانتقل طفلاً مع والدته إلى إستانبول بعد وفاة والده. التحق بالمدرسة الحربية في ١٨٩٤م وتميز بتفوقه، لكنه سُجن ونُفي لاحقاً إلى فزان في ليبيا عام ١٨٩٦م بتهمة الانخراط في الحركة القومية التركية وارتباطه بحركة تركيا الفتاة، فرّ إلى فرنسا عام ١٨٩٩م ودرس في المدرسة الحرة للعلوم السياسية بباريس، وتخرج منها بأطروحة حول تاريخ مؤسسات السلطنة العثمانية. وفي عام ١٩٠٤م نشر مقالته الشهيرة ثلاثة أنماط من السياسة (Üç Tarz-ı Siyaset)، والتي تُعد البيان السياسي التأسيسي للتيار القومي التركي. جادل فيها بأن التيارات الفكرية القائمة على العثمانية والجامعة الإسلامية لم تعد مجدية، وأن السبيل الوحيد لإنقاذ الدولة يكمن في تبني القومية التركية. عاد إلى إستانبول بعد إعلان المشروطية الثانية (١٩٠٨م) وركز نشاطه على نشر الفكر القومي التركي، وعُين مدرسا للتاريخ في دار الفنون في ١٩١٦م، ثم انتقل إلى أنقرة عام ١٩٢٠م لدعم حركة الكفاح الوطني بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، وعمل في وزارة الخارجية. انتُخب نائباً عن إستانبول في البرلمان التركي عام ١٩٢٣م. عُين مدرساً للتاريخ السياسي في مدرسة الحقوق بأنقرة (١٩٢٥م). شارك في تأسيس مؤسسة التاريخ التركي (١٩٣١م)، وتولى رئاستها في ١٩٣٢م. عُين أستاذاً للتاريخ السياسي في جامعة إستانبول عام ١٩٣٣م. واصل أبحاثه ودراساته حول القومية التركية حتى توفي إثر نوبة قلبية عام ١٩٣٥م. للتفصيل ينظر :

Bengül Bolat, Yusuf Akçura (1876- 1935) , Atatürk Ansiklopedisi,

https://ataturkansiklopedisi.gov.tr/detay/114/Yusuf-Akçura-(1876--1935),

تاريخ الزيارة : ٢٠٢٦/٥/٢٢ ١١:٣٠ صباحا .

ووصفها بانها تمثل نوع من المقدمة للتنظيم الذي ظهر لاحقا تحت مسمى العثمانيون الجدد او الاتراك الشباب، والذي كان له دور فعال في آخر مراحل التاريخ العثماني(Yılmaz, 2017, S.522).

لقد انتهت فكرة ان واقعة قولالي كانت تستهدف المطالبة بالدستورية مع دراسة اولوغ ايغدمير (Ulug Igdemir) في ١٩٣٧م، والذي كان في حينه رئيسا لمؤسسة التاريخ التركي. فقد نشر بحثا موسعا حول الواقعة مستندا على مضبطة المحكمة في الأرشيف العثماني التي تضم القرارات الخاصة بعقوبات المتهمين. ووصف الباحث الواقعة بانها محاولة تمرد صغيرة لم تنجح، وانتقد الآراء التي وصفت الحركة بالتقدمية المطالبة بالحرية والدستور. وخلص الى نتيجة مفادها ان هذه المحاولة ليست تقدمية فحسب، بل انها حركة رجعية تماما قادها العلماء، ويجب قبولها كحركة استهدفت شخص السلطان عبد المجيد قام بها أولئك الذين لم يتقبلوا بعض الإصلاحات التي تمت لصالح غير المسلمين في ذلك الوقت، وربما استمدت جرأتها من الاستياء الناجم عن اسراف السلطان (Onaran,2007,S.9-12 ; Yılmaz, 2017, S.522 Kurt ve Mengüaslan , 2017, S.410 ;).

يتضح اختلاف التقييمين المشار اليهما لكل من يوسف اقجورا و اولوغ ايغدمير، فبينما اهمل اقجورا أي إشارة الى دور العلماء والشيوخ في واقعة قولالي ليؤكد على انها حركة تقدمية. فقد ركز ايغدمير على وجود العلماء ودورهم ومطالبهم بتطبيق الشريعة. هذا الاختلاف في التقييمات دفع بعض الباحثين الى ربطه بتأثير المناخ السياسي السائد. وفي هذا الصدد علل الباحث الاكاديمي بوراك اوناران هذا الامر بعدم قدرة بعض الكتاب على التحرر من الرؤية السياسية لعصرهم عند تقييم الواقعة، فبالنسبة لرئيس جمعية التاريخ التركي في عام ١٩٣٣م كان من غير المتخيل او المقبول سياسيا التأكيد على وجود العلماء او المشايخ في واقعة يشار اليها بوصفها النواة الأولى للتيار التقدمي، ومن غير المستعبد أيضا ان يكون تقييم اقجورا للواقعة جاء متناغما للأهواء السياسية للجمهورية الناشئة في محاولة من اجل توظيف واقعة قولالي لخلق جذور تاريخية لحركة تركيا الفتاة (Onaran ,2013,p.53). اما اولوغ ايغدمير الذي استند في عمله الى وثائق ارشيفية وتحديدا مضبطة القرارات الخاصة بعقوبات المعتقلين كما اشرنا، دون الوصول الى محاضر الاستجواب. فلم يتمكن من التهرب وتجاهل دور العلماء في معارضة قولالي، عندئذ حكم عليها بالرجعية، اذ لا يمكن توقع ان يكون تمرد يقوده العلماء تقدميا (Onaran,2007,S.9). وكان خلاصة ادّعائه: من المستبعد جدا ان تقوم فئة صغيرة التي لا يوجد بين

افرادها رجل واحد يمكن تسميته بالمثقف او يمكنه فهم معنى وماهية الحرية والدستورية بقيادة حركة انقلابية تقدمية (Onaran,2016,S.53).

بعد سنوات قليلة من دراسة ايغدمير أولى مؤرخون اتراك وأجانب بارزون في أعمالهم أهمية خاصة لواقعة قولالي. وفي هذا الصدد ذهب بعض كبار المؤرخين الاتراك المعاصرين الى عدم القناعة كون معارضة قولالي كانت اول حركة دستورية، بل وصفوها بانها محاولة اغتيال استهدفت السلطان عبد المجيد ورجال التنظيمات ناجمة عن ردة فعل ضد الامتيازات الممنوحة لغير المسلمين بموجب مرسوم الإصلاح ١٨٥٦م، وكذلك اسراف القصر والسلطان والصعوبات المالية (Danişmend,1972,S.188-189 ; Sertoglu,1972,S.3096 ; Danışman,1966,S.112-133 ; Akşin, t.y , S.132-133) .

وهناك آراء تميزت ببعض الشيء من الجدير الإشارة اليها منها : ما ذهب اليه المؤرخ التركي المعاصر أنور ضياء قرال (ت ١٩٨١م) في تقييمه لواقعة قولالي، وبعد ان أشار الى اختلاف التفسيرات والتقييمات انتهى الى القول : من الأصح قبول ان بعض الآراء تستند الى التحليلات المنطقية اكثر من استنادها الى الوثائق، ذلك لأن حكم التحقيق الرسمي من جانب الحكومة حول الواقعة كان غامضا، اذ ليس من المعروف ما المقصود بعبارة (تغيير هيأة الدولة والاخلال بالنظم والقوانين)، الواردة في البيان الحكومي، فمن الممكن قبول هذه الواقعة كمحاولة رجعية . كما يمكن قبولها من اجل الإدارة الدستورية، وكون الأشخاص الذين أسسوا الجمعية السرية شخصيات غير بارزة لا يشكل سببا كافيا لرفض الرأي الثاني. فالدسائس والمؤامرات التي كان يحيكها السفراء الأجانب في استانبول عام ١٨٥٩م معروفة، لم يتم بعد حسم السؤال حول ما اذا كانت لدولة اجنبية دور في حادثة قولالي ام لا؟. ومن هذا المنطلق يبدو ان قبول المسألة غير محسومة من حيث طابعها يكون منطقيا اكثر (Karal,1994,S.97) .

اما عالم الاجتماع والمؤرخ نيازي بركس (ت ١٩٨٨م)، فقد قيّم واقعة قولالي بأنها اول رد فعل سياسي ديني وليس قومي (تركي)، ثم أردف قائلا: ... مع اختلاف الكتاب بين وصف الحركة بالتقدمي والرجعي. ونظرا للغموض الذي يكتنف اهداف الجمعية السرية واعضائها والتفسيرات المتضاربة لطبيعة الحركة، فوفقا للموقف الحكومي الرسمي ان الجمعية استهدفت اغتيال السلطان واسقاط الحكومة وإلغاء نظام التنظيمات، وهذا الادّعاء لا يخلوا من التشكيك لكون المحاكمة كانت سرية، وأجريت دون حضور

محامين، من الطبيعي ان يكون هناك ميل لتصوير الجريمة على انها خطيرة، وبالتالي تشديد العقوبة. واذا صحت الرواية حول دور الأمير عبد العزيز في هذه المؤامرة، ونظرا لوجود ضباط كبار في صفوف الحركة يتضح ان الهدف كان الإطاحة بالحكومة بمساعدة الجيش وعزل عبد المجيد وتنصيب عبد العزيز، الامر الذي يظهر ان الجيش كان على وشك ان يصبح قوة مؤثرة في الحياة السياسية. ثم رجح بركس احتمال ان الفكرة التي جمعت معارضة قولالي لم تكن إقامة نظام دستوري، بل إقامة نظام حكم يتوافق مع الشريعة ويستند الى المشورة في مواجهة القصر والحكومة والإدارة الفاسدة والديون الخارجية، وقد تأمّل المعارضون إمكانية تحقيق هذه الغايات مع تنصيب ولي العهد. وبالفعل كانت هذه هي الأهداف التي ظهرت في المحاولة الثورية الثانية (١٨٧٦م)، بل وحتى في مرحلة الدعوة الى الدستور التي خرج فيها التيار الدستوري من السرية (Berkes,2012,S.271-274).

اما المؤرخ الأمريكي رودريك هـ. ديفيسون (Roderic H. Davison) (ت١٩٩٦م) بعد ان اتفق بالرأي حول أسباب الحركة ودوافعها مع المؤرخين الآخرين خلص الى القول : على الرغم من فشل المؤامرة الا انها تركت ورائها تقليدا ونموذجا للمستقبل، ومع هذا لم تكن الحركة نموذجا للانتفاضة باسم النظام الدستوري، بل نموذجا لحركة تهدف لإسقاط الحكومة، وتستند الى دعم شعبي واسع، وبصفتها هذه شكلت مؤامرة ١٨٥٩م مصدر استلهام لمحاولات او خطط العثمانيون الجدد في المستقبل، كالمحاولة الفاشلة في ١٨٦٧م، والانقلاب الناجح في ١٨٧٦م (Davison,2005,S.104-106).

فضلا عن التفسيرات والتقييمات التي أشرنا اليها، لم تغب الواقعة عن اهتمام الاوساط الاكاديمية والتي وردت الإشارة اليها في سياق البحث، وابرزها دراسة الباحث التركي بوراك اوناران الذي استند على محاضر التحقيق والاستجواب للمعتقلين، ولا سيما عارف بك وآخرين. وأكد ان نصوص التحقيق لا تقدم حقيقة واحدة ومطلقة حول واقعة قولالي، بل تفتح الباب امام بناء حقائق تاريخية متعددة، فكل محضر تحقيق يمنح إمكانية رسم صورة مختلفة للواقعة، وذلك لكون الأفكار التي طرحها عارف بك وغيره اثناء التحقيق كان مختلفا، وضم تفاصيل كثيرة عن الحركة وخططها وأهدافها لم ترد في محضر استجواب الشيخ احمد والفريق حسين دائم باشا، وهذا الاختلاف نابع من تنوع ثقافات وانتماءات المعارضين. ومع وجود خطوط عامة مشتركة، ولكن التنوع وتعدد الروايات يؤكد ان بنية معارضة قولالي لم تكن في هيأة جمعية سرية، او تنظيما متجانسا، بل تحالف سري الذي لا يلغي الآراء او الأفكار الخاصة لدى بعض الأعضاء التي ربما تكون مختلفة عن توجهات قائد التحالف. واستنادا الى ذلك لم يعد هناك معنى لتناول

واقعة قولالي في إطار ثنائية تقدمي ــ رجعي العقيمة، فكما يمكن العثور في المحاضر على ما يدعم استنتاج اولوغ ايغدمير يمكن أيضا معارضته انطلاقا من مضبطة الوثائق ذاتها. وبالتالي فان واقعة قولالي بتعدد رواياتها في التحقيقات تؤكد بانها أكبر من حصرها في اطار نص او رأي واحد .(Onaran,2007,S.34-35)

هكذا يتضح مدى ما اثارته واقعة قولالي من جدال ونقاش في الأوساط العلمية والسياسية فاقت بكثير تأثيراتها الميدانية حين وقوعها. وهناك بعض الحقائق لا يمكن تجاوزها ان الواقعة كانت بالغة الخطورة بالنسبة للسلطة السياسية العثمانية، ففي الوقت الذي حاولت التقليل من شأنها امام الرأي العام، الا ان تولّي الصدر الأعظم رئاسة لجنة التحقيق والمحاكمة بنفسه دلّ بوضوح تناقض الموقف الحكومي. والقضية الثانية اعتماد السفارات والمصادر الاوروبية على وصف الحركة بالدستورية او محاولة لأجلها لوجود بعض الأدلة كالرسالة مجهولة المصدر، وانتقال الأفكار الليبرالية والثورية الى الضباط العثمانيين من خلال الاتصال بضباط اوروبيين اثناء حرب القرم، لا يمكن استبعاد غرض سياسي من ذلك لممارسة الضغط على الحكومة العثمانية لإكمال مسيرة الإصلاحات لحماية حقوق المسيحيين، وهذه الفكرة تتوافق مع البيان الذي أصدرته الدول الأوروبية بشكل عاجل واتهمت فيه الحكومة العثمانية بالتقاعس عن تنفيذ الإصلاحات. وعلى الرغم من وجود شخصية في صفوف الكادر القيادي مثل عارف بك المتأثر بالثقافة الأوروبية ونظمها كما صرح بذلك في افاداته، لا يكفي بناء ان الحركة كانت بصدد تبني نظام دستوري وفق النموذج الغربي في حال نجاح خططها في تغيير السلطان والحكومة، وهي في الأصل (أي الحركة) انطلقت ضد الامتيازات الممنوحة لغير المسلمين التي تضمنها مرسوم الإصلاح المقتبس من الأنظمة الغربية كما عبر عن ذلك قائد الحركة الشيخ احمد والتي لا تتوافق مع مصالح المسلمين كأمة حاكمة، ومن ثَمّ فان تغيير السلطان بوصفه المسؤول الأعلى في الدولة، وعن تدهور أوضاعها اما بخلعه او اغتياله كان يمثل خط الشروع لدى المعارضين لإقامة إدارة جديدة ونزيهة في ظل سلطان جديد (ولي العهد) تأملوا فيه خيرا، فيتحول المسار السيء للدولة نحو الاحسن وخاصة في جوانبها المالية والاقتصادية، ويتم القضاء على الفساد والاسراف في القصر وإدارة الدولة . ولا يمكننا تنبؤ طبيعة او شكل الحكم الذي كان سيستقر عليه النظام السياسي في حال نجاح الحركة في تحقيق هدف خط الشروع مع وجود ثلاث توجهات او خلفيات اجتماعية وثقافية في قيادة الحركة (دينية صوفية، عسكرية، بيروقراطي ذو ثقافة أوروبية). هل كان هؤلاء سيتفقون مع السلطان الجديد على آلية او منهج جديد في إدارة الدولة؟

ام سيختلفون معه؟ او يدب الخلاف فيما بينهم، وكيف كان سيكون موقف الدول الأوروبية من التطورات؟ مثل هذه التساؤلات يجعل التنبؤ التحليلي المبني على الأدلة المذكورة آنفا او على المصالح السياسية غير ذي جدوى.

الآثار المباشرة لواقعة قولالي: بعد كشف التنظيم السري واعتقال أعضائه ومحاكمتهم، وتزامنا مع هذه التطورات اتخذت السلطات الحكومية إجراءات لتهدئة الأجواء المتوترة في العاصمة. ومن جهة أخرى وكما سبقت الإشارة، قدمت الدول الاوربية مذكرة مشتركة الى الباب العالي جاء فيها: لم يتم البدء بالإصلاحات الموعودة منذ الحرب، والوضع المالي للدولة ساء جدا، وآثار العصيان التي ظهرت مؤخرا ناتجة عن ذلك، وان أوروبا لن تنظر الى هذا الوضع طويلا(Çelik,2016,S.41). فردت الحكومة العثمانية على ذلك بتزويد السفارات بمعلومات تفيد بان الحادثة ذات صبغة رجعية، في محاولة من اجل موازنة ضغوط الدول الكبرى الرامية لتسريع الإصلاحات المتعلقة بغير المسلمين .(Onaran,2016,S.52)

وعلى الرغم من معاقبة المعتقلين، الا ان المنشورات المطالبة بالحرية لمعارضة قولالي كانت لا تزال قيد التداول في العاصمة، وكانت تصل الى القصر عرائض غير موقعة تطالب بعزل الصدر الأعظم محمد امين عالي باشا (Akandere ve Polat,2019 , S. 1304). كما وصلت رسالة مجهولة إلى القصر تضمنت: ان الأمة لا تريد عالي وفؤاد باشا، ولا يظن أحد أن الدولة لا تُدار بدونهما، ومن هو جدير بادارتها هم آباؤنا محمد باشا القبرصي ورشدي باشا مع وفيق أفندي ورضا بك. إن محتوى هذه الرسالة والأسماء المقترحة وخاصة محمد باشا القبرصي تتطابق مع الأسماء التي أرادت الجمعية رؤيتها في السلطة. أثارت هذه الرسالة والمنشورات المعلقة في شوارع إستانبول قلق القصر، وأظهرت أن جذور الجمعية أعمق مما كان يُظن (Çelik,2016,S.39). وإزاء هذا الوضع الذي برز فيه الضغط الشعبي، أصبحت هناك حاجة لحلول جديدة للقضاء على رد الفعل المتسارع، وفي هذا السياق اعلن السلطان عبد المجيد شخصيا انه سيتم العمل أولا لمعالجة الخلل في المالية العثمانية بهدف تحسينها ومنع الاسراف في القصر (Dalgali, 2023, S.62). كما قام بعزل الصدر الأعظم عالي باشا من منصبه وعين مكانه محمد باشا القبرصي (الأكثر محافظة والأقل تأثرا بالغرب) في ١٨ تشرين الأول ١٨٥٩م (Onaran,2013,p.255-256). ومن جهتها اتخذت دائرة شيخ الإسلام إجراءات لمنع انخراط طلاب المدارس الدينية في حوادث مماثلة مستقبلا، وبناء على أمر من شيخ الإسلام تم تشكيل لجنة جديدة

لمراقبة سلوك الطلاب ومنحهم شهادات سلوك بناء على ذلك، ومن يحصل على شهادة سلبية يطرد فورا ويعاد الى مسقط رأسه. وهذا القرار غير المسبوق يثبت مدى عمق القلق الذي اثارته الواقعة في الأوساط الرسمية (Safrastyan,2007,p.4). فضلا عن إجراءات أخرى استهدفت تقليل عدد طلاب المدارس الدينية في العاصمة بإرسال الكثير منهم الى الأقاليم، ومن اجل كبح نفوذ رجال الدين المشهورين تم فرض ضرائب على أملاك المساجد وتكايا الدراويش. كما بادرت الحكومة الى توزيع رواتب الجنود المكلفين بحماية العاصمة التي لم تدفع منذ ثلاثة أشهر (Davison,2005,S. 105).

الخاتمة والاستنتاجات:

تعد واقعة قولالي من الاحداث السياسية الخطيرة في التاريخ العثماني، وأول محاولة جادة لتغيير سياسة الدولة في عصر التنظيمات، وتشكّل نقطة انطلاق لفهم طبيعة المعارضة السياسية الجديدة التي بدأت في الظهور في الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومن خلال دراستنا لهذه الواقعة يمكن استنتاج ما يلي:

أولا – اثارت سياسة التنظيمات على الرغم من انها كانت محاولة لإعادة بناء الدولة وحل مشكلاتها وتطويرها على وفق الأنظمة والقوانين الأوروبية. اثارت ردود فعل سلبية من طرف المسلمين وغير المسلمين على حد سواء، مما عكس واقعا أكد ان تلك الإصلاحات لم تكن نابعة من إرادة الشعب العثماني، او انها لم تستهدف في الأساس تحسين أوضاع الشعب وتلبية حاجاته. بل يمكن وصفها بانها كانت ترتيبات رآها رجال الدولة ضرورية لمواكبة التطور العالمي من جهة، واستجابة لضغوط المشكلات الداخلية والخارجية، ومنها حقوق الأقليات التي كانت تمثل ذريعة للتدخل الأوروبي لتحقيق اطماعهم الاستعمارية.

ثانيا – خلقت ظروف حرب القرم وتكاليفها، والتدهور المالي الذي اعقبها، ولجوء الدولة الى الاقتراض الخارجي، وعدم استثمار القروض في مشاريع التنمية الاقتصادية، واستمرار القصر في نهج التبذير والاسراف دون النظر في أوضاع المجتمع المعيشية وتحسينها، وتزامُن هذه الصعوبات مع صدور مرسوم الإصلاح (١٨٥٦م) وما تضمنه من امتيازات جديدة لغير المسلمين. خلقت هذه الظروف المناخ الملائم لتحول ردود أفعال الجماعات المحافظة والساخطة على المسار السيء للدولة وهم من فئات اجتماعية وثقافية متنوعة الى حركة معارضة جدية ذات تنظيم سري عرفت في التاريخ بـ (واقعة قولالي) وجاءت هذه التسمية من اسم الثكنة العسكرية التي شهدت محاكمة المعارضين الذين تم الكشف عن تنظيمهم واعتقالهم قبل ان تدخل خطتهم حيّز التنفيذ.

ثالثا – ان تنوع ثقافات وانتماءات المعارضين اضفى على الحركة بعدا مختلفا عن شكل المعارضة في العصور السابقة مع دور بارز لفئة العلماء والعسكر في هيكلية التنظيم وقيادته.

رابعا – تبين من خلال الدراسة ان الواقعة كانت بالغة الخطورة بالنسبة للسلطة السياسية العثمانية، ففي الوقت الذي حاولت التقليل من شأنها امام الرأي العام، الا ان تولّي الصدر الأعظم رئاسة لجنة التحقيق

والمحاكمة بنفسه دلّ بوضوح تناقض الموقف الحكومي. كما استغلت الدول الأوروبية الحادثة وفسرتها بما يخدم مصالحها.

خامسا – وجود عسكريين من ذوي رتب رفيعة في التنظيم عبّر عن ولادة ثقافة سياسية معارضة جديدة داخل الجيش العثماني الذي كان قد اختفى تأثيره في الحياة السياسية منذ الغاء الجيش الانكشاري الذي كان يشكل البيئة الحاضنة للمعارضة في النظام السياسي.

سادسا – اعتماد السفارات والمصادر الاوروبية على وصف الحركة بالدستورية، او محاولة لأجلها لوجود بعض الأدلة كالرسالة مجهولة المصدر، وانتقال الأفكار الليبرالية والثورية الى الضباط العثمانيين من خلال الاتصال بضباط اوروبيين اثناء حرب القرم. لا يمكن استبعاد الغرض السياسي من ذلك لممارسة الضغط على الحكومة العثمانية لاكمال مسيرة الإصلاحات لحماية حقوق المسيحيين، وهذه الفكرة تتوافق مع البيان الذي أصدرته الدول الأوروبية بشكل عاجل واتهمت فيه الحكومة العثمانية بالتقاعس عن تنفيذ الإصلاحات. وعلى الرغم من وجود شخصية في صفوف الكادر القيادي مثل عارف بك المتأثر بالثقافة الأوروبية ونظمها كما صرح بذلك في افاداته. فان جميع هذه الأدلة لا تكفي تحليليا بناء ان الحركة كانت بصدد تبني نظام دستوري وفق النموذج الغربي في حال نجاح خططها في تغيير السلطان والحكومة، وهي في الأصل (أي الحركة) انطلقت ضد الامتيازات الممنوحة لغير المسلمين التي تضمنها مرسوم الإصلاح المستوحاة من الأنظمة الغربية، وفرضت من قبل دولها، كما جاء في مواقف قائد الحركة الشيخ احمد والتي لا تتوافق مع مصالح المسلمين كأمة حاكمة. ومن ثَمّ فان تغيير السلطان بوصفه المسؤول الأعلى في الدولة، وعن تدهور أوضاعها اما بخلعه او اغتياله كان يمثل خط الشروع لدى المعارضين لإقامة إدارة جديدة ونزيهة في ظل سلطان جديد (ولي العهد) تأملوا فيه خيرا فيتحول المسار السيء للدولة نحو الأحسن وخاصة في جوانبها المالية والاقتصادية، ويتم القضاء على الفساد والاسراف في القصر وإدارة الدولة.

سابعا – لا يمكننا تنبؤ طبيعة او شكل الحكم الذي كان سيستقر عليه النظام السياسي في حال نجاح الحركة في تحقيق هدف خط الشروع مع وجود ثلاث توجهات او خلفيات اجتماعية وثقافية في قيادة الحركة (دينية صوفية، عسكرية، بيروقراطي ذو ثقافة أوروبية). هل كان أصحاب هذه التوجهات سيتفقون مع السلطان الجديد على آلية او منهج جديد في إدارة الدولة؟ ام سيختلفون معه؟ او يدب الخلاف فيما

بينهم، وكيف كان سيكون موقف الدول الأوروبية من التطورات؟ مثل هذه التساؤلات يجعل التنبؤ التحليلي المبني على الأدلة المذكورة آنفا او على المصالح السياسية غير ذي جدوى.

ثامنا – على الرغم من فشل الحركة في تحقيق أهدافها، الا انها كشفت عن عمق المشكلات الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية التي كانت تعيشها الدولة في عهد التنظيمات، ونذرت بتحديات سياسية مستقبلية، كما انها كشفت عن طبيعة المعارضة السياسية التي بدأت في الظهور في الدولة العثمانية، وطريقة استجابة الدولة لها، و شكلت نموذجا اوليا، ومثالا للأجيال المثقفة اللاحقة التي تلتها في مسار المعارضة السياسية.

المصادر والمراجع:

١- احمد مدحت، أسّ انقلاب، قسم اول (قريم محاربه سندن جلوس همايونه قدر)، تقويم خانه مطبعه سي، استانبول، ١٢٩٤هـ.

٢- احمد مدحت، كائنات، ايكنجي قسم، برنجي جلد، دولت عثمانية، استانبول، ١٢٩٨هـ .

٣- عبد الرحمن شرف، تاريخ مصاحبه لري، مطبعة عامره، استانبول، ١٣٣٩هـ.

4- Ahmed Bedevi Kuran.(2012). Osmanlı İmparatorluğunda İnkılap Hareketleri ve Milli Mucadel , Türkiye İş Bankasi Kültür Yayınları, İstanbul .

5- Ahmed Cevdet Paşa. (1980). Maaruzat , Hazirlayan : Yusuf Halaçoglu, İstanbul .

6- Arminius Vambery .(1889) . His life And Adventures Written By Himself, London.

7- Burak Onaran .(2013). Détrôner le sultan Deux conjurations à l'époque des réformes ottomans Kuleli (1859) et Meslek (1867), Paris .

8- Cevdet Paşa .(1953). Tezâkir (1-12), Yayinlayan : Cavid Baysun, Türk Tarih Kurumu , Ankara.

9- Cevdet Paşa.(1960). Tezâkir (13-20), Yayinlayan Cavid Baysun, Türk Tarih Kurumu , Ankara.

10- Ed. Engelhardt .(1882). La Turquie et Le Tanzimat ou Histoire des Réformes dans l'Empire Ottoman Depuis 1826 Jusqu'à Nos Jo-urs, Paris.

11- Enver Ziya Karal .(2007). Osmanlı Tarihi, Cilt : 6 , Baskı : 7 , Ankara.

12- Erhan Afyoncu ve Digerleri .(2010). Osmanli İmparatorluğu'nda Askerî İsyanlar ve Darbeler, 2. Baskı , İstanbul.

13- Fahir Armaoglu .(1997). 19.Yüzyıl Siyası Tarihi (1789-1914) , Ankara.

14- Florian Riedler .(2011) . Opposition and Legitimacy in the Ottoman Empire Conspiracies and political cultures , Taylor & Francis e-Library .

15- Halil İnalcık ve Mehmet Seyitdanlıoğlu .(2006).Tanzimat Değişim Sürecinde Osmalı İmparatorluğu , Phoenix Yayınevi, Ankara.

16- İsmail Hami Danişmend.(1972). İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi ,Cilt : 4, İstanbul.

17- Kemal Beydilli.(2006). Mustafa Reşid paşa (1800-1858),İslâm Ansiklopedisi, Cilt : 31, Ankara.

18- L.Thouvenel.(1897). Trois Années de La Question D'orient 1856-1859 D'Après les papiers inédits de M. Thouvenel, (Editeur: Calmann Lévy), Paris.

19- Midhat Sertoglu.(1972). Mufassal Osmanlı Tarihi , Cilt : 6 , İstanbul .

20- Niyazi Berkes.(2012). Türkiye'de Çağdaşlaşma , Baskı : 18 , İstanbul.

21- Roderic H . Davison .(2005). Osmanlı İmparatorlugunda Reform 1856-1876 , Çeviren : Osman Akınhay , Basım : 2 , İstanbul.

22- Sina Akşin.(t.y) .Türkiye Tarihi, Osmanlı Devleti 1600-1908,Cilt: 3,Cem Yayınevi.

23- Wanda .(1884). Souvenirs Anécdotiques Sur La Turquie (1820-1878), Paris.

24- Yusuf Halaçoğlu.(1993). Cevdet Paşa, İslâm Ansiklopedisi, Cild . 7 , Ankara.

25-Zekeriya Türkmen.(2002). Kuleli Vak'asi , 1859'da Sultan Abdülmecid yönetimine karşı düzenlenen isyan ve bir suikast teşebbüsü, İslâm Ansiklopedisi , C : 26 ,Ankara.
26-Ziya Nur Aksun.(1994). Osmanlı Tarihi , Cilt : 3 , İstanbul .
27-Zuhuri Danışman.(1966). Osmanlı Imparatorlugu Tarihi , Cilt: 12, İstanbul .

الرسائل والاطاريح الجامعية :

1- Cem Düzen .(2015). Kuleli Vak'asi,Yayınlanmamış Yüksek lisans tezi, Trakya Üniversitesi , Sosyal Bilimler Enstitüsü, Edirne.
2- Ebru Kayabaş .(2008). Osmanlı Devleti'nde Tanzimat Döneminde Cemiyetler Hukukunun Gelisimi , Yaınlanmamış Doktora Tezi, istanbul Üniversitesi ,Sosyal Bilimler Enstitüsü, İstanbul.
3- Ejder Okumuş.(2003). Tanzimat Hareketi'ne Muhalefet, marife Dergisi, say. 2.
4- Mustafa Albaş.(2020). Tanzimat Döneminde Muhalefet Kültürü: Ziya paşa örneği , Yayınlanmamış Yüksek lisans Tezi, Sakarya Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü.

البحوث العلمية :

1- Bengül Bolat, Yusuf Akçura (1876- 1935) , Atatürk Ansiklopedisi, https://ataturkansiklopedisi.gov.tr/detay/114/Yusuf-Akçura-(1876--1935),
2- Burak Onaran .(2007). Kuleli vakası Hakkında Başka bir Araştırma , Tarih ve Toplum Yeni Yaklaşımlar, Sayı : 5 .
3- Burak Onaran.(2016). Gerici, İlerici, Darbeci... Kuleli Vakasi'ni Nasil Bilirsiniz, Toplumsal Tarih Dergisi , Sayı : 273.
4- Burak Onaran.(2009). How to Kill an Ottoman Sultan in the mid 19th century : The Regicide Plans of the Kuleli incident, American Historical Association Conference Annual : 123 , January.
5- Cem Düzen.(2017). Tanzimat Dönemine Karşi Bir Suikast Teşebbüsü: Kuleli Vak'asi , Trakya Üniversitesi Sosyal Bilimler Dergisi Cilt :19, Sayı : 1.
6- Ebuzer Karaaslan.(2025). Kuleli Vak'ası ve Darbeci Cemiyetin Amacı ile İdeolojisi Üzerine bir Analiz, Türk İdare Dergisi, Say : 502.
7- Emre Kurt ve Hikmet Mengüaslan.(2017). Modernleşmenin Getirdiği tepki mi? Kuleli Vakasi Üzerine bir Değerlendirme , Uluslaraası Darbe Sempozyumu, Cılt : 1 , Aydın.
8- Ersoy Zengin,Tophâne İslâm Ansiklopedis , https://islamansiklopedisi.org.tr/tophane
9- Fatma Uygur.(2019). Meşrutiyet, Hürriyet ve ya İhtilal Bağlaminda Kuleli Vak'asi (14 eylül 1859) , 19. Yüzyildan Günümüze Türkiye'de İktidara Müdahaleler ve Darbeler, Uluslararasi Sempozyumu ,21-23 Mart 2018, Bildiriler , Cilt 2 , Ankara .
10- Halil İbrahim Çelik.(2016). Bürokratik Darbe Geleneğinin Kökenleri (Kuleli Vakasi ve 1876 Darbesi), Sosyal Bilimler Dergisi , Darbeler Tarihi Özel Sayısı 1 , Cilt II, Sayı 2.

11- Merve İrem Yapici.(2016). Rusya'da ve Osmanli'da Askeri Reformun Paradoksu: "Aralikçilar" (Dekabristler) ve "Fedailer" , Alternatif Politika Dergisi , Cilt. 8, Sayı 2.

12- Muharrem Varol .(2015). Kahramanlıktan Kalebendliğe: Kuleli Vak'asının Baş Aktoru Suleymaniyeli Şeyh Ahmed'e Dair Bilinmeyenler,Tasavvuf İlmi ve Akademik Araştırma Dergisi, Cilt : 1 , Sayı : 35.

13- Osman Akandere ve Hasan Ali Polat.(2019). Tanzimat Dönemi'ne ilk muhalif Tepki: Kuleli vak'ası (Tevkif ve Cezalandırmalar), 19. Yüzyildan Günümüze Türkiye'de İktidara Müdahaleler ve Darbeler, Uluslararasi Sempozyumu ,21-23 Mart 2018, Bildiriler , Cilt 2 , Ankara .

14- Ruben Safrastyan .(2007). Kuleli Incident : Armenian Sources , Armenian Association for the Study of English, Armenian Folia Anglistika –academic journal , Yerevan.

15- Ümüş Dalgali.(2023). Osmanli'da Batililaşma ve Anti-emperyal Muhalefet Kültürünün Doğuşu: Kuleli Vakasi Örneği ,Uluslararasi Türk Dünyasi Araştirmalari Dergisi ,Cilt 6 , Sayi 1.

16- Y. A. Pedrosyan .(1969).1859 Yilindaki "Kuleli Vakasi" nin Karakterine ve Bunun Türkiye Tarihindeki Yerine Dair, Çeviren : i. kaynak, Belleten, Cilt. 33 ,Sayı. 132 .

17- Yasin Yılmaz.(2017). Osmanlı'da Sebebi Meçhul olan Kuleli Vakası'nın Tarihî Arka planı Hakkında bazı Mülahazalar, Turkish Studies, International Periodical for the Languages, Literature and History of Turkish or Turkic , Volume 12/16 , Ankara.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: أ.م.د. سياف عبد حسين

الجامعة: تكريت

الكلية: التربية للعلوم الانسانية

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:
Sayaf.a.husoin@tu.edu.iq

الهاتف: ٠٧٧١٥٤٢٠٧٤٧

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ١٩/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٣٠/ اب /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (ارتحال العلمي؛ المماليك؛ بلاد الشام؛ الحياة الاجتماعية؛ الوظائف الدينية والقضائية)

عنوان البحث

الحالة الاجتماعية للمرتحلين من بلاد الشام الى مصر في العصر المملوكي (٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م)

ملخص البحث

تتناول الدراسة الظاهرة الاجتماعية للمرتحلين من بلاد الشام إلى مصر في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)، مسلطة الضوء على آليات اندماجهم في المجتمع المصري من خلال الزواج والمصاهرة، وأنماط السكن، والوظائف الدينية والتعليمية التي تقلدوها، وعلاقاتهم بالسلاطين والأمراء. اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي، مستندة إلى المصادر الأصلية وكتب التراجم والطبقات والوثائق المحفوظة. توصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها: أن المرتحلين الشوام لم يكونوا مستقبلين سلبيين للعلم، بل فاعلين مؤثرين تقلدوا أرفع المناصب القضائية كقضاة قضاة الشافعية والحنفية، والتعليمية في كبرى المؤسسات كالمدرسة المعزية والجامع الأزهر والجامع الطولوني. كما كشفت الدراسة عن تفاوت طبقي واضح بينهم، فمنهم محدودو الدخل سكنوا المساجد والخوانق والزوايا، ومنهم أثرياء سكنوا القصور الفاخرة وتشبهوا بكبار الأمراء في اقتناء الجواري والمماليك. وأظهرت الدراسة أن علاقتهم بالسلطة كانت متقلبة؛ إذ بلغ بعضهم مرتبة الصداقة الحميمة والندامة للسلاطين، بينما تعرض آخرون للعزل والمؤاخذة بسبب فتاواهم أو ميولهم السياسية.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Asst.Prof.Dr. Sayyaf Abd Hussein
University: Tikrit
College: Education for the humanities
Department: History
Country: Iraq
Email: Sayaf.a.husoin@tu.edu.iq
Phone: 07715420747

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 15/ June / 2026
Acceptance Date: 28/ June / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Scholarly Migration (Irtiḥāl ʿIlmī), Mamluks, Levant, Social Life, Religious and Judicial Officesp)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Social Condition of Levantine Migrants to Egypt during the Mamluk Era (648–923 AH / 1250–(1517 AD

Abstract

This study examines the social phenomenon of migrants from the Levant to Egypt during the Mamluk era (648-923 AH / 1250-1517 CE), highlighting their integration into Egyptian society through marriage and kinship ties, their housing patterns, the religious and educational positions they held, and their relationships with sultans and princes. The study employs an analytical historical approach, drawing on primary sources, biographical dictionaries, classified biographical works, and preserved documents. Among its key findings is that the Levantine migrants were not passive recipients of knowledge, but rather active and influential figures who held the highest judicial positions, such as chief judges of the Shafi'i and Hanafi schools of thought, and educational roles in major institutions like the Al-Mu'izziyya Madrasa, Al-Azhar Mosque, and the Ibn Tulun Mosque. The study also reveals a clear class disparity among them; some were of limited means and lived in mosques, khanqahs , and zawiyas (Sufi lodges), while others were wealthy, residing in luxurious palaces and emulating high-ranking princes in their acquisition of concubines and Mamluks. Furthermore, the study demonstrates that their relationship with the ruling power was volatile. Some of them reached the level of close friendship and boon companionship with the sultans, while others were subjected to isolation and punishment because of their fatwas or political leanings.

المقدمة

تُعد ظاهرة الارتحال العلمي إلى مصر في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨–٩٢٣هـ / ١٢٥٠–١٥١٧م) من أبرز الظواهر التي ميزت الحياة الدينية والعلمية آنذاك، وذلك بعدما تحولت الدولة المملوكية إلى مركز علمي وثقافي رائد على الصعيد العالمي، وفي علاقتها الوثيقة مع سائر البلدان الإسلامية، لاسيما بلاد الشام. ولم يكن ارتحال علماء وطلاب العلم من الشام إلى مصر في ذلك العصر مجرد انتقالٍ مكاني، بل كان سبباً في ازدهار الحياة الفكرية والعلمية، لما تمتعت به القاهرة من مكانة علمية كبرى، عززتها المؤسسات التعليمية المتنوعة كالمساجد، والمدارس، والصوامع والزوايا الصوفية.

لقد مثّل الاجتياح المغولي لدول المشرق الإسلامي، ومقتل آخر الخلفاء العباسيين (المستعصم بالله)، وسقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ) – أهم المراكز الثقافية في العالم الإسلامي آنذاك – نكبة كبرى وفاجعة عظيمة. لكن إحياء الخلافة العباسية في مصر على يد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، وتحول مصر إلى قبلة للعلم وكعبة لطلابه، أدى إلى ازدياد حركة الارتحال العلمي إليها، ولاسيما من بلاد الشام. فرحل طلاب العلم وعلماء الشام إلى مصر المملوكية في هجرات متتالية طلباً للعلم والالتحاق بمؤسساتها التعليمية المتنوعة. ولم تكن الصراعات السياسية، ولا الخلافات، ولا التغيرات التي طرأت على خريطة المشرق الإسلامي عائقاً أمام طلب العلم، ذلك أنه كان يُعتبر فريضةً دينيةً، يستند إلى قول الرسول ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ»، وقوله أيضًا: «إِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ». وقد ذكر الأئمة أن طلب العلم أفضل من النوافل، وكان من الدوافع الأساسية للارتحال العلمي الاطلاع على ما لدى علماء المسلمين الآخرين، والاستفادة من علومهم ومصنفاتهم.

تركزت الحياة الاجتماعية لعلماء بلاد الشام المرتحلين إلى مصر بعد توغل التتار في المشرق، واجتياحهم بغداد التي كانت حاضرة العلم والعلماء. فإزاء هذا البطش والخوف، نجد أن العلماء الذين رحلوا من بلاد الشام قد مارسوا أنشطة متنوعة في جميع العلوم الدينية والدنيوية، واعتمدوا في كسب عيشهم على الحرف التي مارسوها، أو على الوظائف الأخرى التي حصلوا عليها – سواء كانت دينية أو علمية – والتي كانت مدعومة من قبل الدولة المملوكية أو من نظام الوقف. وقد شكلت المساجد والمدارس والزوايا مراكز اجتماعية رئيسة لهم، كما ساهم العلماء بشكل كبير في الحياة المجتمعية من خلال مشاركاتهم في ترسيخ السلطة، أو في الأنشطة العسكرية والاجتماعية. وسيتناول هذا البحث

بالدراسة مراحل الحياة الاجتماعية التي عاشها المرتحلون من أبناء بلاد الشام في مصر خلال العصر المملوكي.

ويهدف هذا البحث إلى: تسليط الضوء على دور علماء الشام في إثراء الحياة العلمية بمصر، وإبراز إسهاماتهم في المجالين الثقافية والدينية، مع تحليل الأبعاد الاجتماعية لتجربتهم الارتحالية.

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي في تتبع ظاهرة الارتحال العلمي من بلاد الشام إلى مصر خلال العصر المملوكي، وذلك من خلال الرجوع إلى المصادر الأصلية وكتب التراجم والطبقات والوثائق المحفوظة. كما توظف المنهج الاجتماعي لتحليل أنماط الزواج والسكن والعلاقات الاجتماعية للمرتحلين، والكشف عن آليات اندماجهم في المجتمع المصري. وقد اعتمدت الدراسة أيضاً على المنهج المقارن أحياناً للتفريق بين أوضاع المرتحلين الأغنياء ومحدودي الدخل، وكذلك بين علاقاتهم بالسلاطين في فترات الاستقرار والتوتر السياسي.

توزعت مادة البحث بعد المقدمة على خمسة محاور رئيسة، تناول أولها ظاهرة الزواج والمصاهرة كآلية للاندماج الاجتماعي والارتقاء الوظيفي، مع تقديم نماذج تطبيقية من علماء الشام الذين تزوجوا من بنات مشايخهم أو من نساء المماليك. وتناول المحور الثاني أنماط السكن والإقامة لدى المرتحلين، مبيناً الفروق بين سكنهم في المساجد والمدارس والخوانق والزوايا من جهة، وبين مساكن الأغنياء وكبار الموظفين من جهة أخرى. أما المحور الثالث فقد خصص للوظائف الدينية التي تقلدها المرتحلون، وعلى رأسها منصب قاضي قضاة الشافعية ومنصب قاضي قضاة الحنفية، بالإضافة إلى الإمامة والخطابة. وتناول المحور الرابع الوظائف التعليمية، مسلطاً الضوء على المدرسة المعزية والمدارس الأخرى وجوامع مصر الكبرى كالجامع الأزهر والجامع الطولوني. وجاء المحور الخامس ليبين مظاهر علاقة السلاطين والأمراء المماليك بالمرتحلين، من حفاوة بالقدوم إلى تشييع الجنائز، مروراً بالصداقات الحميمة ودور المرتحلين في تنصيب السلاطين وكتابة الوثائق الرسمية. واختتم البحث بخاتمة جمعت أبرز النتائج، تلاها قائمة هوامش البحث ومصادره ومراجعه.

أولاً: الزواج والمصاهرة كآلية للاندماج الاجتماعي والارتقاء الوظيفي للمرتحلين الشاميين في مصر العصر المملوكي:

لم تقتصر آليات اندماج العلماء المرتحلين من بلاد الشام في المجتمع المصري خلال العصر المملوكي على الجانب العلمي والمهني فحسب، بل امتدت لتشمل الروابط الأسرية والمصاهرات التي كانت تمثل أداة فعالة لتوطيد العلاقات الاجتماعية وتعزيز المكانة العلمية والوظيفية. فمن الشائع أن يتزوج المرتحل لطلب العلم من إحدى بنات مشايخه، وذلك لتأكيد الرابطة العلمية وتحويلها إلى علاقة نسب ومصاهرة تضمن استمرارية التواصل العلمي والاجتماعي. ومن الأمثلة البارزة على ذلك إبراهيم بن محمد بن أبي شريف (ت ٩٢٣هـ/١٥١٧م)، فقد تزوج من ابنة شيخه ومعلمه شرف الدين يحيى المناوي قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية (الزركلي، ٢٠٠٢: ٢٥١). وكذلك محمد بن أبي بكر بن محمد بن علي بن تاج الدين أبو الوفا (ت ٨٩١هـ/١٤٨٦م)، فقد وفد إلى مصر مرتحلاً من بلاد الشام، وأتم تعليمه على يد القاضي بدر الدين العيني، ثم تزوج من ابنته وأنجب منها (ابن العماد، ١٩٩١: ١٦٨؛ السيوطي، ١٩٢٧: ٢٦؛ الغزي، ١٩٩٧: ١٠٢؛ نويهض، ١٩٨٨: ٢٠)، يُستفاد من هاتين الحالتين أن الزواج من أسرة الشيخ لم يكن مجرد تقليد اجتماعي عابر، بل كان استراتيجية علمية واجتماعية مقصودة، تهدف إلى ترسيخ مكانة المرتحل في الوسط العلمي المصري، وضمان استمرارية الانتماء إلى شبكة العلائم العلمية المؤثرة.

مما يعزز هذا الطابع الدور المؤثر للمصاهرة أن بعض المرتحلين لم يقصدوا بها توثيق العلاقة العلمية فحسب، بل سعوا من خلالها إلى تحقيق مكاسب وظيفية ومناصب قضائية أو تدريسية. فقد تزوج محب الدين بن الشحنة من ابنة شيخ المدرسة الظاهرية العضدي الصيرامي، غير أن هذه الزيجة لم تكن عادية بقدر ما كانت وسيلة للوصول إلى مشيخة تلك المدرسة. واللافت في السياق ذاته أن بدر الدين الصواف (ت ٨٦٨هـ/١٤٦٣م) رفض تزويج ابنته من ابن المحب بن الشحنة، على الرغم من علاقة الصداقة الحميمة التي كانت تجمعه بأبيه، وذلك بعد أن نشبت مناظرات بين النساء أدت إلى فشل هذه المصاهرة (السخاوي، ١٩٩٢: ٩٦)، تُظهر هذه الحالة أن الزواج في أوساط العلماء لم يكن محكوماً بالرغبات الشخصية أو الودية فقط، بل كان خاضعاً لحسابات معقدة داخل الأسرة، والتنافس على المناصب العلمية، مما يعني أن المصاهرة كانت مجالاً للتفاوض الاجتماعي بقدر ما كانت وسيلة للتقارب.

ولم يقتصر زواج المرتحلين على بنات المشايخ والعلماء، بل امتد ليشمل نساء المماليك، وذلك رغبة في الحصول على وظيفة أو منصب عن طريق المصاهرة مع النخبة الحاكمة. فنجد أن ناصر الدين بن العديم قاضي قضاة الحنفية قد تزوج من بيرم ابنة الأمير ابن تغري بردي الأتابكي، وبعد وفاته تزوجها جلال الدين البلقيني قاضي الشافعية (السخاوي، ١٩٩٢: ٣٣؛ السخاوي، ٢٠٠٠: ١٢٥). كما حظي بعض المرتحلين بمكانة كبيرة لدى سلاطين المماليك؛ فقد تزوجت خواند مغل بنت البارزي – ابنة كاتب السر بمصر وأخت القاضي كمال الدين البارزي – وكان زوجها من علماء الشام الذين ارتحلوا إلى مصر وأقاموا بها أيام السلطان الظاهر جقمق، ثم تزوج السلطان جقمق بعد وفاتها من خواند زينب ابنة جرباش (ولد ناصر الدين ابن العديم سنة ٧٩٢هـ بحلب ودرس بها، وعندما أصبح شاباً قدم القاهرة مع والده فشغله في الفنون، وقرأ على العراقي في منظومته، ومات قبل أن يتم ثمان وعشرين سنة بسبب الطاعون سنة ٨١٩هـ) (ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ١٤٣؛ العسقلاني، ١٩٩٨: ١١٩)، تشير هذه النماذج إلى أن المصاهرة مع أوساط المماليك كانت إحدى قنوات الصعود الاجتماعي للمرتحلين الشاميين، وأن العلاقات الزوجية عبرت حدود الوسط العلمي إلى الوسط السياسي والعسكري الحاكم، مما يعكس درجة عالية من الاندماج والمرونة الاجتماعية في المجتمع المملوكي.

على النقيض من الوضوح النسبي الذي اتسمت به أنماط الزواج والمصاهرة، تظل الحياة المنزلية والزوجية الخاصة – سواء للمصريين أو للشوام المرتحلين إلى مصر – غامضة في المصادر والمراجع التاريخية. فلم تذكر المصادر شيئاً يُذكر عن تفاصيل المعيشة اليومية للأسر، أو طبيعة العلاقة بين الزوجين داخل البيت، باستثناء ما يمكن استقراؤه من إشارات عامة تفيد بأن تقاليد الزواج كانت قائمة على الاحترام المتبادل والعطف، وأن الأب كان يُعد رب الأسرة، فيما تظهر صورة الأم في إطار من الاحترام لزوجها وإخلاصها لأبنائها (ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ١٣؛ السخاوي، ١٩٩٢: ٢٣٦). وهذا الصمت المصدري يجعل من الصعب بناء صورة كاملة عن البنية الأسرية الداخلية للمرتحلين، ويدفع إلى القول إن المؤرخين اهتموا بالوظائف والمناصب أكثر من اهتمامهم بالتفاصيل الأنثروبولوجية للحياة الخاصة، إن غياب التفاصيل عن الحياة المنزلية للمرتحلين في المصادر المملوكية يشير إلى وجود فجوة منهجية في الكتابة التاريخية التي آثرت الجانب الرسمي والعلمي على الجانب الخاص واليومي، مما يستدعي توخي الحذر في تعميم أي أحكام حول طبيعة الأسرة في أوساط العلماء المرتحلين.

ومع ذلك، فإن ما يمكن تتبعه من وقائع تاريخية يكشف أن الأسرة – حتى المستقرة منها – لم تكن بمنأى عن عوامل الانهيار والتفكك، بل إن فساد بعض الأبناء كان كافياً لهدم استقرار الأسرة وزعزعة مكانة الأب الاجتماعية والوظيفية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث مع قاضي القضاة المحب بن الشحنة قاضي قضاة الحنفية، إذ ترك ولده يتصرف في الكثير من أعمال القضاء، لاسيما في استبدال الأوقاف، حتى صارت معظم أمور القضاء بيد الولد الصغير. ولما كثر عبث الولد، وكثرت الشكاوى ضده وضد أبيه لدى السلطان قايتباي(٨٧٢-٩٠١هـ) أمر بعزل المحب بن الشحنة من القضاء، وعزل ابنه من وظائفه، وكان ذلك في سنة (٨٧٧هـ/١٤٧٢م) (القلماوي، ٢٠١٠: ٣٤٨)؛ تُبرز هذه الحالة المفارقة أن العالِم المرتحل الذي نجح في بناء مكانته العلمية والاجتماعية عبر آليات الزواج والمصاهرة قد يخسر كل ما بناه نتيجة إخفاقه في ضبط أسرته وتربية أبنائه. كما تُظهر أن الدولة المملوكية كانت تتدخل في الشأن الأسري للقضاة والعلماء إذا تعلق الأمر بالفساد الإداري أو المساس بالأوقاف، مما يعني أن الأسرة العلمية لم تكن كياناً خاصاً منغلقاً، بل كانت خاضعة للمراقبة والمحاسبة من قبل السلطة الحاكمة.

ثانياً: أنماط السكن والإقامة لدى المرتحلين الشاميين في مصر بالعصر المملوكي:

١- السكن في المؤسسات الدينية والتعليمية كنظام للرعاية العلمية:

لقد أدرك سلاطين المماليك وأمراؤهم وفقهاؤهم أن استقطاب العلماء وطلاب العلم من بلاد الشام يستلزم توفير بيئة سكنية ملائمة تعينهم على الانقطاع للعلم وتحصيل الفائدة. ومن ثم، فقد أقاموا في المدارس التي أنشأوها مساكن خاصة للطلبة المرتحلين الغرباء والفقراء، وكان هذا النظام خير ما يُقدم لتلك الفئة، حيث وجدوا في تلك المساكن راحتهم واستقرارهم العلمي. فقد كانت بيوت الطلبة والمدرسين الملحقة ببناء المدرسة من مكملات المدرسة الأساسية، غير أن نظام السكن وضع شروطاً صارمة، إذ كان يشترط في الساكن أن يكون عازباً، فإذا أراد الزواج سُمح له بمغادرة مسكنه ليحل محله غيره من الراغبين، كما لم يكن يُسمح بالجمع بين بيتين داخل المدرسة، باستثناء المدرسين الذين كان يُسمح لهم بالإقامة بعائلاتهم (السخاوي، ٢٠٠٠: ٣٧٨)؛ يُظهر هذا التنظيم الدقيق للسكن في المدارس المملوكية أن الدولة لم تكن تقدم مجرد مأوى للطلبة، بل كانت تنظم بيئة تعليمية متكاملة تستهدف التفرغ التام للعلم، مع إعطاء امتياز للمدرسين كون هؤلاء يمثلون الركيزة العملية التعليمية. كما يعكس الشرط بعدم الجمع بين بيتين حرص المؤسسين على عدالة توزيع السكن وتكافؤ الفرص بين الطلبة.

٢- السكن في الخوانق والزوايا كمراكز للعزلة العلمية والتصوف:

امتازت بعض المدارس بجودة مساكنها مما جعل الطلبة يتنافسون للإقامة فيها. وكان محدودو الدخل من المرتحلين الوافدين إلى مصر، والذين يعانون ظروفاً اقتصادية لا تسمح لهم بشراء أو استئجار مسكن خاص، يلجؤون إلى سكن المساجد والمدارس أو الدور الصوفية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك خانقاة سعيد السعداء، حيث أقام إقامة تامة الفقيه الشريف شمس الدين الدمشقي، الذي ارتحل إلى مصر لدراسة العلوم بها، وتوفي سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) (المزين، ١٩٩٨: ٣١٤). كما نزل بالخانقاة الظاهرية البرقوقية الشهاب أبو العباس الأنصاري الدمشقي المتوفي سنة (٨٤١هـ/١٤٣٧م)، فقد جاء من بلاد الشام راحلاً إلى مصر، ونزل بها وظل مقيماً حتى وفاته (العسقلاني، ١٩٩٨: ٣٧٤). وكذلك الخانقاة المؤيدية التي سكنها وأقام بها في خلوة دائمة حتى وفاته الشيخ إبراهيم بن موسى الطرابلسي (ت: ٩٢٢هـ/١٥١٦م) (السخاوي، ١٩٩٢: ٧٣).

ومما يجدر التنبيه إليه أن مساكن الصوفية لم تكن مخصصة للسكن العائلي، بل اقتصرت على الصوفي بمفرده دون أسرته، إذ كان على ساكني الزوايا والخوانق أن يكونوا عزاباً غير متزوجين، وذلك حرصاً على عدم تلويث الخانقاة بسكنى النساء في فترة المحيض، باستثناء شيخ الخانقاة الذي كان يُسمح له بسكن زوجته وأولاده للضرورة (الغزي، ١٩٩٧: ١١٣)؛ تؤكد هذه النماذج أن الخوانق والزوايا شكلت ملاذاً آمناً للمرتحلين الشاميين من ذوي الدخل المحدود، كما أنها وفرت بيئة ملائمة لمن أراد العزلة العلمية والخلوة الروحية. غير أن اشتراط العزوبة على ساكنيها – باستثناء شيوخها – يكشف عن تصور خاص للفضاء الصوفي باعتباره فضاءً ذكورياً بامتياز، مرتبطاً بالطهارة الطقسية والانقطاع عن الالتزامات الأسرية.

٣- الجامع الأزهر والمساجد كملاذات رئيسية للمرتحلين:

كان الجامع الأزهر الملجأ الدائم للمرتحلين الوافدين لطلب العلم، فقد ضم عدة أروقة مخصصة للمغتربين. فسكن الجامع الأزهر حسن بن صالح السرميني لمدة أربع سنوات (البطاوي، ٢٠٠٧: ١٤٩)، وكذلك محمد بن عبد الرحيم بن عمر الباجربقي، الذي درس ودرّس بالأزهر وانقطع للسكن به حتى وفاته (٧٢٤هـ/١٣٢٣م) (الغزي، ١٩٩٧: ١٧٩). وعلى نفس السياق، نجد الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن عيسى أبو الفيض الغزي الذي نزل مصر مرتحلاً طالباً للعلم، والتقى بجلال البلقيني فأنزله في مدرسة

أبيه، ثم تركها وسكن بحارة برجوان فترة من الوقت، حتى استقر بالجامع الأزهر سكناً ودراسة (ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ٢٦٢؛ الزركلي، ٢٠٠٢: ٧٢؛ كحالة، ١٩٩٣: ٤٥).

ولم يكن الجامع الأزهر وحده مكاناً لإقامة المرتحلين من أهل بلاد الشام، فقد كان الجامع الأقمر بالقاهرة مسكناً لإبراهيم بن أحمد بن عبد المؤمن الشامي الحريري (السخاوي، ١٩٩٢: ٢٩٨). كما كان الجامع الحاكمي بمثابة خلوة لمحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن خليل العسقلاني (ت: ٧٧٧هـ/١٣٧٥م)، الذي انقطع بخلوته حتى توفي بالجامع الحاكمي (ابن الجزري، ٢٠٠٦: ١٤). والجدير بالذكر أن الفقيه جلال الدين بن أحمد بن يوسف بن طوع لقب بـ"التباني"، وذلك بسبب مجيئه إلى مصر وإقامته الدائمة بمسجد التبانة خارج القاهرة (ابن العماد، ١٩٩١: ٣٤٣؛ العسقلاني، ١٩٩٨: ١١٤–١١٥)؛ يُظهر تعدد المساجد التي سكنها المرتحلون الشاميين، من الأزهر إلى الأقمر إلى الحاكمي إلى مسجد التبانة، أن المسجد في العصر المملوكي لم يكن مجرد مكان للعبادة والتعليم، بل كان أيضاً مكاناً سكنياً متكاملاً للغرباء وطلبة العلم، مما يعكس تكامل الوظائف الدينية والتعليمية والإيوائية في المؤسسة المسجدية. كما أن إطلاق لقب "التباني" نسبة إلى مسجد التبانة يشير إلى أن السكن في المسجد كان أحياناً سبباً في تشكيل الهوية الشخصية والعلمية للعالِم المرتحل.

٤– المدارس كمساكن للعزاب والتفاوت الاقتصادي في أنماط السكن:

لم تكن المساجد والخوانق والزوايا والربط هي الأماكن الوحيدة لإقامة المرتحلين الوافدين من بلاد الشام بسبب ظروفهم الاقتصادية، بل كانت المدارس أيضاً مكاناً لسكن العزاب. فالفَقِيه موسى بن علي بن يوسف بن محمد ضياء الدين الرزرازي (ت ٧٣٠هـ/١٢٢٩م) جاء إلى مصر مرتحلاً لطلب العلم وسكن بالمدرسة القطبية (العسقلاني، ١٩٩٨: ٤٢٤؛ قطلوبغا، ١٩٩٢: ١٨٤). وكذلك الشيخ إبراهيم العجمي (ت: ٩٤٠هـ/١٩٣٣م) الذي ارتحل إلى مصر وأقام بمدرسة بباب زويلة حتى وفاته بها (ابن الجزري، ٢٠٠٦: ٢٨٠).

أما بسبب الحالة الاقتصادية السيئة، فقد سكن المرتحلون محدودو الدخل الأحياء الشعبية التي كانت متفقة مع مستواهم الاجتماعي والاقتصادي، حيث عاشوا حياةً بسيطة مثل عامة الشعب المصري. فسكن حسن بن محمود بن أبي سعيد جمال الدين الربعي (ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) في درب الأتراك وظل به حتى وفاته (ابن العماد، ١٩٩١: ٣٣٣؛ الغزي، ١٩٩٧: ٨٤)؛ يكشف هذا التنوع في أنماط السكن

عن تفاوت طبقي واضح بين المرتحلين الشاميين، إذ توزعوا بين المدارس الداخلية (للعزاب من الطلبة)، والأحياء الشعبية (لمحدودي الدخل)، في حين كان الأثرياء منهم يسكنون الأحياء الراقية. وهذا التباين يشير إلى أن الارتحال العلمي لم يكن يقضي على الفوارق الاقتصادية بين المرتحلين، بل كان يعكسها ويعيد إنتاجها في الفضاء المديني المصري.

٥- مساكن الأثرياء وكبار الموظفين: مظاهر الترف والتشبه بالنخبة الحاكمة:

على النقيض من محدودي الدخل، نجد أن المرتحلين الشاميين الذين كانت حالتهم الاقتصادية متاحة ومتيسرة قد سكنوا البيوت الراقية بل واهتموا بمسكنهم اهتماماً بالغاً. فالقاضي برهان الدين ابن جماعة قاضي قضاة الشافعية (ت: ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) سكن دار الأمير تنكز بعد أن اشتراها، وأنفق عليها الكثير من الأموال لزخرفتها، وقيل إنه أنفق عليها سبعة عشر ألف درهم، ثم باعها واشتراها من بعده القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م)، وقام بتجديد بنائها وبنى بجوارها جامعاً (أبو الفدا، د.ت.: ١٠٩).

وكذلك كاتب السر بالديار المصرية ابن البارزي، الذي كان من جملة الشاميين المرتحلين إلى مصر المملوكية (ت ٨٢٣هـ/١٤٢٠م)، فكانت داره أمام دار السلطان المؤيد شيخ، بحيث كان السلطان إذا أراد الاستراحة من مشاغل السلطنة أو من الرجل التي كانت تعاوده يذهب إلى بيت ابن البارزي فيقيم وينام الليلة عنده (المقريزي، ١٩٩٨: ٤٨٣). وكانت الأوضاع داخل منازل المرتحلين الذين حظوا بمكانة عالية وشغلوا مناصب متعددة مثل القضاء وكتابة السر والتدريس، تتميز بوجود الخدم من الرجال والنساء الذين يؤدون الخدمات المنزلية، وكان الأثرياء منهم يحرصون على اقتناء الجواري الحسان والخيول بل والمماليك أيضاً، محاولين التشبه بكبار أمراء المماليك كبقية المصريين الأثرياء. وأما محدودو الدخل فكانت حياتهم حياةً طبيعية كحياة الشعب المصري البسيطة، لا يملكون جوارٍ ولا خدم، بل حياتهم عادية لا تحتوي على مظاهر الترف التي حظي بها الأغنياء من المرتحلين (البطاوي، ٢٠٠٧: ١٤٩)؛ تُظهر هذه الحالات بوضوح أن بعض المرتحلين الشاميين لم يقتصروا على الاندماج الوظيفي في الدولة المملوكية، بل استطاعوا تحقيق اندماج مكاني واجتماعي متميز من خلال سكنهم في أحياء النخبة واقتنائهم دور الأمراء السابقة. كما أن تقارب دار ابن البارزي من دار السلطان وإقامة السلطان المؤيد شيخ عنده يعكس درجة وثيقة من الثقة والعلاقة الخاصة التي بلغها بعض المرتحلين مع قمة الهرم السياسي. والأهم من ذلك، فإن محاولة الأثرياء من المرتحلين التشبه بكبار الأمراء في اقتناء الجواري

والخيول والمماليك تكشف عن عملية استعراق ثقافي واجتماعي، حيث سعى أولئك العلماء إلى تبني أنماط عيش النخبة المملوكية الحاكمة، مما يعكس ذوبان الحدود بين العالم والفارس في أوساط النخبة المرتحلة.

ثالثاً: الوظائف الدينية التي تقلدها المرتحلون الشاميين في مصر العصر المملوكي:

١- القضاء كأرفع منصب ديني: آليات الاختيار وأسباب التولية والعزل:

لقد أدى رجال الدين والعلماء الذين وفدوا إلى مصر مرتحلين من بلاد الشام لتلقي علومهم دوراً بارزاً في المجتمع المصري في شتى جوانبه، كما أسهموا إسهاماً كبيراً في إدارة الدولة بسبب تقلدهم الوظائف الدينية على اختلاف أوجهها. فقد تولوا وظائف قضائية متعددة كالقضاء الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي، إلى جانب غيرها من الوظائف الدينية. وكان منصب "قاضي القضاة" يتم اختياره عن طريق عدة مسارات، أبرزها: المكانة العلمية للقاضي، أو وراثة الوظيفة، أو العلاقات الودية بين القاضي وأهل السلطة في الدولة (عاشور، ١٩٩٢: ٣٣).

وقد كانت الشهرة العلمية سبباً كبيراً في تولي بدر الدين محمد بن جماعة (ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) وظيفة قاضي القضاة. فقد تولى قضاء الشافعية بعد أن أتم رحلته العلمية في مصر، ثم تولى قضاء القدس، وبعدها انتدب من القدس سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م) بعد أن سمع عنه أهل السلطة وعلمه الواسع، غير أنه عزل من ذلك المنصب سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٤م) (البطاوي، ٢٠٠٧: ٤٧-٤٨)؛ يُظهر مسار ابن جماعة أن آليات الاختيار للمناصب القضائية العليا لم تكن محصورة في العلاقات الشخصية فقط، بل كانت المكانة العلمية والشهرة الواسعة عاملين حاسمين في الترشيح. غير أن قصر مدة الولاية (ثلاث سنوات فقط في المرة الأولى) يشير إلى هشاشة هذه المناصب وتعرضها الدائم لعواصف السياسة وتقلبات مزاج السلطة.

٢- منصب قاضي قضاة الشافعية: المكانة الاستثنائية والتقلبات المستمرة:

يُعد منصب قاضي قضاة الشافعية أهم منصب في القضاء المملوكي، إذ يتمتع بمكانة كبيرة تفوق المذاهب الأخرى. ويعود سبب هذه الأهمية إلى أن غالبية الشعب المصري كانت على المذهب الشافعي،

فضلاً عن أن السلاطين والأمراء المماليك والأغنياء من الشعب أكثروا من بناء المدارس وتخصيصها لتدريس الفقه على المذهب الشافعي، وأوقفوا عليها الأوقاف الجليلة.

والجدير بالذكر أن مدة ولاية قاضي قضاة الشافعية في منصبه كانت أقصر بكثير من نظيرتها في المذاهب الأخرى، كما أن العديد منهم تولوا الولاية أكثر من مرة. ونرى مثالاً واضحاً على ذلك في القاضي بدر الدين بن جماعة، فقد تولى منصب قاضي قضاة الشافعية سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م) وعزل منه سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٤م)، ثم تولى المنصب مرة ثانية في ولاية السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) وعزل منه مرة أخرى سنة (٧١٠هـ/١٣١٠م). وفي سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٠م) تولى السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير الولاية، ومن بعده اعتلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثالثة فعيّن ابن جماعة في قضاء الشافعية للمرة الثالثة سنة (٧١١هـ/١٣١١م)، فظل في منصبه حتى استقال بسبب المرض سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، وتُعد هذه المدة هي الأطول بين قضاة الشافعية (ابن تغري بردي، ١٩٨٩: ٥٧٨؛ ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ٢٩٨؛ ابن تغري بردي، ٢٠٠٨: ٢١٩؛ ابن حبيب، ٢٠١٠: ٢٣٦؛ ابن العماد، ١٩٩١: ١٨٤؛ الذهبي، ١٩٨٨: ٢٠٩؛ السبكي، ١٩٩٩: ٧٩؛) (الصفدي، ١٩١١: ٢٣٥؛ العسقلاني، ١٩٩٨: ٢٨١؛ الكتبي، ١٩٧٣: ٢٩٧–٢٩٨؛ الداودي، ٢٠٠٨: ٤٢).

ونجد أن معظم قضاة الشافعية قد تعرضوا للعزل من منصبهم، فمثلاً القاضي إبراهيم بن برهان الدين الكراكي (ت: ٨٥٣هـ/١٤٤٩م) – وهو من جملة المرتحلين إلى الديار المملوكية – تم تعيينه قاضي قضاة الشافعية بالمحلة سنة (٨٢٧هـ/١٣٢٦م) ثم عزل منه، وتولى قضاء الشافعية بمنوف وعزل منه أيضاً (الذهبي، ١٩٨٨: ٢٠٩؛ الصفدي، ١٩١١: ٢٣٥؛ الكتبي، ١٩٧٣: ٢٩٧–٢٩٨)؛ تُظهر التقلبات المتكررة في ولاية القضاء الشافعي، وتعدد العزل وإعادة التولية لنفس الشخص، أن القضاء في العصر المملوكي كان أداة سياسية بامتياز، وأن بقاء القاضي في منصبه لم يكن مرهوناً بكفاءته العلمية فقط، بل بمدى توافقه مع الإرادة السلطانية وتقلبات التحالفات داخل البلاط الحاكم. كما أن طول مدة ولاية ابن جماعة في المرة الثالثة يشير إلى أن الاستقرار النسبي كان استثناءً وليس قاعدة.

٣- العزل بسبب الصدام مع السلطان: حالة ابن أبي شريف كدرس في الصراع بين العلم والسياسة:

في سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)، وفي ولاية السلطان الأشرف قنصوه الغوري، تولى منصب قاضي قضاة الشافعية القاضي إبراهيم بن محمد بن أبي شريف (ت: ٩٢٣هـ/١٥١٧م). وقد قام السلطان بعزله عن منصبه سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م) بسبب حادثة كشفت عمق التناقض بين الفتوى العلمية والإرادة السلطانية. وتتلخص الواقعة في أن رجلاً اتهم بأنه زنى بامرأة، فرفع أمرهما إلى الحاجب بالديار المصرية، فأقرا بالزنا، ثم رفع أمرهما إلى السلطان الغوري فأحضرهما وذكرا أنهما رجعا عما أقرا به من تهمة الزنا. فعقد السلطان لهما مجلساً جمع فيه العلماء والقضاة الأربعة، فأفتى ابن أبي شريف بصحة الرجوع. فغضب السلطان من ذلك، وأمر بشنق المتهمين على باب القاضي ابن أبي شريف، فنُفذ الحكم، ثم عزل القاضي عن منصبه في السنة المذكورة. ولم يكتف السلطان الغوري بعزله من القضاء، بل قام أيضاً بعزله من مشيخة القبة الغورية ومن القضاة الأربعة. وكانت هذه الواقعة سبباً في تكدر الدولة الغورية، حيث بدأ انحلال ملك السلطان الغوري حتى قُتل بعدها في مرج دابق (الداودي، ٢٠٠٨: ٣٩؛ السخاوي، ١٩٩٢: ١٤٥؛ السيوطي، ١٩٢٧: ٢٩؛ نويهض، ١٩٨٨: ٢٤)؛ تمثل هذه الحالة مثالاً صارخاً على حدود السلطة الفعلية للقاضي في مواجهة السلطان، حيث لم تكن فتوى القاضي ملزمة للحاكم، بل كان بإمكان السلطان تجاوزها بل ومعاقبة المفتي عليها بعزله وإذلاله. كما تعكس الحادثة أن الصدام بين الشرع والسياسة كان يكلف القضاة مناصبهم، وأن المشهد العلني لشنق المتهمين على باب القاضي كان رسالة سلطانية واضحة إلى جميع رجال القضاء مفادها أن كلمة السلطان هي العليا.

٤- منصب قاضي قضاة الحنفية: النشأة والتوليات المتعددة:

ظهر منصب قاضي قضاة الحنفية عندما عدَّل السلطان الظاهر بيبرس نظم القضاء سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٥م)، وأصبح قاضي قضاة الحنفية يلي قاضي قضاة الشافعية من حيث الأهمية. وكانت أهم أعمال القاضي الحنفي محصورة في الحكم بما يقتضيه مذهبه، بالإضافة إلى ولاية النواب والشهود على المذهب الحنفي (ابن العماد، ١٩٩١: ١٦٧؛ الداودي، ٢٠٠٨: ٢٠؛ السخاوي، ١٩٩٢: ١٣٤؛ السيوطي، ١٩٢٧: ٢٦؛ الغزي، ١٩٩٧: ١٠٢-١٠٣).

يتضح من خلال دراسة الباحث في المصادر وكتب التراجم والأنساب أن بعض المرتحلين للعلم من بلاد الشام، بعد أن تلقوا علومهم في مصر في العصر المملوكي، وبفضل علمهم وما توصلوا إليه

من مؤلفات، تم تعيينهم في قضاء الحنفية. فمنهم الفقيه أحمد بن إبراهيم شمس الدين أبو العباس السروجي (ت: ٧١٠هـ/١٣١٠م)، فقد تولى قضاء الحنفية بمصر سنة (٦٩٢هـ/١٢٩٢م) وعزل من منصبه سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، ثم بفضل علمه وحكمته وذكائه أعيد تعيينه في نفس المنصب سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) وظل فيه حتى توفي في السنة المذكورة (البطاوي، ٢٠٠٧: ٥٦؛ القلقشندي، ٢٠١٠: ٣٦). أما القاضي عبد البر بن محمد بن محب الدين بن الشحنة (ت: ٩٢١هـ/١٥١٥م)، فقد تم تعيينه لمنصب قاضي قضاة الحنفية بمصر ثلاث مرات. فكانت أول مرة سنة (٨٦٦هـ/١٤٦١م) في ولاية السلطان سيف الدين خشقدم حتى عزل سنة (٨٦٧هـ/١٤٦٢م)، وتم تعيينه مرة ثانية سنة (٨٦٨هـ/١٤٦٣م) وعزل بعد توليته بسنتين (٨٧٠هـ/١٤٦٥م)، وبعد سبع سنوات في ولاية السلطان سيف الدين قايتباي تولى القضاء للمرة الثالثة سنة (٨٧٧هـ/١٤٧٢م) وعزل في نفس السنة المذكورة (العسقلاني، ١٩٩٣: ٩١؛ طاش كبرى زادة، ١٩٦١: ١١٨؛ قطلوبغا، ١٩٩٢: ١٠٧-١٠٨).

وفي نفس السياق، فإنه في سنة (٨٢٩هـ/١٤٢٥م) في ولاية السلطان الملك الأشرف برسباي تم تعيين القاضي بدر الدين العيني لمنصب قاضي قضاة الحنفية، وذلك بسبب صلته الوطيدة بالسلطان وقربه منه. وقد باشر عمله كقاضي قضاة للحنفية بحكمه وعظته الزائدة، حتى تم عزله من منصبه سنة (٨٣٣هـ/١٤٢٩م) (السخاوي، ١٩٩٢: ٣٣؛ الغزي، ١٩٩٧: ٢٢٠؛ نويهض، ١٩٨٨: ٢٥٥)؛ تظهر التوليات المتعددة لقضاء الحنفية أن هذا المنصب – شأنه شأن القضاء الشافعي – كان يعاني من عدم الاستقرار والتعرض المتكرر للعزل. كما تكشف حالة بدر الدين العيني أن العلاقات الشخصية والقرب من السلطان كان عاملاً حاسماً في التولية، غير أنه لم يكن كافياً للحماية من العزل، مما يعكس أن المناصب القضائية كانت خاضعة لمنطق المزاج السلطاني المتقلب أكثر من خضوعها لمنطق الاستقرار المؤسسي.

٥- الإمامة والخطابة كوظائف دينية مرموقة للمرتحلين الشاميين

تولى علماء وفقهاء شوام مرتحلون من بلادهم إلى الديار المملوكية وظيفة الإمامة والخطابة، وكانت وظيفة الخطيب من الوظائف المهمة التي تحظى باهتمام السلاطين أنفسهم. ففي عام (٧١٢هـ/١٣١٢م)، بعد انتهاء عمارة الجامع الجديد الناصري بساحل مصر، نزل السلطان ناصر الدين محمد بن قلاوون إليه ورتب فيه القاضي بدر الدين ابن جماعة الشافعي خطيباً، فخطب به الجمعة (ابن العماد، ١٩٩١: ٤١٨-٤١٩؛ السخاوي، ١٩٩٢: ١٣١؛ السيوطي، د.ت.: ٢٧٥).

ويُعد جامعا أحمد بن طولون والجامع الحاكمي من الجوامع التي حظيت باهتمام السلاطين والأمراء أيضاً، وكانت ذات مكانة رفيعة، حتى تولى الخطابة فيهما خطباء غير مصريين من أهل بلاد الشام الذين ارتحلوا لإتمام تعليمهم بمصر. فتولى خطابة جامع أحمد بن طولون الفقيه محمد بن يوسف بن عبد الله شمس الدين الجزري المعروف بابن النقيب (ت: ٧١١هـ/١٣١١م) (ابن تغري بردي، ١٩٨٩: ٥٧٨؛ ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ٢٩٨؛ ابن تغري بردي، ٢٠٠٨: ٢١٩؛ ابن حبيب، ٢٠١٠: ٢٣٦)؛ (ابن العماد، ١٩٩١: ١٨٤؛ الذهبي، ١٩٨٨: ٢٠٩؛ السبكي، ١٩٩٩: ٧٩؛ الصفدي، ١٩١١: ٢٣٥؛ العسقلاني، ١٩٩٨: ٢٨١؛ الكتبي، ١٩٧٣: ٢٩٧–٢٩٨؛ الداودي، ٢٠٠٨: ٤٢). أما الجامع الحاكمي، فقد تولى الخطابة به الفقيه الشافعي قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة (ت: ٩٢١هـ/١٥١٥م) عوضاً عن الناصر الإخميمي الحنفي. ويذكر أن والده كان شيخ الخانقاه الشيخونية، فلما عجز والده ومرض، ناب عنه في مشيختها تصوفاً وتدريساً (ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ٢٢١؛ الداودي، ٢٠٠٨: ٢٣٦؛ السيوطي، د.ت.: ١٧٨؛ العسقلاني، ١٩٩٣: ٢٩٩؛ المقريزي، ٢٠٠٧: ١١٤)؛ لم تكن الإمامة والخطابة مجرد وظائف دينية ثانوية، بل كانت مناصب رفيعة تتنافس عليها النخبة العلمية، وكان تعيين السلطان للخطيب بنفسه دليلاً على أهميتها. وتولي المرتحلين الشاميين للخطابة في أعرق جوامع مصر كجامع طولون والجامع الحاكمي يعكس مدى اندماجهم في المؤسسة الدينية المملوكية، ووصولهم إلى أعلى مراتب الثقة العلمية والدينية لدى السلطة. كما أن توريث مشيخة الخانقاه (كما في حالة ابن الشحنة) يشير إلى أن بعض الوظائف الدينية كانت تنتقل عبر الروابط الأسرية إلى جانب الكفاءة العلمية.

رابعاً: الوظائف التعليمية التي تقلدها المرتحلون الشاميين في مصر في العصر المملوكي:

١ – المؤسسات التعليمية كحاضنة للوظائف الدينية والعلمية:

قامت الجوامع والمساجد ودور الصوفية بدور المدرسة في العصر المملوكي، وهو ما دفع السلاطين والأمراء إلى الإكثار من بناء المدارس والجوامع والمساجد ودور الصوفية المتمثلة في الخانقاوات والزوايا والربط، وذلك بسبب اهتمامهم بالدين والعاملين عليه. بل أوقفوا على تلك المؤسسات أوقافاً كثيرة تضمن استدامتها واستمرار رسالتها التعليمية. وكانت تلك المؤسسات تضم مدرسين يقومون بالإشراف على الطلبة والتدريس لهم. ولم يقتصر تولي هذه الوظائف على المصريين فقط، بل تولاها المصريون وغير المصريين، ومنهم الشاميين الذين ارتحلوا إلى مصر. فكل مرتحل تتلمذ على يد علمائها

وأتم تعليمه بمصر، وبفضل جهده في خدمة الدين والعلم، تقلد تلك الوظائف الجليلة (السخاوي، ١٩٩٢: ٣٣؛ الغزي، ١٩٩٧: ٢٢٠؛ نويهض، ١٩٨٨: ٢٥٥)؛ يُظهر هذا التنوع المؤسسي أن الدولة المملوكية أنشأت نظاماً تعليمياً متكاملاً تجاوز حدود المسجد التقليدي إلى مدارس وخانقاوات وزوايا متخصصة، مما أتاح فرصاً واسعة للمرتحلين الشاميين للاندماج في هذا النظام والارتقاء فيه. كما يعكس إيقاف الأوقاف على هذه المؤسسات بعداً استراتيجياً في دعم التعليم وضمان استمراريته بمعزل عن التقلبات السياسية المباشرة.

٢- المدرسة المعزية كنموذج لتولي الشاميين التدريس في كبرى المؤسسات:

تُعد المدرسة المعزية التي أنشئت سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) من أبرز المؤسسات التعليمية التي تولى التدريس بها العديد من أهل بلاد الشام. فقد تولى التدريس بهذه المدرسة الشيخ محمد بن يوسف بن عبد الله الجزري المعروف بابن الحشاش (ت: ٧١١هـ/١٣١١م) (نشأها الملك المعز أيبك التركماني برحبة دار الملك التي تعرف برحبة الخروب، وكانت مطلة على شاطئ النيل؛ ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ١٤)، وذلك بعد أن تولى التدريس بالمدرسة الصاحبية (ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ٢٢١؛ الداودي، ٢٠٠٨: ٢٣٦؛ السيوطي، د.ت.: ٢٧٨؛ العسقلاني، ١٩٩٣: ٢٩٩؛ المقريزي، ٢٠٠٧: ١١٤). كما تولى الفقيه محمد بن عقيل بن أبي الحسن بن عقيل فخر الدين البالسي (ت: ٧٢٩هـ/١٣٢٨م) تدريس الفقه الشافعي بتلك المدرسة، ثم تم تعيينه بعد ذلك في المدرسة الطيبرسية (تقع في سويقة الصاحب، وكان موضعها في جملة دار الوزير يعقوب ابن كلس، وقد أنشأها الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر، وجعلها وقفاً على المالكية، وجعل بها درس للنحو، وخزانة كتب جليلة، وفي سنة ٧٥٨هـ جدد عمارتها القاضي علم الدين إبراهيم عبد اللطيف المعروف بابن الزبير ناظر الدولة أيام الملك الناصر حسن محمد بن قلاوون، وأقام فيها منبراً للصلاة؛ (المقريزي، ١٩٩٨: ٤٥٨) تُظهر المدرسة المعزية نموذجاً واضحاً على التدرج الوظيفي للمرحلة الشامية في مصر، حيث بدأ بعضهم بالتدريس في مدارس ثم انتقلوا إلى أعرق منها، مما يعكس وجود مسار مهني أكاديمي قائم على الكفاءة والخبرة. كما أن انتقال ابن الحشاش من المدرسة الصاحبية إلى المعزية يشير إلى أن الحراك الوظيفي بين المؤسسات التعليمية كان سمة بارزة في حياة العلماء المرتحلين.

٣- المدارس الخشابية وأقطاب التدريس من المرتحلين الشاميين:

تولى تدريس الفقه الشافعي في المدرسة الخشابية قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة (ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، الذي تم تعيينه من قبل السلطان نفسه (ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ٢٨٠؛ ابن العماد، ١٩٩١: ١٥٩؛ العسقلاني، ١٩٩٣: ٥٠)، ومن بعده تولى التدريس فيها الفقيه محمد بن أحمد عبد المؤمن الأسعردي المعروف بابن اللبان (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) (ابن تغري بردي، ١٩٨٩: ٥٧٨؛ ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ٢٩٨؛ ابن تغري بردي، ٢٠٠٨: ٢١٩؛ ابن حبيب، ٢٠١٠: ٢٣٦)؛ (ابن العماد، ١٩٩١: ١٨٤؛ الذهبي، ١٩٨٨: ٢٠٩؛ السبكي، ١٩٩٩: ٧٩؛ الصفدي، ١٩١١: ٢٣٥؛ العسقلاني، ١٩٩٨: ٢٨١؛ الكتبي، ١٩٧٣: ٢٩٧-٢٩٨؛ الداودي، ٢٠٠٨: ٤٢). وهذا يؤكد أن المناصب التعليمية العليا كانت تحظى باهتمام السلطة المباشر، وأن كبار القضاة كانوا يجمعون بين منصب القضاء والتدريس، مما يعكس تكامل الأدوار العلمية والقضائية في شخصية العالم المرتحل؛ جمع كبار العلماء المرتحلين كابن جماعة بين القضاء والتدريس، مما يشير إلى أن النظام العلمي في العصر المملوكي لم يكن يفصل بين الوظيفة القضائية والوظيفة التعليمية، بل كان العالم الموسوعي هو الذي يشغل مناصب متعددة. كما أن تعيين السلطان لابن جماعة في المدرسة الخشابية يؤكد أن السلطة كانت تتدخل بشكل مباشر في توزيع المناصب التعليمية الكبرى، وأن هذه المناصب لم تكن تخضع لآليات انتخابية محضة.

٤- تدريس القراءات في الجوامع الكبرى كمجال للتميز العلمي للمرتحلين:

لم تكن المدارس ومدرسوها وحدهم هم الذين نالوا رعاية السلاطين والأمراء، بل حظيت الجوامع والمساجد بنفس الاهتمام. ومن أهم تلك الجوامع جامع أحمد بن طولون، الذي رتبت فيه دروس القراءات. وتولى تدريس القراءات به من أهل بلاد الشام الشيخ أحمد بن يوسف بن عبد الدائم بن محمد شهاب الدين المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ/١٣٥٥م) (الداودي، ٢٠٠٨: ٦٧). ولم يقتصر تدريس القراءات على الجامع الطولوني فقط، بل كانت دروس القراءات مهمة أيضاً في الجامع الأزهر. وقد تصدر تدريس القراءات من أهل الشام الفقيه أبو بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد النقي الدمشقي (ابن الجزري، ٢٠٠٦: ١٣٨؛ ابن العماد، ١٩٩١: ٣٩٧؛ الزركلي، ٢٠٠٢: ٢٧٤)؛ يُظهر تخصيص دروس للقراءات في كبرى جوامع مصر كالجامع الطولوني والأزهر اهتماماً علمياً متخصصاً بعلوم القرآن، وتولي المرتحلين الشاميين لهذه المهمة يعكس تميزهم في هذا المجال تحديداً. كما يشير تصدر الدمشقي تدريس القراءات في الأزهر إلى أن الجامع الأزهر لم يكن مجرد مسجد

للعبادة، بل كان جامعة شاملة تستقطب كبار المتخصصين من مختلف البلدان الإسلامية، وأن الشاميين كانوا يمثلون نخبة علمية فيه.

تكشف الوظائف التعليمية التي تقلدها المرتحلون الشاميين في مصر العصر المملوكي عن ظاهرتين رئيسيتين: الأولى، أن النظام التعليمي المملوكي كان منفتحاً على الكفاءات غير المصرية، وأن العلماء الشاميين استطاعوا بفضل تحصيلهم العلمي ومؤلفاتهم أن يصلوا إلى أرفع المناصب التدريسية في أشهر المؤسسات كالمدرسة المعزية والمدرسة الخشابية والجامع الطولوني والأزهر. والثانية، أن التدريس كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالقضاء وبالسلطة السياسية، إذ كان كبار القضاة يجمعون بين المنصبين، وكان السلاطين يتدخلون مباشرة في تعيين المدرسين. كما أن التخصص في علوم القراءات كان مجالاً خصباً للتميز العلمي للشوام، مما يعكس تنوع اهتماماتهم العلمية وعدم حصرها في الفقه والقضاء فقط.

خامساً: مظاهر علاقة السلاطين والأمراء المماليك بالمرتحلين من بلاد الشام إلى مصر في العصر المملوكي:

١- من الحفاوة بالقدوم إلى البروز بعد تقلد المناصب:

حظي الوافدون المشارقة عند قدومهم إلى مصر للتعليم بالحفاوة والترحاب من جانب المصريين، وخاصة الأمراء والسلاطين. غير أن العلاقة بين السلاطين والمرتحلين الشاميين – المتمثلين في طلاب العلم أثناء تلقيهم العلم – لم تكن واضحة أو ذات حضور بارز في كتب المصادر والمراجع. فقد برزت هذه العلاقة بوضوح بعد أن درس هؤلاء الطلاب الشاميين في المؤسسات التعليمية، وخاصة بعد تقلدهم الوظائف المهمة في مصر مثل القضاء أو التدريس في المؤسسات التعليمية الكبرى. وكان السلاطين يكنون كل الاحترام لموظفي الدولة المملوكية سواء كانوا مصريين أو شواماً أو غيرهم من جنسيات أخرى.

فقد شارك عز الدين بن جماعة – الذي انجفل من بلده وأتم تعليمه بمصر حتى أصبح في منصب قاضي قضاة الشافعية بمصر – في تنصيب الخليفة. فعندما توفي الخليفة المستكفي بالله (٧٤٠هـ/١٣٣٩م) (السخاوي، ١٩٩٢: ٣٨-٣٩)، وكان قد عهد بالخلافة إلى ابنه أحمد، وأشهد على نفسه أربعين عدلاً وثبت ذلك عند قاضي قوص (الخليفة المستكفى بالله: هو الخليفة العباسي أبو الربيع ابن الحاكم بأمرالله ولد سنة ٦٨٤هـ وبويع للخلافة في عهد أبيه سنة ٧٠١هـ، وخطب له على المنابر في البلاد المصرية والشامية)؛ (السيوطي، ٢٠٠٣: ٣٧٧) يُظهر هذا النمط أن العلاقة بين السلاطين

والعلماء المرتحلين مرت بمرحلتين: مرحلة خفية خلال طلب العلم، وأخرى علنية وبارزة بعد التخرج وتقلد المناصب. ومشاركة ابن جماعة في تنصيب الخليفة تعكس مدى الثقة التي بلغها المرتحلون الشاميين في هرم الدولة المملوكية، إذ أصبحوا طرفاً في العملية السياسية العليا المتمثلة في نقل السلطة الخلافية.

٢- الصداقة الحميمة والنصح الخاص: العيني أنموذجاً:

ارتبط الشيخ بدر الدين محمود العيني (ت: ٨٥٥هـ/١٤٥١م) بعلاقة صداقة حميمة مع السلطان المؤيد شيخ، ومن بعده السلطان الأشرف برسباي. ويُقال إن العيني كان عظيم الشأن عند السلطان برسباي، فصار ينادمه، وكان يقرأ له التاريخ ويعلمه الدين، وذلك لمعرفة العيني باللغة التركية. حتى قال عنه السلطان برسباي: "لولا العيني لكان في إسلامنا شيء" (ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ١٥١؛ القلقشندي، ٢٠١٠: ١٣٣-١٣٤؛ المقريزي، ٢٠٠٧: ٥٠٢)؛ تجسد هذه الحالة نموذجاً فريداً للعلاقة الثنائية بين العالم المرتحل والسلطان، حيث تجاوزت حدود العلاقة الرسمية بين موظف وحاكم إلى علاقة شخصية وثيقة قائمة على الندامة والتعليم المباشر. كما أن معرفة العيني باللغة التركية كانت مفتاحاً لقربه من السلطان، مما يشير إلى أن إتقان لغات النخبة الحاكمة كان عاملاً معيناً في تعزيز مكانة العالم المرتحل. وقول السلطان "لولا العيني" يعكس مدى التأثير الديني والعلمي للعالم الشامي في توجيه السلطان نفسه.

٣- دور المرتحلين في تنصيب السلاطين والتأثير في أمور الدولة:

كان للقاضي عبد البر بن الشحنة – بعد أن ارتحل إلى مصر وتعلم ودرس، بل وأفتى وأجاز وألف مصنفات، ثم أصبح قاضياً لقضاة الحنفية في دولة الأشرف قانصوه الغوري – دور كبير في تنصيب السلطان المؤيد شهاب الدين أحمد بن سيف الدين إينال. فقد ورد في وثيقة عهد السلطان المؤيد أبي الفتح أحمد بن الملك الأشرف إينال العلائي الظاهري أنه لما كان الأشرف على فراش الموت، طلع إليه صهره الأمير بردبك واجتمع بخوند زوجة السلطان، وذكر لها أن الأحوال فاسدة والأمور في اضطراب، وأن من الرأي أن يعهد إلى ولده بالسلطنة. فدخلت خوند على السلطان وهو في النزع وذكرت له ذلك، فأمر بإحضار الخليفة والقضاة الأربعة. وعليه نزل الزيني خشقدم الأحمدي الطواشي الساقي الظاهري بطلب القضاة، وهم: علم الدين صالح البلقيني الشافعي، وسعد الدين الديري الحنفي، وحسام بن حريز المالكي، وعز الدين الحنبلي.فحضروا جميعهم وأرباب الدولة بالطلوع إلى القلعة، ولما اكتمل الحضور وجلسوا على قدر مراتبهم بالدهليز، دار الكلام بين الحضور حول سلطنة المقام أحمد. فتكلّم القاضي

كاتب السر محب الدين بن الشحنة الحنفي في أن تكون ولاية أحمد في السلطنة نيابة عن والده، ثم استقلالاً بعد وفاته، فدخل الحاضرون على الأشرف إينال في مرضه، وعهدوا بالسلطنة لولده، وتلقب بالملك المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال (ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ٥٧٨).

والجدير بالذكر أن المحب بن الشحنة – كما ذكره المؤرخ ابن إياس – كان من الأصدقاء المقربين للسلطان الغوري، حتى يُقال إنه كان يبيت عند السلطان بالقلعة ثلاث ليالٍ في الجمعة، وصار هو المتصرف في أمور الدولة بحضرة السلطان (عبد العزيز، ١٩٨١: ٧–٨). وحتى وصل الأمر أن عبد البر بن الشحنة، من حبه للسلطان الغوري، قد تنازل عن أموال الأوقاف للسلطان، وذلك بعد أن رفض قاضي قضاة الشافعية وقاضي قضاة المالكية وقاضي قضاة الحنابلة، في سنة (٩٠٧هـ/١٥٠١م) (ابن إياس، ٢٠٠٨: ٤٧٠)؛ تُظهر هذه الأدلة مجتمعة أن بعض المرتحلين الشاميين لم يكونوا مجرد موظفين منفذين، بل أصبحوا فاعلين سياسيين مؤثرين يشاركون في صناعة السلاطين وتنصيبهم، كما في حالة ابن الشحنة الذي كان طرفاً في مشهد انتقال السلطة. كما أن تنازله عن أموال الأوقاف للسلطان – في مقابل رفض كبار القضاة الآخرين – يكشف عن درجة فائقة من الولاء الشخصي تجاوزت حدود الواجب الوظيفي، مما جعله المستشار الأقرب والأكثر تأثيراً في البلاط الغوري. وبيتوتته في القلعة ثلاث ليالٍ في الأسبوع تعكس مكانة شبه عائلية نادراً ما بلغها غير المصريين.

٤– التوتر والمواجهة: علاقة الناصر محمد بن قلاوون بدر الدين بن جماعة:

لقد أوضحت الوقائع السابقة العلاقات الوطيدة بين السلاطين ومرتحلي العلم الشاميين في مصر المملوكية، وذلك عندما أصبحوا ذوي مناصب في عملهم. غير أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان له موقف مغاير، وذلك عندما تولى السلطنة للمرة الثالثة في سنة (٧٠٩هـ/١٣١٠م) بعد بيبرس الجاشنكير، فقد تعمد إهانة بدر الدين بن جماعة الذي كان وقتها القاضي الشافعي، فقال له: "يا قاضي، كنت تفتي المسلمين بقتالي؟" فقال له القاضي: "معاذ الله أن تكون الفتوى كذلك، إنما الفتوى على مقتضى كلام المستفتي". ثم عاتبه السلطان، وعاتب أيضاً الشيخ شمس الدين بن عدلان – الذي كان من جملة مرتحلي العلم الشاميين – وذلك بسبب ميله للسلطان بيبرس الجاشنكير (ابن إياس، ٢٠٠٨: ١٤)؛ تكشف هذه الحالة أن العلاقة بين السلاطين والعلماء المرتحلين لم تكن دائماً علاقة مودة وتبجيل، بل كانت تخضع لمنطق المحاصصة السياسية والولاءات المتغيرة. فموقف الناصر محمد من ابن جماعة يعكس أن العلماء الذين أفتوا أو مالوا إلى خصوم السلطان كانوا عرضة للمساءلة والمؤاخذة حتى بعد

تولي السلطة. كما أن عتاب الناصر محمد لابن جماعة وابن عدلان يؤكد أن السلاطين كانوا يتذكرون المواقف السياسية لعلماء الشام خلال فترات الصراع على الحكم، وأن الجمهور العلمي لم يكن بمنأى عن الاستقطابات السياسية.

٥- إكرام السلاطين للمرتحلين بعد الوفاة: تشييع الجنائز كرمز للتقدير:

لم يقتصر إكرام وإجلال السلاطين والأمراء للمرتحلين الشاميين إلى مصر على حياتهم فقط، بل امتد إلى ما بعد وفاتهم، وذلك عن طريق المشاركة في أداء صلاة الميت وتشييع جنائزهم. فقد قام السلطان الأشرف برسباي بتشييع جنازة الصالح المعتقد الصوفي الشيخ بن عرب الذي توفي بمصر في سنة (٨٣٠هـ/١٤٢٦م) (ابن تغري بردي، ٢٠٠٥: ٨٠٧). وكذلك عندما توفي كمال الدين ابن البارزي بمصر سنة (٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، حضر جنازته السلطان الظاهر جقمق بمصلاه المؤمني، وقد صلى عليه الخليفة العباسي القائم بأمر الله (ابن تغري بردي، ٢٠٠٨: ٢١٧؛ العسقلاني، ١٩٩٨: ٣٨٤؛ المقريزي، ٢٠٠٦: ٧٥٧؛ السخاوي، د.ت.: ٩١-٩٢)، كما شارك السلطان قايتباي مع القضاة والأمراء في إقامة صلاة الجنازة على القاضي عز الدين أبي البركات العسقلاني المولد – وهو من جملة مرتحلي العلم الشاميين بمصر – وتوفي بمصر في سنة (٨٧٦هـ/١٤٧١م) (ابن تغري بردي، ٢٠٠٨: ١٠؛ السخاوي، ١٩٩٢: ٢٣٦)؛ إن تشييع السلاطين لجنازات العلماء المرتحلين لم يكن مجرد واجب اجتماعي، بل كان طقساً رمزياً يعكس المكانة العليا التي بلغها أولئك العلماء في الدولة، ويُظهر للرأي العام مدى تقدير السلطة لهم. كما أن حضور الخليفة العباسي إلى جانب السلطان في جنازة ابن البارزي يشير إلى تكامل السلطتين (الخلافة والسلطنة) في تكريم العلماء، مما يعزز شرعية كل منهما في نظر المجتمع.

٦- دور خوندات المماليك في حماية المرتحلين:

لم يكن السلاطين والأمراء وحدهم على علاقة وطيدة بمرتحلي العلم الشاميين، بل كان لخوندات (ابن الحمصي، ٢٠٠٠: ١٢٦) العصر المملوكي – أي سيدات القصر من زوجات السلاطين وأمهاتهم – دور مع هؤلاء المرتحلين. فالجدر بالذكر أنه عندما حكم على قاضي القضاة العز بن جماعة (خوند: هو لفظ فارسي أصله خداوند، ومعناه السيد أو الأمير ويخاطب به الذكور والإناث وقد غلب استعماله في العالم الإسلامي وفي دولة المماليك كلقب عام بمعنى السيد أو السيدة) (القلقشندي، ٢٠١٠: ٧٧)؛ بالإعدام لإفتائه فتوى بالخطأ في بعض الأمور الدينية (الإسنوي، د.ت.: ١٨٧-١٨٨؛ ابن تغري بردي،

٢٠٠٥: ١٤٣؛ ابن تغري بردي، ٢٠٠٨: ٢٣٦؛ ابن القاضي شهبة، ١٩٩٤: ٢٨٤-٢٨٦؛ ابن العماد، ١٩٩١: ٣٥٨؛ السبكي، ١٩٩٩: ٢٧٢؛ الشوكاني، ١٩٩٨: ٢٥٠؛ العسقلاني، ١٩٩٨: ١١٥)، توسطت له خوند بركة – أم السلطان الأشرف شعبان – عند ابنها السلطان لرد حكم الإعدام عنه (المقريزي، ٢٠٠٧: ٦٤٧)؛ يكشف تدخل خوند بركة لإنقاذ حياة قاضي القضاة المرتحل عن دور خفي لكنه مؤثر لنساء القصر المملوكي في الحياة السياسية والعلمية. كما يدل على أن المرتحلين الشاميين لم يكونوا محميين فقط بالعلاقات الرسمية مع السلاطين، بل أقاموا شبكات علاقات مع نساء القصر أيضاً، مما ساهم في حمايتهم في لحظات الخطر القصوى. وهذا يضيف بُعداً جديداً للاندماج الاجتماعي للمرتحلين لم تتناوله المصادر الرئيسية بشكل كافٍ.

٧- دور المرتحلين في كتابة المواثيق والوثائق الرسمية:

كان لمرتحلي العلم الشاميين دور بارز في كتابة المواثيق والوثائق الرسمية بين السلاطين والأمراء وأي فرد من أفراد الدولة. فعلى سبيل الإشارة، القاضي عبد البر بن الشحنة قد عقد توثيق وثيقة استبدال بين البدرى محمد بن محمد بن أبي البركات الشهير بالإنبابي – وكان مباشر الوقف – والمستبدل محمد بن إبراهيم بن خليل الشهير بالفارسكوري. وكان الوقف والمتصرف فيه عقاراً داخل القاهرة بخط جامع الأزهر من وقف يشبك الأتابكي، وكانت قيمته ٤٨٠ ديناراً من الذهب الأشرفي (ابن إياس، ٢٠٠٨: ١١٥)؛ يؤكد دور المرتحلين في توثيق المعاملات الوقفية والمالية الكبرى أن ثقتهم تجاوزت المجالات العلمية والدينية إلى المجالات القانونية والمالية الحساسة. وتوثيق وثيقة بقيمة ٤٨٠ ديناراً ذهبياً بخط جامع الأزهر يعكس أن القاضي المرتحل كان يمسك بجانب حيوي من إدارة الدولة المملوكية، وهو النظام الوقفي الذي كان العمود الفقري للتمويل الاجتماعي والتعليمي. وهذا يؤكد من جديد أن اندماجهم لم يكن سطحياً، بل وصل إلى جوهر الآليات المالية والقانونية للدولة.

تظهر علاقة السلاطين والأمراء المماليك بالمرتحلين الشاميين في مصر العصر المملوكي أن هذه العلاقة تطورت بشكل ملحوظ من مرحلتي القدوم وطلب العلم (حيث كانت شبه غائبة في المصادر) إلى مرحلة تقلد المناصب (حيث أصبحت العلاقة وطيدة ومؤثرة). وقد تنوعت مظاهر هذه العلاقة بين المشاركة في تنصيب الخلفاء والسلاطين، والصداقة الحميمة والتعليم المباشر للسلاطين، والتوسط لإنقاذ الأرواح، وتشييع الجنائز، وتوثيق كبرى المعاملات المالية. غير أن بعض الحالات – كعلاقة الناصر محمد بن قلاوون بابن جماعة – تذكرنا بأن هذه العلاقة لم تكن بمنأى عن التوترات السياسية

والمحاصصات، وأن العلماء المرتحلين دفعوا أحياناً ثمن خياراتهم السياسية السابقة. وفي المجمل، تعكس هذه العلاقات نموذجاً فريداً للاندماج النخبوي بين العلم والسلطة في المجتمع المملوكي.

الخاتمة

تُظهر هذه الدراسة أن ظاهرة الارتحال العلمي من بلاد الشام إلى مصر في العصر المملوكي لم تكن مجرد انتقال مكاني عابر، بل كانت ظاهرة حضارية متكاملة الأبعاد، أسهمت بشكل فاعل في إثراء الحياة الدينية والعلمية والثقافية والاجتماعية في مصر. فقد أثبت الباحث أن المرتحلين الشوام لم يكونوا مستقبلين سلبيين للعلم، بل كانوا فاعلين مؤثرين، تقلدوا أرفع المناصب القضائية والتعليمية، وأسهموا في إدارة الدولة وتنصيب السلاطين، وشاركوا في كتابة المواثيق والوثائق الرسمية.

كما كشفت الدراسة عن آليات اندماجهم الاجتماعي المتعددة، من خلال الزواج والمصاهرة، والسكن في المؤسسات الدينية والتعليمية، وبناء شبكات علاقات وثيقة مع السلاطين والأمراء وحتى مع نساء القصر المملوكي. وقد تباينت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية بين محدود الدخل الذي سكن المساجد والخوانق، وبين ثري استطاع اقتناء الدور الفاخرة والتشبه بكبار الأمراء.

وخلصت الدراسة إلى أن النجاح الذي حققه المرتحلون الشوام في مصر المملوكية يعود إلى عوامل عدة، أبرزها: الانفتاح المملوكي على الكفاءات غير المصرية، وتعدد المؤسسات التعليمية والإيوائية، والدور الفاعل لنظام الوقف في دعم التعليم، إضافة إلى ما تمتع به العلماء من مكانة دينية واجتماعية جعلتهم محط تقدير السلطة والمجتمع على حد سواء. غير أن هذه العلاقة لم تخلُ من توترات سياسية أحياناً، إذ كان العلماء يدفعون ثمن خياراتهم السياسية في فترات الصراع على الحكم. وفي المجمل، تظل تجربة المرتحلين الشوام في مصر المملوكية نموذجاً رائداً للاندماج النخبوي والتعاون الحضاري في التاريخ الإسلامي.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. عبد العزيز، نبيل محمد (محقق وناشر). (١٩٨١). وثيقة عهد السلطان المؤيدي أبي الفتح أحمد بن الملك الأشرف إينال العلائي الظاهري. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

٢. أمين، محمد محمد (محقق وناشر). (د.ت). وثيقة استبدال بين البدرى محمد بن محمد بن أبى بكر على عقار داخل القاهرة. في فهرست وثائق القاهرة (غير متوفر رقم الصفحة).

٣. أمين، محمد محمد (محقق). (٢٠١٠). وثيقه وقف السلطان الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون، المؤرخة فى جمادى الأولى سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م (حجه رقم ٤٠ محفظه ٦، مجموعة المحكمة الشرعية). في محمد محمد أمين (محقق)، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه لابن حبيب (ملحق). القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.

٤. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني. (١٩٨٧). الكامل فى التاريخ (راجعه محمد يوسف الدقاق). بيروت: دار الكتب العلمية.

٥. ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد. (د.ت). معالم القربة فى أحكام الحسبة. القاهرة: مكتبة المتنبي.

٦. ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري. (١٩٩٠). إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد (تحقيق عبدالمنعم محمد عمر). القاهرة: دار الفكر العربي.

٧. ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد. (٢٠٠٨). بدائع الزهور فى وقائع الدهور (تحقيق محمد مصطفى). القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.

٨. ابن أيبك الدوادري، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك. (١٩٧١). كنز الدرر وجامع الغرر (تحقيق أولرخ هارمان). القاهرة: قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني.

٩. ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي. (١٩٨٧). تحفة النظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة). بيروت: دار الكتب العلمية.

١٠. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف. (٢٠٠٨). المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (تحقيق محمد محمد أمين). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

١١. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف. (١٩٨٩). الدليل الشافي على المنهل الصافي (تحقيق محمد فهيم شلتوت). مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القري.

١٢. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف. (٢٠٠٥). النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (تحقيق حسين نصار، ط٢). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

١٣. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف. (٢٠١٢). مورد اللطافة فى من ولي السلطنة والخلافة (تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، ط٢). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

١٤. ابن حبيب، بدر الدين الحسن بن عمر. (٢٠١٠). تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه (تحقيق محمد محمد أمين، ط٢). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

١٥. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد. (١٩٩٨). إنباء الغمر بأبناء العمر (تحقيق حسن حبشي). القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي بوزارة الأوقاف.

١٦. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد. (١٩٩٣). الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة. بيروت: دار الجيل.

١٧. ابن الحمصي، أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري. (٢٠٠٠). حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (تحقيق عبدالعزيز فياض حرفوش). بيروت: دار النفائس.

١٨. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. (١٩٨١). العبر وديوان المبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر (تحقيق خليل شحاذة وسهيل زكار). بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.

١٩. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. (٢٠٠٤). المقدمة (تحقيق عبدالله محمد درويش). دمشق: (غير محدد الناشر).

٢٠. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر. (١٩٦٨). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (تحقيق إحسان عباس). بيروت: دار صادر.

٢١. ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي. (١٩٨٢). الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين (تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور). المملكة العربية السعودية: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي.

٢٢. ابن رجب، الإمام الحافظ عبدالرحمن بن أحمد. (٢٠٠٥). الذيل على طبقات الحنابلة (تحقيق عبدالرحمن بن سليمان العثيمين). مكة المكرمة: مكتبة العبيكان.

٢٣. ابن شاهين الظاهري، زين الدين عبدالباسط بن خليل. (١٩٨٧). نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين (تحقيق محمد كمال الدين عزالدين علي، ط١). القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

٢٤. ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر. (١٩٧٣). فوات الوفيات (تحقيق إحسان عباس). بيروت: دار صادر.

٢٥. ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر. (١٩٨٤). عيون التواريخ (تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبدالمنعم داوود). بغداد: دار الرشيد للطباعة والنشر.

٢٦. ابن الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود. (٢٠١٠). نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان (تحقيق حسن حبشي، ط٢). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

٢٧. ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين أبو الفلاح عبدالحى بن محمد. (١٩٩١). شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (تحقيق محمود الأرناؤوط، ط١). بيروت: دار ابن كثير.

٢٨. ابن العبري، غريغورس أبو الفرج بن هارون الملطي. (١٩٨٣). مختصر تاريخ الدول (تحقيق الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، ط٣). لبنان: دار الرائد اللبناني.

٢٩. ابن عبدالظاهر، محيي الدين أبو الفضل عبدالله بن رشيد الدين. (١٩٩٦). الروضة البهية الزاهرة فى سيرة المعزية القاهرة (تحقيق أيمن فؤاد السيد). بيروت: أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٠. ابن ظهيرة، جمال الدين محمد بن محمد بن نور الدين. (٢٠٠٩). الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة (تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، ط٢). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

٣١. ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن علي. (٢٠٠٦). غاية النهاية فى طبقات القراء (تحقيق ج. براجستراسر). بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٢. ابن الجزري القرشي، شمس الدين أبو عبدالله بن إبراهيم بن أبي بكر. (١٩٩٨). تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري (تحقيق عمر عبدالسلام تدمري). بيروت: المكتبة العصرية.

٣٣. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن. (٢٠٠٢). زاد المسير فى علم التفسير. بيروت: دار الحزم للطباعة والنشر.

٣٤. ابن القاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد. (١٩٩٤). تاريخه (تحقيق عدنان درويش). دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية.

٣٥. ابن القاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد. (١٩٧٩). طبقات الشافعية (اعتنى بتصحيحه الحافظ عبدالعليم خان). حيدر آباد، الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية.

٣٦. ابن القاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد. (١٩٧٤). طبقات النحويين واللغويين (تحقيق محسن غياض). النجف الأشرف: مطبعة النعمان.

٣٧. ابن المبرد، محمد بن حسن بن أحمد بن عبدالهادي الصالحي. (١٩٩٧). الكامل فى اللغة والأدب (تحقيق محمد أحمد الدالي، ط٣). بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر.

٣٨. ابن ماجه، الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد. (١٩٥٢). السنن (تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي). القاهرة: مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

٣٩. ابن مجاهد البغدادي، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس. (١٩٧٢). كتاب السبعة فى القراءات (تحقيق شوقي ضيف). القاهرة: دار المعارف.

٤٠. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي. (د.ت). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

٤١. أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف أثير الدين. (١٩٩٣). تفسير البحر المحيط (تحقيق عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض). بيروت: دار الكتب العلمية.

٤٢. أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر. (د.ت). المختصر فى تاريخ البشر. القاهرة: المطبعة الحسينية.

٤٣. البهيقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. (١٩٧٠). مناقب الشافعي (تحقيق السيد أحمد صقر). القاهرة: دار التراث.

٤٤. التميمي، تقي الدين عبدالقادر التميمي الداري الغزي. (١٩٨٣). الطبقات السنية فى تراجم الحنيفية (تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو). الرياض: دار الرفاعي.

٤٥. الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف. (١٩٨٩). مفاتيح العلوم (تحقيق إبراهيم الإبياري، ط٢). بيروت: دار الكتب العلمية.

٤٦. الداودي، الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد. (٢٠٠٨). طبقات المفسرين (تحقيق علي محمد عمر، ط٢). القاهرة: مكتبة وهبة.

٤٧. الديار بكري، الشيخ حسين بن محمد بن الحسن. (١٣٠٢هـ). تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس (ط١). بيروت: مطبعة عثمان بن عبدالرازق.

٤٨. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان بن قايمز. (١٩٨٥). سير أعلام النبلاء (تحقيق بشار عواد معروف ومحي هلال السرحان، ط١). بيروت: مؤسسة الرسالة.

٤٩. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان. (١٩٩٨). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام حوادث (٦٣١-٦٤٠هـ) (تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ط١). بيروت: دار الكتاب العربي.

٥٠. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان. (١٩٨٥). العبر فى خبر من غبر (تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول). بيروت: دار الكتب العلمية.

٥١. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان. (١٩٨٨). المعجم المختص بالمحدثين (تحقيق محمد الحبيب الهيلة). الطائف: مكتبة الصديق.

٥٢. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان. (١٣٧٤هـ). تذكرة الحفاظ (تحقيق عبدالرحمن بن يحيى المعلمي). بيروت: دار الكتب العلمية.

٥٣. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان. (١٩٩٧). طبقات القراء (تحقيق محمد خان). الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

٥٤. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان. (١٩٩٠). معجم الشيوخ (تحقيق روحية عبدالرحمن السيوفي). بيروت: دار الكتب العلمية.

٥٥. الزبيدي، محمد بن محمد بن عبدالرازق المرتضي الحسيني. (١٩٨٨). مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (تحقيق إبراهيم بركة). بيروت: دار النفائس.

٥٦. الزبيدي، محمد بن محمد بن عبدالرازق المرتضي الحسيني. (٢٠٠٤). تاج العروس من جوهر القاموس (تحقيق علي هلالي، ط١). الكويت: المجلس الوطني للآداب والفنون.

٥٧. الزركشي، أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر. (١٩٨٤). البرهان فى علوم القرآن (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم). القاهرة: دار التراث.

٥٨. الزركشي، أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر. (١٩٩٩). أعلام الساجد بأحكام المساجد (تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي). القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٥٩. السبكي، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي. (١٩٩٩). طبقات الشافعية الكبرى (تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، ط١). بيروت: دار الكتب العلمية.

٦٠. السخاوي، العلامة الحافظ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن. (٢٠٠٥). فتح المغيث بشرح ألفية الحديث (تحقيق عبدالكريم بن عبدالله بن عبدالرحمن الخضير ومحمد بن عبدالله بن فهيد ال فهيد). الرياض: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع.

٦١. السخاوي، العلامة الحافظ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن. (١٩٩٢). الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. بيروت: دار الجيل.

٦٢. السخاوي، العلامة الحافظ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن. (١٩٩٥). وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام (تحقيق بشار عواد معروف وآخرون). بيروت: مؤسسة الرسالة.

٦٣. السخاوي، العلامة الحافظ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن. (٢٠٠٠). الذيل على رفع الإصر (تحقيق جودة هلال ومحمد محمود صبح). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٦٤. السخاوي، العلامة الحافظ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن. (٢٠٠٢). التبر المسبوك فى ذيل السلوك (تحقيق لبيبة إبراهيم مصطفى ونجوى مصطفى كمال). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

٦٥. السمعاني، أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي. (د.ت). أدب الإملاء والإستملاء. بيروت: دار الكتب العلمية.

٦٦. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد. (٢٠٠٣). تاريخ الخلفاء (ط١). بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر.

٦٧. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد. (١٩٦٧). حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم). القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابلي وشركاه.

٦٨. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد. (١٩٢٧). نظم العقيان فى أعيان الأعيان (تحقيق فيليب حنى). نيويورك: المطبعة السورية الأمريكية.

٦٩. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد. (د.ت). بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم). القاهرة: مطبعة عيسى الحلبي وشركاه.

٧٠. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. (٢٠٠٠). الوافى بالوفيات (تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٧١. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. (١٩١١). نكت الهميان فى نكت العميان. القاهرة: مطبعة الجمالية.

٧٢. الصميري، أبو عبدالله حسين بن علي. (١٩٨٥). أخبار أبي حنيفة وأصحابه (ط٢). بيروت: عالم الكتب.

٧٣. طاش كبرى زادة، أبو الخير عصام الدين أحمد بن مصطفى. (١٩٨٥). مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم. بيروت: دار الكتب العلمية.

٧٤. العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى. (٢٠٠٩). عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (حوادث ٦٨٤-٧١٢هـ/١٢٥٠-١٣١٢م) (تحقيق محمد محمد أمين). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

٧٥. الغزالي، الإمام أبو حامد محمد بن محمد. (١٩٩٢). المستصفى من علوم الأصول (تحقيق حمزة بن زهير حافظ). المدينة المنورة: شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر.

٧٦. الغزي، نجم الدين محمد بن محمد. (١٩٩٧). الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة. بيروت: دار الكتب العلمية.

٧٧. الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. (١٩٩٤). القاموس المحيط. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٧٨. القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي. (٢٠١٠). صبح الأعشى فى صناعة الإنشا. القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

٧٩. القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي. (د.ت). مآثر الإنافة فى معالم الخلافة (تحقيق عبدالستار أحمد فرج). بيروت: عالم الكتب.

٨٠. قطلوبغا، أبو الفداء زين الدين قاسم بن قطلوبغا السودوني. (١٩٩٢). تاج التراجم (تحقيق محمد خير رمضان يوسف، ط١). بيروت: دار القلم للطباعة والنشر.

٨١. المقدسي، محمد بن أحمد المعروف بالبشاري. (١٩٩١). أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم. القاهرة: مكتبة مدبولي.

٨٢. المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي. (١٩٩٨). المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية (تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي). القاهرة: مكتبة مدبولي.

٨٣. المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي. (٢٠٠٧). السلوك لمعرفة دول الملوك (جـ١، جـ٢) (تحقيق محمد مصطفى، ط٢). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

٨٤. المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي. (٢٠٠٦). السلوك لمعرفة دول الملوك (جـ٣، جـ٤) (تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، ط٣). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

٨٥. المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي. (١٩٩٦). إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا (تحقيق جمال الدين الشيال). القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ولجنة إحياء التراث.

٨٦. النابلسي، عبدالغني بن إسماعيل. (١٩٨٦). الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز (تقديم وإعداد أحمد عبدالمجيد هريدي). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨٧. النسفي، حافظ الدين أبو البركات عبدالله بن أحمد. (د.ت). كشف الأسرار شرح المصنف على المنار. بيروت: دار الكتب العلمية.

٨٨. النعيمي، عبدالقادر بن محمد الدمشقي. (١٩٩٠). الدارس فى تاريخ المدارس. بيروت: دار الكتب العلمية.

٨٩. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب. (٢٠٠٤). نهاية الأرب فى فنون الأدب (تحقيق مفيد قمحية). بيروت: دار الكتب العلمية.

٩٠. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله. (١٩٧٧). معجم البلدان. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.

٩١. بامخرمة، أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد الهجراني. (٢٠٠٨). قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر (اعتنى به بو جمعة مكري وخالد زواري، ط١). بيروت: دار المنهاج للنشر والتوزيع.

٩٢. حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله. (١٩٤١). كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (تحقيق محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٩٣. الحسيني، أبو بكر بن هداية الله. (١٩٨٢). طبقات الشافعية (تحقيق عادل نويهض). بيروت: دار الآفاق الجديدة.

٩٤. أحمد شلبي. (١٩٧٨). التربية الإسلامية نظمها–فلسفتها–تاريخها (الجزء الخامس من موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، ط٦). القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة.

٩٥. أحمد عبدالكريم سليمان. (١٩٨٤). المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس. القاهرة: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

٩٦. أحمد عودات. (١٩٩٠). تاريخ المغول والمماليك. القاهرة: دار الكندي.

٩٧. إسماعيل باشا البغدادي. (د.ت). هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٩٨. الجبرتي. (١٩٥٨). عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (تحقيق حسن محمد الجوهري). القاهرة: مطبعة البيات العربي.

٩٩. الزركلي. (٢٠٠٢). الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (ط١٥). بيروت: دار العلم للملايين.

١٠٠. السيد محمد عطا. (٢٠٠٢). إقليم الغربية فى عصر الأيوبيين والمماليك، دراسة تاريخية وحضارية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٠١. الصاوي محمد الصاوي. (٢٠١٢). جنكيز خان فاتح العالم. الجيزة: مكتبة النافذة.

١٠٢. حسن البطاوي. (٢٠٠٧). أهل العمائم فى مصر فى العصر المملوكي. القاهرة: مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية.

١٠٣. زكي محمد حسن. (١٩٨١). الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى. بيروت: دار الرائد العربي.

١٠٤. سعاد ماهر. (٢٠١٢). مساجد مصر وأولياؤها الصالحون. القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

١٠٥. سعد حسن محمد. (٢٠٠٣). أهل البيت فى مصر. القاهرة: مكتبة النافذة.

١٠٦. سعيد عبدالفتاح عاشور. (١٩٦٧). السيد البدوي شيخ وطريقة. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

١٠٧. سعيد عبدالفتاح عاشور. (١٩٩٢). المجتمع المصري فى عصر سلاطين المماليك. القاهرة: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

١٠٨. سعيد عبدالفتاح عاشور. (١٩٩٤). العصر المملوكي فى مصر والشام. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

١٠٩. سعيد عبدالفتاح عاشور. (١٩٦٣). الظاهر بيبرس. القاهرة: أعلام العرب.

١١٠. سنية قراعة. (١٩٦٨). مساجد ودول. القاهرة: مكتب الصحافة الدولي للطباعة والنشر، مطابع أخبار اليوم.

١١١. سهير القلماوي. (٢٠١٠). ألف ليلة وليلة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١١٢. شوقي ضيف. (١٩٧٢). المدارس النحوية (ط٢). القاهرة: دائرة المعارف.

١١٣. صبحي الصالح. (١٩٨٤). علوم الحديث ومصطلحه عرض ودراسة. بيروت: دار العلم للملايين.

١١٤. صلاح عزام. (١٩٦٨). أقطاب التصوف الثلاثة. القاهرة: مؤسسة دار الشعب.

١١٥. عادل نويهض. (١٩٨٨). معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر (ط٣). بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للنشر.

١١٦. عاصم محمد رزق. (١٩٩٧). خانقاوات الصوفية فى عصر دولة المماليك البرجية (٧٨٧-٩٢٠هـ/١٣٨٥-١٥١٦م). القاهرة: مكتبة مدبولي.

١١٧. عبدالغني محمود عبدالعاطي. (د.ت). التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك (ط٢). القاهرة: دائرة المعارف.

١١٨. عبداللطيف حمزة. (١٩٩٩). الحركة الفكرية فى مصر فى العصر العصريين الأيوبي والمملوكي الأول (ط٢). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١١٩. عبدالوهاب عزام. (٢٠١٠). مجالس الغوري. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

١٢٠. عصام محمد شبارو. (١٩٩٤). السلاطين فى المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري. بيروت: دار النهضة العربية.

١٢١. علي إبراهيم حسن. (٢٠٠٠). تاريخ جوهر الصقلي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

١٢٢. علي باشا مبارك. (٢٠٠٤). الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة (ط٢). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

١٢٣. علي سالم النباهين. (١٩٨١). نظام التربية الإسلامية فى عصر دولة المماليك فى مصر (ط٣). القاهرة: دار الفكر العربي.

١٢٤. عمر رضا كحالة. (١٩٥٩). أعلام النساء. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٢٥. عمر رضا كحالة. (١٩٩٣). معجم المؤلفين. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٢٦. فريد وجدي. (د.ت). دائرة معارف القرن العشرين. بيروت: دار الفكر.

١٢٧. محمد أبو زهرة. (د.ت). تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفكرية. القاهرة: دار الفكر العربي.

١٢٨. محمد أبو زهرة. (١٩٩١). أبو حنيفة حياته وعصره وآراؤه وفقهه. القاهرة: دار الفكر العربي.

١٢٩. محمد بن صالح العثيمين. (١٩٩٩). مجمع فتاوى ورسائل (جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم بن سلمان). المملكة العربية السعودية: دار الثريا للطباعة والنشر.

١٣٠. محمد جمال الدين سرور. (١٩٨٣). دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.

١٣١. محمد حسين الذهبي. (١٩٨٧). التفسير والمفسرون. بيروت: دار القلم.

١٣٢. محمد عبدالغني الأشقر. (٢٠١١). الوزارة والوزراء فى مصر عصر سلاطين المماليك. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٣٣. محمد محمد أمين. (٢٠١٥). الأوقاف والحياة الإجتماعية فى مصر عصر دولة المماليك. القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

١٣٤. محمد محمد زيتون. (١٩٨٨). القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية. القاهرة: دار المنار.

١٣٥. محمد مؤنس عوض. (٢٠١٢). المماليك فى مصر والشام، تاريخهم وحضارتهم. القاهرة: دار العلم العربي.

١٣٦. محمود رزق سليم. (١٩٥٧). الأدب العربي وتاريخه عصر سلاطين المماليك والعثمانيين والعصر الحديث. القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي.

١٣٧. رينيه جروسيه. (١٩٨٢). جنكيز خان قاهر العالم (ترجمة فؤاد أسعد عيسى). دمشق: دار حسان للطباعة والنشر.

١٣٨. زامباور. (٢٠٠٨). معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامي (ترجمة زكي حسن بك وآخرون). القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

١٣٩. إبراهيم بن محمد أحمد المزين. (١٩٩٨). المساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية. مجلة إتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، (٦).

١٤٠. السيد رضوان. (١٩٨٩). الفقه والفقهاء والدولة صراع الفقهاء على السلطة والسلطان فى العصر المملوكي. مجلة الإجتهاد، (٣).

١٤١. ذكرى حسين. (١٤٠٩هـ). مظاهر الحياة الثقافية والأدبية فى العصر المملوكي. مجلة كلية اللغة العربية بالأزهر، القاهرة، (٧).

١٤٢. زبيدة محمد عطا. (٢٠٠٠). مكتبات المدارس (خزانة الكتب) فى العصريين الأيوبي والمملوكي. في المدارس فى مصر الإسلامية. القاهرة: مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٤٣. سعيد عبدالفتاح عاشور. (٢٠٠٠). العلم بين المسجد والمدرسة. في المدارس فى مصر الإسلامية. القاهرة: مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٤٤. سوسن سليمان. (١٩٦٦). ألقاب السلطان بيبرس على الآثار نصوصها ودلالتها. مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، (٧).

١٤٥. سيد محمود عبدالعال. (٢٠٠٨). مدارس الأسكندرية فى العصر الفاطمي وأثرها على نشر الثقافة العربية الإسلامية. في تاريخ المؤرخين العرب، حصاد ١٦.

١٤٦. شكران عبدالرحمن خربوطللي. (٢٠٠٨). إسهامات المرأة العلمية فى بلاد الشام فى العصريين الأيوبي والمملوكي. ندوة تاريخ الوطن العربي عبر العصور (التاريخ الثقافي)، إتحاد المؤرخين العرب، حصاد ١٦.

١٤٧. صادق أئينه وند. (١٤٠٨هـ). الحركة الفكرية فى العصر المملوكي. مجلة التراث العربي، إتحاد المؤرخين العرب، دمشق، (٣٠).

١٤٨. صالح أحمد الجبوري. (٢٠١٢). دور المساجد فى التعليم فى مصر فى عهد المماليك البحرية. مجلة كركوك للدراسات الإنسانية، مج٧، (٣).

١٤٩. عبدالله ناصر عبود الحياني. (٢٠١٢). ديانات التتر وأثرها فى رسم سياستهم وتوجيه حروبهم. مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مج١، (١٠).

١٥٠. عبير عنايت سعيد. (٢٠١٢). خانقاهات مصر حتى نهاية عصر المماليك البحرية. مجلة الأستاذ، كلية الآداب، جامعة الأنبار، العراق، (٢٠٣).

١٥١. عمار محمد النهار. (٢٠١٢). الدراسات النظرية الجديدة فى عصر دولة المماليك البحرية. مجلة الدراسات التاريخية، (١١٧، ١١٨).

١٥٢. محمود عباد الجبوري ومثنى حاضر حسن الجبوري. (٢٠١٤). التصوف الإسلامي فى كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة لتقي الدين المقريزى خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري. مجلة الفراهيدي، جامعة تكريت، (١٩).

١٥٣. نوري أحمد عبيريد. (٢٠١٣). التواصل المعرفي بين علماء الغرب الإسلامي وشرقه فى العصر المملوكي – دوافعه – مظاهره. أعمال المؤتمر الدولي الثاني المنعقد بدبي.

١٥٤. هشام عطية عطية. (٢٠٠١). الجامع الطولوني ودوره فى عصر المماليك. مؤتمر إتحاد المؤرخين العرب، حصاد ٩١.

١٥٥. يوسف فرج عاد. (د.ت). دور التعليم فى العصر المملوكي. مجلة الفرقان.

١٥٦. دولت عبدالله عبدالكريم. (١٩٧٣). الخوانق فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكي [رسالة دكتوراة غير منشورة]. كلية الآداب، جامعة القاهرة.

١٥٧. محمد حسن الطائي. (٢٠٠٥). النشاط العلمي فى عهد المماليك الجراكسة [رسالة ماجستير غير منشورة]. كلية الآداب، جامعة الموصل.

١٥٨. نهى محمد فهمي حامد زغلول. (٢٠٠٤). التحف الفنية فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى ضوء مجموعات متحف الفن الإسلامي بالقاهرة [رسالة ماجستير غير منشورة]. كلية الآداب، جامعة طنطا.

159. History Of Egypte in The Middle ages , London.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: أ.م.د. جاوان حسين فيض الله

الجامعة:

الكلية:

القسم: رئاسة ديوان الوقف السني / مركز وعي للاستشارات وبناء القدرات

البلد: العراق

البريد الالكتروني:

Jawan.jaff84@gmail.com

الهاتف: ٠٧٥٠٣٠٧٨٦٠٨

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ٢١/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٣٠/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (المسألة الكردية، السياسة الخارجية، الصراع المسلح، اتفاقية الجزائر ١٩٧٥، بيان ١١ آذار ١٩٧٠)

عنوان البحث

المسألة الكردية وأثرها في رسم سياسة العراق الخارجية (١٩٦١-١٩٧٥)

ملخص البحث

تناول هذا البحث أثر المسألة الكردية في رسم السياسة الخارجية العراقية خلال المدة (١٩٦١-١٩٧٥)، بوصفها إحدى أبرز القضايا التي تجاوزت إطارها الداخلي لتصبح عاملًا مؤثرًا في توجهات العراق الإقليمية والدولية. وقد انطلق البحث من فرضية مفادها أن تطورات الصراع بين الحكومات العراقية المتعاقبة والحركة الكردية المسلحة بقيادة الملا مصطفى البارزاني أسهمت بصورة مباشرة في إعادة تشكيل علاقات العراق مع كل من إيران والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، وربطت بين الاعتبارات الأمنية الداخلية والتوازنات الدولية في ظل الحرب الباردة، وتوصلت الدراسة إلى أن جميع المبادرات السياسية الرامية إلى تسوية القضية الكردية خلال عهود عبد الكريم قاسم، وعبد السلام عارف، وعبد الرحمن عارف، وأحمد حسن البكر، لم تنجح في تحقيق تسوية دائمة، بسبب تباين الرؤى بين الحكومة والقيادة الكردية، وغياب الثقة المتبادلة، إلى جانب التدخلات الإقليمية، ولا سيما الدعم الإيراني المستمر للحركة الكردية، كما بينت أن وصول حزب البعث إلى السلطة عام ١٩٦٨ أفضى إلى تبني سياسة مزدوجة جمعت بين العمليات العسكرية والمساعي التفاوضية، وانتهت بإعلان بيان ١١ آذار ١٩٧٠ الذي اعترف بالحقوق القومية والثقافية للأكراد وأرسى أسس مشروع الحكم الذاتي.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Asst. Prof. Dr. Jawan Hussein Faydullah
University:
College:
Department: Presidency of the Sunni Endowment Office / Wa'i Center for Consulting and Capacity
Country: Iraq
Email: Jawan.jaff84@gmail.com
Phone: 07503078608

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 21/ June / 2026
Acceptance Date: 30/ July/ 2026
Publication Date: September/2026

Keywords: (Kurdish Question, Foreign Policy, Autonomy, Armed Conflict, Algiers Agreement 1975)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Kurdish Question and its Impact on Iraq's Foreign Policy (1961-1975)

Abstract

This research examines the impact of the Kurdish issue on shaping Iraqi foreign policy during the period (1961–1975), as one of the most prominent issues that transcended its internal framework to become an influential factor in Iraq's regional and international orientations. The research was based on the premise that the developments in the conflict between successive Iraqi governments and the armed Kurdish movement led by Mulla Mustafa Barzani contributed directly to reshaping Iraq's relations with Iran, the Soviet Union, and the United States. It linked internal security considerations with international balances in the context of the Cold War. The study concluded that all political initiatives aimed at settling the Kurdish issue during the eras of Abdul Karim Qasim, Abdul Salam Arif, Abdul Rahman Arif, and Ahmed Hassan al-Bakr failed to achieve a permanent settlement due to differing visions between the government and the Kurdish leadership, the lack of mutual trust, and regional interventions, particularly the continuous Iranian support for the Kurdish movement. It also showed that the Ba'ath Party's rise to power in 1968 led to the adoption of a dual policy that combined military operations with negotiation efforts, culminating in the declaration of the March 11, 1970 statement, which recognized the national and cultural rights of the Kurds and laid the foundations for the autonomy project.

المقدمة

مشكلة البحث:

تدور مشكلة البحث حول مدى إسهام المسألة الكردية في رسم توجهات السياسة الخارجية العراقية وإعادة تشكيل تحالفاتها الإقليمية والدولية خلال الفترة (١٩٦١-١٩٧٥)، وأسباب عجز الحلول المتعاقبة – العسكرية منها والسياسية– عن بلوغ تسوية شاملة ودائمة. ويتفرع عن هذا التساؤل الرئيس أسئلة تتعلق بطبيعة العلاقة بين الخيار العسكري وتعميق عدم الاستقرار، وأثر التدخلات الإقليمية على مسار الأزمة، وكيفية توظيف العراق للملف الكردي في تعزيز شراكاته الاستراتيجية.

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من تناوله حقبة بالغة الحساسية تتقاطع فيها عوامل داخلية وإقليمية ودولية؛ وسده ثغرة أكاديمية تتعلق بالأثر التراكمي للمسألة الكردية في السياسة الخارجية العراقية، إذ اقتصرت الدراسات السابقة غالبًا على البعد الداخلي دون ربطه الكافي بالانعكاسات الخارجية؛ وامتداد جذور الموضوع إلى المشهد السياسي المعاصر، حيث لا تزال إشكاليات الهوية القومية وتقرير المصير والحكم الذاتي حاضرة حتى اليوم؛ فضلًا عن اعتماد البحث على مصادر أولية وثانوية متنوعة، منها وثائق دبلوماسية، تمنحه قيمة توثيقية مضافة.

أهداف البحث:

سعى البحث إلى رصد مسار السياسات العراقية المتعاقبة تجاه الحركة الكردية (١٩٦١-١٩٧٥)، وتحليل أسباب إخفاقها في إرساء تسوية مستدامة؛ وبيان دور التدخلات الإقليمية –وبخاصة الإيرانية– في تعقيد المسألة وتحويلها إلى ورقة ضغط؛ وتقييم المبادرات السياسية الأبرز، وفي مقدمتها بيانا ٢٩ حزيران ١٩٦٦ و١١ آذار ١٩٧٠، والكشف عن آليات الحكومة البعثية في إدارة الملف عقب انقلاب ١٩٦٨ ودوافع تحولها من الحسم العسكري إلى التفاوض؛ وتحليل انعكاسات المسألة الكردية على تشكيل التحالف مع الاتحاد السوفيتي وأثر الضغط الإيراني–الأمريكي على بغداد؛ ودراسة تداعيات اتفاقية الجزائر ١٩٧٥ في إنهاء مرحلة الصراع المسلح.

فرضيات البحث وأسئلته:

افترضت الدراسة أن اعتماد الحكومات العراقية المتعاقبة على الخيار العسكري في مواجهة المطالب الكردية كان العامل الأبرز في تعميق عدم الاستقرار الداخلي، وأن المسألة الكردية شكلت في المقابل أحدى محركات السياسة الخارجية العراقية، إذ دفعت بغداد نحو بناء تحالفات استراتيجية مع القوى

الكبرى لمواجهة التدخل الإيراني. ويتفرع عن ذلك تساؤلات حول: أثر التصعيد العسكري على الاستقرار أو تكريس الصراع المزمن، وحجم تأثير الدعم الإيراني في القرار السياسي العراقي، وأثر المسألة الكردية في مسار العلاقات العراقية–السوفيتية والعراقية–الإيرانية؛ وما إذا كانت اتفاقية الجزائر ١٩٧٥ انتصارًا دبلوماسيًا عراقيًا أم تنازلًا برغماتيًا فرضته متطلبات الأمن الداخلي.

حدود البحث:

زمنيًا، امتدت الدراسة من عام ١٩٦١ (اندلاع ثورة أيلول بقيادة الملا مصطفى البارزاني) حتى عام ١٩٧٥ (توقيع اتفاقية الجزائر). مكانيًا، ينصب البحث على السياسية العراقية مع استحضار الامتدادات الإقليمية، وبخاصة الدور الإيراني في شمال العراق، والأبعاد الدولية المتمثلة في الدورين السوفيتي والأمريكي. موضوعيًا، تناول البحث الأبعاد السياسية والعسكرية والتفاوضية والدبلوماسية وأثرها المتبادل في رسم السياسة الخارجية العراقية إزاء الدول المحيطة والقوى الكبرى.

منهج البحث وإجراءاته:

اعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي إطارًا رئيسًا لتتبع الأحداث زمنيًا وتحليلها في سياقاتها الداخلية والإقليمية، مع الاستعانة بالمنهج المقارن لمقارنة السياسات المتعاقبة، وبالمنهج الوظيفي لتحليل توظيف الحكومات العراقية للملف الكردي أداةً في سياستها الخارجية.

التمهيد

تُعد المسألة الكردية في العراق من أكثر القضايا تعقيدًا وإثارة للجدل، إذ ارتبطت نشأتها بتأسيس الدولة العراقية الحديثة عقب الحرب العالمية الأولى، واتسمت منذ بداياتها بطابع مسلح، كما أن الطبيعة التعددية للمجتمع العراقي من حيث الانتماءات العرقية والدينية أسهمت في تعقيد هذه المسألة، حيث وصف الأكراد في العراق في كثير من الأحيان بامتلاك نزعات انفصالية وضعف الشعور بالانتماء إلى الدولة العراقية (Claret, 1980, p. 6). وقد تجاوزت هذه القضية حدود الداخل لتصبح عاملاً مؤثراً في صياغة توجهات السياسة الخارجية العراقية وتحالفاتها الإقليمية والدولية، إذ ارتبطت جذورها بمعاهدات ما بعد الحرب العالمية الأولى، حيث نصت معاهدة سيفر (آب ١٩٢٠) [١] في مادتيها (٦٢ و٦٣) على منح الأكراد حكماً ذاتياً، لكن معاهدة لوزان (١٩٢٣) [٢] ألغت تلك البنود تحت ضغط تركي، لتتحول القضية الكردية من مطلب قومي إلى معضلة إقليمية تهدد وحدة واستقرار العراق وتركيا معاً (Abel Claret, 1980, 1980)

وقد شهدت الحقبة الملكية في العراق تبلور المسألة الكردية في إطار سياسي واجتماعي معقد، إذ ارتبطت بدايةً بقرار ضم ولاية الموصل إلى العراق عام ١٩٢٦ بعد استفتاء وإجراءات صورية أشرفت عليها بريطانيا وعرضتها على عصبة الأمم، وقد لعبت مشاركة الأكراد في الاستفتاء على تنصيب فيصل

(١) معاهدة سيفر (آب ١٩٢٠): مثلت معاهدة سيفر، الموقعة في ١٠ آب ١٩٢٠ بين الدولة العثمانية المنهزمة وقوات الحلفاء، محاولةً لتصفية الإمبراطورية العثمانية وتقسيم أراضيها، حيث أخضعت الولايات العربية للانتداب البريطاني والفرنسي، وفرضت رقابة دولية على المضايق التركية، وقد تميزت المعاهدة بإقرارها، وللمرة الأولى في تاريخ القانون الدولي، مبدأ تقرير المصير للأكراد عبر مواد نصت على إنشاء حكم ذاتي كردي في المناطق الواقعة شرق الفرات، مع إمكانية التحول إلى الاستقلال بعد عام، إلا أن المعاهدة لم تدخل حيز التنفيذ قط، إذ رفضتها الحركة القومية التركية بقيادة مصطفى كمال، وأسفرت حرب الاستقلال التركية عن إلغائها بالكامل واستبدالها بمعاهدة لوزان عام ١٩٢٣، التي أعادت ترسيم حدود تركيا الحديثة دون أي ذكر لكردستان، محولة بذلك الأكراد إلى أقلية موزعة بين دول المنطقة، ينظر: (Radpey, 2022, p. 1189–1192).

(٢) معاهدة لوزان (١٩٢٣): تم توقيعها في ٢٤ تموز ١٩٢٣، بمثابة الاتفاقية الدولية التي أنهت رسمياً حالة الحرب بين تركيا وقوات الحلفاء، وألغت بشكل قاطع معاهدة سيفر (١٩٢٠) التي كانت قد منحت الأكراد حق تقرير المصير، في المقابل، صاغت المعاهدة الجديدة الحدود الحديثة لتركيا واعترفت بها دولة ذات سيادة، دون أي ذكر للقضية الكردية، مما أسقط المطالب الكردية من الإطار القانوني الدولي ورسخ وضعهم كأقلية موزعة بين تركيا وسوريا والعراق. وبذلك، مثلت المعاهدة نقطة تحول حاسمة في تاريخ المنطقة، إذ أزالت الأسس القانونية للاستقلال الكردي وأطلقت حقبة جديدة من التنظيم الإقليمي الذي ظل قائماً حتى يومنا هذا، ينظر: (Mango, 1996, p. 47–50).

الأول[١] ملكاً عام ١٩٢١، وفي الجمعية التأسيسية عام ١٩٢٤، دوراً في إضفاء الشرعية على هذا الضم، رغم أن مناطق واسعة من كردستان الجنوبية كانت خارج السيطرة الفعلية للحكومة العراقية حتى منتصف العشرينيات. كما قاد الشيخ محمود الحفيد[٢] حركات تمرد متكررة بين ١٩١٩ و١٩٣١ مطالباً بالاستقلال الكردي، وهو ما واجهته بريطانيا بالقوة العسكرية وأدى إلى تكريس التبعية السياسية للأكراد ضمن الدولة العراقية الناشئة (Rafaat, 2012, pp. 211–218).

على الرغم من أن العلاقة بين السلطة المركزية والأكراد خلال العهد الملكي اتسمت في كثير من مراحلها بالتوتر واستخدام الوسائل العسكرية لاحتواء التمردات، فإن ذلك لم يحل دون مشاركة الأكراد في مؤسسات الدولة العراقية. فقد شهدت الحياة السياسية منذ ثلاثينيات القرن العشرين تمثيلًا كرديًا في البرلمان، كما تولى عدد من الشخصيات الكردية حقائب وزارية ومناصب حكومية، بما يعكس سعي الدولة إلى استيعاب بعض النخب الكردية ضمن بنيتها السياسية والإدارية؛ وفي السياق الإقليمي، مثل توقيع ميثاق سعد آباد في ٨ تموز ١٩٣٧ محطة بارزة في مسار العلاقات بين العراق وتركيا وإيران، إلى جانب أفغانستان، بعد سلسلة من الاتصالات والزيارات والمباحثات الدبلوماسية التي شهدتها الأعوام (١٩٣٤–١٩٣٥)، واستهدفت تعزيز التعاون الإقليمي في مواجهة التحديات الأمنية والتدخلات الخارجية. ورغم أن الميثاق لم يتناول القضية الكردية بصورة مباشرة، إلا أنه أسس لإطار من التنسيق الأمني والسياسي بين الدول التي تتقاسم الوجود الكردي، وهو ما وفر أساسًا للتعاون المشترك في التعامل مع النشاطات الكردية العابرة للحدود، وأصبح لاحقًا أحد المرتكزات التي استندت إليها تلك الدول عند تصاعد الحركات الكردية في أي منها (توفيق و التميمي، ٢٠٢٣، ص١٣٣–١٣٥).

---

(١) فيصل الأول: هو أول ملوك المملكة العراقية الهاشمية، ولد عام ١٨٨٥، وتولى عرش العراق سنة ١٩٢١ بعد تتويجه من قبل البريطانيين عقب تأسيس الدولة العراقية الحديثة، وقد أدى دوراً مهماً في بناء مؤسسات الدولة العراقية وتثبيت النظام الملكي، كما ارتبط عهده بتوقيع معاهدة ١٩٣٠ العراقية – البريطانية التي نظمت العلاقات بين العراق وبريطانيا قبيل دخول العراق إلى عصبة الأمم عام ١٩٣٢، ينظر: (الحسني، ٢٠٠٨، ص ١٥–١٧).

(٢) الشيخ محمود الحفيد: هو الشيخ محمود الحفيد البرزنجي من أبرز الزعماء الكرد في الحقبة الملكية المبكرة، إذ قاد سلسلة من الانتفاضات بين عامي ١٩١٩ و١٩٣١ مطالباً بالاستقلال الكردي وتأسيس كيان قومي منفصل، وقد واجهت بريطانيا هذه الحركات بالقوة العسكرية، مما أدى إلى تكريس تبعية الأكراد للدولة العراقية الناشئة بعد ضم ولاية الموصل. وتظهر هذه الثورات المبكرة أن المسألة الكردية لم تكن مجرد قضية داخلية، بل ارتبطت منذ البداية بالسياسات الاستعمارية البريطانية وبالتوازنات الإقليمية، ينظر: (صالح و عبد الرازق، ٢٠١١، ص١٠–١٥).

غير أن هذه المشاركة لم تمنع اندلاع ثورات مسلحة متكررة، أبرزها ثورة البرزانيين عام ١٩٤٣[١] التي سيطرت على مناطق واسعة من أربيل وبدينان قبل أن تُقمع بالقوة الجوية البريطانية، وقد ساهمت هذه الثورات في بلورة الهوية القومية الكردية، لكنها في الوقت ذاته دفعت السلطة الملكية إلى تعزيز مركزية الدولة والاعتماد على التحالف مع بريطانيا لضبط الأوضاع الداخلية. وتشير دراسة زمن حسن كريدي إلى أن القضية الكردية في العهد الملكي لم تكن مجرد قضية سياسية، بل اتخذت طابعاً اجتماعياً هدفه تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، مع سعي الأكراد لإضفاء الشرعية على مطالبهم عبر المشاركة في الحكومة والبرلمان (كريدي، ٢٠١٦، ص١١٢–١١٥).

ومع قيام الجمهورية العراقية عام ١٩٥٨، نص الدستور المؤقت على أن "الأكراد والعرب شركاء في هذا الوطن"، وأطلقت الثورة سراح المعتقلين الأكراد وأعادت المنفيين (Sadoon, 2023, p. 56–58)، غير أن هذه المصالحة سرعان ما انهارت مع اندلاع التمرد الكردي عام ١٩٦١ بقيادة الملا مصطفى البارزاني[٢]، وسط اتهامات لبريطانيا بدعم التمرد رداً على سياسات عبد الكريم قاسم[٣] النفطية (القرعان، ٢٠١٨، ص ٤٠٤).

---

(١) ثورة البرزانيين ١٩٤٣: اندلعت ثورة البرزانيين في شمال العراق عام ١٩٤٣ بقيادة الملا مصطفى البارزاني، حيث تمكنت قواته من السيطرة على مناطق واسعة في أربيل وبدينان، مطالبةً بالحكم الذاتي للأكراد، وقد واجهت الحكومة العراقية هذه الحركة بدعم مباشر من بريطانيا عبر استخدام القوة الجوية لقمعها، مما أدى إلى انهيارها بحلول عام ١٩٤٥. ورغم فشلها العسكري، فقد مثلت هذه الثورة منعطفاً مهماً في تاريخ الحركة القومية الكردية، إذ رسخت مكانة البارزاني كزعيم قومي وأبرزت البعد الدولي للقضية الكردية في ظل النفوذ البريطاني، ينظر:)أحمد، 2021، ص 59–57؛ Waisy,2015,pp. 15–18).

(٢) الملا مصطفى البارزاني (١٩٠٣–١٩٧٩): زعيم كردي عراقي، أسس الحزب الديمقراطي الكردستاني عام ١٩٤٦، قاد الحركة المسلحة الكردية ضد الحكومات العراقية المتعاقبة من ١٩٦١ حتى ١٩٧٥، وتوجت مسيرته بتوقيع بيان ١١ آذار ١٩٧٠ مع الحكومة العراقية، وعقب انهيار الحركة الكردية المسلحة إثر توقيع اتفاقية الجزائر بين العراق وإيران عام ١٩٧٥، والتي أوقفت الدعم الإيراني عن الحركة، لجأ البارزاني إلى إيران ثم غادر إلى الولايات المتحدة، حيث تُوفي في مدينة واشنطن في ١ آذار ١٩٧٩ عن عمر ناهز ٧٦ عامًا، تاركًا وراءه إرثًا سياسيًا وعسكريًا قاد به أطول حركة تحرر قومي كردي مسلحة في تاريخ العراق الحديث، ينظر: (البارزاني، ٢٠٠٢، ص ٢٥–٢٨؛ عقراوي، ٢٠٠٧، ص ١٩٣–١٩٤).

(٣) عبد الكريم قاسم: ضابط عسكري ورئيس وزراء العراق والقائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع بالوكالة من عام ١٩٥٨–١٩٦٣، ولد في بغداد عام ١٩١٤، قاد قاسم تنظيم الضباط الأحرار في ثورة تموز ١٩٥٨، وقد انتهى حكمه بانقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ الذي قاده حزب البعث العربي الاشتراكي بالتحالف مع القوى القومية، إذ اعتقل عقب معركة استمرت ساعات في وزارة الدفاع، وأعدم رميًا بالرصاص في اليوم التالي (٩ شباط ١٩٦٣) عقب محاكمة صورية لم=

ومن ثم فقد شهدت الحقبة الممتدة بين ١٩٦١ –١٩٧٥ أشد موجات الصراع المسلح بين الحكومات العراقية والحركة الكردية، إلى جانب محاولات تسوية سياسية أبرزها بيان البزاز (١٩٦٦) [١]، وبيان آذار (١٩٧٠) [٢]، وقد مثل انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨[٣] منعطفاً حاسماً، إذ حاولت حكومة البعث استمالة الأكراد عبر إشراكهم في الوزارة، لكن الخلافات الداخلية بين جناحي البارزاني وجلال

=تستغرق سوى دقائق، لتنتهي بذلك فترة حكم دامت أربع سنوات وستة أشهر وخمسة عشر يومًا، ينظر: (أوريل دان، ٢٠١٢، ص ٣٥٤).

(١) بيان البزاز ١٩٦٦: نسبة إلى رئيس الوزراء الدكتور عبد الرحمن البزاز، الذي أعلنه في ٢٩ حزيران ١٩٦٦ عبر شاشة التلفزيون العراقي، عقب سلسلة مفاوضات تمهيدية بدأت في ١٥ حزيران ١٩٦٦ مع وفد كردي ضم حبيب محمد كريم سكرتير الحزب الديمقراطي الكردستاني، وتضمن البيان اثنتي عشرة مادة، أبرزها: الاعتراف الرسمي بالقومية الكردية إلى جانب القومية العربية ضمن إطار الجمهورية العراقية الواحدة، واعتماد اللامركزية الإدارية في المناطق الكردية، والاعتراف باللغة الكردية لغة رسمية إلى جانب العربية في المناطق ذات الأغلبية الكردية، وتمثيل الأكراد في المجلس الوطني (البرلمان) بما يتناسب مع نسبتهم السكانية، ومشاركتهم في الوظائف العامة بذات النسبة، وتخصيص بعثات دراسية لطلابهم، وتعيين موظفين محليين من الأكراد في الألوية والأقضية الكردية، وإتاحة الصحافة السياسية والأدبية باللغة الكردية، ويعد هذا البيان أول اعتراف رسمي عراقي واضح بالحقوق القومية الكردية ضمن إطار الدولة العراقية الواحدة، غير أن استقالة البزاز من رئاسة الوزراء بعد نحو شهرين (٦ آب ١٩٦٦) حالت دون تنفيذه الكامل، ينظر: (الياسين، ١٩٧٥، ص ٤٢–٤٦ ؛ الأدهمي، ٢٠٢٢، رقم ٢٠٩٣).

(٢) بيان آذار ١٩٧٠: تم إعلانه في ١١ آذار ١٩٧٠ على لسان الرئيس أحمد حسن البكر معترفاً فيه بجملة من الحقوق القومية والثقافية والإدارية للأكراد ضمن إطار الدولة العراقية، بعد عقود من الصراع المسلح. وقد تضمن خمسة عشر بنداً معلناً، إلى جانب بنود سرية أعلن عنها لاحقاً، مما أسهم في إحداث انفراج نسبي ووقف العمليات العسكرية بين الحكومة والقوات الكردية. كما مثل البيان محاولة جادة لتسوية الأزمة عبر الحوار السياسي بدلاً من القوة، وأدى إلى حالة من الاستقرار النسبي في المناطق الكردية، كذلك رسخ مكانة البارزاني كطرف أساسي في المعادلة السياسية، وحدد فترة انتقالية لتنفيذ بنوده كاملة، وبذلك انتقل الصراع من الطابع العسكري إلى مسار التسوية السياسية، مما جعل هذا البيان محطة بارزة في تاريخ العراق الحديث، ينظر: (غريب، ١٩٧٣، ص٣٨–٣٩ ؛ عبد السادة، ٢٠١٩، ص٤١٣).

(٣) انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨: هو التحرك العسكري الذي أطاح بالرئيس عبد الرحمن عارف وأوصل حزب البعث العربي الاشتراكي إلى السلطة، حيث نفذته مجموعة من الضباط البارزين بدعم من المؤسسة العسكرية، ثم تولى أحمد حسن البكر رئاسة الجمهورية. وقد امتنع الأكراد عن المشاركة فيه رغم وجود اتصالات مسبقة، إذ برر الملا مصطفى البارزاني موقفه بتخوفه من فشل الانقلاب وعدم رغبته في تكرار تجربة عام ١٩٦٣ التي اتسمت بالقمع ضد الشعب الكردي، كما مثل الانقلاب بداية عهد بعثي طويل، وأظهر تبايناً في مواقف الحكومة الجديدة تجاه القضية الكردية بين اتجاه متشدد يدعو لإخضاعهم لسلطة الدولة، وآخر أكثر انفتاحاً يدعو لمنحهم حقوقاً ثقافية وسياسية ضمن إطار المواطنة العراقية، ينظر: (الخراسان، ٢٠٠١، ص١٦٩–١٧٠؛ قادر، ٢٠٠٣، ص ١١٣).

الطالباني[١]، والدعم الإيراني للأول، سرعان ما فجرت الأزمة مجدداً، ومن ثم بلغ الدعم الإيراني للأكراد ذروته عام ١٩٦٩ بتقديم أسلحة ومساعدات مالية، فيما استخدمت طهران الورقة الكردية للضغط على بغداد في ملف شط العرب من طرف واحد (الطائي و نعيم، ٢٠٢٣، ص ٤١٦-٤١٩& ٤٢٦-٤٢٧)، وقد رد العراق بتقارب استراتيجي مع الاتحاد السوفيتي عبر معاهدة الصداقة والتعاون (١٩٧٢)[٢]، في مقابل الدعم الأمريكي–الإيراني للحركة الكردية الذي كشفه تقرير لجنة بايك (١٩٧٥) [٣]، وتكشف هنا الوثائق الأمريكية أن الدعم الإيراني للحركة الكردية لم يكن يستند إلى التزام ثابت بالمطالب القومية الكردية، بل ارتبط باعتبارات المصلحة الاستراتيجية في إدارة الصراع مع العراق. إذ أوضح تقرير بايك أن السياسة الأمريكية والإيرانية استهدفت الإبقاء على التمرد الكردي عند مستوى يكفل استنزاف القدرات العراقية، دون السعي إلى تحقيق انتصار حاسم للحركة الكردية، الأمر الذي عكس توظيف القضية الكردية ضمن حسابات التوازنات الإقليمية أكثر من كونها قضية دعم لحق تقرير المصير (U.S.

---

(١) جلال الطالباني: هو جلال حسام الدين الطالباني (١٩٣٣–٢٠١٧)؛ أحد أبرز القادة السياسيين الأكراد في العراق، ومن الشخصيات المحورية في تطور الحركة القومية الكردية خلال القرن العشرين، ولد في ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٣ في قرية كلكان بمحافظة السليمانية، ونشأ في بيئة سياسية عشائرية ذات توجه قومي، التحق بكلية الحقوق في جامعة بغداد، إلا أن نشاطه السياسي المبكر حال دون إكمال دراسته بشكل منتظم، ثم انخرط الطالباني في صفوف الحزب الديمقراطي الكردستاني في شبابه، قبل أن ينفصل عنه لاحقًا ليؤسس عام ١٩٧٥ الاتحاد الوطني الكردستاني، الذي أصبح أحد أهم الأحزاب الكردية. عرف بدوره في التفاوض السياسي ومحاولات التسوية مع الحكومات العراقية المتعاقبة، كما شغل منصب رئيس جمهورية العراق (٢٠٠٥–٢٠١٤)، ليكون أول رئيس كردي في تاريخ الدولة العراقية الحديثة، توفي في ٣ تشرين الأول ٢٠١٧ في ألمانيا بعد مسيرة سياسية طويلة، ينظر: (David, 2004, p.330–335 ; Charles, 2007, p. 235).

(٢) معاهدة الصداقة والتعاون ١٩٧٢: هي اتفاقية الصداقة العراقية السوفيتية التي وقعت في ٩ إبريل ١٩٧٢ في موسكو بين الرئيس أحمد حسن البكر ورئيس الوزراء السوفيتي أليكسي كوسيغن، وتضمنت بنوداً للتعاون العسكري والاقتصادي، وجاءت في سياق التمدد السوفيتي في منطقة الخليج العربي، ينظر: (Penrose, 1978, pp. 406–412).

(٣) تقرير لجنة بايك ١٩٧٥: هي وثيقة أعدها الكونغرس الأمريكي للتحقيق في أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، وقد كشف عن تفاصيل الدعم الأمريكي–الإيراني للحركة الكردية المسلحة في العراق بقيادة الملا مصطفى البارزاني، إذ أظهر التقرير أن واشنطن وطهران وظفتا الورقة الكردية للضغط على بغداد في ملفات إقليمية، خصوصاً قضية شط العرب، دون التزام فعلي تجاه تحقيق المطالب القومية الكردية، وقد بين أن هذا الدعم كان تكتيكياً ومحدوداً، وانتهى عملياً مع توقيع اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥، مما أدى إلى انهيار التمرد الكردي. وبذلك مثل التقرير دليلاً رسمياً على البعد الدولي للقضية الكردية في تلك الحقبة، ينظر: (Rafaat, 2012, p. 495).

(1977, p. 91، ومن ثم فقد انتهى هذا المسار بتوقيع اتفاقية الجزائر (١٩٧٥) [1] التي أنهت عملياً التمرد الكردي، لكنها كرست تنازلات عراقية في الحدود المائية لصالح إيران (Hawraman, 2020, p. 145–150).

المبحث الأول: الموقف السياسي والعسكري للحكومات العراقية المتعاقبة تجاه القضية الكردية (١٩٦١–١٩٦٩):

سعت الحكومات العراقية المتعاقبة إلى التعامل مع القضية الكردية وفق مقاربة ثنائية المسار؛ تمثل محورها الأول في الاعتراف ببعض الحقوق القومية والثقافية الكردية، أما محورها الثاني فقد تمثل في التصدي للتدخلات الخارجية، ولا سيما التدخل الإيراني الذي سعى إلى توظيف القضية الكردية أداةً للضغط السياسي على بغداد (الطائي، ٢٠٢٣، ص. ٤١٤).

المطلب الأول؛ السياسة العراقية تجاه الحركة الكردية (١٩٦١–١٩٦٩):

أولاً: السياسة العراقية تجاه الحركة الكردية في عهد عبد الكريم قاسم (١٩٦١–١٩٦٣):

مع قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بقيادة عبد الكريم قاسم، شهدت الساحة العراقية تحولًا مهمًا تمثل في إقرار الدستور المؤقت الصادر في العام نفسه الاعتراف بالأكراد بوصفهم القومية الثانية في العراق إلى جانب القومية العربية، غير أن هذا الاعتراف الدستوري ظل، من الناحية العملية، إعلانًا رمزيًا لم يترجم إلى سياسات تنفيذية ملموسة، إذ رفض عبد الكريم قاسم ما رفعه الأكراد آنذاك من مطالب قومية تجاوزت حدود الاعتراف الدستوري المجرد، وأبرزها: تطبيق الحكم الذاتي في المناطق الكردية ضمن إطار الدولة العراقية، والاعتراف باللغة الكردية لغة رسمية في المناطق الكردية إلى جانب العربية، وضمان مشاركة سياسية فاعلة عبر تمثيل عادل في البرلمان والحكومة، وتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المناطق الكردية التي عانت من التهميش التنموي (القرعان، ٢٠١٨، ص ٤٠٢)، وقد استند قاسم في موقفه الرافض إلى اعتبار أن الاعتراف الدستوري بالأكراد كقومية ثانية يمثل استحقاقًا كافيًا في حد ذاته، دون حاجة إلى ترتيبات سياسية أو إدارية إضافية تكرس حكمًا ذاتيًا أو تمثيلًا خاصًا. وقد أدى تعثر التفاوض على هذا النحو إلى تدهور تدريجي في العلاقة بين الحكومة المركزية وقادة

(١) اتفاقية الجزائر ١٩٧٥: وقعت في ٦ آذار ١٩٧٥ بين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدام حسين وشاه إيران محمد رضا بهلوي على هامش قمة أوبك في الجزائر، إذ تنازل العراق بموجبها عن المياه الحدودية في شط العرب مقابل وقف إيران دعمها للحركة الكردية المسلحة، ينظر: (Khadduri, 1978, p. 236).

الحركة الكردية على مدى نحو ثلاث سنوات، إلى أن انفجر هذا التوتر المتراكم في صورة مواجهة مسلحة مباشرة، إذ اندلعت ثورة الحركة الكردية في ١١ أيلول ١٩٦١، وكانت شرارتها الأولى من معاقل البارزانيين في الجبال الكردية في منطقة بارزان شمال مدينة أربيل، بقيادة الملا مصطفى البارزاني (سعد الدين، ١٩٨٥، ص ١٤٥)، وقد اتخذت الثورة طابعاً مسلحاً واسعاً، ثم امتدت إلى مناطق أخرى في كردستان العراق، لتشكل منعطفاً حاسماً في الصراع بين بغداد والأكراد، وأسهمت فيما بعد بإضعاف نظام قاسم والتعجيل بسقوطه (الجادري، ٢٠١٧، ص١٠٣-١٠٥).

وفي سياق انعكاسات ثورة أيلول ١٩٦١ على السياسة الخارجية العراقية، وجد العراق نفسه في مواجهة معادلة إقليمية بالغة التعقيد؛ إذ سرعان ما استغلت الحكومة الإيرانية، بقيادة محمد رضا بهلوي، الانتفاضة الكردية الناشئة ورقة ضغط على بغداد، فقدمت -على مدى السنوات التالية مباشرة- دعمًا لوجستيًا متزايدًا للحركة الكردية عبر أراضيها الحدودية، في سياسة وصفها لاحقًا تقرير رسمي مقدم إلى الكونجرس الأمريكي عام ١٩٧٦ بأنها لم تكن سوى ورقة تلعبها حكومة الشاه في نزاعه مع جيرانه، وهو ما جعل الملف الكردي، منذ بداياته الأولى، ملفًا متشابكًا بين أبعاده الداخلية وتداعياته الخارجية على العلاقات العراقية الإيرانية)ابن خلدون، 2023، ص 7؛ (R.K. 1972, p. 398-415

وعقب انقلاب ٨ شباط١٩٦٣، سارع القادة الأكراد إلى تأييد النظام الجديد مطالبين بتنفيذ الوعود التي قدمت لهم بشأن منحهم حقوقًا قومية، وعلى رأسها مشروع الحكم الذاتي، إلا أن المفاوضات لم تسفر عن نتائج ملموسة، وفي ١٠ حزيران ١٩٦٣، أعلنت الحكومة العراقية استئناف العمليات العسكرية ضد الحركة الكردية، واستمر هذا التصعيد حتى ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣، حين أطيح بحكم حزب البعث العربي الاشتراكي، لتدخل القضية الكردية مرحلة جديدة من التفاعلات السياسية والعسكرية

وعقب انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، سارع القادة الأكراد، ممثلين في الحزب الديمقراطي الكردستاني، إلى تأييد النظام الجديد، مطالبين بتنفيذ الوعود التي قدمت لهم بشأن منحهم حقوقًا قومية، وعلى رأسها مشروع الحكم الذاتي في الشمال ضمن إطار الدولة العراقية الواحدة، وأرسلت القيادة البعثية وفدًا لمقابلة الملا مصطفى البارزاني، الذي تمسك بمطلبين رئيسين هما: إقامة حكم ذاتي كردي، وتشكيل قوة كردية مستقلة ضمن الجيش العراقي؛ غير أن المفاوضات بين الجانبين، التي استمرت نحو أربعة أشهر، لم تسفر عن نتائج ملموسة، بل انتهت باعتقال الوفد الكردي المفاوض في كركوك وإلقاء القبض على بعض الشخصيات الكردية في بغداد، وفي ١٠ حزيران ١٩٦٣، أعلنت الحكومة العراقية استئناف العمليات

العسكرية ضد الحركة الكردية، واستمر هذا التصعيد حتى ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣، حين أطيح بحكم حزب البعث العربي الاشتراكي، لتدخل القضية الكردية مرحلة جديدة من التفاعلات السياسية والعسكرية (الجبوري، ٢٠١١، ص٨٥-٨٧).

ثانياً: السياسة العراقية تجاه الحركة الكردية في عهد عبد السلام عارف (١٩٦٣-١٩٦٦):

كشفت بعض الدراسات المتخصصة أن الصحافة العراقية أدت، في أعقاب سقوط نظام عبد الكريم قاسم في ٨ شبا ١٩٦٣، دورًا مهمًا في رصد وتحليل المواقف الدولية والإقليمية تجاه القضية الكردية، إذ عكست بوضوح التباين في مواقف القوى الخارجية إزاء تطوراتها. ففي مستهل عهد الرئيس عبد السلام عارف[١]، أبرزت الصحف العراقية حالة التوتر التي شابت العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، في ظل اتهامات متبادلة بشأن تدخله في الشؤون الداخلية للعراق. غير أن هذا الخطاب شهد تحولًا ملحوظًا عقب انقلاب تشرين الثاني ١٩٦٣، حيث تناولت الصحافة بوادر تحسن العلاقات العراقية–السوفيتية، وأشارت إلى تقبل موسكو للمتغيرات السياسية في العراق، مع تأكيدها أهمية معالجة القضية الكردية عبر الوسائل السلمية والحلول السياسية. وفي المقابل، استمرت الصحافة في إبراز الدعم الذي قدمته بعض القوى الإقليمية، وفي مقدمتها إيران، للحركة الكردية، من خلال توفير المساندة المادية والعسكرية، وهو ما عدته عاملًا مؤثرًا في استمرار الصراع بين الأكراد والسلطة المركزية طوال عهد عبد السلام عارف (جاسم محمد، وعبد السميع، ٢٠٢١، ص١٢٠-١٢٢).

ويذكر أنه في أعقاب تسلم عبد السلام محمد عارف السلطة، تبنى توجهًا أكثر مرونة تجاه الأكراد، حيث أعلن الاعتراف بالحقوق القومية للشعب الكردي، وأصدر قانون اللامركزية بوصفه إطاراً لمعالجة المشكلة الكردية. وفي عام ١٩٦٤ طرح الملا مصطفى البارزاني مذكرة تضمنت عدد من المطالب المبالغ فيها، ليس فقط بحكم ذاتي ولكن بتخصيص ثلثي صادرات البترول للأكراد وتشكيل جيش في

(١) عبد السلام محمد عارف (١٩٢١-١٩٦٦): من أبرز الشخصيات العسكرية والسياسية في تاريخ العراق المعاصر عراقي، تخرج في الكلية العسكرية عام ١٩٤١، وشارك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وانضم إلى تنظيم الضباط الأحرار، وكان من أبرز قادة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ حيث أذاع بيانها الأول وتولى منصبي نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، وبعد خلافه مع عبد الكريم قاسم أبعد عن السلطة وسجن حتى نجاح حركة ٨ شباط ١٩٦٣، التي أوصلته إلى رئاسة الجمهورية، استمر في الحكم حتى وفاته إثر تحطم طائرته المروحية في ١٣ نيسان ١٩٦٦، وخلفه في الرئاسة شقيقه عبد الرحمن عارف، للمزيد ينظر: (الحسني، ١٩٨٨، ص٨٥-٨٧؛ الموسوعة العربية، ٢٠٠٥، ص٧٣٣).

كردستان العراق، وبالطبع لم يتم الموافقة على هذه المطالب، لذلك بدأ القتال بين الأكراد والدولة مرة أخرى عام ١٩٦٥ (عيسى، ٢٠٠٤، ص ٣٢٤).

وقد انعكس هذا الصراع المتجدد على المواقف الإقليمية المحيطة بالعراق؛ إذ وجد نظام عبد السلام عارف نفسه أمام ضغوط مزدوجة: من جهة، التدخل الإيراني الذي لم يكن يخفي دعمه اللوجستي للمسلحين الأكراد، ومن جهة أخرى، سعي الاتحاد السوفيتي إلى استغلال الملف الكردي لتعزيز نفوذه في المنطقة عبر تقديم المشورة لكلا الطرفين، وقد أفضى ذلك إلى أن تصبح القضية الكردية عاملاً مؤثراً في إعاقة أي تحالف عراقي راسخ مع القوى الكبرى (ابن خلدون، ٢٠٢٣، ص ٨).

ثالثاً: السياسة العراقية تجاه الحركة الكردية في عهد عبد الرحمن عارف (١٩٦٦-١٩٦٨):

اتسم الموقفان السياسي والعسكري للحكومة العراقية خلال عهد الرئيس عبد الرحمن محمد عارف[١] (١٩٦٦-١٩٦٨) بتداخل عدد من المحاور الأساسية، وفي أيار ١٩٦٦ أجبرت القوات الكردية الجيش العراقي على وقف القتال إثر انتصارها في معركة هندرين[٢] الحاسمة في ١١-١٢ أيار ١٩٦٦، مما فتح الطريق أمام إعلان رئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز[٣] بياناً شاملاً في ٢٩ حزيران ١٩٦٦مرافقاً ذلك

(١) عبد الرحمن محمد عارف (١٩١٦-٢٠٠٧): ولد في محلة سوق حمادة ببغداد لعائلة تنتسب إلى عشيرة الجميلة، والتحق بالكلية العسكرية عام ١٩٣٦ وتخرج فيها برتبة ملازم ثانٍ، وشارك في حركة تموز ١٩٥٨، وتدرج في المناصب العسكرية حتى بلغ رتبة لواء عام ١٩٦٤ وتولى رئاسة أركان الجيش العراقي، تولى رئاسة الجمهورية في ١٦ نيسان ١٩٦٦ خلفًا لشقيقه الرئيس عبد السلام عارف عقب مصرعه، ليكون بذلك ثالث رؤساء الجمهورية العراقية، واستمر في الحكم حتى أطيح به في انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ الذي قاده حزب البعث العربي الاشتراكي، فنفي إلى إسطنبول قرابة عقد من الزمن قبل أن يسمح له بالعودة إلى بغداد أوائل الثمانينيات، وتوفي في ٢٤ آب ٢٠٠٧، ينظر: (الزهيري، ٢٠١٢، ص٣٠٤-٣٠٦؛ الكيالي، ص ٨٢٧-٨٢٨).

(٢) معركة هندرين: معركة فاصلة وقعت في ١١-١٢ أيار ١٩٦٦ بالقرب من رواندوز، أسفرت عن هزيمة ثلاثة ألوية من الجيش العراقي على يد قوات البيشمركة، وقد سبق هذه الهزيمة تقدم للجيش العراقي في ٣ أيار ١٩٦٦، إذ تمكن خلاله من السيطرة على جبل زوزك المقابل لجبل هندرين، إلا أن قوات البيشمركة فشلت في استعادته في هجوم مضاد نفذته في ١٧ أيار من الشهر نفسه، قبل أن تنقلب موازين المعركة بصورة حاسمة لصالح البيشمركة في ١١-١٢ أيار، مستفيدة من إسناد مدفعي حصلت عليه من وحدات إيرانية استقدمها الملا مصطفى البارزاني بعد زيارته لحكومة شاه إيران عقب حشد الجيش العراقي قواته في سهل رواندوز شهرًا كاملاً قبل بدء العمليات، ينظر:)عقراوي، ص 205؛ Jawad, 1981, pp. 195-200).

(٣) عبد الرحمن البزاز (١٩١٣-١٩٧٣): حقوقي وسياسي عراقي، أول رئيس وزراء مدني في العراق الجمهوري، اشتهر بإصداره بيان ٢٩ حزيران ١٩٦٦. ولد في بغداد في ٢٠ شباط ١٩١٣، وتخرج في كلية الحقوق ببغداد عام ١٩٣٥، ثم ابتعث إلى بريطانيا لإكمال دراساته العليا في الكلية الملكية بلندن قبل أن يعود إلى بغداد عند اندلاع الحرب العالمية=

قانون العفو العام[١] الذي نشر في الجريدة الرسمية ببغداد في ١٢ تموز ١٩٦٦ (E. Beauregard, 2021, . 195-200).

وقد تضمن هذا البيان اثنتي عشرة نقطة هدفت إلى تقديم اعتراف دستوري بالأكراد، والاعتراف باللغة الكردية لغةً رسمية في المناطق الكردية إلى جانب اللغة العربية. وتنفيذاً لمضامين هذا الإعلان، توجه وزير الدفاع اللواء الركن شاكر محمود شكري[٢] إلى أربيل في ١١ تموز ١٩٦٦ معلناً إخلاص الحكومة في تطبيق سياستها، غير أن الجيش شعر بالإهانة جراء هذا الإعلان، فأجبر البزاز على الاستقالة في تموز ١٩٦٦ (E. Beauregard, p. 201).

وعلى صعيد السياسة الخارجية، كشف فشل بيان البزاز عن حجم التشابك بين الملف الكردي وسياسات التوازن الإقليمي؛ إذ لم يخف على أحد أن إيران كانت تسعى إلى إجهاض أي تسوية داخلية عراقية من شأنها تعزيز الاستقرار، لكونها توظف الورقة الكردية ضغطاً مستمراً على بغداد في ملفات الحدود والمياه. وقد باتت الحكومة العراقية في عهد عبد الرحمن عارف إزاء معضلة مزدوجة: التفاوض مع الأكراد داخلياً، والتعامل مع توظيف إيران لتلك المفاوضات ورقةً في العلاقات الثنائية خارجياً (Aziz, M, 2011, p.70).

=الثانية دون أن ينال درجة الدكتوراه، تعرض للاعتقال والتعذيب عقب انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، ثم أُطلق سراحه وهو مريض، وتوفي في بغداد يوم ٢٨ حزيران ١٩٧٣ إثر إصابته بجلطة دماغية وشلل، ودفن في مقبرة الخيزران قرب مرقد الشيخ محمد القزلجي، ينظر: (الدوري، ٢٠٠٦، ص ٨-١١؛ الأعظمي، ٢٠٠١، ص٢٨٤).

(١) قانون العفو العام: صدر في ٢٩ حزيران ١٩٦٦، نُشر في الجريدة الرسمية ببغداد في ١٢ تموز ١٩٦٦، وتضمن ست مواد تقضي بالعفو عن جميع المشاركين في أحداث الشمال من المدنيين والعسكريين؛ ينظر: (حميدي وآخرون، ١٩٨٩، ص ٢١٠-٢١٣).

(٢) شاكر محمود شكري: عسكري وسياسي عراقي ولد عام ١٩١٢، شغل منصب وزير الدفاع من ١٨ نيسان ١٩٦٦ إلى ١٧ تموز ١٩٦٨، كما شغل منصب رئيس الوزراء العراقي، تقلد منصب سفير العراق بإسبانيا ١٩٦٣-١٩٦٦، شارك في حرب فلسطين عام ١٩٦٧ بصفته وزير الدفاع العراقي، أُحيل للتقاعد بعد حركة ١٧ تموز ١٩٦٨، ينظر: (حميدي وآخرون، ص ٢١٥-٢١٨).

رابعاً: السياسة العراقية تجاه الحركة الكردية في عهد أحمد حسن البكر (١٩٦٨-١٩٧٩):

جاء انقلاب البعث في ١٧ تموز ١٩٦٨ ليطيح بالرئيس عبد الرحمن عارف، وبعد استلام أحمد حسن البكر[١] رئاسة الجمهورية، أعلن المؤتمر الاشتراكي في أواخر ١٩٦٨ ومطلع ١٩٦٩ عن التزامه بحقوق الكرد في إطار وحدة الشعب والوطن (اللات، ٢٠١٤، ص ١١٨-١٢٠).

وقد عكست الحكومة العراقية الجديدة المشكلة عقب انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ تبياناً واضحاً في مواقف أعضائها إزاء القضية الكردية، إذ تبنى حزب البعث العربي الاشتراكي رؤية تعتبر أن القضية الكردية تمثل أحد العوامل الرئيسة لعدم الاستقرار السياسي الداخلي (العامري، ٢٠١٧، ص٦٩).

وشهدت الحكومة العراقية الجديدة انقساماً حاداً بين حزب البعث وكتلة عبد الرازق النايف[٢]، الذي أبدى ميولاً واضحة نحو المعسكر الغربي. وقد أفضى هذا التباين إلى إقصاء التيار القومي المرتبط بالنايف من السلطة بعد ثلاثة عشر يومًا فقط من الانقلاب، لتتشكل حكومة جديدة في ٣٠ تموز ١٩٦٨ برئاسة أحمد حسن البكر (العامري، ٢٠١٧، ص ٧١).

المطلب الثاني؛ التصعيد العسكري وأثره في الاستقرار الداخلي (١٩٦٨-١٩٧٠):

على الرغم من إقرار الحكومة العراقية ببعض الحقوق القومية للأكراد، فإنها لجأت إلى استراتيجية قوامها العمل على تحجيم دور مصطفى البارزاني في قيادة الحركة الكردية واستنزاف نفوذه، واستمالة جناح جلال الطالباني المنافس له (العامري، ٢٠١٧، ص ٧١).

---

(١) أحمد حسن البكر: هو رابع رئيس للجمهورية العراقية، تولى الحكم من ١٧ تموز١٩٦٨ حتى ١٦ أيلول١٩٧٩، بعد أن قاد مع رفاقه من حزب البعث انقلاب ١٧ تموز الذي أطاح بعبد الرحمن عارف، ولد في مدينة تكريت في أيلول ١٩١٤، عرف البكر بكونه أحد أبرز القادة العسكريين والسياسيين في الحقبة الجمهورية، حيث أسس مع صدام حسين منظومة الحكم البعثي التي جمعت بين الطابع العسكري والحزبي، وشهدت فترة حكمه تعزيز سلطة الدولة المركزية وتوسيع نفوذ حزب البعث في مؤسسات الدولة، وتوفي في بغداد في تشرين الأول ١٩٨٢، ينظر: (الكيالي، ص ٩٣؛ الحميدي، ص ٤٥-٤٧).

(٢) عبد الرازق النايف (١٩٣٢-١٩٧٨): شارك في انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، وأصبح رئيسًا للوزراء ثم أطيح به في ٣٠ تموز ١٩٦٨، تعرض لمحاولات اغتيال في لندن وتوفي إثرها، وقد أدى النايف، بحكم منصبه السابق كمدير للاستخبارات العسكرية، دورًا مباشرًا في مفاوضات السلام مع الملا مصطفى البارزاني بين عامي ١٩٦٦ و١٩٦٨، إذ عقد معه اجتماعات سرية منتظمة أسهمت في دفع القيادة العراقية نحو خيار التفاوض بدلًا من المواجهة العسكرية مع الحركة الكردية، وقد نجا النايف من محاولة اغتيال أولى في لندن عام ١٩٧٢ أصابت زوجته بدلًا منه، قبل أن يستهدف مجددًا وبنجاح في ٩ تموز ١٩٧٨، عقب أيام قليلة فقط من تسليمه مذكراته الكاملة إلى الروائي أحمد دايح الدوري تمهيدًا لنشرها، وهي المذكرات التي اختفت مع اختفاء الدوري نفسه عقب الاغتيال مباشرة، ينظر: (نوري، ٢٠١٨، ص ٦-٢٤).

وتجسيداً لهذه الاستراتيجية، أمدت الحكومة العراقية جناح الطالباني بالدعم المالي والسلاح، ومنحته امتياز إصدار جريدة النور التي صدر عددها الأول في ٢٦ أيلول ١٩٦٨ (أوفرا بينغيو، ٢٠١٤، ص٥٢).

وفي تشرين الأول ١٩٦٩ استؤنفت العمليات العسكرية، إذ شن الجيش العراقي هجوماً واسع النطاق على المناطق الكردية، لجأ خلاله إلى سياسة الأرض المحروقة؛ فأضرم النيران في ٥٤٠ منزلاً في منطقة بنكرد بمحافظة السليمانية، وبلغ إجمالي القرى الكردية التي طالها الحرق خلال شهر واحد ٢٩٠ قرية (العامري، ٢٠١٧، ص ٢٨١).

وفي ١ آذار ١٩٦٩ شن الأكراد هجوماً بالمدفعية الثقيلة على مصافي النفط العراقية، خلف أضراراً جسيمة قُدرت بخمسة ملايين دولار، وأدى إلى شلل ضخ النفط بنسبة ٧٠% (العامري، ٢٠١٧، ص ٢٨١)، واستمر القصف نحو ساعتين دمر خلالهما عشر وحدات تكرير من أصل اثنتي عشرة في مصفى كركوك، وأفضى إلى تراجع الصادرات النفطية إلى النصف، فيما بلغت الخسائر في التجهيزات والإنتاج عشرة ملايين جنيه إسترليني (نكديمون، ١٩٩٧، ص ٢٢٤).

غير أن هذه الحملة العسكرية لم تفض إلى الحسم المنشود لأي من الطرفين؛ فلم تنجح الحكومة العراقية في تحويل الطالباني بديلاً عن البارزاني في قيادة الحركة الكردية، كما تكبدت نفقات باهظة أثقلت كاهل الاقتصاد الوطني (الخرسان، ٢٠٠١، ص ١٧٢– ١٧٣).

وفي إطار الأبعاد الخارجية لتلك المرحلة، كانت الاستخبارات الأمريكية (CIA) تنسق مع إيران وإسرائيل لدعم الحركة الكردية بالسلاح والتمويل، في إطار استراتيجية استهدفت إضعاف النظام البعثي الذي أعلن توجهات قومية معادية للغرب، وقد أفرز هذا التدخل الخارجي المتعدد الأطراف ضغطاً هائلاً على الحكومة العراقية، واضطر بغداد إلى إعادة النظر في حساباتها الخارجية والبحث عن شركاء استراتيجيين يوازنون هذا الضغط (Gunter, 1990, pp. 95–97).

المبحث الثاني؛ مساعي التسوية السياسية وبيان ١١ آذار ١٩٧٠:

المطلب الأول؛ مفاوضات السلام بين الحركة الكردية والحكومة العراقية (١٩٦٨–١٩٧٠):

على الرغم من استمرار العمليات العسكرية في إقليم كردستان عقب تسلم حزب البعث السلطة في ١٧ تموز ١٩٦٨، فإن مؤشرات التوجه نحو تسوية سلمية ظلت قائمة، وفي أيار ١٩٦٩ ألقى سعدون

غيدان[١] خطابًا في أربيل وعد فيه الأكراد بالحكم الذاتي (طقوش، ٢٠١٥، ص ٢٣٥-٢٣٦)، وفي ١ أيلول ١٩٦٩ برز دور الاتحاد السوفيتي منذ مستهل المفاوضات السلمية، إذ حرص على دفع مسيرة السلام إلى الأمام من خلال تشجيع عزيز شريف[٢] على الاضطلاع بمهمة الوساطة، وقد طرح شريف فكرة توسطه لحل المسألة الكردية في العام نفسه (١٩٦٨)، فقابل الرئيس أحمد حسن البكر وعرض عليه اقتراحه لحل هذه المسألة، وهو ما أفضى إلى تكوين "المجلس الوطني للسلم والتضامن في الجمهورية العراقية"، ثم قام بسفرة سرية أولى للتواصل مع القيادة الكردية، ليواصل بعدها مساعيه حتى إسهامه، بعد محاولة للعودة إلى طاولة المفاوضات، في التمهيد لاتفاقية آذار ١٩٧٠، حيث شارك لاحقًا في عضوية لجنة السلام واللجنة العليا المُشرفة على تنفيذ تلك الاتفاقية (شريف ، ٢٠١٠، ص٢٨٠-٢٩٢، ٣٠٦-٣٠٨، ٣١٨- ٣٢٤)، وفي الشهر ذاته دعت صحيفة البرافدا[٣] حزب البعث إلى الاستجابة لطموحات الشعب الكردي في إطار الدولة العراقية وقد تجدد القتال بين الطرفين خلال عام ١٩٦٩ قبل أن تعلن الحكومة العراقية في أواخر العام نفسه، استعدادها لحل القضية الكردية بصورة سلمية، فرحبت القيادة الكردية بهذا العرض، وفي ٣١ كانون الأول ١٩٦٩ أوفدت الحكومة العراقية وفدًا رفيع المستوى لزيارة القيادة الكردية، ضم الفريق رئيس أركان الجيش، وعضو القيادة القومية لحزب البعث، والفريق الركن سعدون غيدان ذاته، في مسعى لترجمة الوعود السابقة إلى صيغة تفاوضية عملية. وقد أفضت هذه

---

(١) سعدون غيدان: ولد في الرمادي عام ١٩٣٠، تخرج من الكلية العسكرية عام ١٩٥٣، قائد الحرس الجمهوري ١٩٦٨-١٩٧٠، وزير الداخلية ١٩٧٠-١٩٧٤،وقد أدى غيدان، بصفته قائدًا لكتيبة الدبابات في الحرس الجمهوري، دورًا محوريًا في إنجاح انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ بإنزال دباباته للسيطرة على القصر الجمهوري ومبنى الإذاعة، وهو ما أهله للانضمام إلى مجلس قيادة الثورة منذ تأسيسه، وفي ٣٠ حزيران ١٩٧٣، نجا غيدان (وزير الداخلية آنذاك) من محاولة اغتيال دبرها ناظم كزار مدير الأمن العام ضمن محاولة انقلابية فاشلة استهدفت الرئيس أحمد حسن البكر ونائبه صدام حسين، إذ أصيب بجرح في يده بينما قتل زميله وزير الدفاع حماد شهاب في الحادثة نفسها، وتوفي في عام ١٩٨٥، ينظر: حسن لطيف الزبيدي، مصدر سابق، ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) عزيز شريف (١٩٠٤-١٩٩٠): محامٍ وسياسي عراقي، ولد في عانة في ٦ تشرين الثاني ١٩٠٤، عمل رئيس تحرير جريدة الأهالي، ووزير العدل ١٩٦٩-١٩٧٩، بدأ حياته المهنية معلمًا في مدرسة عانة الابتدائية (١٩٢٥-١٩٢٧)، قبل أن يستكمل دراسته الثانوية والجامعية في كلية الحقوق ببغداد، وعمل قاضيًا في المحكمة المدنية الكبرى بالبصرة عام ١٩٣٣، ثم محاميًا متنقلًا بين بغداد والبصرة، وكان عضوًا بارزًا في الحزب الشيوعي العراقي طوال مسيرته السياسية، اتصل بدوره اللاحق في الوساطة بين الحركة الكردية والحكومة العراقية عام ١٩٦٨، وتوفي في موسكو في ٢١ نيسان ١٩٩٠، ينظر: (الزبيدي، ص ٤٢٠).

(٣) صحيفة البرافدا: الصحيفة الرسمية للحزب الشيوعي السوفيتي، تأسست عام ١٩١٢، كانت الناطقة بالتوجهات السياسية للاتحاد السوفيتي، ينظر: (بطاطو، ١٩٩٢، ص ١٠٤٣).

المساعي التفاوضية المتصلة، بعد أشهر قليلة، إلى إعلان بيان ١١ آذار ١٩٧٠ الذي أقرت بموجبه الحكومة العراقية الحكم الذاتي للأكراد، لتطوي بذلك صفحة الحرب الكردية العراقية الأولى التي امتدت منذ عام ١٩٦١ (أوفرا بينغيو، ٢٠١٤، ص ٥٨-٦٠).

وتكشف الوساطة السوفيتية، في جوهرها، عن بعد استراتيجي عميق يحكم علاقة الاتحاد السوفيتي بالملف الكردي العراقي؛ ذلك أن موسكو لم تكن معنية بإطالة أمد الصراع الكردي-الحكومي لذاته، بقدر ما كانت حريصة على تحقيق استقرار داخلي لحليفتها الحكومة العراقية، شريطة أن يفضي هذا الاستقرار إلى مزيد من استقطاب بغداد نحو المعسكر الاشتراكي وإبعادها تدريجيًا عن مدارات النفوذ الغربي والإيراني، وقد عكس هذا التوجه، في جانب أعمق منه، نظرة براغماتية صرفة كانت تضع المصالح الاستراتيجية السوفيتية في منطقة الشرق الأوسط فوق أي اعتبار أيديولوجي أو مبدئي آخر، بما في ذلك المسألة القومية الكردية نفسها (Kaya, A. O, 2024, pp. 684–693).

وقد ترجم هذا الحضور السوفيتي الحاضن للتسوية إلى خطوات تفاوضية مباشرة سرعان ما تسارعت وتيرتها مطلع عام ١٩٧٠؛ إذ توجه صدام حسين[1] في ١٢ كانون الثاني ١٩٧٠ إلى لقاء الملا مصطفى البارزاني، مفتتحاً المفاوضات بعبارته الشهيرة التي أعلن فيها أنه لم يأت لعقد هدنة مؤقتة، بل لصياغة اتفاق دائم وشامل. وتوجت هذه الجولة من المباحثات، بعد نحو شهرين، بزيارة مفاجئة أخرى قام بها صدام حسين إلى كردستان العراق في ٨ آذار ١٩٧٠، التقى خلالها البارزاني مجددًا وأعلن قبوله الكامل بشروطه، لتفتح بذلك الطريق مباشرة أمام إعلان بيان ١١ آذار ١٩٧٠ (مكدوال، ٢٠٠٤، ص٤٩٣).

المطلب الثاني؛ مضامين بيان ١١ آذار ١٩٧٠ وإثره في استقرار العراق الداخلي:

أُذيع بيان ١١ آذار ١٩٧٠مساءً من قبل أحمد حسن البكر، الذي أعلن فيه توصل مجلس قيادة الثورة إلى تسوية للقضية الكردية (الموصلي، ٢٠٠٠، ص٢٤٦)، وقد شكل البيان نقطة تحول جوهرية في مسار القضية الكردية، وبموجبه تم الاعتراف بجملة من الحقوق القومية والإدارية والثقافية للشعب الكردي

(١) صدام حسين (١٩٣٧-٢٠٠٦): ولد في ٢٨ نيسان ١٩٣٧، عمل نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ١٩٦٩، واستلم رئاسة العراق ١٩٧٩، وخلال توليه منصب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، أشرف على تأميم شركات النفط الأجنبية العاملة في العراق عام ١٩٧٢، وأسس جهازًا أمنيًا حزبيًا عرف باسم "جهاز حنين" لتوطيد قبضته على مفاصل الدولة، إلى جانب إشرافه المباشر على توقيع اتفاقية الجزائر مع إيران عام ١٩٧٥ لإنهاء الدعم الإيراني للحركة الكردية المسلحة، حكم عليه بالإعدام ونفذ في ٣٠ كانون الأول ٢٠٠٦، ينظر: (الزبيدي، ص ٣٤٢-٣٤٣).

ضمن إطار الدولة العراقية (غريب، ١٩٧٣، ص٣٨-٣٩)، وقد تكون البيان من خمسة عشر بنداً معلناً، وعدة بنود أخرى كانت سرية أعلنت فيما بعد، مما أسهم في إحداث انفراج نسبي في الأزمة الداخلية (عبد السادة، ٢٠١٩، ص٤١٣).

وعلى صعيد الأبعاد الخارجية لبيان آذار ١٩٧٠، فقد استقبله الاتحاد السوفيتي بارتياح بالغ؛ إذ رأى فيه تعبيراً عن نضج سياسي للحكومة العراقية وخطوة نحو الاستقرار الذي طالما دعا إليه، كما جاء البيان في سياق التقارب العراقي- السوفيتي المتنامي الذي ترجم لاحقاً في معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين في نيسان ١٩٧٢ (Edith and E.F, 1978).

وفي السياق ذاته، اهتمت حكومة حزب البعث بالمسألة الكردية، حيث أعلنت الحكومة هدفها بالحفاظ على وحدة الشعب العراقي، وأصدرت دستور عام ١٩٧٠ ليترجم مضامين البيان إلى إطار دستوري ملزم، حيث نصت المادة (٨) على اعتماد اللامركزية الإدارية في تنظيم الدولة، مع إقرار وضع خاص للمناطق ذات الأغلبية الكردية (الجبوري، ٢٠١١، ص ٩).

المبحث الثالث؛ انعكاسات المسألة الكردية على السياسة الخارجية العراقية (١٩٧٠-١٩٧٥):

المطلب الأول؛ المسألة الكردية وتأثيرها في التحالف العراقي-السوفيتي:

لم تكن العلاقة العراقية-السوفيتية في مطلع السبعينيات وليدة ميول أيديولوجية مجردة، بل كانت تستجيب بدرجة كبيرة لمتطلبات الأمن الداخلي العراقي المرتبطة بالملف الكردي. فمنذ أن أخذت الاستخبارات الأمريكية (CIA) تنسق مع إيران لدعم الحركة الكردية عسكرياً، وجدت الحكومة العراقية نفسها أمام تحد داخلي يحظى بدعم قوى إقليمية ودولية كبرى (Gunter, 1990, pp. 95-97).

وفي ٩ نيسان ١٩٧٢ وقع العراق والاتحاد السوفيتي معاهدة الصداقة والتعاون في موسكو، وجاءت في بنودها التزامات للتعاون العسكري والاقتصادي والسياسي. وقد أدت المسألة الكردية دورًا بارزًا في تسريع هذا التقارب؛ إذ رأى النظام البعثي في الاتحاد السوفيتي ضامنًا موثوقًا لاستقراره في مواجهة الضغوط الإيرانية-الأمريكية الداعمة للحركة الكردية (Edith and E.F, 1978, p. 406-412)، وهو ما أكده الملا مصطفى البارزاني نفسه في مقابلة صحفية مع جريدة *لوفيغارو* الفرنسية عقب توقيع المعاهدة، إذ عبر عن قلقه من أن هذا التقارب يأتي على حساب الأكراد تحديدًا، موضحًا أن كميات السلاح الضخمة التي سيحصل عليها العراق من موسكو لن تستخدم لا ضد إيران التي تربطها بالسوفيت

علاقات جيدة، ولا ضد إسرائيل رغم الخطاب العراقي المعادي لها، بل ستوجه في واقع الأمر ضد الحركة الكردية ذاتها (أحمد، ١٩٤٦-١٩٧٥).

وقد تجلت أوجه هذا التعاون في عدة مسارات؛ أبرزها أن الاتحاد السوفيتي بدأ يمد العراق بأسلحة هجومية كالطائرات الحربية والصواريخ، كما أجرى الأسطول السوفيتي زيارات لميناء أم القصر تعبيراً عن دعم الاتحاد السوفيتي للعراق في مواجهة القوى الإمبريالية، إلى جانب سعيه لتوسيع وجوده البحري في المحيط الهندي وبحر العرب والخليج العربي لحماية الدول الحليفة كالعراق وجنوب اليمن وسوريا. كما أرسل العراق نحو ١٧٠ ضابطاً للتدريب في القوات البحرية السوفيتية، وزادت عدد سفن الأسطول السوفيتي في البحر الأبيض المتوسط إلى أكثر من ٧٠ قطعة بحرية دعماً للحليف العراقي في مواجهة الضغوط الإيرانية في الخليج (Baram, 1989, p. 78–80).

ولم يكن التعاون العسكري وحده هو ما جمع البلدين؛ إذ جاء إعلان العراق تأميم شركة نفط العراق في ١ حزيران ١٩٧٢ في سياق هذا التحالف الاستراتيجي، حيث وفر الاتحاد السوفيتي الخبرات الفنية اللازمة لإدارة صناعة النفط بعد انسحاب الشركات الغربية، مما عزز الاستقلالية الاقتصادية العراقية (Tripp, 2007, p. 205–208).

المطلب الثاني؛ الدعم الإيراني–الأمريكي للحركة الكردية وتداعياته على العلاقات الإقليمية (١٩٧٢–١٩٧٥):

في مطلع السبعينيات اتضحت معالم التواطؤ الأمريكي–الإيراني في دعم الحركة الكردية العراقية بصورة أشد ما يكون وضوحاً؛ إذ أقرت الوثائق الأمريكية المُفرج عنها في وقت لاحق أن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون ووزير خارجيته هنري كيسينجر أعطيا موافقتهما لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA) على دعم الحركة الكردية بالسلاح والتمويل، تنفيذاً لرغبة الحكومة الإيرانية (U.S. 2006, No 259.)

وهنا سعت حكومة الشاه في تلك المرحلة إلى توظيف الحركة الكردية كورقة ضغط على بغداد، لا باعتبارها غاية بحد ذاتها، بل وسيلة لإجبار العراق على تقديم تنازلات في ملف شط العرب. وقدمت طهران دعماً مالياً وعسكرياً للأكراد بقيادة الملا مصطفى البارزاني، لكن هذا الدعم كان تكتيكياً ومحدوداً، إذ انسحبت إيران منه فور توقيع اتفاقية الجزائر في ٦ آذار ١٩٧٥، الأمر الذي أدى إلى انهيار الحركة الكردية المسلحة وانتهاء موجة الصراع الداخلي. وقد أكدت الدراسات أن الاتفاقية مثلت صفقة استراتيجية

بين بغداد وطهران، حيث تنازل العراق عن بعض حقوقه المائية مقابل وقف الدعم الإيراني للأكراد)الامارة، 2017، ص194–192؛ (Tomashek,1976,pp. 206–207

المطلب الثالث؛ انهيار بيان آذار ١٩٧٠ وعودة الصراع المسلح (١٩٧٤):

على الرغم من الانفراج النسبي الذي أحدثه بيان ١١ آذار ١٩٧٠، فإن المرحلة الانتقالية الأربع سنوات التي حددت لتطبيق البيان كاملاً انتهت دون التوافق على ملف كركوك، إذ أصرت القيادة الكردية على ضم كركوك إلى منطقة الحكم الذاتي فيما رفضت الحكومة العراقية ذلك رفضاً قاطعاً.

وفي ١١ آذار ١٩٧٤ أصدرت الحكومة العراقية قانون الحكم الذاتي الكردي رقم ٣٣[١]، الذي رفضته القيادة الكردية بزعامة البارزاني لعدم شمول كركوك في نطاقه، فاندلعت المواجهات العسكرية مجدداً في ما بات يعرف بعملية بدر في آذار ١٩٧٤[٢]، وقد شهدت هذه المواجهات توسيعاً إيرانياً للدعم المقدم للحركة الكردية بالسلاح والذخيرة، مما أفضى إلى تصعيد حدة المعارك ووقوع خسائر فادحة في صفوف الجيش العراقي.

وقد كشفت هذه الجولة الجديدة من الصراع عن أن الملف الكردي بات متشابكاً بصورة عضوية مع الصراع العراقي–الإيراني؛ فالحكومة العراقية لم تكن تواجه حركة انفصالية داخلية فحسب، بل كانت تواجه في الجوهر دعماً إيرانياً–أمريكياً–إسرائيلياً منظماً استهدف إنهاك الدولة العراقية.

المطلب الرابع؛ اتفاقية الجزائر ١٩٧٥ وتداعياتها على المسألة الكردية والسياسة الخارجية العراقية:

كانت اتفاقية الجزائر ١٩٧٥ التي وقعت في ٦ آذار ١٩٧٥ على هامش قمة أوبك بين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي صدام حسين وشاه إيران محمد رضا بهلوي، الخطوة الجيوسياسية الأهم في تاريخ الصراع الكردي العراقي؛ إذ تنازل العراق بموجبها عن المياه الحدودية في شط العرب بمنح إيران خط التالوك مقاسماً للمجرى المائي، وذلك مقابل التزام إيران بوقف دعمها الفوري للحركة الكردية المسلحة (Tripp, 2007, pp.214–217).

---

(١) قانون الحكم الذاتي الكردي رقم ٣٣ لعام ١٩٧٤: أصدرت الحكومة العراقية في ١١ آذار ١٩٧٤ قانون الحكم الذاتي في المنطقة الكردية، بعد انتهاء المهلة الانتقالية الأربع سنوات المحددة في بيان آذار ١٩٧٠، غير أن القيادة الكردية رفضت هذا القانون لأنه لم يشمل كركوك، ينظر: (الجمهورية العراقية، ١٩٧٥، ص ٩٧–١١٠).

(٢) عملية بدر ١٩٧٤: الهجوم العسكري الذي شنه الجيش العراقي في آذار ١٩٧٤ ضد الحركة الكردية المسلحة، إثر انهيار المفاوضات بين الحكومة والبارزاني حول تطبيق بيان آذار ١٩٧٠، وقد استخدمت خلاله أسلحة ثقيلة وطائرات حربية، ينظر: (David, 2004, pp. 339–341).

ولا يمكن فهم هذه الاتفاقية بمعزل عن ضغط المسألة الكردية؛ فقد كانت الحكومة العراقية تعاني من استنزاف عسكري واقتصادي هائل، وتيقنت أن الحركة الكردية قادرة على مواصلة المقاومة طالما كانت تحظى بدعم إيراني متدفق. ومن ثم باتت التسوية مع طهران شرطاً لا غنى عنه لإنهاء الصراع المسلح داخلياً. ويمكن القول إن اتفاقية الجزائر كانت انتصاراً إيرانياً في مفاوضات الحدود المائية، لكنها بالنسبة للعراق كانت وسيلة لإنهاء مرحلة من الاستنزاف الداخلي وإعادة رسم الأولويات الاستراتيجية (Tomashek, 1976, pp. 206–209).

وعقب الاتفاقية مباشرة انهارت الحركة الكردية المسلحة انهياراً شبه تام؛ إذ انسحب الملا مصطفى البارزاني مع أتباعه إلى إيران في آذار ١٩٧٥، وأعلن إيقاف الكفاح المسلح، وبذلك أسدل الستار على مرحلة من أشد مراحل الصراع الكردي في تاريخ العراق الحديث (David, 2004, pp. 341–345).

وقد خلفت اتفاقية الجزائر انعكاسات دبلوماسية متعددة الأبعاد؛ فعلى الصعيد الإقليمي، أبدى الاتحاد السوفيتي قلقًا من التقارب العراقي–الإيراني، وهو ما تؤكده وثيقة استخباراتية أمريكية صادرة عن وزارة الخارجية الأمريكية، والتي أشارت إلى أن كلا الطرفين (بغداد وطهران) كانا حريصين على تجنّب أي رد فعل سوفيتي سلبي تجاه الاتفاقية، لدرجة أن الشاه ألغى زيارة مقررة إلى بغداد في يونيو ١٩٧٥ تجنبًا للفت انتباه موسكو (United States Department of State, 2012, p.829)، في حين ظلت ردة فعل الحركات القومية الكردية في دول الجوار (تركيا وسوريا وإيران) حيال الانهيار الكردي في العراق أقل توثيقًا في الأدبيات الأكاديمية المتاحة، وتبقى بحاجة إلى مصدر مباشر متخصص لإثباتها.

الخاتمة

تناول هذا البحث المسألة الكردية بوصفها إحدى أكثر القضايا تعقيدًا في تاريخ العراق المعاصر؛ لما ارتبط بها من أبعاد سياسية وعسكرية وقومية وإقليمية ودولية متشابكة، وقد أظهرت الدراسة أن هذه القضية لم تكن شأنًا داخليًا بحتًا، بل اضطلعت بدور محوري في رسم توجهات السياسة الخارجية العراقية وإعادة تشكيل تحالفاتها الإقليمية والدولية خلال الفترة (١٩٦١-١٩٧٥)، بدءًا من ثورة أيلول ١٩٦١ وحتى اتفاقية الجزائر ١٩٧٥.

وقد كشفت الدراسة أن الحكومات العراقية المتعاقبة -من قاسم إلى عهود العارفين وصولًا إلى البكر- اعتمدت في معظم الأحيان الحل العسكري وسيلةً رئيسة لمعالجة المطالب الكردية، وهو ما تجلى في مواجهات ١٩٦١، وحرب ١٩٦٣، ومعركة هندرين ١٩٦٦، وحملة ١٩٦٩، وعملية بدر ١٩٧٤، دون أن يحقق أي من هذه التصعيدات حسمًا نهائيًا، بل أدى إلى استنزاف عسكري واقتصادي متواصل وتعميق حالة عدم الاستقرار الداخلي.

كما بينت الدراسة أن المحاولات السياسية للتسوية؛ ومنها: بيان البزاز ١٩٦٦ وبيان آذار ١٩٧٠- وإن اختلفت في مدى نضجها وجديتها، فقد شاركت في القصور نفسه: بغياب الثقة المتبادلة، ومقاومة المؤسسة العسكرية لأي تنازل سياسي (كما في استقالة البزاز)، وبقاء ملف كركوك عقدة جوهرية استعصت على الحل حتى بعد التوقيع على بيان ١٩٧٠ نفسه، وهو ما فجر الصراع مجددًا عام ١٩٧٤.

وأوضحت الدراسة أن المسألة الكردية شكلت أحدى الروافد الأساسية لإعادة تشكيل التحالفات الدولية للعراق؛ فقد دفعت النظام البعثي في مواجهة تصاعد الدعم الإيراني- الأمريكي الموثق رسميًا (تقرير بايك)، نحو تحالف استراتيجي راسخ مع الاتحاد السوفيتي توج بمعاهدة الصداقة والتعاون لعام ١٩٧٢، وجد فيه العراق ضامنًا عسكريًا وسياسيًا موازيًا للضغط الخارجي، وإن كان هذا التحالف نفسه -بشهادة البارزاني ذاته- قد اتهم بأنه موجه ضمنيًا ضد الحركة الكردية.

وانتهت الدراسة إلى أن وصول حزب البعث للسلطة عام ١٩٦٨ مثل نقطة تحول مزدوجة في إدارة الملف الكردي، إذ جمع النظام الجديد بين المسارين العسكري والتفاوضي في آن واحد، مستعينًا بوساطة سوفيتية فاعلة قادها عزيز شريف، قبل أن يدرك تعذر الحسم العسكري الكامل في ظل استمرار الدعم الإقليمي والدولي للحركة الكردية، فاتجه نحو تسوية سياسية أنتجت بيان ١١ آذار ١٩٧٠.

وخلصت الدراسة أخيرًا إلى أن اتفاقية الجزائر ١٩٧٥ لم تكن سوى محطة ختامية حتمية لتضافر عوامل متعددة منها: استنزاف عسكري داخلي متواصل، وضغط إيراني- أمريكي منظم ومدروس (وفق ما

تؤكده الوثائق الأمريكية المفرج عنها)، وإدراك عراقي متأخر باستحالة الحسم العسكري الكامل، وقد دفع العراق ثمن هذه التسوية تنازلًا سياديًا مباشرًا في ملف الحدود المائية بشط العرب، وهو ما يؤكد الفرضية المركزية للبحث: أن المسألة الكردية كلفت العراق خسارة جيوسياسية مزدوجة، داخليًا بالاستنزاف المستمر لموارده وقدراته، وخارجيًا بتقديم تنازلات سيادية لصالح جارته الإقليمية (إيران)، في مقابل تحصيل استقرار داخلي مؤقت وهش سرعان ما أعاد الصراع الكردي– الحكومي إلى الواجهة عقب أقل من أربع سنوات من توقيع بيان آذار ١٩٧٠.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

١. إبراهيم رسول العامري. (٢٠١٧). التطورات السياسية الداخلية في العراق (١٩٦٨-١٩٧٣)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة كربلاء، بغداد.

٢. ابن خلدون للدراسات والأبحاث. (٢٠٢٣). سياسة الحكومة العراقية تجاه الأكراد ١٩٦٨-١٩٧٠ والموقف الإيراني منها، مجلة بن خلدون للدراسات والأبحاث، المجلد (٣)، العدد (٣).

٣. أحمد سعد الدين. (١٩٨٥). الحركة القومية الكردية في العراق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

٤. أدمون غريب. (١٩٧٣). الحركة القومية الكردية، دار النهار للنشر والتوزيع، بيروت.

٥. أوريل دان. (٢٠١٢). العراق في عهد قاسم، ترجمة وتعليق: جرجيس فتح الله، دار آراس للطباعة والنشر، أربيل: بيروت، دار الجمل، بغداد.

٦. أوفرا بينغيو. (٢٠١٤). كرد العراق: بناء دولة داخل دولة، ترجمة: عبد الرازق عبد الله بوتاني، دار الساقي بالاشتراك مع دار آراس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٧. توفيق، إسراء طالب توفيق؛ التميمي، عبد الرحمن جدوع سعيد التميمي. (٢٠٢٣). ميثاق سعد آباد عام ١٩٣٧: قراءة معاصرة في العلاقات (العراقية-التركية-الإيرانية). مجلة دراسات في التاريخ والآثار، جامعة بغداد، مجلد (١)، عدد (٧٨).

٨. جاسم محمد عبد؛ وعبد السميع خلف عبد. (٢٠٢١). موقف الصحافة العراقية في ضوء الموقف الدولي والإقليمي والعربي من القضية الكردية من ٨ شباط ١٩٦٣-١٧ تموز ١٩٦٨، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، جامعة بغداد، المجلد (٢)، العدد (٧١).

٩. جعفر عباس حميدي وآخرون. (١٩٨٩). تاريخ الوزارات العراقية في العهد الجمهوري، جامعة الموصل، ج٧، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد.

١٠. الجمهورية العراقية. (١٩٧٥). المسألة الكردية والحكم الذاتي، منشورات المؤسسة الثقافية العمالية، بغداد.

١١. حامد محمود عيسى. (٢٠٠٤). القضية الكردية في العراق، مكتبة مدبولي، القاهرة.

١٢. حسين علي حسين العبد اللات. (٢٠١٤). سياسة الفوضى الخلاقة والاستراتيجية الأمريكية للهيمنة على العالم العربي (٢٠٠٣-٢٠١٣). رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية.

١٣. حنا بطاطو. (١٩٩٢): العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

١٤. ديفيد مكدوال. (٢٠٠٤). تاريخ الأكراد الحديث، ترجمة: راج آل محمد، دار الفارابي، بيروت.

١٥. زمن حسن كريدي. (٢٠١٦). دور الكرد السياسي في العهد الملكي ١٩٢٢-١٩٥٨، مجلة آداب ذي قار، كلية الآداب، جامعة ذي قار، العدد (١٩).

١٦. زينب عبد الحسن الزهيري. (٢٠١٢). عبد الرحمن عارف ودوره السياسي في العراق ١٩٦٦-١٩٦٨، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان- الأردن.
١٧. السيد عبد الرازق الحسني. (٢٠٠٨). تاريخ العراق السياسي الحديث، ط٧، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، ج٢، لبنان -بيروت.
١٨. سيف الدين الدوري. (٢٠٠٦). عبد الرحمن البزاز: أول رئيس وزراء مدني في العراق الجمهوري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
١٩. شكيب عقراوي. (٢٠٠٧). سنوات المحنة في كردستان، مطبعة منارة، أربيل.
٢٠. شلومو نكديمون. (١٩٩٧). الموساد في العراق ودول الجوار: انهيار الآمال الإسرائيلية والكردية، ترجمة بدر عقيلي، دار الجليل للنشر والتوزيع، عمان.
٢١. صالح أحمد عيسى القرعان. (٢٠١٨). مشكلة الأكراد وأثرها على العلاقات العراقية التركية، المجلة العلمية للبحوث والدراسات التجارية، المجلد (٣٢)، العدد (١).
٢٢. صلاح الخراسان. (٢٠٠١). التيارات السياسية في كردستان العراق: قراءة في ملفات الحركات والأحزاب الكردية في العراق ١٩٤٦-٢٠٠١، مؤسسة البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
٢٣. صلاح الخرسان. (٢٠٠١). التيارات السياسية في كردستان العراق: قراءة في ملفات الحركات والأحزاب الكردية في العراق ١٩٤٦-٢٠٠١، مؤسسة البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
٢٤. عبد الجبار عبد الوهاب الجبوري. (٢٠١١). غليان الأفكار: خواطر وأفكار في الجدل السياسي، دار الفارابي، بيروت.
٢٥. عبد الخالق ناصر العامري. (٢٠١٧). البرزاني مصطفى والقضية الكردية في العراق ١٩٣١-١٩٧٥، دار الجواهري للنشر، بغداد.
٢٦. عبد الرحمن إدريس صالح، شاهين سهام عبد الرازق. (٢٠١١). الشيخ محمود الحفيد في ميزان التأريخ وحكمه، مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد، العدد (١٨٠).
٢٧. عبد الرزاق الحسني. (١٩٨٨). تاريخ الوزارات العراقية، جـ٨، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
٢٨. عبد الوهاب الكيالي. (١٩٩٠). الموسوعة السياسية، ط٢، دار الفارس للتوزيع والنشر، ج٣، عمان.
٢٩. عزيز شريف (٢٠١٠). مذكرات عزيز شريف، الجزء الثاني: الحرب والسلم في كردستان العراق، الفصل السابع: أوليات توسطي من أجل حل المسألة الكردية في عام ١٩٦٨، دار المدى للإعلام والثقافة والفنون، بغداد.
٣٠. علياء صبار خلف نوري. (٢٠١٨). عبد الرازق النايف ودوره السياسي والعسكري في العراق، رسالة ماجستير، جامعة الأنبار. العراق.
٣١. عمار علي. (٢٠١٢). شمال العراق ١٩٥٨-١٩٧٥: دراسة سياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة -قطر.

٣٢.عهود عباس أحمد. (٢٠٢١). بدايات تأسيس حركة الملا مصطفى البارزاني، مجلة أورك للعلوم الإنسانية، المجلد (١٤)، العدد (٣).

٣٣.فرهاد محمد أحمد، القضية الكوردية في العراق في إطار التنافس السوفيتي–الأمريكي (١٩٤٦–١٩٧٥)، هامش رقم (٨٤)، نقلًا عن: مقابلة الملا مصطفى البارزاني مع صحيفة لوفيغارو الفرنسية(Le Figaro) ، الاثنين ١٨آذار ٢٠١٩، متاح على الرابط:

http://farhad-mohmmed.blogspot.com/2019/03/1946-1975.html تمت الزيارة في ٢٠٢٦/٧/٥.

٣٤.قاسم علوان. (٨ تشرين الثاني٢٠٠٧). مشروع عبد الرحمن البزاز لحل القضية الكردية: قراءة في بيان ٢٩ حزيران لعام ١٩٦٦، الحوار المتمدن، العدد الالكتروني رقم (٢٠٩٣).

٣٥.كافي سلمان مراد الجادري. (٢٠١٧). موقف الحكومة العراقية من القضية الكردية في العراق (٨ شباط – ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣)، مجلة آداب المستنصرية، العدد (٧٧).

٣٦.ليث عبد الحسن الزبيدي. (٢٠١٧). ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق، ط٢، مكتبة اليقظة العربية، العراق.

٣٧.مثنى أمين قادر. (٢٠٠٣). قضايا القوميات وأثرها على العلاقات الدولية (القضية الكردية نموذجاً)، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية للنشر، السليمانية.

٣٨.محمد سهيل طقوش. (٢٠١٥). تاريخ الأكراد (٦٣٧–٢٠١٥)، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

٣٩.محمد عبد الله القرعان. (٢٠١٨). الحركة القومية الكردية في العراق، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان.

٤٠.محمد مظفر الأدهمي. (٢٩تموز٢٠٢٢). الأبعاد والنتائج: القضية الكردية وبيان ٢٩ حزيران ١٩٦٦، جريدة الزمان، بغداد.

٤١.مسعود البارزاني. (٢٠٠٢). البارزاني والحركة التحررية الكردية، ثورة أيلول ١٩٦١–١٩٧٥، ج٣، أربيل.

٤٢.منذر الموصلي. (٢٠٠٠). القضية الكردية في العراق: البعث والأكراد، ج٣، دار المختار، دمشق.

٤٣.الموسوعة العربية. (٢٠٠٥). عبد السلام عارف، المجلد (١٢)، هيئة الموسوعة العربية، دمشق.

٤٤.مؤيد شاكر كاظم مخيلف الطائي. (٢٠٢٣). سياسة الحكومة العراقية تجاه الأكراد ١٩٦٨–١٩٧٠ والموقف الإيراني منها، مجلة بن خلدون للدراسات والأبحاث، مركز ابن العربي للثقافة والنشر، المجلد (٣)، العدد (٣).

٤٥.مؤيد شاكر كاظم مخيلف الطائي، وديار حامد نعيم. (٢٠٢٣). سياسة الحكومة العراقية تجاه الأكراد ١٩٦٨–١٩٧٠ والموقف الإيراني منها، مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث، كركز ابن العربي للثقافة والنشر. المجلد (٣)، العدد (٣).

٤٦.ناظم رشم معتوق الامارة. (٢٠١٧). انعكاس اتفاقية الجزائر ١٩٧٥ على الحركة الكردية المسلحة في العراق، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، بغداد.

٤٧.نجاة عبد الكريم عبد السادة. (٢٠١٩). مساعي الحكومة العراقية للوصول إلى حل سلمي للقضية الكردية وإعلان بيان الحادي عشر من آذار ١٩٧٠ للحكم الذاتي، مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، كلية التربية للبنات، المجلد (٤ ملحق)، البصرة.

٤٨.نجاة عبد الكريم عبد السادة. (٢٠١٩). مساعي الحكومة العراقية للوصول إلى حل سلمي للقضية الكردية وإعلان بيان الحادي عشر من آذار ١٩٧٠ للحكم الذاتي، مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، كلية التربية للبنات، المجلد (٤ ملحق)، البصرة.

٤٩.نديم أحمد الياسين. (١٩٧٥). المسألة الكردية مواقف ومنجزات، منشورات وزارة الإعلام، سلسلة الكتب الإعلامية (٦٠).

٥٠.وليد الأعظمي. (٢٠٠١). أعيان الزمان وجيران النعمان في مقبرة الخيزران، بغداد: مكتبة الرقيم، بغداد.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

51. Abel Claret. (1980). Les Minorités, Les dossiers de l'histoire, No. 27, Belgique.
52. Andrew Mango. (1996). The Lausanne Treaty 1923 and the Kurdish Question, in Middle Eastern Studies, Vol. 32, No. 2.
53. Aram Rafaat. (2012).The Shaky Foundations of the 1926 Annexation of Southern Kurdistan to Iraq, Brill.
54. Aziz, M. (2011). The Kurds of Iraq: Nationalism and Identity in the Kurdish Movement. London: I.B. Tauris.
55. Baram, A. (1989). Iraq: Between East and West. In: Efraim Karsh (ed.), The Iran-Iraq War. Tel Aviv: Jaffee Center for Strategic Studies, Springer.
56. Charles Tripp. (2007): A History of Iraq, Cambridge University Press.
57. Erving E. Beauregard. (2021). Kurds Suffer Genocide in Iraq, EBSCO Research Starters – History , EBSCO Information Services, Ipswich, Massachusetts, USA.
58. Gunter, M. M. (1990). The Kurds in Turkey and Iraq. New York: St. Martin's Press.
59. Hajar Bashir Sadoon. (2023). Foreign Relations and the Kurdish Eylul Revolution in Iraq 1961–1968, Academic Journal of Nawroz University, Vol. 12, No. 3.
60. Hawraman Ali. (2020). The Iraqi Kurds and the Cold War: Regional Politics, 1958–1975, Routledge.
61. Karwan Salih Waisy. (2015). The Kurdish Issue in Iraq and the British Policy 1943–1945, Journal of Islamic and Human Advanced Research, Vol. 5, Issue 1.
62. Loqman Radpey. (2022). Kurdistan on the Sèvres Centenary: How a Distinct People Became the World's Largest Stateless Nation, Nationalities Papers, Vol. 50, Issue 6, Cambridge University Press.
63. Majid Khadduri. (1978). Socialist Iraq: A Study in Iraqi Politics Since 1968. Washington, D.C: Middle East Institute
64. McDowall, David. (2004): A Modern History of the Kurds. London: I.B. Tauris, p.330-335; Tripp, Charles. (2007): A History of Iraq. Cambridge University Press.
65. Penrose, Edith and E.F. (1978). Iraq: International Relations and National Development, Westview Press, Boulder, Colorado.

66. Penrose, Edith and E.F. (1978): Iraq: International Relations and National Development, Westview Press, Boulder.
67. Pobedonostseva-Kaya, A. O. (2024). Soviet Kurdish Studies and Policies: The Problem of Agents and Agency. Vestnik of Saint Petersburg University. Asian and African Studies, vol. 16, issue 4.
68. Ramazani, R.K. (1972). Iran's Foreign Policy 1941-1973, University of Virginia Press, Charlottesville.
69. Saad Jawad. (1981): Iraq and the Kurdish Question 1958–1970, Ithaca Press, London.
70. Tomashek, R. D. (1976). The Resolution of Major Controversies Between Iran and Iraq. The Review of Politics, Vol. 38, No. 2, University of Notre Dame.
71. Tomashek. (1976). The Resolution of Major Controversies Between Iran and Iraq, The Review of Politics.
72. U.S. Department of State. (2006): Foreign Relations of the United States, 1969–1976, Vol E-4, Washington, D.C., No 259.
73. U.S.(1977). House of Representatives, Select Committee on Intelligence (Pike Committee), CIA: The Pike Report, Nottingham: Spokesman Books.
74. United States Department of State. (2012). Office of the Historian. Foreign Relations of the United States, 1969–1976, Volume XXVII: Iran; Iraq, 1973–1976. Washington, D.C.: United States Government Printing Office, Document 306.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

عنوان البحث

تطوير سكك الحديد في الدول الغربية وأثره على الامبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر والعقدين الأول والثاني من القرن العشرين

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: أ.م.د. عماد حمد صالح عبد الحليم

الجامعة:

الكلية:

القسم: وزارة التربية / مديرية تربية كركوك

البلد: العراق

البريد الالكتروني:
emadd.aljbory.77@gmail.com

الهاتف: ٠٧٧٠١٠٠٥٨٦٧

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ٢٩/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٣٠/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (سكك الحديد، الامبراطورية العثمانية، الدول الغربية، مناطق نفوذ، تمويل)

ملخص البحث

لقد كانت السكك الحديدية من أهم اختراعات القرن التاسع عشر، إذ أحدثت تغييرات جذرية في العالم، فقد تطورت هذه السكك بسرعة هائلة، وتم بناء آلاف الكيلومترات منها في غضون سنوات قليلة. وفيما يتعلق بوسائل النقل في ذلك العصر، لم يكن التفوق للسكك الحديدية محل تساؤل، لاسيما بعد ان أصبح النقل الجماعي ممكنًا في جميع أنحاء أوربا ولاسيما في المناطق الداخلية حيث كانت إمكانيات النقل البحري أو عبر القنوات تتصف بالمحدودية.

سرعان ما أدركت الدول الغربية الفوائد الأخرى للسكك الحديدية، لاسيما إمكانية استخدامها كأداة سياسية في علاقاتها مع الدول غير الغربية، لاسيما ان اغلب تلك الدول كانت متخلفة عن مضمار التطور التكنولوجي والاقتصادي في ذلك العصر، حيث انتهجت الدول الغربية سياسة استعمارية في جميع أنحاء العالم، لذا وقبل نهاية القرن، أصبحت معظم الدول غير الغربية مستعمرات سياسية واستخدمت هذه الدول العديد من الوسائل منها انشاء السكك الحديدية لتعزيز سياساتها، اما عمن يبني هذه السكك؟ فالجواب هو الدول الغربية هي من تتولى اقامة تلك السكك بسواعد ابناء الدول المتخلفة.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Asst. Prof. Dr. Emad Hamad Saleh Abdul-Halim
University:
College:
Department: Ministry of Education / Kirkuk Education Directorate
Country: Iraq
Email: emadd.aljbory.77@gmail.com
Phone: 07701005867

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 29/ June / 2026
Acceptance Date: 30/ July / 2026
Publication Date: September /2026

Keywords: (Railways, Ottoman Empire, Western countries, spheres of influence, financing)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Development of Railways in Western Countries and Its Impact on the Ottoman Empire in the Nineteenth Century and the First Two Decades of the Twentieth Century

Abstract

Railways were among the most important inventions of the 19th century, bringing about radical changes to the world. They developed at an astonishing pace, with thousands of kilometers built in just a few years. In terms of transportation at that time, the superiority of railways was unquestionable, especially after mass transit became possible throughout Europe, particularly in inland areas where sea or canal transport was limited.

Western countries quickly realized the other advantages of railways, especially their potential as a political tool in their relations with non-Western nations. Most of these nations lagged behind in technological and economic development at the time. Western powers pursued a colonial policy worldwide, and by the end of the century, most non-Western countries had become political colonies. These powers used various means, including the construction of railways, to further their political agendas. But who built these railways? The answer is that Western nations undertook their construction, employing the labor of the people of these developing countries.

المقدمة

تُعدّ السكك الحديدية من أبرز الإنجازات التقنية التي شهدها القرن التاسع عشر، إذ أسهمت في إحداث تحولات اقتصادية وسياسية واجتماعية عميقة على مستوى العالم. فقد شهدت هذه الوسيلة تطورًا متسارعًا، وتم إنشاء آلاف الكيلومترات من خطوطها خلال فترة زمنية قصيرة، مما جعلها تتصدر وسائل النقل في ذلك العصر بفضل قدرتها على نقل الأفراد والبضائع بكفاءة وسرعة، ولا سيما في المناطق الداخلية من أوروبا التي كانت تعاني محدودية وسائل النقل المائي عبر الأنهار والقنوات المائية.

لم تقتصر أهمية السكك الحديدية على دورها الاقتصادي، بل سرعان ما أدركت القوى الغربية إمكاناتها الاستراتيجية والسياسية، فوظفتها أداةً لتعزيز نفوذها في الدول غير الغربية خلال مرحلة التوسع الاستعماري. ومع اتساع رقعة الاستعمار في أواخر القرن التاسع عشر، أصبحت مشاريع إنشاء السكك الحديدية جزءًا من السياسات الاستعمارية الرامية إلى إحكام السيطرة على المستعمرات، وتسهيل حركة الجيوش، ونقل المواد الخام، وربط الموانئ بالمناطق الداخلية بما يخدم مصالح القوى الاستعمارية. وعلى الرغم من أن تمويل هذه المشاريع وإدارتها كانا بيد الدول الغربية، فإن تنفيذها اعتمد بدرجة كبيرة على جهود وأيدي أبناء البلدان الخاضعة للاستعمار.

تنبع أهمية دراسة هذا الموضوع من كونه يكشف عن الدور المزدوج الذي أدته السكك الحديدية؛ فهي لم تكن مجرد وسيلة للنقل أو رمزًا للتقدم التكنولوجي، بل كانت أيضًا أداة سياسية واقتصادية أسهمت في إعادة تشكيل العلاقات الدولية وترسيخ النفوذ الاستعماري. ومن ثم، فإن دراسة تاريخ السكك الحديدية تساعد على فهم طبيعة التوسع الاستعماري، وآليات السيطرة التي انتهجتها القوى الكبرى، فضلاً عن إدراك أثر هذه المشاريع في البنى الاقتصادية والاجتماعية للدول التي أُنشئت فيها، وهو ما يجعل هذا الموضوع ذا أهمية كبيرة في الدراسات التاريخية والاقتصادية والسياسية.

كانت الإمبراطورية العثمانية من الدول التي حافظت على استقلالها السياسي، فبالرغم من تخلفها عن مصاف الدول المتقدمة عسكريًا واقتصاديًا، إلا أنها كانت أكبر وأشد قوة من أن تستعمرها أي قوة غربية بشكل مباشر، لذا قُسمت الإمبراطورية إلى مناطق نفوذ، وفي هذه العملية شيدت كل من بريطانيا، ثم فرنسا وألمانيا، العديد من خطوط السكك الحديدية في المناطق الخاضعة لنفوذها داخل الأراضي العثمانية، واستمرت هذه التطورات مع المتغيرات العالمية.

لقد رأى المسؤولون العثمانيون الفوائد الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية في بناء السكك الحديدية في بلادهم، ومع ذلك لم يكن لديهم رأس المال والتكنولوجيا اللازمان لبناء مثل هكذا خطوط مما اضطرهم إلى منح العديد من الامتيازات للدول الغربية، مثل القروض وضمانات الفائدة، بحيث أصبحت هذه الامتيازات تدريجيًا عبئًا على ميزانية الدولة، وتسببت في إفلاسها المالي واستعمارها اقتصاديًا، ولم تستطع الدولة الضعيفة اقتصاديًا منع تسارع الحركات الوطنية وتعجيل مسار التفكك السياسي، اذ لم تكن جهود المسؤولين العثمانيين كافية لإنقاذ الإمبراطورية، بل أدركوا أن هناك حاجة إلى اقتصاد وطني قوي، وأن على الإمبراطورية التخلص من الاستعمار الاقتصادي للغرب من خلال تطوير البنى التحتية ولاسيما خطوط النقل لكنهم لم ينجحوا، وانهارت الإمبراطورية بنهاية الحرب العالمية الأولى.

لقد تباينت أسباب إنشاء السكك الحديدية فترة البحث، اذ هدف البحث إلى دراسة هذه العملية بطريقة تحدد الأهداف والمبادئ المختلفة في إنشائها. حيث تناول الجزء الأول التطور التاريخي للسكك الحديدية وأهميتها في ظل الرأسمالية من منظور اقتصادي وسياسي، أما الجزء الثاني، فيتناول تطور السكك الحديدية في الامبراطورية العثمانية كجزء من التحديث العثماني، وكذلك في سياق الاستعمار الغربي. ومن خلال دراسة دقيقة لبعض مشاريع السكك الحديدية، يُبرز البحث للإجابة عن السؤال التالي وهو كيف أصبحت وسيلة النقل هذه أداةً للتأثير السياسي، بهدف تحقيق سياسات الاستعمار الاقتصادية والسياسية. ويختتم البحث بتبيان موقف الامبراطورية العثمانية من السكك الحديدية طوال فترة البحث.

لقد استخدم الباحث الأسلوب التاريخي في تبيان أهمية البحث من خلال الاستعانة بالمصادر التي تعالج فترة البحث للكشف عن الأساليب التي استخدمتها الدول الاستعمارية ومنها سكك الحديد للهيمنة على مقدرات الأمم الأخرى من بينها الإمبراطورية العثمانية.

تطور السكك الحديدية في ظل الرأسمالية: –

لقد أوجدت فترة التنوير التي بدأت بحركات النهضة والإصلاح، وضعًا أتاح فرصةً لاختراعات واكتشافات جديدة، ففي هذه البيئة، اكتُشفت طرق بحرية جديدة في القرن السادس عشر، ومع وصول هذه الاكتشافات إلى أبعد المناطق، أصبح التواصل بين الدول أسهل لتتطور العلاقات بين الدول وقد تأثرت أوروبا بهذا التطور بشكل خاص بهذا، ونظرًا لسهولة التواصل بين الدول الأوروبية، تطورت التجارة الأوروبية وانفتحت على العالم، وهكذا بدأ نظام اجتماعي واقتصادي جديد يهيمن على العالم الا وهو النظام الرأسمالي ، فمنذ تفكك الإقطاع ،حيث كانت وسائل الإنتاج محكومة بملكية خاصة وما رافقها من محدودية نقل راس المال الى اقتصاد مفتوح ينتج للسوق. وهكذا بدأت المرحلة الأولى من الرأسمالية المسماة بالمرحلة التجارية، ففي هذه المرحلة تطور الاقتصاد العالمي بسرعة كبيرة مع زيادة حجم التجارة. (Pamuk, 1987:2-3)

لقد شهد القرن التاسع عشر تغييرات هيكلية ملحوظة في تطور الرأسمالية في العالم الغربي، فمع اختراع الآلة البخارية، طرأت تطورات هامة وتغير أسلوب الإنتاج، فقد حلت الآلة محل العمل اليدوي، مما أدى بدوره إلى زيادة هائلة في حجم الإنتاج، وأصبح إنتاج كميات كبيرة من السلع أرخص وأسهل. وتزايد استخدام رأس المال يومًا بعد يوم لاسيما بعد دمج الآلات في نظام الإنتاج. كانت هذه مرحلة جديدة في الرأسمالية تُسمى الرأسمالية الصناعية. ومنذ ذلك الحين أصبحت بريطانيا ودول غربية أخرى مركز الإنتاج (Kurmuş, 1974:70) وليصبح الوضع على النحو التالي: حيث ذكر شوكت باموك ان ((الثورة الصناعية حوّلت اقتصادات بريطانيا، أولًا، ثم اقتصادات أوروبا الغربية، إلى مُنتجين جماعيين للسلع المصنعة الرخيصة. وبحلول الربع الثاني من القرن التاسع عشر، كانت الدول الأوروبية الرائدة تسعى إلى إنشاء أسواق لمنتجاتها من جهة، وتأمين مصادر رخيصة ومهملة للمواد الغذائية والمواد الخام من جهة أخرى. وبالتالي، من الناحية الزمنية، انطوى التأثير الأول للثورة الصناعية على دول العالم الثالث الحالية على توسع غير مسبوق في حجم التجارة وتحول في تركيبتها. فقد ساعدت الثورة التكنولوجية في النقل الخارجي التي ظهرت في أواخر القرن على تسريع هذا الاتجاه)) (Pamuk, 1987:2-3)

نتيجة لما تقدم سعت هذه الدول الغربية إلى تلبية احتياجاتها المتزايدة من الدول غير الرأسمالية، وحاولت تحويل هذه الدول في هذا السياق الى اسواق لتصريف المنتجات، ومن هنا تم الاعتراف بأهمية النقل، لذ كان هذا التحول بالغ الأهمية لتحقيق النظام العالمي المذكور أعلاه لأنه يسهل نقل السلع

والمواد الخام من مراكز الإنتاج إلى السوق. ولاسيما في القرن التاسع عشر، فقد كان النقل الذي يتم بواسطة عربات الخيول او قوافل الجمال مكلفًا للغاية اضافة الى كونه بطي، في حين كان البديل الأرخص للنقل هو النقل البحري والنقل عبر القنوات والأنهار الذي يتصف بمحدوديته حيث كان من المستحيل الوصول إلى الداخل بتلك الوسائل البدائية وهكذا، تطورت السكك الحديدية، بعد إنشائها لأول مرة عام ١٨٣٠م في إنجلترا، وبسرعة اذ امست مهد الاختراعات الخاصة بالقاطرة البخارية .(Vahdettin, 1993:16)

لذا ففي وقت قصير، نجحت السكك الحديدية في سد هذه الفجوة في نظام النقل، فقد كانت وسائل النقل في هذا النظام شبه مثالي بالنظر إلى تفوقه النسبي على الأنظمة السابقة. وهكذا، أصبحت السكك الحديدية أحد أكثر العناصر تأثيرًا في عملية رأس المال الغربي، ويعود ذلك إلى الكفاءة الملحوظة التي جلبها إلى نظام النقل مقارنةً بالسابق، فوفقًا لبيرقدار أوغلو، يمكن للجمل أن يحمل حمولة وزنها ٢٣٠-٢٥٠ كيلوجرام، ويمكنه المشي لمسافة ٢٠-٣٠ كم في اليوم وفقًا لحالة الطرق ، في حين كان النقل بالسكك الحديدية أرخص واسرع من الجمل، لأن سعر حمولة الطن واحد كانت أقل من أربعة قروش على السكة، في حين كان سعر حمولة الطن واحد يتراوح بين ستة قروش الى عشرين قرش على الجمال، اما المسافة فلا يوجد مقارنة على الاطلاق حيث يستطيع القطار ان يجتاز المسافة التي يقطعها الجمل بساعة واحدة، لذا ففي عام ١٨٤٦م، تم نقل حوالي ١٩٢ مليون طن بواسطة العربات. ومع ذلك، في عام ١٨٦٨ (بعد ٢٢ عامًا)، بلغ حجم الحمولة التي تم نقلها على السكك الحديدية ٥٠٤٢ مليون طن، وهو وزن هائل مقارنة بالطرق القديمة، لذا كان اختراع السكك الحديدية نقلة نوعية بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، فقد شُيِّدت آلاف الكيلومترات منها في وقتٍ قصيرٍ جدًا في كلٍّ من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. ولم يقتصر أثر التطور الهائل والسريع للسكك الحديدية على وسائل النقل فحسب، بل أثَّر أيضًا على البنية الاقتصادية العالمية ككل،(Bayraktaroğlu, 1995:4) وساهم بالتالي في تطور نظام الإنتاج الرأسمالي، ويمكن سرد هذه الآثار على النحو التالي:

أ) التأثير المباشر على وسائل النقل، والذي تمثل بشكل رئيسي في انخفاض ملحوظ في التكاليف.

ب) التأثير المباشر على بعض الصناعات مثل صناعة الفحم التي تطورت بسبب الطلب الناتج عن مشاريع السكك الحديدية.

ج) الآثار غير المباشرة على القطاعات الاقتصادية الأخرى والتي ظهرت بعد تطوير السكك الحديدية.

د) الآثار غير المباشرة على وضع السوق العالمية (Ergün, 1985:21).

الطريقة التي أثرت بها السكك الحديدية على الصناعة: -

أدت السكك الحديدية مقارنة بأنظمة الضرائب في القرن التاسع عشر إلى خفض تكاليف النقل بشكل كبير لأنها شملت النقل الجماعي بسرعة عالية إلى حد كبير، وهذا الانخفاض في التكاليف ادى إلى زيادة الطلب على المنتجات الصناعية والمواد الخام التي لم تكن ذات جدوى اقتصادية في السابق وبالتالي فقد زاد حجم التجارة الخارجية والداخلية مقارنة بالفترة التي سبقت انشاء السكك الحديدية ونتيجة لذلك زادت كمية الإنتاج بشكل كبير فعلى سبيل المثال، بين عامي ١٨٥٠ و١٩١٠ زاد إنتاج الفحم حوالي ١٤ مرة، وزاد إنتاج الحديد والصلب ١٢ مرة، وزاد إنتاج الذهب ١٣ مرة، في حين شهدت إنتاج السلع الاستهلاكية الأخرى زياداتٍ ملحوظة، حيث زاد إنتاج القمح بمقدار ١،٦ مرة في الفترة (١٨٨١-١٩١٤)، والقطن بمقدار ٢،٢ مرة في الفترة(١٨٨٤-١٩١٥)، والسكر بمقدار ٣،٥ مرة في الفترة (١٨٨٠-١٩١٥)،وتشير الإحصاءات إلى أن تطوير السكك الحديدية قد زاد الإنتاج وساهم في تحول الاقتصاد العالمي إلى اقتصاد صناعي(Çavdar, 1970:21).

أ) بناءً على المزايا المذكورة أعلاه، طُرحت العديد من مشاريع السكك الحديدية، وتم بناء آلاف الكيلومترات من السكك الحديدية في فترة زمنية قصيرة جدًا. ونتيجةً لذلك، ازداد الطلب على الحديد والفحم والآلات، وشهدت هذه القطاعات تطورًا ملحوظًا.

ب) أدى تطور صناعات الحديد والفحم والآلات إلى تطور القطاعات الأخرى، وكان أهمها قطاع النقل، وبما أن مشاريع السكك الحديدية تتطلب استثمارات رأسمالية ضخمة، فقد نشأت الحاجة إلى بنوك ومؤسسات مالية جديدة لدعم هذه المشاريع. وهكذا تطور هذا القطاع أيضًا. ففي أسواق السندات في الدول الأوروبية التي تُشيّد السكك الحديدية، ارتفعت حصة سندات وأسهم شركات السكك الحديدية. على سبيل المثال في عام ١٨٧٠، كان ١٧٥ سهمًا من أصل ٣٥٩ سهمًا مُتداولًا في بورصة برلين للأوراق المالية، أسهمًا للسكك الحديدية (Bayraktaroğlu, 1995: 6).

ج) كان أهم ما أحدثته السكك الحديدية هو التحول في هيكل السوق العالمية. فقد ربطت السكك الحديدية مراكز الإنتاج الأوروبية بالأسواق الجديدة. ونتيجةً لذلك، اندمجت المناطق ذات الاقتصادات المنغلقة نسبيًا في النظام الاقتصادي العالمي، فقبل السكك الحديدية كان من المستحيل موازنة نقص بعض

المنتجات في بعض المناطق مع فائض الإنتاج في مناطق أخرى، اضف الى ذلك كان سعر المنتج نفسه يختلف اختلافًا كبيرًا في أجزاء مختلفة من البلد الواحد فعلى سبيل المثال في فرنسا، عام ١٨٠١، كان سعر القمح يختلف بنسبة ٢٦٠٪. وهكذا، حوّلت السكك الحديدية الأنظمة الاقتصادية المحلية المغلقة أو شبه المغلقة إلى أنظمة متكاملة مع الاقتصاد العالمي. وهكذا، أصبح تبادل السلع والمنتجات أسهل واقل كلفة (Özyüksel, 1988:1).

د) كان تأثير السكك الحديدية في الدول النامية ملحوظًا للغاية. فقد أحدثت تطورًا اقتصاديًا وثقافيًا كبيرًا في هذه المناطق، مما أدى إلى انهيار أساليب الإنتاج التقليدية المستخدمة فيها، وكما هو موضح سابقًا، كان للسكك الحديدية آثارٌ عديدة على الاقتصاد. إلى جانب ذلك، كان لها أيضًا آثارٌ اجتماعية وثقافية. فعلى سبيل المثال، أُنشئت مدنٌ جديدة بالقرب من السكك الحديدية، كما ازداد تبادل القيم الثقافية مع تسهيل السكك الحديدية للسفر. وهكذا، كانت السكك الحديدية اختراعًا بالغ الأهمية وأثرت تأثيرًا عميقًا على حياة الإنسان(Bayraktaroğlu, 1995: 7) .

ومع ذلك، بعد إدراك الدول الغربية لفائدة السكك الحديدية المذكورة أعلاه، حاولت استخدامها كأداة ضد الدول التي لم تدخل المرحلة الرأسمالية وفقًا لسياساتها الاقتصادية والسياسية التوسعية، فبيع المزيد من السلع وشراء مواد أرخص اثار طمع الدول الغربية وتوجهها إلى أسواق الدول غير الرأسمالية. ومن ثم ازداد حجم التجارة العالمية. كما أقرضت الدول الغربية هذه الدول أموالًا طائلة واستثمرت مبالغ طائلة في مشاريع البنية التحتية مثل السكك الحديدية. وكان الهدف من كل ذلك توسيع التجارة ودمج هذه الدول في الاقتصاد العالمي(Edward, 1923:3) .

من جانب اخر، كانت السكك الحديدية إحدى الأدوات الرئيسية للدول الغربية لإعادة تنظيم الاقتصاد العالمي وفقًا لترتيب المركز والأطراف وحسب هذا التوجه، اصبحت الدول الغربية مركزًا للإنتاج الصناعي بينما اصبحت الدول غير الغربية أو غير الرأسمالية –مستهلكة– أي أنها ستصبح منتجةً للسلع الزراعية والمواد الخام، وهكذا فخلال فترة التجارة الحرة والتنافس في الرأسمالية، أُنجز أول مشروع سكك حديدية في الدول غير الرأسمالية أو ما قبل الرأسمالية. كان الهدف الرئيسي من هذه المشاريع هو دمج تلك الأجزاء من العالم بمراكز الإنتاج الأوروبية بحيث يمكن للسلع الأوروبية الوصول إلى تلك الأسواق بسهولة، ويمكنها أيضًا استيراد المواد الخام من تلك الدول (Armaoğlu, 1991:81).

مع حلول سبعينيات القرن التاسع عشر، بدأت مرحلة أخرى من الرأسمالية، تُسمى الرأسمالية الصناعية في العالم. وكان الحدث الحاسم الرئيسي في هذه الفترة هو تأسيس الاتحاد الألماني ودخوله في المنافسة الإمبريالية، ثم تحول هذا التأسيس إلى سباق لتقاسم النفوذ في العالم، فقد كانت أهداف القوى الرأسمالية هي إقامة إمبراطوريات استعمارية تتقاسم البلاد كشبه مستعمرات، ولتتويج هذا الهدف تم رصد جزءً كبير من رأس المال في الدول الحضرية إلى المناطق التي تحتاج إلى رأس المال لا سيما ان نسب الربح فيها مرتفعة (Çavdar, 1970:8 - 19)، لذ اتجهت الدول الأوروبية، صاحبة رأس المال، نحو الدول ذات الوسائل البدائية ورأس المال المحدود. وبدأت بتطبيق خططها، لكن تكلفة النقل الباهظة كانت عائقًا لها(Edward, 1923:3) ، وكان الحل لهذه المشكلة هو ايجاد وسائل نقل فعالة يعتمد على السكك الحديدية. وهكذا، تركز استثمار رأس المال بشكل رئيسي على مشاريع السكك الحديدية، وسعت جميع الدول الغربية إلى بناء خطوط سكك حديدية في المناطق التي أرادت استعمارها، فإذا ما أداروا استعمار سياسي لبلد ما، فقد ينفدون بسهولة الى هذه الأسواق. ففي الفترة ماقبل الحرب العالمية الأولى، نرى بأنه لم تكن هناك بقعة في العالم الا تتقاسمها الاحتكارات والقوى الإمبريالية (Çavdar, 1970:26) ،الا ان الأماكن التي لم يتمكنوا فيها من إدارة استعمار بلد ما بالكامل، كما في حالة الإمبراطورية العثمانية والصين وإيران، فقد حاولوا تقسيمها فيما بينهم إلى مناطق تابعة لهذه الدولة الاستعمارية او تلك، وبناء روابط اقتصادية وسياسية قوية مع مناطق نفوذهم داخل تللك الدول، في حين اصبحت السكك الحديدية من أهم أدوات الاستعمار والاستثمار في ان واحد. ففي الإمبراطورية العثمانية، على سبيل المثال، سعت كل من الدول الاستعمارية إلى إنشاء خطوط سكك حديدية في المناطق التي اعتقدوا أنه يمكنهم السيطرة عليها في المستقبل. وبالطبع، كانت العوامل الاقتصادية والسياسية تؤثر بشكل كبير على هذا المسار (Pamuk, 1987: 2-3).

لقد تم تطبيق هذه المشاريع من خلال أساليب اقتصادية وسياسية مختلفة وفقًا للبلد الذي أقيمت فيه، فالاهتمام الغربي بهذه المناطق يعتبر معيارًا مهمًا آخر في تطوير هذه المشاريع لصالحها، وعندما يُنظر إلى الموضوع من وجهة نظر الدول غير الرأسمالية، فالوضع يختلف تماما، فتلك الدول تسعى بنفسها إلى تبني تطور العالم الغربي وتغيير نظامها الاقتصادية لمواكبة الغرب وتتبنى نهج يعتمد على التفوق التقني والاقتصادي اللذين طورتهما الدول الغربية لذا قررت استيراد هذه التكنولوجيا والنظر إليها بإيجابية، لذا كانت السكك الحديدية أحد هذه التفوقات التقنية، واعتقدت تلك الدول المتأخرة ان تكنلوجيا

تللك الفترة تستطيع بناء أنظمة نقل خاصة بها وتطوير اقتصاداتها في الوقت نفسه، ولتعمل تلك الدول بالضد الرأسمالية في المنظور البعيد ذلك وجدت الفرصة المناسبة في بناء السكك الحديدية، وعلى هذا الاساس تطورت السكك الحديدية بسرعة لأنها كانت مفيدة لكلا الجانبين كلا حسب مصلحته (Vahdettin,1993:18- 19).

اثر تطور السكك الحديدية في عملية تحديث الإمبراطورية العثمانية

يتناول هذا العنوان مقدمة عن تطور السكك الحديدية في الإمبراطورية العثمانية في إطار عملية التحديث العثمانية التي خضعت للنفوذ الاقتصادي الغربي بهدف دمجها في الاقتصاد العالمي الرأسمالي، أي ضمن إطار عملية تحولها إلى مستعمرة اقتصادية للقوى الغربية، ولا سيما بريطانيا وفرنسا وألمانيا، تتمتع بمزايا مهمة في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية خلال عقود مختلفة من القرن التاسع عشر وحتى انهيار الإمبراطورية، ومارست هذه الدول ضغوطًا سياسية واقتصادية شديدة على الإدارة العثمانية، وكانت مشاريع السكك الحديدية باعتبارها إحدى أهم أدوات هذه الضغوط الخارجية، لذ احتلت مكانة مهمة في التطورات السياسية والاقتصادية (Bayraktaroğlu, 1995: 9).

لقد حظيت السكك الحديدية لدى المسؤولين العثمانيين نفس الأهمية للقوى الغربية، إذ ضمنت لها منافع اقتصادية وعسكرية وسياسية ومن ثم، مُنحت الشركات الغربية العاملة في مشاريع السكك الحديدية في الإمبراطورية امتيازات اقتصادية وسياسية عديدة، ورغم أن فوائد السكك الحديدية للإمبراطورية العثمانية كانت جلية، إلا أن دخولها إلى الإمبراطورية بشكل سريع في هذه المرحلة لا يمكن تفسيره بعملية التحديث العثمانية وتطور السكك الحديدية بالمتغيرات الداخلية للإمبراطورية فقط، بل يجب تفسيرها بالتفاعل المعقد بين المتغيرات الداخلية والخارجية، مثل القوى التي أرادت دمج الإمبراطورية في الاقتصاد العالمي، ولفهم كيف ولماذا، أو في ظل أي ظروف، وصلت السكك الحديدية إلى الإمبراطورية وأصبحت أداة للإمبريالية في القرن التاسع عشر؟ فمن غير الممكن تفسير تطور السكك الحديدية من وجهة نظر اقتصادية أو سياسية وحدها، وتحويلها في النهاية إلى شبه مستعمرة ومقاطعة لتصريف المنتجات الصناعية الأوروبية (Bayraktaroğlu,1995:10).

في بداية القرن التاسع عشر، بدأ النظام التقليدي والاجتماعي والهيكل الإداري للإمبراطورية العثمانية بالانهيار، فكان نظام الخزانة والنظام المالي العثماني في حالة سيئة للغاية، فقد انتهى نظام

الأراضي التقليدي، وتقهقر الجيش العثماني الى الوراء مقارنه بالتطور الذي شهدته الجيوش الغربية. وهكذا بدأت الامبراطورية تفقد مزيد من الأراضي بسبب الحروب، لاسيما ان كل أرض مفقودة ستضر بالنظام المالي العثماني، بالإضافة إلى ذلك، كان التأثير الاقتصادي الغربي يؤثر سلبًا على نظام الإنتاج العثماني، اضف الى ذلك ازدادت مطالب الحركات القومية والجماعات العرقية المقيمة في الإمبراطورية بعد انتشار الحركات المطالبة بالاستقلال، وبعد فترة وجيزة من تلك المتغيرات، لم يعد النظام العثماني قادرًا على مواكبة التطور العالمي (Karpat,1972:81).

في ظل هذه الظروف القاسية، كانت الحاجة إلى الإصلاحات حتمية، وبدأت أولى الإصلاحات العسكرية حيز التنفيذ، فقد حاول سليم الثالث(١٧٨٨-١٨٠٧م) تأسيس جيش جديد، ليواجه بتمردات عنيفة، لكن الإصلاحات لم تتوقف واستمرت خلال عهد محمود الثاني(١٨٠٧-١٨٣٩م) الذي كان هدفه الرئيسي إعادة إرساء السلطة المركزية، كما أرسل العديد من الأشخاص إلى أوروبا بهدف الاستفادة من خبراتها، وفتح مدارس في الإمبراطورية لتعريف الناس بالتعليم الغربي وعلى الثقافة الغربية الجديدة، وشكلوا طبقة بيروقراطية جديدة عند عودتهم (Lewis, 1961: 90).

لقد لعبت الطبقة ذات التعليم الغربي منذ ذلك الحين الدور الأهم في التحديث العثماني كما ساعدت البيروقراطية القوية في تجديد مركزية السلطة، لأنها أثرت على منطق الإدارة العثمانية عند قرارها مد خطوط السكك الحديدية داخل البلاد، من ناحية أخرى كانت الإصلاحات العثمانية محدودةً جدًا وبالتالي ضعفت الامبراطورية العثمانية يومًا بعد يوم، مع الثورة في مصر بقيادة محمد علي(١٨٠٥-١٨٤٨م)، اضطر العثمانيون إلى طلب المساعدة من إنجلترا للحفاظ على وحدتهم. لكن هذه المساعدات جعلت العثمانيين أكثر خضوعًا للغرب واضطروا في عام ١٨٣٨ إلى توقيع اتفاقية تجارة حرة مع إنجلترا، الا انها لم تكن الوحيدة ففي فترة قصيرة جدًا، وقّع العثمانيون اتفاقيات مماثلة مع دول غربية أخرى(McCarthy, 1982: 97-100).

لقد تسببت هذه الاتفاقيات في فقدان العثمانيين السيطرة على التجارة الخارجية، اذ فتحت الأسواق العثمانية أمام السلع الغربية، وفقد معظم الحرفيين العثمانيين التقليديين وظائفهم لعدم قدرتهم على منافسة السلع الغربية الرخيصة التي تنتجها التقنيات المتقدمة، وكانت هذه هي المرحلة الأولى وهي فترة التنافس الحر في عملية اندماج الإمبراطورية العثمانية في الاقتصاد العالمي ، وقد أدى ذلك إلى تأسيس مرحلة

جديدة في التاريخ العثماني، ويمكن تعريف هذه المرحلة بدخول رأس المال الأجنبي إلى الإمبراطورية (Owen, 1981:109- 110).

ان احس وصف لتلك المرحلة هو الوصف الذي أورده شوكت باموك حيث قال لقد ((استُثمرت مبالغ طائلة من رؤوس الأموال للدول الصناعية خلال القرن التاسع عشر، يمكن تصنيف هذه الاستثمارات تحت عنوانين: (أ) الاستثمارات المباشرة في الشركات، و(ب) الإقراض للحكومات خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، وُضع معظم الاستثمار المباشر في البنية التحتية، مثل السكك الحديدية والموانئ، بدلاً من أنشطة الإنتاج كالزراعة أو الصناعة، في حين كان الاستثمار محدوداً في التعدين، علاوة على ذلك فإن الجزء من الإقراض للحكومة ذهب الى تغطية النفقات الجارية ،والجزء الأساسي في البنية التحتية الغنية، مثل السكك الحديدية، ونتيجة لذلك، لم يغير معظم الاستثمار الأجنبي في أنماط الإنتاج المتخلف بشكل مباشر، بل سهّل توسيع التجارة بين الدول الغربية)) و الدولة العثمانية من خلال تطوير البنية التحتية)) (Pamuk, 1987:55).

لقد كان الحصول على قروض من القوى الغربية، نقطة تحول بالغة الأهمية، لأن تزايد حجم القروض جعل الامبراطورية العثمانية تعتمد بشكل متزايد على القوى الغربية. لقد استولوا على الإمبراطورية سياسياً واقتصادياً واستخدموها كأداة للاستعمار، حتى أنهم تنافسوا بعضهم البعض من أجل تقديم المزيد من القروض، ومع ذلك لم يكن تقديم القروض والترويج عملية سهلة بادى الامر، بل تأت الصعوبة من الحاكم العثماني الذي لم يكن راغبًا في الاقتراض، على الرغم الظروف الاقتصادية الصعبة وضياع معظم موارد الميزانية العامة، الا ان السلطان رفض مقترحات الغرب، فحتى عام ١٨٤٦م وبلوغ الكساد الاقتصادي ذروته، الا السلطان عبد المجيد(١٨٢٣-١٨٦١) ما زال يرفض الاقتراض، الا ان تقديم السفير البريطاني سترانفورد كانينج Sir Stratford Canning (١٧٨٦-١٨٨٠م)(بالمر، ١٩٩٢: ٢/٣٠١-٣٠٤) تقريرًا إلى السلطان يتحدث فيه بشكل أساسي عن الإصلاح الذي يجب تحقيقه ولكنه مشفع بقروض مشروطة ،وعلى الرغم من تقديمه لتلك القروض بطرقة جذابة، الا أن عبد المجيد رفض هذا القرض في البداية، انه في غضون فترة قصيرة اضطر إلى قبولها، وهذه النقطة مهمة لأنها تُظهر النوايا الحسنة للحاكم العثماني لإنقاذ الإمبراطورية، ومع ذلك، فقد تطورت عمليات الاقتراض، وسرعان ما غرقت الامبراطورية العثمانية في الديون (الجبوري،٢٠٢١: ٤٣٣) استُخدمت هذه القروض لتغطية النفقات الجارية والعسكرية، ومع نهاية القرن، أدت هذه التطورات إلى إنشاء "ديوان العمومية"

والذي يعرف بـ(إدارة الدين العام العثماني) وهي مؤسسة أنشأتها الدول الغربية للتحكم في سداد القروض (الوائلي، ١٩٩٩: ٤٥) ونُقلت إليها أهم مصادر دخل الامبراطورية، مثل ضرائب الملح والتبغ والعشور والحرير. وهكذا، فقدت الامبراطورية العثمانية سلطتها المالية التي كانت أحد العوامل الحاسمة في تحول الإمبراطورية إلى مستعمرة (McCarthy, 1982:361).

لا يخفى على أحد أن الهدف الرئيسي للحاكم العثماني كان إنقاذ الدولة من التفكك، واستمر هذا الهدف منذ تأسيس الامبراطورية العثمانية حتى زوالها، ونتيجة لذلك أدرك الحاكم العثماني ضرورة ادخال الإصلاح، ومن ثمّ لا يخفى على أحد أن السكك الحديدية أُنشئت لهذا الغرض، وفي سياق عملية التحديث هذه، طُرح أول مشروع للسكك الحديدية على جدول الأعمال عام ١٨٥٠م، كاستثمار مباشر من الغرب، فقد تركّز هذا الاستثمار بشكل رئيسي في البنية التحتية، رغم أهمية أنواع أخرى من الاستثمار، كالاستثمار في قطاعي البنوك والتعدين، إلا أن الاستثمار في البنية التحتية، والذي يشمل السكك الحديدية بشكل رئيسي، هو ما سيتم بحثه وفقًا لغرض هذه البحث (Bayraktaroğlu, 1995: 16).

جدول رقم (١):التوزيع النسبي لرأس المال الأجنبي،بمافي ذلك الديون الخارجية (Kaynak,1982:159)

اسم القطاع	نسبة المشاركة المئوية سنة١٨٩٠	نسبة المشاركة المئوية سنة١٩١٤
سكك الحديد	٤١،١	٦٣,١

كما يتضح من الجدول اعلاه، قارب حجم رأس المال الأجنبي المستثمر مباشرةً في السكك الحديدية ثلثي إجمالي الاستثمارات المباشرة لما لهذا القطاع من أهمية، ففي عام ١٩١٤، كانت السكك الحديدية أهم نموذج للاستثمارات الأجنبية في الدول الغربية، فقد استُثمر حوالي ٤٢٪ من رأس المال البريطاني في الخارج، والبالغ ٣٤٠٠ مليون ليرة عثمانية، في السكك الحديدية. كما أظهرت الاستثمارات الفرنسية والألمانية في الخارج نمطًا مشابهًا، فمن أصل ١٧١٠ مليون ليرة عثمانية من رأس المال الفرنسي في الخارج عام ١٩١٤، استُثمر ما يقرب من ثلثيه في ديون حكومية أجنبية، بينما تجاوزت حصة السكك الحديدية ١٥٪ من أصل ٨٢٥ مليون ليرة عثمانية من رأس المال الألماني المستثمر في الخارج خلال الفترة ١٨٨٠-١٩١٤م، ذهب ٦٤٪ إلى سندات حكومية أجنبية، بينما استوعبت السكك الحديدية حوالي ٢٥٪ (Pamuk, 1987:56).

ان أهمية السكك الحديدية في برامج الاستعمار في الغرب وتحديد إطار التنمية الذي كان يهدف لربط المحيط بالمركز وكما ذكر أعلاه، لذا فإن الأسباب التي دفعت هذه الدول إلى إجراء الاستثمارات في الإمبراطورية العثمانية هي نفسها السبب في بناء خطوط السكك الحديدية في الاجزاء الأخرى من العالم وهو ان بناء خطوط السكك الحديدية في الإمبراطورية مربحًا لأن الدول المشاركة فيه حصلت على ضمانات كيلومترية ملزمة الدفع من الحكومة العثمانية. وأيضًا، كما حدث في الأجزاء الأخرى من العالم، فبعد بناء خطوط السكك الحديدية، لم تجلب الدولة المستثمرة رأس المال المالي والتجاري إلى الإمبراطورية فحسب، بل سيطرت أيضًا على تصدير منتجات السلع المحلية واستيراد المنتجات المصنعة الأوروبية، باختصار، يمكن القول إن الدول التي أدركت مشروع السكك الحديدية حاولت بشتى الطرق السيطرة الاقتصادية المنطقة (Bayraktaroğlu, 1995:18).

ان تفسير الأهداف الأوروبية في المرحلة الثانية، وهي المرحلة الإمبريالية، تمحورت بشكل رئيسي حول استعمار الإمبراطورية. ومع ذلك، وكما ذُكر سابقًا، كانت الإمبراطورية العثمانية أكبر من أن تستعمرها قوة أوروبية واحدة فقط، لذا سعت إلى تقاسم الأراضي العثمانية فيما بينها. في هذه الفترة، واعتُبرت الإمبراطورية العثمانية "الرجل المريض" أو ما عُرف بـ"المسالة الشرقية"، وكان هدفها تفكيك الإمبراطورية وتقاسمها. لذلك، نفّذت الدول الأوروبية خلال هذه الفترة مشاريع سكك حديدية مع مراعاة النفوذ الذي تملكه على ارض الواقع. وهكذا شيّدت خطوط سكك حديدية في المناطق العثمانية التي توقع المستعمر السيطرة عليها بعد وفاة المريض، لذا تخلوا عن مخاوفهم الاقتصادية قصيرة الأجل تحقيق أهداف سياسية واقتصادية طويلة الأجل. لذلك كانت لهذه المشاريع جوانب سياسية واقتصادية على حداً سواء (Rathmann,1982:8-9).

لقد شهد النصف القرن التاسع عشر عملية تحديث كان مفهومها الرئيسي هو تبني التقنيات الغربية وتكييفها مع النظام العثماني لتقوية الهيكل الاقتصادي، وهو أمر ضروري لأي نوع من الإصلاح، لذا شهد السفراء العثمانيون في أوروبا التطور السريع للسكك الحديدية وفوائدها في تنمية الاقتصاد الغربي، وأدركوا بوضوح أهمية هذا النوع من النقل لتنمية الاقتصاد العثماني، لاسيما لم يكن لدى الإمبراطورية العثمانية وسائل نقل فعالة، فقد كان نقل البضائع والركاب يتم بواسطة الجمال والخيول والحمير أو العربات التي تجرها هذه الحيوانات، كما لم تكن هناك طرق مائية مناسبة للوصول إلى الداخل، فالأنهار

الموجودة قصيرة وسريعة الجريان وغير مناسبة عند النظر في قدرتها على النقل(Karkar,1972:59-61).

وعلى ما تقدم فقد اعتبر المسؤولون العثمانيون السكك الحديدية حلاً لجميع مشاكل النقل، وظنوا أنها ستزيد الإنتاج وتُحوّل الأراضي غير المزروعة إلى إنتاج زراعي، وبالتالي استحصال المزيد من العشور (وهي ضريبة تُؤخذ من الإنتاج الزراعي)، كما ظنوا أن السكك الحديدية ستزيد التجارة في المنطقة، وستزيد من ضرائب الجمارك، كانت هذه هي الجوانب الاقتصادية لنهج المسؤولين العثمانيين تجاه السكك الحديدية، وكانوا مُحقين في هذا الرأي، حيث يقدم أوزيوكسال المثال التالي: ((خلال الفترة من ١٨٧٣ إلى ١٨٧٧م بلغ متوسط دخل مكتب جمارك إزمير ٢٣٠،٠٠٠ جنيه إسترليني–أي ما يعادل ٢٥٠،٠٠٠ليرة عثماني–، كما زادت الضرائب الزراعية المحصلة في المنطقة التي يمر بها خط سكة حديد إزمير–أيدن ١٣ ضعفًا خلال الفترة من ١٨٥٦ إلى ١٩٠٩م)) (Özyüksel, 1988:11).

أما الجانب الثاني لبناء السكك الحديدية فكان سياسيًا وعسكريًا. وكما هو معلوم، شهدت الأراضي العثمانية طوال القرن التاسع عشر اضطرابات داخلية وتمردات، وكان الحفاظ على النظام في الأراضي العثمانية الشاسعة من نقطة مركزية واحدة يمثل مشكلة، إذ يستغرق إرسال قوة عسكرية كافية إلى هذه المناطق بعيدة اوقتًا طويلاً للغاية، وباعتبارها وسيلة نقل أسرع بكثير، فقد لبت السكك الحديدية هذه الحاجة المهمة، كما اعتُبرت مفيدة للحفاظ على الأمن الداخلي والوصول إلى النقاط الاستراتيجية بسهولة، في هذه المرحلة، قرر الحاكم العثماني بناء خطوط سكك حديدية داخل الإمبراطورية، ولكن في ذلك الوقت كان من المستحيل القيام بذلك من مصدر عثماني بحت، فلم يكن لدى العثمانيين رأس مال وتقنية الكافيين لتنفيذ مشروع سكة حديد، وأدى هذا الواقع إلى قرار منح امتيازات للشركات الغربية لتنفيذ هذه المشاريع، وتم التعامل مع جميع مشاريع السكك الحديدية بهذه الطريقة (Edward, 1923:9-10) لذا يوضح الشكل أدناه الشركات الأجنبية المُنشأة على الأراضي العثمانية لتنفيذ مشاريع السكك الحديدية.

جدول رقم(٢): الشركات التي أُنشئت برأس مال أجنبي والمتعلقة بالسكك الحديدية بين ١٨٥٦–١٩١٤م

(Kaynak,1982:160-161)

اسم الشركة	مكان التأسيس	سنة التأسيس	راس مال الشركة بالليرة العثمانية
شركة سكة حديد ازمير ايدن الجبلية	لندن	١٨٥٦م	٩٨١,٠٠٠
شركة سكة حديد الدانوب البحر الأسود وميناء القسطنطينية	بيانات غير متوفرة في المصدر المعتمد	١٨٥٧م	بيانات غير متوفرة في المصدر المعتمد
شركة سكة حديد روشوك وفرنا	بيانات غير متوفرة في المصدر المعتمد	١٨٦٣م	بيانات غير متوفرة في المصدر المعتمد
تمديد خط سكة الحديد العثمانية ازمير – قصبة	اسطنبول	١٨٦٣م	٧٠٤,٠٠٠
شركة سكك الحديد الشرقية	فينا	١٨٦٩م	٢,٢٠٠،٠٠٠
شركة سكك حديد مرسين _ طرطوس_ اضنة العثمانية	اسطنبول	١٨٨٥م	١٨١,٠٠٠
شركة سكة حديد الاناضول العثمانية	اسطنبول	١٨٨٩م	٢,٦٤٠,٠٠٠
شركة سكة حديد يافا – القدس العثمانية المساهمة	يافا	١٨٨٩م	١٧٦,٠٠٠
شركة تمديد سكة حديد الشام _ حماه العثمانية	اسطنبول	١٨٩٠م	٦٦٠,٠٠٠
شركة سكة حديد مودينا _ بورصة العثمانية المساهمة	اسطنبول	١٨٩١م	٢٢,٠٠٠
شركة سكة حديد موناستر_سيلانيك العثمانية	اسطنبول	١٨٩١م	٨٨٠,٠٠٠
شركة سكة حديد ربط ديرساديت– سيلانيك	اسطنبول	١٨٩٢م	٦٦٠,٠٠٠
شركة حديد بغداد الشاهانية العثمانية	اسطنبول	١٩٠٣م	٦٦٠,٠٠٠
شركة سكة حديد حديدة– سيناء	اسطنبول	١٩١٠م	٢٢٠,٠٠٠

ان السياق العام الذي نُفِّذت فيه مشاريع السكك الحديدية العثمانية خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين يشير الى ان جُل تلك المشاريع كانت بتمويل أجنبي مباشر او ذو واجهة عثمانية وفي

مناطق محدودة تعكس نفوذ كل دولة من الدول الغربية، وتعكس مطامعها السياسية والاقتصادية لتتوافق مع المنظور العام لأهداف الدول الاستعمارية.

ب- مشاريع السكك الحديدية التي أُنجزت على الأراضي العثمانية: -

باستثناء محاولات قليلة من العثمانيين جُل خطوط السكك الحديدية في الأراضي العثمانية منحت امتيازاتها للشركات الأوروبية، وقد حظيت هذه الشركات الأوروبية بدعم سياسي واقتصادي من بلدانها، وأنجزت جميع مشاريعها تحت رعاية حكوماتها وفقًا للمصالح الاستعمارية لهذه الدول،وفي هذا السياق يمكن تقسيم خطوط السكك الحديدية في الأراضي العثمانية إلى ثلاث مجموعات، مولتها ثلاث دول رئيسية. المجموعة الأولى من خطوط السكك الحديدية هي تلك التي أنشأتها شركات بريطانية ورأس مال بريطاني. كانت هذه الخطوط بشكل رئيسي خطوط الاسكندرية–القاهرة، وإزمير–أيدن، و إزمير–قصبة، كوستنجه (في رومانيا حاليا على البحر الاسود) – تشارنفدا(في رومانيا على نهر الدانوب) (Köstence -Çernovada)، وفارنا(على البحر الاسود) –روستجوق على الحدود مع رومانيا (ضمن بلغاريا حاليا). بُنيت جميع هذه المشاريع في العصر الصناعي للرأسمالية كما هو موضح أعلاه (Bayraktaroğlu, 1995:22).

اما مجموعة الثانية من خطوط السكك الحديدية التي أنشأتها الامبراطورية العثمانية على للأراضي البلقان التابعة للإمبراطورية بتمويل نمساوي، عُرفت هذه المشاريع باسم "سكك حديد الروملي"، حيث بُنيت خطوط سكك حديد مثل دده أغاج –أدرنة Dedeağaç-Edirne (شمال غرب تركيا حاليا–شرق اليونان حالي)، وبانالوكا–نوفي Banaluka-Novi (بين البوسنة وصربيا)، وإسطنبول–إدرنة، وإدرنة–سانمبي، وسيلانيك–ميتروفيك، وتيموفا–يانبلو في إطار مشروع سكك حديد روملي. قدّم هذا المشروع المسؤولون العثمانيون، لكن نفّذه بشكل رئيسي من قبل رأسمالي نمساوي يدعى البارون موريس دي هيرش Baron Maurice de Hirsch (١٨٣١–١٨٩٦م)، وكانت دول البلقان في تلك الفترة في حالة من الفوضى، وكانت السيطرة العثمانية تتناقص يومًا بعد يوم وبالتالي لم يكن من الممكن القول إن دولة واحدة فقط كانت تسيطر على هذه السكك الحديدي(Bayraktaroğlu, 1995:22)..

في حين عُرفت المجموعة الثالثة من خطوط السكك الحديدية التي شُيّدت على أراضي الأناضول باسم مشروع سكك حديد الأناضول–بغداد، والذي شُيّد معظمه برأس مال ألماني، وشملت هذه المجموعة الثالثة من خطوط السكك الحديدية خطوط سكك حديد حيدر باشا–ازميت–اسكيشهير، وأنقرة،

وأسكيشهير–قونية، كان الهدف الرئيسي من إنشاء خطوط سكك حديد الأناضول هو ربط بغداد بإسطنبول والمدن الأوروبية الأخرى (Ferit, 1934:45).

١) النفوذ البريطاني والسكك الحديدية

لقد بُنيت جل السكك الحديدية في الفترة المبكرة برأس مال بريطاني في العصر الصناعي للرأسمالية. في هذه الفترة، كان لتنمية التجارة أهمية بالغة، اذ اتجهت أهداف بريطانيا ورأس المال البريطاني نحو هذا الاتجاه، وكان أحد أهداف بريطانيا هو بناء خط سكة حديد يختصر الطريق إلى الهند أكبر مستعمراتها. وكان خط سكة حديد الإسكندرية–القاهرة مثالاً على هذا الهدف. كما سعى البريطانيون إلى تطوير التجارة من خلال الوصول إلى أسواق جديدة من خلال ربط الموانئ بالمناطق الداخلية. وكانت إزمير– أيدن Izmir-Aydnç ، وإزمير–القصبةKasaba- izmir ، كوستنجه – تشارنفدا Köstence -Çernovada ، و وفارنا–روستجوق Varna-Rusçöuk مثالاً على هذا الهدف الثاني (Bayraktaroğlu, 1995:23).

أ) خط سكة حديد إسكندرية–القاهرة: أرادت الحكومة البريطانية تقصير الطريق إلى الهند من خلال ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر، لأنهم رأوا آنذاك بديلاً أفضل من حفر قناة، فلم يرغبوا في إثارة مشكلة أخرى كمشكلة (المضائق)، فقد بلغ طول خط السكة الحديد ٢١١ كيلو متر، ليكتمل عام ١٨٥٦ بعد خمس سنوات من البناء، وكان خط ذا أهمية استراتيجية واقتصادية واسعة عند إنشائه، لكنه فقد هذه الأهمية مع افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩. الا ان أهميته في كونه أول خط سكة حديد يُبنى على الأراضي العثمانية، وتكمن اهميته في أنه اظهار أن الهدف الرئيسي لهذا المشروع كان اقتصاديًا (Vahdettin, 1993:36-37).

ب) خطا سكة حديد ازمير–أيدن وازمير–قصبة: فالأول يعتبر اول امتياز لسكة الحديد على الأراضي الأناضولية، وقد مُنح لشركة بريطانية عام ١٨٥٦م وبلغ طوله ١٣٠ كيلومتر، واضيف اليه فروع في عام ١٨٦٣، بعد فترة وجيزة من خط إزمير–أيدن، حصل البريطانيون على امتياز خط إمير–قصبة. واكتمل هذا الخط عام ١٨٦٦(McCarthy, 1982:363).

لقد حصلت الشركات البريطانية على امتيازات عديدة مقابل إنشاء هذه السكك الحديدية، مما عوض جميع تكاليف المشروع. ولكن قبل الخوض في تفاصيل هذه الامتيازات، تجدر الإشارة إلى أن الهدف الرئيسي كان ربط مراكز الإنتاج الزراعي في غرب الأناضول بالأسواق العالمية عن طريق ميناء

إزمير، وبهذه الطريقة تمكنوا من فرض سيطرتهم الاقتصادية على تلك المناطق، ولذلك استخدمت الحكومة البريطانية نفوذها السياسي على الحكومة العثمانية للحصول على هذه الامتيازات ،فقد تحدث اللورد ستراتفورد دي ريد كليف في حفل افتتاح محطة سكة حديد ألسنجق Alsancak قائلاً: ((نأمل أن يكون هذا الخط استثمارًا رأسماليًا مفيدًا يُسهم في دخول منتجاتنا الصناعية إلى الإمبراطورية العثمانية. وكما تعلمون جميعًا، استفادت أوروبا من نهضة الإمبراطورية العثمانية أكثر من أي وقت مضى، لقد وصلت الحضارة الغربية إلى أبواب بلاد الشام. إذا لم تُفتح هذه الأبواب، التي لم نتمكن من عبورها حتى الآن، فلدينا ما يكفي، بل وأكثر من القوة لفتحها وتحقيق مطالبنا، ان دعم الاستثمارات الإنتاجية من أبرز واجبات حكومتنا))(Kurmuş, 2018:48).

ان دعم الشركات البريطانية كانت من أولويات الحكومات المتعاقبة ، فكما راعت الحكومة البريطانية _انذاك_ أسبابًا اقتصاديةً أخرى قبل الشروع في بناء خطوط السكك الحديدية في غرب الأناضول، وبما ان هناك ١٠٦١ تاجرًا بريطانيًا يديرون أعمال التصدير والاستيراد في إزمير، فقد أدرك هؤلاء التجار أن توافر فرص النقل في إزمير والمناطق المحيطة بها سيساهم في التنمية التجارية للمنطقة، كان روبرت ويلكنز Robert Wilkins وزملائه ،يمثل هذا التوجه لكونه حظي بامتياز خاص لبناء خط سكة حديد إزمير–أيدن عام ١٨٥٦م بدعم من السفير البريطاني، اذ أسست هذه المجموعة شركة سكة حديد إزمير–أيدن عام ١٨٥٧م ،وكانت الامتيازات الخاصة لهذه السكة الحديدية كما يلي:

١. منح ٣،٣٪ من رأس مال الشركة المُنشأة للحكومة العثمانية كضمان، وكان من المقرر الانتهاء من الجزء الأول من السكة الحديدية بطول ٧٠ كم، في سبتمبر ١٨٦٠م بعد افتتاح الجزء الأول من السكة الحديدية، حيث ضمنت الإمبراطورية العثمانية ربحًا قدره ستة بالمائة من رأس مال الشركة سنويًا لمدة خمسين عامًا، ووافقت الحكومة العثمانية على تعويض الجزء المتبقي إذا انخفضت الأرباح عن هذه النسبة. وكان من الممكن استيراد المواد اللازمة لبناء السكة الحديدية وإدارتها دون دفع ضرائب جمركية. وخلال فترة بناء السكة الحديدية، كان بإمكان الشركة استخدام الأراضي والمناجم والغابات المملوكة للدولة. بعد افتتاح خط السكة الحديد، مُنحت الشركة حق إدارة خط السكة الحديد بطول ٤٥ كيلومترًا حوله، مقابل دفع ضريبة بسيطة، بموجب هذه الامتيازات، اكتمل بناء هذا الخط بعد أحد عشر عامًا في الأول، أي في يوليو عام ١٨٦٦م، وبلغت تكلفته ٤٧،٥ مليون فرنك، حيث بدأت إنجلترا كأقوى دولة

رأسمالية اجنبية في خطة تحويل منتجات أراضي الأناضول إلى أسواق إنجلترا (Bayraktaroğlu, 1995:26) .

٢. مُنحت شركة بريطانية أخرى برأس مال قدره ٢٠ مليون جنيه إسترليني–أي ما يعادل١٨,٢ مليون ليرة عثمانية ذهبية– امتياز خط سكة حديد إزمير–القصبة بضمان فائدة بنسبة ٦%. وُقّع الامتياز في الرابع من يوليو عام ١٨٦٣، وبدأ بناء الخط عام ١٨٦٤م، وفي عام ١٨٦٦، وصل إلى تورغودو Turgudu (القصبة) التي كانت تبعد ٩٣ كيلومترًا (Vahdettin, 1993:39) .

٣. انشاء خطوط سكك حديد كوستنجه – تشارنفدا Cernovada -Köstence وفارنا–روستجوق Varna-Rustquk فقد كان خط كوستنجه – تشارنفدا بطول ٦٦ كم أول خط سكة حديد على الأراضي الأوروبية للإمبراطورية العثمانية، حيث كانت تشارنفدا على نهر التونة اما كوستنجه على ساحل البحر الأسود والهدف من هذا الخط هو ربط هاتين المدينتين في عام ١٨٦٠م، اما خط فارنا (والتي تقع على البحر الأسود) –روستجوق (والتي تقع على نهر الدانوب) بطول ٢٢٤ كم والذي تم الانتهاء منه في عام ١٨٦٦م بهدف هو ربط تلك المدينتين بحيث يمكن ربط الأراضي الزراعية بالموانئ، و تم منح امتيازات هذين الخطين للشركات البريطانية، كما هو الحال في المشاريع في مناطق بحر إيجة، ليستفاد البريطانيين من بناء تلك الخطوط للحصول على المنتجات الزراعية في هذه المناطق، كون نقل هذه المنتجات أصبح أرخص بفضل خطوط السكك الحديدية (Bayraktaroğlu, 1995:26).

ويمكن القول بانه ما ان انتهت الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧–١٨٧٨)، حتى امسى هذان الخطان خارج الأراضي العثمانية،وإن جميع الخطوط التي بنتها الشركات البريطانية كانت ذات أهداف اقتصادية، وان الاخيرة استغلت نفوذها السياسي للحصول على هذه الامتيازات في فترة لم تكن فيها المنافسة بين الدول الأوروبية قوية جدًا، وان المسالة الثالثة، بانهم ما كانوا ليبنوا هذه الخطوط الحديدية لو لم تكن هذه المشاريع مربحة (Bayraktaroğlu, 1995:26) .

ج) محاولات الدولة لبناء خطوط سكك حديدية – مشروع روملي:-

بعد حرب القرم (١٨٥٣–١٨٥٦م)، أراد المسؤولون العثمانيون بناء خط سكك حديدية في البلقان يصل إلى أوروبا، فقد رأى القائمين على التنظيمات أمثال السلطان عبدالمجيد الاول(١٨٣٩–١٨٦٠م) والصدر الأعظم مصطفى رشيد (البستاني، ٢٠١٩: 608–607) وعلي باشا وفؤاد باشا بأنه "يجب أن يكون للعثمانيين علاقات سياسية أقوى مع أوروبا، وبالتالي زيادة الاتصالات مع أوروبا، وأن إنشاء خط

سكة حديد يربط إسطنبول بالمدن الأوروبية سيكون مفيدًا"، ولكن حتى عام ١٨٦٦، لم يكن هناك سوى ٥١٤ كيلومترًا من خطوط السكك الحديدية. وكانت هذه الخطوط هي كوستنجه – تشارنفدا Köstence-Cernovada (٦٦ كيلومترًا)، وإزمير–قصبة (٩٨ كيلومترًا)،وفارنا–روستجوق Varna-Rustquk(٢٢٠ كيلومترًا)، وإزمير–أيدن (١٣٠ كيلومترًا)،ولم يكن هذا كافيًا للأراضي العثمانية الشاسعة، ومما زاد من تعقيد المشهد في تلك الفترة هو ارتفاع وتيرة حركات التمرد في ولايات البلقان، اضف الى ذلك تراجع إمكانيات الامبراطورية العثمانية فلم تكن قوية بما يكفي لقمعها، وصعوبة إرسال الجيش في الوقت المناسب، وكان من شأن خط سكة حديد أن يُسهّل نقل القوات، لذا اعتقد المسؤولون العثمانيون بأنهم سيستفيدون بشكل أكبر من أراضي البلقان الغنية –حال انشاء سكك حديدية– إذا يمكن نقل تجارة الإفلاق والبغدان عبر السكك الحديدية. وهذا من شأنه أيضًا أن يُدرّ دخلًا اضافياً للدولة ولهذا الغرض، أراد العثمانيون بناء سكك حديد روملي (Sezgner, 1937:4-5).

وكما هو الحال في المشاريع الأخرى، لم يكن لدى العثمانيين ما يكفي من المال والتكنولوجيا لهذا المشروع، فمنحوا امتيازات لبعض الشركات الأوروبية. في ٢٣ يناير ١٨٥٧، وقّع الباب العالي أول عقد مع عضو برلمان بريطاني يُدعى لابرو Labro لكن لابرو لم ينجح حتى في تأسيس شركة ولم يتمكن من الحصول على ضمانات الودائع اللازمة، لذلك أُلغي هذا العقد، ففي عام ١٨٦٠، وُقّع عقد آخر مع رجل أعمال بريطاني آخر الا انه أُلغي أيضًا، ومُنح امتياز آخر للأخوين فاندر إلست Vander Elst Brothers البلجيكيين عام ١٨٦٨. لكن الأخوين فاندر إلست أيضًا لم يتمكنوا من تنفيذ المشروع. أخيرًا، في ١٩ ديسمبر ١٨٦٨، أُرسل وزير النقل داوود باشا إلى أوروبا، ووقع عقدًا مع البارون موريس دي هيرش Baron Maurice de Hirsch ، الذي كان من بين المصرفيين البلجيكيين المقيمين في باريس، والذي قبل إدارة وتمويل قبل هذا المشروع من بعد مفاوضات استمرت لشهري شباط واذار، تم توقيع الاتفاقية في ١٧ أبريل/نيسان ١٨٦٩م،حيث كان من المقرر أن يبدأ خط السكة الحديد الذي سيتم بناؤه من العاصمة إسطنبول ليصل إلى النمسا، كان من المقرر منح امتياز هذا الخط الحديدي للبارون لمدة ٩٩ عامًا وضمانة كيلومترية بقيمة ١٤٠٠٠ فرنك، كما مُنحت العديد من الامتيازات الاضافية لصالح البارون هيرش ليصدَّق داود باشا على هذه الاتفاقية في ١١ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٦٩م (Vahdettin, 1993:61)وبموجب هذا المشروع، بنى البارون هيرش ١٢٧٩ كيلومترًا من السكك الحديدية. وكانت هذه الخطوط على النحو التالي: إسطنبول–إيدن Istanbul-Edine ٣١٩ كيلومترًا، إيدن–سانربي

Edine -Sarimbey ٢٤٣ كيلومترًا، دودجي–ايدن Edine - Dedeağaç وسيلانيك– ميتروفيك Mitroviqe-Selanik ١٤٩ كيلومترًا، ٣٦١ كم، وبانالوكا–نوفي Banaluka-Novi ١٠٢ كم،و ترنوفا–يانبلو Tirnova-Yanbolu ١٠٥ كم،و كان من المتوقع أن يبلغ طول المشروع ٢٠٠٠ كيلومتر من خطوط السكك الحديدية، لكن البارون هيرش بنى الجزء السهل فقط من خطوط السكك الحديدية والتي لم تزد من ٧٠٠ كيلو متر، لذا فقد حقق ارباح طائلة من هذه الاتفاقية واضطرت الامبراطورية العثمانية إلى دفع مبالغ كبيرة من المال لأصحاب الحق التجاري بعد أن تنازل البارون عن امتيازاته هذا، وفي النهاية تكبد العثمانيون خسائر فادحة وخطوط سكك حديد غير مكتملة وغير متصلة بخطوط السكك الحديدية الأوروبية، ولم يتحقق الهدف الرئيسي الذي رسمه المسؤولين العثمانيين، وهو الوصول إلى المدن الأوروبية بالسكك الحديدية (Bayraktaroğlu, 1995:29).

بعد هذا الفشل، أراد العثمانيون إكمال هذه المشاريع من موارد الدولة، ولهذا الغرض حاول المسؤولون العثمانيون الاقتراض من أسواق رأس المال الأوروبية، لذا وقعوا عقد دين مع البنك العثماني في عام ١٨٧٣ ولكن لم يكن من الممكن اتمامه بسبب الكساد الاقتصادي الطويل (١٨٧٣–١٨٩٦م) الذي ضرب سوق فيينا للاسهم والسندات و نتيجة لذلك لم يكن من الممكن إنهاء خطوط سكك حديد روملي حتى عام ١٨٧٥م وفي تلك الفترة أجرى العثمانيون عدة مقابلات مع العديد من الشركات لكنهم لم يتمكنوا من إتمام المشروع، ومما زاد في تراجع تلك المشاريع ثورة البلقان عام ١٨٧٥ والحرب العثمانية الصربية عام ١٨٧٦ والحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧–١٨٧٨) والنفقات العسكرية الكبيرة أيضًا، وبسبب الحروب المستمرة فقد تم التخلي عن المشروع بعد معاهدة برلين، في حين ادت اتفاقية مايو ١٨٨٣م، الى تخلي الحكومة العثمانية عن إنهاء الخطوط الغير مكتملة و المتبقية في أراضي الدول البلقانية قبل ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٨٦م،في حين تنازلت الدول البلقانية للحكومة العثمانية عن مسؤولية بيلوفا فاكاريل Bellova Vakarel ،حيث كانت فاكاريل نقطة نهائية على حدود روملي الشرقية على مسافة ٤٦ كيلومترًا من بيلوفا Bellova ،ليتم منح امتياز للبارون هيرش للتولى شركته مسؤولية اكمال خط سكة حديد من أوسكوب Uskub إلى زيبفتشي Zibeftche ،على الحدود الصربية،وقُدِّر طول هذا الخط بـ ٨٥ كيلومترًا ، ليبدا العمل به عام ١٨٨٥ وتم اكماله في عام ١٨٨٨، وتم افتُتاح خط سكة حديد أوسكوب–سالونيكUskub-Salonica ومن ثم إلى بلغراد، وتم وضع اللمسات الاخيرة لخط القسطنطينية–بيلوفا Constantinople - Bellova، ليصل بذلك هذا إلى بلغاريا

وصربيا. وبحلول عام ١٨٨٨تم تشغيل خط بطول ١٦٨٦ كيلومتر ليربط القسطنطينية بفيينا، الا ان المثير للدهشة أن البارون تنازل عن جميع خطوط السكك الحديدية المشمولة بامتيازه، سواءً المكتملة أوغير المكتملة، لبنك دويتشهDeueche Bank في١٧أبريل/نيسان١٨٩٠م –(Pressel, 1902: 52 53).

٤. خطوط السكك الحديدية التي بناها الألمان:-

خلال عهد عبد الحميد الثاني(١٨٧٦-١٩٠٩م)، كانت خطوط السكك الحديدية دائماً حاضرة على جدول الأعمال فقد كان الهدف الرئيسي لعبد الحميد الثاني هو تعزيز الاواصر الاسلامية بين أجزاء الإمبراطورية، اذ رأى أن خسارة أراضي البلقان المسيحية هي جزء من عملية تهدف الى التخلص من عبئ يثقل كاهل الامبراطورية، لذا لم يأخذ خسارة هذه الأراضي على محمل الجد، ووجه اهتمامه نحو أراضي الأناضول، لينظر إلى خطوط السكك الحديدية من هذا المنظور، وقرر تنفيذ مجموعة من خطوط السكك الحديد للأسباب المذكورة أعلاه(Mardin, 1973: 176).

لقد ذكر أوزيوكسال بانه: ((من المعروف أن المسؤولين العثمانيين يريدون بناء خط سكة حديد يعبر البلاد ليصل إلى بغداد، لأغراض عسكرية واقتصادية، أكد عبد الحميد على الجانب العسكري، وقال إن للسكك الحديدية أهمية استراتيجية كبيرة لأنها توفر النقل السريع لجنودنا، وبالتالي كانت ضرورية. لكن فشل مشروع سكك حديد روملي الحكومي أظهر الحاجة إلى رأس مال أجنبي لبناء السكك الحديدية. ومع ذلك، وسبب عدم ثقة عبد الحميد ببريطانيا وفرنسا فقد رفض الطلبات المقدمة من هاتين الدولتين،فقد اعتقد السلطان أن هؤلاء الخصوم يريدون استخدام السكك الحديدية كأداة لإنشاء مناطق نفوذ خاصة بهم)) (Özyüksel, 1988:62) .

ونتيجة لذلك تم منح مجموعة من امتيازات الخطوط الى الجانب الالماني يمكن ايرادها على النحو التالي:-

أ) خط سكة حديد إزميت-أنقرة: منح العثمانيون امتياز خط سكة حديد إزميت-أنقرة Izmit-Ankara للبنك الألماني الهولندي German Dutch Bank ، اذ يتكون هذا العقد من خط إزمير-إسكيشهير-أنقرة Izmir-Eskişehir-Ankara بطول ٤٨٦ كم، وقدم بنك دويتش لهذا المشروع ائتمانًا بقيمة ٣٠ مليون مارك بمعدل فائدة منخفض جدًا بنسبة ٥٪. بالإضافة إلى ذلك، مُنح امتياز خط حيدر باشا-إزميت Haydarpaşa-Izmit لبنك دويتشه مقابل ٦ ملايين فرنك، وكان الامتياز لمدة ٩٩ عامًا وكان

يجب الانتهاء من المشروع في غضون ثلاث سنوات. كما وافقت الحكومة العثمانية على دفع ضمان كيلومتري قدره ١٥,٠٠٠ فرنك للخط الجديد و١٠,٣٠٠ فرنك لخط حيدر باشا–إزميت لاسيما ان عوائد هذه الخطوط أقل من هذه المبالغ، فإن الحكومة العثمانية ملزمة بدفع الفرق، لذ تم عرض ايرادات سنجق إزميت–إرميول–كوتاهيا–أنقرة Izmit-Ermyul-Kütahya-Ankara كضمان. وكان مجلس "ادارة الدين العام العثماني " مسؤول عن تحصيل هذه الإيرادات. كما مُنحت الشركة امتياز التعدين وقطع الأشجار في نطاق ٢٠ كيلومترًا على جانبي خط السكة الحديدية (McCarthy, 1982:188).

ب) ادارة ألمانيا على ما تبقى من سكك حديد روملي: فقد اشترى دويتشه بنك أيضًا حصة أسهم سكك حديد إسطنبول–إديرن–فيليبوفل–بيلوفا Istanbul-Edirne-PhiIippovel-Bellova والتي بناها البارون هيرش على الأراضي الأوروبية للإمبراطورية. كان هذا مهمًا جدًا لدويتشه بنك، لأنه في ١٢ اب /أغسطس ١٨٨٨م، وصل قطار باريس–فيينا السريع إلى إسطنبول، وبعد ذلك ارتبطت عاصمة الإمبراطورية العثمانية بخطوط سكك حديدية مع مدن أوروبية رئيسية مثل فيينا وباريس وبرلين (Bayraktaroğlu, 1995:34).

لقد كان هذا التطورًا مشجعًا لدويتشه بنك لتوسيع خطوط السكك الحديدية في الأراضي الآسيوية للإمبراطورية، في ٢٨ تشرين الاول/أكتوبر ١٨٩٠، اشترى البنك أيضًا امتياز خط سيلانيك–مانستر Selanik–Manasur بطول ٢١٩ كيلومترًا ولمدة ٩٩ عامًا. وهكذا، حصلت ألمانيا، التي لم يكن لديها حتى كيلومتر واحد من خطوط السكك الحديدية في الأراضي العثمانية حتى عام ١٨٨٨، على امتياز ٢٠٠٠ كيلو متر من خطوط السكك الحديدية في عام ١٨٩٠م (Özyüksel, 1988:70)

ج) خط سكة حديد أسكيشهير–قونية Eskişehir- Konya : بعد اكتمال خط سكة حديد إزميت–أنقرة izmit-Ankara أراد العثمانيون مدّ هذا الخط إلى بغداد، وكان السلطان عبد الحميد الثاني يحثّ الألمان على تنفيذ هذا المشروع. لكن الألمان رفضوا لعدم جدواه الاقتصادية ، فقد كتب فون كولمان Von Kuhlmann ، المدير العام لشركة سكك حديد الأناضول، إلى راشداو Raschdau ، الذي كان مسؤولاً في وزارة الخارجية الألمانية، حيث كتب ما يلي:((سيتم إنشاء خط أنقرة بطول ٥٧٨ كيلومترًا بنهاية هذا العام، وفقًا للعقد المبرم. يحثنا السلطان الآن على بناء مشروعه الرائع المتمثل في خط سكة حديد بغداد. نجري حاليًا دراسات أولية للمنطقة، احترامًا للسلطان. كان التفكير في تمديد خط السكة الحديد إلى بغداد ضربًا من العبث. يجب على الشركة أن تتوخى الحذر قبل اتخاذ قرار –بشأن– بناء مثل هذا المشروع، إذا كانت لا تريد تضليل الرأي العام... وقد رأيتُ فائدة في بناء خط أنقرة–قيصري

Ankara-Kayseriبطول ٤٠٠ كيلومتر، وخط أسكيشهير–كوتاهيا–قونية Eskişhir-Kütahya-Konya بطول ٤١٠ كيلومترات، إذا أردنا الحفاظ على مكانتنا)) (McCarthy, 1982:188-189).

د) مشروع سكة حديد حجاز،وهو من المشاريع التي وُضعت وفقًا لسياسات السلطان عبد الحميد الثاني الإسلامية عام ١٩٠٠م، اذ سعى الاخير إلى حشد دعم جميع مسلمي العالم لإنجاح هذا المشروع الديني،من خلال ربط دمشق بالمدينة المنورة ومن ثم مكة المكرمة، ونجح في جمع رأس مال كبير لهذا المشروع من خلال التبرعات، وشيد خط سكة حديد بين دمشق ومكة المكرمة بطول ١٣٢٠ كيلومترًا. كان مشروعًا بالغ الأهمية، إذ نفذه مهندسون عثمانيون بمساعدة المانية من حيث الخبرة والدعم الفني و برأس مال كبير، واكتمل بناؤه عام ١٩١٤م (الجبوري، ٢٠٠٣: ٧٦–٨٥).

ان هذه الرسالة توضح توجهات شركة سكك حديد الأناضول تجاه المشروع في تلك الفترة، مع ان اغلب الدول الأوروبية الأخرى كانت تطالب بامتيازات متزايدة من الإمبراطورية العثمانية ، ففي عام ١٨٩١، أرادت مجموعة بلجيكية فرنسية الحصول على امتياز خط سكة حديد بين سامسون –إسكندرونة Iskenderun –Samsun ، لكن عبد الحميد الثاني رفض ذلك لأنه اعتقد أنه سيسهل الهجوم الروسي على المناطق الداخلية من الأناضول. وفي عام ١٨٩١ أيضًا، قدم المقاول البريطاني يدعى ستانيفورث Staniforth اقتراحًا يمكن أن ينافس مشروع شركة سكة حديد الأناضول. وقد حظي بدعم السفير البريطاني في إسطنبول، وكان هذا مشروع سكة حديد يبدأ من إيريجلي Eregli ويذهب إلى بغداد عبر أنقرة الا انه قوبل بالرفض أيضا، (Bayraktaroğlu, 1995:36) ،كما أرادت مجموعة فرنسية الحصول على امتياز خط سكة حديد إسطنبول–كوتاهيا–قونية Iskişehir-Kütahya-Konya ومع ذلك،فقد أراد عبد الحميد الثاني العمل مع الألمان وفقًا لمشروع إسطنبول–بغداد الا انه وفي عام ١٨٩٢،مارست هذه الدول الأوروبية المزيد من الضغوط و وقدمت اقتراحات على عبد الحميد الثاني منها ان خط سكة حديد إسطنبول–بغداد خال من أي ضمانات كيلومترية، ووفقًا للألمان، لم تكن تلك الاقتراحات صادقة، بل كانت تهدف إلى وقف النفوذ الألماني في الدولة العثمانية،فقد أبلغ السفير البريطاني في إسطنبول الباب العالي وبشكل رسمي بأن منح امتياز خط سكة حديد قونية لدويتشه بنك، سيضر بالمصالح البريطانية في المنطقة. كان خط سكة حديد أسكيشهير–قونية يمر من المناطق الداخلية لخط إزمير–أيدن وخط مناستير–قصبة، وبالتالي فإنها ستفقد نفوذها في المنطقة (Çavdar, 1970:125-126) .

على الرغم من كل هذه الضغوط، لم يغير عبد الحميد الثاني رأيه وحاول إيجاد حلول للمشكلة مع الألمان، فإلى جانب الضغط البريطاني، دعمت ألمانيا إظهاره عدم تفهمه لسياسات بريطانيا تجاه مصر، ونتيجة هذ الدعم وقّعت الحكومة العثمانية في ١٥ شباط/فبراي ١٨٩٣م عقدًا مع شركة سكك حديد الأناضول لامتياز خطي أنقرة–قيصري وأسكيشهير–قونية وبموجب هذا العقد قُبل ضمان بقيمة ١٣٨٠٠ فرنك للكيلومتر الواحد، وعُرضت عائدات (ضريبة الأعشار) طرابزون وغوموهانة Gümühane كضمان (Özyüksel, 1988 :87-88)

لقد شهدت الفترة ما بين عامي ١٨٩٣ و١٩٠٣ مناورات سياسية لبريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا، فقد عارضت بريطانيا وفرنسا وروسيا تزايد النفوذ الألماني في الإمبراطورية، وتماشيًا مع سياستها الخارجية لم ترغب روسيا في وجود إمبراطورية عثمانية قوية، في حين كان البريطانيون متمسكين بشدة بخط السكة الحديد بين البصرة وبغداد، نظرًا لأهميته البالغة لسيطرتهم على الهند، كما سعت فرنسا جاهدةً إلى تحقيق مصالحها في أراضي الأناضول، وحصلت روسيا على امتياز من الإمبراطورية لبناء خطوط سكك حديدية في الأجزاء الشمالية من الأناضول، ولم يقبل البريطانيون أبدًا أي اتفاق مع الألمان ما لم يتضمن الحفاظ على مناطق نفوذهم التي تؤمن طريق الهند وظل توقيع عقد سكة حديد بغداد معلقًا لكن الألمان اتفقوا مع الحكومة العثمانية على توقيع اتفاقية أولية عام ١٨٩٩م ولتوقيع العقد الرئيسي، عمد الألمان إلى إنشاء شراكة مع بعض المصرفيين البريطانيين لتمرير الاتفاقية، لكن الحكومة البريطانية رفضت التوقيع عليها، الا انه في نهاية عام ١٩٠٢، وقع الألمان العقد الرئيسي (Çavdar, 1970:123).

لقد حمل امتياز سكة حديد بغداد شروطًا مجزية وسخية لكل الاطراف عدا الامبراطورية العثمانية، فقد بلغت الضمانات ١٥,٥٠٠ فرنك سنويًا للكيلومتر، كان من المقرر أن يتم تمويل هذا المبلغ من الباب العالي مما يمنح الشركة سندات حكومية بفائدة ٤% قابلة للاسترداد خلال فترة الامتياز، بالإضافة إلى ذلك تعهدت الحكومة العثمانية بتوفير صندوق استهلاك بمعدل ٠,٠٨٧٥%، وتم تخصيص المبلغ المتبقي وهو ٤٥٠٠ فرنك للكيلومتر لنفقات التشغيل، وكانت الإيرادات الكيلومترية الإجمالية هي الأجر المقدر على التكاليف، فقد تم وضع صيغة يتم بموجبها تقاسم الفائض بين الأطراف المعنية. وبالإضافة إلى ذلك، كان من المقرر تخصيص إيرادات المناطق التي تم عبورها لخدمة الديون، ووضعها تحت إشراف إدارة الدين العام العثماني (Bayraktaroğlu, 1995:39).

٥-العلاقة الفرنسية مع الإمبراطورية العثمانية واثرها على سكك الحديد:-

في بناء السكك الحديدية لا بد من ذكر مشاريع السكك الحديدية التي نفذتها الشركات الفرنسية، اذ بدأ اهتمام فرنسا بالسكك الحديدية في الأراضي العثمانية بشكل رئيسي في الربع الاخير من القرن التاسع عشر في مقدمتها مشروع سكة حديد مودانيا-بورصة الذي دشنه مقاولين فرنسيين اثنين وهما لابورت Laporte وماربيل Miribel لاكمال خط السكة التي تم العمل بها سنة ١٨٧٣م من مودانيا على بحر مرمرة الى بورصة ليتم العمل من بعدهما جورج ناجيلماكرز Georges Nagelmackers (١٨٤٥-١٩٠٥) (IRPS, 2015) بعد ان اشترى المقاولة منهما وهو مالك شركة جوان ليتس الفرنسية مع امتياز لمدة ٩٩عام لتمديد وتشغيل هذا الخط ليصل منطقة جتلي Citli. وقام بتأسيس شركة سكة حديد مودانيا-بورصة العثمانية، ودخلت هذه الشركة حيز العمل ١٨٩٢م (الجبوري، ٢٠٢١: ٥٤٢-٥٤٣) اما خطوط السكك الحديدية الاخرى فقد تركزت في بلاد الشام أواخر القرن التاسع عشر، حيث مُنح امتياز خاص لأحد الرعايا العثمانيين ليتنازل عنه لشركة فرنسية تأسست عام ١٨٨٩. وأنشأت هذه الشركة خطًا بين يافا والقدس لمسافة ٨٧ كيلومترًا وأضافت خطوطًا فرعية إلى غزة لمسافة ٧٥ كيلومترًا وإلى نابلس لمسافة ٥٠ كيلومترًا ليكتمل العمل به عام ١٨٩٢م (Pilling,1892:5-6).

لقد مُنح امتياز آخر للبناني والذي تنازل عن حقوقه لشركة فرنسية قامت في نهاية المطاف ببناء وتشغيل خط السكة الحديد بين دمشق وحمص وحلب ، وأصبحت الشركة الفرنسية فيما بعد الشركة العثمانية لسكك حديد دمشق وحماة وامتدادها وعرفت بالاختصار (D.H.P) حيث قامت ببناء خط سكة حديد ضيق للغاية بطول ٩٧ كم، بعرض ١,٠٥ متر، يربط بين دمشق ومزارب في حوران، وافتُتح عام ١٨٩٤م، تولت الشركة نفسها مسؤولية إنشاء خط دمشق-بيروت دون أي ضمانات كيلومترية، حيث بلغت المسافة المقطوعة ١٤٥ كيلومترًا، وبدأ تشغيله عام ١٨٩٥م، وفي عام ١٩٠٢، افتُتح خط سكة حديد قياسي الى بلدة رياق متفرع من خط بيروت-دمشق الضيق، ثم الى حماة على بُعد ١٨٢ كيلومترًا، وبعد أربع سنوات مُد الخط إلى حلب، على بُعد ١٣٧ كيلومترًا أخرى. وفي عام ١٩٠٩، أُنشئ خط سكة حديد قياسي بطول ٩٧ كيلومترًا بين ميناء طرابلس وحمص، الواقعة على خط رياق-حلب،وما ان حلت الحرب العالمية الاولى حتى كانت شركة السكك الحديدية السورية (D.H.P) مسؤولة عن إدارة كل كيلو ضمن شبكة سكك حديدية تربط المدن الرئيسية في سوريا بالمناطق الساحلية المحيطة (الجبوري، ٢٠٢١: ٥٤٤-٥٤٥)

لقد مُنح مُطورون فرنسيون آخرون امتيازًا لمد خط سكة حديد عام ١٩٠٨ لربط ميناء خوليدا على البحر الأحمر بصنعاء، وكان الغرض من هذا الامتياز هو الافادة من التجارة مع عدن ضمن الأراضي العثمانية، الا ان هذا الامتياز لم يرى النور على ارض الواقع، واستمر منح امتيازات مهمة للمطورين الفرنسيين حتى أواخر نيسان/أبريل ١٩١٤، وكانت معظمها لإنشاء شبكة في شمال الأناضول وأرمينيا. وكانت هذه المنح مشروطة بتلقي مساعدة مالية فرنسية كانت الدولة العثمانية في أمسّ الحاجة إليها. ووفقًا لفرنسا، كان لا بد من إنشاء خط الشام–حلب وربطه بخط سكة حديد بغداد، بالإضافة إلى خط سكة حديد بيروت–الشام وفي الوقت نفسه، كان من المقرر ربط هذا الخط بالبحر الأبيض المتوسط، وكانت هناك أيضًا مشاريع للسيطرة على خليج البصرة من خلال ربط سككي مع أحد الموانئ في سوريا ضمن المشاريع التوسعية الفرنسية في الفترة الممهدة للحرب العالمية الأولى (Bayraktaroğlu, 1995:41) .

٦– الفترة الدستورية الثانية:–

اتسمت هذه الفترة بشكل رئيسي بتحول كبير في السياسة الخارجية العثمانية. فبفضل أفكارها الليبرالية، وجّهت حركة الشباب الأتراك انتباهها نحو بريطانيا وفرنسا، اللتين كانتا دولتين أكثر ليبرالية مقارنةً بألمانيا، وهكذا فبين عامي ١٩٠٨ و١٩١٠، فقد الألمان نفوذهم على الحكومة العثمانية الجديدة، في هذه الفترة تعرّضت الاتفاقية الموقعة مع عبد الحميد الثاني الى انتقادات شديدة الا ان المواقف الألمانية الإيجابية تجاه الدولة العثمانية والمواقف السلبية لبريطانيا وفرنسا ازدادت تبعية العثمانيين اقتصاديًا وماليًا لألمانيا، وأصبحت الحاجة إلى الاقتراض الخارجي أمرًا لا مفر منه، وفي عام ١٩١٠، منحت ألمانيا الإمبراطورية العثمانية قرضًا بالغ الأهمية وهو ما رفضته كل من بريطانيا وفرنسا. وهكذا، عاد العثمانيون إلى الاتفاق مع ألمانيا، وفي عام ١٩١١، وقّعوا اتفاقية جديدة معها و في ظل هذه البيئة تطور بناء السكك الحديدية بسرعة، فحتى الحرب العالمية الأولى، أُنجز ٨٨٧ مشروعًا منها خط قونية–بلغورلو، وهذه الخطوط هي: بلغورلو–أولوكشلا Bulgurlu-Ulukşla (٣٨ كم)، دوراك–ينيجي Dorak-Yenice (١٨ كم)، ينيجي–ماموري Yenice-Mamure (٩٧ كم)، رادني–حلب–طرابلس Radni-Halep-Trabluspm(٢٠٣ كم)، أولوك–كارابمار Karapmar Ulukşla– (٥٣ كم)، توبراكالي–إسكندرون Toprakkale-iskenderun (٥٩ كم)، بغداد–سوميك Baghdad-Sumike (٦٢ كم)، طرابلس–تل أبيض Trabluspm-Tel Ebiad(١٠٠ كم)، سوميك–تقابولات Sumike-

tqabolat (٥٧ كم)، إنبولات–سامراء inbolat-Samarra (٥٧ كم) ،في عام ١٩١٤، توصلت ألمانيا إلى اتفاقية مع بريطانيا، لكنها لم تتمكن من توقيعها بسبب الحرب العالمية الاولى في نهايتها ووفقًا لهدنة موندروس، سُلّمت خطوط سكك حديد قونية – أضنة – حلب – نصيبين إلى فرنسا، وسُلّمت خطوط سكك حديدية إلى بريطانيا. وفي ظل هذه الظروف، اندلعت حرب الاستقلال عام ١٩١٩ (Çavdar, 1970:232-238).

٧- محاولات الأمريكيين: مشروع جيستر Chestar Project

كان مشروع جيستر أول محاولة أمريكية في الشرق الأوسط، حيث تتركز على بناء خطوط سكك حديدية بطول ٤٨٠٠ كيلومتر في شرق الأناضول، ووفقًا للمشروع كان من المقرر أن يمر خط السكة الحديد عبر سيواس، وخربوط، وإرغاني، والموصل، وكركوك، والسليمانية، مع ثلاثة فروع إلى سامسون، وحلب، وفان (السوداني، ٢٠٠٢: 98–78)، كان الجانب المهم في المشروع هو تمويله، فلم يُطلب أي ضمانات كيلومترية، وكان من المقرر بناء الخط بأكمله مقابل امتيازات التعدين ضمن مسافة ٤٠ كيلومترًا ضمن المنطقة المحيطة بمسار السكة الحديدية (السوداني، ٢٠٠٢:343) هذا يعني أن مجموعة جيستر ستسيطر على الموارد الوطنية لحوالي ١٧٠ ألف كيلومتر مربع من الأراضي العثمانية ، وكان قائد المشروع أميرالًا أمريكيًا يدعى كولبي جيستر Colby Chestar جمع العديد من رجال الأعمال الأمريكيين البارزين تحت مظلة شركة عُرفت باسم "الشركة العثمانية الأمريكية للتنمية" (O.A.D.C) (السوداني، ٢٠٠٢: 85) كما دعمت الحكومة الأمريكية هذا المشروع لما كان عليه نفط الموصل وكركوك من أهمية بالغة بالنسبة لها. وبالمثل، نظرت الحكومة العثمانية إلى المشروع بإيجابية، إذ رأت أنه يمكن استخدام رأس المال الأمريكي كقوة موازنة بين المستثمرين الأجانب الآخرين في البلاد. ومع ذلك، عارضت معظم الدول الغربية، مثل بريطانيا وألمانيا، هذا المشروع لتعارضه مع مصالحها في المنطقة (نوشي، ١٩٧١: ٣٣) إضافةً إلى ذلك، أخافت الحروب المستمرة في الإمبراطورية الشركاء داخل الشركة، مما أدى إلى إلغاء المشروع عام ١٩١١م (السوداني، ٢٠٠٢: ٩٢)

-اثر قطاع سكك الحديد على الاقتصاد العثماني:-

كانت الأهداف الاقتصادية توازي في اهميتها الأهداف السياسية، والهم الاكبر في هذه الفترة هو دمج المراكز الاقتصادية العثمانية في مراكز أوروبا، وكانت أول دولة مؤثرة في تلك الفترة هي بريطانيا ،نظراً لما تملكه من منظومة صناعية متقدمة لاسيما في مجال سكك الحديد، ومن ناحية أخرى، كان

العثمانيون غير موفقين في ادارة هكذا ملف، حيث كانوا يهدفون إلى ترسيخ السيطرة الاقتصادية والسياسية في المنطقة دون الاخذ بالأسباب المادية الموصلة الى هكذا هدف (Bayraktaroğlu, 1995:44) وفي هذه الفترة دخلت الإمبريالية للرأسمالية اوج مراحلها، ففي هذه الفترة أي منذ منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر وحتى العقد الثاني من القرن العشرين، حدثت منافسة شديدة بين فرنسا وبريطانيا وروسيا وألمانيا.-باستثناء الأعوام من ١٩٠٨ إلى ١٩١٠- ليكون النفوذ الألماني هو الغالب، فقد بنت ألمانيا خطوط السكك الحديدية في الأناضول ومناطق اخرى، من الجانب العثماني، كانت هناك مشكلتان رئيسيتان. الأولى هي صعوبة إيجاد رأس المال اللازم، والثانية هي نقص المعرفة التقنية، ولهذه الأسباب، اضطرت الإمبراطورية العثمانية إلى تقديم تنازلات للشركات الأجنبية، مثل الضمان الكيلومتري (Vahdettin, 1993:38) على سبيل المثال، حتى عام ١٩١١ دفعت الدولة العثمانية ٤,٠٨٠,٠٠٠ ليرة ذهبية لشركة سكة حديد الأناضول كتعويضات كيلومترية عن سكة حديد الأناضول (Bayraktaroğlu, 1995:44) .

ونتيجةً لمشروع بناء السكك الحديدية، ازدادت الاحتياجات المالية للحكومة العثمانية بعد عام ١٨٥٦م، لذا دفعت الإمبراطورية العثمانية الضمانات من الخزانة العامة مما زاد ديونها تدريجيًا لاسيما أنها كانت تخطط لزيادة إيرادات الدولة عن طريق السكك الحديدية. ونتيجةً لذلك، اقترضت الإمبراطورية العثمانية من الدول الغربية لسداد نفقات السكك الحديدية، وقد أدى هذا الارتفاع في القروض إلى المزيد من التنازلات التي قدمتها الدولة العثمانية، وفي النهاية بدأت تفقد السيطرة على دخلها، وتزايدت السيطرة المالية الأجنبية، مما جعلها تعتمد أكثر فأكثر على الغرب(Noviçev, 1979:83).

في البداية اتضح أن السكك الحديدية مفيدة لاقتصاد البلاد، إذ كان من شأن إنشائها أن يُحفّز تطوير العلاقات بين السلع والمال والنتيجةً تطور اقتصاد البلاد وارتفاع إيرادات الحكومة، وهذا ما تحقق في بعض المناطق جزئيًا. فبينما بلغ دخل العشور في مجمل السناجق ١١,٢٦٨,٠٠٠ ليرة عام ١٩٠٣، ارتفع إلى ١١٤,٧١٦,٠٠٠ ليرة عام ١٩٠٩. ومع ذلك، مُنح الجزء الأكبر من دخل العشور كضمانات كيلومترية. لذا لم تتمكن الحكومة العثمانية من الاستفادة منه (Bayraktaroğlu, 1995:46).

لقد استمرت الأحداث على نفس المنوال مما أدى إلى إفلاس الدولة العثمانية، في الأول من نوفمبر ١٩١٤، بلغت الديون الخارجية للإمبراطورية العثمانية ١٥٢,٢٦٥,٩١٥ ليرة، في حين بلغ الاستثمار الأجنبي في الأنشطة الاقتصادية حوالي ٦٣,٤٤٤,٠٠٠ فرنك، استُخدم منها ٣٩,١٦٣,٠٠٠

فرنك في السكك الحديدية. وبهذه الطريقة، وسّعت القوى الأجنبية (إنجلترا وفرنسا وألمانيا) دورها الاقتصادي والسياسي في سياسة الاستعمار الاقتصادي، فمنذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، شهدت الصناعة المحلية تراجعًا كبيرًا في معظم القطاعات، بسبب انخفاض الضرائب الجمركية المفروضة على السلع المصنعة في الغرب المستوردة والمواد الخام المصدرة من الامبراطورية العثمانية وكان لبناء السكك الحديدية العثمانية دور كبير في هذا الحدث، وجعل الدولة العثمانية أكثر اعتمادًا على الخارج (Bayraktaroğlu, 1995:47).

الخاتمة

١- لقد غيّرت التطورات الاجتماعية والاقتصادية والتقنية التي شهدتها أوروبا العالم باسره، فقد انهار النظام الاقتصادي والاجتماعي القديم المعروف بالإقطاع، وحلّت محله الرأسمالية، وأدت التقنيات المتطورة إلى العديد من الابتكارات، اذ أنهى اختراع المحرك البخاري المرحلة الأولى من عملية الرسملة، وهي الميركانتلية Mercantilism ،ومنذ ذلك الحين، شهدنا طفرة في حجم الإنتاج غيّرت أنماط الإنتاج وسُمّي هذا التطور بالثورة الصناعية، وعُرفت تلك الفترة بالرأسمالية الصناعية، اذ جلبت زيادة الإنتاج مطالب واحتياجات جديدة، ويمكن تلخيص هذه الاحتياجات في البحث عن أسواق جديدة لبيع فائض الإنتاج، وظهور الحاجة الى مصادر جديدة للمواد الخام لدعم الصناعة الناشئة، وقد برزت نتائج لهذه المطالب وهي مشكلة النقل.

٢-لقد كان الحل في تطور النقل البحري والملاحة جزءًا من المشكلة، نظرًا لرخص تكلفته وقلة تكلفته، اذ أمكن نقل كميات كبيرة من البضائع بتكاليف منخفضة، حيث ربطت السفن موانئ العالم البعيدة، الا ان المشكلة بقيت في أنظمة النقل التي تربط هذه الموانئ بمناطقها الداخلية والتي لم تستطع تلبية الاحتياجات المتزايدة، فحتى بداية القرن التاسع عشر، اعتمد النقل البري بشكل رئيس على عربات الخيول وقوافل الجمال والقنوات المائية، فقد كانت هذه الطرق مكلفة، وكانت كمية البضائع المنقولة في تلك الفترة قليلة جدًا.

٣-ان اختراع أول قاطرة عام ١٨٢٦م تعتبر نقلة في ظل وسائل النقل التقليدية، فأصبح النقل يتم بواسطة عربات تجرها قاطرة على خطوط السكك الحديدية، وكان هذا تطور مهم للغاية لأنه وفر نقل البضائع والركاب بتكلفة منخفضة للغاية مقارنة بعربات الخيول وقوافل الجمال، لذا تطور بسرعة، وتم استثمار رأس المال الغربي في مشاريع السكك الحديدية، وانشات آلاف الكيلومترات من السكك الحديدية الجديدة كل عام، بحلول عام ١٨٥٢، كانت السكك الحديدية تربط مراكز الإنتاج والأسواق الأوروبية الرئيسة ببعضها البعض. ومع ذلك، زادت احتياجات الصناعة الأوروبية بالتوازي مع زيادة كمية الإنتاج الى إيجاد أسواق جديدة لبيع منتجاتهم والاستيلاء على مصادر للمواد الخام الرخيصة، كانت هذه موجودة في الدول غير المتحضرة أو ما قبل الرأسمالية، ولكن مشكلة النقل كانت موجودة أيضًا في هذه البلدان، لذلك، أصبح بناء خطوط السكك الحديدية في هذه البلدان على جدول الأعمال وبدأ الرأسماليون الأوروبيون في استثمار أموالهم في هذه البلدان.

٤–في تلك الفترة، كانت فكرة التجارة الحرة مهيمنة على النظام الاقتصادي العالمي، ووقعت الدول الغربية العديد من اتفاقيات التجارة لتسهيل التجارة وإلغاء التعريفات الجمركية. وقعت الإمبراطورية العثمانية أولاً اتفاقية تجارة حرة مع البريطانيين عام ١٨٣٨، تلتها سلسلة من الاتفاقيات الموقعة مع الدول الغربية الأخرى. كان هذا هو السياق العام لبداية بناء السكك الحديدية في الإمبراطورية العثمانية، جاء أول عرض لبناء خط سكة حديد على الأراضي العثمانية من الرأسماليين البريطانيين عام ١٨٥٦م، فقد أرادوا بناء خط سكة حديد بين إلاسكندرية والقاهرة بهدف تقصير الطريق المؤدي الى الهند، تم بناء هذا الخط واكتمل عام ١٨٥٦ وظل مهمًا حتى افتتاح قناة السويس. الاسكندرية–القاهرة، وإزمير–أيدن، و إزمير–قصبة، كوستنجه – تشارنفدا (Köstence -Çernovada)على البحر الاسود، وفارنا–روستجوق (ضمن بلغاريا حاليا)، والذي كان يهدف إلى الجمع بين النقل على نهر الدانوب والموانئ على ساحل البحر الأسود. شُيّد أول مشروع سكة حديدية في أراضي الأناضول، وهو خط إزمير–أيدن، بين عامي ١٨٥٧ و١٨٩٠. وتبعه خط إزمير–كاسابا، واكتمل عام ١٨٦٦.

٥– كان الهدف من تنفيذ هذه المشاريع ربط مراكز الإنتاج الزراعي الرئيسة في غرب الأناضول بميناء إزمير، مما وفّر اتصالاً بين المراكز الغربية وأسواق الأناضول. لم يُبنَ أيٌّ من هذه الخطوط دون صعوبات تجارية، وقد نُفِّذت هذه المشاريع بشكل رئيسي برأس مال بريطاني بدعم من الحكومة البريطانية. لذا، يُمكننا الحديث عن النفوذ البريطاني على السكك الحديدية العثمانية بين عامي ١٨٥٦ و١٨٨٠. كانت هذه هي المرحلة الأولى من الرأسمالية الصناعية حيث كانت أنشطة التجارة الحرة مهمة.

٦–أرادت الدول الأوروبية تنظيم الاقتصاد العالمي بمركز ومحيط حيث ستكون هي المركز وتنتج السلع الصناعية؛ ستنتج الدول الطرفية المواد الخام والمنتجات الزراعية وفقًا لتقسيم العمل هذا بين الدول. استمرت هذه الفترة حتى ثمانينيات القرن التاسع عشر عندما بدأت الفترة الثانية المعروفة باسم الرأسمالية الإمبريالية.

٧– كان لدى الإداريين العثمانيين أيضًا اهتمام كبير ببناء خطوط السكك الحديدية في البلاد، وهناك أسباب عديدة لهذا الاهتمام، ولكن تصب بشكل رئيسي على الأهداف الاقتصادية والسياسية والعسكرية، اذ أرادوا تعزيز الاقتصاد العثماني ورأوا الحاجة إلى وسائل نقل فعالة.

٨- يمكن رؤية فائدة السكك الحديدية على الاقتصاد العثماني بوضوح في تلك الفترة، فكما ضعفت سلطة الحكومة بسبب التمردات في جميع أنحاء الإمبراطورية، يعتبر وجود السكك الحديدية يمكن أن يساعد في الحفاظ على الوحدة السياسية ووقف عملية التفكك. كانت السكك الحديدية مفيدة للغاية للأغراض العسكرية، إذ كانت تُسهّل نقل القوات بين الأجزاء البعيدة من الإمبراطورية. ولذلك، قرر المسؤولون العثمانيون إنشاء خطوط سكك حديدية في الإمبراطورية.

٩- واجه العثمانيون مشكلتين رئيستين، هما نقص رأس المال اللازم ونقص التكنولوجيا اللازمة، ونتيجة لذلك، قرروا توفير أنواع مختلفة من امتيازات للشركات الغربية مقابل خطوط السكك الحديدية التي ستنشئها. كانت هذه الامتيازات مهمة للغاية وتتكون من ضمانات كيلومترية وضمان الفائدة لرؤوس الأموال المستثمرة وإدارة المناجم على طريق السكك الحديدية.

١٠- جلبت كل هذه الامتيازات عبئًا كبيرًا على الميزانية العثمانية التي كانت تعاني من صعوبات شديدة. بعد عام ١٨٥٠، تدفقت رؤوس الأموال الأجنبية إلى الإمبراطورية العثمانية. يمكن تقسيم رأس المال هذا إلى مجموعتين. الأولى كانت تقدم القروض للحكومة العثمانية والثانية كانت الاستثمارات الأجنبية المباشرة. شكلت السكك الحديدية أهم شكل من أشكال هذه الاستثمارات المباشرة. وكان تصدير رأس المال إلى الدول النامية بمثابة أداة لممارسة النفوذ السياسي على الدول من قبل الدول الغربية، ومع ذلك أرادوا بناء خطوط السكك الحديدية على الرغم من التكلفة واوضح مثال سكة حديد روملي.

١١-وُقِّعت الإمبراطورية العثمانية اتفاقيات عديدة مع دول أوروبية مختلفة، لكن لم يُكتب لبعضها النجاح وفي النهاية، عُقدت اتفاقية مع الرأسمالي البارون هيرش، ورغم إنشائه ٢٠٠٠ كيلومتر من السكك الحديدية، إلا أن هذا المشروع انتهى بالفشل، إذ لم يربط الخطوط ببعضها، لأن الوصلات كانت الجزء الأكثر تكلفة.

١٢- أولى العثمانيون أهمية كبيرة لهذا المشروع، ظنًّا منهم أنه سيمنع تنامي التمردات القومية في البلقان، وسيربط العاصمة العثمانية بالمدن الأوروبية الكبرى. لكن المشروع لم يُكتمل، وأصبح دليلاً على فشل محاولات الدول في بناء السكك الحديدية.

١٣-في تلك الفترة، تدهور الوضع المالي في الإمبراطورية، ولم يكن المستقبل السياسي واضحًا تمامًا، مما دفع المستثمرين الأجانب إلى التردد في استثمار أموالهم في الإمبراطورية. استمر هذا الوضع حتى

إنشاء مؤسسة "ادارة الدين العام العثماني". فقد ضمنت هذه المؤسسة دفع الضمانات الكيلومترية وغيرها من الضمانات للشركات المتعثرة، حيث سيطرت على مصادر الدخل الرئيسة للدولة.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر العربية:-

١. البستاني، سليمان. (٢٠١٩). عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

٢. الجبوري، طالب عبدالغني. (٢٠٠٣). مشروع سكة حديد الحجاز.(رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة الموصل، كلية التربية.

٣. الجبوري، عماد حمد صالح. (٢٠٢١). تطور المصالح الاقتصادية الفرنسية في الإمبراطورية العثمانية (١٨٥١–١٨٧٠). مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، ١٦.(١).

٤. الجبوري، عماد حمد صالح. (٢٠٢١). تطور المصالح الاقتصادية الفرنسية في الإمبراطورية العثمانية (١٨٧٠–١٩١٤). مجلة التربية للعلوم الإنسانية، ١. (العدد الخاص).

٥. السوداني، هشام سوادي هاشم . (٢٠٠٢). العلاقات الأمريكية العثمانية ١٩٠٨–١٩٢٠: دراسة تاريخية (أطروحة دكتوراه غير منشورة). جامعة الموصل، كلية التربية.

٦. الوائلي، طاهر يوسف. (١٩٩٩). إدارة الدين العام العثماني ١٨٨١–١٩٢٨م (أطروحة دكتوراه غير منشورة). جامعة الكوفة، كلية الآداب.

٧. بالمر. الان (١٩٩٢). موسوعة التاريخ الحديث (١٧٨٩–١٩٤٥). (ج. ٢). دار المأمون.

٨. نوشي، أندريه. (١٩٧١). الصراعات البترولية في الشرق الأوسط (أ. محفل، مترجم). دار الطليعة للطباعة والنشر.

ثانيًا: المصادر الأجنبية:-

1-Ahmed, A. M. T. K. (2023). The Ottoman measures to prevent attacks on the Hejaz Railway, 1908–1911: The Ottoman archives as a source. *Al-Jami'ah: Journal of Islamic Studies, 61*(1), 239–266

2-Armaoğlu, F. (1991). *20. yüzyıl siyasi tarihi (1914–1990).* Timaş Yayınları

3-Bayraktaroğlu, S. (1995). *Development of railways in the Ottoman Empire and .Turkey* (Unpublished master's thesis). Boğaziçi University

4-Çadırcı, M. (1991). *Tanzimat döneminde Anadolu kentleri'nin sosyal ve ekonomik .yapıları*. Türk Tarih Kurumu Basımevi

5-Çavdar, T. (1970). *Osmanlıların yarı-sömürge oluşu*. Ant Yayınları

6-Earle, E. M. (1923). *Turkey, the Great Powers, and the Bagdad Railway*. Macmillan

7-Ergün, İ. (1985). *Türkiye'nin ekonomik kalkınmasında ulaştırma sektörü*. Hacettepe .Üniversitesi İktisat ve İdari Bilimler Fakültesi

8-Ferit, M. (1934). Mecmuamız demiryollarımız büyük bayramımız. *Demiryolları .Dergisi*, (10), 45

9-Heper, M. (1980). Center and periphery in the Ottoman Empire: With special reference to the nineteenth century. *International Political Science Review

10-Karkar, Y. N. (1972). *Railway development in the Ottoman Empire, 1856–1914*. Vantage Press.

11-Karpat, K. H. (1972). The transformation of the Ottoman state, 1789–1908. ,International Journal of Middle East Studies, 3

12-Kurmuş, O. (1974). *The role of British capital in the economic development of Western Anatolia, 1850–1913* (Doctoral dissertation). School of Oriental and African .Studies, University of London

13-Kurmuş, O. (2018). *Emperyalizmin Türkiye'ye girişi*. Yordam Kitap

14-Lewis, B. (1961). *The emergence of modern Turkey*. Oxford University Press.

15-Mardin, Ş. (1973). Center–periphery relations: A key to Turkish politics? *Daedalus, .102*(1).

16-McCarthy, J. (1982). Review of *The Economic History of Turkey, 1800–1914*, by .*C. Issawi. *International Journal of Middle East Studies

17-Noviçev, A. D. (1979). *Osmanlı İmparatorluğu'nun yarı sömürgeleştirilmesi* (N. .Dincer, Trans.). Onur Yayınları

18-Owen, R. (1981). *The Middle East in the world economy, 1800–1914*. Methuen

19-Özyüksel, M. (1988). *Osmanlı-Alman ilişkilerinin gelişim sürecinde Anadolu ve .*Bağdat demiryolları

20-Pamuk, Ş. (1987). *The Ottoman Empire and European capitalism, 1820–1913: Trade, investment and production*. Cambridge University Press.

21-Pilling, J. R. (1892). *The Syria Ottoman Railway Company*. London

22-Pressel, W. (1902). *Les chemins de fer en Turquie d'Asie*. Orell Füssli

23-Rathmann, L., Zarakolu, R., & Luxemburg, R. (1982). *Berlin-Bağdat: Alman *emperyalizminin Türkiye'ye girişi

24-Sezener, M. (1937). Şark demiryolları tarihi. *Demiryolları Dergisi

25-Vahdettin, E. (1993). *Rumeli demiryolları*. Eren Yayıncılık

26-International Railway Preservation Society. (2015). *Beginning of services*. http://www.irps-wl.org.uk/wagon-lits/history/90-george-nagelmackers

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: أ.م. دهشتى إسماعيل اومر

الجامعة: الجامعة التقنية / أربيل

الكلية: معهد التقني خبات

القسم: إدارة المؤسسات التجارية

البلد: العراق

البريد الالكتروني:dashty.omer@epu.edu.iq

الهاتف: ٠٧٨٢٤٤٦٦٧٥٦

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ٨/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٢٤/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (الأرشيف العثماني، خزينة الأوراق، الباب العالي، الدفاتر السجلية، التطور المؤسسي)

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

عنوان البحث

الأرشيف العثماني (من خزائن السلطان إلى أرشيف الدولة)

ملخص البحث

يتناول هذا البحث بالأرشفة والتحليل الأرشيف العثماني، مستعرضاً مساره التاريخي والمؤسسي وتوزيعه الهيكلي بين مؤسسات سيادية كبرى كأرشيف رئاسة الوزراء، وقصر طوب قابي، والدفترخانة العامرة. ويتتبع البحث تحول الوثيقة من الحفظ التقليدي بالسرايا إلى المؤسسة الحديثة مع إنشاء (خزينة الأوراق) في منتصف القرن التاسع عشر، وصولاً إلى العصرنة والمركزية في ظل النظام الرئاسي التركي المعاصر. كما يفحص البنية الإدارية للتنظيم المركزي العثماني (كالديوان الهمايوني، والباب العالي، والباب الدفتري) ودورها في صناعة الدورة المستندية، مع دراسة التصانيف المتنوعة للدفاتر والملفات كالإرادات، والخط الهمايوني، ويلدز. وينتهي البحث إلى نتيجة تحليلية مؤداها أن الأرشيف العثماني يمثل المصدر الأولي الأساسي لدراسة التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للدولة العثمانية ولأكثر من ست وثلاثين دولة معاصرة نشأت في أعقابها، مما يرفعه لمصاف الثروات المعرفية العالمية الفريدة.

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Asst. Prof. Dashty Esmahil Omer
University: Erbil Polytechnic University
College: Khabat Technical Institute
Department: Commercial Foundations Administration
Country: Iraq
Email: dashty.omer@epu.edu.iq
Phone: 07824466756

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 8/ June / 2026
Acceptance Date: 24/ June / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Ottoman Archives, Treasury of Documents, The Sublime Porte, Documentary Registers, Institutional Evolution)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Ottoman Archives: From the Sultan's Treasuries to the State Archives

Abstract

This study analyzes the Ottoman Archives, examining their historical trajectory, institutional evolution, and structural distribution across key sovereign centers including the Prime Ministry Archives, Topkapı Palace, and the Imperial Registry. It traces the archival transition from traditional palace storage to modern institutionalization with the creation of the "Treasury of Documents" in the mid-19th century, leading to modernization and centralization under the contemporary Turkish presidential system. Furthermore, the research examines the administrative framework of the central Ottoman organization (such as the Imperial Council, the Sublime Porte, and the Financial Registry) and their role in documentary workflows, while evaluating various classifications of registers and files , such as the Irades, Imperial Decrees, and Yıldız collections. The study concludes that the Ottoman Archives constitute the definitive primary source for researching the political, social, and economic history of the Ottoman Empire and over 36 contemporary successor states that emerged in its aftermath, elevating it to the rank of a unique global intellectual heritage.

المقدمة

يعد الأرشيف الذاكرة الحية والرسمية للشعوب والأمم، إذ يختزن في ثناياه تفاصيل تاريخها بماضيه وحاضره، ويسهم بشكل فاعل في تشكيل ملامح مستقبلها وهويتها الحضارية، إذ تمثل الوثائق الأرشيفية سجلا مركزيا للمعرفة الإنسانية، يبنى عليها السرد العلمي الدقيق للأحداث. وفي هذا السياق المعرفي، يحتل (الأرشيف العثماني) مكانة بارزة واستثنائية في إعادة كتابة تاريخ الدول والشعوب التي خضعت لنطاق الإمبراطورية العثمانية، إذ يصنف بأنه أحد أكبر وأغنى خزائن الوثائق والسجلات في العالم المعاصر، نظرا لاحتضانه ثروة مستندية فريدة تؤرخ لستة قرون من الحكم والتمدد الجغرافي.

تتأصل هذه الدراسة في تتبع المسار التاريخي والتنظيمي لهذا الأرشيف الضخم، مبرزة التحولات الإدارية والتشريعية التي مر بها، والتي انتقلت بالوثيقة من نمط الخزن التقليدي البسيط داخل الخزائن والسرايا السلطانية، إلى مرحلة المأسسة الحديثة وإنشاء (خزينة الأوراق) في منتصف القرن التاسع عشر، وصولا إلى العصرنة والمركزية السيادية في ظل النظام الرئاسي المعاصر لجمهورية تركيا.

أهمية الدراسة: تنبع أهمية هذه الدراسة من كون الأرشيف العثماني يمثل الأداة الحتمية والمصدر الأولي الأساس لدراسة التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي لأكثر من ست وثلاثين دولة معاصرة نشأت في أعقاب الإمبراطورية. وتكتسب الدراسة أهمية خاصة لكونها تسلط الضوء على البنية الإدارية والمالية والعقارية للدولة العثمانية، والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بملفات وأقاليم إقليمية ومحلية مهمة، مما يوفر للباحثين دليلا منهجيا لفهم آليات إنتاج الوثيقة العثمانية وكيفية استنطاقها تاريخيا.

أسباب الدراسة: جاءت هذه الدراسة استجابة لجملة من الدوافع العلمية والأكاديمية، وفي مقدمتها الرغبة في إبراز الفلسفة البيروقراطية والتنظيمية التي خلفها التراث الوثائقي العثماني، وعلى الرغم من وجود دراسات سابقة قيمة تناولت هيكلية هذا الأرشيف ومؤسساته وأنواع وثائقه، إلا أن الحاجة ما تزال قائمة لمعالجة بعض الزوايا المعرفية، حيث غالباً ما تتناول تلك الأدبيات الأرشيف العثماني من منظور تاريخي عام، دون الالتفات الكافي إلى آلياته المؤسسية وسياقاته القلمية، فضلاً عن السعي وراء تذليل العقبات المنهجية واللوجستية أمام الباحثين في استيعاب التوزيع الهيكلي الجديد للأرشيف في ظل التحولات الإدارية التركية الحديثة.

إشكالية الدراسة: تتحدد مشكلة الدراسة في أن عمليات الفرز والتصنيف المبكرة للأرشيف العثماني قبل عام ١٩٨٧م (مثل تصانيف علي أميري، وجودت، وابن الأمين) قد خضعت لاجتهادات لجان علمية وفردية محددة اعتمدت على أسماء المصنفين لا على طبيعة الموضوعات، مما خلق جزرا وثائقية معزولة فرضت تحديا كبيرا على الباحثين في ربط الوثائق بسياقاتها الموضوعية. وتتمحور الإشكالية حول السؤال الرئيس التالي: كيف تحولت الفلسفة الأرشيفية العثمانية من نمط التراكم العشوائي والحفظ التقليدي إلى نمط العصرنة والمأسسة الرقمية؟ وما هو دور التشكيلات المركزية مثل (الباب العالي والباب الدفتري والدفترخانة) في هندسة وصناعة الدورة المستندية المحفوظة حاليا؟

منهج الدراسة: لتحقيق أهداف البحث والإجابة عن إشكاليته، تم اعتماد المنهج التاريخي الوصفي التحليلي بوصفه أداة رئيسة للدراسة؛ لكونه المنهج الأكثر اتساقا مع طبيعة هذا البحث، حيث يسهم في تقديم صورة وصفية شاملة لنشأة الأرشيف ومراحل تطوره المؤسسي، والانتقال منها إلى الطور التحليلي النقدي لتفكيك البنية الوظيفية للأقلام الإدارية وشرح أبعاد التصانيف المتشعبة ومقاصدها العلمية.

أهم مصادر الدراسة: استندت الدراسة في بناء فرضياتها ومعطياتها التحليلية إلى نخبة من المصادر والمراجع الأساسية المحورية، وفي مقدمتها كتاب (الأرشيف تاريخه وأصنافه) للمؤلفين الألوسي ومالك، والذي يقدم عرضا نظريا وتاريخيا عاما لعلم الأرشيف ونشأته، بالإضافة إلى كتاب (الأرشيف العثماني) للخبيرين عصمت أقطاش وعصمت بينارق، وهو المصنف المتخصص بدقة في تشريح وتصنيف الوثائق والسجلات العثمانية، إلى جانب الاستعانة بالتقارير، والأدلة الإحصائية، واللوائح القانونية الرسمية الصادرة عن المديرية العامة لأرشيفات الدولة التابعة لرئاسة الجمهورية التركية.

خطة الدراسة: للإحاطة بكافة أبعاد الموضوع، تم تقسيم هذه الدراسة منهجيا لتتكون من هذه المقدمة، يليه تمهيداً مفاهيمياً تناول المفهوم اللغوي والاصطلاحي للأرشيف، وعلمه، ودورته الحياتية، ليفتح المجال أمام مبحثين رئيسين وفق الهيكلية التالية:

التمهيد المفاهيمي :المفهوم اللغوي والاصطلاحي للأرشيف وعلمه.

المبحث الأول :التطور التأريخي والمؤسسي للأرشيف العثماني.

المبحث الثاني :التشكيلات الإدارية العثمانية وتصانيفها الوثائقية.

التمهيد

المفهوم اللغوي والاصطلاحي للأرشيف وعلمه

تتطلب الإحاطة بمصطلح الأرشيف تتبعا دقيقا لبنيته اللغوية وسياقاته التاريخية التي تشكلت عبر الزمن، حيث يمكن تلمس أبعاد هذا اللفظ من خلال تفكيك أصوله الاشتقاقية وتقلباته الصرفية، فبينما جاء المصطلح في القواميس بصيغتي الفعل والاسم، يعبر الفعل عن ممارسة إجرائية حركية تهدف إلى وضع الأوراق والملفات في الصناديق المخصصة لها، في حين يتحدد الفعل الماضي ببنائه الصرفي ليوثق العملية المادية للحفظ والصيانة ذاتها. ومن الناحية التاريخية والتطور الدلالي، فإن كلمة الأرشيف تجد جذورها الأولى في الكلمة الإغريقية القديمة (أرخيون) أو (أرشيون) التي كانت ترتبط بنيويا بدائرة من الدوائر الرسمية، وتكشف هذه الأصول عن تحول تدريجي في دلالة اللفظ من العموم إلى الخصوص، إذ كانت تطلق في بداية الأمر على السجلات الحكومية ووثائق الحكام بصفة عامة (عبود، كامل، ١٩٧٩: ٥-٧).

ومع توسع البنى الإدارية للمجتمعات، تطور المدلول اللغوي للمصطلح ليكتسب أبعادا سياسية وقانونية وثيقة الصلة بمفهوم السلطة والسيادة (قيسي، ١٩٩١: ٣١)، حتى غدا اللفظ يطلق تحديدا على المكان والمقر الرسمي الذي يقيم فيه القاضي ويمارس منه صلاحياته الفصلية (الخولي، ١٩٩٣: ٤٦). وعند تتبع حركة انتشار هذه الدلالة عبر البيئات الثقافية المختلفة، يتضح أن اللفظ الشائع الاستعمال في أغلب لغات العالم المعاصرة قد حافظ على جذره الصوتي المشترك مع تباينات فونيتيكية طفيفة في النطق تبعا لطبيعة كل لغة وأجهزتها الصوتية، فبينما يلفظ في اللغة الفرنسية (أرشيف)، نجد أنه في اللغة الإنجليزية ينطق (أركايفز) وهو الاستخدام الموثق الذي ظهر لأول مرة في النصوص الإنجليزية عام ١٦٠٠م (الألوسي، ١٩٧٩: ٦)، مما يبرهن على عمق التراكم التاريخي والمؤسساتي الذي حظي به هذا المصطلح في الفكر الإداري الغربي قبل استيعابه في المنظومات القانونية الأخرى.

ينساب المفهوم الاصطلاحي للأرشيف من دلالته اللغوية المحدودة ليعبر عن بنيوية مؤسساتية وإجرائية متكاملة في الفكر الإداري الحديث، فالأرشيف في الاصطلاح هو الهيئة الرسمية المتخصصة التي تتوكل بمهمة حصر وحفظ الوثائق، والسجلات، والقيود، والمكونات الورقية بصورة منظمة ومدروسة (الألوسي، ١٩٧٩: ٣). ويرتكز هذا المفهوم على الجانب الوظيفي والتنظيمي باعتبار الأرشيف كيانا

إداريا هادفا لا مجرد مستودع صامت، كما يعرف بأنه مجموع الوثائق والمستندات على اختلاف تواريخها، وأشكالها، وأوعيتها المادية التي تنتجها هيئة عمومية أو خصوصية أثناء مزاولة مهامها اليومية والسيادية (السيد، ١٩٨٧: ٥-٦؛ Favier, 1989: 86). ويتسع هذا المفهوم ليشمل الشمولية النوعية والزمنية للمادة الأرشيفية دون تقييدها بنوع محدد أو حقبة تاريخية معينة، طالما أن الغاية المنهجية هي صون هذه المواد لضمان ديمومتها واستمراريتها عبر الأجيال (الألوسي، ١٩٧٩: ٤٣؛ بيتر، ١٩٨٠: ٢٨٧؛ السيد، ١٩٨٧: ٥-٦).

وفي سياق تتبع أدبيات الاختصاص ومقارنة التعريفات المعجمية والمؤسساتية، يربط معجم البنهاوي الأرشيف بالكيان القانوني للمؤسسة المنتجة له، معرفا إياه بأنه مجموعة منظمة من السجلات والملفات التي تخص وتتعلق بإحدى المنظمات أو الهيئات (خليفة، ١٩٩٩: ٩٩). بينما تضيف الجمعية الأمريكية للأرشيف بعدا نفعيا وعمليا يرتبط باستشراف الحاجة المستقبلية لاسترجاع المعلومات، حينما اعتبرته مجموعة الوثائق المكتوبة الجارية والرسومات التي أنتجتها أي مؤسسة أو منظمة وحفظت بقصد الرجوع إليها وقت الحاجة (الخولي، ١٩٩٣: ٥٠-٥١). ويميل بعض الباحثين إلى الاختصار الشديد الذي يرفع ممارسة الأرشفة من مجرد عمل آلي جامد إلى مستوى التقعيد المهني، بتقديمه كفن للاحتفاظ بالوثائق من جميع الأنواع بالترتيب والموالاة (محمد، د.ت: ٩٦).

ويتسع النطاق الفلسفي لظاهرة الأرشيف عند رصد طروحات المدارس الفكرية المختلفة، حيث تتباين الرؤى بين تأكيد أن الأرشيف يجب أن يتميز بالصحة والموثوقية المطلقة، أو النظر إليه كوثائق مختلفة تهم الدولة أو إحدى الهيئات أو الأفراد، وصولا إلى تعريفه باعتباره الوثائق التي تشكل جزءا لا يتجزأ من المعاملات الرسمية والتي تحفظ لتسهيل الرجوع إليها (ميلاد، ١٩٨٦: ٣؛ Keçetep, 2012:166)، ويلاحظ في هذه التعددية كيف انتقل الفكر الأرشيفي من التركيز على صفة الموثوقية والصحة القانونية إلى التركيز على النفعية العامة والخاصة وبنية الدولة الإجرائية. ولعل من النماذج التعريفية المتقدمة ما قدمه الأستاذ شارل سامران، حين اعتبر الأرشيف كل الأوراق والوثائق المكتوبة الناتجة عن نشاط جماعي أو فردي بشرط أن تكون قد نظمت ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة في البحث وبشرط أن يحسن حفظها في داخل منظمة واحدة (ميلاد، ١٩٨٦: ٣).

ويطرح هذا التعريف الأرشيف كمنظومة ديناميكية مشروطة بالتنظيم والحفظ المؤسسي الموحد بدلا من التراكم العشوائي، وهو ما توازى مع ما أشار إليه معجم مصطلحات إدارة الوثائق والأرشفة الصادر عام ٢٠٠٩م عن المديرية العامة لأرشيفات الدولة التابعة لرئاسة الوزراء التركية، والذي أكد ضرورة تنفيذ الأنشطة الأرشيفية ضمن معايير محددة، معرفا الأرشيف بأنه المؤسسة أو المكان المسؤول عن اختيار الوثائق التي تمتلك قيمة أرشيفية – سواء تم إنتاجها أو تلقيها من قبل أفراد أو مؤسسات خاصة أو عامة – وحفظها وتقديمها للاستخدام وفقا لمحددات حاكمة.(Rukanci, Anameriç, 2021: 2)

ويتجاوز الإطار المعرفي للأرشيف مجرد الممارسة العملية ليتأسس كبنية علمية مستقلة بذاتها، فعلم الأرشيف يرسى أسس النظام الأرشيفي والتأريخ الأرشيفي الذي ينطوي على نتائج البحث في أصول وتطور وظائف الأرشيف وقوانينه ومؤسساته (خليفة، ١٩٩٩: ٩٧)، وهو العلم الذي يدرس على مستوى النظرية والتطبيق طبيعة وخصائص الوثائق الأرشيفية وحركة إنتاجها وإتاحتها (أحمد، ٢٠٠٣: ٢/ ١٠٠). وبناء على هذا التأصيل، يكتسي الأرشيف أهمية بالغة في حياة الدول على صعيد المجالات العلمية والاقتصادية والثقافية والسيادية، إذ يشكل وسيلة قانونية لا جدال فيها تسمح لذوي الحقوق بإثبات مراكزهم القانونية (محمد، د.ت: ٢٦١٧).

وتكشف الدورة الحياتية للوثيقة عن تحول ديناميكي مستمر، ففي البداية تكون للوثائق قيمة عملية وإدارية آنية، لكنها تؤول مع مرور الزمن لتصبح ذات قيمة تاريخية يعتمد عليها المؤرخون، والسوسيولوجيون، والاقتصاديون، واللسانيون لاستقاء مادتهم الأولية وتفكيك تفاصيل الحياة السالفة من عادات، وتقاليد، وعقليات، ومظاهر يومية تتعلق بالمأكل والملبس والسكن، متفوقة في ذلك على مئات الروايات الشفوية غير الموثقة (محمد، د.ت: ٢٦١). وبذلك، تصبح الوثيقة شاهدا ينطق بكل ما كانت تقوم به فئات المجتمع وخزانا حيا للمعلومات والأنشطة الإحصائية كوسيلة بحث مساعدة (Rhoads, 1983: 1). ومن أجل فهم طبيعة هذه المواد المخزنة، تبرز الوثيقة بمعناها الاصطلاحي الدقيق لتشمل المعاهدات والاتفاقات الدولية، والخطابات الرسمية الصادرة من الحكام والواردة إليهم، والتعليمات والتنظيمات الصادرة عن الجهات الرسمية، فضلا عن المخطوطات وكتابات المعاصرين للأحداث (الجمل، عبد الرزاق، ٢٠٠١: ٣-٤)، وهي في مجموعها البنية المادية التي يتغذى عليها البحث العلمي لإعادة قراءة الماضي برؤية موضوعية محكمة.

المبحث الأول: التطور التأريخي والمؤسسي للأرشيف العثماني

أولا: مفهوم الأرشيف العثماني

عند تفكيك المفهوم الاصطلاحي للأرشيف العثماني، يتضح أن الباحثين المهتمين بمراكز الأرشيف والوثائق العثمانية الموجودة في تركيا قد تعارفوا على إطلاق هذا المصطلح تحديدا على أرشيف رئاسة الوزراء الواقع في حي السلطان أحمد بمدينة إسطنبول، في حين أن مراكز الأرشيف التركية الأخرى لا تذكر مجردة بل تأتي مركبة ومقترنة باسم المقر الفعلي الذي تحفظ فيه تلك الوثائق وسياقها الجغرافي (صابان، ٢٠٠٨: ١/ ٩٥). ومن أبرز هذه المراكز الملحقة يبرز أرشيف متحف طوب قابي[١] الموجود أيضا في مدينة إسطنبول، والذي يمثل حجر زاوية في حفظ الوثائق والفرمانات السلطانية (Binark, 1995, 259؛ Hizili,2008,579)، بالإضافة إلى أرشيف البحرية الذي يشكل قسما حيويا من المتحف البحري ويضم وحده ما يقارب خمسة وعشرين مليون وثيقة تاريخية (صابان، ١٩٩٧: ١/ ١).

إن قصر مصطلح الأرشيف العثماني تداوليا على أرشيف رئاسة الوزراء دون غيره قد يوحي بوجود مركزية إدارية ضيقة، إلا أن التمعن في واقع الحال يشير إلى أن الأرشيف العثماني عبارة عن شبكة مؤسساتية متكاملة وموزعة سياقيا وتاريخيا، حيث يعكس هذا التعدد في المقار والمسميات ضخامة الإرث البيروقراطي للدولة العثمانية وحرصها على توثيق الأنشطة العسكرية والسياسية والوقفية في مراكز متخصصة تضمن خصوصية الوثيقة وسريتها وبما يتلاءم تماما مع طبيعة المهام الإدارية لكل مركز من هذه المراكز (بيات، ٢٠٢٥: ٢٣).

ثانيا: الأهمية الكمية والكيفية للأرشيف العثماني

نظرا لكون مدينة إسطنبول العاصمة التاريخية للإمبراطورية العثمانية لقرون طويلة، فقد غدت الحاضنة الأساسية لمعظم مراكز الأرشيف والتوثيق التي حفظت تراث الدولة الإداري والسياسي (صاري،

---

(١) طوب قابي (سراي وقصر): يعد أكبر قصور مدينة إسطنبول التاريخية، وكان بمثابة المقر الرسمي والإداري الرئيس لإقامة سلاطين الدولة العثمانية وإدارة شؤون الإمبراطورية لأربعة قرون كاملة، وتحديدا في الحقبة الممتدة بين عامي ١٤٦٥م و١٨٥٦م، إلى أن نقلت الحكومة التركية القصر وحولته رسميا إلى متحف وطني في الثالث من نيسان عام ١٩٢٤م(Afife, 2006, 6-65) .

٢٠٠٠: ٤/ ٧١٩). ومن الناحية التحليلية، لا يعد الأرشيف العثماني مجرد مستودع محلي أو إقليمي للوثائق، بل يصنف على أنه أحد أكبر وأهم المراكز العالمية من حيث القيمة الكمية والكيفية معا، إذ يضم في أروقته ما يزيد على مئة مليون وثيقة تاريخية متنوعة تشمل كافة مناحي الحياة السياسية والاجتماعية الاقتصادية للدولة والرعايا على حد سواء (كنج وآخرون، ٢٠٠٨: ٦٢٠).

إن تخطي حاجز المئة مليون وثيقة لا يعكس فقط التمدد الزمني والجغرافي الكبير للإمبراطورية العثمانية، بل يعد دليلا قطعيا على وجود نظام أرشفة مؤسسي متطور ومحكم فاق نظراءه في العصور الوسطى والحديثة، ومن هذا المنظور التحليلي فإن هذه الضخامة الكمية والتنوع الكيفي يحولان الأرشيف العثماني من مجرد أرشيف وطني تركي إلى أرشيف دولي وعالمي، كونه يمثل الذاكرة التاريخية المشتركة لأكثر من أربعين دولة معاصرة في الشرق الأوسط والبلقان وشمال إفريقيا والتي كانت تشكل في مجموعها الجغرافيا السياسية للدولة العثمانية.

ثالثا: التوزيع الجغرافي والإداري للأرشيف

توزع هذا الأرشيف الضخم على عدة مقار رئيسية، حيث يشمل أرشيف الوزارة الأولى (رئاسة الوزراء) الواقع في مدينة إسطنبول والذي يمثل المركز الثقيل للوثائق الإدارية، يليه أرشيف وزارة الخارجية الذي استقر في العاصمة السياسية الحالية أنقرة، بالإضافة إلى أرشيف سراي المحفوظ في قصر طوب قابي بإسطنبول والذي يضم المراسلات السلطانية والدبلوماسية الفائقة الأهمية (التميمي، ١٩٧٦: ١١٦-١٢٠)، وينضم إلى هذه المنظومة أرشيف المؤسسات الخيرية والوقفية المعني بحجج الأوقاف والأملاك (Alparslan, 2021: 12)، وأخيرا أرشيف مدينة بورصة نظرا للأهمية التاريخية للمدينة باعتبارها العاصمة الأولى والمنطلق الأساسي للدولة العثمانية (الساحلي، ١٩٩٥: ٤٥).

وهذا التوزيع الجغرافي والإداري للأرشيف يوضح أن السياسة العثمانية في حفظ الوثائق اعتمدت على معيارين رئيسيين هما الأهمية التاريخية للمكان والنوعية الوظيفية للمؤسسة، وهو ما يوفر للباحثين سياقا تاريخيا وفيزيائيا للوثيقة يمنحها قيمة توثيقية أعلى.

رابعا: المراحل التاريخية للأرشيف العثماني

أ: الجذور التاريخية وإدارة الوثائق في العهد العثماني

إن تاريخ الدولة العثمانية الحافل بفترته الزمنية التي قدرت بستة قرون مكنها من اكتساب ثروة زاخرة من الأرشيف الممتلئ بالمعلومات، إذ يقدر عدد الوثائق التي يحتويها بمئتي مليون وثيقة (صاري، ٢٠٠٠: ٤/ ٧٢-٧٤)، وقد استطاعت الدولة الحفاظ على تلك الثروة الوثائقية بالاعتماد على عدة طرق في حفظ وتنظيم الأرشيف على مختلف تنوعاتها واختلافاتها ضمن النظام المعمول به (صابان، ١٩٩٧: ١/ ٢). وفي هذا السياق التاريخي، كانت الدفاتر الأساسية والسجلات الخاصة بالأراضي والمقاطعات في الولايات العثمانية تحفظ في خزينة (الدفترخانة) التي يترأسها أمين الدفترخانة في اجتماعات الديوان الهمايوني (صابان، ٢٠٠٠: ١/ ١٣١)، ولعل من أبرز مميزات هذه الدفترخانة أنها حافظت على البنية الاجتماعية للدولة العثمانية من حيث صون حقوق الأهالي والفلاحين والتشكيلات العسكرية (أقطش، بينارق، ١٩٨٦: ٥٢١).

ومع ذلك، فإن الفحص النقدي لآليات الحفظ القديمة يكشف أن التوثيق في تلك المراحل المبكرة لم يكن بالمفهوم الحديث القائم على المعايير العلمية، إذ كانت الوثائق توضع داخل أكياس وصناديق مما عرضها للتلف والاندثار بفعل العوامل الطبيعية، وهو ما استدعى التدخل التنظيمي والفصل بين الوثائق عن بعضها البعض في عهد الصدر الأعظم[١] محمد أمين رؤوف باشا[٢] عام ١٨٤٥م. وقد تسارع هذا

(١) الصدر الأعظم: يمثل الصدر الأعظم الشخصية الثانية والمنصب التنفيذي الأرفع في هرم السلطة العثمانية بعد السلطان مباشرة؛ وقد حدد تشريع وقانون "قانون نامه" الذي أصدره السلطان محمد الفاتح صلاحياته الواسعة، والتي تمثلت رئيسيا في رئاسة جلسات الديوان الهمايوني، وقيادة الجيش كقائد عام في الحملات العسكرية (السردار الأكرم)، فضلا عن كونه المسؤول المباشر عن الأمن العام في العاصمة وحامل الختم السلطاني، وتؤول إليه صلاحيات التعيين والعزل في الوظائف العليا (الشناوي، ١٩٨٣: ٥٥٩-٥٦٠).

(٢) محمد أمين رؤوف باشا (١٧٨٠ – ١٨٥٩م): هو أحد أبرز رجالات الدولة والوزراء في العهد العثماني المتأخر، شغل منصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) لمرات متعددة وفي فترات تاريخية حرجة، لا سيما في عهد السلطانين محمود الثاني وعبد المجيد الأول. ارتبط اسمه ببدايات عصر التنظيمات العثمانية، وكان له دور تنظيمي وإداري بارز في تحديث مؤسسات الدولة، حيث رعى في عهده خطوات مفصلية لإعادة هيكلة الدواوين الحكومية وفصل الوثائق الرسمية وتنظيمها لحمايتها من التلف والضياع، مما مهد الطريق لنشوء المؤسسات الأرشيفية الحديثة مثل خزينة الأوراق (ثريا، ١٩٩٦، ٥١٢/٢) .

التطور التوثيقي عند العثمانيين أيام الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا[١] الذي تقلد منصب سفير في فرنسا وإنجلترا، فكان لاحتكاكه المباشر بالمؤسسات الغربية دور بارز في إدراك الأهمية الاستراتيجية التي يوليها الأوروبيون للأرشيف، مما دفعه لإصدار قرار في سنة ١٨٤٧م يقضي بإقامة مؤسسة رسمية أطلق عليها اسم (خزينة الأوراق)(Rukanci, 2008: 420) ، وجرى تعزيزا لهذا التوجه بإنشاء مبنى خاص بالأرشيف صادق عليه السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦١م)، وتم تعيين حسن أفندي كأول مسؤول عن هذا المبنى الذي تغير اسمه فيما بعد ليصبح (وزارة خزينة الأوراق) (فنيش، تنام، ٢٠١٣: ٢٠).

ولم يتوقف هذا المسار التحديثي عند الجانب المؤسسي فحسب، بل امتد ليشمل الجانب الإجرائي، حيث صدرت في سنة ١٨٤٨م لائحة مؤقتة من المجلس الأعلى للأحكام العدلية تحددت فيها المناهج العلمية التي يجب اتباعها في طريقة تصنيف وفرز الوثائق وحفظها في خزانة الأوراق (صاري، ٢٠٠٠: ٤/ ٨٩٤)، وبحلول عام ١٨٥٠م بدأ الشروع الفعلي في الاستفادة من هذه الوثائق الأرشيفية وتوظيفها إداريا، بالتزامن مع تغيير اسم وزارة خزينة الأوراق إلى (مديرية خزينة الأوراق) التي ظلت تحمل هذا الاسم وتؤدي مهامها الوظيفية حتى غاية نهاية الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م (أقطش، بينارق، ١٩٨٦: ٤٢٣).

وعلى الرغم من هذه الهيكلة الإدارية، إلا أن المحاولات الفعلية والممنهجة لتصنيف هذه المادة الأرشيفية الضخمة لم تتبلور عملياً إلا في أواخر عمر الدولة، حيث بدأت أعمال التصنيف الأول مرة بتشكيل (لجنة التاريخ العثماني) برئاسة علي أميري أفندي عام ١٩١٨م واستمرت هذه اللجنة في عملها حتى عام ١٩٢١م، وعرف هذا التصنيف بتصنيف علي أميري ويشمل الفترة بين الغازي عثمان والسلطان عبد المجيد الأول على أساس التسلسل التاريخي للسلاطين، وبلغ عدد الوثائق المصنفة ضمن

(١) مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠ – ١٨٥٨م): هو رجل دولة وديبلوماتي عثماني بارز، يعد أبو التنزيلات العثمانية ومهندسها الأول. شغل منصب الصدر الأعظم ست مرات، وتنقل في مناصب سفير الدولة العثمانية في باريس ولندن، بفضل احتكاكه المباشر بالنظم الإدارية الأوروبية، أدرك الأهمية الاستراتيجية للأرشيف، مما دفعه عام ١٨٤٧-١٨٤٨م إلى اتخاذ القرار التاريخي بتأسيس (خزينة الأوراق) لتكون أول أرشيف رسمي حديث ومنظم في الدولة العثمانية قائم على المعايير العلمية (ثريا، ١٩٩٦، ٤/٣٥٤).

هذا الإطار مائة وثمانين ألفا وسبعمائة وثيقة في ثلاثة وخمسين فهارس تصنيف مكتوبا بالحروف العربية، وقد حولت فيما بعد إلى الحروف اللاتينية (طه، ٢٠١٩: ٤٢٩) .

أما التصنيف الثاني فقد بدأ عام ١٩٢١م من قبل لجنة ترأسها المؤرخ التركي الشهير ابن الأمين محمود كمال، وهو تصنيف حسب المواضيع وشمل سبعا وأربعين ألفا ومائة وخمسة وعشرين وثيقة في ثلاثة وعشرين موضوعا أساسيا في الفترة بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، ودفاتر تصنيف ابن الأمين الذي يبلغ عدد مجلداته تسعة وعشرين مجلدا كتب بالحروف العربية، وأكثرية وثائق هذا التصنيف تتعلق بالقرنين الأخيرين، إلا أن عملية التصنيف توقفت بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى وبسبب حروب الاستقلال التركية ، في حين أن التصنيف الثالث قد تم بفضل الجهود التي بذلها كل من المعلم جودت وإبراهيم حقي القونوي واستمرت هذه الجهود حتى عام ١٩٣٧م، بعد أن نال الأرشيف حظه من السلبيات التي تعرض لها التراث العثماني في أوائل العهد الجمهوري وتوقفت أعمال التصنيف فترة من الزمن بعد افتضاح أمر بيع الوثائق المحفوظة في مستودعات المالية في عام ١٩٣١م إلى بلغاريا بسعر أوراق التغليف) (طه، ٢٠١٩: ٤٢٩؛ طه، ٢٠٢٥: ٢٦) .

ب: التحول المؤسسي والتشريعي في العهد الجمهوري

شهدت مؤسسات الأرشفة الرسمية تطورا تدريجيا بعد تأسيس الجمهورية عام ١٩٢٣م، بما يعكس التحول الجذري من نمط الحفظ التقليدي الموروث إلى النظام المؤسسي الحديث، وكانت البداية اللوجستية بإعادة تنظيم ما كان يعرف بخزانة الأوراق وتحويلها عام ١٩٢٧م إلى مديرية مساعدة تابعة لرئاسة الوزراء، ليتم إدماجها بعد ذلك عام ١٩٣٣م ضمن مديرية الوثائق والأرشيفات، واستمر هذا الهيكل التنظيمي حتى عام ١٩٤٣م حين تم تأسيس (المديرية العامة للأرشيفات برئاسة الوزراء) لتشكل بذلك نقلة نوعية في التنظيم المؤسسي للعمل الأرشيفي .(Binark, 1980: 29) ونظرا لتزايد حجم الوثائق المعاصرة وتضخم المعاملات الورقية، أنشئت عام ١٩٧٦م (مديرية أرشيفات الجمهورية) بهدف عزل وتنظيم الوثائق المعاصرة وتصنيفها وإتاحتها للباحثين بمعزل عن الوثائق القديمة (Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü,1994: 1).

ومع استمرار مساعي التطوير، أعيدت تسمية المؤسسة في عام ١٩٨٢م لتصبح (مديرية الأرشيف العثماني) في إشارة واضحة وعميقة إلى الاهتمام المتزايد بالأرشيف العثماني بوصفه مكونا أساسيا من

ذاكرة الدولة وهوية المجتمع، وفي عام ١٩٨٤م تم تأسيس (المديرية العامة لأرشيفات الدولة) لتكون الجهة العليا المسؤولة عن حفظ الأرشيفات الوطنية بجميع أنواعها. وفي إطار الجهود الرامية لتحديث البنية التحتية، انتقلت المديرية العامة ومديرية أرشيفات الدولة العثمانية إلى مبان جديدة مستأجرة من محافظة إسطنبول، حيث بدأت خدمات التصنيف والإدارة الحديثة فيها عام ١٩٨٧م، وتوج هذا المسار الطويل بافتتاح مجمع أرشيفي متطور وحديث في ٢٩ أكتوبر ١٩٨٨.(Baş, 2019: 45)

أما من الناحية القانونية والتشريعية، فقد خضع تنظيم الوثائق وعمليات الإتلاف لتطور ملحوظ يبرز مدى النضج الإداري، فبالرغم من صدور القانون ذي رقم ٦٦٩٦ في ٢٦ مارس ١٩٥٦م المتعلق بإتلاف الوثائق التي لا ضرورة للاحتفاظ بها وما تبعه من قرار مجلس الوزراء في ١٣ سبتمبر ١٩٥٧م ذي الرقم (٩٤٣٨/٤)، فإن القراءة التحليلية للممارسات العملية تكشف أن تلك التشريعات عانت من قصور في الفاعلية ولم تطبق بشكل صارم، ولذلك تلافت رئاسة الوزراء هذا الخلل بإصدار مرسوم بقوة القانون رقم ٣١٦ نشر في الجريدة الرسمية بتاريخ ٤ أبريل ١٩٨٨م ليحل محل القانون السابق ويوفر إطارا قانونيا وأكثر حزما وعملية للتعامل مع الوثائق عديمة القيمة وتطهير المستودعات الأرشيفية,Baş) 2019: 46).

ج: العصرنة والمركزية في ظل النظام الرئاسي

شهدت البنية التنظيمية للأرشيفات في تركيا تغييرات جوهرية وجذرية في أعقاب الانتقال إلى نظام الحكم الرئاسي الحديث، حيث أدى تعدد إدارات الأرشيف في الحقبة السابقة والتي كانت تعمل بشكل مستقل وتحت مظلة مؤسسات وزارية مختلفة، إلى غياب التوحيد في السياسات والإجراءات الأرشيفية، لا سيما فيما يتعلق بتنظيم الأعمال الداخلية وإتاحة الوثائق للباحثين، وهو تشتت يعزى أساسا إلى اختلاف التشريعات واللوائح المعمول بها في كل مؤسسة على حدة مما فرض قيودا مؤسسية حالت دون تحقيق انسجام وطني شامل في هذا القطاع الحيوي.

ومع إلغاء رئاسة الوزراء بموجب المرسوم بقانون رقم ٧٠٣ الصادر في ٩ يوليو ٢٠١٨م، تم إقرار إلغاء المديرية العامة للأرشيفات الحكومية التي كانت تابعة لها (Cumhurbaşkanlığı Kararnamesi, 2018) . وفي إطار هذا التوجه الاستراتيجي نحو تعزيز فعالية البنية الأرشيفية ومنحها طابعا مركزيا سياديا، تم إنشاء (رئاسة الأرشيفات) التابعة مباشرة لرئاسة الجمهورية بموجب

المرسوم الرئاسي رقم ١١ بتاريخ ١٦ يوليو ٢٠١٨م، حيث جاءت هذه الخطوة الحاسمة كجزء من جهود إعادة هيكلة النظام المؤسسي للدولة بهدف توحيد القرار وتحقيق التنسيق العالي بين الإدارات المختلفة (نجم، ٢٠٢٢: ١٠١).

وتنعكس هذه المركزية التنظيمية بشكل واضح على توزيع الموارد البشرية العاملة في الأرشيف، ففي نهاية عام ٢٠١٨م بلغ إجمالي عدد العاملين في رئاسة أرشيف الدولة ٨٩٠ موظفا موزعين بين أنقرة وإسطنبول ضمن أربع فئات وظيفية دقيقة تشمل الموظفين المثبتين على الملاك، والمتعاقدين، والعمال الدائمين، والعمال المؤقتين، وقد توزعت هذه القوى العاملة جغرافيا لتبلغ في العاصمة أنقرة ٣٥٣ موظفا من بينهم ٢٠٩ موظفين مثبتين على الملاك و٤٨ موظفا متعاقدا و٨٢ عاملا دائما و١٤ عاملا مؤقتا، في حين حظيت مدينة إسطنبول بالكتلة البشرية الأكبر بواقع ٥٣٧ موظفا شملوا ٣١١ موظفا مثبتا و٨٤ متعاقدا و١٣٦ عاملا دائما و٦ عمال مؤقتين (Devlet Arşivleri Başkanlığı, 2018: 26) .

وتكشف قراءة هذه البيانات الإحصائية أن تركز النسبة الأكبر من الموارد البشرية والخبرات الفنية في إسطنبول مقارنة بأنقرة يعكس الوزن التاريخي والعلمي للمدينة، ويؤكد بشكل قاطع ضخامة وحجم الخدمات الأرشيفية المقدمة هناك نظرا لوجود مجمع الأرشيف العثماني الرئيسي في هذه المدينة التاريخي.

إن هذا الاستعراض الشامل للتطور المؤسسي والتشريعي يبرهن على أن الدولة التركية الحديثة أولت أهمية قصوى للأرشيف إدراكا منها لدوره المحوري في حفظ الذاكرة الوطنية وضمان استمرارية الأداء الإداري وتيسير البحث العلمي، ومع كل هذه الجهود، ما زال الأرشيف العثماني بكرا في مقتنياته النادرة من الوثائق التي تؤرخ للدولة العثمانية والدول التي قامت على أراضيها والتي تزيد على ست وثلاثين دولة موزعة في قارات العالم الثلاث آسيا وأوروبا وإفريقيا (أوغلو، ٢٠٠٦: ١٩)، وهو ما يرسخ مكانة الأرشيف العثماني باعتباره أول أرشيف منظم في العالم الإسلامي، ويمنحه فرادة عالمية استثنائية ترتكز على هذا العدد الضخم والنوعي من الوثائق التاريخية (صابان، ٢٠٠٨: ١/ ٩٥).

المبحث الثاني: التشكيلات الإدارية العثمانية وتصانيفها الوثائقية

أولا: التشكيلات الإدارية المركزية

١- الديوان الهمايوني وبنيته القلمية

يقف الديوان الهمايوني في مقدمة التشكيلات المركزية للدولة العثمانية باعتباره السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية العليا التي تضمن سير أعمال الإمبراطورية، ولم تكن قوة هذا الديوان كامنة في اتخاذ القرارات فحسب، بل في امتلاكه منظومة توثيقية بالغة الدقة تقوم بتسجيل القرارات الصادرة في المسائل والمنازعات التي تم النظر فيها والاحتفاظ بسجلاتها عبر شبكة متخصصة من المكاتب الإدارية المعروفة بالأقلام (الدغيم، ٢٠٠٨: ١٧).

وتكشف القراءة التحليلية لهذه الأقلام عن توزيع وظيفي محكم، إذ تولى قلم (البكلكجي) صياغة المراسيم والقرارات السيادية، بينما اختص قلم (الآمدي) بإدارة المراسلات السرية والخارجية للصدر الأعظم، في حين أعاد قلم (التحويل) و(الرؤوس) التعيينات، وتكاملت هذه البنية بقلم التشريفات وتسجيل الوقائع.

٢- الباب الآصفي (الباب العالي) وتحولاته السياسية

شهدت البنية الإدارية العثمانية تحولا تدريجيا في مركز الثقل السياسي انتقل بموجبه النفوذ من القصر السلطاني إلى المقر الرسمي لإدارة الصدر الأعظم، وهو المركز الذي تعددت أسماؤه تاريخيا لتعكس تطور مكانته، فقد عرف في البداية باسم (باب الوزير) ثم تحول إلى (الباب الآصفي) و(باب الباشا)، حتى استقر في النهاية تحت المسمى الشهير (الباب العالي) (أقطاش، بينارق، ١٩٨٦: ٧). ولم يكن هذا التحول في المسميات مجرد تغيير شكلي، بل كان تعبيرا عن نضج البيروقراطية العثمانية وصعود سلطة رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) كدعامة رئيسية للحكم، وهو ما تطلب استحداث منظومة أقلام متكاملة ومستقلة لإدارة الشؤون التنفيذية (İnalcık, Quataert, 1994: 580) .

وضمت هذه المنظومة قلم (كتخدا الصدارة) وقلم (المكتوبجي) المسؤول عن المراسلات العامة، وقلم (الآمدجي) المعني بالتقارير المرفوعة للسلطان، إلى جانب (رئيس الكتاب) الذي قاد الدبلوماسية العثمانية لفترات طويلة.

٣- الباب الدفتري وإدارة المنظومة المالية

تمثلت العصب الحيوي للاستقرار العثماني في (الباب الدفتري)، وهو التنظيم المؤسسي المعقد الذي اضطلع بمهمة إدارة الشؤون المالية والاقتصادية وتوفير التمويل اللازم للجيوش والإدارة المركزية في الدولة العثمانية، وقد أطلق على المسؤول الأول الذي يرأس هذا التنظيم اسم (باش دفتردار) (المشرف المالي العام)، والذين كانوا يعدون بمثابة وكلاء مال السلطان والمحافظين الحقيقيين على خزينة الدولة والدفاتر الحسابية (الدغيم، ٢٠٠٨: ١٧؛ Mübahat, 1998: 443) .

وتظهر الضخامة الهيكلية للباب الدفتري من خلال شبكة الأقلام الواسعة التابعة له، والتي صممت لاستيعاب كافة مصادر الدخل وأوجه الصرف، ومن أبرزها قلم (باش محاسبة) لإعداد الموازنات الختامية، وقلم (الروزنامة) لتقييد الإيرادات والنفقات اليومية، وقلم (محاسبة أناضول) لمالية الولايات الآسيوية، بالإضافة إلى الأقلام العسكرية المتخصصة مثل (مقابلة عسكر السباهية) و(تخصيصات السباهية) وقلم (السلحدار).

٤- الدفترخانة وأرشفة الملكية العقارية

شكلت (الدفترخانة)، والتي عرفت تاريخيا بالدفترخانة العامرة، الركيزة الأساسية لاستقرار النظام الإقطاعي والعقاري في الإمبراطورية، إذ كانت بمثابة المكان الحصين الذي تحفظ فيه (دفاتر التحرير) الإستراتيجية التي تضم القيود التفصيلية وسجلات مسح الأراضي في الدولة العثمانية (أقطاش، بينارق، ١٩٨٦: ٣٢). وتكمن الأهمية التحليلية للدفترخانة في دورها القانوني والاقتصادي، حيث كانت الجهة الرسمية المخولة بتعيين وتحديد أجناس الأراضي وتوزيعها الاقتصادي، مثل تصنيفها كأراضي (تيمار) أو (خاص) أو (زعامة) أو تصنيفها كاملاك خاصة وأراضي (وقف) خيري.

ثانيا: المنظومة السجلية والدفترية في الإدارة المركزية

تشكل الدفاتر التاريخية في الأرشيف العثماني العمود الفقري للتوثيق الإداري والسياسي، حيث لم تكن مجرد سجلات عادية، بل كانت أوعية معلوماتية قانونية تعكس أدق تفاصيل السيادة والحكم. وفي مقدمة هذه المنظومة تأتي دفاتر الديوان الهمايوني، وهي الدفاتر التي كانت تمسك وتنظم في أقلام الديوان العليا، كقلم الديوان، وقلم البكلكجي، وقلم الرؤوس، حيث سجلت بها بترتيب زمني صارم قيود

خلاصات الفرمانات والبراءات الصادرة حول مختلف المسائل التي نوقشت في الديوان وصدر قرار رسمي بشأنها (İnalcık, Quataert, 1994: 580) .

وتكشف النظرة الفاحصة لهذه الدفاتر عن تنوعها وموسوعيتها، إذ تضم:

أ- **دفاتر (المهمة):** التي تعد الصندوق الأسود للقرارات الإستراتيجية للدولة (علي، ٢٠١٠: ١١)، تليها دفاتر ذيل المهمة، ودفاتر المهمة المكتومة (السرية)، ودفاتر مهمة مصر والمكتومة.

ب- **دفاتر المراسلات والتشريع:** وتشمل دفاتر الرسائل الهمايونية، وصورة العهد والركاب السامي، ودفاتر القوانين العسكرية، ودفاتر مجلس التنظيمات.

ج- **دفاتر الرقابة والقضاء:** وامتد التقييد ليشمل الجوانب الرقابية والقضائية واللوجستية عبر دفاتر الشكاية العتيقة وركاب الجيش، ودفاتر منح الرتب العسكرية والرديف والمواد المرتبة ومهمة العساكر، فضلا عن دفاتر نصوص المقاولات والمعاهدات، ودفاتر توزيع المؤن والذخائر، ودفاتر الحرفيين والاحتساب (الرقابة على الأسواق)، يضاف إليها دفاتر المقتضى، ودفاتر مساجين القلاع، ودفاتر النفي والقصاص.

ولم تغفل المنظومة التوزيع الإقليمي، فبرزت (دفاتر الأحكام) التخصصية لإدارة الولايات المختلفة مثل أحكام: أضنة، الأناضول، البوسنة، الجزائر، الرقة، ديار بكر، أرضروم، حلب، إسطنبول، قرامان، مرعش، جزيرة المورة، أوزي، سلسترة، الروملي، سيواس، الشام الشريف، طرابزون، بالتكامل مع دفاتر الامتياز، ودفاتر إذن السفن التجارية، ودفاتر الحضرية، ودفاتر التوجيهات الملكية، ودفاتر الكنائس، ودفاتر الشهبندر (القنصليات)، ودفاتر النشان، ودفاتر التقاعد، وسجلات الجماعات غير المسلمة، ودفاتر الأجانب والدول الأجنبية (Yousef Osman et al., 2010: 49-92؛ Genç et al., 2017: 30-41).

واكتملت هذه الترسانة التوثيقية بدفاتر الرؤوس، ودفاتر قلم التحويل، ودفاتر الوارد والصادر بالديوان الهمايوني، وسجلات الكنى والألقاب، ودفاتر المقاولات والمقاولة نامة، ودفاتر التنظيمات والخيرية، وسجلات الأسرة الحاكمة، وغيرها من الدفاتر المختلفة والمتنوعة (أقطاش، بينارق، ١٩٨٦: ١٣٣؛ حمودة، ١٩٩٩: ١٤).

ومن الناحية التحليلية، فإن هذا التفرع الهائل لدفاتر الديوان الهمايوني يعكس الشمولية البيروقراطية للدولة، فإفراد دفاتر مستقلة لقضايا النفي، أو مساجين القلاع، أو شؤون الطوائف غير المسلمة والأجانب، يبرهن على أن العقل الإداري العثماني كان يعمل وفق آلية (الفصل والفرز الموضوعي) قبل قرون من نشوء علم الأرشيف الحديث بمفهومه الغربي، مما جعل الديوان قادرا على استحضار السوابق القانونية والسياسية في قضايا الولايات الممتدة عبر ثلاث قارات بمرونة تامة (الكوثراني، ٢٠٠١: ٨٤) .

وتتصل هذه المنظومة جغرافيا ومؤسسيا بدفاتر الباب الآصفي، وهو المقر الرسمي الذي أقام فيه الصدور العظام وتعددت أسماؤه على مر العصور بين الباب الآصفي، وسراي باشا، والصدر الأعظم، والباب العالي. ونتيجة للعلاقة العضوية والوطيدة التي كانت تربط بين أعمال الباب الآصفي التنفيذية وجلسات الديوان الهمايوني السيادية، فقد حدث تداخل واختلاط طبيعي بين قسم من دفاترهما أثناء عمليات التصنيف التقليدية التي تمت على مدى السنين (İnalcık, Quataert, 1994: 580) .

وتضم الدفاتر الخالصة بهذا القسم: دفاتر البيورلدي (الأوامر الصادرة عن الصدر الأعظم) والعلم والخبر، ودفاتر قلم وكيل الصدر الأعظم، ودفاتر قلم المكتوبجي (السكرتارية العامة)، ودفاتر الصدارة الأخرى، إلى جانب دفاتر سجلات الإرادة، ودفاتر الوارد والصادر، ودفاتر العينيات، ودفاتر الولايات (أقطاش، بينارق، ١٩٨٦: ٩٤). وهذا التداخل والامتزاج بين أوراق الديوان والباب الآصفي يوضح للمحلل التاريخي كيف أن خطوط السلطة التنفيذية في الدولة العثمانية لم تكن منفصلة بشكل حاد، بل كانت تعمل في حلقة متكاملة من صناعة القرار المشترك بين السلطان والوجهاء، مما جعل الأوراق تتبع الدورة المستندية للقرار وليس التقسيم الهيكلي الجامد للوزارات.

وتكتمل دائرة التوثيق المركزي بالرجوع إلى دفاتر الدفترخانة التي سبق الإشارة إلى مكانتها الإدارية، بوصفها المستودع الحصين الذي صان الدفاتر الإستراتيجية للدولة، والتي اشتملت على قيود شتى الأراضي والعقارات في مختلف الأقاليم، حيث كانت هذه السجلات السيادية تنظم بعناية فائقة وترتب حسب تواريخها وأنواعها الجغرافية والموضوعية لتشمل دفاتر التحرير والطابو، وبما يضمن تحديد إيرادات الخزينة بدقة متناهية وتعيين الأجناس القانونية والاقتصادية للأملاك من تيمار وخاص وزعامة ووقف (أقطاش، بينارق، ١٩٨٦: ٣٢٩) .

والملمح التحليلي الأبرز هنا هو أن الدفترخانة لم تكن مجرد قلم عادي منقاد ضمن أقلام الديوان الهمايوني، بل كانت تتمتع باستقلالية اعتبارية وفنية فريدة، فإذا أراد الصدر الأعظم أمرا يتعلق بمسح الأراضي أو الضرائب، فإنه يوجه أمره مباشرة إلى آمر الدفترخانة الذي أطلق عليه لقب (أمين الدفتر) أو (أمين الدفترخانة)، وهو منصب يتطلب نزاهة وخبرة فنية عالية. ويظهر هذا التدبير الإداري الحازم أن الدولة العثمانية عزلت ملف (الملكية العقارية والضرائب الزراعية) عن التجاذبات السياسية اليومية للديوان، وحولته إلى مؤسسة أرشيفية مستقلة صانت حقوق الخزينة والأهالي معا، وجعلت من دفاتر التحرير اليوم مرآة ديموغرافية واقتصادية لا غنى عنها لأي دراسة سوسيولوجية في تاريخ المنطقة (İnalcık, Quataert, 1994: 132–135)

ثالثا: المنظومة الوثائقية والملفات السائبة في الأرشيف المركزي

تمثل (الوثائق السائبة والملفات المفرزة) الوجه الآخر والأكثر حيوية للأرشيف العثماني، حيث تمنح الباحثين فرصة الاطلاع على المسودات والمراسلات اللحظية التي سبقت قيد القرارات في الدفاتر الرسمية. وفي طليعة هذه المنظومة تبرز وثائق الديوان الهمايوني، حيث يطلق اسم (الخط الهمايوني) على الكتابات التي خطها السلاطين بأيديهم أو على الأوامر السلطانية المكتوبة، إضافة إلى الشروحات والتعليقات والتعقيبات التي كان يوجهها السلاطين على أوراق الصدر الأعظم مباشرة أو على غيرها من الأوراق المعروضة عليهم (طه، ٢٠١٩: ٣٤٠) .

وتغطي هذه المجموعة الفريدة شؤون الدولة لفترة زمنية تقارب مئة واثنين وعشرين عاما، متضمنة المكاتبات الواردة من الولايات التابعة، ومعروضات الصدر الأعظم الموجهة إلى مقام السلطان في المسائل الاستراتيجية والمهمة. وعلى الرغم من وجود عدد كبير من مجموعات وثائق الديوان الهمايوني في المستودعات، إلا أن مجموعة واحدة منها فقط هي المسموح بعرضها وتداولها بين أيدي الباحثين، وتتمثل في وثائق البروتوكولات والمعاهدات الدولية، بينما تظل المجموعات الأخرى مغلقة حتى الآن نظرا لعدم الانتهاء من تصنيفها علميا وغياب الكتالوجات المنظمة لها، مثل علب نصوص المقاولات، وعلب الرسائل، وأوراق صندوق الرسائل السلطانية (كورشون، القريني، ٢٠٠٥: ٤٤). ويكشف هذا الإغلاق الفني للمجموعات عن فجوة أرشيفية وتحد ملموس، إذ إن بقاء أوراق الصناديق وعلب الرسائل دون

تصنيف يحرم البحث التاريخي من وثائق بالغة السرية والخصوصية قد تعيد قراءة الكثير من العلاقات الدبلوماسية للدولة العثمانية مع القوى الإقليمية.

وتتكامل هذه السلسلة السيادية مع وثائق الباب الآصفي، حيث إن أهم ما يوجد من أوراق هذا الباب مصنفا ومتاحا للبحث العلمي هو الخطوط الهمايونية التي ألحقت بأوراق قلم (الآمدي) في حقبة ما بعد عهد التنظيمات، وتضم هذه المجموعات التوثيقية التابعة للباب الآصفي مضابط مجلس الوزراء (مجلس الوكلاء)، وحافظات المضابط والإرادات السنية، ومسودات الإرادات السنية والتذاكر الرسمية والمضابط، فضلا عن مسودات التذاكر السامية، والتذاكر الخصوصية، ومسودات ذاكر المعروضة على الصدارة (الدغيم، ٢٠٠٨: ١٧).

وينبثق من الباب العالي جهاز توثيقي وتنفيذي خطير تمثل في وثائق غرفة الباب العالي، والتي تصنف كأهم دوائر مقام الصدارة العظمى لأنها كانت تتولى إدارة وتوجيه جميع المكاتبات الرسمية الصادرة من الصدارة إلى نظارات (وزارات) ودوائر الدولة الأخرى، وبلغ الحجم الكمي لهذه المجموعة قرابة ثلاث مئة وخمسين ألف وثيقة، تشتمل على دفاتر الوارد والصادر وأقسام الإدارة والسياسة والحقوق، يضاف إليها وثائق (قلم الممتازة) الذي تأسس عام ١٨٧٩م داخل بنية غرفة أوراق الباب العالي، بقصد تحقيق التنفيذ المنظم والمتابعة الدقيقة للمكاتبات التي كانت تتم فيما بين الصدارة العظمى والإيالات ذات الوضع الخاص التي تديرها الدولة العثمانية (أقطاش، بينارق، ١٨٨٦: ٩٤).

ومن المنظور التحليلي، فإن تأسيس قلم الممتازة في هذا التاريخ الحرج يعكس استجابة البيروقراطية العثمانية للتحولات الجيوسياسية وضغوط المسألة الشرقية، حيث كانت الدولة بحاجة إلى جهاز أرشفة دبلوماسي سريع وخاص لمعالجة قضايا الولايات ذات الحكم الذاتي أو الأوضاع الاستثنائية كالمجر ومصر وتونس.

وفي سياق متصل، تبرز وثائق قصر يلدز كأحد أضخم الأرشيفات الخاصة بعهد سلطاني محدد، حيث يقصد بهذا الاسم مجموع الدفاتر والوثائق والتقارير الصحفية والاستخباراتية المتراكمة طيلة فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني بين عامي ١٨٧٦م و١٩٠٩م. وتتميز هذه المجموعة باحتوائها على المواضيع والملفات والتقارير التي حظيت باهتمام السلطان على وجه الخصوص، بالإضافة إلى المكاتبات اليومية المتبادلة فيما بين القصر والباب العالي، والكثير من وثائق المكاتبات الرسمية وغير

الرسمية، مثل أوراق يلدز الأساسية، وأوراق الصدر الأعظم كامل باشا، وأوراق معروضات الصدارة الرسمية (أقطاش، بينارق، ١٩٨٦: ٩٤). إن هذه الطبيعة الخاصة لأوراق يلدز تظهر بوضوح نمط الحكم المركزي الذي اتبعه السلطان عبد الحميد الثاني، حيث تحول القصر إلى مركز لإدارة شؤون الدولة اللامركزية عبر تقارير الجواسيس والمراسلات المباشرة، مما يجعل أرشيف يلدز مرآة حقيقية للصراعات الفكرية والسياسية الدولية في أواخر القرن التاسع عشر (الدغيم، ٢٠٠٨: ١٧) .

وامتدت الرقابة والتوثيق إلى الأجهزة التنفيذية من خلال وثائق نظارتي الداخلية والخارجية، والتي تحتوي على جميع المكاتبات والتقارير العائدة لنظارة الداخلية ونظارة الخارجية في الدولة العثمانية، والمديريات التابعة لهما، والولايات والألوية (المحافظات)، وتغطي هذه الوثائق ملفات تعيينات الموظفين، وشؤون الأمن والسلامة العامة في العاصمة وخارج الولايات، وصراعات المذاهب، والشؤون الدينية، وتتنوع المجموعات داخلها لتشمل وثائق مديرية القلم الخاص، ووثائق إدارة المخابرات العمومية، ووثائق قلم المكتوب، ووثائق غرفة المشاورية القانونية (كورشون، القريني، ٢٠٠٥: ١١٠-١٤٦). ويجاورها في الأهمية التنظيمية أوراق شورى الدولة، وهي الوثائق التي تخص تشكيل دائرة شورى الدولة التي تأسس عام ١٨٦٨م نتيجة لعدد من التغييرات والإصلاحات البنيوية في الدولة العثمانية، حيث كانت هذه الدائرة تتولى دراسة ومراجعة الأعمال والمشاريع الإدارية والقوانين، ويوجد لها اليوم مئات الكتالوجات للأوراق الواردة المدونة بحسب الوزارات والولايات (أقطاش، بينارق، ١٩٨٦: ٩٤).

وتختتم هذه المنظومة بـ وثائق الباب الدفتري، وهي الوثائق التي تثير تحديا كبيرا نظرا لعدم وجود الأوراق الخاصة بمختلف أقلام الباب الدفتري المالية مجتمعة أو منظمة في مكان واحد حتى الآن، إذ يذكر المسؤولون والأرشيفيون في تركيا أن وثائق الباب الدفتري تشكل وحدها نحو (٧٠%) من مجموع الوثائق الكلي التي تم تصنيفها والجاري تصنيفها حاليا في المجمع الأرشيفي، وتبلغ على وجه التقريب ثمانية ملايين وثيقة مالية ومحاسبية تدخل ضمن هذا النطاق الواسع (كورشون، القريني، ٢٠٠٥: ١١٠-١٤٦).

وتشير هذه النسبة الضخمة (٧٠%) لوثائق الباب الدفتري إلى أن الجانب الاقتصادي والمالي والمحاسبي جباية وصرفا كان الشاغل الأكبر والجهد الأثقل في البيروقراطية العثمانية، ورغم أن تشتت هذه الأوراق وعدم اكتمال تصنيفها يشكل عقبة حالية أمام الباحثين الاقتصاديين، إلا أن الانتهاء منها

مستقبلا سيميط اللثام عن آليات التمويل، والحركة النقدية، ومستويات المعيشة، والقدرات الاقتصادية الحقيقية للإمبراطورية عبر القرون، مما يمنح الأرشيف العثماني صدارة علمية لا تنافس.

النتائج

١- الأرشيف هو مجموع الوثائق والمستندات المكتوبة الناتجة عن نشاط فردي أو جماعي، شريطة أن يتم تنظيمها وفق معايير علمية تتيح استدعاءها والرجوع إليها بسلاسة عند الحاجة.

٢- يحظى الأرشيف بأهمية بالغة في حياة الدول، إذ لم يعد مجرد مستودع للأوراق القديمة، بل غدا عنصرا فاعلا ومحركا في مختلف الميادين العلمية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والسيادية.

٣- يمثل الأرشيف المادة الأساس والمختبر الأول الذي يعتمد عليه طيف واسع من الباحثين، كالمؤرخين وعلماء الاجتماع والاقتصاد واللسانيات، باعتباره مصدرا أوليا وخاما للمعلومات.

٤- تعد الوثائق الأرشيفية شاهدا حيا ومرآة عاكسة لممارسات المجتمع وتطور بنيته في فترات زمنية سابقة، بما تحمله من أدلة قطعية على أنشطة الأفراد وأدوارهم المؤسسية.

٥- يصنف الأرشيف العثماني كأول أرشيف رسمي منظم وممنهج في العالم الإسلامي، إذ تميز عن نظرائه عالميا بضخامته الفائقة واستثنائيته من حيث عدد الوثائق والملفات التي يحتضنها.

٦- يتكون الأرشيف العثماني بنيويا من قسمين رئيسين متكاملين هما: (الوثائق السائبة) (المراسلات والملفات المفرزة)، و(الدفاتر والسجلات القيدية) (التي تضبط القرارات والملكيات).

٧- تقدر المحتويات الإجمالية للأرشيف العثماني بما يزيد على مئتي مليون وثيقة تاريخية محفوظة، مما يجعله أحد أضخم الكنوز المستندية الموروثة في العصور الحديثة.

٨- لا يزال الأرشيف العثماني يحتفظ بالكثير من مقتنياته البكر والنادرة، والتي تسهم بشكل حاسم في توثيق تاريخ الدولة العثمانية، فضلا عن كونها وثائق سيادية تؤرخ لأكثر من ست وثلاثين دولة وكيانا معاصرا نشأت على أراضيها.

المصادر والمراجع

اللغة العربية

أحمد، بودوشة، (٢٠٠٣)، التشريعات والتكنولوجيا ودوروها في دعم تطوير الأرشيف الوطني، المجلد الثاني، مجلة المكتبات والمعلومات جامعة قستنطينة، جزائر .

أغلو، سنان معروف، (٢٠٠٦)، العراق في الوثائق العثمانية، الطبعة الاولى، عمان، دار الشروق للنشر.

اقطاش، نجاتي، بينارق، عصمت، (١٩٨٦)، الأرشيف العثماني، الترجمة: سعداوي صالح، عمان، مطبعة كتابكم .

الألوسي، سالم عبود، مالك، محمد محجوب، (١٩٧٩)، الأرشيف تأريخه، أصنافه، إدارته،طبعة الاولى، بغداد، دار الحرية للطباعة .

بيتر، فالن، (١٩٨٠)، معجم للمصطلعات الأرشيفية فرنسى–عربي، بيروت، الدار العربية للعلوم .

التميمي، عبدالجليل، (١٩٧٢)، بحوث ووثائق في التأريخ المغربي١٨١٦–١٨٧١، تقديم:روبار منتران، طبعة الاولى، د.م، الدار التونسية للنشر .

ثريا، محمد (١٩٩٦)، سجل عثماني قاموس تراجم أشهر رجال الدولة العثمانية، جزء الثاني والرابع، تحقيق وترجمة: لجنة من المؤرخين، إسطنبول، دار الخلافة العلية .

حاج شعيب، (٢٠١٠)، تسيير أرصدة المصالح الولائية للأرشيف ولاية تلمسان جامعة وهران، د.م، كلية العلوم الاجتماعية.

حمودة، محمود عباس، (١٩٩٩)، الوثائق العثمانية في تركيا و مصر و دول شمال أفريقيا، القاهرة، دار غريب للطباعة و النشر والتوزيع .

خليفة، عبدالعزيز شعبان، (١٩٩٩)، المعجم الموسوعي في المصطلحات المكتبات والمعلومات، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع .

الخولي، جمال، (١٩٩٣)، الوثائق الإدارية بين النظرية والتطبيق، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية .

الدغيم، محمود السيد، (٢٠٠٨)، دليل الأرشيف العثمانى، جريدة الحياة، عدد: ١٦٥١٤.

السيد، إبراهيم محمد(١٩٨٧)، مقدمة في تأريخ الأرشيف ووحداته، القاهرة، دار الثقافة .

الشناوي، عبدالعزيز، (١٩٨٣)، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، الجزء الثاني، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية.

صابان، سهيل (٢٠٠٠) ، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التأريخية، الرياض، مكتبة الملك الفهد الوطنية .

صابان، سهيل، (١٩٩٧)، الأرشيف العثماني في خدمة التراث العربي، مجلة مكتبة فهد الوطنية، مجلد الثالث، عدد الاول، الرياض .

صابان، سهيل، (٢٠٠٨)، نماذج وثائقية من المراسلات العربية في وثائق الأرشيف العثماني،المجلد الثاني، العدد الاول، المجلة الاردنية للتأريخ والاثار.

صاري، فاطمة الزهراء، (٢٠٠٠)، من وثائق الايالة الجزائرية في الأرشيف العثماني باسطنبول، الندوة الدولية حول الأرشيف الخاص بتأريخ الجزائر والمحفوظ بالخارج، مجلد الرابع، الجزائر، مطبوعات الأرشيف الوطني الجزائري .

طه، أشرف سعدون (٢٠١٩)، التعريف بالأرشيف العثماني وأهمية في الدراسة التأريخ، مجلة كلية التربية، جامعة واسط (المؤتمر العلمي الدولي الحادي عشر) .

طه، أشرف سعدون (٢٠٢٥)، دراسة التعريفية لوثائق الأرشيف العثماني وأهميتها في الدراسة التأريخ المعاصر، مجلة جامعة التكريت للعلوم الأنسانية، الجزء السابع، المجلد: ٣٢، العدد: ٣ .

العجلي، شميران، (٢٠١٢)، العراق في الوثائق العثمانية، بغداد، بيت الحكمة للنشر .

فنيش، سهام، تنام، ربيعة، (٢٠١٣)، دور الأرشيف العثماني في كتابة التأريخ الجزائري تخصص تقنيات أرشيفية، قسطنطينة، جامعة متنوري .

قيسي، محمد، (١٩٩١)، علم التوثيق والتقنية الحديثة، بيروت، دار الافاق الجديدة .

كنج، يوسف احسان، يليديرم، حاجي عثمان واخرون، (٢٠٠٨)، دليل الأرشيف العثماني فهرس جامع لوثائق الدولة العثمانية في ارشيف رئاسة وزراء التركية، تعريب: صالح سعداوي، أسطنبول، مركز الابحاث للتأريخ والفنون والثقافة الإسلامية (IRICICA) ومنظمة المؤتمر الإسلامي .

الكوثراني، وجيه (٢٠٠١)، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية إلى الدولة الوطنية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية .

كورشون، زكريا، القريني، محمد موسى،(٢٠٠٥) ، بيروت، دار العربية للموسوعات .

كولن، صالح، (٢٠١٤)، سلاطين الدولة العثمانية، الطبعة الاولى، القاهرة، دار النيل للطباعة والنشر .

محمد، بوسلام (د.ت)، مركز التوثيق، معلمة المغرب، جزء الثامن، د.م، مطابع سلام .

محمد، بوسلام (١٩٩٩)، الأرشيف في خدمة البحث العلمي والتنمية، د.م، منشورات المجلس البدي لصفرو .

نجم، احمد، (٢٠٢٢)، الارشيف العثماني وكتابة تأريخ مصر في الحقبة العثمانية قراءة نقدية، الروزنامة، العدد: ٢٠ .

اللغة الانجليزية

Afife ,Batur, (2006), Chamber of Architects of Turkey Istanbul Metropolitan Branch، Istanbul .

Alparslan, Abbas, (2021), Administration of Waqfs in the Ottoman Era, ATAD Journal of Academic History And Studies, Issue: 5 .

Binark, ismet, (1994), Ashort History of the Turkish Archives and the activates of the general directorate of the State Archives, poplication No: 4, Ankara .

Binark, ismet, (1995), Turkish Archival Studies, Türk Kütüphaneciliği 9, 3 .

Favier ,Jean, (1989),les archives in encyclopedi universalize, volume2, paris .

İnalcık, H., (1993), The Ottoman Empire: The Classical Age 1300–1600. London: Phoenix.

İnalcık, H. and Quataert, D., (1994), An Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1300–1914. Cambridge: Cambridge University Press.

Kecetep ,Ilker, (2012),sosyal ve Beseri Bilimler Dergisi,cilt 4,n two .2006, Architectural Gide to Istanbul,Metropolitan Branch,Istanbul .

اللغة التركية

16 Temmuz 2018 tarih ve 11 sayılı Cumhurbaşkanlığı Kararnamesi, madde: 2, Resmi Gazete tarih: 16 Temmuz 2018, sayı: 30480.

Aytaç, Ahmet, (2013), Başbakanlik Osmanli Arşivi'ndeki bazi Fonlar ve Eldokumaciliği İle Alakali Belgelere dair, Turan-Sam(TURAN-CSR), Cilt: 5 , Sayi: 17, Volume: 5 * Issue: 17, Konya .

Baş,İbrahim,(2019), Osmanli'dan Günümüze Türkiye'de Arşivlerin Oluşumu Ve Türk Arşivlerinde Araştirma Hizmetleri, Ankara Üniversitesi Türk İnkılâp Tarihi Enstitüsü Atatürk Yolu Dergisi Sayı: 64 .

Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü Cumhuriyet Arşivi Daire Başkanlığı Rehberi (Genişletilmiş İkinci Baskı), (1994), Başbakanlık Devlet Arşivleri Genel Müdürlüğü Cumhuriyet Arşivi Daire Başkanlığı Yayını, Yayın No: 22, Ankara .

Binark, İsmet, (1980), Arşiv ve Arşivcilik Bilgileri, Başbakanlık Cumhuriyet Arşivi Dairesi Başkanlığı Yayını, Yayın No: 3, Ankara .

Devlet Arsivleri Baskanligi , (2018), Türkiye Cumhuriyeti, Cumhurbaskanligi, Strateji Gelistirme Dairesi Baskanligi .

Hizili, Mefail, (2008), Osmanlı Eğitim Tarihinin Arşiv ve Yazma Kaynakları, Türkiye Araştırmalan Literatür Dergisi, Cilt 6, Sayı 12 .

Mübahat s. kütükoglu, (1998), Usmani belgelerinin, , Gözden Geçirilmis Ikinci Baski, Kesheati, Istanbul , Kubbealti Akademisi Kültür Ve Sanat Vakf .

Rhoads, James ,B, (1983)،le rôle des administrations des archives et de la gestion des documents courants dans les systèmes nationaux d'information,Amp.

Rukancı ,Fatih Rukancı, (2008), Osmanlı Devleti'nde Arşivcilik Çalışmaları, Türk Kütüphaneciliği 22, 4 .

Rukanci, Fatih, Anameriç, Hakan, (2021) Arşiv ve Arşivcilik Kuram, Strateji ve Uygulamalar, Seçil Ofset, Istanbul .

Y. İhsan Genç, Abdülmecid Mutaf, Mustafa Küçük, Sinan Satar, H. Osman Yıldırım, Nazım Yılmaz, Raşit Gündoğdu, İbrahim Karaca, (2017), Başbakanlik Osmanli Arşivi rehberi, Istanbul, Seçil Ofset .

Yusuf İhsan genç, Mustafa küçü, Raşit gündoğdu, Sinan satar, Ibrahim karaca, Hacı Osman yildirim, Nazım yilmaz, (2010),(Başbakanlık Osmanl Arşivi rehberi), Istanbul, Başbakanlık Basımevi.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: أ.م. نورمان نورى عبدالله

الجامعة:

الكلية:

القسم: وزارة التربية والتعليم / إقليم كوردستان – العراق

البلد: العراق

البريد الالكتروني: Normannuri1981@gmail.com

الهاتف: ٠٧٥٠٤٤٧٢٦٥٣

الباحث الثاني

الاسم: أ.م. دهشتى إسماعيل اومر

الجامعة: الجامعة التقنية / أربيل

الكلية: المعهد التقني / خبات

القسم: إدارة المؤسسات التجارية

البلد: العراق

البريد الالكتروني: dashty.omer@epu.edu.iq

الهاتف: ٠٧٨٢٤٤٦٦٧٥٦

تاريخ الاستلام: ٢٣/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٣٠/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (المصاهرة السياسية، الدبلوماسية الملكية، توازن القوى، الدولة القومية، التاريخ الاوروبي)

عنوان البحث

دور المصاهرة السياسية في إعادة تشكيل الخارطة الجيوسياسية لأوروبا في العصر الحديث (١٤٦٩-١٩١٤)

ملخص البحث

تتناول هذه الدراسة تحليل الزواج السياسي كركيزة استراتيجية أساسية في الدبلوماسية الكلاسيكية داخل القارة الأوروبية، ومن خلال اعتماد المنهج التاريخي التحليلي، يبحث البحث في نماذج تطبيقية متنوعة للارتباطات الملكية، مفسرا إياها بوصفها عقودا أمنية تهدف إلى تحقيق الوحدة الإقليمية والحفاظ على توازن القوى الجيوسياسي، علاوة على ذلك، تثبت الدراسة أن التحولات الفكرية في القرن التاسع عشر، مقترنة بظهور مفهوم الدولة القومية، أدت فعليا إلى تراجع فاعلية هذه الأداة الدبلوماسية وجعلها وسيلة عفا عليها الزمن. كما يسعى هذا الجهد العلمي إلى تسليط الضوء على الأبعاد المعقدة المتداخلة بين القرابة البيولوجية والهيمنة السلطوية عبر المسارات التاريخية.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Asst. Prof Norman Nuri Abdullah
University:
College:
Department: Ministry of Education
Country: Iraq
Email: Normannuri1981@gmail.com
Phone: 07504472653

Second Researcher
Name: Asst. Prof. Dashty Esmahil Omer
University: Erbil Polytechnic University
College: Khabat Technical Institute
Department: Commercial Foundations Administration
Country: Iraq
Email:: dashty.omer@epu.edu.iq
Phone: 07824466756

Receipt Date: 23/ June / 2026
Acceptance Date: 30/ July / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Political Marriage, Royal Diplomacy, Balance of Power, Nation-State, European History)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Role of Political Marriage in Redrawing the Geopolitical Configuration of Modern Europe (1469 – 1914)

Abstract

This study analyzes Political Marriage as a fundamental strategic pillar of classical diplomacy within the European continent. Adopting a historical analytical methodology, the research evaluates various empirical models of royal unions, interpreting them as Security Contracts aimed at achieving regional unity and maintaining the geopolitical balance of power. Furthermore, it demonstrates that the intellectual transformations of the nineteenth century, coupled with the emergence of the Nation-State concept, effectively rendered this diplomatic instrument obsolete. This scholarly endeavor elucidates the complex dimensions between biological kinship and power hegemony throughout historical trajectories.

المقدمة

تمهيد: تعد المصاهرة السياسية (الزواج السياسي) احدى ابرز الظواهر التاريخية التي جرى فيها التضحية بالعلاقات الاجتماعية لصالح المصالح السياسية. تتناول هذه الدراسة الزواج بوصفه اداة دبلوماسية في تاريخ اوروبا، حيث لعبت المرأة فيه دور الفاعل والوسيط بين كيانين سياسيين او عائلتين ملكيتين.

مشكلة الدراسة: تتلخص المشكلة الرئيسة للدراسة في التساؤل الاتي: الى اي مدى استطاع الزواج السياسي تحقيق سلام واستقرار طويل الامد للقارة الاوروبية؟ وكيف ساهم تحول المصالح الاستراتيجية في تغيير هوية ومصير النساء اللواتي قدمن قربانا لابرام هذه التحالفات؟

اهمية الدراسة: تكمن اهمية هذا الموضوع في انه يمنحنا فهما عميقا حول تحولات النظام الدبلوماسي من العهد الكلاسيكي الى عصر الدولة القومية، فضلا عن تسليط الضوء على الجوانب الجيوسياسية التي حددت حدود الدول عبر ما يمكن تسميته بـ (دبلوماسية الجسد).

منهجية الدراسة: اتبعت هذه الدراسة المنهج التحليلي، حيث يعمل هذا المنهج من خلال تتبع الاحداث وتحليل نتائجها السياسية، على توضيح العلاقة القائمة بين المصاهرة العائلية والمصالح الاستراتيجية للدولة.

محتوى الدراسة: تنقسم الدراسة الى محورين رئيسين:

المبحث الاول: يستعرض مفهوم المصاهرة السياسية، وتاريخ ظهورها، والاليات القانونية والسياسية التي ادارت هذه العملية.

المبحث الثاني: يركز على تحليل النماذج التاريخية في اوروبا (مثل عائلات هابسبورغ، تودور، رومانوف... الخ) وبيان نتائجها السياسية.

اهم المصادر: اعتمدت هذه الدراسة على مجموعة من المصادر الرئيسة المرتبطة بالموضوع، ومنها: كتاب (Catherine de Medici: Renaissance Queen of France) للمؤلف.(Frieda.L) ، كتاب (The Knight, the Lady and the Priest) للمؤلف.(Duby.G) ، كتاب (التاريخ الاوروبي الحديث من عصر النهضة الى مؤتمر فينا) للمؤلفين (عبدالحميد البطريق، عبدالعزيز نوار)، كتاب (التاريخ الاوروبي الحديث من عصر النهضة الى الحرب العالمية الاولى) للمؤلف (جلال يحيى)، كتاب (ميژووی ئەوروپا لە شۆڕشی فەرەنسییەوە تا کۆتایی سەدەی نۆزدەهەم) للمؤلف (سامان حوسێن ئەحمەد).

المقترحات: تقترح الدراسة اعداد بحث علمي اخر يدرس استمرارية الزواج السياسي باشكال متجددة في التاريخ المعاصر، وتحديدا ما يعرف بـ (الزواج السياسي الاقتصادي).

المبحث الاول: مفهوم المصاهرة السياسية وتاريخ ظهورها

تعرف المصاهرة السياسية بانها نوع من التحالف الاستراتيجي الذي تستخدم فيه المرأة كأداة دبلوماسية لربط كيانين سياسيين مختلفين. وتتأسس هذه العملية في جوهرها على منطق مصالح السلطة والنفوذ بعيدا عن الرغبات الشخصية للافراد(Coontz, 2005:161) . وفي هذا النوع من الزواج، يغدو عامل (الدم والقرابة) بمثابة ضمانة لتنفيذ المعاهدات السياسية وتقليل احتمالات الخيانة بين الاطراف المتناحرة.

وفي العصور الوسطى (٤٧٦-١٤٥٣م) في اوروبا، تحول هذا المفهوم الى وسيلة رئيسة لتوسيع نفوذ وحدود العائلات الملكية دون الحاجة الى خوض الحروب، وعلى سبيل المثال، تمكنت عائلة (هابسبورغ)[١] (١٢٧٣-١٧٤٠م) عبر سياسة الزواج من بناء امبراطورية شاسعة هيمنت على معظم اجزاء اوروبا(Duby, 1994: 72) .

وفي خضم صراعات عديدة، لعبت المرأة دور الوسيط، فحينما تنتقل المراة الى عائلة الخصم، تصبح سببا في تحويل صورة العداء الى قرابة ومصاهرة، وغالبا ما كانت هؤلاء النساء يعملن كقنوات اتصال سرية بين السلطتين، مما يسهم في منع اندلاع الحروب(Stone, 1977: 6) . هذا الدور جعل المراة تعامل في التاريخ الدبلوماسي بوصفها اداة للقوة الناعمة وعنصرا توازنيا لتحقيق الاستقرار السياسي.

من جهة اخرى، حملت هذه العملية وجها مظلما، اذ غدت المراة في هذه المعادلة بمثابة (سلعة مقايضة) تسلب منها ارادتها الحرة. وإذا ما تدهورت العلاقات السياسية بين الدولتين، كانت المراة تتحول الى الضحية الاولى وتعامل كاسيرة او رهينة(Ogilvie, 2003: 88) . فضلا عن ذلك، كانت هؤلاء النساء ينظر اليهن في مجتمعاتهن الجديدة كغريبات ويقبعن تحت المراقبة الدائمة، مما شكل عليهن

(١) عائلة هابسبورغ: تعد سلالة هابسبورغ واحدة من أكثر العائلات الملكية تاثيرا ونفوذا في تاريخ اوروبا، وتعود اصولها الى مناطق المانيا والنمسا. حكمت هذه العائلة لعدة قرون من القرن ١٣ الى القرن ٢٠ الامبراطورية النمساوية، واسبانيا، والامبراطورية الرومانية المقدسة. ونبعت شهرة الهابسبورغ بشكل أكبر من اعتمادهم على الزيجات السياسية لتوسيع اراضيهم بدلا من الحروب، لدرجة انهم تمكنوا من بسط نفوذهم على معظم اجزاء وسط وغرب اوروبا، بيد ان هذه العائلة عانت من مشاكل وراثية بسبب الزواج الداخلي المستمر بين الاقارب، وانتهى حكمهم في اسبانيا عام(١٧٠٠م) وفي النمسا عقب الحرب العالمية الاولى عام (١٩١٨م) (عاشور، ١٩٨٣: ١٧٦-١٧٧؛ Dahmus, 1968: 349-350).

ضغطا نفسيا واجتماعيا هائلا نتيجة تمزق ولائهن بين عائلة الاب وعائلة الزوج (Coontz, 2005: 165).

ولم يكن الزواج السياسي على نمط واحد، بل تباينت اشكاله وفقا للاهداف المتوخاة، ومنها:

ا- **الزواج بهدف توحيد الاراضي:** وهو النوع الاكثر شيوعا، فعندما ترغب دولتان او امارتان في الاندماج ضمن كيان واحد، يتم تزويج الورثة فيما بينهم (Duby, 1994: 75) .

ب- **الزواج كمعاهدة سلام:** وكان يدرج غالبا كشرط اساسي في اتفاقيات انهاء الحروب، حيث تعتبر المراة رهينة لضمان عدم قيام الطرف الاخر بالهجوم مجددا (Stone, 1977: 7) .

ج- **الزواج لرفع المكانة العائلية:** ويحدث هذا النمط عندما يتولى ملك جديد السلطة عبر انقلاب عسكري، وحرصا منه على اضفاء الشرعية على حكمه، يتزوج من ابنة الملك السابق او من عائلة ذات نسب اصيل وعريق (Coontz, 2005: 163) .

وقد ارتبط تنفيذ هذا النوع من الزواج بمجموعة من الاليات، اذ كان يتوجب على المراة موازنة ولائها بين زوجها (الذي قد يكون عدو الامس) وبين والدها، مما جعلها وسيطا رئيسا عند نشوب النزاعات الحدودية(Ogilvie, 2003 :90) . وفي كثير من الاحيان، كانت هؤلاء النساء يطلعن اباءهن على الخطط العسكرية لازواجهن عبر مراسلات سرية، او العكس .

اما من الناحية القانونية والسياسية، فلم تكن المراة مجرد جسد، بل كانت ناقلة لحقوق الملكية والسيادة، فاذا توفي ملك ولم يترك وراءه سوى ابنة واحدة، فان الزواج السياسي من تلك الابنة كان يعني السيطرة القانونية الكاملة على تلك الدولة (Coontz, 2005: 167)، وهو ما اشعل صراعات محتدمة بين القوى العظمى للفوز بالزواج من الاميرات.

علاوة على ذلك، كان الواجب الاساسي للمراة يتلخص في انجاب سليل ذكر لضمان استمرار التحالف، واذا كانت المراة عاقرا او انجبت اناثا فقط، كان ينظر الى الامر كاخفاق سياسي يؤدي غالبا الى فسخ الزواج، مما يجدد مخاطر اندلاع الحروب(Duby, 1994: 80) . وفي كثير من الاحيان، كان يفرض على بنات الملوك تغيير دينهن، لغتهن، وحتى اسمائهن ليتكيفن مع البلد الجديد، مما شكل نوعا من محو الهوية في سبيل مصلحة الدولة (Stone, 1977: 8) .

بدا هذا النوع من الزواج بالانحسار بعد القرن الثامن عشر، حتى تلاشى تماما في القرن العشرين بفعل جملة من العوامل والدوافع، أبرزها :ظهور الدولة القومية، ففي العصور القديمة، كانت الدولة تعامل كملك شخصي للملك، ومن ثم فان زواج الملك كان يعني توحيد دولتين. لكن بعد الثورة الفرنسية (١٧٨٩) برز مفهوم (سيادة الشعب)[١]، واصبحت الدولة مؤسسة عامة لا تتغير حدودها بصفقة زواج (Anderson, 2014: 45) . مما جعل الزواج الملكي مجرد طقس اجتماعي فاقد لقوته السياسية.

ويعود السبب الاخر الى ظهور حركة فكرية في القرن التاسع عشر نادت بالزواج القائم على الحب والمشاعر، مما جعل استخدام الفتيات كاداة سياسية من قِبل عائلاتهن امرا غير اخلاقي ورجعيا (Coontz, 2005: 180)، حيث بدا الافراد حتى داخل العائلات الحاكمة بالمطالبة بحقهم في تقرير مصيرهم الشخصي.

وفي اعقاب الحربين العالميتين الاولى والثانية، ولا سيما بعد صدور الاعلان العالمي لحقوق الانسان (١٩٤٨)، جرم الزواج القسري او السياسي بموجب القانون الدولي، الذي أكد على ضرورة ان ينعقد الزواج برضا كامل وحر من كلا الطرفين(United Nations: 1948) . وكان هذا عاملا حاسما في انهاء استخدام المراة كرهينة او كضمانة للمعاهدات السياسية بشكل رسمي.

ورغم ان المصاهرة السياسية بشكلها الكلاسيكي القديم قد انتهت، الا ان بعض رواسبها ما زالت قائمة في قوالب اخرى، اذ يهدف الزواج اليوم بين ابناء وبنات القادة والزعماء الى تعزيز الصورة العامة وصناعة اقتصادية مشتركة، بدلا من تحديد رقعة حدود الدول، ولذلك الباحث أن انحسار المصاهرة السياسية بمفهومها التقليدي لم يعنِ اختفاءها التام، بل جرى إعادة تدويرها في العصر الحديث عبر ما يمكن تسميته بـ (المصاهرة الرأسمالية والشركات عابرة القارات)، حيث تحولت التحالفات من دمج التيجان والممالك إلى دمج الثروات والنفوذ الاقتصادي بين العائلات الأوليغارشية والسياسية الحاكمة، مما يعني أن الجوهر البراغماتي للزواج كأداة سلطوية ما زال قائما ولكن بأدوات العولمة .

المبحث الثاني: ابعاد الزواج السياسي في اوروبا

---

(١) مفهوم سيادة الشعب :هو المبدا الاساسي الذي ينص على ان السلطة الشرعية للدولة والحكومة تنبع من الشعب ولا توجد الا بموافقته. ووفقا لهذا المفهوم، فان الشعب ليس مجرد مجموعة من الافراد الذين تملى عليهم الاوامر، بل هم مصدر كل قوة سياسية ولهم الحق المطلق في تقرير مصيرهم (روسو، ٢٠٠٥: ١٢٥–فما بعدها).

يعتبر الزواج السياسي في تاريخ اوروبا احد اهم ادوات الدبلوماسية الدولية، والتي كان الهدف منها تبادل المصالح العليا بين الاسر الحاكمة (Davies, 1996: 518–521). ولم تكن هذه الزيجات مجرد طقوس دينية فحسب، بل كانت بمثابة عقود سياسية تستخدم لمنع النزاعات المسلحة وتعزيز التحالفات العسكرية في العديد من المراحل التاريخية (Anderson, 2014: 88).

ان اتحاد تاجين ملكيين من خلال الزواج ادى الى ظهور قوى كبرى ساهمت في توسيع الحدود دون الحاجة الى استخدام القوة العسكرية (Kennedy, 1987: 34). وبذلك، عمل المصاهرة السياسي كقاعدة لاعادة صياغة الخارطة الجيوسياسية لاوروبا، وترك اثارا بعيدة المدى على الهوية الوطنية للدول (Palmer, 2020: 112) .

وفي بعض الاحيان، نظر الى الزواج السياسي في اوروبا كوسيلة للحفاظ على توازن القوى وتجنب الحروب المدمرة. ولم تكن هذه العملية في جوهرها مجرد تبادل للمستخلفين (الورثة) فحسب، بل كانت ايضا تبادلا للاراضي والسيادة الوطنية تحت غطاء المصاهرة والقرابة (Ogilvie, 2003: 32–33).

وغالبا ما ادت هذه التحالفات العائلية الى تغيير مجرى التاريخ ونشوء اتحادات بين الدول، والتي ما زالت اثارها باقية حتى اليوم بشكل او باخر تحت مسميات واشكال اخرى. بناء على ذلك، يمكن تصنيف انواع الزواج السياسي وتوضيح غاياتها على النحو التالي:

اولا: الزواج من اجل توحيد الاراضي وبناء الامبراطوريات

١ –الاتحاد المقدس: زواج ايزابيلا وفرديناند

تم هذا الزواج في عام (١٤٦٩م)، ويعتبر الحجر الاساس لتاسيس الامبراطورية الاسبانية، حيث يعرف زواج (ايزابيلا كاستييل) (١٤٥١–١٥٠٤م) و(فرديناند اراغون) (١٤٥٢–١٥١٦م) بـ (الاتحاد المقدس). ولم يكن هذا الحدث مجرد ارتباط بين شخصين، بل كان اندماجا بين مملكتين عظيمتين وضعتا الاساس لاول دولة امة كبرى في التاريخ الحديث. لقد اقدمت ايزابيلا على هذه الخطوة سرا ودون موافقة شقيقها (ملك كاستييل)، حتى ان الطرفين اضطرا للسفر بهويات مزيفة للوصول الى بعضهما البعض. وكان الهدف الرئيسي من هذا الاتحاد هو حشد القوة العسكرية لطرد المسلمين من غرناطة، حيث حوّل هذا الزواج اسبانيا من مجموعة امارات صغيرة الى امبراطورية دينية وسياسية (يحيى، ١٩٩١: ٨٩؛ Elliott, 2002: 25).

اما النتائج الانية لهذا الاتحاد فتمثلت في التطهير الديني عبر محاكم التفتيش، وتوفير الدعم المالي لرحلة (كريستوفر كولومبوس)[١] في عام (١٤٩٢م)، والتي ادت الى اكتشاف العالم الجديد (امريكا) (توفيق، امين، ٢٠١٣: ٢٠٣-٢٠٩) .

٢ -اتحاد كالمار: زواج مارغريت الاولى وهاكون السادس

يعد زواج (مارغريت الاولى) (١٣٥٣-١٤١٢م) ابنة فالدمار الرابع ملك الدنمارك من (هاكون السادس) (١٣٤٠-١٣٨٠م) ملك النروج وابن ملك السويد في عام (١٣٦٣م)، واحدا من اذكى التحركات الدبلوماسية واكثرها نجاحا في العصور الوسطى. وكانت هذه العملية بمثابة خطة مسبقة لانهاء النزاعات الداخلية في الشمال، ومنع التوسعات الاستعمارية لـ(رابطة الهانزا) الالمانية في بحر البلطيق، واستطاعت مارغريت من خلال هذا الزواج، ثم بفضل حنكتها السياسية اللاحقة، تامين شرعية الحكم في الممالك الثلاث (الدنمارك، والنروج، والسويد) لنفسها ولخلفائها .(Etting, 2004: 42)

كما وضعت الاساس لتاسيس (اتحاد كالمار)[٢] في عام (١٣٩٧م)، والذي وحّد الدول الاسكندنافية الثلاث تحت مظلة سياسة خارجية مشتركة. وتكمن اهمية هذه الخطوة في ان مارغريت تمكنت دون اللجوء الى حرب شاملة من بناء امبراطورية بحرية عظيمة امتدت من غرينلاند وايسلندا حتى سواحل

(١) كريستوفر كولومبوس: رحالة وملاح ايطالي شهير، ولد في تشرين الاول من عام(١٤٥١م) في مدينة جنوة، ونشا في عائلة متوسطة الحال، حيث كان والده (دومينيكو كولومبوس) يعمل في الغزل والنسيج، ووالدته تدعى (سوزانا فونتاناروسا). كولومبوس الذي كان شغوفا بالملاحة ورسم الخرائط منذ صغره، قام في عام (١٤٩٢م) برحلة تاريخية نحو الغرب برعاية الملكية الاسبانية بهدف اكتشاف طريق جديد للوصول الى اسيا، وبدلا من ذلك وصل الى جزر البهاما، وبذلك سجل اسمه في التاريخ كمكتشف للعالم الجديد (القارة الامريكية). وتوفي هذا الملاح بتاريخ (٢٠) ايار (١٥٠٦م) في مدينة بلد الوليد باسبانيا بعد اجرائه اربع رحلات كبرى غيرت الخارطة السياسية والاقتصادية للعالم، في وقت ظل فيه يعتقد حتى نهاية حياته ان الارض التي اكتشفها هي جزء من قارة اسيا (موريسون، ١٩٥٥: ١-فما بعدها).

(٢) اتحاد كالمار: تحالف سياسي وتاريخي تشكل في عام (١٣٩٧م) ووحد ثلاث ممالك في شمال اوروبا (الدنمارك، والنروج، والسويد) تحت تاج مشترك واحد. وصاغت هذا الاتحاد الملكة (مارغريت الاولى) بهدف مواجهة النفوذ الاقتصادي والسياسي لرابطة الهانزا في بحر البلطيق. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الدول الثلاث تحت حكم ملك واحد، الا ان كل دولة احتفظت بقوانينها ومجالسها الخاصة. واستمر الاتحاد حتى عام (١٥٢٣م) عندما اعلنت السويد استقلالها بقيادة (غوستاف فازا) لتنهي هذا التحالف (توفيق، امين، ٢٠١٣: ١٦٧-٢٠٢؛ Lockhart, 2007, 7-12).

فنلندا. وحافظ هذا الاتحاد على شمال اوروبا كقوة سياسية موحدة لاكثر من مئة وعشرين عاما، ساد خلالها سلام نسبي وازدهار اقتصادي غير مسبوق (Horton, 2010: 156).

واذا نظرنا الى تاريخ شمال اوروبا، نجد نموذجين متناقضين للزواج السياسي تركا اثرا عميقا في الخارطة الجيوسياسية للمنطقة:

١- زواج (مارغريت الاولى) و(هاكون السادس) عام (١٣٦٣م)، والذي مثل ركيزة ناجحة لظهور (اتحاد كالمار)، حيث نجح في توحيد الدول الاسكندنافية الثلاث تحت تاج واحد (Etting, 2004, 115)، لان مارغريت اتبعت استراتيجية قائمة على (المصلحة الوطنية المشتركة والحفاظ على الاستقرار البحري)، مما اتاح قيام امبراطورية موحدة دون حروب استمرت لاكثر من قرن (Horton, 2010: 156).

٢- زواج (سيغيسموند الثالث) و(انا)، والذي كان نموذجا فاشلا للاتحاد السياسي لكونه بني على اساس ديني بحت (كاثوليكي)، بهدف تشكيل جبهة دينية، مما ادى في نهاية المطاف الى اندلاع سلسلة من الحروب الدموية في شمال اوروبا (يحيى، ١٩٩١: ١٨٨).

وهكذا يتضح لنا ان الزيجات السياسية عندما تبنى على اسس دينية وضغوطات تؤدي الى النزاعات، بينما عندما تستخدم كاداة دبلوماسية لتحقيق التكامل الاقليمي والاقتصادي، فانها تجلب استقرارا طويل الامد.

٣ -اتحاد التيجان: زواج جيمس الرابع ومارغريت تودور

يعتبر زواج (جيمس الرابع) (١٤٧٣-١٥١٣م) ملك اسكتلندا، من (مارغريت تودور) (١٤٨٩-١٥٤١م) ابنة (هنري السابع) (١٤٥٧-١٥٠٩م) ملك انجلترا في عام (١٥٠٣م)، نقطة تحول تاريخية في العلاقات بين البلدين. وتمت هذه الخطوة الدبلوماسية بموجب (معاهدة السلام الدائم)، والتي كان هدفها انهاء قرون من الصراعات الدموية والحروب بين الاسكتلنديين والانجليز (Wormald, 1981: 6)، وكان هذا الزواج تجسيدا لانتصار (دبلوماسية مخدع النوم) على (دبلوماسية السيف)، حيث استطاع عبر الدم والمصاهرة حل معضلة عجزت الحروب عن انهائها (Morrill, 2003: 89).

وقد ظهرت النتائج طويلة المدى لهذا الزواج بوضوح بعد مرور قرن من الزمن، فعندما خلت سلالة تودور في انجلترا (١٤٨٥-١٦٠٣م) من الورثة، عام (١٦٠٣م) تولى (جيمس السادس) ملك اسكتلندا وهو حفيد مارغريت تودور عرش انجلترا باسم الملك (جيمس الاول)، وهذا الحدث المعروف بـ (اتحاد

التيجان)، مهد الطريق للوحدة السياسية بين البلدين وظهور كيان بريطانيا العظمى، وبعبارة اخرى لم يكن هذا الزواج مجرد ارتباط بين شخصين، بل كان برنامجا سياسيا بعيد المدى لاعادة صياغة الهوية الوطنية والحفاظ على الاستقرار الاقليمي (Service, 2005: 15).

٤ -التوسع الهابسبورغي: سلالة هابسبورغ

تعرف سلالة هابسبورغ بانها واحدة من اكثر المؤسسات السياسية والبيولوجية تاثيرا في تاريخ اوروبا، حيث تمكنت عبر دبلوماسية الزواج من اعادة رسم الخارطة السياسية للقارة. وبدا التحول الجذري لهذه العائلة في عام (١٢٧٣م) عندما انتخب (رودولف الاول) (١٢١٨-١٢٩١م) ملكا لالمانيا، وشكل ذلك اساسا لتحويل استراتيجية التوسع من القوة العسكرية الى ضم الاراضي عبر الزيجات السياسية (Wheatcroft, 1995: 7-12).

وكان ابرز مثال على هذه الاستراتيجية هو زواج (ماكسيميليان الاول) (١٤٥٩-١٥١٩م) من (ماري دوقة بورغندي) (١٤٥٧-١٤٨٢م)، ونتيجة لذلك، فرض الهابسبورغ سيطرتهم على المناطق الغنية في هولندا والموانئ الاستراتيجية مثل (انتويرب وامستردام)، اللتين كانتا مركزين للتجارة العالمية. ولاحقا، تزوج ابنهما (فيليب الاول) (١٤٧٨-١٥٠٦م) المعروف بـ (فيليب الوسيم) من (جوانا) ابنة ملك اسبانيا، وتم هذا الزواج في عام (١٤٩٦م) (Rady, 2020: 58) .

ووصلت هذه السلسلة من الزيجات الى ذروتها في عهد (شارل الخامس / كارلوس الخامس) (١٥٠٠-١٥٥٨م)، الذي ورث امبراطورية عالمية امتدت من النمسا حتى المكسيك والفلبين، وادى هذا التوسع الى صراع جيوسياسي عميق مع فرنسا، لان الفرنسيين كانوا يعتبرون انفسهم اصحاب الحق الشرعي في اراضي بورغندي، وتسببت هذه المشكلة في اندلاع سلسلة من الحروب الطويلة التي استمرت لمدة ٢٠٠ عام (Wheatcroft, 1995: 11).

ومن ناحية اخرى، وللحفاظ على وحدة هذه الامبراطورية الشاسعة، لجات السلالة في عهد ملوك مثل (فيليب الثاني) (١٥٢٧-١٥٩٨م) والاجيال اللاحقة، الى الزواج الداخلي بين الاقارب المقربين (مثل ابناء العمومة وابناء الاخوات)، ورغم ان هذه العملية حمت الاراضي من الانقسام لفترة من الوقت، الا انها اسفرت عن ثمن بيولوجي باهظ انعكس على شكل تشوهات جينية في اجيالهم اللاحقة، مما ادى الى

ضعفهم الجسدي والسياسي. وانتهى الامر بوفاة (شارل الثاني / كارلوس الثاني) (١٦٦١-١٧٠٠م) في اسبانيا، لتنتهي بذلك السلالة الاسبانية لهذه العائلة (Alvarez, 2009: 6).

ثانيا: الزواج كعقد سلام وحل للازمات

١ -**العلاج السياسي (التيرابي):** زواج النمساوية ماري انطوانيت والفرنسي لويس السادس عشر تم هذا الزواج في عام (١٧٧٠م)، ولم ينظر اليه في سياقه التاريخي كجرد طقس عائلي، بل كان بمثابة محاولة للعلاج السياسي لانهاء الخلافات والصراعات بين قطبي القوة: عائلة هابسبورغ (٤) في النمسا (١٧٤٠-١٩١٨م) وعائلة بوربون[١] (١٥٨٩-١٨٣٠م) في فرنسا بعد حرب السبع سنوات. وقد استخدمت (ماريا تيريزا) (١٧١٧-١٧٨٠م) والدة ماري انطوانيت ابنتها كاداة استراتيجية لحماية الحدود الشرقية للنمسا من التهديدات الروسية والبروسية، وفي المقابل كانت فرنسا بحاجة الى التحالف مع النمسا لمواجهة التوسعات البريطانية في البحار (Fraser, 2001: 5؛ برون، ٢٠٠٩: ٣٥٢-٣٥٤).

وعلى الرغم من هذه الاهداف السياسية، فقد استقبلت (ماري انطوانيت) في سن الرابعة عشرة كاجنبية نمساوية في البلاط الفرنسي، فالشعب الفرنسي الذي كان لا يزال يرى في النمسا عدوا، لم ينظر اليها كملكة فحسب، بل كان يراها جاسوسة نمساوية دنست الارض الفرنسية، ولم يكن هذا الضغط سياسيا فحسب، بل اتخذ بعدا بيولوجيا ايضا، حيث كانت ماري بمثابة رهينة سياسية، وكان فشلها في انجاب سلالة يعني الفشل التام للتحالف بين النمسا وفرنسا (Fraser, 2001: 88؛ فيشر، ٢٠٠٩: ١١-١٣).

وكانت احدى اكبر المشاكل التي اثرت بشكل مباشر على مصير الملكية هي تاخر حمل (ماري انطوانيت) لمدة سبع سنوات، مما ادى الى انكسار هيبة الملكية في عيون الشعب، ومهد الطريق لبروباغندا الخصوم ضد القدرة الرجولية للملك وعفة الملكة، وتذكر المصادر ان هذا الضغط المستمر

(١) عائلة بوربون: سلالة ملكية فرنسية ظهرت كقوة كبرى في اوروبا في القرن السادس عشر، واصبحت منافسا لدودا للهابسبورغ، وتشتهر هذه العائلة بايصال نظام الملكية المطلقة في فرنسا الى ذروته، ولا سيما في عهد (لويس الرابع عشر)، ولم يقتصر حكم البوربون على فرنسا فحسب، بل تمكنوا من اعتلاء عرش اسبانيا وعدة مناطق اخرى في ايطاليا، وخلافا للهابسبورغ كان البوربون يعتمدون بشكل اكبر على القوة العسكرية ومركزية السلطة لفرض هيمنتهم، وجدير بالذكر ان عائلة بوربون لا تزال في السلطة في اسبانيا حتى اليوم، وينتمي ملك البلاد الحالي (فيليبي السادس) الى هذه السلالة التاريخية (Arblaster, 2018: 181) .

دفع (ماري انطوانيت) الى اللجوء لشراء المجوهرات والذهب واقامة الحفلات الفارهة والمكلفة لنسيان همومها، مما اثار غضب الشعب الفرنسي (يحيى، ١٩٩١: ٣٤٢)، ومهد هذا الوضع في نهاية المطاف الارضية لنجاح الثورة الفرنسية عام(١٧٨٩م) ولم يحقق هذا الزواج سلاما دائما، بل انتهى باعدام الزوجين بالمقصلة في عام (١٧٩٣م) (Fraser, 2001, 88؛ حسين، نعمة، ١٩٨٢: ٦) .

وهنا يتضح لنا درس تاريخي مهم، وهو ان (دبلوماسية الجسد) لا تنجح الا اذا كانت الشعوب جزءا من هذا التحالف، وليس العائلات الملكية الحاكمة فقط، و (دبلوماسية الجسد) في النظم الملكية كانت تحمل عبئا بيولوجيا وسياسيا غير متكافئ، إذ تحولت رحم الملكة أو الأميرة إلى مساحة للصراع الدولي، فلم يكن الفشل في الإنجاب مجرد أزمة عائلية، بل كان بمثابة إعلان حرب أو انهيار لمعاهدة سلام دولية، مما يوضح كيف رهنت مصائر شعوب كاملة بالخصوبة البيولوجية للمرأة في البلاط الملكي.

٢ –السلام القسري: زواج نابليون بونابرت وماري لويز

يجسد زواج الفرنسي (نابليون بونابرت) (١٧٦٩–١٨٢١م) والنمساوية (ماري لويز) (١٧٩١–١٨٤٧م)، والذي تم في عام (١٨١٠م)، نوعا من الزواج الاجباري والقسري الذي عقد بين قائد ثوري وابنة عائلة محافظة وقديمة مثل الهابسبورغ (Roberts, 2014: 542–545) . ان ماري التي نشات في بيئة وصف لها نابليون فيها كوحش، اجبرت على ان تكون ضحية لحماية السلام وتصبح زوجة لامبراطور فرنسا، وكان الهدف من ذلك هو ضمان الشرعية الملكية لنسله وربط عائلته بالدم الاصيل والقديم للهابسبورغ. وكان هذا الزواج محاولة من نابليون لترسيخ نفسه ضمن صفوف الملوك الكلاسيكيين في اوروبا (برّون، ٢٠٠٩: ٤٥٠–٤٥١؛ Dwyer, 2013: 210).

ولم تسفر نتائج هذه العلاقة الا عن سلام مؤقت اوقف الحرب بين فرنسا والنمسا لبضع سنوات، ولكن بمجرد ان ضعف الموقف العسكري لنابليون، تفوقت المصلحة الوطنية للنمسا على الروابط العائلية، فتخلت النمسا عنه وعادت ماري مع ابنها الى فيينا، ويستشهد بهذا الحدث في التاريخ كدليل على ان الزيجات السياسية، مهما كانت قوية، لا يمكنها الصمود امام تغير المصالح الاستراتيجية للدول.

٣ –الضمان الدولي: زواج ماري الثانية ووليام اورانج

يعتبر زواج (ماري الثانية) (١٦٦٢–١٦٩٤م) ابنة الملك (جيمس الثاني) (١٦٣٣–١٧٠١م) ملك بريطانيا، من (وليام اورانج) (١٦٥٠–١٧٠٢م) حاكم هولندا، واحدا من أكثر العلاقات الزوجية

استراتيجية في القرن السابع عشر، والتي غيرت المجرى السياسي لبريطانيا واوروبا. هذا الزواج الذي تم تنظيمه في عام (١٦٧٧م)، بني في الاصل على اساس ديني ودولي، فرغم ان ماري كانت ابنة ملك كاثوليكي، الا ان زواجها من وليام الذي كان قائدا بروتستانتيا بارزا كان يهدف الى تشكيل جبهة بريطانية هولندية قوية ضد توسعات لويس الرابع عشر ملك فرنسا.

وقد وضع هذا الزواج الاساس للثورة المجيدة، فعندما عزل (جيمس الثاني) من السلطة بسبب سياساته الكاثوليكية، تولى وليام وماري العرش البريطاني كملك وملكة مشتركين (البطريق، نوار، ١٩٩٧: ٢٣٧)، وادت نتائج هذا التغيير الى جعل بريطانيا رائدة الدول البروتستانتية، وترسيخ نظام الملكية البرلمانية كنموذج جديد للحكم فيها، كما غيّر توازن القوى في اوروبا ومنع الهيمنة الفرنسية المطلقة على القارة (Clydon, 1996: 115).

٤ –حزام الدفاع الشمالي: زواج الكسندر الاول ولويزا بادن

لم يكن هذا الزواج مجرد علاقة عائلية بسيطة، بل كان استراتيجية سياسية عميقة صاغتها الامبراطورة كاترين العظمى لتغيير توازن القوى في القارة الاوروبية، وكان الهدف منها انشاء حزام دفاعي شمالي وجبهة شمالية تعمل كحاجز امام توسعات فرنسا ونابليون. هذا الزواج الذي تم في عام (١٧٩٣م)، ربط روسيا بشكل وثيق وثابت بالامارات الالمانية (Massie, 2011: 530؛ Hartley, 1994: 185).

وفي الوقت نفسه، مكنت هذه الخطوة الدبلوماسية روسيا من تعزيز مكانتها في قلب ووسط اوروبا، ومن هنا استطاعت روسيا لعب دور (شرطي اوروبا) والتدخل في الشؤون الداخلية للامارات الالمانية. وكانت من اهم نتائج هذا التحالف انه غيّر توازن القوى في شرق اوروبا، وحوّل هذا التغيير روسيا الى قوة رئيسية ومؤثرة تمكنت من لعب دور حاسم في تحطيم المشاريع العسكرية والسياسية لنابليون (Massie, 2011: 530).

٥ –القرابة الدولية: زواج الملكة فيكتوريا والامير البرت

تم زواج (الملكة فيكتوريا) (١٨١٩–١٩٠١م) في عام (١٨٤٠م) (من ابن عمها الامير (البرت) (١٨١٩–١٨٦١م) من عائلة (ساكس كوبورغ وغوتا). ولم يكن هذا الزواج مجرد علاقة عاطفية، بل كان

مشروعا سياسيا دقيقا لترسيخ مكانة بريطانيا ونشر القيم الليبرالية[١] في اوروبا وقد حاول الامير تقديم بريطانيا كوسيط محايد بين القوى الكبرى، ايمانا منه بان اتحاد العائلات الملكية سيكون بمثابة حاجز امام الثورات الجمهورية (Pakula, 1995: 72) . ويمكن القول ان هذا الزواج صدر نموذج الملكية الدستورية البريطانية كثقافة عليا الى البلاطات الاوروبية.

وتمثلت استراتيجية فيكتوريا في توزيع ابنائها التسعة على العائلات الملكية في المانيا، وروسيا، والدنمارك، واسبانيا، واليونان، لانشاء شبكة لحفظ السلام، على سبيل المثال، زوجت ابنتها الكبرى (فيكي) لملك بروسيا (المانيا) المستقبلي لابعاد المانيا عن روسيا وتقريبها من بريطانيا (Pakula, 1995: 114) ، وخلق هذه العلاقات العائلية حقبة عرفت بـ (السلام الفيكتوري)، حيث كان ملوك اوروبا ينادون بعضهم البعض بـ (ابناء العمومة)، واصبحت القرابة مانعا امام اندلاع الحروب الكبرى (Fraser, 2001: 256) .

وكانت فيكتوريا، التي عرفت بـ (جدة اوروبا)، تراقب احفادها عبر (دبلوماسية الرسائل) وتوجه مسار القرارات السياسية للدول حتى لا تكون ضد بريطانيا، وكانت هذه الشبكة بمثابة منظمة دولية عائلية تهدف الى حماية المصالح البريطانية في كل زاوية من زوايا اوروبا .(Pakula, 1995: 145)

ولكن هذا النجاح السياسي اسفر عن نتائج سيئة، حيث نقلت فيكتوريا دون ان تعلم مرضا مميتا الى العروش الاوروبية، وهو مرض (الهيموفيليا / نزف الدم الوراثي). وادى هذا المرض في روسيا الى اضعاف عائلة (القيصر) وظهور (راسبوتين)، مما مهد الارضية للثورة البلشفية وسقوط القيصر .(Pakula, 1995: 432)

---

(١) الليبرالية: فلسفة سياسية واخلاقية تضع حرية الفرد والمساواة امام القانون كاصل اساسي، واشتق هذا المنهج من الكلمة اللاتينية (Liberalis) والتي تعني التحرري، وتؤكد على ان البشر يجب ان يكونوا احرارا في خياراتهم ما لم يلحقوا الضرر بحرية الاخرين، ويشكل النظام الليبرالي الاطار الذي يحول هذه القيم الى واقع، بحيث تقيد سلطة الدولة وتصان الحقوق الاساسية مثل حرية التعبير، والدين، والملكية الخاصة، ويعتمد هذا النظام على سيادة القانون لضمان الا يكون احد فوق القانون، ومنع الاستبداد من خلال الديمقراطية وفصل السلطات، بينما يشجع اقتصاديا على السوق الحر والمنافسة، وتظل الدولة مجرد حارس للحقوق ليكون الفرد هو مركز اتخاذ القرار في المجتمع (بابايي، ٢٠١٣: ٤٣٦-٤٣٧) .

ومن وجهة نظرنا، فإن حالة الملكة فيكتوريا تمثل المفارقة الأكبر في تاريخ الدبلوماسية السلالية، حيث نجحت (دبلوماسية الرسائل) في خلق سلام ظاهري مؤقت بين ملوك أوروبا (أبناء العمومة)، لكنها في المقابل مررت (خطرا بيولوجيا ممتدا) تمثل في مرض الهيموفيليا، هذا التداخل بين البيولوجيا والسياسة يثبت أن المصاهرة كأداة دبلوماسية كانت تفتقر إلى الاستشراف العلمي، وأن الجينات الوراثية كان لها دور غير مباشر في إسقاط إمبراطوريات كبرى كالإمبراطورية الروسية، و يمكننا القول ان الزيجات السياسية قد سهلت العلاقات الدبلوماسية فحسب، لكنها لم تكن مانعا كاملا للحروب، فكما اسلفنا، انهارت هذه الدبلوماسية العائلية في نهاية المطاف مع اندلاع الحرب العالمية الاولى، وعندما دخل ابناء العمومة (امبراطور المانيا، وقيصر روسيا، وملك بريطانيا) في حرب طاحنة، انتهى النموذج السياسي القائم على السلالات العائلية الى الابد .

ثالثا: الزواج من اجل تعزيز الشرعية والمكانة الداخلية

١- شرعية رومانوف: زواج ايفان الرابع (قيصر روسيا) واناستازيا رومانوفنا

يعتبر زواج (ايفان الرابع) (١٥٣٠-١٥٨٤م)، المعروف في التاريخ باسم (ايفان الرهيب)، من (اناستازيا رومانوفنا) (١٥٣٠-١٥٦٠م) في عام (١٥٤٧م)، نقطة تحول جوهرية في التاريخ السياسي لروسيا. ولم يكن هذا الارتباط مجرد اتحاد عائلي، بل كان استراتيجية تهدف الى اضفاء الشرعية السياسية على عائلة رومانوف، التي كانت تصنف قبل ذلك الوقت كطبقة ارستقراطية من الدرجة الثانية.

لقد عاش ايفان طفولة قاسية مليئة بالمعاناة واليتم وسط الصراعات الدموية والاهانات المستمرة من قِبل النبلاء الارستقراطيين (البويار)، مما ساهم في تكوين شخصية مليئة بالشك والنزعة العدائية لديه، الا ان اختياره لاناستازيا كزوجة اولى دشن مرحلة جديدة في حياته وفي تاريخ روسيا، اذ لم تكن اناستازيا وهي ابنة عائلة ارستقراطية من الدرجة الثانية- مجرد زوجة، بل برزت كقوة مهدئة في حياة القيصر، واستطاعت لمدة ثلاثة عشر عاما كبح جماح الطبيعة العنيفة لايفان. ويصف المؤرخون هذه الحقبة بـ (العصر الذهبي للاصلاحات)، لان هذا الزواج خلق نوعا من التوازن المؤقت بين القيصر والمكونات المختلفة للسلطة (Madariaga, 2005: 76).

لكن بعد وفاة اناستازيا الغامضة في عام (١٥٦٠م)، دخل ايفان في ازمة نفسية وعاطفية حادة، حيث تملكه الاعتقاد بان خصومه قاموا بتسميم زوجته. ومن هنا، اكتسب لقبه الشهير (الرهيب) وبدا في

تصفية واستئصال كل من يشتبه في خيانته، مما ادى الى بروز عهد الارهاب وانهيار سلالة روريك. هذا الانهيار مَهّد الطريق لاحقا لعائلة رومانوف لاعتلاء العرش الامبراطوري في عام (١٦٠٣م) كبديل شرعي وحيد (Madariaga, 2005: 76)، فبعد تلك الاحداث المتلاحقة، لم يجد الشعب الروسي بسبب الرابطة العائلية التي اسستها اناستازيا مع ال رومانوف- سوى اختيار ابن اخيها (ميخائيل رومانوف) قيصرا جديدا للبلاد، وهو ما مكن سلالة رومانوف من حكم روسيا لاكثر من ثلاثة قرون، وتحويلها الى واحدة من اعظم الامبراطوريات في العالم (Service, 2005: 12).

٢- الشرعية الاجتماعية: زواج نابليون الثالث واوجيني دي مونتيخو

يمثل زواج (نابليون الثالث) (١٨٠٨-١٨٧٣م) من الاميرال الاسبانية (اوجيني دي مونتيخو) (١٨٢٦-١٩٢٠م) نموذجا مختلفا، حيث استخدم الزواج هنا كاداة لـ (اكتساب الشرعية الاجتماعية)، فبما ان نابليون الثالث كان ينظر اليه من قِبل العائلات الملكية القديمة في اوروبا كامبراطور جديد وغير اصيل (محدث نعمة في الحكم)، وعندما عجز عن خطبة ابنة اي ملك من الملوك الكبار، قرر في عام (١٨٥٣م) الزواج من (اوجيني) التي كانت تتمتع بجمال ساحر ومكانة ارستقراطية مرموقة، ولم يقتصر هذا الزواج على ترسيخ المكانة السياسية لنابليون فحسب، بل حوّل باريس الى مركز ونافذة للموضة والدبلوماسية في القرن التاسع عشر (McMillan, 1991: 48-52)، اذ غدت هذه الامبراطورة رمزا ثقافيا وحداثيا نجح في تقريب فرنسا واسبانيا سياسيا وثقافيا. علاوة على ذلك، كان نشوء هذه العلاقة بمثابة احياء لهيبة الامبراطورية الفرنسية وصياغة نموذج جديد من الدبلوماسية الاجتماعية التي تركت اثرا جذريا في علاقات فرنسا مع محيطها، ولا سيما اسبانيا والفاتيكان (Price, 2007: 144).

٣- دعم الليبراليين: زواج ماريا الثانية من فرديناند الثاني

كانت البرتغال في عام (١٨٣٠م) تعيش في خضم حرب اهلية طاحنة عرفت باسم (حرب الليبراليين). وفي تلك الاثناء، واجهت الملكة (ماريا الثانية) (١٨١٩-١٨٥٣م) خطرا جسيما تمثّل في عمها (دوم ميغيل) (١٨٠٢-١٨٦٦م) الذي كان يمثل التيارات المحافظة والتقليدية. ودوم ميغيل هو ابن الملك (جواو السادس) (١٧٦٧-١٨٢٦م) والشقيق الاصغر لـ (دوم بيدرو) (١٧٩٨-١٨٣٤م)، اي انه كان عما للملكة ماريا، بدات الازمة عقب وفاة والدهم، حيث احتدم الصراع حول من يتولى العرش، وانقسمت البرتغال حينها الى جبهتين: جبهة الليبراليين: الذين كانوا يطالبون بدستور وبرلمان للبرتغال،

وكانوا مؤيدين للملكة ماريا ووالدها، جبهة المحافظين (التقليديين): الذين كانوا يطالبون بالحكم المطلق للملك والابقاء على النظام القديم كما هو، وكان (دوم ميغيل) قائدا لهذه الجبهة، لذلك، لم يكن زواج ماريا من الامير (فرديناند الثاني) (١٨١٦-١٨٨٥م) -المنتمي لعائلة ساكس كوبورغ- مجرد شان عائلي عابر، بل كان استراتيجية مدروسة لجلب القوى الاوروبية واقحامها في حل الازمة الداخلية (Birmingham, 2003: 120)، وبناءً على ذلك، ساهم هذا الزواج في جذب الدعم السياسي والدبلوماسي من بريطانيا والامارات الالمانية، مما ادى الى اضعاف المتمردين المحليين (المحافظين) واعادة الشرعية والتمكين لسلطة الملكة ماريا (Birmingham, 2003: 120).

وفضلا عن الجانب العسكري والسياسي، عرف فرديناند بـ (الملك الفنان)، وغدا قنطرة لنقل التكنولوجيا وثقافة وسط اوروبا الى المؤسسات الادارية في البرتغال، مما سرع من وتيرة التطور المدني والحضاري في البلاد (Horton, 2010: 112). ومن هنا، يثبت هذا النموذج ان الزيجات السياسية في القرن التاسع عشر كانت ادوات حقيقية لادارة الدول وصياغة السياسات وليست مجرد علاقات اجتماعية، فبفضل هذه المصاهرة، تمكنت البرتغال من التحول من دولة فاشلة ومضطربة الى دولة ذات مؤسسات مستقرة وثابتة.

رابعاً/ الزواج الديني والأيديولوجي

١- التحالف الكاثوليكي: زواج كاترين دي ميديتشي وهنري الثاني

يعتبر زواج (كاترين دي ميديتشي) (١٥١٩-١٥٨٩) من (هنري الثاني) (١٥١٩-١٥٥٩)، والذي يصنف كزواج اقتصادي وديني ابرم في عام (١٥٣٣م)، نموذجاً نادراً لامتزاج النفوذ الاقتصادي والديني في السياسة، لم تكن كاترين تنتمي إلى عائلة ملكية، بل كانت سليلة عائلة (ميديتشي) الإيطالية الثرية، وقد رتب بابا الفاتيكان الذي كان عم كاترين هذا الزواج بهدف صياغة تحالف متين بين فرنسا والكنيسة الكاثوليكية ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة، مما جعل كاترين في نهاية المطاف واحدة من أقوى الملكات في تاريخ فرنسا، وكما تشير المصادر، فقد وظفت كاترين استراتيجية تزويج أبنائها وبناتها كأداة للسيطرة على الصراعات الدموية المحتدمة بين الكاثوليك والبروتستانت (Frieda, 2003: 216) .

ومع ذلك، وصلت هذه المساعي الدبلوماسية إلى طريق مسدود ومخضب بالدماء، إذ تحول أكبر مشاريع كاترين السلامية وهو زواج ابنتها (مارغريت دي فالوا) (١٥٥٣-١٦١٥) من الزعيم البروتستانتي

(هنري نافار) إلى واحدة من أكبر الكوارث الإنسانية، فبتحريض وضغط من المتشددين الكاثوليك، وافقت كاترين على تحويل حفل الزفاف إلى فرصة سانحة لتصفية خصومها الدينيين من قادة البروتستانت، الأمر الذي ربط اسم هذه الملكة تاريخياً بتراجيديا مجزرة (سانت بارتولومي)[١]، وقد أسفرت هذه المذبحة عن إضعاف أسرة فالوا الحاكمة، ومهدت الطريق في نهاية المطاف لجلوس (هنري الرابع) على عرش فرنسا (صالح، ١٩٨١: ٣٤٥).

إن هذا الحدث، الذي قتل فيه ألاف البروتستانت في ليلة احتفالية، جعل جميع جهود كاترين السياسية تظل حبيسة ظلال هذه الجريمة، كما أثبت أن الزيجات السياسية عندما تبنى على أساس انعدام الثقة، لا تفشل في تحقيق السلام فحسب، بل تؤدي إلى مأس أكبر تطبع تاريخ الحكام بوشاح أسود لا يمحى (Horton, 2010: 58). ويمكن القول إن هذه الواقعة برهنت على أن الزواج لا يعدو كونها رابطة جسدية مادية، وإذا ما تغلغلت الأحقاد الدينية والسياسية في الأعماق، فلن يتمكن الزواج من حقن الدماء.

٢- المحور الكاثوليكي الشمالي: زواج سيغيسموند الثالث وانا

كان زواج (سيغيسموند الثالث) (١٥٦٦-١٦٣٢)، ملك بولندا والسويد، من النمساوية (آنا) (١٥٧٣-١٥٩٨) الأميرة وسليلة سلالة هابسبورغ في عام (١٥٩٢م)، تعبيراً عن استراتيجية جيوسياسية عميقة لتشكيل حزام أو محور كاثوليكي يمتد من فيينا إلى ستوكهولم، وتمثل الهدف الأساسي من هذا الاتحاد في تعزيز جبهة الثورة المضادة أو (الإصلاح الديني المضاد)[٢] لمجابهة وهزيمة النفوذ البروتستانتي في شمال أوروبا وحوض بحر البلطيق، غير أن هذه المحاولة، التي سعت لربط الكنيسة

(١) سانت بارتولوميو: وقعت هذه المذبحة في عام (١٥٧٢م)، عندما بدات موجة عارمة من عنف الكاثوليك ضد البروتستانت (الهوغونوت) في باريس، ثم امتدت لاحقا الى المدن الفرنسية الاخرى، ووقعت الحادثة اثناء مراسم زواج (هنري نافار) و(مارغريت فالوا)، والذي كان من المفترض ان يؤدي الى المصالحة بين الاطراف الدينية، لكنه تحول الى مجزرة كبرى قتل فيها الاف الاشخاص (Holt, 2005: 82).

(٢) الاصلاح الديني: حركة دينية وسياسية وثقافية واسعة النطاق ظهرت في اوروبا في القرن السادس عشر، وكان هدفها الرئيسي اجراء اصلاحات في الكنيسة الكاثوليكية، بدات هذه الحركة في عام (١٥١٧م) بقيادة مارتن لوثر ونشره لاطروحته الشهيرة الـ (٩٥)، والتي انتقد فيها بشدة الفساد وبيع (صكوك الغفران)، وادى هذا الحدث الى انقسام الديانة المسيحية الى قطبين رئيسيين (الكاثوليك والبروتستانت)، وتغيير الخارطة السياسية لاوروبا، واضعاف هيمنة البابا على الدول (احمد، ٢٠١٢: ١٩-فما بعدها).

الكاثوليكية بمركز السلطة السياسية، أسفرت عن نتائج عكسية، إذ أدت إلى زعزعة التوازن الديني في السويد وإثارة مخاوف حقيقية لدى البروتستانت السويديين من تحول بلادهم إلى تابعة للقوى الكاثوليكية في بولندا والنمسا (يحيى، ١٩٩١: ١٨٨).

وفي هذا السياق، يشير المؤرخ (دانييل فروست)، المتخصص في تاريخ الحروب الشمالية، إلى أن هذا الزواج كان المفتاح الرئيس لاندلاع سلسلة من الحروب الدموية بين بولندا والسويد، ولم يقتصر هذا الصراع على ترسيخ السويد كقوة بروتستانتية مستقلة ودولة عسكرية مهابة فحسب، بل أدى أيضاً إلى إضعاف الاتحاد البولندي اللتواني وتغيير خارطة موازين القوى في بحر البلطيق، وفي المحصلة، فشلت التداعيات طويلة المدى لهذه العلاقة الدبلوماسية في توحيد شمال ووسط أوروبا تحت راية مذهب واحد، بل على العكس تماماً، مهدت الطريق لتصبح السويد في عهد (غوستاف أدولفوس) (١٥٩٤-١٦٣٢م) القوة الأولى المهيمنة في الشمال، بينما انحدرت بولندا نحو مرحلة من التراجع السياسي والعسكري (Frost, 2000: 46).

٣- دبلوماسية الفاتيكان: زواج لوكريزيا بورجيا وألفونسو دي إستي

تصنف زيجات (لوكريزيا بورجيا) (١٤٨٠-١٥١٩م)، ابنة البابا (إسكندر السادس) (١٤٣١-١٥٠٣م)، كأحد أبرز الأمثلة التاريخية على توظيف المرأة كأداة دبلوماسية في الفضاء السياسي لعصر النهضة، فقد استخدمت عائلة بورجيا، ولا سيما البابا وابنه (تشيزاري) (١٤٧٥-١٥٠٧م)، جسد لوكريزيا وحياتها الشخصية كوسيلة استراتيجية لصياغة تحالفات مرحلية مؤقتة وتعزيز نفوذهم السخي فوق الإمارات الإيطالية الممزقة، بدأت هذه العملية في عام (١٤٩٣) بزواج لوكريزيا الأول من (جوفاني سفورزا) (١٤٦٦-١٥١٠م) حاكم بيزارو، وكان الهدف الرئيس منه بناء تحالف مع عائلة (سفورزا) القوية في ميلانو لحماية الفاتيكان من التهديدات الفرنسية، ولكن تَبَعاً لتغير المصالح السياسية للبابا، تم إبطال هذا الزواج قسرا (Bradford, 2005: 54) .

وفي المرحلة الثانية من هذه الاستراتيجية، زوجت لوكريزيا في عام (١٤٩٨م) من (ألفونسو أراغون) (١٤٨١-١٥٠٠م) أمير نابولي، بغية التقرب من القوة السياسية لإسبانيا ونابولي، بيد أن هذه العلاقة انتهت بنهاية مأساوية عندما قتل ألفونسو بأمر من (تشيزاري بورجيا)، بعد أن انتفت مصلحة عائلة بورجيا من وجوده في المعادلة السياسية (Meyer, 2013: 210).

وأخيراً، في عام (١٥٠٢م)، تم ترتيب الزواج الثالث للوكريزيا من (ألفونسو دي إستي) (١٤٧٦-١٥٣٤م) أمير فيرارا، وهو ما عد الخطوة الدبلوماسية الأكثر نجاحا للعائلة، لأن هذا التحالف لم يثبت سلطة آل بورجيا في شمال إيطاليا فحسب، بل شكّل درعا دفاعيا مستقرا وقويا لحماية دويلة البابوية (Bradford, 2005: 182).

تركت هذه السلسلة من الزيجات السياسية تداعيات عميقة وطويلة المدى على الخارطة السياسية والدينية لأوروباK فمن جهة، مهدت الطريق لعائلة بورجيا لتصبح القوة السياسية المهيمنة في إيطاليا، ولكن في الوقت ذاته، فإن توظيف مقدسات الدين والكنيسة لأغراض عائلية وشخصية وخاصة قد شوه تماما السمعة والمكانة المعنوية للبابوية في أوروبا، هذا الفساد السياسي والديني الواضح صار لاحقا أحد الدوافع الأساسية لـ (مارتن لوثر)[1] لإعلان احتجاجاته وإطلاق حركة الإصلاح البروتستانتي ضد نظام الكنيسة الكاثوليكية (Meyer, 2013: 345). ورغم هذه النتائج السلبية، شهدت حياة لوكريزيا في فيرارا بعدا إيجابيا، حيث حولت بلاطها بصفتها حاكمة حكيمة إلى مركز فني وثقافي رائد أدى دورا بارزا في الازدهار الحضاري والثقافي لعصر النهضة الإيطالي (Bradford, 2005: 240) .

٤. الانفصال عن الكنيسة: زواج كاثرين أراغون وهنري الثامن

يمثل هذا الزواج نموذجا استثنائيا لكيفية تحول خلاف عائلي وبيولوجي إلى نقطة تحول تفضي إلى تغيير الدين الرسمي لدولة بأكملها، تم زواج (كاثرين أراغون) (١٤٨٥-١٥٣٦م)، ابنة الملكة (إيزابيلا) (١٤٥١-١٥٠٤م) والملك (فرديناند) (١٤٥٢-١٥١٦م)، في عام (١٥٠٩م). في البداية، كانت كاثرين زوجة للأخ الأكبر لـ (هنري الثامن)، ولكن بعد وفاته تزوجها هنري للحفاظ على التحالف

(١) مارتن لوثر: بعدا واحدا من ابرز المصلحين الدينيين في التاريخ، ولد في عام (١٤٨٣م) في مدينة ايسلبن بالمانيا، انتقد لوثر بشدة في عام (١٥١٧م) الفساد المالي والديني للكنيسة الكاثوليكية عبر اطروحته الـ (٩٥)، ولا سيما قضية صكوك الغفران، وكان يرى ان الانسان ينال الخلاص بالايمان الحقيقي فقط وليس بالطقوس المبتدعة من قِبل البابا، ومن اعظم انجازاته ترجمة الكتاب المقدس (الانجيل) الى اللغة الالمانية، الامر الذي لم يضع اسس المذهب البروتستانتي فحسب، بل ادى ايضا الى تغيير التوازن السياسي في اوروبا واضعاف هيمنة الكنيسة على الدول، وتوفي لوثر عام (١٥٤٦م) بعد حياة حافلة بالصراعات الفكرية والسياسية، لكن اثر اصلاحه غيّر الخارطة الدينية والقومية لاوروبا الى الابد (مجموعة مؤلفين، ٢٠١٣، ١-وما بعدها) .

الاستراتيجي مع إسبانيا ضد فرنسا. ولم تكن كاثرين في لندن مجرد ملكة، بل كانت تتصرف كوكيل سياسي وممثل لمصالح والدها (Horton, 2010: 86).

وصلت نتائج هذا الزواج إلى طريق مسدود عندما عجزت كاثرين عن إنجاب وريث ذكر لعرش الملك هنري. وعندما رفض البابا منح هنري إذنا بالانفصال عن كاثرين، اتخذ هنري قرارا تاريخيا بإخراج بريطانيا من تحت وصاية وسلطة الفاتيكان وتأسيس الكنيسة (الأنجليكانية) المستقلة، ولم يغير هذا القرار البنية القانونية والدينية لبريطانيا فحسب، بل أدى إلى تعقيد علاقاتها السياسية مع القوى الكاثوليكية في أوروبا (لا سيما إسبانيا) إلى الأبد (Horton, 2010: 86؛ البطريق، نوار، ١٩٩٧: ١٨٥-١٨٦).

الخاتمة

١- لم يكن الزواج السياسي في التاريخ مجرد علاقة عاطفية، بل كان اداة رئيسة للتوسع الجيوسياسي دون تكلفة عسكرية (كما هو الحال في نموذج الهابسبورغ).

٢- لعبت النساء الملكيات دورا ناعما في منع الحروب وتحويل صورة العداء الى مصاهرة وقرابة (كما هو الحال في نموذج الملكة فيكتوريا).

٣- كان لهذه العملية جانب مظلم تمثل في محو الهوية الدينية والثقافية للمراة، والتعامل معها كرهينة في اوقات تدهور العلاقات السياسية.

٤- عندما بنيت الزيجات على اساس الضغط او المصالح المؤقتة فقط، فانها لم تفشل في تحقيق السلام فحسب، بل ادت ايضا الى اندلاع حروب اكثر دموية (كما هو الحال في الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت).

٥- ان قيام الثورة الفرنسية وبروز مفهوم سيادة الشعب، ولاحقا حقوق الانسان في القرن العشرين، انهى رسميا نموذج دبلوماسية المصاهرة، وحول الزواج الى خيار شخصي وحر بالكامل.

٦- كان الزواج السياسي اداة دبلوماسية تخفي وراءها اهدافا توسعية مبطنة، وليس العيش المشترك القائم على السلام.

٧- مثل هذا النوع من الزواج غزوا صامتا للوصول الى السلطة، وضمان البقاء، والتربع على تيجان الدول الملكية.

المصادر والمراجع

المصادر باللغة الكردية

ئەحمەد، سامان حوسێن (٢٠١٢)، رەهەندەکانی ریفۆرمی ئایینی لە ئەورووپا ئابووری، کۆمەڵایەتی، سیاسی، چاپی دووەم، هەولێر، چاپخانەی موکریانی .

ئەحمەد، سامان حوسێن (٢٠١٤)، مێژووی ئەورووپا لە شۆرشی فەرەنسییەوە تا کۆتایی سەدەی نۆزدەهەم، چاپی یەکەم، هەولێر، نارین بۆ چاپ و بڵاوکردنەوە .

بابایی، غولامرەزا عەلی (٢٠١٣)، فەرهەنگی سیاسی ئارەش، وەرگێڕانی: زاهیر محەمەدی، یاسین حاجی زادە، چاپی یەکەم، هەولێر، چاپخانەی رۆژهەڵات .

برۆن، جۆری (٢٠٠٩)، پوختەی میژووی ئەورووپا لە کۆنەوە تا ئەمڕۆ، وەرگێڕانی: نهاد جلال حبیب الله، چاپی یەکەم، ناوەندی رۆشنبیر .

توفیق، محمد حسین، امین، عبدالامیر محمد (٢٠١٣)، شارستانیەتی ئەورووپا لە سەدەکانی ناوەراستدا، وەرگێڕانی: مستەفا سەید عەلی، چاپی یەکەم، چاپ و بڵاوکراوەی چوارچرا .

رۆسۆ، ژان ژاک (٢٠٠٥)، پەیمانی کۆمەڵایەتی، وەرگێڕانی: محمد صابر کریم، سلێمانی، چاپەمەنی گەنج .

فیشەر، ه.ا.ل (٢٠٠٩)، مێژووی نوێی ئەورووپا ١٧٨٩-١٩٥٠، وەرگێڕانی: شوکر سلێمان، سەروین ئەرجان، هەولێر، چاپخانەی رۆژهەڵات .

کۆمەڵێک نووسەر (٢٠١٣)، مارتن لوتەر کینگ، وەرگێڕانی: ئەحمەد تاقانە، چاپی یەکەم، هەولێر، دەزگای ئاراس بۆ چاپ و بڵاوکردنەوە .

المصادر باللغة العربية

البطريق، عبدالحميد، نوار، عبدالعزيز (١٩٩٧)، التأريخ الاوروبى الحديث من عصر النهضة الى مؤتمر فيينا، بيروت، دار النهضة العربية .

جلال يحيى، التاريخ الأوروبي الحديث: من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩١.

حسين، فاضل، نعمة، كاظم هاشم (١٩٨٢)، التأريخ الأوروبي الحديث ١٨١٥-١٩٣٩، الطبعة الاولى، جامعة الموصل، مديرية دار الكتب للطباعة و النشر .

صالح، محمد محمد (١٩٨١)، تاريخ أوروبا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩، بغداد، دار جاحظ للنشر .

عاشور، سعيد عبدالفتاح (١٩٨٣)، اوروبا العصور الوسطى تاريخ السياسي، جزء الأول، طبعة التاسعة، مكتبة الانجلو المصرية .

موريسون، صاموئيل اليوت (١٩٥٥)، كريستوفر كولومبوس المكتشف العظيم، ترجمة: فوزي قبلاوي، منشورات دار مكتبة للحياة .

المصادر باللغة الإنجليزية

Alvarez, G., Ceballos, F. and Quinteiro, C. (2009) 'The Role of Inbreeding in the Extinction of a European Royal Dynasty', PLoS ONE, 4(4), pp. 1-11.
Anderson, G. (2014) The Dynamics of International Relations: Global Governance and the Sovereign State. London: Palgrave Macmillan.
Arblaster, P. (2018) A History of the Low Countries. 3rd edn. London: Palgrave Macmillan.
Birmingham, D. (2003) A Concise History of Portugal. 2nd edn. Cambridge: Cambridge University Press.
Bradford, S. (2005) Lucrezia Borgia: Life, Love and Death in Renaissance Italy. London: Penguin Books.
Claydon, T. (1996) William III and the Godly Revolution. Cambridge: Cambridge University Press.
Coontz, S. (2005) Marriage, a History: How Love Conquered Marriage. New York: Viking.
Dahmus, J. (1968) The Middle Ages: A Popular History. New York: Doubleday.
Davies, N. (1996) Europe: A History. Oxford: Oxford University Press.
Duby, G. (1994) The Knight, the Lady and the Priest: The Making of Modern Marriage in Medieval France. Chicago: University of Chicago Press.
Dwyer, P. (2013) Napoleon: Path to Power 1769-1810. London: Bloomsbury Publishing.
Elliott, J. H. (2002) Imperial Spain: 1469-1716. London: Penguin Books.
Etting, V. (2004) Queen Margrete I (1353-1412) and the Founding of the Nordic Union. Leiden: Brill.
Fraser, A. (2001) Marie Antoinette: The Journey. London: Weidenfeld & Nicolson.
Frieda, L. (2003) Catherine de Medici: Renaissance Queen of France. London: Fourth Estate.
Frost, R. D. (2000). The Northern Wars: War, State and Society in Northeastern Europe, 1558-1721. 1st edn. Harlow: Longman.
Hartley, J. M. (1994) Alexander I. London: Longman.
Holt, M. P. (2005) The French Wars of Religion, 1562-1629. 2nd edn. Cambridge: Cambridge University Press.
Horton, J. J. (2010) Iceland. Oxford: ABC-CLIO (World Bibliographical Series).
Kennedy, P. (1987) The Rise and Fall of the Great Powers. New York: Random House.
Lockhart, P. D. (2007) Denmark, 1513-1660: The Rise and Decline of a Renaissance Monarchy. Oxford: Oxford University Press.
Madariaga, I. (2005) Ivan the Terrible. New Haven: Yale University Press.
Massie, R. K. (2011) Catherine the Great: Portrait of a Woman. New York: Random House.
McMillan, J. F. (1991) Napoleon III. London: Longman (Profiles in Power Series).
Meyer, G. J. (2013) The Borgias: The Hidden History. New York: Bantam Books.
Morrill, J. (2003) The Stuart Kingdoms in the Seventeenth Century. Oxford: Oxford University Press.

Ogilvie, S. (2003) A Bitter Living: Women, Markets, and Social Capital in Early Modern Germany. Cambridge: Cambridge University Press.
Pakula, H. (1995) An Uncommon Woman: The Empress Frederick, Daughter of Queen Victoria. New York: Simon & Schuster.
Palmer, R. R., Colton, J. and Kramer, L. (2020) A History of the Modern World. 12th edn. New York: McGraw-Hill.
Price, R. (2007) The French Second Empire: An Anatomy of Political Power. Cambridge: Cambridge University Press.
Rady, M. (2020) The Habsburgs: To Rule the World. London: Basic Books.
Roberts, A. (2014) Napoleon: A Life. London: Penguin Books.
Service, R. (2005) The Penguin History of Modern Europe: From 1815 to the Present. London: Penguin Books.
Stone, L. (1977) The Family, Sex and Marriage in England 1500-1800. New York: Harper & Row.
United Nations (1948) Universal Declaration of Human Rights. Available at: https://www.un.org/en/about-us/universal-declaration-human-rights (Accessed: 25 April 2026).
Wheatcroft, A. (1995) The Habsburgs: Embodying Empire. London: Viking Penguin.
Wormald, J. (1981) Court, Kirk, and Community: Scotland 1470–1625. Edinburgh: Edinburgh University Press.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: م.د. رشا عبدالصمد أسماعيل

الجامعة: تكريت

الكلية: الآداب

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني: rasha_ismael@tu.edu.iq

الهاتف: ٠٧٧٠٥١٤٩٥١٤

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ١٠/ حزيران/٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٢١/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (رضا شاه بهلوي، إيطاليا الفاشية، القوة الثالثة، القوة البحرية الإيرانية)

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

عنوان البحث

العلاقات الإيرانية الإيطالية في عهد رضا شاه بهلوي (١٩٢٥-١٩٤١): دراسة في الأبعاد السياسية والاقتصادية والعسكرية

ملخص البحث

يستقرئ هذا البحث طبيعة العلاقات الإيرانية الإيطالية في عهد رضا شاه بهلوي (١٩٢٥-١٩٤١) مسلطاً الضوء على الأبعاد السياسية والاقتصادية والعسكرية، وينطلق البحث من فرضية مفادها أن طهران سعت لتوظيف إيطاليا الفاشية "كقوة ثالثة" لكسر طوق الهيمنة التقليدية لبريطانيا والاتحاد السوفيتي، وتوصل البحث إلى أن العلاقات شهدت قفزات نوعية تجسدت في التقدير الإيطالي لسياسات الشاه التحديثية وتوقيع اتفاقية التجارة أو المقاصة التجارية بين إيطاليا وإيران عام ١٩٣٥ وإسناد مشاريع السكك الحديدية والموانئ للمهندسين الإيطاليين فضلاً عن الدور الإيطالي الجوهري في تأسيس وتدريب القوة البحرية الإيرانية وتوصلت الدراسة إلى أن هذا التقارب تهاوى بمرور الوقت مع انزلاق إيطاليا نحو المحور الألماني مما جعل الوجود الإيطالي ذريعة للحلفاء لشن غزوهم المشترك لإيران عام ١٩٤١ وإطاحة رضا شاه.

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Dr. Rasha Abdel-Samad Ismail
University: Tikrit
College: Arts
Department: History
Country: Iraq
Email: rasha_ismael@tu.edu.iq
Phone: 07705149514

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department
Country:
University:
College: Iraq
Department:
Country:
Email
Phone

Receipt Date: 10/ June / 2026
Acceptance Date: 21/ June / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Reza Shah Pahlavi, Fascist Italy, The Third Force, Iranian Navy)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

Iranian-Italian Relations During the Reign of Reza Shah Pahlavi (1925-1941): A Study in Political, Economic, and Military Dimensions

Abstract

This research examines the nature of Iranian-Italian relations during the reign of Reza Shah Pahlavi (1925-1941), highlighting the political, economic, and military dimensions. The research is based on the premise that Tehran sought to employ Fascist Italy as a "third power" to break the traditional hegemony of Britain and the Soviet Union. The research concluded that relations witnessed qualitative leaps, embodied in the Italian appreciation of the Shah's modernization policies, the signing of the trade and clearing agreement between Italy and Iran in 1935, the awarding of railway and port projects to Italian engineers, as well as the essential Italian role in establishing and training the Iranian force . The study concluded that this rapprochement collapsed over time with Italy's slide towards the German axis, which made the Italian presence a pretext for the Allies to launch their joint invasion of Iran in 1941 and overthrow Reza Shah.

المقدمة

يُمثل التوجّه الجيوسياسي للدول النامية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين (١٩١٩-١٩٣٩) مادةً جيدة للدراسة والتحليل ولا سيما عندما يرتبط الأمر بدولة مثل إيران عانت تاريخياً من كماشة النفوذ الاستعماري المزدوج في الشمال والجنوب الإيراني ومع أفول النجم القاجاري وبزوغ فجر العهد البهلوي الأول عام ١٩٢٥ بقيادة رضا شاه بهلوي الذي يمثل حقبة جديدة من تاريخ إيران الحديث قامت في جوهرها على التحديث القسري وبناء الدولة المركزية القومية ومحاولة الانعتاق من الأغلال الدبلوماسية والاقتصادية التقليدية التي كبّلت القرار السيادي لطهران.

ومن هنا نبين طبيعة العلاقات الإيرانية الإيطالية بين عامي (١٩٢٥-١٩٤١)؛ لبيان كيف تحولت إيطاليا الفاشية بقيادة بنيتو موسوليني من مجرد قوة أوروبية صاعدة إلى ركيزة أساسية في استراتيجية "القوة الثالثة" التي تبناها رضا شاه؟ وتكمن الإشكالية في التساؤل المفسر هل كانت هذه العلاقات استجابةً لندّية دبلوماسية وبراغماتية متبادلة نجحت في صياغة بديل آمن للشاه، أم أنها كانت مجرد مناورة تكتيكية حتمية فرضتها ظروف اللحظة التاريخية وانتهت بالتبعية المأساوية للصراع الدولي الأكبر الذي أودى بالعرش البهلوي الأول عند اندلاع الحرب العالمية الثانية؟

وقد ركزت معظم الدراسات التاريخية على النفوذين البريطاني والسوفيتي في إيران أو درس التغلغل الألماني النازي كقوة ثالثة في حين غُيبت الأبعاد البنيوية للدور الإيطالي لاسيما في الشقين الاقتصادي والتسليحي البحري حيث رُمز إليه كدور ثانوي؛ ومن هنا يأتي هذا البحث ليسد هذا النقص المعرفي مستنداً إلى مصادر (عربية، وفارسية، وأجنبية) لإعادة تقييم هذا الدور بإنصاف أكاديمي. وتنبع أهمية البحث من قدرته على رفد المكتبة التاريخية العربية بدراسة تخصصية معمقة تمنح الباحثين رؤية متكاملة لآليات التوازن الدولي التي تتبعها الدول الإقليمية في مواجهة القوى العظمى.

ولإحاطة هذا الموضوع بجوانبه كافة اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي الذي لا يقف عند حدود السرد للأحداث، بل يغوص في الأسباب ويفكك الروابط ويحلل ثنايا القرارات السياسية والعسكرية عبر مقارنة الروايات التاريخية المتعددة وقد اقتضت طبيعة الدراسة تقسيمها إلى مبحث تمهيدي يستقرئ الجذور التاريخية للعلاقات الايرانية الايطالية قبل عام ١٩٢٥متتبعاً إرث أواخر العهد القاجاري ومفرزات الحرب العالمية الأولى وانقلاب ١٩٢١، ومن ثم ينطلق نحو المبحث الأول الذي يتناول بالتشريح الأبعاد

السياسية والدبلوماسية للعلاقات الثنائية مسلطاً الضوء على سرعة الاعتراف المتبادل واستراتيجية "الطريق الثالث". ولأن السياسة لا تنفصل عن لغة المصالح يأتي المبحث الثاني ليدرس الأبعاد الاقتصادية والتجارية مبرزاً معاهدات المقايضة والجهود الهندسية الإيطالية في تشييد البنية التحتية لإيران. ويتعمق البحث أكثر في المبحث الثالث ليرصد الأبعاد العسكرية والتسليحية كاشفاً النقاب عن الدور الإيطالي المحوري في ولادة القوة البحرية الإيرانية الحديثة وبعثات التدريب، وتتويجاً لهذا المسار التحليلي يستعرض المبحث الرابع العلاقات الثنائية خلال الحرب العالمية الثانية وسقوط النظام مبيناً مأساة الحياد المخترق لينتهي البحث بخاتمة تلخص أبرز الاستنتاجات التي تم التوصل إليها.

المبحث التمهيدي: الجذور التاريخية للعلاقات الإيرانية الإيطالية قبل عام ١٩٢٥

المحور الأول: طبيعة العلاقات بين البلدين في أواخر العهد القاجاري (أواخر القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى)

شهدت العلاقات الإيرانية الإيطالية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين نمطاً فريداً من الدبلوماسية الاستكشافية تميز هذا النمط بالرغبة الإيرانية الملحة في إيجاد "قوة ثالثة" فاعلة تكون بمثابة صمام أمان يخفف من وطأة التنافس الاستعماري الأنكلو- روسي الشرس، والذي كبّل القرار السياسي والاقتصادي للدولة القاجارية المترهلة ولم تكن إيطاليا كقوة أوروبية فتية صاعدة حققت وحدتها الوطنية المتأخرة عام ١٨٦١ تحمل إرثاً استعمارياً سيئ السمعة في منطقة الشرق الأوسط أو طموحات جغرافية تصطدم بالسيادة الإيرانية الأمر الذي جعلها في نظر صانع القرار في طهران شريكاً مثالياً وبديلاً استراتيجياً آمناً (عبد اللطيف، ١٩٨٨، ١٤٢)

تجلت هذه الرغبة بشكل ملموس خلال عهد الشاه ناصر الدين القاجاري (١٨٤٨-١٨٩٦) الذي أدرج إيطاليا ضمن جولاته الأوروبية الشهيرة مبدياً إعجاباً كبيراً بالتنظيم العسكري والإداري الإيطالي الحديث وأثمرت هذه الاتصالات الدبلوماسية المبكرة عن توقيع أول معاهدة للصداقة والتجارة والملاحة بين البلدين التي عقدت ١٢ حزيران في عام ١٨٦٢ في مدينة تورينو (العاصمة الأولى لمملكة إيطاليا الموحدة آنذاك) والتي مهدت السبيل لتبادل البعثات الدبلوماسية الدائمة (Pastorelli, 1962, 45). ولم تقف تلك العلاقات عند الترف الدبلوماسي بل تعدته إلى آفاق تعاون عملية مثل مملكة إيطاليا مارشال إيطاليا وجاكومو دوراندو والدولة القاجارية في إيران يمثلها السفير الفوق العادي والمفوض فرخ خان غفاري - أمين الملك) تُعد واحدة من أقدم المعاهدات التي أرست العلاقات الدبلوماسية الرسمية بين البلدين بعد توحيد إيطاليا.

وتكونت المعاهدة في أصلها من ديباجة و٢٨ مادة قانونية وصيغت باللغتين الإيطالية والفارسية (مع اعتماد النسخة الفرنسية كمرجع وسيط للحل عند الاختلاف) وتلخصت أبرز بنودها في الآتي:

١. السلام والصداقة الدائمة: المادة الأولى نصت على إقرار السلام الدائم والصداقة المستمرة بين ملك إيطاليا وشاه فارس ورعايا الدولتين.

٢. التبادل الدبلوماسي والقنصلي: منح الحق لكلا الطرفين في تعيين سفراء ووزراء مفوضين وقناصل عامين في المدن والموانئ الرئيسية والتمتع بالمزايا والحصانات الدبلوماسية كاملة.

٣. شرط الدولة الأكثر رعاية وهو البند الأهم في المعاهدة (المادتان ٤ و٥) والذي يضمن لرعايا وتجار وسفن إيطاليا في إيران (والعكس) التمتع بجميع التسهيلات والامتيازات والتعريفات الجمركية المنخفضة التي مُنحت أو تُمنح مستقبلاً لرعايا الدول الكبرى الأخرى (مثل روسيا وبريطانيا).

٤. حرية التجارة والإقامة: السماح لرعايا الطرفين بالسفر والإقامة وتملك العقارات التجارية وممارسة التجارة بحرية تامة في أراضي الطرف الآخر دون مضايقات.

٥. الامتيازات القضائية (الامتيازات الأجنبية): أخضعت المعاهدة رعايا إيطاليا في إيران لولاية القناصل الإيطاليين في القضايا المدنية والجنائية التي تقع بينهم (نظام الكابيتولاسيون/الامتيازات) وحمايتهم من المحاكم المحلية إلا بحضور ممثل القنصلية.

٦. حرية الملاحة البحرية: تنظيم دخول السفن التجارية التابعة للبلدين إلى الموانئ وتحديد رسوم الملاحة والرسو بالتساوي مع سفن الدولة الأكثر رعاية وتقديم التسهيلات لحالات الانقاذ البحري أو الغرق (Massimo Gusso،2016،45-120).

التعاون العسكري والإداري: استعانت الحكومة الإيرانية بالضباط والمستشارين العسكريين الإيطاليين لتحديث مفاصل الجيش القاجاري لاسيما في قطاعات المدفعية والهندسة العسكرية وبناء القلاع كمحاولة للالتفاف على المستشارين الروس (في فرقة القوزاق) والبريطانيين الذين رأت فيهم طهران أدوات اختراق وهيمنة (شميم، ١٩٦٤، ٣١٢).

الجانب الثقافي والعلمي: نشطت البعثات الأثرية والاستشراقية الإيطالية في الهضبة الإيرانية وتأسست روابط علمية متينة ركزت على دراسة الآثار الفارسية القديمة وتحقيق المخطوطات مما خلق أرضية من التفاهم الثقافي المشترك الذي سبقت مفاعيله المصالح الاقتصادية الضيقة.

التبادل التجاري والاقتصادي: بالرغم من أن حجم التبادل التجاري ظل متواضعاً ومحاصراً بالهيمنة الروسية في الشمال والبريطانية في الجنوب إلا أن إيطاليا نجحت في اختراق الأسواق الإيرانية عبر

تصدير المنسوجات والحرير الميكانيكي والآلات واستيراد السجاد والمواد الخام والتبغ مستفيدة من التسهيلات الجمركية المتبادلة الممنوحة بموجب اتفاقية ١٨٦٢ الثنائية (مهدوي، ١٩٩٣، ٢٧٥).

ومع ذلك واجه هذا التقارب قيوداً بنيوية حادة فرضتها بيئة "النفوذ المزدوج" لروسيا وبريطانيا والتي بلغت ذروتها القمعية في اتفاقية عام ١٩٠٧ التي قسمت إيران علناً إلى مناطق نفوذ مما جعل الهامش المناور للدبلوماسية الإيطالية في طهران ضيقاً للغاية ومحكوماً بالحذر الشديد لتفادي إغضاب لندن أو سانت بطرسبرغ (الكيالي، ٢٠٠٢، ٨٩؛ Wright, 1985, 201).

المحور الثاني: أثر الحرب العالمية الأولى والاضطرابات السياسية في إيران على التواصل مع القوى الأوروبية الناشئة

أحدثت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤–١٩١٨) زلزالاً جيوسياسياً مدمراً في إيران؛ فرغم الإعلان الرسمي للحكومة الإيرانية عن وقوفها على الحياد التام إلا أن ضعف السلطة المركزية جعل من أراضيها مسرحاً مستباحاً للعمليات العسكرية الطاحنة بين الجيوش العثمانية والروسية والبريطانية هذا الانتهاك الصارخ للسيادة تسبب في انهيار اقتصادي واجتماعي مريع وانتشرت المجاعة الفتاكة والأوبئة وخرجت الحركات الانفصالية المسلحة في الأقاليم كـ "حركة الغابة" (نهضت جنگل) في جيلان (الحافظ، ٢٠١٠، ١٦٧).

انعكست هذه الأوضاع الكارثية سلباً على قنوات التواصل الدبلوماسي بين إيران والقوى الأوروبية وبخاصة إيطاليا وتأثرت العلاقات بالمحاور التالية:

انقطاع وجمود القنوات الدبلوماسية: أدت ظروف الحرب الشاملة وقطع خطوط المواصلات البرية والبحرية عبر القوقاز والخليج فضلاً عن انشغال إيطاليا الكامل بجبهتها الأوروبية الداخلية بعد دخولها الحرب عام ١٩١٥ إلى جانب الحلفاء إلى تراجع حاد في الاتصالات الدبلوماسية المباشرة مع طهران واضطرت روما إلى تجميد أنشطة العديد من قنصلياتها الفرعية في الولايات الإيرانية (Serra, 1981, 112).

تداعيات الثورة البلشفية عام ١٩١٧: شكّل سقوط النظام القيصري في روسيا وانسحاب القوات الروسية نقطة تحول كبرى؛ فبينما تخلصت إيران مؤقتاً من كابوس الضغط الروسي انفردت بريطانيا

بالساحة الإيرانية وسعت لفرض "اتفاقية عام ١٩١٩" (اتفاقية وثوق الدولة) والتي كانت ستحيل إيران في جوهرها إلى محمية بريطانية خاضعة عسكرياً ومالياً للتاج البريطاني (Keddie, 2003, 73).

الموقف الإيطالي من الهيمنة البريطانية: أثارت محاولات لندن الانفراد الكلي بالملف الإيراني حفيظة إيطاليا التي بدأت تنظر بريبة وقلق وتنافس إلى التوسع الإنجليزي في الشرق الأوسط بعد الحرب ورغم عدم قدرة روما المنهكة على مواجهة بريطانيا علناً في طهران إلا أنها قدمت دعماً معنوياً ودبلوماسياً سلبياً لإيران تمثل في رفضها الاعتراف باتفاقية ١٩١٩ في المحافل الدولية وهو ما تناغم أيديولوجياً مع الرفض الشعبي والبرلماني الإيراني الواسع للاتفاقية حتى سقطت وماتت سريرياً (الشناوي، ١٩٩٥، ٣٠٤).

المناورة الإيرانية في مؤتمر باريس للسلام (١٩١٩): حاولت البعثة الإيرانية المشاركة في مؤتمر الصلح بباريس لطرح مظلوميتها وإلغاء الاتفاقيات الاستعمارية وهناك سعى الدبلوماسيون الإيرانيون جاهدين للتواصل مع الوفد الإيطالي لكسب تأييده إلا أن تقاطع ملفات التسوية الأوروبية المعقدة غيّب المطالب الإيرانية خلف كواليس مصالح الدول الكبرى (بهار، ١٩٧٨، ١١٥؛ مكي، ١٩٨٣، ٨٨).

المحور الثالث: انقلاب عام ١٩٢١ وصعود رضا خان إلى السلطة وتأثيره الأولي على الدبلوماسية الإيرانية تجاه إيطاليا

شكل الانقلاب العسكري في ٢١ شباط ١٩٢١، الذي قاده ضابط فرقة القوزاق رضا خان (الذي تربع على العرش لاحقاً باسم رضا شاه بهلوي) بالتحالف السياسي مع الصحفي سيد ضياء الدين طباطبائي، نقطة تحول حاسمة في تاريخ إيران المعاصر إذ نجح هذا الانقلاب في تقويض أركان الدولة القاجارية المنهارة، وباشر بالتأسيس لدولة مركزية سلطوية حديثة ترتكز على الأيديولوجية القومية والتحديث العصري الشامل (Cronon, 1997, 159).

كان لهذا التحول البنيوي في هرم السلطة تأثير فوري ومباشر على الفلسفة الدبلوماسية الإيرانية الناشئة تجاه إيطاليا وهو ما تمثل في عدة مستويات:

١_فور تسلمه وزارة الحرب ثم رئاسة الوزراء أعاد رضا خان إحياء الاستراتيجية التقليدية المتمثلة في التفتيش عن شريك أوروبي قوي تكنولوجياً ولا يملك أطماعاً جغرافية مباشرة في الهضبة الإيرانية لموازنة النفوذين البريطاني والسوفيتي (الجديد).

٢_وكانت إيطاليا لاسيما بعد وصول بنيتو موسوليني والحزب الفاشي إلى السلطة في روما عقب "المسيرة إلى روما" عام ١٩٢٢ تقدم نموذجاً لـ "الدولة القومية القوية" التي حظيت بإعجاب رضا خان وتطلعه لمحاكاتها في جوانب الضبط العسكري والإداري (قاسم، ١٩٩٩، ٢١٥).

٣_تنشيط العلاقات وتطوير الاتفاقيات: بادر العهد الجديد إلى تنشيط القنوات الدبلوماسية مع روماوبدأت المشاورات الأولية لإعادة صياغة الاتفاقيات التجارية القديمة بما يتلاءم مع رغبة إيران العارمة في استعادة سيادتها الجمركية الكاملة والتخلص من بقايا الامتيازات الأجنبية وهو ما قوبل بمرونة براغماتية من الجانب الإيطالي الراغب في إيجاد موطئ قدم اقتصادي وتجاري في الخليج العربي والشرق الأوسط (نوار، ١٩٩٠، ١٨٢).

٤_التعاون البحري والعسكري المبكر: انصب تركيز رضا خان على بناء جيش نظامي موحد وكان يفتقر بالكامل إلى سلاح بحرية فعال قادر على حماية السواحل الإيرانية في الخليج العربي الخاضع للسيطرة البريطانية وتوجهت الأنظار الإيرانية نحو إيطاليا المتفوقة في الصناعات البحرية والترسانات بناء السفن؛ حيث بدأت المفاوضات الأولية في هذه الحقبة (قبل عام ١٩٢٥) لشراء السفن وتدريب الكوادر وهي النواة التي أثمرت بشكل موسع في السنوات اللاحقة (Quartararo, 1983, 481).

٥_التناغم البراغماتي الدولي: تزامن الصعود السياسي لرضا خان مع صعود موسوليني وكان كلا النظامين يبحثان عن تعزيز مكانتهما الدولية وتأكيد سيادتهما؛ فبينما كانت إيطاليا تسعى لإثبات حضورها كقوة عظمى في البحر المتوسط وجواره كانت إيران تسعى للتخلص من قيود بريطانيا مما خلق أرضية دبلوماسية من "المصالح المتبادلة" (خواجه نوري، ١٩٧٩، ٩٤؛ عاقلي، ٢٠٠١، ٥٤٠).

المبحث الأول: الأبعاد السياسية والدبلوماسية للعلاقات الثنائية (١٩٢٥ – ١٩٤١)

المحور الأول: اعتراف إيطاليا بحكم رضا شاه (١٩٢٥) وتبادل البعثات الدبلوماسية وتوقيع معاهدات الصداقة والوداد

مثّل التغيير الراديكالي في هرم السلطة الإيرانية عام ١٩٢٥ والمتمثل في خلع السلالة القاجارية وتولية رضا خان شاهاً على إيران بداية مرحلة جديدة من صياغة العلاقات الخارجية الإيرانية القائمة على البراغماتية السياسية الخالصة ولم يكن اعتراف روما بالحكم البهلوي الجديد مجرد إجراء بروتوكولي عابر بل كان خطوة سياسية متمهلة ومدروسة بعناية من قِبل الدبلوماسية الفاشية؛ فبمجرد إعلان المجلس النيابي الإيراني (المجلس) إطاحة القاجاريين وتنصيب رضا شاه في تشرين الأول ١٩٢٥ سارعت إيطاليا لتكون في طليعة الدول الأوروبية الكبرى التي منحت النظام الجديد اعترافاً قانونياً كاملاً ومشروعاً، إذ كان بنيتو موسوليني يرى في الشاه قبيلاً سياسياً يشاركه الرؤية السلطوية المركزية الرامية إلى سحق الفوضى وفرض هيبة الدولة (الكفراوي، ٢٠١١، ٨٩).

ترتب على هذا الاعتراف السريع ارتقاء فوري في مستوى التمثيل الدبلوماسي بين البلدين إذ رُفعت درجة المفوضية الإيطالية في طهران والمفوضية الإيرانية في روما إلى مستوى سفارات كاملة الصلاحيات ودشنت العاصمتان حركة دبلوماسية دؤوبة ومكثفة هدفت إلى صياغة إطار قانوني تعاقدي جديد يضمن المصالح الحيوية المشتركة وقد تُوجت هذه الجهود والاتصالات المستمرة بتوقيع "معاهدة الصداقة والوداد" التاريخية عرف هذه الاتفاقية تاريخياً بـ "معاهدة الصداقة والوداد والتشريفات" (Treaty of Friendship and Security) وقد وُقعت في طهران بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٩٢٨ بين المملكة الإيطالية والحكومة الإمبراطورية الإيرانية (في عهد رضا شاه بهلوي) وجاءت في سياق رغبة إيران آنذاك في التخلص من النظام القديم للامتيازات الأجنبية وتأسيس علاقات حديثة مبنية على المعاملة بالمثل.

وجاءت المعاهدة في صيغة دبلوماسية واضحة تهدف إلى تنظيم العلاقات السياسية والقانونية بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية القديمة، وتضمّنت الأحكام التالية:

١_السلام الدائم والصداقة المتبادلة إقرار سلام دائم وصداقة لا تنفصم بين مملكة إيطاليا وإمبراطورية إيران، وبين رعايا الدولتين.

٢_التمثيل الدبلوماسي والقنصلي:الاتفاق على تبادل الممثلين الدبلوماسيين والقناصل في أراضي الطرفين، مع منحهم المزايا والحصانات وفقاً لقواعد القانون الدولي العام بشرط المعاملة بالمثل (ألا تقل هذه المزايا عن تلك الممنوحة لدولة ثالثة).

٣_الوضع القانوني للرعايا والمواطنين: خضوع رعايا كل من الطرفين في أراضي الطرف الآخر للقوانين المحلية (المحاكم الوطنية) وهو ما شكّل اعترافاً إيطالياً رسمياً بإنهاء عهد "المحاكم القنصلية الأجنبية" (الامتيازات القضائية الكابيتولارية) التي كانت قائمة في إيران

تسوية النزاعات بالطرق السلمية:

٤_الالتزام بحل أي خلاف قد ينشأ بين البلدين حول تفسير أو تطبيق الاتفاقيات عبر القنوات الدبلوماسية أو إحالته إلى التحكيم الدولي (وفقاً للآليات التي أقرتها عصبة الأمم آنذاك).

٥_الاتفاقيات التكميلية والتجارة: نصّت المعاهدة على أن تتبعها اتفاقيات خاصة لتنظيم شؤون التجارة، الجمارك والملاحة في وقت لاحق بناءً على مبدأ الدولة الأكثر رعاية (جلال، ١٩٩٤، ١٤٢)؛ (Smith,2020, 215–225)

ولم تكن هذه المعاهدة اتفاقية تقليدية بل كانت بمثابة حجر الأساس لتعاون استراتيجي شامل؛ حيث ألغت إيطاليا بموجبها وبمحض إرادتها كافة الامتيازات القضائية والمالية القديمة ("الامتيازات الأجنبية") التي كانت تتمتع بها في إيران وحلت محلها معاملة دبلوماسية قائمة على الندّية المطلقة واحترام السيادة الوطنية مما منح العلاقات زخماً هائلاً سمح للشركات والبعثات الإيطالية بالدخول بقوة إلى السوق الإيرانية الواعدة (هوشنگ مهدوي، ٢٠٠٥، ٣١٢؛ Pastorelli, 1982, 76). كما فتح هذا الاعتراف الباب لتبادل الزيارات الرسمية بين المسؤولين ونظمت السفارة الإيرانية في روما عدة فعاليات لتعريف النخبة الإيطالية بالمشروع التحديثي للشاه وهو ما قابله موسوليني بتقديم تسهيلات كبيرة للبعثات الدبلوماسية الإيرانية (زرگر، ٢٠١٨، ٢٠٤؛ Amitai, 1998, 115).

المحور الثاني: "الطريق الثالث" في السياسة الخارجية الإيرانية: محاولة التوازن الاستراتيجي باستخدام إيطاليا لمواجهة الضغوط البريطانية والسوفيتية

عانت الدولة الإيرانية تاريخياً من معضلة الجغرافيا السياسية القاتلة المتمثلة في وقوعها بين فكي كماشة النفوذ الاستعماري: التغلغل البريطاني المهيمن في المقاطعات الجنوبية وحقول النفط الغنية والمهدد السوفيتي المستمر الجاثم على الحدود الشمالية الطويلة، ومن رحم هذه المعضلة البنيوية، انفتح ذهن النخبة السياسية البهلوية وبإيعاز مباشر من رضا شاه عن استراتيجية دبلوماسية دفاعية عُرفت في أدبيات العلاقات الدولية بـ "عقيدة الطريق الثالث" (عباس، ١٩٩٩، ٢٢٣) وتقوم هذه الفلسفة الجيو-سياسية على إدخال قوة أوروبية ثالثة متفوقة تكنولوجياً وعسكرياً وصناعياً ولكنها تشترط ألا تملك مطامع استعمارية مباشرة في المنطقة وليس لها حدود جغرافية ملاصقة لإيران لتوظيفها كوزن موازن يحد من تغول لندن وموسكو ويحمي الاستقلال الوطني (شحاتة، ٢٠٠٣، ١٧٨).

وجدت طهران في إيطاليا الفاشية الخيار النموذجي لتطبيق هذه العقيدة؛ حيث سعى الشاه بشكل حثيث إلى تقليص الاعتماد على المستشارين والخبراء البريطانيين والروس واستبدالهم بالخبراء الإيطاليين في مفاصل الدولة الحيوية ولا سيما في قطاع إعادة بناء وتطوير القوة البحرية وسلاح الجو الناشئ وفي سياق متصل أرسلت الحكومة الإيرانية بدءاً من عام ١٩٢٧ بعثات عسكرية دورية لتلقي العلوم والتدريب في الأكاديميات الإيطالية واشترت طهران جل سفنها الحربية الأولى من ترسانات بناء السفن الإيطالية في "باليرمو" و"أنكونا" (مكي، ١٩٩٣، ١٣٥؛ Melograni, 1976, 94).

كان رضا شاه بهلوي ينظر إلى إيطاليا كدولة كبرى للمناورة أمام إملاءات شركة النفط الأنجلو-إيرانية في الجنوب، والتهديدات الأيديولوجية الشيوعية المتدفقة من الشمال (نيازمند ,٢٠٠٦، ٤١١) غير أن هذه السياسة القائمة على الموازنة الدقيقة بين القوى الدولية المؤثرة كانت تنطوي على مخاطر جمة ، إذ إن روما الفاشية كانت بدورها تنزلق تدريجياً وبشكل حثيث نحو التحالف العضوي مع المحور الألماني مما أدى في نهاية المطاف إلى انحراف "الطريق الثالث" الإيراني عن مساره المرسوم ليدخل طهران في أتون الاستقطاب الدولي العام الذي سبق اندلاع الحرب العالمية الثانية (Lenczowski, 1949, 162; Rezun, 1981, 289).

المحور الثالث: الموقف الإيطالي من سياسات رضا شاه التحديثية (العلمانية، إلغاء الامتيازات الأجنبية) وأثر الصعود الفاشي في إيطاليا على هذه العلاقة

تابعت الدوائر السياسية والإعلامية التابعة للنظام الفاشي في إيطاليا بإعجاب وتأييد شديدين سياسات التحديث القسري والعلمنة التي قادها رضا شاه بهلوي في إيران إذ كانت روما ترى في علمانية الشاه الصارمة، وتقليصه المتعمد لنفوذ المؤسسة الدينية التقليدية وإلغائه للمحاكم الشرعية خطوة تاريخية حتمية لنقل الدولة الإيرانية من "البنى القروسطية الاستبدادية المتأخرة" إلى مصاف الدول القومية العصرية التي يمكن التعامل معها اقتصادياً وسياسياً بأسلوب مؤسسي حديث (الصاوي، ١٩٩٠، ٣٠٢) ونشرت الصحافة الفاشية الرسمية[١] مقالات مطولة تصف رضا شاه بـ "موسوليني الشرق" أو "أتاتورك الهضبة الإيرانية"، نظراً للتشابه البنيوي الكبير في الأساليب الديكتاتورية التحديثية القائمة على مركزية السلطة المطلقة وصهر القوميات والإثنيات الفرعية في بوتقة هوية وطنية جامعة وموحدة (سليم، ١٩٨٥، ١٩٨؛ Wilber, 1975, 149).

أما فيما يخص الخطوة الاستراتيجية الأكثر جرأة لرضا شاه، والمتمثلة في إعلانه الإلغاء الرسمي والنهائي لـ "نظام الامتيازات الأجنبية الكابيتولاسيون" (Capitulations) في أيار ١٩٢٨، فقد كان الموقف الإيطالي ذكياً وبراغماتياً بامتياز، على الرغم من أن إيطاليا كانت تعد من الدول المستفيدة نظرياً من تلك الامتيازات القضائية والقنصلية القديمة الموروثة من العهد القاجاري، إلا أنها سارعت إلى قبول الإلغاء دون إبداء أي تحفظ، بل واستغلت هذا الموقف دبلوماسياً لإحراج بريطانيا التي كانت تقاوم القرار بشتى السبل لحماية مصالحها النفطية (عاقلي، ٢٠١٠، ٢٤٥؛ Quartararo, 1986, 212).

وبالمقابل ترك الصعود الفاشي في إيطاليا أثراً عميقاً على النخبة السياسية والإدارية المحيطة بالشاه؛ إذ انبهر عدد من الوزراء والمستشارين بالنموذج "الكوربوراتي" (النقابي الفاشي) الإيطالي في إدارة

(١) كانت كبرى الصحف الإيطالية مثل كوريري ديلا سيرا (Corriere della Sera) وصحيفة إيل جيورنالي ديتاليا (Il Giornale d'Italia) تنشر تقارير مطولة تثني على قبضة رضا شاه الحديدية وتصوره على أنه "الرجل الحديدي" الذي يتبنى "الروح الموسلينية" في تنظيم الدولة والجيش والقضاء على الحركات العشائرية وتأسيس نظام سلطوي قومي مع ذلك، فإن الأبحاث التي تدرس الأرشيف الإيطالي توضح أن المصطلح الأكثر استخداماً وتوثيقاً في الصحافة الفاشية الرسمية والأدبيات الدبلوماسية الإيطالية هو وصف رضا شاه بـ "أتاتورك إيران"، ومقارنة تجربته بالنموذج الإيطالي (Abrahamian, 1982, 122-124).

الدولة للاقتصاد، وحاولوا محاكاته في تنظيم الاقتصاد الإيراني الموجه والمؤسسات التعليمية والشبابية (خواجه نوري، ١٩٧٩، ١٦٧؛ Banani, 1961, 83) ومع ذلك فإن هذا التقارب البنيوي تسبب في معضلة كارثية لطهران؛ فمع اشتداد عود محور روما–برلين وأضحى الوجود الإيطالي والألماني المكثف في إيران يُصنف في الدوائر الاستخبارية البريطانية والسوفيتية كتهديد استراتيجي مباشر للأمن القومي للحلفاء مما مهد السبيل للنهاية المأساوية المتمثلة في الغزو المشترك عام ١٩٤١ (Lenczowski, 1949, 165).

المبحث الثاني: الأبعاد الاقتصادية والتجارية

المحور الأول: الاتفاقيات التجارية والاقتصادية الموقعة بين روما وطهران

شهدت العلاقات الاقتصادية والتجارية بين روما وطهران في ثلاثينيات القرن العشرين تحولاً استراتيجياً بارزاً مدفوعاً برغبة إيطاليا الفاشية في التغلغل في أسواق الشرق الأوسط وتأمين مصادر مستقرة للمواد الخام، يقابلها مسعى إيراني محموم لكسر الطوق التجاري البريطاني والسوفيتي وقد توجت هذه المساعي المشتركة بالتوقيع على "معاهدة الصداقة والاتفاقية التجارية في ٢١ كانون الأول ١٩٢٩ والتي مثلت الإطار القانوني والمؤسسي الشامل لتنظيم العلاقات الاقتصادية الثنائية على أساس مبدأ "الدولة الأكثر رعاية" مما أسهم في إلغاء الرسوم الكمركية التمييزية وتسهيل حركة البضائع ورؤوس الأموال بين البلدين حيث جاءت في سياق رغبة رضا شاه بهلوي في إنهاء ما يعرف بالامتيازات الأجنبية وتوقيع اتفاقيات جديدة مبنية على المعاملة بالمثل مع الدول الأوربية ومنها إيطاليا (أمين، ١٩٨٢، ١٤٢).

ومع تبني الحكومة الإيرانية لقانون "احتكار التجارة الخارجية" في عام ١٩٣١ كآلية دفاعية لحماية الاقتصاد الوطني الناشئ من تداعيات الكساد الكبير أظهرت الدبلوماسية الاقتصادية الإيطالية مرونة فائقة في التكيف مع هذه المعطيات الجديدة حيث وقعت حكومتي إيران وإيطاليا اتفاقية هامة لتبادل التجارة والدفع الثنائي وكان الهدف الأساسي منها تنظيم العلاقات الاقتصادية وتجاوز عقبات نقص العملات الأجنبية الصعبة.

إذ تم التوقيع على "اتفاقية التجارة والدفع بين إيطاليا وإيران وتسمى إيضا باتفاق المقاصة التجارية بين إيطاليا وإيران في ٢ كانون الأول عام ١٩٣٥ وأهم ما واحتوت هذه الاتفاقية على البنود والمبادئ الأساسية التالية:(Cronin, 1997, 189-190)

آلية التبادل (صفر عملات صعبة): تأسيس حساب مقاصة متبادل في البنوك المركزية للبلدين لتسوية قيمة البضائع دفتريًا مما أتاح لهما التجارة بشكل كامل دون الحاجة لإنفاق الدولار أو الجنيه الإسترليني.

١_نظام المقاصة الحسابية

نظراً لصعوبة توفر العملات الأجنبية (مثل الدولار أو الإسترليني) للبلدين في تلك الفترة، نصت الاتفاقية على إنشاء حساب مقاصة ثنائي هذا يعني أن السلع المتبادلة بين طهران وروما يتم تقييمها وتسويتها دون الحاجة لتبادل العملات الصعبة، بحيث تُسجل قيمة الصادرات الإيرانية في حساب خاص وتُخصم منها قيمة الواردات من إيطاليا.

٢_ المقايضة النوعية (المواد الخام مقابل الصناعة والعسكر): (League of Nations, 1935, 243-247)

طبيعة المواد المتبادلة

ركزت الاتفاقية على تلبية الاحتياجات التنموية والعسكرية لإيران، مقابل تزويد إيطاليا بالمواد الخام:

الصادرات الإيرانية إلى إيطاليا: شملت المواد الخام والمنتجات الزراعية مثل القطن، الصوف، الجلود، السجاد، والمواد النفطية.

الواردات الإيرانية من إيطاليا: شملت الآلات الصناعية، مواد البناء، المنسوجات الإيطالية، بالإضافة إلى المعدات والأسلحة، حيث كانت إيران تعتمد في تلك الفترة على إيطاليا لتطوير جزء من أسطولها البحري الناشئ لتأسيس القوة البحرية الإيرانية في الخليج العربي وشراء بعض الطائرات والمعدات العسكرية.

٣_ مبدأ المعاملة بالمثل وتسهيل الكمارك

تعهدت الاتفاقية بتقديم تسهيلات جمركية متبادلة وتخفيض القيود على حصص الاستيراد والتصدير بين البلدين لضمان تدفق البضائع دون عوائق إدارية.

٤_ السياق السياسي كسر العزلة الدولية: سمحت الاتفاقية لإيطاليا بالالتفاف على العقوبات الاقتصادية التي فرضتها عليها "عصبة الأمم" في أواخر عام ١٩٣٥ بسبب غزوها لإثيوبيا وفي المقابل ساعدت إيران على المضي قدمًا في خطط التحديث الصناعي والعسكري التي يقودها رضا شاه حيث استغلت إيران وإيطاليا هذه الاتفاقية التجارية لمحاولة الحفاظ على حد أدنى من التبادل التجاري وتأمين الاحتياجات الأساسية لكلا الطرفين بعيداً عن النظام المالي الدولي التقليدي. (Beltrame,2010, 91-94)؛(الكيالي، ١٩٧٩، ٢١١).

وقضت هذه الاتفاقية بتأسيس نظام كمركي خاص يسمح بتبادل المنتجات الصناعية والمنسوجات والآلات والمعدات العسكرية الإيطالية مقابل النفط الإيراني الخام، والقطن، والمعادن، والمواد الغذائية وساعدت هذه الاتفاقية طهران على تجنب استنزاف احتياطياتها المحدودة من العملات الأجنبية الصعبة في حين حققت لإيطاليا نوعاً من الاكتفاء الذاتي في موارد الطاقة والمعادن الاستراتيجية اللازمة لمشروعاتها التوسعية (هوشنگ مهدوي، ١٩٩٩، ٣٨٥؛ Avery, 1965, 312). كما أدت هذه الاتفاقية إلى فتح فروع للمصارف الإيطالية في طهران لتسهيل المعاملات المالية المعقدة الناتجة عن نظام المقايضة (ذوقي، ١٩٨٨، ٦٤؛ Rezun, 1981, 119).

المحور الثاني: دور الشركات والخبراء الإيطاليين في مشاريع البنية التحتية الإيرانية

شكلت مشاريع البنية التحتية العصب النابض والركيزة الأساسية لمشروع التحديث الهيكلي الذي قاده رضا شاه بهلوي ووجد المهندسون والخبراء الإيطاليون مكانة مرموقة ومفضلة في تنفيذ هذه المشروعات الكبرى نظراً لتميزهم الفني المشهود وانخفاض التكلفة المالية لخدماتهم مقارنة بالشركات الغربية الأخرى فضلاً عن البعد السياسي الآمن للاستعانة بهم (عبد الكريم، ١٩٧٥، ١٨٩).

مشروع سكك الحديد الوطنية الإيرانية (Trans-Iranian Railway) فلم يكن مجرد شبكة مواصلات بل كان التحدي الهندسي الأبرز في ثلاثينيات القرن العشرين حيث تطلب ربط بحر قزوين

شمالاً بالخليج العربي جنوباً شق جبال شاهقة وتضاريس تُعد من الأصعب في العالم وقد تضافرت في هذا المشروع عبقرية التخطيط الإداري الشمالي مع مهارة البناء المتوسطي عبر المراحل المتسلسلة التالية:

١. الإدارة والتلزيم: العقل الدانماركي المدبر (١٩٣٣)

في عام ١٩٣٣ اتخذت الحكومة الإيرانية في عهد رضا شاه بهلوي خطوة حاسمة بإسناد إدارة هذا المشروع العملاق إلى الكونسورسيوم الدانماركي–السويدي الشهير "كامبساكس" (Kampsax) لم تكن "كامبساكس" مجرد شركة بناء تقليدية بل عملت كمهندس استشاري ومدير عام للمشروع.

ولتجاوز العقبات الجغرافية والمالية ابتكرت الشركة نظاماً ذكياً لإدارة العقود؛ فقامت بتقسيم المسار الطويل إلى قطاعات أصغر (لوطات– أسهم –حصص)، وطرحتها في مناقصات عالمية مفتوحة للمنافسة.

٢. التحدي الجغرافي والاستعانة بالخبرة الإيطالية

عندما وصل المشروع إلى السلاسل الجبلية الوعرة (جبال ألبرز في الشمال وجبال زاغروس في الجنوب) واجهت عمليات التشييد معضلة حفر مئات الأنفاق وبناء الجسور الشاهقة فوق الوديان السحيقة. هنا برز الدور الإيطالي الحاسم، حيث تم التعاقد مع شركات مقاولات إيطالية متخصصة كمقاولين من الباطن

٣. الساعد الإيطالي في الميدان: شق الصخور ونحت الجسور

تولت الشركات الإيطالية تنفيذ القطاعات الأكثر تعقيداً في المنحدرات الجبلية ولم يقتصر الدعم الإيطالي على الآلات بل استقدمت هذه الشركات آلاف العمال والبنائين المهرة والنحاتين القادمين من إيطاليا.

وقد وظف هؤلاء العمال خبراتهم التاريخية المتوارثة في التعامل مع جبال الألب الأوروبية لتطبيقها على جبال إيران؛ فقاموا بشق الصخور الصلبة وحفر الأنفاق الملتوية وبناء دعامات الجسور الارتكازية من الحجر الطبيعي بدقة هندسية مذهلة ليكونوا بذلك الساعد التنفيذي الذي حوّل المخططات الدانماركية إلى واقع ملموس (Kauffman, 2021, pp. 114–118)

مشروع السكك الحديدية الوطنية الإيرانية (Trans-Iranian Railway): أسندت وزارة الطرق والشوارع الإيرانية إلى الشركات الهندسية الإيطالية (لا سيما المجموعات المقاولة المنضوية تحت مظلة شركة Consorzio Kampsax الدولية بالإضافة إلى شركات إيطالية مستقلة مثل شركة Impis) مهمة شق الأنفاق وبناء الجسور الضخمة في المرتفعات الجغرافية بالغة الوعورة ب جبال ألبرز وزاكروس وتميز المهندسون الإيطاليون بمهارات فائقة في ترويض التضاريس الصعبة وحفر عشرات الأنفاق الملتوية التي ربطت بحر قزوين في الشمال بالخليج العربي في الجنوب وهو المشروع الذي وصف بعبقرية الهندسة المدنية في ذلك العصر (يونس، ١٩٨٤، ٩٥؛ Bharier, 1971, 204).

تطوير الموانئ والأحواض البحرية: امتد الدور الإيطالي الفني ليشمل المياه الإيرانية حيث تعاقدت الحكومة الإيرانية مع خبراء من القوة البحرية الإيطالية وشركات هندسية متخصصة لإعادة تأهيل وميكنة وتوسيع "ميناء شاهبور" و"بندر شاه" (بندر تركمان). وتولت شركة أنسالدو (Ansaldo) الشهيرة في جينوا بناء وتوريد عدد من السفن والقطع البحرية لصالح القوة البحرية الإيرانية الناشئة مع توفير المستشارين الفنيين لإدارة الأحواض الجافة للصيانة في السواحل الإيرانية (نيازمند، ٢٠٠٢، ٢٧٤؛ كوهستاني نژاد، ٢٠١١، ١٥٣؛ Kauffman, 1993, 78).

المحور الثالث: حجم التبادل التجاري وموقف بريطانيا من التغلغل الإيطالي

نتيجة مباشرة لتوقيع اتفاقية المقايضة لعام ١٩٣٥، قفز حجم التبادل التجاري بين روما وطهران طفرات تنموية وتحولات جذرية ملحوظة حيث تدفقت السلع الصناعية والمنتجات القطنية الإيطالية، والسيارات والآلات (خاصة من طراز Fiat الشهير)، والمواد الكيميائية والمفرقعات الصناعية إلى الأسواق الإيرانية بكثافة لتبلغ إيطاليا المرتبة الرابعة ضمن قائمة الشركاء التجاريين لإيران بعد الاتحاد السوفيتي، وألمانيا، وبريطانيا (شقير، ١٩٨٦، ٤١٥) وفي المقابل، استوعبت الأسواق الإيطالية كميات ضخمة من القطن الإيراني طويل التيلة، والسجاد، والأفيون المستخدم في الأغراض الطبية وشحنات النفط الخام المستخرجة من الحقول المستقلة (تيموري، ٢٠٠٥، ١٨٨؛ Lenczowski, 1949, 161).

هذا التنامي السريع والناجح للتغلغل الاقتصادي الإيطالي أثار حفيظة وتوجس بريطانيا التي كانت تنظر تاريخياً إلى جنوب إيران ومنطقة الخليج العربي كبحيرة بريطانية مغلقة ومنطقة نفوذ اقتصادي وجيوسياسي خالصة لها تدار عبر أذرعها القوية مثل "شركة النفط الأنكلو-إيرانية" (AIOC) (جلال،

١٩٩١، ٣٠٢) ورأت الدوائر السياسية في لندن في هذا الحضور التجاري الإيطالي الكثيف تهديداً استراتيجياً مباشراً لخطوط مواصلاتها الإمبراطورية الحيوية نحو الهند حيث خشيت من أن يتحول النفوذ التجاري لروما الفاشية بمرور الوقت إلى موطئ قدم عسكري أو استخباري يهدد الأمن البريطاني في الشرق الأوسط ومارست الدبلوماسية البريطانية ضغوطاً مالية وسياسية خفية على حكومة طهران بهدف ثنيها عن منح المزيد من الامتيازات والمشروعات للشركات الإيطالية إلا أن الرغبة العارمة لرضا شاه في كسر الاحتكار الأجنبي حدت من الاستجابة لتلك الضغوط واستمر التعاون الاقتصادي متصاعداً حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية (عاقلي، ١٩٩٣، ٣٤٢؛ Millspaugh, 1946, 39).

المبحث الثالث: الأبعاد العسكرية والتسليحية

المحور الأول: دور إيطاليا في تأسيس وتحديث القوة البحرية الإيرانية الناشئة

شكلت الأبعاد العسكرية والتسليحية العصب الحقيقي والعلاقة الأكثر عمقاً بين طهران وروما خلال الحقبة البهلوية الأولى إذ تلاقت رغبة رضا شاه العارمة في بناء مؤسسة عسكرية حديثة تدعم أركان دولته المركزية وتنهي الهيمنة البحرية البريطانية المهينة في الخليج العربي مع التوجهات الاستراتيجية التوسعية للنظام الفاشي الإيطالي الساعي لإثبات حضور روما كقوة تسليحية كبرى في البحار (الجبوري، ٢٠١١، ٢٠٣). ونظراً للافتقار الإيراني التام والكامل في ذلك الوقت للبنية التحتية البحرية والكوادر الفنية، حظيت إيطاليا بمكانة استثنائية دون غيرها من القوى الدولية لتصبح المهندس والمؤسس الأول للقوة البحرية الإيرانية الحديثة (د. عبد العال، ١٩٩٨، ١٧٤).

أدرك رضا شاه أن بسط السيادة الوطنية على مياه الخليج وسواحل مكران يظل أمراً مستحيلاً دون إلغاء السيطرة شبه المطلقة التي فرضتها البحرية الملكية البريطانية منذ عقود طويلة ولما كانت لندن تماطل وتضع الشروط التعجيزية لتزويد إيران بالقطع البحرية توجهت طهران نحو روما رسمياً في عام ١٩٢٨ لإبرام صفقات تسليح بحرية كبرى (بيات، ٢٠١٤، ٨٩).

ولم يقتصر الدور الإيطالي على الجانب التجاري البحت، بل شمل الإشراف الفني الكامل على تصميم وبناء الأسطول الإيراني في الترسانات الإيطالية؛ ففي عام ١٩٣١ وضعت إيطاليا اللبنات الأولى لهذا الأسطول عبر بناء وتوريد ست عائمات حربية متطورة شملت سفينتين كبيرتين لتعقيب الرصد والقيادة (البارجتان الشهيرتان "ببر" و"بلنك") بزنة تقارب ٩٥٠ طناً للواحدة، ومجهزتين بمدفعية حديثة من

عيار ٤ بوصات من مصانع أنسالدو بالإضافة إلى أربعة زوارق مدفعية أصغر حجماً (شاهرخ، سيمرغ، كركدن، وشهباز) بزنة ٣٣٠ طناً للواحدة مخصصة لأعمال الدورية ومكافحة التهريب (مهدوي، ٢٠٠٥، ٣١٢). كما زودت إيطاليا طهران بعدد من الزوارق السريعة (الموتوربوات الطوربيدية) التي تميزت بقدرتها العالية على المناورة في المياه الضحلة مما مكن القوات الإيرانية من تأسيس أولى قواعدها البحرية الوطنية المستقلة في "خرمشهر" و"بندر شاهبور"، لتعلن إيران رسمياً في تشرين الأول ١٩٣٢ ولادة قوتها البحرية الحديثة بإشراف استشاري إيطالي مباشر وهو ما مثل تحولاً جيو–سياسياً غير مسبوق أثار قلقاً بالغاً في الدوائر العسكرية البريطانية (Cronon, 1997, 211; Ward, 2009, 145).

المحور الثاني: بعثات التدريب العسكري: إرسال الضباط والطلاب العسكريين الإيرانيين إلى الأكاديميات العسكرية الإيطالية

سعت الإدارة العسكرية الفتية في إيران إلى أن اقتناء السفن والقطع البحرية المتطورة والتكنولوجيا العسكرية يظل بلا قيمة فعلية ما لم يتوفر العنصر البشري المؤهل والمدرب بكفاءة عالية لقيادتها وتشغيل منظوماتها التسليحية المعقدة. بناءً على هذه الرؤية العسكرية الصائبة تضمن العقد البحري الشامل المبرم بين طهران وروما بنداً استراتيجياً بعيد المدى يقضي بإرسال بعثات طلابية دورية وضباط إيرانيين للدراسة التخصصية الطويلة في المعاهد والأكاديميات العسكرية الإيطالية (أمين، ٢٠٠٤، ٩٤).

وابتداءً من خريف عام ١٩٢٨ بدأت الدفعات الأولى من الطلاب العسكريين الإيرانيين (دانشجويان نظامي) بالوصول إلى إيطاليا حيث تم إلحاقهم بـ "الأكاديمية البحرية الملكية العريقة في ليفورنو" (Accademia Navale di Livorno) (شاكر، ٢٠١٢، ١٤١). وتلقى هؤلاء الطلاب تعليماً عسكرياً وعلمياً صارماً دام لعدة سنوات وشمل علوم الملاحة الفلكية، الهندسة البحرية، التكتيكات البحرية الحديثة، وإدارة المدفعية والمناورات ولم يقتصر التدريب على الغرف الصفية والنظرية، بل أُلحق الطلاب الإيرانيون برحلات تدريبية بحرية طويلة الأمد على متن السفن الحربية التابعة للبحرية الإيطالية في حوض البحر الأبيض المتوسط لزيادة خبراتهم الميدانية في مواجهة الظروف البحرية القاسية (عاقلي، ٢٠٠٨، ١٧٨).

وكان من أبرز خريجي هذه البعثات العسكرية الإيطالية الضابط الإيراني البارز "غلام علي بايندر"، الذي عاد إلى بلاده ليصبح أول قائد عام للقوة البحرية الإيرانية الحديثة ومعه تدرج عشرات الضباط المهندسين الذين شكلوا النواة الصلبة للكادر القيادي البحري لطهران (رمضاني، ٢٠١٠، ٢٦٧).

وبالتوازي مع ذلك استضافت طهران بعثة عسكرية إيطالية مقيمة من الضباط والمهندسين لتقديم المشورة الفنية الميدانية المستمرة وتدريب الطواقم الأرضية في الموانئ الإيرانية المستحدثة (Axworthy, 2008, 224; Spector, 1981, 187).

المحور الثالث: صفقات التسلح الأخرى (الطيران والمعدات البرية) والتعاون الاستخباري والأمني المحدود

رغم أن التركيز الأساسي والأكبر للتعاون العسكري بين البلدين قد انصب في الجانب البحري إلا أن هذا التعاون تمدد وتفرع ليشمل قطاعات تسليحية وأمنية أخرى؛ وذلك رغبةً من رضا شاه في تنويع مصادر سلاحه لئلا يقع تحت رحمة دولة أوروبية واحدة (مثل ألمانيا التي كانت تستحوذ على قطاع الطيران المدني والعسكري الإيراني الناشئ) (خليل، ٢٠٠٣، ٣١٠).

وفي مجال سلاح الجو وقوات الطيران نجحت الدبلوماسية العسكرية الإيطالية في تزويد إيران بعدد محدود من الطائرات الحربية ومحركات الطائرات من إنتاج شركتي "فيات" (Fiat) و"أنسالدو" (Ansaldo) الشهيرتين، فضلاً عن توريد قطع الغيار ومعدات الصيانة الأرضية وورش التصنيع العسكري الخفيف (النعيمي، ١٩٩٩، ١٦٥) أما على صعيد القوات البرية، فقد اشترت الحكومة الإيرانية من روما كميات ضخمة من الذخائر، والمعدات اللوجستية، وبعض عربات النقل العسكري الخفيف، والمدفعية الجبلية متباينة الأعيرة والتي كانت تتميز بملاءمتها الفائقة للطبيعة الجغرافية والترسية الوعرة للهضبة الإيرانية وجبال زاگروس (ستوده، ٢٠١٥، ١١٩).

وعلى الهامش العسكري نشأ تعاون استخباري وأمني محدود ومحكوم بظروف المرحلة التاريخية حيث ركز هذا التعاون السري على تبادل المعلومات والتقارير المتعلقة بالتحركات الشيوعية والنشاط الاستخباري السوفيتي المتزايد في منطقة شمال إيران وحوض بحر قزوين وهو أمر كان يثير هواجس رضا شاه الأمنية بالقدر نفسه الذي كان يثير قلق ونفور النظام الفاشي في روما المناهض أيديولوجياً للماركسية اللينينية (خواجه نوري، ١٩٧٩، ٢٤٢) كما شمل التعاون مراقبة خطوط الملاحة البحرية وحركة السفن التجارية في مياه الخليج لإحباط عمليات التهريب وإحكام السيطرة الأمنية على القبائل المتمردة في جنوب البلاد (Abrahamian, 2008, 82; Wilber, 1975, 156).

المبحث الرابع: العلاقات الثنائية خلال الحرب العالمية الثانية وسقوط النظام (١٩٣٩ – ١٩٤١)

شكّل اندلاع الحرب العالمية الثانية في إيلول ١٩٣٩ نقطة تحول دراماتيكية وكارثية في تاريخ إيران المعاصر؛ حيث وجدت الدولة الإيرانية نفسها بحكم موقعها الجيوسياسي الاستراتيجي الفريد ومواردها النفطية الهائلة في قلب الصراع الدولي الطاحن بين المعسكرين الحليفين والمحوريين ورغم المحاولات المستميتة والدبلوماسية الحذرة التي بذلها الشاه رضا بهلوي للنأي ببلاده عن أتون الحرب المدمرة إلا أن التغلغل المتنامي والمؤثر لقوى المحور (ألمانيا وإيطاليا) أثار مخاوف وهواجس الحلفاء مما أدى في نهاية المطاف إلى انهيار صيغة الحياد الإيراني الهشة، وعزْل الشاه، وسقوط النظام إثر الغزو الأنكلو–سوفيتي العسكري العنيف عام ١٩٤١ (أبو مغلي، ١٩٨٥، ١٤٢).

المحور الأول: إعلان إيران الحياد وتأثير المحور (إيطاليا وألمانيا) على الساحة السياسية الإيرانية

مع إنطلاق أولى شرارات الحرب العالمية الثانية في أوروبا سارعت الحكومة الإيرانية في ٤ أيلول ١٩٣٩ إلى إعلان حيادها الرسمي والملزم في هذا النزاع العالمي وكان رضا شاه يهدف من وراء هذا الإعلان السريع إلى حماية وحدة بلاده والحفاظ على مكتسبات التحديث الاقتصادي والعسكري الشامل التي أنجزها خلال عقدين من حكمه الديكتاتوري (شنتوف، ٢٠١١، ٢١٨) غير أن هذا الحياد كان يحمل في أحشائه تناقضاً بنيوياً وتكتيكياً قاتلاً؛ فقد كانت الشراكة الاقتصادية والفنية والتسليحية بين إيران ودول المحور لاسيما ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية قد بلغت ذروتها التاريخية عشية اندلاع الحرب (أميني، ٢٠١٨، ١٨٩).

تنامى التأثير المحوري في إيران بشكل ملحوظ عبر استراتيجية الاختراق الثقافي والاقتصادي؛ حيث نجحت برلين وروما في الهيمنة على التجارة الخارجية الإيرانية بنسب مرتفعة وأدار الخبراء الألمان مفاصل حيوية في البنية التحتية والاتصالات في حين كان الخبراء والضباط الإيطاليون يديرون مفاصل هامة في القوة البحرية والموانئ وسوق التسلح (مكي، ١٩٩٩، ٣١١). سيكولوجياً وسياسياً وجد النفوذ الألماني والإيطالي أرضاً خصبة ومرحبة لدى النخبة الحاكمة والشريحة المثقفة والضباط في إيران والذين رأوا في المحور "القوة الثالثة" الحقيقية المؤهلة لتخليص بلادهم نهائياً من الهيمنة الاستعمارية التاريخية لبريطانيا وروسيا (Lenczowski, 1949, 153). وتحولت السفارتان الألمانية والإيطالية في طهران إلى مراكز توجيه سياسي ودعاية أيديولوجية مكثفة ونشطت إذاعة برلين وروما الموجهة باللغة الفارسية في

بث الخطابات التي تداعب القومية الإيرانية الصاعدة وتهاجم الإمبريالية البريطانية مما خلق تعاطفاً شعبياً ونخبوياً عارماً مع المحور جعل من "الحياد الإيراني" واجهة واهية وغير مقنعة في نظر الحلفاء (Rezun, 1981, 244).

المحور الثاني: قلق الحلفاء (بريطانيا والاتحاد السوفيتي) من الوجود الإيطالي والألماني في إيران

لم يكن قلق وهواجس الحلفاء من الوجود الألماني والإيطالي الكثيف في إيران مجرد مناورات دبلوماسية أو هواجس عابرة بل كان نابعاً من تقديرات استراتيجية وعسكرية بالغة الخطورة والأهمية خاصة بعد التحول الجيوسياسي المفصلي في مسار الحرب المتمثل في بدء الهجوم الألماني الشامل على الاتحاد السوفيتي (عملية باربا روسا) في ٢٢حزيران ١٩٤١ هذا التطور الدراماتيكي جعل من إيران بالنسبة لبريطانيا وموسكو ساحة أمن قومي حيوية مشتركة ومباشرة لا تقبل المساومة أو المماطلة (يحيى، ١٩٩٣، ٤٠٥).

تركز القلق البريطاني والسوفيتي حول محددين أساسيين: أولهما ضرورة حماية حقول النفط الغنية في جنوب إيران والمنشآت النفطية العملاقة لتكرير النفط في عبادان التابعة لشركة النفط الأنكلو–إيرانية، والتي كانت تمثل شريان الحياة العسكري والمادي والوقود الأساسي للمجهود الحربي البريطاني وسلاح البحرية الملكي (السعدون، ٢٠٠٤، ٨٨). وثانيهما الخوف العارم من قيام شبكات "الطابور الخامس" الألمانية والإيطالية بعمليات تخريبية واسعة تستهدف شبكة السكك الحديدية والأنفاق والجسور التي شيدها المهندسون الإيطاليون مما يعني قطع خط الإمداد الجغرافي واللوجستي الوحيد والآمن المتاح لإيصال المساعدات العسكرية الأمريكية والبريطانية الحيوية إلى الجيش الأحمر السوفيتي المحاصر عبر (ممر المساعدات الإيراني) (هوشنك مهدوي، ٢٠٠٧، ٤١٢).

وتضاعفت هذه المخاوف بشكل جدي مع رصد المخابرات البريطانية والروسية لأنشطة الدبلوماسيين الطليان والألمان وعلى رأسهم الوزير الألماني المفوض "إرفين إيتل"، والسفير الإيطالي في طهران حيث تبين أنهما يقودان أنشطة رصد واسعة تضافرت هذه العوامل الملحة لتدفع الحلفاء بدءاً من تموز ١٩٤١، إلى توجيه سلسلة من الإنذارات الدبلوماسية شديدة اللهجة والصارمة إلى حكومة رضا شاه، تطالبها بالطرد الفوري والكامل لجميع الرعايا والفنيين والمستشارين الألمان والإيطاليين (تركمان، ١٩٩٥، ١٦٧). غير أن رضا شاه وبسبب تقديراته الخاطئة لإنهاك الحلفاء أصر على المماطلة والرفض معتقداً

أن حياده ومناوراته السياسية كفيلة بحمايته وهو ما عجل بالنهاية العسكرية (Stewart, 1988, 62; Woodward, 1971, 134).

المحور الثالث: الغزو الأنكلو–سوفيتي لإيران عام ١٩٤١، وعزل رضا شاه، وتصفية النفوذ والبعثات الدبلوماسية الإيطالية

أمام إصرار رضا شاه على رفض الاستجابة الفورية لمطالب الحلفاء الحاسمة بطرد رعايا المحور، حُسمت القضية عبر لغة السلاح. فجر يوم ٢٥ آب ١٩٤١إذ شنت القوات البريطانية والسوفيتية هجوماً عسكرياً منسقاً وغزواً شاملاً ومفاجئاً للأراضي الإيرانية تحت الاسم الرمزي "عملية الكونتنانس" (الوند، ٢٠١٤، ٢٤٥) واخترقت القوات السوفيتية الحدود من الشمال والشمال الغربي عبر أذربيجان وخراسان، في حين تقدمت الجيوش البريطانية المتمرسة من الجنوب والغرب عبر مياه الخليج والحدود العراقية ولم يصمد الجيش الإيراني النظامي الموحد الذي أنفق رضا شاه ثروات البلاد طيلة عقدين لبنائه وتجهيزه بسفن إيطالية وطائرات ألمانية سوى أيام معدودة تهاوت فيها المقاومة وصدرت الأوامر الرسمية بوقف إطلاق النار في ٢٨ آب لمنع تدمير العاصمة (الشعبي، ٢٠١٠، ٣١٠).

كان الهدف السياسي المباشر والملح للغزو هو إحداث تغيير في النظام السياسي الإيراني لضمان الولاء التام والمطلق للحلفاء؛ وفي ١٦ أيلول ١٩٤١ ومع وصول طلائع القوات السوفيتية والبريطانية إلى مشارف طهران أُجبر الشاه رضا بهلوي على التنازل المهين عن العرش لصالح ابنه الشاب محمد رضا بهلوي وتم نفي الشاه الأب على متن سفينة بريطانية إلى جزيرة موريشيوس ثم إلى جوهانسبرغ في جنوب أفريقيا حيث قضى نحبه هناك (عاقلي، ٢٠١٦، ٥٢٠).

وفور إحكام السيطرة العسكرية، باشرت سلطات الاحتلال الأنكلو–سوفيتي، بالتنسيق مع الحكومة الإيرانية الجديدة عملية تصفية واستئصال شاملة وجذرية لكافة مظاهر الوجود الدبلوماسي والثقافي والاقتصادي لقوى المحور حيث أُغلقت المفوضية الإيطالية والسفارة الألمانية قسراً وفي الحال وقُطعت العلاقات الدبلوماسية رسمياً مع روما وبرلين (عامري، ٢٠٠٣، ٩٤). وقامت قوات الاحتلال باعتقال الدبلوماسيين الإيطاليين والألمان وكافة الرعايا والفنيين التابعين لهم، وجرى ترحيلهم وسوقهم قسراً تحت حراسة مشددة إلى معسكرات الاعتقال البعيدة في الهند، وأستراليا، وسيبيريا، ليُسدل الستار نهائياً وبطريقة

مأساوية على مرحلة "الطريق الثالث" الإيراني وتدخل إيران حقبة مظلمة جديدة من الاحتلال والتبعية المطلقة للحلفاء طيلة سنوات الحرب العالمية الثانية (Eshraghi, 1984, 324).

الخاتمة والاستنتاجات

بعد هذه الرحلة المعمقة في دراسة وتحليل مسار العلاقات الإيرانية الإيطالية في عهد رضا شاه بهلوي (١٩٢٥-١٩٤١)، تتبلور جملة من الاستنتاجات الأكاديمية الراسخة التي تقيس مخرجات البحث وتجيب عن إشكاليته الرئيسة:

١. حتمية عقيدة "القوة الثالثة": أثبتت الدراسة أن توجه إيران نحو إيطاليا لم يكن ترفاً سياسياً بل كان ضرورة جيوسياسية حتمية فرضتها معضلة الجغرافيا السياسية الإيرانية المحصورة بين فكي كماشة لندن وموسكو؛ حيث مثلت إيطاليا لسماتها الفنية وبعدها الجغرافي الخيار المثالي لتطبيق هذه العقيدة.

٢. الارتباط العضوي بين التحديث والعلاقات الخارجية: توجد علاقة طردية وثيقة بين بنية النظام التحديثي الداخلي لرضا شاه وخياراته الخارجية إذ حظيت سياساته العلمانية وإلغاؤه للامتيازات الأجنبية بدعم وتشجيع وتأييد من النظام الفاشي في روما الذي وجد في الشاه نموذجاً شرقياً للحاكم المستبد العادل القادر على صهر المجتمع وتحديثه بالقوة.

٣. الدور الإيطالي في البنية التحتية والبحار: سجل البحث تفوقاً بنيوياً وتاريخياً للعنصر الإيطالي؛ حيث كانت روما الفاشية بمثابة "القابلة القانونية" التي ولدت على يديها القوة البحرية الإيرانية الحديثة طرازاً وتدريباً وتسليحاً فضلاً عن البصمة الهندسية الخالدة للمهندسين الإيطاليين في شق أعقد قطاعات السكك الحديدية الوطنية وميكنة الموانئ.

٤. فشل البراغماتية أمام الاستقطاب الدولي: أظهرت الدراسة أن هامش المناورة للدول الإقليمية يضيق حتى ينعدم عندما يتحول النظام الدولي من التعددية أو المنافسة الباردة إلى الحرب الشاملة؛ فالبراغماتية الإيرانية التي نجحت في توظيف إيطاليا اقتصادياً وعسكرياً فشلت في حماية البلاد عندما تحالفت روما مع برلين فتحول "الطريق الثالث" الآمن إلى "فخ استراتيجي" قاد إلى خسارة السيادة.

٥. مأساوية التصفية والنهاية: تبرز النهاية الدراماتيكية عام ١٩٤١ كيف تتقاطع مصالح القوى العظمى لتسحق طموحات الدول النامية؛ فغزو إيران وعزل رضا شاه وتشريد وتصفية البعثات والدبلوماسية الإيطالية أكد أن حياد الدول الضعيفة لا قيمة له في القانون الدولي ما لم تسنده قوة عسكرية قادرة على

الردع لتدخل إيران بعد هذا التاريخ فلك التبعية المطلقة للحلفاء وتخسر تجربة التوازن الاستراتيجي المستقلة.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

١. أبو مغلي، محمد وصفي. (١٩٨٥). تاريخ إيران المعاصر. البصرة: معهد الدراسات الآسيوية، جامعة البصرة.

٢. أمين، جلال الدين. (١٩٨٢). العلاقات الدولية لإيران في العصر البهلوي. القاهرة: دار النهضة العربية.

٣. أمين، حازم حسن. (٢٠٠٤). المؤسسة العسكرية الإيرانية في القرن العشرين: التكوين والدور السياسي. عمان: دار الشروق.

٤. الجبوري، كامل سلمان. (٢٠١١). الخليج العربي والصراع الدولي في النصف الأول من القرن العشرين. بيروت: دار الرافدين.

٥. جلال، محمد أحمد. (١٩٩٤). العلاقات الدولية في الشرق الأوسط: القوى الإقليمية والدولية (١٩١٩–١٩٣٩). القاهرة: دار النهضة العربية.

٦. جلال، مصطفى أحمد. (١٩٩١). السياسة البريطانية تجاه النفوذ الإيطالي في الشرق الأوسط. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

٧. الحافظ، أحمد إسماعيل. (٢٠١٠). إيران والحرب العالمية الأولى: دراسة في الانهيار السياسي والاقتصادي. عمان: دار الثقافة للنشر.

٨. خليل، أحمد السيد. (٢٠٠٣). التنافس الدولي في إيران خلال فترة ما بين الحربين العالميتين (١٩١٩–١٩٣٩). الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

٩. السعدون، عبد المجيد. (٢٠٠٤). إيران بين مطامع القوى الكبرى والحرب العالمية الثانية. عمان: دار الكتاب الجامعي.

١٠. سليم، محمد السيد. (١٩٨٥). تحليل السياسة الخارجية الفاشية في الشرق الأوسط. القاهرة: مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام.

١١. شاكر، علي محمود. (٢٠١٢). العلاقات الإيرانية الأوروبية بين الحربين العالميتين. دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر.

١٢. شحاتة، إبراهيم علي. (٢٠٠٣). التنافس الدولي في الشرق الأوسط وبناء الدول الوطنية (١٩٢٠–١٩٤٥). عمان: دار الشروق للنشر.

١٣. شنتوف، آمال. (٢٠١١). العلاقات الدولية لإيران في عهد رضا شاه (١٩٢٥–١٩٤١). بيروت: دار النهضة العربية.

١٤. الشناوي، عبد العزيز. (١٩٩٥). الدبلوماسية الأوروبية وأثرها في صياغة الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى. القاهرة: دار الكتاب الجامعي.

١٥. شقير، محمد لبيب. (١٩٨٦). تاريخ العلاقات الاقتصادية الدولية. القاهرة: دار النهضة العربية.

١٦. الصاوي، عبد القادر. (١٩٩٠). الحركات القومية والتحديث السريع في آسيا الغربية بين الحربين. دمشق: دار الفكر.

١٧. عباس، مصطفى كامل. (١٩٩٩). إيران بين القوى الإقليمية والدولية: دراسة في الجغرافيا السياسية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٨. عبد الخالق، مصطفى كامل (د. عبد العال). (١٩٩٨). إيران في عهد رضا شاه بهلوي (١٩٢٥–١٩٤١): دراسة في التطور السياسي والعسكري. القاهرة: دار المعارف للنشر.

١٩. عبد الكريم، أحمد عزت. (١٩٧٥). تاريخ إيران الحديث والمعاصر. القاهرة: دار المعارف.

٢٠. عبد اللطيف، محمد حسن. (١٩٨٨). إيران والتنافس الدولي في الخليج العربي (١٨٥٠–١٩١٤). القاهرة: دار المعارف.

٢١. الكفراوي، حازم سلطان. (٢٠١١). إيران والسياسة الدولية في النصف الأول من القرن العشرين. بيروت: الدار العربية للموسوعات.

٢٢. الكيالي، عبد الوهاب. (١٩٧٩). المنافسة الدولية في الشرق الأوسط: دراسة في العلاقات الاقتصادية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٢٣. الكيالي، عبد الوهاب. (٢٠٠٢). تاريخ إيران الحديث المعاصر: من العهد القاجاري إلى سقوط الشاه. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٢٤. النعيمي، أحمد نوري. (١٩٩٩). النظام الإقليمي في الخليج العربي: دراسة تاريخية سياسية. بغداد: بيت الحكمة.

٢٥. نوار، عبد العزيز سليمان. (١٩٩٠). تاريخ إيران المعاصر: من الثورة الدستورية إلى قيام بهلوي. بيروت: دار النهضة العربية.

٢٦. الوند، مسعود. (٢٠١٤). إيران وسقوط رضا شاه: دراسة في الاحتلال البريطاني السوفيتي ١٩٤١. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

٢٧. الشعبي، كفاح أحمد. (٢٠١٠). تاريخ إيران السياسي بين حربين (١٩١٩-١٩٤٥). عمان: دار اليازوري العلمية.

٢٨. يحيى، جلال. (١٩٩٣). العالم العربي في السياسة الدولية الحديثة والمعاصرة. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.

٢٩. يونس، عبد الفتاح. (١٩٨٤). الشركات الأجنبية ومشروعات التنمية في الشرق الأوسط (١٩١٨-١٩٣٩). بغداد: مطبعة أسعد.

ثانياً: المصادر الفارسية

١. أميني، عليرضا. (٢٠١٨). تاريخ روابط خارجي إيران: أز قاجارية تا سقوط پهلوي (تاريخ العلاقات الخارجية الإيرانية: من القاجارية حتى سقوط بهلوي). (ترجمة: أحمد الملا). بيروت: دار الرافدين.

٢. بيات، كاوه. (٢٠١٤). ارتش شاهنشاهي وإصلاحات نظامي رضا شاه (الجيش الإمبراطوري والإصلاحات العسكرية لرضا شاه). (ترجمة: مركز الدراسات الإيرانية). بيروت: الدار العالمية.

٣. تركمان، محمد. (١٩٩٥). أسناد نقض بيطرفي إيران در جنگ جهاني دوم (وثائق انتهاك حياد إيران في الحرب العالمية الثانية). (ترجمة: علي البديري). بيروت: مؤسسة الوفاء.

٤. تيموري، إبراهيم. (٢٠٠٥). التاريخ الاقتصادي لإيران في العهد البهلوي الأول. طهران: جامعة طهران.

٥. خواجه نوري، إبراهيم. (١٩٧٩). بازيگران عصر پهلوى (لاعبو العصر البهلوي). طهران: منشورات جاويدان.

٦. ذوقي، بيژن. (١٩٨٨). إيران والقوى العظمى في الحرب العالمية الثانية. طهران: دار نشر مروارید.

٧. رمضاني، روح الله. (٢٠١٠). سياست خارجي إيران (١٥٠٠-١٩٤١) (السياسة الخارجية لإيران). (ترجمة: محمد علي جاويد). بيروت: دار الرافدين.

٨. زرگر، علي أكبر. (٢٠١٨). تاريخ العلاقات السياسية الإيرانية البريطانية في عهد رضا شاه. (ترجمة: كاظم هاشم). بيروت: دار الرافدين.

٩. ستوده، يد الله. (٢٠١٥). تحولات قشون وسلاح در تاريخ معاصر إيران (تحولات الجيش والسلاح في تاريخ إيران المعاصر). (ترجمة: كريم محمدي). بيروت: دار الأنوار.

١٠. شميم، علي أصغر. (١٩٦٤). إيران في عهد القاجار (إيران در دوره سلطنت قاجار). طهران: دار نشر ابن سينا.

١١. عاقلي، باقر. (١٩٩٣). روز شمار تاريخ إيران: من المشروطة إلى الثورة الإسلامية. طهران: گفتار.

١٢. عاقلي، باقر. (٢٠٠١). شرح الأحوال السياسية والعسكرية التاريخية المعاصرة لإيران. طهران: منشورات كفتار.

١٣. عاقلي، باقر. (٢٠٠٨). داور وستاد ارتش رضا شاه (داور وهيئة أركان جيش رضا شاه). (ترجمة: حسن صبري). النجف: دار الضياء.

١٤. عاقلي، باقر. (٢٠١٠). مشاهير السياسة والجيش في إيران الحديثة. (جـ ١، ترجمة: أحمد فاضل). بغداد: دار الكتب والوثائق.

١٥. عاقلي، باقر. (٢٠١٦). رضاشاه وقشون متحدالشكل (رضا شاه والجيش الموحد). (ترجمة: كريم محمدي). بيروت: دار الرافدين.

١٦. عامري، جواد. (٢٠٠٣). يادداشتهاى من أز شهريور ١٣٢٠ (مذكراتي عن سبتمبر ١٩٤١). (ترجمة: مصطفى الحكيم). طهران: مؤسسة الهدى.

١٧. كوهستاني نژاد، مسعود. (٢٠١١). الوثائق الاقتصادية للعصر البهلوي الأول. طهران: مركز وثائق وزارة الخارجية الإيرانية.

١٨. مهدوي، عبد الرضا هوشنك. (١٩٩٣). تاريخ روابط خارجي إيران: من بداية العهد الصفوي إلى نهاية الحرب العالمية الثانية. طهران: منشورات أمير كبير.

١٩. مهدوي، عبد الرضا هوشنگ. (١٩٩٩). تاريخ العلاقات الخارجية الإيرانية: من الصفوية إلى سقوط البهلوية. طهران: منشورات إيرانيان.

٢٠. هوشنگ مهدوي، عبد الرضا. (٢٠٠٥). تاريخ العلاقات الخارجية الإيرانية: من الدستور حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. (ترجمة: أحمد الملا). بغداد: مطبعة اليرموك/بيت الحكمة.

٢١. هوشنك مهدوي، عبد الرضا. (٢٠٠٧). تاريخ روابط خارجي إيران: أز ابتداي دوران صفوية تا پايان جنگ جهاني دوم. (ترجمة: جاسم الجلبي). بيروت: الدار العربية للعلوم.

٢٢. مكي، حسين. (١٩٨٣). التاريخ العشرين لعاماً لإيران (تاريخ بيست ساله إيران). طهران: دار نشر علمي.

٢٣. مكي، حسين. (١٩٩٣). التاريخ البالغ عشرين عاماً لإيران. (جـ ٤، ترجمة: علاء الدين السجاد). بيروت: مؤسسة الفكر العربي.

٢٤. مكي، حسين. (١٩٩٩). تاريخ العشرين عاماً لإيران. (ج٧، ترجمة: مركز الدراسات الإيرانية). القاهرة: دار الثقافة.

٢٥. نيازمند، رضا. (٢٠٠٢). رضا شاه من الولادة حتى السقوط. لندن: مؤسسة الحج والعمرة للنشر.

٢٦. نيازمند، رضا. (٢٠١٦). رضا شاه من السواد إلى العرش. (ترجمة: محمد حسن النجم). النجف: دار الكفيل.

ثالثاً: المصادر الإنكليزية (English and Italian Sources)

1 .Abrahamian, E. (2008). A History of Modern Iran. Cambridge: Cambridge University Press.

2 .Abrahamian, E. (1982). Iran Between Two Revolutions. New Jersey: Princeton University Press.

3 .Amitai, Y. (1998). The Diplomatic History of Modern Iran: 1921–1941. London: Routledge.

4 .Avery, P. (1965). Modern Iran. London: Ernest Benn Limited.

5 .Axworthy, M. (2008). Empire of the Mind: A History of Iran. London: Penguin Books.

6 .Banani, A. (1961). The Modernization of Iran, 1921–1941. Stanford: Stanford University Press.

7 .Bharier, J. (1971). Economic Development in Iran 1900-1970. London: Oxford University Press.

8 .Cronin, S. (1997). The Army and the Creation of the Pahlavi State in Iran, 1913-1926. London: I.B. Tauris.

9 .Eshraghi, F. (1984). The Immediate Aftermath of the Anglo-Soviet Occupation of Iran in August 1941. Northern History Journal, 14, 310-335.

10 .Kauffman, A. (1993). Italian Engineers and Contractors in the Middle East (1920-1940). Rome: Istituto per l'Oriente C. A. Nallino.

11 .Keddie, N. R. (2003). Modern Iran: Roots and Results of Revolution. New Haven: Yale University Press.

12 .Lenczowski, G. (1949). Russia and the West in Iran, 1918–1948: A Study in Big-Power Rivalry. Ithaca: Cornell University Press.

13 .Melograni, P. (1976). Fascism and Italian Foreign Policy in the Middle East. New York: Oxford University Press.

14 .Millspaugh, A. C. (1946). Americans in Persia. Washington, D.C.: The Brookings Institution.

15 .Pastorelli, P. (1962). L'Italia e la Persia: Cento anni di relazioni diplomatiche. Milano: Edizioni di Comunità.

16 .Pastorelli, P. (1982). Italia e Persia: Documenti Diplomatici Italiani (1925-1930). Roma: Istituto Poligrafico dello Stato.

17 .Quartararo, R. (1983). Italia e Persia (1921-1925): I primi contatti tra Mussolini e Reza Khan. Storia Contemporanea, 14(3), 475-498.

18 .Quartararo, R. (1986). Roma e Teheran: Le relazioni diplomatiche tra l'Italia fascista e l'Iran (1922-1941). Milano: Giuffrè Editore.

19 .Rezun, M. (1981). The Soviet Union and Iran: Soviet Policy in Iran from the Beginnings of the Pahlavi Dynasty. Geneva: Sijthoff & Noordhoff / Westview Press.

20 .Serra, E. (1981). La diplomazia italiana e i tentativi di penetrazione economica in Persia (1914-1920). Milano: Giuffrè Editore.

21 .Spector, D. E. (1981). The Royal Iranian Navy: Its Historical Growth and Development. International Journal of Middle East Studies, 13(2), 185-199.

22 .Stewart, R. A. (1988). Sunrise at Abadan: The British and Soviet Invasion of Iran, 1941. New York: Praeger Publishers.

23 .Ward, S. R. (2009). Immortal: A Military History of Iran and Its Armed Forces. Washington, D.C.: Georgetown University Press.

24 .Wilber, D. N. (1975). Riza Shah Pahlavi: The Resurrection and Reconstruction of Iran (1878–1944). New York: Exposition Press.

25 .Woodward, E. L. (1971). British Foreign Policy in the Second World War (Vol. II). London: Her Majesty's Stationery Office.

26 .Wright, D. (1985). The Persians Among the English: Episodes in Anglo-Persian History. London: I.B. Tauris

27. Massimo Gusso، La Missione Diplomatica italiana in Persia nel 1862،

Vittorio Veneto ،2016 ،Circolo Vittoriese di Ricerche Storiche

28.Beltrame, S. (2010). L'Italia e l'Iran nell'era di Reza Shah. Il Mulino / Istituto per l'Oriente C. A. Nallino.

29. Cronin, S. (1997). The Army and the nationalist state in Iran, 1911-1941 G&B Arts International / Routledge.

30.League of Nations. (1935). League of Nations Treaty Series (Vol. 164, League of Nations.

31. Smith, J. A. (2020). The 1928 Treaty of Friendship: A new era in Persian-Italian relations. In M. Rossi (Ed.), Diplomatic Histories of the Interwar Period (2nd ed., Academic Press.

32.Kauffman, James M. The Trans-Iranian Railway: Infrastructure and Modernization in Pahlavi Iran. London: Routledge, 2021

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: م.د. مثنى حاضر حسن

الجامعة:

الكلية:

القسم: وزارة التربية / مديرية تربية كركوك

البلد: العراق

البريد الالكتروني:
muthenahader@gmail.com

الهاتف: ٠٧٨٠٦٥٦١٩٨٤

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ٢٣/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٣٠/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (السلطان، محبة الناس، الناصر، المماليك، قلاوون)

عنوان البحث

محبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأثرها على بقائه في السلطة

ملخص البحث

يعد السلطان الناصر محمد بن قلاوون واحداً من كبار السلاطين الذين حكموا دولة المماليك البحرية بل ويعود إليه الفضل في تثبيت أركانها وتدعيم سلطتها وتطوير كثير من النظم السياسية والإدارية فيها، على الرغم من أنَّهُ أستلم السلطة في مدة صعبة كثرت فيها الفتن والقلاقل، لكن بحكمته وذكائه فضلاً عن قوته وشجاعته، تمكن من القضاء على منافسيه في الداخل، وأعداء دولته في الخارج وفرض هيبته وأعلاء شأن دولته بتصديه للهجمات المغولية، ليضع نفسه في مصاف كبار من قاد هذه الدولة ويزرع محبته بين الناس من الذين ساندوه وناصروه ووقفوا بوجه منافسيه وكانوا دائماً ما يراسلونه ويطلبون عودته إلى السلطة، وقد حكم السلطان الناصر ثلاث مرات كان في الأولى والثانية صغيراً يتحكم فيه الأمراء المنافسين، لكنه في الثالثة بحكم التجارب وما ذاق من ويلات، جعلته يتمسك في الحكم بفضل دعم الجماهير الشعبية له، ومحبة بعضهم لشخصيته، ولآل قلاوون بشكل عام.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Dr. Muthana Hadhir Hasan
University:
College:
Department: Ministry of Education / Kirkuk Education Directorate
Country: Iraq
Email: muthenahader@gmail.com
Phone: 07806561984

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 23/ June / 2026
Acceptance Date: 30/July / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (The Sultan, the people's beloved, Al-Nasir, the Mamluks, Qalawun)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

Sultan Al-Nasir Muhammad Bin Qalawun Love and Its Impact on His Continued Rule

Abstract

Sultan Al-Nasir Muhammad Ibn Qalawun is one of the great sultans who ruled the Mamluk Bahri state. He is credited with consolidating its foundations, strengthening its authority, and developing many of its political and administrative systems. Although he assumed power during a difficult period marked by numerous seditions and disturbances, his wisdom, intelligence, strength, and courage enabled him to eliminate his rivals within and his state's enemies abroad. He established his prestige and elevated his state's standing by confronting the Mongol attacks, thus placing himself among the great leaders of this state and cultivating his popularity among the people who supported and aided him, stood against his rivals, and constantly corresponded with him, requesting his return to power. Sultan Al-Nasir ruled three times. In the first two, he was young and controlled by rival princes, but in the third, his experiences and the hardships he endured made him cling to power thanks to the popular support he received and the affection some held for his personality and for the Qalawun family in general.

المقدمة

شهدت دولة المماليك البحرية بروز عدد من السلاطين الأقوياء الذين تركوا تاريخ مشرف على جميع المستويات، ويأتي السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مقدمة أولئك السلاطين؛ لما امتاز به من شخصية قيادية استطاعت أن تتجاوز التحديات الداخلية والخارجية التي واجهت الدولة بعد توليه السلطنة في مرحلة اتسمت بكثرة الصراعات السياسية، وتنامي الأخطار الخارجية، غير انه تمكن بفضل حنكته السياسية من تجاوز كل تلك العقبات، من خلال اهتمامه بأحوال الناس، وحرصه على تحقيق الأمن والاستقرار، وإصلاح كثير من الأوضاع الاقتصادية والإدارية، فضلاً عن إلغائه عدداً من الضرائب والمكوس التي أثقلت كاهل الرعية، وقد انعكست هذه السياسة على مكانته في نفوس الناس الذين ظلوا ينظرون إليه بوصفه السلطان القادر على حفظ مصالحهم وصيانة الدولة من الأخطار.

وتكتسب دراسة محبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون أهمية خاصة؛ لأنها تسلط الضوء على جانب مهم من جوانب التاريخ السياسي المملوكي يتمثل في أثر التأييد الشعبي في تدعيم السلطة واستمرارها، إذ لم يكن بقاء السلطان في الحكم طوال هذه المدة الطويلة ناتجاً عن القوة والدهاء السياسي فحسب، وإنما أسهمت محبة الناس له ووقوفهم إلى جانبه في تعزيز مكانته ومواجهة خصومه، ولا سيما خلال الفترات التي تعرض فيها للعزل أو التهديد.

ونتيجة لذلك ارتأينا دراسة محبة الناس له وجعلناها موضوعاً للبحث بعنوان (محبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأثرها على بقائه في السلطة)، بهدف الكشف عن الأسباب التي جعلت السلطان يحظى بهذه المكانة الرفيعة في نفوس الناس، وبيان مظاهر هذه المحبة، وأثرها في استقرار حكمه واستمرار سلطته، اعتماداً على ما ورد في المصادر التاريخية المعاصرة والقريبة من عصره، للوصول إلى صورة أكثر وضوحاً عن العلاقة بين الحاكم والرعية في العصر المملوكي.

المبحث الأول: التعريف بالسلطان الناصر

أولاً: أسمه ونسبه وولادته

هو السلطان الأعظم الناصر محمد بن السلطان المنصور قلاوون بن سيف الدين الصالحي من أعظم المماليك الأتراك، وكان قد جيء بوالده المنصور قلاوون[١] إلى مصر عندما كان صغيراً فاشتراه الأمير علاء الدين أحد مماليك الملك العادل الأيوبي بألف دينار لذلك أُطلق عليه لقب قلاوون الألفي (الصفدي، أعيان العصر ، ١٩٩٨، ٥/٧٣-٧٤).

ولد السلطان الناصر يوم السبت في السادس عشر من محرم سنة(٦٨٤هـ/٧٠٥م) في القاهرة من أم مغولية هي الأميرة أشلون خاتون بنت الأمير نكاي[٢]، عندما كان والده يحاصر حصن المرقب[٣] في إحدى غزواته في بلاد الشام (المقريزي ، ١٩٩٧، ٢/٢٤٩؛ ابن خلدون، ١٩٩٩، ٢/٤٣٥).

ثانياً: نشأته وولايته للسلطنة المملوكية

يعد السلطان الناصر محمد بن قلاوون واحداً من أبرز السلاطين المماليك، وأكثر من حكم ومنهم ، وكونه ابن السلطان المنصور قلاوون، إلا أنَّ المصادر التاريخية على الرغم من كل ذلك لم تذكر تفاصيل عن نشأته كغيره من أبناء السلاطين سوى بعض الإشارات، وربما السبب في ذلك يعود؛ للأحداث التاريخية التي كانت تمر بها الدولة من وحروبٍ وفتنٍ، ولتوليه العرش وهو صغير، والدليل على ذلك وجدنا المصادر قد بدأت بالتركيز على سيرته كسلطان، دون التركيز على الأمور الجوهرية التي يمر بها رجالات السياسة من فروسية وتعليم، وولاية للعهد، وتولي أمارة بعض المدن ليكون مهيئً لتولي

---

(١) المنصور قلاوون: هو السلطان سيف الدين أبو المعالي، قلاوون الصالحي النجمي الألفي، احد مماليك الاتراك البحرية، اصله من القفجاق ، اشتراه الامير علاء الدين آق سنقر بألف دينار ولهذا عرف بالألفي، جلس على تخت السلطنة سنة(٦٧٨هـ /١٢٧٩م)، وتوفي سنة(٦٨٩هـ/١٢٩٠م) وكانت مدة حكمه إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر. (ابن تغري بردي، ١٩٩٧، ٢/٣٨-٤٠).

(٢) أشلون خاتون: او اسلون خاتون بنت سكتاي التترية تزوجها السلطان المنصور قلاوون في سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م) فولدت منه الناصِر محمد وَعاشت إِلَى أَن أدركت سلطنة ولدها الأولى والثانية. (ابن حجر العسقلاني، ١٩٩٣، ١/٤٥٩).

(٣) حصن المرقب: وهي بلدة وقلعة حصينة على سواحل بحر الشام بناها المسلمون سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) وكانت في غاية الجمال والحصانة. (القلقشندي، ١٩٩٢، ٤/١٥١).

السلطنة، فبعد بلوغه خمسة اعوام خرج والده على رأس حملة لقتال الصليبيين في عكا[١] فوافته المنية في الطريق بالقرب من الحدود المصرية سنة (٦٨٩هـ/٧١٠م)، فحُرم الناصر محمد حنان الأب وهو صغير، لتنتقل كفالته إلى أخيه الأشرف خليل[٢] الذي نودي بهِ سلطاناً على البلاد في اليوم التالي، والذي جعله نائباً لهُ ووليَّ للعهد وحلّف الناس على ذلك، لكنه هو الآخر ولم تدم مدة حكمه سوى ثلاثة سنوات، فقد اغُتيل على أثر ذلك من قبل بعض الأمراء في أحدى رحلاته للصيد والذي كان مولعاً بهِ على ما يبدو (ابن تغري بردي، ١٩٩٢، ١٧/٨)، وعلى أثر ذلك تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون الحكم، في جو يسوده الفساد وتكثر فيه المؤامرات، والتي كان عليه أن يواجها كلها، فبدئها بالقبض على قاتلي أخيه وأمر بقطع أيديهم وتسميرهم والطواف بهم حتى فارقوا الحياة (المنصوري ، ١٩٨٧، ١٣٩-١٤١؛ الصفدي ، ١٩٩٨، ٧٧/٥)، وتجدر الإشارة إلى أن المتتبع لسيرة السلطان الناصر محمد بن قلاوون لعرش السلطنة المملوكية يجد أنها كانت مقسمة على حقبٍ ثلاث الأولى منها: عندما كان محمد بن قلاوون صغيرا إذ أنَّهُ لم يتجاوز التاسعة من عمرهِ، وذلك على أثر مقتل أخيه السلطان الأشرف

(١) عكا: مدينة تاريخية معروفة تقع على خليج عكا شمال غرب فلسطين ، فتحها المسلمون سنة(١٩هـ/٦٤٠م)، ثم احتلها الفرنجة سنة(٤٩٧هـ/١١٠٤م)، وحررها السلطان الناصر صلاح الدين الايوبي، ثم احتلها الصليبيون مرة اخرى ثم حررها السلطان الاشرف خليل سنة(٦٩٠هـ/١٢٩١م). (ياقوت الحموي، ١٩٩٥، مج/١٤٣).

(٢) الاشرف خليل بن قلاوون(٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) احد سلاطين المماليك البحرية الكبار ولي بعد وفاة أبيه واستفتح سلطنته بالجهاد فقصد بلاد الشام وقاتل الصليبيين ، فاستردّ منهم عكا، وصور، وصيدا، وبيروت، وقلعة الروم وبيسان، وجميع الساحل، وكان شجاعاً مهيباً عالي الهمة جواداً، له آثار عمرانية، قتله بعض المماليك غيلة بمصر، وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين (الصفدي، ١٩٩٨، ٢٤٩/١٣ ؛ ابن تغري بردي، ١٩٩٧ ٤٢/٢).

خليل(٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) وقد تم اختيار الأمير كتبغا[١] نائبا للسلطنة، والأمير علم الدين سنجر الشجاعي[٢] وزيراً له (المقريزي، ، ١٩٩٧، ١٢٣/٢).

واللافت للنظر أنَ حُب السلطة كانت سمة بارزة لدى أمراء المماليك؛ والذي نتج عنها نزاع بين كتبغا والأمير سنجر الشجاعي، فقرر كتبغا التخلص من صاحبهِ وقتله فاستقرت له الأمور، ومحاولةً منه للانفراد بالسلطة خاطب الخليفة العباسي في مصر الحاكم بإمر الله ابو العباس احمد(٦٦٦-٧٠١هـ/١٢٦٧-١٣٠١م) وأقنع الأمراء بضرورة تحويل السلطنة إلى شخصية قوية، ورأى عدم أهلية محمد بن قلاوون، وأن من مصلحة البلاد خلعه من منصبه فاقتنع الخليفة بوجهة نظره وتم خلع السلطان، فتولى الأخير حكم البلاد بعد أحد عشر شهراً وأيام من تولي الناصر محمد بن قلاوون الحكم (ابن الفرات، ١٩٧٠، ١٩٧/٨؛ ابن تغري بردي، ١٩٩٢، ٥٥/٨ ؛ اسماعيل، ١٩٨٨، ص٢٠٧-٢٠٨).

غير أنَّ نذير الشؤم بدأ يدق أبوابه بعد انخفاض منسوب نهر النيل والذي أدى إلى ارتفاع الأسعار، وانتشار الأمراض، وقلّة المزروعات، وندرة المواد الغذائية، حتى قيل أن أكثر من نصف سكان القاهرة قد هلكوا، والذي أدى إلى دفن الموتى في مجموعات كبيرة بغير غسل أو تكفين (المنصوري، ١٩٦٠، ٢٨٦/٩).

وعلى الرغم من محاولة السلطان كتبغا السيطرة على الأمور لكن دون جدوى؛ كون الناس عدّته نذير الشؤم، والأدهى من ذلك أن صديقه حسام الدين لاجين[٣] أنتهز الفرصة وتآمر عليه واستأثر

---

(١) كتبغا: وهو الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري، من ملوك المماليك البحرية ، أصله من سبي التتار من عسكر هولاكو، أخذه الملك المنصور قلاوون في وقعة حمص الأولى سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) وجعله من مماليكه، فسمي بالمنصوري تقلد بعض المناصب إلى أن ولي نائب السلطنة، في عهد محمد بن قلاوون، وأستغل صغر سنه وجعل نفسه صاحب الأمر والنهي بالبلاد، وخلع محمد الناصر لصغر سنة، وولي السلطنة سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) وتلقب بالملك العادل، خالفه الأمير لاجين بمصر، واستولى على كرسي السلطنة، وأرسل إليه يأمره بخلع نفسه، فأذعن كتبغا وأشهد على نفسه بالخلع، سنة(٦٩٦هـ/١٢٩٦م) ثم قصد الشام، وتوفي سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م).ينظر: (ابن تغري بردي، ١٩٩٢، ٥٥/٨)

(٢) علم الدين سنجر الشجاعي: وهو الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الشجاعي(ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م) تولى الوزارة للسلطان محمد بن قلاوون، وتدرج في المناصب حتى أصبح نائب الشام، وقاد عدة معارك فتح فيها مدينة صيدا، ينظر (المقريزي ، ١٩٩٧، ٢٢٤/٢؛ ابن تغري بردي ، ١٩٩٧، صفحة ٤٥/٢).

(٣) حسام الدين لاجين: وهو حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري، أصله من مماليك السلطان المنصور قلاوون، رقاه، إلى أن ولاه نيابة دمشق، فأقام بها إحدى عشرة سنة، إلى أن عزله السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون، فلما=

بالحكم، والذي أحبه الناس؛ لانخفاض الأسعار ووفرة القمح في عهده، ولكن الخيانة كانت سمة بارزة في ذلك العصر، ومن خان صديقه لابد من أن يُخان، فأختلف المماليك مع سلطانهم، فقرروا قتله بعد أن تولى الحكم عامين (المقريزي ، ١٩٩٧، ٣٢٩/٢) ، ليكون الباب مفتوحاً لتولي السلطان الناصر للمرة **الثانية:** بعد أن كثرت الفتن في البلاد، ليستقر رأي الخليفة العباسي والأمراء المماليك على ضرورة عودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والذي لم يتجاوز عمره أنذاك سوى أربعة عشر عاماً فقط، فعمل رجال السلطنة على دعوة السلطان والذي دخل القلعة في موكب مهيب، ليُعلن عنه سلطاناً لدولة المماليك البحرية (الشجاعي، ١٩٧٨، ص٦-٧).

ومما تجدر ملاحظته في هذه الحقبة أن حظ السلطان كان سيئاً، فما كاد أن تستقر له الأمور حتى وصلته الأخبار بزحف التتار إلى البلاد الإسلامية ووصولهم بلاد الشام (ابن اياس، ١٩٧٥، ج١/ق١/٤٠٣)، فقام بتجهيز الجيش وخرج على رأس حملة عسكرية عام(٦٩٩هـ/١٢٩٩م) حتى وصل حمص (المقريزي ، ١٩٩٧، ٣٢٩/٢) ، والتقى بهم في وقعة وادي الخزندار فانكسر عسكر السلطان، وهرب الملك الناصر، ونهب التتار عسكره، فرجع السلطان إلى الديار يتجرع مرارة الهزيمة (الذهبي، ١٩٨٥، ٧٠/٥٢ ؛ ابن كثير، ١٩٨٨، ٨/١٤ ؛ ابن اياس، ١٩٧٥، ج١/ق١/٤٠٣).

وعلى الرغم من صغر سن السلطان إلا أنَّ همّة السلطان كانت عالية فجهز حملة أخرى، وأنفق على العسكر والأمراء وجمع معه الكثير من العربان وخرج لملاقاتهم في مرج الصفّر أو شَقْحَب سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) جنوب دمشق وكتب له النصر وانكسرت شوكة التتار وقتل وأسر كثيراً منهم وكان الناس فرحّين ويرددون أيا عجبا في أول رمضان يكون عيد ، وفي آخره عيد، فكان العيد عيدين والفرحة فرحتين (النويري، ٢٠٠٢، ٣٠/٣٢ ؛ ابن كثير، ١٩٨٨، ٢٩/١٤ ؛ ايوب، ٢٠١٥، ص٢٨٤-٢٨٥).

وعلى إطارٍ مختلف ورغم من النصر الذي حققه الناصر وأمنه من جانب العدو، غير أنه لم ينعم كثيراً بمكاسب نصره، ولم يشعر بالراحة؛ لصغر سنه وتحكم أمراء المماليك فيه ومحاولاتهم الدائمة للانقلاب عليه، حتى ضاق منهم ذرعاً، وقد وصف المقريزي السلطان في تلك الحقبة بأنه مجرد صورة وإن كافة أمور الدولة كانت بيد كبار الأمراء، والذين تدخلوا حتى في طعامه وشرابه (المقريزي، ،

=تسلطن كتبغا جعله نائب سلطنته، غير أنَّ لاجين خلعه وتسلطن مكانه، وقتل في ربيع الأخر سنة(٦٩٨هـ/١٢٩٨م) وكانت مدة أيامه في السلطنة سنتين وثلاثة أشهر، وكان المنصور من أعقل الناس، وأحشمهم. ينظر: (ابن تغري بردي، ١٩٩٧، ٥١/٢-٥٣).

١٩٩٧، ٤٢١/٢)، فأتخذ قراراً بالتنحي عن الحكم وكان ذلك سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٩م)، إذ بث إشاعةً بأنه يريد الحج واتجه إلى الكرك[١]، وأقام فيها وأرسل للأمراء في مصر بإعفائه من السلطة، ووضع أمراء المماليك في مأزق واتفقوا على تولي الأمير بيبرس الجاشنكيز[٢] الحكم على الرغم من رفض كثيرين منهم ذلك (المقريزي، ، ١٩٩٧، ٣٢٩/٢) فاضطربت أحوال البلاد فضاق الناس بهِ ذرعاً وتشاءم الناس من سلطنته بسبب انخفاض منسوب النيل وارتفاع الأسعار وتدهور الاقتصاد، فبدأ الناس يطالبون بعودة الناصر محمد بن قلاوون، ويتغنون بالأهازيج التي كان منها: " سلطاننا ركين ونائبنا دقين يجينا الماء منين. جيبوا لنا الأعرج يجي الماء ويدحرج" (المقريزي، ، ١٩٩٧، ٤٣١/٢).

ومن الجدير ذكره هنا أن للعامة دور كبير في عودة السلطان الناصر للحكم هذه المرة، بعد أن خلع السلطان بيبرس نفسه من السلطنة بسبب رفض الناس له، ليعود الناصر للعرش للمرة **الثالثة** في تاريخهِ، والتي جاءت باستقبال كبير واحتفالات مهيبة، وظل يعمل سنوات على تدعيم سلطته بالقضاء على الطامعين في حكمه والمناوئين له، فاستقرت له الأمور وقويت سلطنته فبقي في الحكم أثنان وثلاثون عاماً، قضاها في إعمار البلاد وعلى جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما عمل على رد الجميل للشعب فأقام العدل، وحرص على منع استبداد المماليك وأضحت البلاد تُحكم بأشراف سلطة مركزية واحدة متمثلة بشخص السلطان (المقريزي، ١٩٩٧، ١٠٣/٢) ،فبعد حياة مليئة بالأحداث التاريخية وسيرة لسلطان قوي سطر تاريخه بأحرف من ذهب توفي السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ذي الحجة سنة(٧٤١هـ/١٣٤١م)، بعد صراع طويل مع المرض الذي ألم بهِ على أثر وفاة ولده الامير أنوك[٣] ودفن بجوار والده في القبة المنصورية (ابن كثير، ١٩٨٨، صفحة ٢٢٢/١٤ ؛ السيوطي، ١٩٦٧، ١١٦/٢).

---

(١) الكرك: هي قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء، وهي على جبل عال، وكانت مشهورة أيام الحروب الصليبية. ينظر: (ياقوت الحموي، ١٩٩٥، ٤٥٢/٤).

(٢) بيبرس الجاشنكير: وهو بيبرس بن عبد الله المنصوري الجاشنكير، أحد سلاطين المماليك البحرية، وأصله من مماليك المنصور قلاوون، ترقى في عدد من المناصب حتى أصبح أميراً، وتسلطن بعد خلع السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة(٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، غير أنَّ العامة لم تكن راغبه فيه؛ فخُلع بعد عدة شهور من تسلمه السلطة سنة(٧٠٩هـ/١٣٠٩م).ينظر (ابن تغري بردي، ١٩٩٧، ٦٠/٢-٦٣؛ الملطي، ١٩٧٨، ٩٤).

(٣) الامير آنوك: بن السلطان محمد بن قلاوون ولد سنة(٧٢٣هـ/١٣٢٣م) تزوج بنت الامير بكتمر الساقي، مرض بالجدري وتوفي به سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م) ووجد له من المال الشيء الكثيرز ينظر: (الصفدي، ٢٠٠٠، ٢٤٥/٩-٢٤٦).

المبحث الثاني: أسباب محبة السلطان الناصر

هناك أسباب كثيرة جعلت السلطان الناصر محبوب لدى العامة والخاصة، منها ما يتعلق بأسرة آل قلاوون والمحبة التي كان الناس يكُنوها لوالده السلطان المنصور قلاوون، ومنها ما يتعلق بشخصية السلطان نفسه، ومنها ما يتعلق بمنافسيه وكره الناس لهم وتطيرهم من سلطنتهم؛ لذا كانوا يتوقون لعودة السلطان الناصر الذي نعمت الدولة في عهدهِ بالرخاء والاستقرار وبلغت أوج عظمتها، والتي سنبينها على الشكل الآتي:

١- **حب الناس للمنصور قلاوون:** كان حب الناس للسلطان المنصور قلاوون في طليعة الأمور التي جعلت الناس تحب آل قلاوون من بعده، فقد وصف بأنه كان" ملكاً عاقلاً، شهماً، جليلاً، من أجل ملوك الإسلام" (الملطي، ١٩٧٨، ص٧٩).

ويبدو أن محبة المنصور قلاوون قد تجلت في شخصيته منذ أنْ كان مملوكاً فما كاد أن يصل مصر وهو شاب في مقتبل العمر حتى" ازدحمت عليه عند وصوله أرباب الرغبات وبُذلت إليه الألوف من الذهب، فكان الألفي قامةَ، والألفي قيمة، وأنّهُ لأعلى وأغلى، وإنَّ محله لأجلَّ وأعلى" (العسقلاني، ١٩٩٨، ص٢٥) .

والمتتبع للأحداث التاريخية في ذلك العصر يجد أنَّ من أهم اسباب حب الناس للمنصور قلاوون وأولاده من بعده هو تصديهم للتتار وللصليبيين والانتصارات المتتالية عليهم، حتى تغنى بهم الشعراء وراحت دولتهم تزخر بالأمن والأمان (العسقلاني، ١٩٩٨، ص٧٠).

٢- **التكافل الاجتماعي:** بدأ السلطان الناصر سيرته بالتكافل الاجتماعي ومساعدة المحتاجين من خلال اطفاء الديون عن المَدينين والمُعسرين فقد رسم السلطان بأن يطفئ الديون عن من هم في السجون من أصحاب الديون، وأن يغسل ما عليهم من المساطير الشرعية مساعدة الناس في علاج الآفات الزراعية منها اسراب الجراد (ابن ايبك الدواداري، ١٩٦٠، ٩/٢٣٧-٢٣٨ ؛ حسن، ٢٠٢١، ص١٤) .

وكان السلطان كذلك يتابع الأسواق وعمليات البيع والشراء فيها لمنع أهل الأسواق من استغلال الناس، وكان يحدد الأسعار إن أقتضى ذلك، بل وصل به الأمر معاقبة الأمراء إذا علم أن أحدهم أستغل

منصبه ليتلاعب في الأسعار كما حصل مع الأمير قوصون[١]، عندما باع بأكثر من السعر المعلن فقام السلطان بنهره وتهديده، وتوعد من يستغل مكانته لاستغلال الناس، وألزم والتجار بالبيع بتسعيرة واحدة (اليوسفي، ١٩٨٦، ص٨٢ ؛ الشجاعي، ١٩٧٨، ص١٣).

وعلى الإطار نفسه وإرضاءً لشعبهِ فقد عمل السلطان الناصر على إبطال كثيراً من المكوس والضرائب التي ذاق منها الناس الأمرين والتي من أهمها، ساحل الغلة، ونصف السمسرة ، ومقرر الحوائص والبغال ، ومقرر السجون ، رسوم الولاية، ومقرر طرح الفراريج وغيرها من الرسوم (المقريزي، ١٩٩٧، ١٦٧/١-١٦٨ ؛ الجبوري، ٢٠٢٣)، وقد كانت لها تأثير كبير في حُب الناس له والدفاع عنه، وإنَّ ذلك لم يأتي اعتباطاً بل هو دليلاً على حُسن اعتقاده ، وغزير عقله، وجودة تدبيره وتصرفه، على حسب رأي المؤرخين المعاصرين له (الشجاعي، ١٩٧٨، ص١٢)، ووصفته كذلك أحدى الباحثات المحدثات عن علاقاته مع الطبقات العامة والفقيرة، بقولها:" كان عطوفاً عليهم ، رحيماً بهم، معيناً لهم" (الحجي، ١٩٨٤، ص٩١).

٣- **التواضع:** يُعد التواضع من أبرز الصفات التي تضفي على صاحبها محبة الناس في كُل زمانٍ ومكان، فقد كان السلطان واحداً من السلاطين القلائل الذي حملوا هذه الخصلة، فقد كان يجتمع عند السلطان من العربان ما لم يجتمع لملك قبله، مع أمراء مكة وأشرافها، وأمراء المدينة، وصاحب ينبع[٢] ، وغيرهم خلق كثير، وصاروا يتمادون في طلباتهم حتى قام أحد الحضور وقال للسلطان:" يابا على بحياة هذه . ومدّ يده إلى لحية السلطان ومسكها . إلا أعطيتني الضيعة الفلانية؟". فصرخ فيه ناظر الجيش وقال: " ارفع يدك، قطع الله يدك ... تمد يدك إلى السلطان!"، فتبسم السلطان وقال: " يا قاضى، هذه عادة العرب إذا قصدوا كبيرا في شيء يكون عظمته عندهم مسك ذقنه، يعنى أنه قد استجار به، فهو

(١) الامير قوصون: من المقربين للسلطان الناصر محمد بن قلاوون وزوجه ابنته سنة(٧٢٧هـ/١٣٢٦م) وهي ثانية بت زوجها السلطان بمماليكه وكان يفخر على المماليك لان السلطان زوجه ابنته وبعد وفاة السلطان الناصر وقف الامير قوصون الى جانب السلطان ابي بكر في خلافه مع اخيه السلطان احمد وبعد ان تم الامر للسلطان الناصر احمد القي القبض على الامير قوصون وقتل في السجن سنة(٧٤٢هـ/١٣٤١م) وخلف عدة أولاد من بنت السلطان، وكان كريما جواداً. ينظر: (الصفدي، ٢٠٠٠، ٢٠٧/٢٤-٢٠٨).

(٢) ينبع: وتسمى ينبوع وهي ميناء المدينة المنورة على سواحل البحر الاحمر، تقع على طريق الركب الشامي، وسميت بهذا الاسم؛ لكثرة ينابيعها. ينظر: (ابن حوقل، ١٩٨٣، ٤١/١ ؛ ابن شاهين، ١٨٩٤، صفحة ١٦).

عندهم سنّة" فهذه دلالة واضحة على تواضعه ومعاملة الناس كلاً حسب عاداته وتقاليده (الفاسي، ١٩٨٦، ١/١٣١).

وعلى الصعيد نفسهِ فإنَّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما قدم مكة المكرمة حاجاً أظهر من التواضع والذلة والمسكنة أمرا زائدا، فأول عمل قام بهِ سجد عند معاينته البيت سجود عبد ذليل، ثم التفت إلى الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا، وقال: "لا زلت أعظّم نفسي حتى رأيت البيت فذكرت تقبيل الناس الأرض لي، فدخل قلبي مهابة عظيمة لم تزل حتى سجدت لله تعالى شكرًا" (الفاسي، ١٩٨٦، ١/١٣١).

وخلال طوافه بالبيت حسن له القاضي بدر الدين بن جماعة[١] ان يطوف راكباً كما فعل الرسول محمد ﷺ رفض: "يا قاضي، ومن أنا حتى أتشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم؟ والله لا طفت إلا كما يطوف الناس"، فطاف من غير أن يكون معه أحد من الحجاب، فصار الناس يزحمونه ويزاحمهم كواحد منهم حتى قضى طوافه وسعيه (الفاسي، ١٩٨٦، ١/١٣١).

ومن الشواهد التاريخية كذلك لتواضعه أنَّهُ كان غاية في الحشمة والرياسة وسياسة الأمور، فلم يذكر عليه أحد أنه أطلق لسانه بكلام فاحش في شدةٍ، ولا في غضب، فضلاً عن انبساطه، مع كل ما كان يتمتع به عظيم ملك، طوال مدة مكوثه في السلطنة مع كثرة حواشيه وخدمه، بل ومن أخلاقه أنَّهُ كان يدعو الأمراء والأعيان وأرباب الوظائف بأحسن أسمائهم وأجل ألقابهم، وكان إذا غضب على أحد لا يظهر له ذلك (ابن تغري بردي، ١٩٩٢، ٩/١٧٣)، وكان مع هذه الشهامة، وكل ما وصل إليه من ملك ورياسة، وحب التجمل، فقد كان مقتصداً في ملبسه، متواضعاً في هيئة (ابن تغري بردي ، ١٩٩٢، ٩/١٧٣) .

٤- **كرمه:** ان الكرم من أهم الصفات التي كان يتمتع بها العرب على مر العصور، وهي من أهم الأسباب التي تجعل الشخص محبوباً لدى الناس، ويبدوا أنَّ السلطان قد أخذ هذه السجية الكريمة من البلاد التي ترعرع ونشأ فيها، وتأثر بالعرب الذين عاش معهم، فتذكر المصادر التاريخية بأنَّ السلطان

(١) القاضي بدر الدين ابن جماعة: محمد بن إبراهيم بن سعد ولد بمدينة حماة سنة(٦٣٩هـ/١٢٤١م) تتلمذ على عدد من الشيوخ برع في علم الحديث، والفقه، والأصول، والتفسير سافر الى مصر ودرس وخطب في عدة جوامع منها جامع القلعة، وولي القضاء، فلم يزل قاضي قضاة الديار المصريّة إلى أن اعفاه السلطان الناصر محمد ، ثم اعاده توفي سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م). ينظر:(المقريزي ، ٢٠٠٦، ٥/٥٥-٥٧)

الناصر كان جواداً كريماً فقد وصفه الصفدي بقوله: "كان سمحاً جواداً على من يقربه ويؤثره، لا يبخل عليه بشيء كائناً ما كان" (الصفدي، ، ١٩٩٨، ٩٧/٥ ؛ الصفدي، ٢٠٠٠، ٢٦٢/٤-٢٦٣).

ويذكرُ كذلك في مقامٍ آخر" والغنى أصبح للناس غناء، ولكن زيد ياء وميما، والإنعامات تفاض فتخجل البحار الزخارة، وبدرها إذا فضت استحيا منها البدر، ولم يخرج عن الدارة، أغرق خواصه بالجوائز وعمهم بالهبات التي يتحدث بشأنها على المغازل الأبكار والعجائز، لم نسمع لملك بمثل عطاياه، ولا لجواد غيره بما وهب حتى أثقل جياده وكلت مطاياه" (الصفدي ، ١٩٩٨، ٧٥/٥) وقد ختم كلامه بهذين البيتين:

تمشي خزائنه من جود راحتـــــه ... بيـــــداء لا ذهب فيها ولا ورق

وتحسب الوفز غيما والعلا أفقا ... إذا انجلى الغيم أبدى حليه الأفق" (الصفدي، ، ١٩٩٨، ٧٥/٥).

وكان من نتيجة هذا الكرم محبة الناس له فيُذكر أنه "ولم يزل في سعادة ملكه وريح السعود تجري بها مواخر فلكه، الى أن هلك عنه سلطانه، وما أغنى عنه أنصاره ولا أعوانه" (الصفدي، ، ١٩٩٨، ٧٥/٥)..

وتجدر الإشارة أن كرمه لم يكن مختصاً بفئةٍ معينة من الناس بل شمل كرمه الخاصة والعامة، فمن مظاهر كرمه للخاصة أن السلطان الناصر بالغ في كرم نائب الشام تنكز عن قدومه إلى السلطان وأنعم عليه إنعامات جلية بل وأمر أمراءه بإكرامه (المقريزي، ١٩٩٧، ١٦٥/٣).

٥- **الاهتمام ببيت الله الحرام:** إن الاهتمام ببيت الله الحرام تكاد تكون صفة أتصف بها أغلب السلاطين المماليك، فهذا السلطان الناصر كانت له ثلاث حجات إلى بيت الله الحرام فلما حج وأظهر من التواضع والخضوع لله سبحانه وتعالى واحترامه للبيت كما مرَّ معنا قبل قليل، فقد حجّ معه جماعة، وأمر أن تكسى الكعبة بالحرير، وأخرج الثياب للصناع فعملوها، وفرّق في أهل مكة مالا عظيما، وأفاض على أمراء مكة وأرباب وظائفها (المقريزي ، ١٩٩٧، ١٨/٣).

ويذكر ابن بطوطة " وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة، وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين، وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال

التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي" (ابن بطوطة، ١٩٩٧، ٢١٢/١).

وقد عمل في حجته عام (٧١٢هـ/١٣١٢م) من أعمال الخير ومساعدة الفقراء فقد أنفق حوالي عشرين ألف دينار، وتصدق كذلك على أهل المدينة فضلاً عن أرساله السفن إلى جدة وينبع، وعمل كذلك على ألغاء جميع المكوس التي كانت تؤخذ من بلاد الحرمين (ابن تغري بردي، ١٩٩٢، ٥٩/٩).

٦- **الصلح والأمان في عهده:** كان الناس قد عانوا ما عانوا من الحروب المتكررة مع التتار وقطاع الطرق ولا سيما التجار منهم الذين كانوا كثيري السفر والترحال داخل بلاد المسلمين وخارجها، مما حذا بالسلطان بالعمل الدؤوب للتخلص من هكذا أعمال تزعزع أمن السلطنة والتي ربما تقلل من هيبتها لدى الأمم الأخرى، وللتخلص من هكذا تجاوزات فقد عمل السلطان على عقد بعض معاهدات الصلح، فيذكر أن في سنة (٧٢٣هـ/١٣٢٤م) أنه حصل صلح بن المسلمين والتتار على يد التاجر مجد الدين السلامي السفار(ت٧٤٣هـ) وكان ذلك على حسب ذكر جامع الغرر " بحسن تدبير السلطان وحسن سياسته التي تحّير فيها الأفكار، حتى عادت أسماراً على السنة السُمّار، ثم حضر في هذه السنة رسول الملك أبي سعيد فسأل المراحم الشريفة على الصلح، فأنعم له مولانا السلطان بذلك لمِا رأى فيه من الحظ والمصلحة لإسلام، فجزاه الله عن رعيته ورعايته خير الجزا، الذي في أيامه أطمأنت نفوس العالم، وقد كانت المخاوف من قبل (تؤزهم أزا) وذكر أن الهدنة وقعت بينهما لمدة عشر سنين وعشر أيام" (ابن ايبك الدواداري، ١٩٦٠، ٣١٢/٩-٣١٣)، وهذا العمل لم يأتي من فراغ بل أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان يتميز بثلاثة فراسات: فراسة الأيمان، وفراسة الملك، وفراسة الطبع على حسب ذكر بعض المؤرخين، وهذه دلالة على رجاحة عقل وحسن تدبير وسياسة ملك لتخليص البلاد من شر أعداءها وبالطرق السلمية من دون جرها إلى حروبٍ وويلات (ابن ايبك الدواداري، ١٩٦٠، ٣٢٢/٩).

٧- **الطيرة من منافسيه:** ذكرنا في حياة السلطان الناصر أنه بعد أن تسلم السلطة وكان صغيراً، أستأثر ببرس الجاشنكير بالسلطة، لكن الغريب في الأمر أن هذا السلطان عُد نذير شؤم لدى الناس؛ لأنه ما تسلم زمام الأمور حتى بدأت الكوارث تعصف بالدولة فيذكر المؤرخون أنه في تلك السنة فشا في الناس أمراض حادة، وعم الوباء، وعز سائر ما يحتاج إليه المرضى، ثم توقفت زيادة النيل، وارتفع سعر القمح وسائر الغلال، ومنع الأمراء البيع إلا من شون الأمراء، وخاف الناس أن يقع نظير غلاء كتبغا، وتشاءم

الناس بسلطنة الملك المظفر بيبرس المذكور، ومن يومئذ وقعت الوحشة بين المظفر وبين عامة مصر (ابن تغري بردي، ١٩٩٢، ٢٤٣/٨-٢٤٥).

ويبدو أن حالة الجدب قد اشتدت عليهم كثيراً حتى بدأت العامة بترديد هذه العبارات" سلطاننا ركين ... ونائبنا دقين يجينا الماء من أين ... يجيبوا لنا الأعرج ... يجى الماء ويدحرج" (ابن تغري بردي، ١٩٩٢، ٢٤٣/٨-٢٤٥).

وعلى الصعيد نفسه من محبة الناس للسلطان محمد بن قلاوون وعلاوة على محبة الناس له هي كرههم لإعدائه فقد صور الداواداري الناصر بأنه العقاب الكاسر بينما صغّر وحطّ من قيمة بيبرس بتصوريهُ له بأنه بومة "فكان الرمز الظاهر، أنّ هذا العقاب الكاسر، هو الملك الناصر، وأنّ هذا البوم المكسور، بيبرس الباغى المقهور. وذلك مطابق لقياس الجنسيّة، يفهمه من كان فيه ذوق وحسّيّة: فإنّ جنس مولانا السلطان الملك الناصر أشرف جنوس الترك من يافثها، وجنس بيبرس ... أنجس جنوسها وأخبثها" (ابن ايبك الدوداري، ١٩٦٠، ١٦٣/٩).

المبحث الثالث: مظاهر من محبة السلطان الناصر

من خلال استقراءنا للأحداث التاريخية عصر السلطان بيبرس الجاشنكير نستطيع أن نعبر عن الأوضاع التي سادت في ذلك الوقت وكانت من الأسباب المباشرة التي جعلت الناس تحب السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ففي الحقبة التي غاب فيها السلطان حل فيهم القحط وتفشت فيهم الأوبئة فبدأوا يتوقون لعهده وعودته، ويدعونه لنصرتهِ فيذكر ابن تغري بردي بهذا الصدد" سمعت صيحة في القلعة، سببها أنَّ العامة كان جمعهم قد كثر، وكانوا شديدي المحبة للناصر محمد بن قلاوون، فلما علموا محاصرته في القلعة، حنقوا على ذلك، وصرخوا، ثم حملوا يداً واحدة على الأمراء، وهم يقولون: يا ناصر يا منصور ... وأشتد صيحهم يا ناصر، يا منصور، وتكثر جمعهم وهم يدعون للناصر، الله يخون الخائن، الله يخون الي يخون ابن قلاوون" (المقريزي، ، ١٩٩٧، ٤١٤/٢ ؛ ابن تغري بردي، ١٩٩٢، ١٧٣/٨).

إن المظاهر التاريخية التي تجلت في محبة الناصر هي استقباله بالأفراح والمسرّات في المدن المملوكية عندما قرر العودة إلى السلطة في المرة الثالثة، ففي دمشق استقبله الأمراء والأعيان والعسكر، وقد زيّنت المدينة بأعظم زينة وخرج سائر أهلها للقائه حتى صغار المكاتب وامتلأت الطرقات والبيوت

بالناس، وبسطت له شقائق الحرير الملون، فلما كان يوم الجمعة خُطب باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون (المقريزي، ٢٠٠٦، ١١١/٧).

وكذلك ما صورته لنا المصادر التاريخية من الفرح والسرور يوم عودة السلطان إلى القاهرة واستقبال الناس له، وكيف زُينت القاهرة فرحاً بهذه العودة الميمونة " فخرج الأمراء وجميع الناس قاطبة للقائه، وكادت القاهرة ومصر ألا يتأخر بهما أحد فرحا بقدومه،... وأظهر الناس لعوده إلى الملك من السرور ما لا يوصف ولا يحد، وزينت القاهرة ومصر بأفخر زينة، وأبطل الناس معايشهم، وضجوا له بالدعاء والشكر لله على عوده إلى الملك، وأسمعوا حواشي الملك العادل كتبغا والملك المنصور لاجين من المكروه والاستهزاء ما لا مزيد عليه، واستمروا في الفرح والسرور إلى يوم الاثنين، وهو يوم جلوسه على تخت الملك (ابن تغري بردي، ١٩٩٢، ١١٦/٨).

وعلى الصعيد نفسهِ يذكر الدواداري في ذلك بل ويزيد أنَّ شبه محبة الناصر كمحبة يعقوب ليوسف وأن فرح الناس بعودته كفرح يعقوب بعودة يوسف عليهم السلام بعد فراق طويل، وقد بين ذلك وحمد الله وشكره على عودة السلطان بقوله:" وكان طلوع الركاب الشريف إلى قلعة الجبل المحروسة، وأصبحت بعد الاستيحاش منه به مأنوسة، وحصلت الأفراح، وزالت الأتراح، واطمأنت القلوب، وانفرجت الكروب، وعاد الحاكي في الحسن يوسف على الحاكي في الحزن يعقوب...وقد بلغت الديار المصرية بحلول ركابه الشريف غاية الآمال، فكان ذلك العيد عيدا في عيد، لموافقة هذا العيد، حلول ركاب الملك الناصر السعيد. فلما استقر البدر في الهالة، ... فلله الحمد على ما أولى، وله المنة في الآخرة والأولى" (ابن ايبك الدواداري، ١٩٦٠، ١٦٤/٩).

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن محبة الناس قد تجلت وظهرت عند مرض السلطان، فإذا شفي من مرضة تبدأ الأفراح وتعم الزينة، فعندما شفي السلطان من مرض أصابه عمت الأفراح وزينت القاهرة، بل زاد ذلك أن تفاخر الناس في الزينة بحيث لم تعهد زينة مثلها، وقد استمرت الأفراح أسبوعاً كاملاً، تفنن الناس فيها بأنواع الترف، ولم تقتصر الأفراح على الأسواق والأماكن العاملة بل تعداها إلى بيوت الأمراء، فلم يبق أمير إلا وعمل في بيته فرحاً (المقريزي، ١٩٩٧، ١٢٨/٣).

والجدير بالمناقشة أن عافية السلطان أمست واحدة من المناسبات التي يحتفل بها سكان مصر عصر السلطان الناصر فيذكر ابن بطوطة بهذا الصدد" وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو، شاهدت

بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما" (ابن بطوطة، ١٩٩٧، ٢٠٣/١).

والذي يُلاحظ في هذا المقام أنَّ المؤرخون قد بالغوا في تصوير حب الناس للناصر بل وتعدى حبه حسب ذكرهم إلى البلاد والنبات والحيوان والجماد فيذكر أحد المؤرخين حال النيل عند عزل الناصر سنذكرها كما هي: "ثم إنّ النيل المبارك تأخّر في هذا العام، عن جريانه العامّ، حتى عاد لسان حال الوجود ناطق، بلسان صادق. فأمّا لسان حال النيل، فإنّه كما قيل: وعزّة الرحمن، ومن أجراني من الجنان، وطهّر بي النجوس، وأحيا بي النفوس! لولا شيوخ ركّع، وأطفال رضّع، ودوابّ رتّع ، لتوقّفت ولم أطلع، ولو علمت أنّ مصر بلا ناصر، وخالية من نورها الباصر، لما استبشرت منّى بجريان، ولا أصبح فيها قاع ريّان فأجابه أخوه الغمام، وهو في غاية الآلام: وحقّ من أحيا بمزنى البلاد، وجعلنى رحمة للعباد... لولا أنّ هذه الأمّة مرحومة، لما جدت بديمومة، وإن قطّرت قطرات في هذه الآفاق، فإنّها دموع مشتاق، قد آلمه من المليك الناصر الفراق، وراجيا منه بالتلاق. وكيف لا؟ وهو أخونا في الجود، حتى عمّ الوجود، ولولا ما وعدنا به مجرينا، أنّه على عوايده الجميلة يجرينا، وبعيده على ما كان من عوايده الحسان، لتعطّش منّا كلّ مكان، وخلت من مصر والشأم السكّان" (ابن ايبك الدواداري، ١٩٦٠، ١٦٤/٩).

ويصف حال البلاد كذلك بأنها كانت مشتاقة وولهانة للقاء الناصر "وقالت القاهرة، وهي كالوالهة الحايرة: وحقّ من أذلّني بعد عزّى، وأعزّني بناصري بعد معزّى، لولا أدين بالرجعة، لما أبقيت من معالمي على بقعة، ولكنت أطبّق أسواري على سكّاني، ولو عاد لي جوهر ثاني، لما شيّد بنياني، ولكنّني أرجو عودة ناصري، لتقرّ به بواطني وظواهري (ابن ايبك الدواداري، ١٩٦٠، ١٦٤/٩).

وكذلك الحال مع قلعة الجبل التي قال: فقالت القلعة:" الكامل غاية منايي، وأوّل من جدّد معالمي وبنى بي، لولا تحقّقي أن الناصر أجلّ الملوك من سكّاني، وأنّه سيشدّني ويعلي أركاني، حتى يعود ذكرى في ساير الآفاق، على ألسنة الرفاق، وتحدو بحسن معالمي حداة النياق، فتمدّ" (ابن ايبك الدواداري، ١٩٦٠، ١٦٤/٩).

وعلى صعيدٍ آخر فقد تجلت محبة محمد بن قلاوون لدى كثير من الشعراء الذين صورا لسان حال الناس في حبهم للناصر في ذلك العصر، فهذا الدواداري قدم النذور بأنه سيصوم شهوراً إذا عاد الناصر للحكم مرة أخرى بعد أن عزل نفسه فقد قال (ابن ايبك الدواداري، ١٩٦٠، ١٧٤/٩).

لقد نذرتُ بأنْ رأيْتك سالمـاً ونَظَرتُ وجهكَ أن أصوم شُهورا

حذراً عليك من الزمان وغدرهِ حتى تعـــودَ مؤيَّداً منصـــورا

وقد أنشد كذلك منشد يقال له مسعود، معرباً عن الحب الذي يحمله الناس للناصر الذي كان بعيداً عنهم ولا يستطيعون الوصول إليه حين قال (ابن تغري بردي ، ١٩٩٢، ١٢/٩):

أحبـــةُ قلـــبي أننـــي لوحيـــدُ أُريد لقاكـــم والمـــزارُ بعيـدُ

كفى حُزناً إنـــي مُقـيمُ بـــبلدةٍ ومن شَف قلبـي بالفراق فريدُ

أجول بطرفي في الدّيار فلا أرى وجـــوه أحبائي الـــذين أُريـدُ

ويبدو أنه كانت للناصر محمد بن قلاوون علاقات متقطعة مع الشعراء كغيره من السلاطين، فقد كان يقرّبهم أحياناً، ويمنحهم الهبات، ولهذا كانوا يمدحونه، ومنهم الشاعر صفي الدين الحلّي، الذي تردد إلـى مصـر غيـر مـرة ومدحـه (الصـفدي، ، ١٩٩٨، صـفحة ٧٠/٣ ؛ ابـن حجـر العسـقلاني، ١٩٩٣، ٤٧٩/٢؛ ابـن تغـري بـردي، ١٩٩٢، ١٨٨/١٠)، ومـنهم الشـاعر شـهاب الـدين الشَّارمْسـاحي[1]، "كـان يُحضره الملك الناصر مجلسه في بعض الأحيان" (ابن حجر العسقلاني، ١٩٩٣، ١٧٦/١ ؛ ابن تغري بردي، ١٩٩٢، ١٧٦/١).

المبحث الرابع: أثر المحبة على استمرار السلطة

كـان مـن أبـرز نتـائج محبـة النـاس للسـلطان الناصـر محمـد بـن قـلاوون هـي طـول مـدة بقـاءه فـي السلطة، فقد امتدت سلطته حوالي (٤٣ سنة) مقسمة على ثلاثة مراحل كما مر معنا سابقاً، وخير وصف لذلك ما ذكره ابن تغري بردي بقوله: " وهو أطول ملوك الترك مدة في السلطنة، فإن أول سلطنته من سنة

(١) شهاب الدين أبو العباس الشارَمساحي، شاعر مطبوع، وصاحب نوادر ظريفة، أغري بالهجاء وثلب الأعراض. ينظر (ابن حجر العسقلاني، ١٩٩٣، ١٧٦/١؛ ابن تغري بردي ، ١٩٩٢، ١٧٨/٩).

ثلاث وتسعين وستمائة إلى أن مات نحوا من ثمان وأربعين سنة، بما فيها من أيام خلعه، ولم يقع ذلك لأحد من ملوك الترك بالديار المصرية، فهو أطول الملوك زمانا وأعظمهم مهابة وأغزرهم عقلا وأحسنهم سياسة وأكثرهم دهاء وأجودهم تدبيرا وأقواهم بطشا وشجاعة وأحذقهم تنفيذا؛ مرت به التجارب، وقاسى الخطوب، وباشر الحروب، وتقلب مع الدهر ألوانا؛ نشأ فب الملك والسعادة، وله في ذلك الفخر والسيادة خليقا للملك والسلطنة، فهو سلطان وابن سلطان وأخو سلطان ووالد ثماني سلاطين من صلبه، والملك في ذريته وأحفاده وعقبه ومماليكه ومماليك مماليكه إلى يومنا هذا، بل إلى أن تنقرض الدولة التركية، فهو أجل ملوك الترك وأعظمها بلا مدافعة، ومن ولى السلطنة من بعده بالنسبة إليه كآحاد أعيان أمرائه" (ابن تغري بردي، ١٩٩٢، ١٦٥/٩-١٦٦).

فلو قسمنا سلطته على مراحل حكمة لوجدناه حكم في الأولى حوالي سنة (٦٩٣-٦٩٤هـ)، وحكم في الحقبة الثانية حوالي العشر سنوات (٦٩٨-٧٠٨هـ)، بينما كانت مدة بقائه في السلطة في المرة الثالثة حوالي (٧٠٩-٧٤١هـ)، غير أنَّ سلطته الحقيقة قد بانت وعلا شأنُها في المرحلة الثالثة من حكمه بعد أن استطاع تثبيت أركان دولته ومد نفوذها إلى بلاد اليمن والحجاز فضلاً عن مصر والشام، وخطب وده ملوك العالم أنذاك في أسيا وأفريقيا وأوربا، فيذكر ابن أياس عن ذلك بقوله:" وخطب له في أماكن لم يُخطب فيها لأحد من الملوك، وكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه، وصار جميع عسكر مصر في قبضته" (ابن اياس، ١٩٧٥، ج١/ق١/ص٤٨٥).

وهذه نتيجة طبيعية؛ لأنه جاء إلى الحكم وقد بلغ سنهُ، وخاض من التجارب في السلطتين الأولى والثانية جعله كفيل بتسنم زمام السلطة، لهذا نجد بقائه على العرش حتى وفاته.

وقد بلغت القاهرة في عهده؛ كونها عاصمة الدولة أقصى أتساع لها زمن المماليك فصارت الفسطاط والقاهرة وقلعة الجبل كلها مدينة واحدة، وقد وصفها المقريزي بقولهِ:" فاتصلت عمائر مصر والقاهرة حتى صارت بلداً واحداً... واتصل بعضها ببعض .... من شاطئ النيل بالجيزة على جبل المقطم" (المقريزي، ١٩٩٧، ٢١١/٢).

وكان من نتيجة محبة الناس له أنه "ولم يزل في سعادة ملكه وريح السعود تجري بها مواخر فلكه، الى أن هلك عنه سلطانه، وما أغنى عنه أنصاره ولا أعوانه" (الصفدي، ١٩٩٨، ٧٥/٥).

ويبدوا أن كثرة الفتن والاضطرابات التي كانت تحدث عند موت سلطان ومجيء آخر مكانه وكان الناس في ضيق وحزن وخوف شديد حتى يغلق التجار حوانيتهم، لذلك وجد الناس ضالتهم في السلطان الناصر، ففي ذلك يذكر الدواداري بقوله:" اعتبرت منذ أول الزمن إلى آخر وقت، فلم أجد زماناً أكثر خيراَ وخصباً، وإقامة منار الإسلام في سائر الممالك الإسلامية من زمان مولانا السلطان ... الأوطان حيث يعدل السلطان، وعدل السلطان، خير من خصب الزمان، فكيف إذا اجتمعت جميع هذه الخلال في أيّام مولانا السلطان" (ابن ايبك الدواداري، ١٩٦٠، ٢٨٤/٩).

وتجدر الملاحظة أنَّ المكانة الكبيرة التي حظي بها بيت آل قلاوون هي التي جعلت الناس يتمسكون بسلالته بلا شك، حتى بعد وفاة السلطان محمد بن قلاوون سنة(٧٤١هـ/١٣٤١م) فقد ظل أبنائه من بعده حتى عام (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) على الرغم من كون بعضهم ضعفاء أو صغار سن لا يستحقون الملك، لكن المهابة والحُب الذي كان الناس يكنونه للسلطان الناصر ولبيت قلاوون بشكل عام جعلت الناس يتمسكون بهم، فُيذكر أن ما كاد ينادى بسلطة أبي بكر بن محمد بن قلاوون حتى " اطمأنت النفوس، وذهب ما كان عندهم من الخوف واليأس" (الشجاعي، ١٩٧٨، ص١٢٤).

وقد صور لنا الشعراء استبشار الناس بدولة آل قلاوون التي أنعم الناس فيها بالخير والرخاء بفضل نعم الله تعالى عليهم فقد صور لنا الشاعر علاء الدين الوداعي الكندي ذلك بقوله (السيوطي، ١٩٦٧، ١١٦/٢):

يا أيُّها العالمُ بُشراكمْ بدولةِ المنصورِ ربِّ الفخارِ

فالله قد بارك فيها لكمُ فأمطرَ الليلَ وأضحى النهارِ

وقد عبر كذلك الشاعر الكبير صفي الدين الحلي، عن أهمية أسرة أل قلاوون بالحكم وأن السلطان الناصر قد ورث المجد والشجاعة والكرم من والده المنصور قلاوون وقد ورها لأبنائه من بعده، فهم سلاطين أشداء لا يهابون العدو، فهم الشجعان البواسل على حد قوله (الحلي، ١٩٩٠، ص٩٧-١٠٠):

أبقى قـــــلاوون الفخار لولده إرثاً، وفازوا بالثناءِ مكاسباً

قـومٌ إذا سئموا الصوافن سيروا للمجد أخطارَ الأمور مرَكبا

عشقوا الحُروبَ تيمُّناً بلُقى العِدا فكأنهم حسبوا العداة حَبائبا

وكأنّـما ظــنَّوا السيوف سوالفـاً واللُّدن قدَّاً، والقسيّ حواجـبا

ومن خـلال ما تم ذكر يتبين لنا أنَّ عصر السلطان الناصر قد امتاز بتطورات جوهرية لم تكن موجودة زمن من سبقوه، فقد أستقرت النظم المملوكية استقراراً تاماً، فزادت عدد الوظائف وبلـغ النظـام الاداري مبلغاً عظيماً من الدقة والتنسيق، وقد كثرت العمارة في عصره والتي لا يمكن حصرها في هذا المقام فقد ذكر لنا المقريزي كثير من المساجد والمدارس التي شيدت في عهده، فضلاً عن القصور، والخوانق، والقناطر، وميادين واسطبلات، وعمل كذلك على شق الترع والخلجان، وترميم المباني والتي يقف على رأسها البيمارستان المنصوري (المقريزي، ١٩٩٧، ص٢/٢٤٠).

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، فبعد إتمام هذا البحث الموسوم (محبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأثرها على بقائه في السلطة) توصلنا إلى مجموعة من النتائج نوجزها بنقاط وعلى الشكل الآتي:

١. على الرغم من كون السلطان الناصر واحداً من أعظم سلاطين المماليك البحرية، عن نشأته وتعليمه بل كان تركيزهم منصباً على سلطته والتي توالها وهو صغير دون التدرج في سلم السلطة من ولاية بعض الأقاليم المملوكية، وحكم خلالها ثلاث مرات كانت كفيلة بتجاربها من أن تجعل منه واحداً من أبرز من حكم دولة المماليك البحرية.

٢. أنَّ محبة الناس لآل قلاوون من أهم الأسباب التي جعلت الناصر محبوباً بينهم، فضلاً عن شخصيته والاعمال التي قام بها خدمة للصالح العام، لذلك كانت الجماهير دائماً ما تهاجم أعدائه ومغتصبي السلطة وتطالب بعودته إلى العرش.

٣. أنَّ كثير من المظاهر والشواهد التاريخية التي تبين محبة الناس للسلطان الناصر، من خلال الاحتفال برجوعه إلى السلطة أو بعد شفاؤه من مرضٍ ما ألمَّ بيه، بل وحتى الشعراء تغنوا بالسلطان وعصره.

٤. ومن أهم ما توصلنا إليه كذلك أنَّ المحبة التي كان يحملها الناس للسلطان الناصر محمد بن قلاوون كان لها أكبر الأثر في طول مدة مكوثه في السلطة حتى ولت حوالي (٤٣سنة) بل أن سلطته لم تنتهي إلا بوفاته، استقرت خلاله الدولة المملوكية، وتطورت أنظمتها، وشهدت تطوراً عمرانياً لافت للنظر، أدى إلى توسع القاهرة ومصر وكل أقاليم الدولة المملوكية.

المصادر والمراجع

١.ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادي. (١٩٨٣). صورة الارض. بيروت: دار صادر.

٢.ابو بكر بن عبد الله ابن ايبك الدواداري. (١٩٦٠). كنز الدرر وجامع الغرر. (تحقيق: هانس رُوبرت رويمر)، القاهرة: دار الكتب.

٣.احمد بن علي القلقشندي. (١٩٩٢). صبح الاعشى في صناعة الانشا. (تحقيق: محمد شمس الدين) القاهرة: دار الكتب المصرية.

٤.احمد بن علي المقريزي. (١٩٩٧). السلوك لمعرفة دول الملوك. (تحقيق: محمد عبد القادر عطا) بيروت: دار الكتب العلمية.

٥.احمد بن علي المقريزي. (١٩٩٨). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية . (تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي) القاهرة: مكتبة مدبولي.

٦.احمد بن علي المقريزي. (٢٠٠٦). المقفى الكبير (المجلد ط٢). (تحقيق: محمد اليعلاوي) بيروت: دار الغرب الاسلامي.

٧.افراح فائق حسن. (العدد ٦٦ شباط، ٢٠٢١). الدور الاقتصادي للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في مصر وبلاد الشام دراسة وثائقية من خلال الكتابات والنقوش. مجلة كلية العلوم الاسلامية.

٨.جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. (١٩٦٨). حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة . (تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم) القاهرة: دار احياء الكتب العربية.

٩.جمال الدين ابو المحاسن ابن تغري بردي. (١٩٩٢).النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (تقديم: محمد حسين شمس الدين) بيروت: دار الكتب العلمية.

١٠.جمال الدين ابو المحاسن ابن تغري بردي. (١٩٩٧). مورد اللطافة في من ولى السّلطنة والخلافة (تحقيق: نبيل عبد العزيز احمد) القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.

١١.الحسن بن عمر بن الحسن ابن حبيب. (١٩٧٦). تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه. (تحقيق: محمد احمد امين) القاهرة: مطبعة دار الكتب.

١٢.حياة ناصر الحجي. (١٩٨٤). احوال العامة في حكم المماليك. الكويت: الوفاء.

١٣.ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الخطائي. (١٩٦٠). زبدة الفكر في تاريخ الهجرة. بيروت: دار احياء الكتب العربية.

١٤.ركن الدين بيبرس بن عبدالله المنصوري. (١٩٨٧). تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من(٦٤٨-٧١١هـ)، نشره وقدم له ووضع فهارسه: عبد الحميد صالح حمدان. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

١٥.شافع بن علي العسقلاني. (١٩٩٨). الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور. (تحقيق: عبد السلام تدمري، المحرر) بيروت: المكتبة العصرية.

١٦.شمس الدين ابو عبدالله محمد الذهبي. (١٩٨٥). سير اعلام النبلاء. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٧.شمس الدين الشجاعي. (١٩٧٨). تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي واولاده، (حققه وترجمه الى الألمانية: برباره شيفر). القاهرة: بالمعهد الألماني للأثار في القاهرة.

١٨.شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري. (٢٠٠٤). نهاية الارب في فنون الادب. (تحقيق: نجيب مصطفى فواز وحكمت كلشي فواز) بيروت: دار الكتب العلمية.

١٩.شهاب الدين احمد بن علي ابن حجر العسقلاني. (١٩٩٣). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. بيروت: دار الجيل.

٢٠.شهاب الدين ياقوت بن عبدالله ياقوت الحموي. (٢٠٠٧). معجم البلدان. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.

٢١.صفي الدين الحلي(١٩٩٠). الديوان (تنسيق وفهرسة: د.الشويحي) بيروت: دار صادر.

٢٢.صلاح الدين بن ايبك الصفدي (١٩٩٨). أعيان العصر واعوان النصر (تحقيق: علي ابو زيد ونبيل ابو عمشة ومحمد وعد) بيروت: دار الفكر.

٢٣.صلاح الدين بن ايبك الصفدي. (٢٠٠٠). الوافي بالوفيات. (تحقيق: احمد الأرناؤوط وتركي مصطفى) بيروت: دار احياء التراث.

٢٤.عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي. (١٩٧٨). نزهة الاساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

٢٥.عبد الرحمن ابن خلدون. (١٩٩٩). مقدمة ابن خلدون. بيروت: دار احياء التراث العربي.

٢٦.عماد الدين اسماعيل ابن كثير، (١٩٨٨). البداية والنهاية. (تحقيق :علي شيرازي،) بيروت: دار احياء التراث.

٢٧.غرس الدين خليل ابن شاهين الظاهري. (١٨٩٤). زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. (صححه: بولص اداريس) باريس: مطبعة الجمهورية.

٢٨.ليلى عبد الجواد اسماعيل. (العدد الاول يناير، ١٩٨٨). نائب السلطنة في القاهرة في عصر دولة المماليك البحرية. مجلة المؤرخ المصري. مطبعة كلية الاداب جامعة القاهرة.

٢٩.مثنى حاضر حسن ومخلف عبدالله صالح. (اذار، ٢٠٢٣). سياسة السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون في اصلاح الضرائب. مجلة الفراهيدي. المجلد(١٥) العدد(٥٣) الجزء(٣).

٣٠.محمد بن احمد الحنفي ابن اياس. (١٩٧٥). بدائع الزهور في وقائع الدهور (تحقيق: محمد مصطفى زيادة) مصر: المطبعة الاميرية.

٣١. محمد بن احمد بن علي تقي الدين الفاسي. (١٩٨٦). العقد الثمين في تاريخ البلد الامين. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٣٢.محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي المعروف بأبن بطوطة. (١٩٩٧). رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبد الهادي التازي، الرباط: مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية.

٣٣.محمد شعبان ايوب. (٢٠١٥). دولة المماليك تاريخ المماليك السياسي والعسكري. القاهرة: مؤسسة اقرأ.

٣٤.موسى بن محمد اليوسفي. (١٩٨٦). نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر. (تحقيق: احمد حطيط) بيروت: عالم الكتب.

٣٥.ناصر الدين ابن الفرات. (١٩٧٠). تاريخ ابن الفرات. (عني بتحرير نصه ونشره: قسطنطين زريق) بغداد: دار الطباعة الحديثة.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: م.د. علي سامي فرحان منخي

الجامعة: الشطرة

الكلية: الفنون الجميلة

القسم: الفنون التشكيلية

البلد: العراق

البريد الالكتروني: ali.sami@shu.edu.iq

الهاتف: ٠٧٧٣٠٤١٧٩٠٥

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ١٧/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٣٠/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (النحت البارز، المعبودة اللات، الحضر، تدمر، الفن)

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

عنوان البحث

النحت البارز للمعبودة اللات في مدينتي الحضر وتدمر دراسة فنية

ملخص البحث

يتناول البحث النحت البارز للمعبودة اللات في مدينتي الحضر وتدمر خلال الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد الى القرن الثالث الميلادي، حيث يتتبع جذورها وعلاقتها وتطورها بالمعبودات المحلية، وبعدها ازدهار عبادتها في العصور الكلاسيكية واندماجها اسوة بباقي المعبودات المحلية ومع المعبودات الوافدة من اليونان والرومان خلال العصرين الهلنستي والروماني، كذلك تناول البحث دراسة الخصائص والسمات الفنية وطريقة النحت ومدى الحفاظ على رموزها المحلية رغم اندماجها بالمعبودات اليونانية.

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Dr. Ali Sami Farhan
University: Shatrah
College: Fine Arts
Department: Fine Arts
Country: Iraq
Email: ali.sami@shu.edu.iq
Phone: 07730417905

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 17/ June / 2026
Acceptance Date: 30/ June / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Relief sculpture, the goddess Allat, Hatra, Palmyra, Art)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Relief Sculpture of the Goddess al-Lāt in the Cities of Hatra and Palmyra: An Artistic Study

Abstract

This research examines the relief sculpture of the goddess Allat in the cities of Hatra and Palmyra from the 3rd century BCE to the 3rd century CE. It traces her origins and her relationship with, and evolution alongside local deities, as well as the flourishing of her worship during the Classical era. The study further explores her syncretism, shared by other local deities, with Greek and Roman gods during the Hellenistic and Roman periods, while also analyzing her artistic characteristics, sculptural style, and the extent to which her local attributes were preserved despite this integration with Greek deities.

المقدمة

إن لدراسة المعبودة اللات وتمثيلها في مدينتي الحضر[١] (الشمس م.، ١٩٨٨م، صفحة ١٤) وتدمر[٢] (البني، ١٩٧٨م، صفحة ١٠) خلال الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد الى القرن الثالث الميلادي اهمية كبيرة، إذ تعود اقدم الاشارات اليها في الادب البابلي كما ذكرت في النقوش الفينيقية خلال القرن السابع قبل الميلاد واصبحت من المعبودات المهمة في مدينتي الحضر وسوريا القديمة جنوب شرق دمشق عند بادية الشام وعند الانباط وسوريا الجنوبية، حيث بني لها معابد، ونحت لها تماثيل ونحت بارز في الحضر وسوريا القديمة، وتعتمد الدراسة على عينات النحت البارز لمدينتي الحضر وسوريا القديمة دراسة تفصيلية من حيث العائدية الزمنية والمعثر ومكان الحفظ ومن ثم دراسة فنية تركز على تصفيفة الشعر والازياء والحلي وحركات الجسم.

الهدف من البحث:

_التعرف على طبيعة النحت البارز للمعبودة اللات خلال الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد الى القرن الثالث الميلادي واستعراض الهيئات المختلفة التي شكل عليها النحت البارز الى المعبودة اللات في مدينتي الحضر وتدمر.

_تأثير الحياة الدينيَّة على النحت البارز للمعبودة اللات.

---

(١) الحضرُ (Urban): من المدن الخالدة في التاريخ البشري تقع في بادية جزيرة العراق ١١٠ جنوب غرب الموصل على بُعد حوالي ٧٠كم غرب القيارة على نهر دجلة، ويمرُّ وادي الثرثار إلى الشرق من الحضر على مسافة حوالي ٤كم، وهي مدينةٌ مستديرةٌ ذات بواباتٍ مزوَّرةٍ (أبواب أو مداخل غير حقيقية أو وهمية)، وإنَّ أفخم مبانيها هي المعابد، حيث أدرك الحضريُّون بتخطيط مدينتهم بهذا الأسلوب أمورًا مهمَّةً منها السور الدائري يعني أكبر مساحة في أقصر خطٍّ، وأنَّ الأبراج التي تكون على السُّور الدائري أصلح للدفاع لأنَّ مدى الرؤية من المزاغل أو الشرفات التي على تلك الأبراج تكون بزاويةٍ منفرجةٍ واسعة، وأيضًا عرفوا منفعة البوابات المزوَّرة نحو يمين الداخل في أيام الحصار؛ لأنَّ اقتحامها أصعب كثيرًا من اقتحام البوابات المستقيمة، واتَّخذوا أيضًا من المعبد الكبير مركزًا للشكل الدائري لمدينتهم؛ لأنَّ ذلك المعبد مقرٌّ لندواتهم واجتماعاتهم فيسهل عليهم وهم في المركز إدارة الدفاع عن المدينة أين كان الهجوم عليها. الشمس، ماجد عبد الله (١٩٨٨م):٤.

(٢) تدمر: مدينة صحراوية في بادية الشام تقع في اطراف البادية التي تفصل سوريا عن العراق تبعد (٢٨٠كم) عن دمشق و(١٨٤كم) عن حمص، اسم تدمر يعود الى اقدم العصور قبل هجرات شعوب الجزيرة العربية بدليل الاسم السامي تادمور الذي كان ساداً قبل استيطان القبائل العربية فيها. البني، عدنان، (١٩٧٨م):١٠.

_الوصول إلى المقارنة والتأثيرات المتبادَلة بين الفنَّيْن (الحضري) و (التدمريّ) وبين الفنَّيْن اليونانيّ والرومانيّ.

مشكلةُ البحث:

تُعد المعبودة اللات من أبرز المعبودات العربية التي حظيت بمكانة دينية وفنية مهمة في مدينتي الحضر وتدمر، وقد ظهرت صورها في العديد من المنحوتات البارزة التي عكست الخصائص الفنية والعقائدية لكل مدينة منها، إلا أن الدراسات المتخصصة ما زالت تفتقر إلى تحليل مقارن يوضح أوجه التشابه والاختلاف في تمثيل المعبودة اللات بين المدينتين، ومدى تأثير البيئة الثقافية والدينية والسياسية المحلية في تشكيل أسلوب النحت البارز وخصائصه الفنية والرمزية.

منهج الدراسة:

نتَّبع في دراستنا هذه المنهجَ الوصفيَّ – التحليليَّ المُقارِن الذي يُمثل حدًّا فاصلاً بين مدينتين الأولى (مدينة الحضر) والثانية (مدينة تدمر) المقارنة والتحليل والتشابه والاختلاف.

تساؤلات البحث:

تحاول الدراسةُ أن تجيبَ على الأسئلة التالية:

_الخصائص الفنية للنحت البارز للمعبودة اللات في (الحضر وتدمر)؟

_المواد المستخدَمة للنحت البارز للمعبودة اللات في (الحضر وتدمر)؟

_استخدامات الأعمال النحتيَّة البارزة للمعبودة اللات في (الحضر وتدمر)؟

_أوجُه الشَّبه والاختلاف للأعمال النحتيَّة البارزة للمعبودة اللات في (الحضر وتدمر)؟

التمهيد:

تُعدّ المعبودة اللات من أبرز المعبودات الأنثوية في العالم العربي القديم، إذ حظيت بمكانة دينية كبيرة لدى القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام، كما امتدت عبادتها إلى عدد من المدن المهمة، مثل الحضر وتدمر، حيث ارتبطت بالحماية والخصب والازدهار وقد تنوعت صور تمثيلها الفني وفقًا للبيئات الثقافية التي انتشرت فيها، مع احتفاظها بخصائص رمزية تعكس مكانتها الدينية.

أما تسمية اللات فقد وردت في المصادر العربية القديمة بصيغ متعددة، ويُرجع كثير من الباحثين أصل اسمها إلى كلمة (الإلهة) أي المؤنث من لفظ الجلالة (الإله)، في حين يرى آخرون أن اسمها مشتق من جذر سامي قديم ارتبط بالقداسة أو الألوهية وقد ورد ذكرها في عدد من النصوص والنقوش العربية والآرامية واليونانية، مما يدل على اتساع نطاق عبادتها وتعدد البيئات الحضارية التي عُرفت فيها.

وشكّلت اللات جزءًا مهمًا من المعتقدات الدينية في المشرق العربي قبل الميلاد وخلال القرون الميلادية الأولى، إذ أُقيمت لها المعابد، ونُذرت لها القرابين، وصُوِّرت في الأعمال النحتية بصيغ مختلفة، سواءً على هيئة تماثيل كاملة أو منحوتات بارزة، بما يعكس تداخل التأثيرات المحلية والهلنستية والرومانية في فنون تلك المرحلة، ومن هنا تبرز أهمية دراسة المعبودة اللات بوصفها نموذجًا يجسد التفاعل بين العقيدة الدينية والفن، ويسهم في فهم الخصائص الفنية والرمزية لمنحوتاتها، ولا سيما في مدينتي الحضر وتدمر.

النحت البارز:

يعرف ناثان نوبلر (النحت البارز): بانه (خلق اشكال ذات ثلاثة ابعاد تقع في سطح مستوٍ ذي بعدين بحيث تبرز التكوينات الفنية عن طريق الاختلال الحاصل بين الظلال المتولدة من الاجزاء المرتفعة نسبياً عن سطح المنحوتة) (ناثان، ١٩٨٧، صفحة ١٩٩)

يعرف محمد عبد الحسين يوسف مصطلح (النحت البارز) اجرائياً بانه احد انواع الانماط الفنية المستخدمة في مدينة الحضر والمستندة الى استخدام مادة الحجر ومواد اخرى في نحت اشكال ادمية وحيوانية متعددة ومتنوعة تتكون من ثلاثة ابعاد تبرز عن سطح مستوٍ ذي بعدين ببروز متفاوت بين القليل الواطئ والشديد البارز الذي يتحقق عن طريق عملية الحذف والاضافة في المادة المستخدمة بحيث يكون الاختلال بين تدرجات الظل و الضوء السبب في ابراز ملامح العمل وما يتصف به من خصائص اسلوبية فنية ومضمونيه فكرية. (يوسف، ٢٠٠٤، صفحة ٥).

اولاً: المعبودة اللات في مدينة الحضر:

اللات بوصفها معبودة الحرب والدفاع ظهرت في منحوتات مدينة الحضر، وبني لها معبداً كان مكرساً لعبادة المعبودة ومن اشهر معابدها في مدينة الحضر معبد (ا ل ت) اللات: يقع هذا المعبدُ على الجدار الفاصل في جهة الشمال، أي إلى اليسار من معبد (مرن) وهو يتَّجه إلى الشرق، ويدخل إلى هذا المعبد بعد الجدار الفاصل بمقدار (٨,١٥) مترًا في حرم المعبد، وتكون واجهته أمام الجدار الفاصل داخل الصحن. (الصالحي، ١٩٨٠م، صفحة ١٠٤)

وعُبدت اللات في هذا المعبد، اذ ورد اسمُ هذه المعبودة في ثمان كتاباتٍ، وكان لها مكانةٌ كبيرةٌ في الديانة الحضريَّة بدلالة وجود معبدها في حرم المعبد الكبير، وتتكوَّن بنايةُ هذا المعبد من إيوانٍ كبيرٍ في الوسط وعلى جانبيه إيوانان صغيران، وهي بذلك تتشابهُ مع المباني الأخرى في مجموعة المعابد المتَّسقة في حرم المعبد الكبير، إلا أنَّ هذا المعبد يمتاز عن بقيَّة المعابد بالسَّعة والضَّخامة، فضلًا عن الاختلاف في التفاصيل الزخرفيَّة المعماريَّة. (الحوت، ١٩٥٧م، صفحة ٦٧)

نماذج النحت البارز للمعبودة اللات في مدينة الحضر.

نموذج رقم(١): المعبودة اللات والمعبود هرقل[١] واقفين. (سلامة، ١٩٨٨، صفحة ٢٧) صورة رقم(١).

التاريخ: القرن الاول قبل الميلاد الى القرن الثاني الميلادي.

مادَّة الصُّنع: الرخام الرمادي.

الأبعاد:.....

مكان الاكتشاف: معبد اللات (داخل المعبد الكبير)

مكان الحفظ الحالي: المتحف العراقي/ بغداد. بالرقم:..... (فرحان، ٢٠٢٠م، صفحة ٥١)

(١) المعبود هرقل: وردت تسميةُ البطل في بداية ولادته (ألكيدس Alcides)، وجاءت في الأساطير نسبةً إلى اسم جدِّه (ألكايوس Alcaeus)، ومن ثمَّ اشتهر باسم (هرقلاو هيراقليس Heracles) عند اليونان، أمَّا عند الرومان فقد عُرف باسم (هيركيوليس Hercules)، وترجم اسمه للعربيَّة بصيغة هرقل، فاسمه مكوَّنٌ من مقطعين (هيرا – كليس) المقطع الأول مشتق من المعبودة الإغريقيَّة (هيرا Hera) والمقطع الثاني (كليس Khleos) يعني اسمه مجد أو نصر، فيصبح معنى اسمه (مجد هيرا) ويرجع أصل تسميته بهذه النظريَّة إلى أسطورته الخالدة المتعلقة بعذابه ومأساته من قبل المعبودة هيرا. أيمن سلامة، (١٩٨٨م): ٢٧.

يمثل المعبودة اللات والمعبود هرقل واقفين بنحت بارز وبوضعية المواجهة الامامية وتوجد بينهما دكة، وقد تكسر جزء كبير من الفراغ الموجود بينهما، والمنحوتة بشكلها العام تشبه واجهة ممر او مدخلاً حيث تتكون من عمودين جانبيين صغيرين لهما قاعدتان وتاجان مميزان ويعلوهما قوس مقنطر. (Al-Shawi, 1979, p. 63)

استناداً الى معثر اللوح في معبد اللات يعتقد بأن المرأة الواقفة عن يسار اللوح تمثل المعبودة اللات وهي تقف بارتفاع مقارب لارتفاع هرقل وترتدي رداء ذا كمين قصيرين، وهو طويل اذ تظهر حافته السفلى متموجة بانتظام حول القدمين وتغطيها طيات تظهر بوضوح على أعلى الصدر والكم الايمن والبطن وكذلك الورك الايمن بهيئة حزوز مقوسة تتكرر بتماثل وانتظام، وفوق الثوب ترتدي المعبودة ازاراً يغطي القسم السفلي من الجسم حيث تظهر حافته السفلى المستقيمة اسفل الساق اما حافته العليا فهي عبارة عن لفة متينة مبرومة تبدأ من جانب الورك الايمن ثم تتقوس نحو الأعلى لترتمي على الكتف الايسر، وتغطي هذا الازار مجموعة من الطيات المختلفة اذ تكون افقية مكورة السطوح تميل تدريجياً على الساقين، فضلاً عن حزمة من طيات عمودية مكورة السطوح تنسدل من منطقة العانة. (الصالحي، ١٩٨٠م، صفحة ١٠٦)

اما الرجل يقف عن يمين اللوح وهو قوي البنية ومتوسط العمر ومن خلال جلد الاسد الذي يرفعه بذراعه اليسرى والهراوة الموضوعة بجانب قدمه اليمنى يمكن تمييزه بوصفه المعبود (هرقل / نرجول) معبود الحرب والقوة والصمود، وهو يرتدي الثوب الحضري المألوف الذي هو دون اكمام ومثبت على الكتف الايمن بمشبك مدور، ويصل الى نهاية الفخذ، والحافة السفلى لهذا الثوب مميزة الشكل اذ تكون بهيئة حرف (M) مما ادى الى ظهور الجزء السفلي من الفخذين، وتغطي الثوب طيات بسيطة مقوسة، مكورة السطوح تفصل بينها حزوز عميقة تتكرر بتماثل وانتظام وتناظر وتدرج في الحجم على كل اجزاء الثوب. (يوسف، ٢٠٠٤، صفحة ٨٦)

صورة رقم (١) المعبودة اللات والمعبود هرقل واقفين.

(الصالحي، ١٩٨٠م، صفحة ١٠٩)

نموذج رقم (٢) ثلاث نسوة واقفات على ظهر اسد بوضعية المواجهة الامامية. صورة رقم (٢).

التاريخ: القرن الاول قبل الميلاد الى القرن الثاني الميلادي.

مادَّة الصُّنع: حجر الكلس.

الأبعاد: الارتفاع (١١٨سم) العرض (٧٢سم).

مكان الاكتشاف: عثر عليه في المعبد الخامس.

مكان الحفظ الحالي: المتحف العراقي/ بغداد. مسجل في دائرة الاثار بالرقم ٢/حضر /١٥٥ /٥٦٧٧٤.
(فؤاد سفر، ١٩٧٤، صفحة ٢٣٣)

ثلاث نسوة واقفات بوضعية المواجهة الامامية بالنحت البارز على ظهر اسد يقف بالوضعية الجانبية اسفل اللوح، المرأة في الوسط تمثل المعبودة اللات وهي معبودة الحرب والقوة عند العرب ويمكن تمييزها بواسطة الخوذة التي ترتديها والرمح والترس اللذين بيديها والوجه المطلسم على صدرها، وهذه الرموز قد اخذتها عن المعبودة الاغريقية اثينا، والاسد الذي يقف تحتها يرمز للقوة ويبرز الصفة الحربية

لهذا النقش، وعلى جانبي المعبودة تقف امرأتان ترفع كلٌّ منهما يدها اليمنى للتحية. (الشمس م.، النحت في الحضر، ١٩٨٥م، صفحة ٣٠٩)

ترتدي المعبودة خوذة هرمية الشكل تحيط بأعلى الرأس ومن خلال الهيئة العامة لهذه الخوذة نستطيع ان نرى انها تمتد من الخلف الى اسفل الرقبة، في حين ترتفع من الامام قليلاً فوق الجبهة تاركةً فتحة مثلثة الشكل تبرز من خلالها خطوط منحنية تمثل خصل الشعر التي تمتد فوق الجبهة، ويتدلى من تجويف الخوذة لمّتا شعر تحيطان بالوجه وتغطيان الاذنين، وكل لمة تتكون من عقصات حلزونية مبرومة ومرتبة على نحو منتظم، ونوعية هذه العقصات تختلف عن نوعية خصل الشعر الممتدة فوق الجبهة واعتماداً على ذلك يمكننا ان نستنتج ان خصل شعر الجبهة تمثل نوعية الشعر الاصلي للمعبودة اللات في حين ان العقصات الحلزونية هي تسريحة شعر مستعارة بالنسبة الى المعبودة ترتدي المعبودة ثوبين، الداخلي منهما تظهر حافته على القدمين، وفوقه ثوب اخر يتكون من قطعة قماش تلف الجسم، وتنطوي حافتها العلوية الى الاسفل فتكون حافة متموجة اسفل البطن وهذا الثوب مثبت على الجسم بكلابين على الكتفين وبزنار تحت الصدر، وهو يترك كتفي المعبودة وذراعيها عاريتين، ويشاهد طرفا هذا الثوب ملمومين على الجانب الايمن للجسم وممتدين من الزنار الى الاسفل بحافتين متموجتين، تغطي الثوب طيات مختلفة ومتنوعة، فالطيات على البطن مكونة من حزم عمودية مستقيمة مسطحة تحصر بينها طيات افقية مقوسة، اما الطيات على الساقين فتكون مقوسة افقية تميل مع حركة القماش، وتحصر بينها حزمة من طيات عمودية تهبط بخفة من منطقة اسفل العانة، موحية بمرونة وانسيابية القماش. (الشمس م.، ١٩٨٥م، صفحة ١٨٣)

يبرز من وسط الثديين وجه مدوسة مطلسم وهو بهيئة دائرية، محزز بتفاصيل بسيطة ومختزلة منسجمة مع حجم الوجه ولا تكاد تدل على هيئته الانسانية، وتحيط به حلقة تتكون من حيتين ينعقد ذيلهما في اسفل الذقن وتخرج منهما خصل الشعر المرتبة على جانبي الوجه، وهذه الافاعي تُعد الرمز المميز للمدوسة في الاساطير القديمة ويبدو ان صفة الاختزال والتبسيط في الية المعالجة الفنية لهذا الوجه قد كثفت من طاقته الرمزية التي منحت القوة والسلطان للمعبودة اللات. (السعدون، ١٩٨٨، صفحة ١٣٦)

صورة رقم (٢) ثلاث نسوة واقفات على ظهر اسد بوضعية المواجهة الامامية. (السعدون، ١٩٨٨، صفحة ١٥٠)

نموذج رقم(٣) الملك الكاهن سنطروق[١] واقف امام المعبودة اللات جالسة. صورة رقم (٣أ+ب).

التاريخ: القرن الاول قبل الميلاد الى القرن الثاني الميلادي.

مادَّة الصُّنع: حجر الكلس.

الأبعاد: الارتفاع (٩٠سم) العرض (٣,٥٥سم).

(١) سنطروق الأول: وهو ثاني ملوك مدينة الحضر في شمال العراق محافظة نينوى حاليًا، حكم بالفترة من (١٧٦-١٩٢) ميلادي، عرف من خلال عشرون نقشا عثر عليها في آثار مدينة الحضر، وهو ابن الحاكم نصر الذي حكم بالفترة من (١٢٨-١٤٠) ميلادي، ولقب بـ(مري) أي الحاكم أو السيد. فرحان، علي سامي، التَّماثيل المنحوتة العراقيَّة والمصريَّة، خلال الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثالث الميلادي (دراسة آثَارِيَّة فنِّيَّة مقارنة، رسالة دكتوراه، جامعة طنطا، كلية الآداب، قسم الآثار، شعبة الدراسات اليونانيَّة والرُّومانيَّة، ٢٠٢٣م): ١١٧.

مكان الاكتشاف: عثر عليه في معبد اللات (داخل المعبد الكبير).

مكان الحفظ الحالي: المتحف العراقي/ بغداد. مسجل في دائرة الاثار بالرقم ٢٠/ حضر / ٨٢٦. (فؤاد سفر، ١٩٧٤، صفحة ٢٣٩)

لوح بالنحت البارز على شكل افريز طويل مكسور طرفاه وفيه اضرار، المشهد الرئيس لهذا اللوح احتل موقعاً وسط الجدارية حيث يظهر فيه رجل واقف امام امرأة جالسة، ومن خلال الكتابة الآرامية المدونة في اسفل المشهد التي تقول (الملك سنطروق الملك الكاهن) [١] (ابراهيم، ١٩٨٦، صفحة ١٠٤) تم الاستدلال على ان الرجل الواقف هو الملك سنطروق والمرأة الجالسة هي المعبودة اللات التي تم الاستدلال على هويتها من خلال معثر اللوح في معبد اللات وكذلك بعض الرموز الخاصة. (الموسوي، ٢٠٠٢م، صفحة ٧٩)

يطرح موضوع الافريز بأسلوب السرد القصصي، اذ انه مقسم على مشاهد عدة مفصولة بعضها عن بعض بأعمدة نصفية كما لو كانت احداث المشهد تجري داخل أواوين المعبد الذي تكون الاعمدة جزءاً منه.

يظهر الملك سنطروق حافي القدمين واقفاً يقدم الطاعة والولاء في حضرة المعبودة اللات، ويتلقى الخير والبركة منها، يتضح ان الملك سنطروق كان في حضرة المعبودة اللات ليس فقط بوصفه ملك المدينة، وانما الكاهن الاكبر المسؤول عن اداء الطقوس والشعائر الدينية امام عظمة المعبودة ايضاً.

تجلس المعبودة اللات على يسار المشهد بوضعية المواجهة شبه الامامية حيث يستدير جذعها قليلاً نحو الملك، الوجه تعرض الى تلف شديد ربما يكون بوضعية المواجهة الامامية وتتزين بأقراط دائرية واساور مكورة حول معصميها، كما تتزين بطوق مرصع بأقراص حول رقبتها وسلسلة تتدلى على صدرها تنتهي بمدالية مزينة بنحت بارز واطئ لنسر طاوٍ جناحيه يمثل معبود الشمس كبير المعبودات الحضرية. (النجفي، ١٩٨٣م، صفحة ١٩٨)

وهي ترتدي الازياء النسائية المألوفة ثوباً قصير الاكمام وهو طويل يصل الى الارض لتظهر حافته المتموجة محيطة بالقدم، ويحتوي على طيات عمودية مكورة السطوح، بثنايا عميقة تتقوس مع حركة القماش المنسدلة حول القدمين، وفوق الثوب ترتدي المعبودة ازاراً يلف كل الجسم وتظهر حافته

(١) تم تعرّف على هذا المشهد ان السلطتين الملكية والكهنوتية (اي الدينية والدنيوية) كانت تجمع تحت لواء شخص واحد خلال الفترة الاولى من دور الملوكية في الحضر ثم انفصلتا عن بعضهما بعد ذلك الى مركزين اجتماعيين، كل واحد منهما يشغله شخص معين يتمتع بوظائف وسلطة محددة. جابر خليل ابراهيم (١٩٨٦م): ١٠٤.

المستقيمة اسفل الساق، وينسحب جزء من هذا الازار فوق غطاء الرأس فتظهر حافته محيطة بالكتفين والرأس وينتهي بحافة متينة مبرومة تمر عبر حوض المعبودة ثم تتدلى على طول جانبها الايسر بطيات عمودية متنوعة ومختلفة الحجوم، تغطي الازار مجموعة من طيات دقيقة مقوسة افقية تتكرر بانتظام على منطقة الساقين واخرى مائلة على الصدر وثالثة متقاطعة على الكمين بهيئة هندسية تتكون من اشكال مثلثات تتعاقب بانتظام ويعلو رأس المعبودة غطاء يتكون من ثلاث طبقات تتدرج في الحجم بهيئة هرمية يغطيها جزء من الازرار. (Colledge M. , 1977, p. 29)

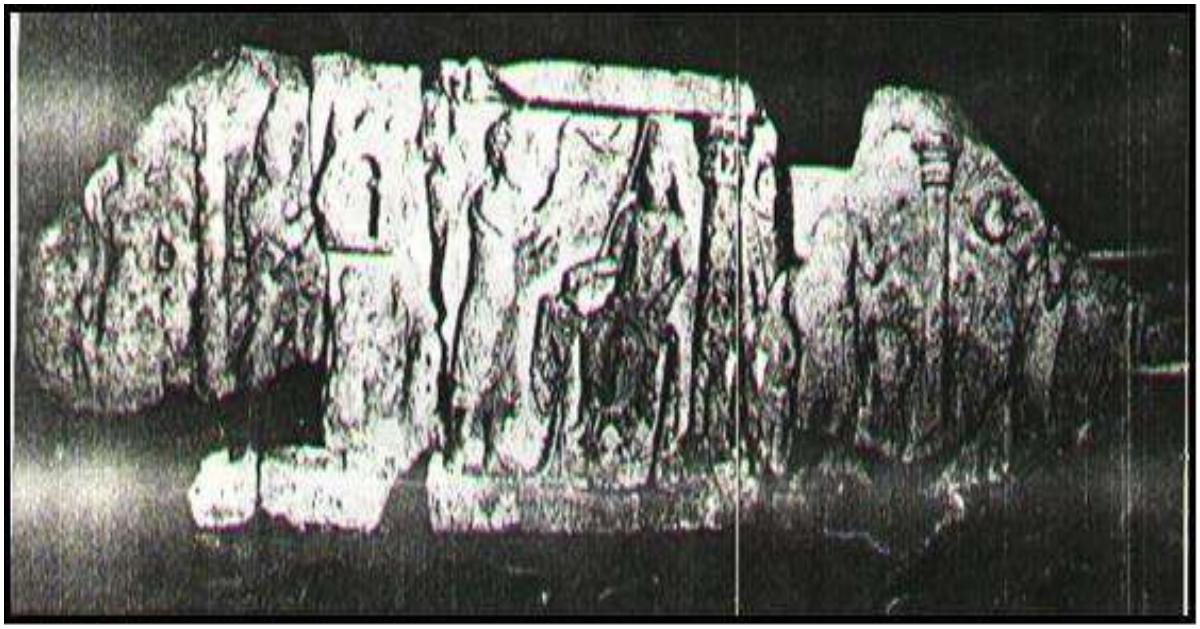

صورة رقم (٣أ) الملك الكاهن سنطروق واقف امام المعبودة اللات جالسة. (فؤاد سفر، ١٩٧٤، صفحة ٢٤٤)

صورة رقم (٣ب) الملك الكاهن سنطروق واقف امام المعبودة اللات جالسة. (فؤاد سفر، ١٩٧٤، صفحة ٢٤٤)

ثانيا: عبادة المعبودة اللات في مدينة تدمر:

انتشرت عبادة المعبودة اللات في مدينة تدمر كأحد أهم المعبودات العربية حيث بنى التدميريون معبد مكرساً للمعبودة اللات الواقع في الحي الغربي من المدينة والذي تم الكشف عنه في سبعينيات القرن الماضي، يتألف مخططه من باحة مستطيلة يتوسطها الحرم الذي يتقدمه رواق من ستة اعمدة، كما كان يحيط بالحرم رواق مؤلف من أعمدة كورنثية بينما يقع المدخل الاساسي امام الحرم، وتذكر الكتابة الموجودة على بوابته ان المعبد اقيم بأموال المعبودة اللات خلال القرن الثاني الميلادي، حيث عثر في الداخل على اهم تمثال للمعبودة اثينا اللات وتمثال آخر لأسد اللات الذي كان يحرس معبدها، ويذكر ان المعبد ظل مستخدما لقرن واحد بعد انهيار تدمر. (ميشيل، ١٩٨٣م، صفحة ٢١٢)

نماذج النحت البارز للمعبودة اللات في مدينة تدمر.

نموذج رقم (٤): نحت المعبودة اللات مع معبودات أخرى. صورة رقم (٤).

التاريخ: القرن الثالث الميلادي.

مادَّة الصُّنع: الحجر الكلسي الابيض.

الأبعاد: الارتفاع (٢٨سم) العرض (٣٤سم).

مكان الاكتشاف: خربة وادي الصوان جبل البلعاس شمال غرب تدمر. (والمتاحف، صفحة ٣١٥)

مكان الحفظ الحالي: المتحف الوطني بدمشق. بالرقم..... (COLLEDG, 1976, p. 320)

المعبود اللات مع معبودات أخرى، نحت بارز يبدأ وصف المشهد من جهة اليسار نحت المعبودة اللات في الوسط نحت معبود الشمس وجهة اليمين نحت صاحب النذر الذي أقام هذا النصب، يتبين ان المعبودة اللات في هذه المنحوتة بوضعية الوقوف تمسك بيدها اليمنى رمحاً، وتمسك ترساً دائري بيدها، الذي تكون عليه نقوش، وعلى رأسها خوذة حيث ترمز الخوذة والرمح والترس علامات المعبودة أثينا التي اندمجت مع اللات في الشرق، أما ثوبها فطويل بدون أكمام له ثنيات وينسدل على الجسم، وله مشبك عند داء الكتف الأيمن، وتضع في وسط صدرها مشبك هو رأس الجرجون رمز أثينا الآخر بينما ترتدي فوق الثوب عباءة تنكشف عن الذراع اليمنى التي تحمل الرمح، وتنسدل على اليد اليسرى التي تمتد إلى الأسفل، بمحاذاة جسمها. (عفيف، ١٩٨٩م، صفحة ١٩٦)

صورة رقم (٤) نحت المعبودة اللات مع معبودات أخرى. (والمتاحف، صفحة ٣١٥)

منحوتة الى متعبد يحرق البخور امامه المعبودة اللات. صورة رقم (٥).

التاريخ: القرن الثالث الميلادي.

مادَّة الصُّنع: الحجر الكلسي.

الأبعاد: الارتفاع (٥٧سم) العرض (٥٠ سم).

مكان الاكتشاف: ....

مكان الحفظ الحالي: المتحف الوطني في دمشق. بالمرقم..... (المالكي، ٢٠١٢، صفحة ٢٧٨)

منحوتة متعبد يحرق البخور امامه المعبودة اللات مصورة على هيئة المعبودة السورية اتارغاتيس[١] وتحمل الكثير من صفات اثينا المسلحة، تظهر اثينا وهي جالسة على عرش بين اسدين رأسهم مكسور وترتدي لباسا عسكريا وتحمل الرمح الطويل في اليد اليمنى، وتحمل ترسا لوزية الشكل في اليد اليسرى لكنه للأسف مكسور لا تبدو معالمه بشكل جيد وترتدي الايغيز الذي لا يمكن اعتباره درع بشكله التقليدي وانما صدرية مصنوعة من جلد الماعز عليه حراشف قلبية الشكل مصفوفة بجانب بعضها البعض وفي وسطها رأس الميدوسا[٢] ويمكن القول ان سبب وضع رأس الميدوسا على ترسها ودرعها يعود الى رمزية مساعدة اثينا الى ابن زيوس برسيوس في قتله الى الميدوسا في تسديد الضربة القاضية للوحش مما دفع البطل إلى وهبها رأس ميدوسا لتحول من يتعرض لها الى حجر. (TEIXIDOR, 1979, p. 211)

صورة رقم (٥) منحوتة متعبد يحرق البخور امامه المعبودة اللات. (TEIXIDOR, 1979, p. 229)

(١) اتارغاتيس (أو أترعتا): هي معبودة الخصوبة والأمومة والأصل السوري في العصور الكلاسيكية القديمة، كانت المعبودة الرئيسية في شمال سوريا. المالكي هيا، (٢٠١٢): ٢٧٨.

(٢) الميدوسا: هي ابنة معبود البحر فوركس حولتها اثينا حسب الميثولوجيا الى وحش نتيجة علاقتها ببوسيدن، حيث توصف بوجه قبيح وافاع ملتفة بدلا من خصل الشعر. شعراوي عبد المعطي، (٢٠٠٥): ٢٨٦.

نموذج رقم (٦): نحت بارز للمعبودة اللات مع الأسد من تدمر. صورة رقم (٦).

التاريخ: القرن الثالث الميلادي.

مادَّة الصُّنع: الحجر الكلسي.

الأبعاد: .....

مكان الاكتشاف: ....

مكان الحفظ الحالي: المتحف الوطني في دمشق. بالمرقم..... (والمتاحف، صفحة ٣١٥)

نحت بارز للمعبودة اللات مع الأسد من تدمر، تبدو اللات في هذا النقش البارز وهي جالسة على الكرسي وترتدي ثوبا يغطي جسمها بالكامل يضمه إلى خصرها حزام حيث تحمل بيدها اليسرى التي تبدو من تحت العباءة سعفة نخيل، وترفع يدها اليمنى التي تمنح البركة، يقف إلى يسارها، حيوانها الأسد، على قائمتيه الأماميتين، منحوت بطريقة واقعية أبرزت تموجات شعر رأسه وتفاصيل قوائمه الأمامية، وكذلك فمه وأنفه يقع هذا النحت البارز ضمن تجويف على شكل مستطيل من الحجر الكسل الأبيض. (شعراوي، ٢٠٠٥، صفحة ٢٨٦)

صورة رقم (٦) نحت بارز للمعبودة اللات مع الأسد من تدمر. (شعراوي، ٢٠٠٥، صفحة ٣٢٠)

نموذج رقم (٧): نحت بارز للمعبودة اللات. صورة رقم (٧).

التاريخ: القرن الثالث الميلادي.

مادَّة الصُّنع: البازلت مصدره سوريا الجنوبية.

الأبعاد: .....

مكان الاكتشاف: تدمر.

مكان الحفظ الحالي: المتحف الوطني في دمشق. بالمرقم..... (Denter, 2007, p. 20)

نحت بارز للمعبودة اللات نفذ على قطعة حجرية مستطيلة الشكل تصويرا للمعبود أثينا اللات، تبدو فيه واقفة في وضعية جامدة خالية من الحركة وتحمل بيدها اليمنى رمحاً، بينما تتدلى يدها اليسرى إلى جانبها حاملة الترس الدائري الخالي من الزخارف سوى إطار دائري بارز، وترتدي المعبودة ثوبا طويلا مكون من طبقتين، وترتدي فوقه درعاً من جلد الماعز ويتوسطه رأس الغورغون[١] (امين، ١٩٨٨، صفحة ٢٨٧) الذين نحتت تفاصيل وجهه بشكل بسيط ودقيق، وعلى رأسه شعر على شكل خطوط عمودية، الثوب بدون أكمام يكشف عن ذراعي المعبودة الممتلئتين، نحتا بشكل خشن وكذلك أصابع يدها التي تحمل ترساً، ترتدي المعبودة خوذة ويتدلى على جانبي رأسها الشعر على شكل ضفيرتين. (ميشيل، ١٩٨٣م، صفحة ٢١٢)

صورة رقم (٧) نحت بارز للمعبودة اللات.

(Denter, 2007, p. 27)

(١) الغرغونات: هي أسطورة إغريقية قديمة عن ثلاث أخوات أسطوريات، هُنّ: سيثنو وأيرلن وميدوسا، لهن شعر من ثعابين، ومظهر مرعب، ومن ينظر إليهن يتحول إلى حجر. سلامة، امين، (١٩٨٨): ٢٨٧.

نموذج رقم(٨): نحت بارز للمعبودة اللات على جمل. صورة رقم (٨).

التاريخ: القرن الثاني الميلادي.

مادَّة الصُّنع: البازلت.

الأبعاد: .....

مكان الاكتشاف: قرب حلب.

مكان الحفظ الحالي: متحف حلب. بالمرقم..... (والمتاحف، صفحة ٣٨٧)

نحت بارز للمعبودة اللات على جمل، منحوت من تجويف يأخذ شكل نافذة متطاولة الجزء العلوي منها نصف دائري مثلت تصوير المعبودة وهي تمتطي جملاً بشكل جانبي ورجليها تتدليان على أحد جوانب الجمل، الذي جرى تصويره بشكل بروفيل جانبي حيث يسير من اليسار إلى اليمين، ترتدي ثوبا طويلا ولا تظهر قدماها، يزين عنقها عقد على شكل رباط ينتهي بتعليقة دائرية تتوسط الرقبة. يدها اليمنى المنحنية للأسفل تمسك رمحاً ذا طرفين متماثلين هما رأسي الرمح ونصلتيه، ويدها اليسرى تمسك ترساً دائري تتوسطه دائرة محدبة، تضع على رأسها خوذة، يبدو من تحت الخوذة شعرها مصفوف على شكل خطوط عريضة. (Denter, 2007, p. 24)

صورة رقم (٨) نحت بارز للمعبودة اللات على جمل. (والمتاحف، صفحة ٣٨٧)

نموذج رقم (٩): مشهد المعبودة اللات مع خمس معبودات اخر. صورة رقم (٩).

التاريخ: القرن الثاني الميلادي.

مادَّة الصُّنع: الحجر الكلسي الابيض.

الأبعاد: .....

مكان الاكتشاف: .....

مكان الحفظ الحالي: المتحف الوطني بدمشق. بالمرقم..... (رولاند، ١٩٩٦م، صفحة ٢٨٦)

مشهد المعبودة اللات مع خمس معبودات آخر يمثل المشهد نحت بارز تدمري لست معبودات تقف المعبودة اللات إلى يسار المجموعة مرتدية خوذة كورنثية، وبعدها تصطف معبودات تدمر الرئيسية المعبود بل الذي يرتدي الكالثوس والمعبود يرحبول والمعبود عجلبول ومعبود آخر غير معروف بينما ينتهي المشهد على اليسار بمعبودة أخرى غير معروفة، تبدو ألات في هذا المشهد وهي ترتدي ثوبا طويلا كثير الثنيات، وتضع الخوذة على رأسها الذي يميل نحو بقية الشخوص في المشهد، بينما يتجه المعبود بل الذي يقف الى جانبها بجسده نحوها حيث يختلف اتجاههما عن اتجاه بقية المعبودات في المشهد والذين يقفون بشكل مواجه تماما للناظر الى المشهد وهم يمسكون بأيديهم اليمنى رماح، اما المعبودة الاخيرة المجهولة فتقف بوضعية مختلفة عن الباقين تمسك بطرف ثوبها وبوضعية الناظرة اليهم. (Champdor, 1953, p. 114)

صورة رقم (٩) مشهد المعبودة اللات مع خمس معبودات اخرى. (رولاند، ١٩٩٦م، صفحة ٢٨٦)

الدراسة التحليلية المقارنة:

تميَّزت فترةُ الدراسة بسماتٍ فنِّيَّةٍ مُميَّزةٍ انعكست على مدينتي الحضر وتدمر التي أخرجتها يدُ النَّحَّات؛ حيث تمَّ استخدامُ النَّحت في كلتا المدينتين كمُكَمِّلٍ للعمارة وبشكلٍ واسعٍ في تزيين المباني من الداخل والخارج بمنحوتاتٍ جداريَّةٍ كبيرة، أو على شكل منحوتاتٍ بارزةٍ تتداخل مع زخارفَ نباتيَّةٍ وهندسيَّةٍ تُؤطِّرُ المباني والمداخل الكبيرة والأبواب الصغيرة، أو على شكل منحوتاتٍ مُجَسَّمَةٍ بأحجامٍ مختلفةٍ وُضعت في أركان المعابد وعلى أسطحها، أو على رفوف الجدران، أو على قواعد لصق الجدران في الداخل والخارج، واتَّخذ النَّحَّاتُ العراقيُّ السوري من الشكل الإنساني الشكلَ الأمثلَ في التعبير عن أفكاره وفي تمثيل عددٍ كبيرٍ من النحت البارز في اللوحات الكبيرة والصغيرة الحجم، ومن المعلوم أنَّ هذه اللوحات لم تكن يونانيَّةً صرفةً من حيث النَّحَّات في نحتها، فلا شكَّ أنَّها أخذت من الجذور الأولى للفنِّ التي أرست قواعدَها حضارة بلاد الرافدين والشام القديمة، وليست الحضارة اليونانيَّة فعندما نُجري أيَّ معادلةٍ أو مقارنةٍ بين هذه الفنون تكون الكفَّة الأرجح للحضارة العراقيَّة والسورية، فاليونان عندما دخلوا إلى بلاد الرافدين وسوريا وجدو حضارتين عريقتين، وإنما ورث الإغريق حضارةً عريقةً في شتى المجالات، ولا بُدَّ لهذه الحضارة التي يمكن القولُ بأنَّها كانت في حالة كبوةٍ عابرةٍ في الفترة التي سبقت دخول الإسكندر؛ نتيجةً للغزو الأجنبي التي تعرَّضت له أن تبقى بعضُ سماتها الهندسيَّة والفنيَّة، وأنَّ من الإنصاف أن نعترفَ بتأثير السمات الهندسيَّة والفنيَّة اليونانيَّة على حضارتين بلاد الرافدين والشام القديمة في تلك الحقبة إبَّان الفترة المذكورة والتي عرفت باسم العناصر الكلاسيكيَّة. (الحسين، ٢٠١٥م، صفحة ١٦٤)

استخدم النَّحَّاتُ العراقيُّ في مدينة الحضر في نحت اللوحات في فترة الدراسة موادَّ مختلفةً من الخامات أهمها مادة الحجر، وهي المادة الرئيسيَّة في نحت اللوحات التي تظهرُ في معظم الإنتاج الفني هي حجر الرخام (Marby)، المرمر الموصلي وحجر الكِلْس (Limestone) الحلان، وهي من الأحجار المحليَّة المتوفرة بكميَّاتٍ كبيرةٍ في منطقة الحضر (السعدون، ١٩٨٨، صفحة ٤٦).اما المادة التي استخدمها النحات السوري مدينة تدمر فتختلف باختلاف المكان الذي عثر عليه المنحوتات نجد الحجر الكلسي والرخام مستخدما في مدينة تدمر في حين استخراج الحجر الكلسي يتم بشكل محلي بينما الحجر البازلتي جرى استخدامه بشكل خاص. (Colledge M. A., 1975, p. 175)

الامتزاج مع المعبودات فقد امتازت المعتقداتُ الدينيَّةُ في مدينتي الحضر وتدمر خلال فترة الدراسة بامتزاج المعبودة اللات مع معبودات اخرى حيث نلاحظ في لوحات المعبودة اللات نموذج وصورة رقم (١) المعبودة اللات والمعبود هرقل واقفين، نموذج وصورة رقم (٤) منحوتة المعبودة اللات مع معبود الشمس، نموذج وصورة رقم (٩) المعبودة اللات مع خمس معبودات اخر. (المالكي، ٢٠١٢م، صفحة ٣٣٥)

تعددت الحركات في وضعيات المعبودة اللات بهيئة الوقوف كما في نموذج وصورة رقم (١و ٢) في مدينة الحضر ونموذج وصورة رقم (٤و ٧و ٩و) في مدينة تدمر، وهيئة الجلوس جالسة كما في نموذج وصورة رقم (٣) في مدينة الحضر، ونموذج وصورة رقم(٥و ٦و ٨).

اتسمت وضعيات المعبودة اللات في تعدد وضعيات حركات اليد فقد ترفع يدها اليمنى للتحية التي ترمز الى البركة نشاهد نموذج وصورة رقم (١و ٦)، او تمسك الرمح بيدها نموذج وصورة رقم(٢و٤و٥ و٧) والرمح يرمز الي القوة الحربية والحماية والحكمة، او ترفع سعفة النخيل نموذج وصورة رقم (٦).

صورت المعبودة اللات مع الحيوانات كما في نموذج وصورة رقم (٢) في مدينة الحضر تقف اللات على ظهر الاسد، ونموذج وصورة رقم (٦) تجلس اللات وقربها الاسد جالس ورمزية الاسد هنا هي القوة والحماية المرتبطان بها، كذلك صورت اللات مع الجمل نموذج وصورة رقم (٣) في مدينة الحضر ونموذج وصورة رقم (٨) في مدينة تدمر ورمزية الجمل هنا هي قدوم المعبودة من السفر واستقبالها من قبل الملك.

تميزت المعبودة اللات بتسريحة شعرها على شكل العقصات الحلزونية، ومن المعروف تصفيفة الشعر هذه جاءت مجسدة فقط على النحت الذكري الحضري سواء المعبودات ام الاشخاص المتعبدين، لذا يمكن القول ان الفنان قام بإضفاء رمز ذكري على المعبودة اللات من اجل زيادة القدرة التعبيرية للمعبودة القوة والحرب والصمود.

تميزت ملابس المعبودة اللات في مدينتي الحضر وتدمر على شاكلتين:

١. الملابس الداخليَّة: قُسِّمت الملابسُ الداخليَّةُ إلى نوعين، النوع الأول أشبه بما يعرف اليوم (بالتنورة) التي يرجح أنَّها على شكل كيسٍ تلبس من فوق الرأس وتثبت على الخاصرين، وأغلبُ الظنِّ أنَّها مسدودةُ الجوانب؛ لأنَّها إذا تُركت سائبةً وارتدت المرأة ثوبًا فوقها ظهر جسمُها مترهِّلاً غير متناسقٍ في الأماكن

التي تتجمَّع فيها التنورة، أمَّا النوع الثاني فهو القميص الكامل الذي يغطِّي الجسم من الكتفين إلى الأرض وله كمَّان طويلان يصلان إلى الرسغ أو إلى المرفق، أما فتحة الرقبة أي الزيق فهي واسعةٌ كثيرًا فلا ترى حاشيتها من تحت الثوب الفوقاني، وسبب لبسها ليس لأكساء الجسم فحسب بل للتزيُّن.

٢. اما الملابس الخارجيَّة: فتتمثل في ثوبٌ يصل إلى أسفل الساقين إلَّا أنَّه أقصرُ من الثوب الذي تحته وليس له أكمامٌ؛ لأن الردنين اللذين يظهران يعودان للثوب الداخلي. (فرحان، ٢٠٢٣م، صفحة ٢٧٨)

ادوات النحت:

استخدم النَّحَّاتُ الحضريُّ والتدمري مجموعةً كبيرةً من الآلات المختلفة في إنجازه المنحوتاتِ بعضها لنحت الأماكن الكبيرة والبعض الاخر للأماكن الصغيرة، حيث استخدم للأماكن الكبيرة فأسًا مُستدقَّ الرأس (Pick Hammer) وتُعرَف بالشوكة وهي بأشكالٍ مختلفة، أغلبُ المُلتقَطات الأثريَّة التي عُثِرَ عليها في الحضر عبارةً عن الفؤوس ذات الرأسين رأس مُستَدَقّ ورأس سطح (Flat Hammer)، واستخدم النَّحَّاتُ الحضريُّ فؤوسًا مُسَنَّنَةً صورة رقم(١٠).

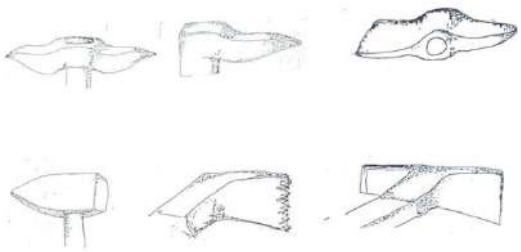

صورة رقم (١٠) أشكال الادوات المستخدمة في النحت. (السعدون، ١٩٨٨، صفحة ١٧٢)

واستخدم النَّحَّاتُ في نحت التفاصيل الصغيرة مثل ملامح الوجه والزخارف وطيَّات الملابس وفي نحت شعر الرأس واللحى مجموعةً متنوِّعةً من الأزاميل التي نستطيع تخمينَ أشكالها من خلال الآثار التي ما زالت ظاهرةً للعِيَان؛ فقد استخدم الأزاميلَ المُسطَّحة (Flat Chisel) وهي ذاتُ شفراتٍ مختلفة في السعة، كما استخدم الأزاميلَ المُسَنَّنة (Claw Chisel) وهي ذاتُ رؤوسٍ مُستدَقَّة (Punch Chisel) وذلك بتعميق المناطق الغائرة والحُفَر العميقة، كذلك استخدم الأزاميلَ المُقعَّرة (Couge Chisel) في نحت الحُزوز المُتَكَرِّرَة كما في خطوط اللِّحى، أو في طيَّات الملابس التي تظهر أنَّها متساويةٌ في العمق وفي السُّمْك، وهذا يعني أنَّها من صُنع أداةٍ واحدةٍ، كما استُخدمت الأدواتُ المُقعَّرةُ في الشكل (Couge) في صنع الأقراص والدوائر التي تُزيِّنُ الملابسَ الحضريَّة وذلك باستخدام ضربتَيْن متقابلتين، كذلك استخدم النَّحَّاتُ الحضريُّ الأزاميلَ على شكل زاويةٍ. (بوتيرو،، ١٩٨٦م، صفحة ١٢٠) صورة رقم(١١).

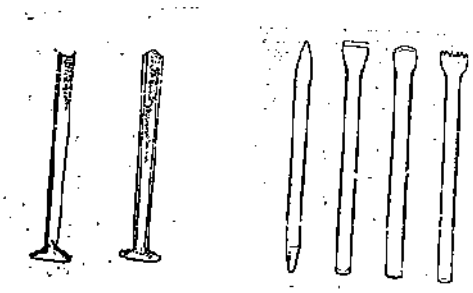

صورة رقم(١١) انواع الازاميل المستخدمة في النحت. (السعدون، ١٩٨٨، صفحة ١٨٤)

الخاتمة

توصلت هذه الدراسة الموسومة النحت البارز للمعبودة اللات في مدينتي الحضر وتدمر دراسة فنية خلال فترة الدراسة والذي كان عدد النماذج (٩) إلى أن تصوير المعبودة اللات في المدينتين يمثل انعكاسًا واضحًا للتفاعل الحضاري والثقافي والديني الذي شهدته مناطق المشرق العربي خلال الحقبة المدروسة. فقد أظهرت المنحوتات البارزة في كل من الحضر وتدمر مجموعة من السمات الفنية المشتركة، من أبرزها إبراز المكانة المقدسة للمعبودة والعناية بالتفاصيل الرمزية المرتبطة بقداستها ووظيفتها الدينية، كما بينت الدراسة وجود فروقات فنية وأسلوبية بين المدينتين، إذ اتسمت منحوتات الحضر بالطابع المحلي ذي التأثيرات الرافدينية والقليل من التشأيرات الهلنستية والرومانية، مع التركيز على القوة والوقار في الهيئة والتكوين، بينما تأثرت منحوتات مدينة تدمر بدرجة أكبر بالفنون الهلنستية والرومانية، الأمر الذي انعكس في معالجة الملامح الجسدية، وتفاصيل الأزياء، والعناصر الزخرفية المصاحبة للمشهد النحتي.

المصادر والمراجع

Al- Shawi, N. (1979). A study of Hatra Sculpture- Origin of the Theme. M.A. Dissertation, Bardoa University.

Champdor, A. (1953). Les ruines de Palmyre. les hauts lieux de l'histoire (n° 3), Paris.

COLLEDG, M. (1976). the art of palmyra westview press.

Colledge, M. (1977). Some Observation on Sculpture – Stoncarving Technigues at Hatra. Sumer, Vol. XXXIII.

Colledge, M. A. (1975). the art of palmyra. London: thames and Hudson.

Denter, F. J. (2007). Aux Portes De 1,. arabie instituten franais du proche- orient, Beyrouth.

TEIXIDOR, J. (1979). the pantheon of palmyra. brill.

الشمس، ماجد. (١٩٨٥). *النحت في العصرين السلوقي و الفرثي*. بغداد: الجزء الثالث، حضارة العراق، دار الحرية للطباعة.

المديرية العامة للآثار والمتاحف. (بلا تاريخ). *معرض المرأة السورية من خلال المكتشفات الأثرية*. المديرية العامة للآثار والمتاحف.

أيمن سلامة. (١٩٨٨). *معجم الأعلام في الأساطير اليونانيَّة والرُّومانيَّة*، (المجلد الثانية). القاهرة: مؤسَّسَة العروبة للطباعة والنشر.

بالدوس، هانس رولاند. (١٩٩٦م). *اورانيوس انطونينوس الحمصي*. (هزار عمران، المترجمون) دمشق: الحوليات الاثرية السورية، مجلد ٤٢، المديرية العامة للآثار والمتاحف.

بهنسي، عفيف. (١٩٨٩م). *الآثار السورية مجموعة ابحاث اثرية وتاريخية*. (نايف بللوز، المترجمون) دار فورفرتس للطباعة، فيينا.

جابر خليل ابراهيم. (١٩٨٦). *اضواء على كتابات آرامية جديدة من الحضر* . بغداد: سومر المجلد ٤٤.

جان بوتيرو،. (١٩٨٦م). *الشرق الأدنى الحضارات المبكرة*. الموصل: دار الكتب.

حازم النجفي. (١٩٨٣م). *كتابات الحضر*. بغداد: سومر، المجلد ٣٩.

حمد سلطان السعدون. (١٩٨٨). *تطور اسلوب النحت الحضري*. جامعة بغداد: كلية الفنون الجميلة.

سلامة امين. (١٩٨٨). *معجم الاعلام في الاساطير اليونانية والرومانية* . القاهرة: مؤسسة العروبة.

عبد المعطي شعراوي. (٢٠٠٥). *اساطير إغريقية _ الآلهة الكبرى*. القاهرة: الجزء الثالث دار الأنجلو المصرية .

عدنان البني. (١٩٧٨م). *تدمر والتدمريون* . دمشق سوريا: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

علي سامي فرحان. (٢٠٢٠م). *طُرُز عمارة المعابد العراقيَّة والمصريَّة في العصر الهِلّينستي دراسة أثريَّة مقارنة*. مصر: رسالة ماجستير، جامعة طنطا كلية الآداب قسم الآثار شعبة الآثار اليونانيَّة والرومانيَّة.

علي سامي فرحان. (٢٠٢٣م). *التَّماثيل المنحوتة العراقيَّة والمصريَّة خلال الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثالث الميلادي دراسة آثَارِيَّة فنِّيَّة مقارنة*. مصر: رسالة دكتوراه جامعة طنطا كلية الآداب قسم الآثار شعبة الآثار اليونانية والرومانية.

علي صاحب الموسوي. (٢٠٠٢م). *السمات الفنية للنحت العماري في مدينة الحضر*. جامعة بغداد: رسالة ماجستير، كلية الفنون الجميلة.

علي فالح مشير عمر الحسين. (٢٠١٥م). *دراسة فنون مدينة الحضر في العراق القديم من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثالث الميلادي*. رسالة ماجستير غبر منشورة كلية الفنون الجميلة، جامعة حلوان.

غاوليكوفسكي، ميشيل. (١٩٨٣م). *معبد اللات في تدمر*. (عدنان البني، المترجمون) الحوليات الأثرية السورية، العدد ٣٣، الجزء الاول.

فرحان، علي سامي. (٢٠٢٠). *طُرُز عمارة المعابد العراقيَّة والمصريَّة في العصر الهِلّينستي دراسة أثريَّة مقارنة*. مصر: رسالة ماجستير، جامعة طنطا كلية الآداب قسم الآثار شعبة الآثار اليونانيَّة والرومانيَّة.

فرحان، علي سامي. (٢٠٢٣م). *التَّماثيل المنحوتة العراقيَّة والمصريَّة، خلال الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثالث الميلادي (دراسة آثَارِيَّة فنِّيَّة مقارنة*. رسالة دكتوراه، جامعة طنطا، كلية الآداب، قسم الآثار، شعبة الدراسات اليونانيَّة والرُّومانيَّة.

ماجد الشمس. (١٩٨٥م). *النحت في الحضر*. بغداد: حضارة العراق الجزء الرابع دار الحرية للطباعة.

ماجد الشمس. (١٩٨٥م). *النحت في العصرين السلوقي و الفرثي*. بغداد: الجزء الثالث حضارة العراق دار الحرية للطباعة.

ماجد عبد الله الشمس. (١٩٨٨م). *الحضر العاصمة العربيَّة* . بغداد: مطبعة التعليم العالي.

محمد عبد الحسين يوسف. (٢٠٠٤). *الخصائص الفنية للنحت البارز في مدينة الحضر دراسة تحليلية*. رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الفنون الجميلة.

محمد علي مصطفى فؤاد سفر. (١٩٧٤). *الحضر مدينة الشمس*. بغداد: مديرية الاثار العامة.

محمود سليم الحوت. (١٩٥٧م). *الميثولوجيا عند العرب* (المجلد الطبعة الثانية). بيروت: دار النهار.

نوبلر ناثان. (١٩٨٧). *حوار الرؤية*. (فخري، خليل، المترجمون) بغداد: دار المأمون.

هيا المالكي. (٢٠١٢). *تماثيل الآلهة في سوريا خلال العصر الروماني*. اطروحة دكتوراه في الآثار الكلاسيكية، جامعة دمشق.

هيا المالكي. (٢٠١٢م). *تماثيل الآلهة في سوريا خلال العصر الروماني*. اطروحة دكتوراه في الآثار الكلاسيكية، جامعة دمشق.

واثق اسماعيل الصالحي. (١٩٨٠م). *عبادة اللات العربيَّة وانتشارها في ضوء الشواهد الأثريَّة*. بغداد: مجلة كلية الآداب العدد ٣٠ ١٩٨١م ١١٤.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: م.د. أحمد شهاب أحمد كسار

الجامعة: الانبار

الكلية: التربية الأساسية– حديثة

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:

ahmad.shahab@uoanbar.edu.iq

الهاتف: ٠٧٨١٩٠٦١٢٢٠

الباحث الثاني

الاسم

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ٣٠/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٣٠/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (العلماء، الحياة السياسية، العصر العباسي، بغداد، العصر)

عنوان البحث

موقف العلماء من الحياة الاجتماعية والسياسية في العراق في العصر العباسي الاول (١٣٢-٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٦م)

ملخص البحث

يُعد هذا البحث دراسةً تاريخيةً تحليليةً تتناول الدور المحوري لطبقة العلماء في العراق خلال العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ / ٧٤٩-٨٤٦م)، وهي الحقبة التي مثلت ذروة الازدهار الحضاري والسياسي للدولة الإسلامية. يهدف البحث إلى استقصاء العلاقة الجدلية والمعقدة بين "المؤسسة السياسية" و"النخبة العلمية"، وكيف استطاع العلماء التحول من حملة للشريعة إلى قوة اجتماعية وسياسية فاعلة ساهمت في صياغة هوية الدولة وتوجيه الرأي العام.

تتوزع هيكلية الدراسة على محاور رئيسة تبدأ بتأصيل المشهد السياسي في العراق وخصائص الحكم العباسي، مروراً بتحليل المكانة الطبقية للعلماء ودورهم في البناء القيمي والتعليمي للمجتمع. كما يسلط البحث الضوء على آليات تأثير العلماء في صناعة القرار عبر تقلد المناصب الرسمية كالقضاء والمشورة، أو عبر مواقفهم المستقلة في الأزمات الكبرى، وفي مقدمتها فتنة "خلق القرآن". يخلص البحث إلى رصد نماذج من هؤلاء الأعلام الذين وازنوا بين منح الشرعية للسلطة وبين ممارسة الدور الرقابي والنقدي

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Dr. Ahmed Shehab Ahmed Kassar
University: Anbar
College: Basic Education - Haditha
Department: History
Country: Iraq
Email: ahmad.shahab@uoanbar.edu.iq
Phone: 07819061220

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 30/ June / 2026
Acceptance Date: 30/June / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Scholars, political life, Abbasid era, Baghdad, the era)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Scholars' Role in Political Stance and Social Life in Iraq During the Early Abbasid Era (132-232 AH / 749-846 AD)

Abstract

This research provides an analytical historical study of the pivotal role played by the scholar class (the Ulama) in Iraq during the First Abbasid Era (132–232 AH / 749–846 AD). This period represented the pinnacle of the Islamic state's cultural and political prosperity. The study aims to investigate the dialectical and complex relationship between the "political establishment" and the "intellectual elite," exploring how scholars evolved from mere custodians of Sharia into an active social and political force that contributed to shaping the state's identity and directing public opinion.The structure of the study is distributed across main axes, beginning with establishing the foundations of the political scene in Iraq and the characteristics of Abbasid rule, followed by an analysis of the scholars' class standing and their role in the value-based and educational construction of society. The research also sheds light on the mechanisms of the scholars' influence in decision-making, whether through holding official positions such as the judiciary and consultation, or through their independent stances during major crises, foremost among them the "Mihna" (the ordeal of the createdness of the Qur'an). The research concludes by identifying models of these prominent figures who balanced granting legitimacy to authority

المقدمة

تعد الدولة العباسية في عصرها الأول (١٣٢-٢٣٢هـ) واحدة من أبرز الحقب التاريخية التي شهدت ازدهاراً حضارياً فريداً في العراق، وقد اتخذت الخلافة من مدينة بغداد عاصمةً لها، لتصبح مركزاً لامتزاج الثقافات وبيئة خصبة للإبداع الفكري والعلمي، ولم يكن هذا الزخم معزولاً عن الحراك العام، بل نتج عن تفاعل معقد بين السلطة والقوى الاجتماعية، وعلى رأسها "العلماء".

ومن هنا يهدف هذا البحث الموسوم بـ "موقف العلماء من الحياة الاجتماعية و السياسية في العراق في العصر العباسي الأول "إلى تفكيك هذه العلاقة الجدلية الشائكة؛ حيث يستهل البحث بمبحثه الأول عبر تأصيل طبيعة الحياة السياسية في العراق، وخصائصها، وأبرز الخلفاء المؤسسين للدولة، ثم ينتقل في المبحث الثاني لرصد المكانة المتميزة للعلماء في بنية المجتمع، ودورهم التعليمي، وتقلب علاقتهم بالخلفاء، بينما يحلل المبحث الثالث آليات تأثير العلماء في القرار السياسي عبر توليهم مناصب حساسة كالقضاء والإفتاء والمشورة كما يسلط الضوء على مواقفهم الحازمة من الفتن الكبرى، وعلى رأسها محنة "خلق القرآن" التي اختبرت العلاقة بين العلم والسلطة ويستعرض البحث نماذج مضيئة لعلماء وازنوا بين الشريعة والسياسة كالأئمة: أبي حنيفة، ومالك، وأحمد بن حنبل، وأبي يوسف ليخلص البحث في النهاية إلى تقديم رؤية متكاملة لمدى تأثير النخبة العلمية في ضبط الحراك السياسي وتشكيل الوعي الاجتماعي.

المبحث الأول

قيام الدولة العباسية وانتقال الخلافة الى بغداد

اولا: قيام الدولة العباسية

بعد ان قضى العباسيون على الدولة الاموية(٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م) سنة (١٣٢هـ/٧٤٩م) (الطبري، ١٩٧٦م، ج٧، ص٤٣٤)، جعل ابو العباس السفاح(١٣٢هـ - ١٣٦هـ/٧٤٩- ٧٥٣م) عاصمة الخلافة الانبار[١]، ثم انتقل بها لاحقا الى الهاشمية[٢] قرب الكوفة، وبعد ان توفى ابو العباس السفاح سنة (١٣٦هـ_٧٥٣م)، اصبح ابو جعفر المنصور(١٣٦هـ - ١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٤م) هو الخليفة للدولة العباسية، كان ابو جعفر المنصور يريد ان يمكث في مكان مناسب ليكون عاصمة للخلافة العباسية، اذ كانت الكوفة مكانا غير مناسب للعباسيين، وذلك لان ميولها كانت علوية، لذا قرر الخليفة ابو جعفر المنصور بناء مدينة جديدة لتكون عاصمة للخلافة العباسية وتليق بمكانة الخلافة الجديدة، فاختار موقعا استراتيجيا وسط العراق، وبدا في البناء سنة (١٤٥هـ/٧٦٢م) و انتهى من بنائها سنة (١٤٩هـ/٧٦٦م) (الطبري، ١٩٧٦، ج٧/ ص٦٠٩)، تميز هذا العصر بالقوة المركزية والازدهار في مختلف المجالات لاسيما في السياسة والعلم والثقافة. فضلا عن ظهور عدد كبير من العلماء والشعراء والادباء والمترجمين، لاسيما في عهد هارون الرشيد والمأمون.

سبب اختيار المنصور لمدينة بغداد:

لقد كان بناء مدينة بغداد مميزا وفريدا من نوعه؛ اذ بنيت بشكل دائري، وهذا الشكل المدور منحها طابعا خاصا، بحيث ميزها عن سائر المدن؛ اذ لا يعرف في البلدان كلها مدينة مدورة سواها (البغدادي، ج١ ، ص٣٧٥)، وكان الهدف الذي يسعى اليه المنصور عندما قام ببناء بغداد بشكل دائري؛ هو غرض دفاعي حماية المدينة من جميع الجهات (الموسوي، ١٩٨٢م، ص٢٢٠)، ويبدو ان المنصور كان متأثرا بالعمران في البلدان الاسيوية كمدينة إكباتانا (همدان حاليا) (صالح، د.ت، ص٥٤٣)، وجعل قصره في

---

(١) الانبار: هي مدينة تقع على شاطئ الفرات، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، وهي قديمة مشهورة (ياقوت، ١٩٧٧م، ج١، ص ٢٥٧).

(٢) هاشمية الكوفة: هي مدينة بناها ابو العباس السفاح سنة (١٣٢هـ)، اتخذها عاصمة مؤقتة للخلافة العباسية وسميت بالكوفة لاستدارتها وانها قطعة من البلاد (ياقوت، ١٩٧٧م، ج٤، ص٤٩١).

وسط المدينة، وجعل المسجد الجامع بالقرب من قصره، وبنى للمدينة سورين (ابن خلدون، ١٩٨١م، ج٣، ص٢٤٨).

لقد مرّ بناء مدينة بغداد بمرحلتين، المرحلة الاولى من (١٤٥-١٤٦هـ)، اذ بدا في بنائها في سنة (١٤٥هـ/٧٦٢م)، ولكن توقف لمدة من الزمن؛ بسبب ثورة محمد ذو النفس الزكية سنة (١٤٥هـ/٧٦٢م)، ضد الخلافة العباسية، وبعد ان تخلص الخليفة من الثورة استأنف بناء المدينة في سنة (١٤٦هـ/٧٦٣م)، وبنى فيها قصر الخلافة، وبجانبه المسجد الجامع، فضلا عن مؤسسات الدولة الادارية والمالية، وابواب المدينة الاربعة، والسوق والشوارع، والخنادق، وبعد انجاز الابنية الرئيسة، انتقل اليها الخليفة ابو جعفر المنصور، ونقل اليها الخزائن والدواوين وسماها مدينة السلام (السامرائي، ٢٠١٢م ، ص٢٨٥_٢٨٦)، اما المرحلة الثانية وهي المرحلة التكميلية والنهائية في البناء، ودامت ثلاث سنوات ، ابتدأت من انتقال المنصور اليها سنة (١٤٦هـ/٧٦٣م)،وانتهت في سنة (١٤٩هـ/٧٦٦م) ، حيث تم في هذه السنة اكمال السور والخندق واحكام جميع امور المدينة (الطبري، ج٧ ، ص٦١٩).

اختار ابو جعفر المنصور لبناء بغداد شكلا مدورا لأسباب عسكرية وسياسية واقتصادية مما يسهل عملية الدفاع العسكري عنها وكذلك بناء سور وخندق حولها، واراد عاصمة مختلفة للدولة العباسية عن دمشق، وشكلها مستوحى من تصميم مدينة الاكاسرة للفرس، وان قربها من نهر دجلة ساعد على ازدهار التجارة (ياقوت، ج١/ص٤٦٠)، بعد وفاة ابي العباس السفاح اراد ابو جعفر ان يمكث في مكان يكون عاصمة للخلافة لهُ ، وتكون بعيدة عن النزاعات، اذ ان في عهد ابي العباس السفاح كانت الكوفة (ابن الاثير، ١٩٩٧هـ، ج٥/ ص٤٣٦)، هي مقر الخلافة لكنه لم يكن مطمئنا لنوايا اهلها، واخذ يبحث عن مدينة اخرى يجعلها مقرهُ ومسكن انصارهُ، فأتخذ الهاشمية وهي جوار الكوفة ثم انتقل الى الحيرة ثم الى الانبار (طلس، ١٩٦٠م، ج٥، ص٤٣)، وعندما تولى المنصور الخلافة رأى ان يتولى بنفسه البحث عن الموقع المناسب لإنشاء العاصمة الجديدة، اذ بعث روادا يرتادون الاماكن ليكتشفوا الموضع الذي تقام فيه عاصمة بني العباس، بحيث يكون الموضع واسعا رافقا بالعامة والجند.

ثانيا: الحياة السياسية في العراق خلال العصر العباسي الاول:

تميزت الحياة السياسية في العراق خلال العصر العباسي الاول بالقوة المركزية في الحكم واتساع النفوذ السياسي للدولة العباسية، اذ اتخذ العباسيون من بغداد عاصمة الدولة مركزا للسياسة والسلطة، وقد عمل الخلفاء العباسيون في هذه المرحلة من الخلافة على ترسيخ نظم الحكم، وقاموا باستحداث نظام

الوزارة الذي اسهم في ادارة شؤون الدولة، كما شهدت الدولة تدخل الفرس والموالي، وواجهت الدولة تحديات داخلية تمثلت في ثورات العلويين وحركات الخوارج[١]

حدثت في بداية العصر العباسي الاول(١٣٢هـ - ٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٦م)، ثورات هزت الدولة في بدايتها وكان معظمها بدوافع سياسية او مذهبية او قبلية، وعلى الرغم من شدتها فقد نجح الخلفاء الاوائل، لاسيما ابو جعفر المنصور في اخماد هذه الثورات وبسط هيبة الدولة (المناصير، ٢٠٠٠م، ص ١٤٤)، ولعل ثورة محمد بن عبدالله(ذو النفس الزكية) هي اول ثورة تقام ضد العباسيين، اذ كان محمد طامحًا بالخلافة منذ وصول العباسيين الى الحكم، لاسيما انه اصبح له انصار في كل من العراق والحجاز وخراسان، فقد امتنع عن مبايعة الخليفة الاول ابي العباس السفاح وحاول الخروج عليه، لكن منعه ولدهُ لما للخليفة عليه من فضائل (حسين، د.ت، ط٧، ص ٢٢٨- ٢٣٢)، وفي خلافة ابي جعفر المنصور امتنع محمد ذو النفس الزكية واخيه ابراهيم عن مبايعة المنصور، اذ اعتقد محمد ذو النفس الزكية ان الظروف اصبحت ملائمة للخروج ضد الخلافة العباسية، لاسيما بعد اكتشاف المنصور مكان اختبائهِ هو واخيهِ، واعلن دعوته في المدينة في رجب (١٤٥هـ/٧٦٢م) (الطبري، ج٨/ص٥٣٨)، في الوقت الذي ذهب فيه اخيهِ ابراهيم الى البصرة ليعلن الثورة فيها، عندها علم الخليفة ابو جعفر ان المدينة هي قاعدة محمد ذو النفس الزكية، ولجا الى الحوار السلمي معه وجرت مراسلات طويلة بينت وجهة نظرهم واحقية كل منهم بالخلافة (حمادة، ١٩٨٥م، ص١٣٠- ١٣١)، حاول الخليفة ابو جعفر المنصور قطع الامدادات عنه ومنع الناس من الاستجابة له، ثم انتقل المنصور الى الكوفة للسيطرة عليها، ومنع الخراسانيين من مساندته وتأييده (ابن الاثير، د.ت، ج٥/ص٣١٥)، ونجح المنصور في محاصرة محمد ذو النفس الزكية واقناع معظم اهل الكوفة والمدينة عن عدم مساندته (مشيك، ٢٠٢٢، ص ٢٥)، حدثت المعركة الفاصلة بين الطرفين في ١٢ رمضان سنة(١٤٥هـ/٧٦٢م)، وانتهت بمقتله بعد يومين في نفس

(١) الخوارج: فرقة اسلامية ظهرت في القرن الاول الهجري، وتحديدًا بعد حادثة معركة صفين سنة(٣٧هـ/ ٦٥٧م)، عندما انشقّ فريق من جيش الخليفة علي بن ابي طالب ؛ بسبب رفضهم للتحكيم بينه وبين معاوية بن ابي سفيان. وقد عُرفوا بهذا الاسم لانهم "خرجوا" على الامام الذي بايعوه، اي خرجوا على السلطة الشرعية بحسب رأي جمهور المسلمين، يرون تكفير مرتكب الكبيرة. يرفعون شعار: "لا حكم الا لله". (ابو الحسن الاشعري، ط٣، ص١٢٤؛ البغدادي، ١٩٧٧م، ص٥٥؛ الشهرستاني، د.ت، ج١/ص١١٤؛ امين، ١٩٨٦م، ص٤٥-٥٢).

السنة (ابن كثير، ج١/ ص١٢٢)، وامن عيسى بن موسى[١] قائد الجيش اهل المدينة وصادر ممتلكات بني الحسن، اما اخوه ابراهيم فقد ترك الحجاز وسيطر على البصرة واستقر بها، وعندما علم بمقتل اخيه اعلن نفسه اميرا للمؤمنين، ثم وقعت المعركة الحاسمة بين ابراهيم وقائد الجيش العباسي عيسى بن موسى في ذي القعدة عام(١٤٥هـ/٧٦٢م) (الطبري، ص٥٤٧)، وكادت الهزيمة تلحق بالجيش العباسي لولا اصابة ابراهيم بن الحسن سهم اودى بحياته، واضطرب الجيش بسبب مقتل قائدهُ، وهذا اعطى فرصة للعباسيين بشن هجوم مضاد انهى المعركة لصالحهم (الطبري، ص ٦٤٦- ٦٤٨)، فضلا عن ذلك فان عدد من علماء المدينة المنورة قد ايدوا محمد ذو النفس الزكية ومنهم مالك بن انس(ت١٧٩هـ/٧٩٥م))[٢]، اذ لم يشترك في القتال ولكنه افتى بخلع المنصور.

كما كانت لثورة ابو مسلم الخراساني ما يفيدهم في دعوتهم (الطبري، ص٢١٥)، واجه ابو مسلم صعوبة في تقبله لدى رجال الدعوة العباسية في البداية الا ان الامام ابراهيم امرهم بطاعته، ولما علم ابراهيم بعدم تقبلهم الامر ذكر لهم انه قد عرض هذا الامر على سلمان بن كثير لخبرته وحسن ادارته لكنه رفض فجعل ابو مسلم الخراساني يتولى الامر، وامر الشيعة بطاعته، ولما جاء موسم الحج حضر ابو مسلم الخراساني ومعه بعض الاموال التي جمعها من الشيعة وذلك بأمر من ابراهيم الامام، وقبل الوصول الى الامام جاء الامر لابي مسلم بالعودة الى خراسان لإظهار الدعوة علنا، اما بقية الشيعة فواصلوا مسيرهم الى ابراهيم الامام لإعطائه الاموال، وصل ابو مسلم الى مرو اول يوم في رمضان مع كتاب الامام الى سلمان بن كثير لإظهار الدعوة، وهو اول يوم لبداية انشاء الدعوة العباسية بعد ان كانت في طورها السري (ابن الاثير، ص٢٧)، ونصبوا ابو مسلم، وكان في هذا الوقت صراع بين العصبيتين اليمينية والمُضرية بين نصر بن السيار والكرماني، وجرت مراسلات بين ابي مسلم وبين نصر بن السيار ونشب القتال بينهم وقتل بعض انصار السيار في خراسان واستولى عليها ابي مسلم

---

(١) عيسى بن موسى: هو عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، احد كبار رجال الدولة العباسية في بدايتها، وابن اخ الخليفة ابو العباس السفاح، واحد ابرز انصاره، تولى ولاية الكوفة ثم ولايات اخرى كما لعب دورا في تثبيت الحكم العباسي خاصة في قمع تمرد عبدالله بن علي، بايع له السفاح بولاية العهد ثم جدد المنصور له البيعة، واستمر في خدمة الدولة العباسية حتى وفاته (ابن الاثير، ج٤/ص٣٧).

(٢) مالك بن انس: هو مالك بن انس بن مالك بن ابي عامر الاصبحي المدني(٩٣- ١٧٩هـ)، هو امام دار الهجرة وصاحب المذهب المالكي في الفقه الاسلامي، ولد في المدينة المنورة وتعلم على يد كبار التابعين، وكان من اوائل من دونوا الحديث في كتابه الشهير(الموطأ) (ابن خلكان، ج٤/ ص١٣٦).

الخراساني[١]، كما استغل ابو مسلم الصراع بين العصبيتين فكان يستغل نار الفتنة من جهة ويظهر مساندته لكل من الطرفين من جهة أخرى (راشد، ٢٠١٩م، ص١٥١)، بعد سيطرة ابي مسلم على خراسان وهزيمة نصر بن سيار، قام بعدة اجراءات جاءته من الامام العباسي، وقام بتعيين فحطبة بن شبيب الطائي[٢]، قائدا للجيوش العباسية، وتسجيل المنتمين الى الجيش العباسي نسبة الى قراهم ومدتهم على عكس الجيش الاموي اذ كان يتم وفق القبائل، ووجه جيشا الى نيسابور انتصر فيه على نصر بن سيار فدخلها ابو مسلم الخراساني والجيش العباسي واصبحت مركزا للعمليات العسكرية للجيش العباسي (ابن الاثير، ج ٥/ ص٣٨٦- ٣٨٧).

لم يكتف ابو مسلم بخراسان، بل سيطر على بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر[٣]، كان لانتصار ابي مسلم وقيادته الحكيمة لقوات الموالي والشيعة اثر كبير في انتصار الدعوة العباسية وقيام الدولة (اليعقوبي، ج٢/ص٤١٢).

وعند عودة ابو جعفر الى اخيه ابي العباس حرضهُ على قتل ابي مسلم (اليعقوبي، ج٢/ص٤١٢)، وكان موقف ابي جعفر من ابي مسلم موقف المتخوف من غدره والمقدر لسلطته ونفوذه في الشرق (الوشمي، ١٩٧٩م، ص١٧٣ - ١٧٤)، وترسخت فكرة قتل ابي مسلم في عقل ابي جعفر المنصور بعد انتهائه من اداء فريضة الحج (النابودة، ٢٠٢٤م، ص١٠٠)، وبذلك نجح المنصور في ابعاده عن خراسان مركز قوته، وانه كان في حاجة ماسة الى مساعدة ابي مسلم في مواجهة عمه عبدالله الذي كان يتمتع بقوة عسكرية كبيرة، وان المنصور لم يحسن الن في شخص يكرهه ولا يثق به، لذلك قرر ابو جعفر التخلص من ابي مسلم بطريقة سرية وحذره حتى لا يثار غضب انصاره ويحدث تمرد، ارسل اليه في مدينة مرو في خراسان من اغتاله، وتم قتله في عام(١٣٧هـ/ ٧٥٤م) (الطبري، ج٥/ ص٣٦٥).

---

(١) نصر بن سيار: هو نصر بن سيار بن رافع بن حري بن ربيعة، احد ابرز القادة والولاة في اواخر العصر الاموي، وكان واليا على خراسان ويعرف بدوره الكبير في ادارة شؤون الولاية في فترة كانت تعهد لسقوط الدولة الاموية وبروز الدعوة العباسية (الطبري، ص١٨٩).

(٢) فحطبة بن شبيب الطائي: هو قائد عباسي من خراسان ينتمي الى قبيلة طي، لعب دورا بارزا في الثورة العباسية التي اطاحت بالخلافة الاموية، عُين من قبل ابراهيم بن محمد قائدا عسكريا للثورة في خراسان وقبل هذا التعيين من قبل القائد العام ابي مسلم الخراساني (الطبري، ج٧/ ٤١٤).

(٣) بلاد ما وراء النهر: هي البلاد التي تقع وراء نهر جيحون ويسمى الان نهر امودريا ومدنها بخارى وسمرقند (ياقوت، ج٢/ ص١٩٦)(ياقوت، ج٢/ ص١٩٦).

ثالثا: الاعتماد على العنصر الغير عربي:

لم يكن اعتماد العباسيين على العناصر العربية فقط على عكس الدولة الاموية، فقد اعتمدوا على الفرس والموالي كابي مسلم الخراساني والوزراء والقادة في حكمهم، وان الجيش العباسي الاول تكون من عناصر عديدة من العرب، الفرس، الاتراك وغيرهم، وان العباسيين اتجهوا منذ بداية دولتهم لتكوين جيش نظامي تعتمد عليه الدولة داخليا وخارجيا، وكان الجيش الاموي يمثله العرب، بينما الجيش العباسي في اغلبه يتكون من مضر واليمن والخراسانية وربيعة (الطبري، ص٤٧٦- ٤٧٧)، وكان القادة العرب في الجيش العباسي وشيوخ القبائل قوة معروفة و معترف بها (مصطفى، ١٩٨٤م، ج١/ ص٢٢٠- ٢٣٠)، ظل العرب لهم مكانتهم في الدولة العباسية حتى بدا استقطاب الفرس والاتراك، فقد انظم الاتراك وسكان بلاد ما وراء النهر الى الجيوش العربية بعد فتح بلادهم، وكان اول من استعان بهم في العصر الاموي سعيد بن عثمان عندما ولّاه معاوية بن ابي سفيان على خراسان والّف جيشا من الاتراك بعد فتح سمرقند (ابن كثير، ١٩٩٧م)، ج١٢/ ص٤٣٥)، وكان المنصور قد استخدم الاتراك وذلك عندما استخدمهم حماد التركي حاجبا له و ولاه مهمات عسكرية (المناصير، ٢٠٠٠م، ص١١٧)، اما الفرس فقد قوي نفوذهم بشكل ملحوظ في عهد البرامكة على الرغم من القضاء عليهم، فقد عادت العناصر الفارسية تظهر في عهد المأمون كونهم ساعدوه في صراعه مع أخيه (المناصير، ص١١٨).

المبحث الثاني

مكانة العلماء في المجتمع العباسي

اولا: موقف العلماء من (الدين والتعليم والقضاء):

يُعَدّ العصر العباسي الاول (١٣٢–٢٣٢هـ / ٧٥٠–٨٤٧م) من ابرز المراحل التاريخية التي ازدهرت فيها الحركة العلمية والدينية في الدولة الاسلامية، اذ حظي العلماء بمكانة رفيعة في المجتمع، واصبح لهم تأثير واضح في مختلف جوانب الحياة العامة. فقد ادرك الخلفاء العباسيون اهمية العلم واهله في تثبيت اركان الدولة وترسيخ الشرعية الدينية، مما اتاح للعلماء مساحة واسعة للإسهام في توجيه الحياة الدينية والتعليمية والقضائية.

١. موقف العلماء الديني

قام العلماء بدور ملحوظ في دعوة الخلفاء العباسيين لاختيار البطانة الصالحة، وقد انبرى كثير من العلماء في هذا العصر لدراسة الواقع المعيشي وتوصلوا الى ضرورة التغيير والتجديد، ومن العلماء من

جابه الموقف بالتحدي والنصح المباشر، وقاموا بتحذير العلماء من بطانة السوء، ومنهم من اقتصر على بعث رسائل الاصلاح والصلاح، وكانت رسائلهم بمثابة برامج تنموية وخطط اصلاحية وكان ابن المقفع من اوائل المفكرين الذين تنبهوا الى قيمة العناية بموضوع البطانة او كما سماها " الصعاية " واولاها اهمية كبيرة، ورأى انه من المهم على الخليفة ان يعيد النظر في بطانته وان يتخير ذوي العقل (الفاخوري، د.ت، ص ٢٤)، قد بين الخليفة ابي جعفر المنصور حاجته الى بطانة صالحة لذلك رأى ان يتخذ ابا عبيد الله معاوية بن يسار[١]، مؤدِب ابنه المهدي، فلما تقلد المهدي الخلافة قلد ابا عبيد الله وزارته ودواوينه سنة (١٥٩هـ/٧٧٥م) (الجهشياري، ١٩٣٨م، ص ١٠٢)، واتخذ الخليفة الرشيد جملة من التدابير التي تعد بدعة، وفوض الخليفة على ديوان الخراج يحيى البرمكي (ابن الاثير، ج٥/ص٣٠٥)، لما دخل المأمون بغداد وقربها، وامر ان يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين واهل العلم، وكان احمد بن ابي داؤود احدهم[٢]، واحاط المأمون نفسه بالعلماء من كل اختصاص، وقد اخذ الزنادقة[٣] بالأديان الباطلة التي كانوا عليها قبل ان يتظاهروا بالإسلام، ومن الاديان التي تمسكوا بها هي المجوسية التي لا تعترف بالتوحيد، وكان الدور الذي قام به علماء المسلمين للرد على الزنادقة، ومنهم ابو الهذيل العلاف[٤]، وكان له دور في هذا المجال عندما وجه اليه بعض الزنادقة الكثير من الاسئلة وكان جوابه سبب في اسلامهم (الديب، ١٩٨٦م، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

٢. موقف العلماء من التعليم:

اما دور العلماء في التعليم فكان لهم مجالس خاصة، ومنها المساجد ودور العلماء والدكاكين وغيرها، وكان العلماء يريدون نشر التعليم في المساجد لأنها تعد المكان الملائم لتعليم المسلمين، والمجالس التي تعقد في المساجد تكسب العالم شهرة واسعة وتزيد من توافد طلبة العلم وعامة الناس عليه،

(١) ابي عبيد الله معاوية بن يسار: هو ابو عبيد الله معاوية بن يسار البصري، من الموالي من طبقة التابعين (ابن منظور، ج٣/ص١٨٧١).

(٢) احمد بن ابي داؤود: هو ابو عبدالله احمد بن ابي داؤود بن عيسى بن ادريس بن منصور العجيلي، ولد سنة(١٦٠ هـ)، في البصرة وكان من كبار القضاة في العصر العباسي، وكان له دور بارز في دعم منصب الاعتزال في الدولة (ابن خلكان، ج١/ ص٨٣).

(٣) الزندقة: أصل الكلمة فارسي، انتقلت الى العربية بالعصر العباسي، تطلق الزندقة على من أظهر الإسلام وأبطن الكفر، وأنكر الثوابت الدينية وهو بذلك يبني عقائد هدامة تضر بالمجتمع والدين (ابن منظور، ج٣/ص١٨٧١).

(٤) ابو الهذيل العلاف: هو محمد بن هذيل بن عبدالله العلاف البصري، احد كبار متكلمي المعتزلة في العصر العباسي الاول، ويعد من ابرز منظري المعتزل وممن وضعوا اسس علم الكلام لديهم (الذهبي، ج١١/ ص ١٧٣ ـ ١٧٤).

كان الكسائي يعقد مجلسا في مسجد بغداد للنحو[١]، وكانت مجالس العلماء ميسرة لكل طلبة العلم للإفادة منها، وبسبب انعقادها في المساجد اهتدى لها القادمون من الولايات الاسلامية الاخرى، وكان طلبة العلم يقصدون العلماء في دورهم للأخذ والاستزادة من علومهم، وان غندر الحافظ (ت١٩٣هـ/ ٨٠٩م)[٢]، كان له مجلس في داره، اما الامام احمد بن حنبل فقد كان له مجلس في بيته يحضره عدد كبير من طلابه (محمود، ٢٠١٨م، ص٧)، وان سبب اختيار العلماء لدورهم بصفتها اماكن انعقاد مجالسهم يعود الى توفير الكتب والمصنفات والمؤلفات التي قد يحتاج العالم الرجوع اليها، وايضا عقد بعض العلماء مجالسهم في الدكاكين لأنه يمثل وسيلة مهمة من وسائل انتشار المعرفة، وقد تظافرت العهود في تطوير الحركة العلمية في بغداد خلال العصر العباسي الاول، وكان دعم الخلفاء العباسيين للعلماء والحركة العلمية واضح من خلال الدعم المعنوي والمادي، وانتشرت المكتبات والمدارس واصبحت المكتبات تزهوا بالكتب الثمينة التي رفدت الحركة من خلال الترجمة والتأليف (الحكيم، ٢٠٢٤م، ص٥٣)، وقد شهد هذا العصر عددا من الخلفاء ذوي الشخصيات العلمية التي ادركت دور العلم في بناء الدولة والمحافظة عليها، لذا قام الخلفاء بتقديم العناية لهم، ففي عصر الخليفة ابي جعفر المنصور قرّب العلماء وشجع على الترجمة من اللغة السريانية الى اللغة العربية (السيوطي، ص ٣١٩)، كان للعلماء مكانة ينفردون بها بين الناس مكانة بين الناس يتفردون بها وان اغلب العلماء كانوا يحبذون الابتعاد عن المشاركة في لحياة السياسية والسلطوية والوظائف الدنيوية م اجل التفرغ للعلم والتعليم، وذلك لضمان استقلاليتهم في اتخاذ القرارات والمواقف الشرعية تجاه الدولة، وكانت لهم علاقة وثيقة بعموم افراد المجتمع العباسي لذلك اسهموا في رفع الظلم والحيف عنهم (الحكيم، ص٥٦).

٣. موقف العلماء من القضاء:

اما دور العلماء في القضاء، يمثل العصر العباسي اوج عصور التطور والازدهار الحضاري للدولة الاسلامية ، لاسيما في المؤسسات الادارية ومنها القضاء، ولما كان القضاء يعتمد على المذاهب

(١) الكسائي: هو ابو الحسن علي بن حمزة بن عبدالله بن بهمن الكسائي، امام اهل الكوفة في القراءات، كان عالما في النحو واللغة وهو راس المدرسة الكوفية (الذهبي، ج ٨/ص ٤٠٦ ـ ٤١٥).

(٢) غندر الحافظ: هو محمد بن جعفر بن محمد بن فضيل الهذلي البصري، وهو من كبار الحفاظ والمحدثين في القرن الثاني الهجري، توفي في البصرة سنة (١٩٣هـ) (الذهبي، ج٩/ ص١٨٦ ـ ١٨٨).

الفقهية تقيدت احكام القضاة، فاصبح قاضي القضاة [١] في العراق يحكم وفق مذهب ابي حنيفة، وقاضي مصر يحكم على وفق مذهب محمد بن ادريس الشافعي (جاسم، ٢٠١٢م، ص٤)، واهم مظاهر هذا العصر هو استحداث منصب قاضي القضاة، واول من عُين بهذا المنصب هو يعقوب بن ابراهيم الانصاري[٢]، ويتصف نظام القضاء في هذا العصر بضعف روح الاجتهاد في الاحكام وفي عهد هارون الرشيد ظهر قضاء خاص اطلق عليه (قضاء الجند) وهو بمثابة الحاكم العسكري، وان تعيين ابي يوسف قاضي القضاة وكان قاضي الشيخ المفتي للدولة العباسية وهو من اشهر فقهاء المذهب الحنفي، كان يعتني بالقضاة ويشرف عليهم وقام ابو يوسف بهذه المهمة واهتم بالقضاة ويشرف عليهم، وبدا الخلفاء بتكليف رئيس القضاة بمهمة تعيين القضاة والاشراف عليهم وقام ابو يوسف بهذه المهمة واهتم بالقضاة ويعد اول من خصص زي خاص بهم يفرقهم عن بقية اهل المدينة، وتخصص لهم الدولة الاجور وسبل العيش، واصلح نظام القضاء مستقلا عن السلطة التنفيذية التي يمثلها الخليفة والسلطان (سارة عبدالله وسعد احمد، ٢٠١٩م، ص٢٨٢)، وفي عهد الرشيد تزايدت مشاركة العلماء لان سياسته كانت ورضية لدى الكثير منهم وجهد نفسه بالتقرب منهم وممن شارك من العلماء في القضاء في عهده، ابو يوسف والواقدي وعبدالملك بن محمد بن ابي بكر[٣]، وان القضاء من المناصب المهمة في الدولة وكان القاضي يعين من قبل الخليفة او الوالي وكان يختار من قبل الفقهاء والعلماء فيراعي بالقاضي غزارة العلم و الورع والتقوى والعدل، وضع الخليفة عمر بن الخطاب(ﷺ) شروط تتوفر في القاضي: (لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع)، والخليفة الرشيد كان يحرص ان يكون القضاة من اكثر الناس شرفا وعلما (جاسم، ص٥)، وقد رفض بعض العلماء من تولي منصب القضاء ومنهم الامام ابي حنيفة عندما طلب منه المنصور تولي المنصب، وكان سبب رفضه لما ورد في احاديث من ترهيب العالم من توليه، قال رسول الله(ﷺ) :(من ولي القضاء او جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين) (الترمذي، ٢٠٠٩م،

---

(١) هو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازل الا انه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة (ابن خلدون، ج١ ، ص٢٧٥).

(٢) يعقوب بن ابراهيم الانصاري: وهو ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن خُنيس الانصاري ،من كبار فقهاء المسلمين في العصر العباسي، تلميذ الامام ابي حنيفة عُرف بأول قاضي القضاة في الدولة العباسية في عهد الخليفة الرشيد وهو صحاب كتاب (الخراج) (الذهبي، ج٨/ ص ٦٠).

(٣) عبدالملك بن محمد بن عمر بن حزم، قدم الى بغداد واستقضاه الرشيد على الجانب الشرقي من بغداد (ابن سعد، ج٧/ ص ٣٢٣).

ج٣،ص١٦٥)، فقد تدل هذه الاحاديث على عظم المسؤولية وعظم الحساب يوم القيامة، والترهيب من القضاء ولما يخاف فيه من هلاك دين الرجل اذا تولى القضاء وهو غير اهل له، ولم يحكم بالحق، وكذلك الخوف من تدخل الخلفاء والولاة في القضاء والطلب من القاضي الميل في بعض الامور، وكان كثير من القضاة يشترطون على الخلفاء والولاة اطلاق يدهم في الاحكام القضائية وعدم التدخل في شؤونهم (موسى ، ٢٠١٦م، ص١٢١ ـ ١٢٢).

ثانيا: مساندة العلماء للخلفاء:

قد ارتفعت مكانة العلماء في العصر العباسي الاول لتصبح قوة معنوية مؤثرة نتيجة لاهتمام الخلفاء والوزراء، مثل البرامكة، بالتشجيع المادي والمعنوي للعلم والعلماء، مما ساهم في ازدهار حركة الترجمة والتأليف والنقل عن الحضارات الاخرى، ودعم بناء المؤسسات العلمية كبيت الحكمة، مما اكسب العلماء مكانة رفيعة في المجتمع ودعم دورهم في النهضة، وكان للعلماء دور في الحياة السياسية وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكسب اهمية بالغة في حياة الامة الاسلامية وهو أمر مهم في الدين وجاء في القرآن الكريم آيات قرآنية مبينة اهمية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ودور العلماء فيه﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(سورة ال عمران ، الآية: ١٠٤)، قد بينت هذه الآيات اهمية العلماء والعامة بقيامهم في الحفاظ على توازن الحياة الاسلامية، وكان دور العلماء تقويم ما كان يحدث من الخرافات في الحياة السياسية في العصر العباسي الأول (ابن حزم، ١٩٨٥م، ج٥/ ص١٩)، قد توالت رسائل مالك بن انس الى الرشيد، يدعوه الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بوصفه خليفة للمسلمين وصاحب سلطة عليهم، وكذلك داب عبدالله بن عبدالعزيز العمري على توجيه العلماء من اقرانه الى القيام بدورهم في انكار ما يرونه من مخلفات الخلفاء والامراء (عبدالحكيم، ٢٠٠٤م، ص ٥٧)، وقد حدد العلماء شروط من يقوم بذلك ان يكون مسلما والتكليف والاستطاعة، وان يكون ملما بالعلوم الشرعية حافظا لكتاب الله ولحديث رسول الله(ﷺ)، واخبار الصالحين وحكايات المتقدمين (ابن الاخوة، ١٩٧٦م، ص١٧٩)، وقد ذكر سفيان الثوري ذلك ، واشترط ان يكون عالما يأمر عالما بما ينهى، عدل قيما يأمر بالمعروف وينهى (عبدالحكيم، ص١٦١)، وكان للعلماء دور في انتشار التعليم في العراق، فبالإضافة الى المساجد والجوامع التي هي المراكز الاولى للعلم والتعليم فقد اسست في العصر العباسي مؤسسات تعليمية مختلفة، فقد اسست مدارس لتعليم الصغار القراءة والكتابة والقرآن الكريم، وكانت تسمى هذه المدارس " الكتاتيب"، وقد اتسعت مواد التعليم

في حلقات العلماء التي كانت تعتمد في المساجد والجوامع وظهرت حركة علمية عن طريق المراسلات بين العلماء (الميدالي، ١٩٩٨م، ج١/ ص٥٨٩)، وقد عمل العلماء في بيت الحكمة واجتمعوا من كافة الثقافات والديانات وكان العلماء يجتمعون في مراكز البحث والتأليف ويكتبون كتبا خاصة لتوضع في هذه المكتبة، وكان الخليفة يجزل لهم العطايا مقابل ذلك، فقد كتب العلماء في كافة انواع العلوم مما ساعد على اثراء العلم والمعرفة في ذلك العصر (٢٠٠٩م، ج١/ ص ٢٢٥ ـ ٢٣١)، وقد انشا في عصر المأمون المرصد الفلكي والحق به نخبة من العلماء في علم الفلك والرياضيات والجغرافية مثل الخوارزمي و البيروني واستطاع علماء هذا العصر تحديد محيط الكرة الارضية وساعد ذلك على تطوير علم الفلك (حمدي، ٢٠٢٥م، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢)، كان للعلماء دور في توجيه وتقديم النصح للحكام من خلال الرسائل المباشرة، وعملوا في القضاء ووضعوا شروطا للقضاة وساهموا في تطوير النظام القضائي وتحقيق العدالة للمواطنين ، كما نجح بعض العلماء في التأثير على قرارات الخلفاء وممارساتهم، وتلقى العلماء الدعم المادي والمعنوي من الخلفاء (موسى، ٢٠١٧م، ص٢٦٠ ـ ٢٦٨).

المبحث الثالث

تأثير العلماء على الحياة السياسية:

يعد العلماء من ابرز واهم القوى المؤثرة على الحياة العامة لاسيما السياسية منها ، لما يحملونه ويمتلكونه من مكانة علمية وفكرية ومكانة اجتماعية تسمح لهم من ابداء آرائهم للعامة وتقديم النصح والمشورة للعامة ونعني هنا الامراء والحكام وبالتالي تكون مهمتهم او آرائهم هي لتقويم العمل السياسي، وقد ابدى العلماء في بناء الانظمة السياسية القائمة على العدل والشورى ومواجهه الانحراف والاستبداد.

ان تأثير العلماء لا يقتصر عند الفتوى والمواقف السياسية والفكرية فقط ، انما يمتد الى تشكيل وعي سياسي واجتماعي للامة، مما يجعل دورهم مهم في تخفيف التوازن بين السلطة والمعرفة لخدمة المصلحة العامة.

ان منصب قاضي القضاة، ابتكر خلال العصر العباسي الاول وقلد هذا المنصب الامام القاضي ابو يوسف[١]، الذي يعتبر اول من نظم شؤون القضاء بالاستقلالية الى حد ما عن السلطة التنفيذية واوجد

(١) ابو يوسف القاضي: هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد ، ولد سنة (١١٣هـ) صاحب ابي حنيفة النعمان ولي القضاء للخليفة المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ، كان دوره في القضاء يتمثل في جعل المذهب الحنفي مذهبا رسميا للدولة العباسية ،ت(١٨٢هـ) في بغداد (السمعاني، ج١٠ ، ص ٣٠٨).

واوجد الزي الخاص بالقضاة (ابن خلكان، ج٦ ، ص ٣٧٩)، كرس القاضي ابو يوسف مذهب استاذه الامام ابو حنيفة النعمان في القضاة (شبارو، ص١٥)، ويعد من اكثر رجال الحنفية المؤسسيين تأليفا واجتهادا مقارنة بشيخه واقرانه مثل زفر بن الهذيل[١]، ومحمد بن الحسن الشيباني.

وجاء فيه:(لا تؤخر عمل اليوم الى غد، فانك ان فعلت ذلك اضعت... ان الرعاة مؤدون الى ربهم ما يؤدي الراعي الى ربه، فاقم الحق فيما ولاك الله...)[٢].

وقد ولى القاضي ابو يوسف عددا من القضاة على عدد من المدن والامصار، وبعد وفاته في سنة(١٨٢هـ) ولى الرشيد بعده ابا البختري القاضي (ابن عريبي، ٢٠١٠ م ، ص ١٦١_١٦٢).

وقد امر الخليفة هارون الرشيد القاضي ابو يوسف بتأليف كتاب الخراج، واوضح ابو يوسف فيه امور عدة للخليفة هارون الرشيد حيث وضع فيه قواعد شرعية لإدارة المال العام وتنظيم الضرائب وحماية حقوق الرعية، ويؤكد على العدل ورفع الظلم عن الناس وهذا يعتبر توجيها سياسيا واقتصاديا (الخراج ، ص١٨_٣٥).

وكان ايضا من العلماء الذين كان لهم دور بارز في السياسة هو الفضيل بن عياض[٣]،الذي يعد من ابرز الزهاد الذين مارسوا دورا سياسيا غير مباشر في العصر العباسي الاول ، وكان شطارا يقطع الطريق بين ابيورد وسرخس (المكي، ١٩٩١م ، ص٤٥٢).

وكان سبب توبته انه عشق جارية وعندما كان يرتقي الجدران اليها سمع تاليا يتلوا، قال تعالى:(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) (سورة الحديد ، الآية ١٦)، وقال (بلى يارب – قد آن) وتاب توبةً خالصة نصوحة (محمود، ١٩٧٢م ، ص٢٤)، ودخل الفضيل بن عياض على هارون الرشيد فوعظه في كتاب الله، وكانت صلته به صلة عاطفة معقدة وانها من الغاز النفس الانسانية وادهشت هذه العاطفة الفضيل نفسه وتعجب منها ، وكان يحرص على حياة الرشيد رغم بغضه منه لأنه يرى فيه

---

(١) زفر بن الهذيل : هو زفر بن الهذيل بن قيس العنبري فقيه اهل العراق من اصحاب ابي حنيفة وكان من افقه الناس واورعهم (السمعاني، ج٤ ، ص٢٨٨).

(٢) محمد بن الحسن الشيباني : هو ابو عبدالله من والي بني الشيبان ، صاحب ابي حنيفة ، نشا بالكوفة وخرج مع هارون الرشيد ومات بالري سنة (١٨٩هـ) (الرازي، ١٩٥٢م ، ج٧ ، ص٢٢٧؛ الانصاري، ١٩٧٩م ، ص١٣).

(٣) الفضيل بن عياض: هو ابن مسعود بن بشير الامام القدوة ابو علي التميمي اليربوعي الخراساني ، ولد بسمرقند ونشا بابيور ، رحل الى الكوفة لطلب العلم ، كتب عن العديد من العلماء والائمة الصالحين وانتقل بعد ذلك الى مكة واقام بها (ابن سعد، ج٦ ، ص٤٨).

حزما في الادارة وحسن تصرف في شؤون الناس ، واحتراما للعلماء، وكان الفضيل يقدم مصلحة العامة على المصلحة الخاصة (محمود، ص٤١).

اولا: موقف العلماء من فتنة خلق القرآن الكريم:

تنوع موقف العلماء من الفتن السياسية في العصر العباسي الاول حيث انقسموا بين المشاركة في بعض الاحداث، والانشغال بالعلوم الدينية بعيدا عن السياسية، والوقوف على الحياد او التمسك بالولاء الظاهري للسلطة الحاكمة، ومن هذه الفتن السياسية فتنه خلق القرآن وموقف الامام احمد بن حنبل.

تعد فتنة خلق القرآن من ابرز القضايا العقدية والسياسية التي شهدها العصر العباسي الاول، نشأت هذه الفتنة حين تبنى بعض الخلفاء العباسيين وعلى راسهم المأمون القول بخلق القرآن متأثرين بفكرة الاعتزال سعوا الى فرض هذا الرأي على العلماء والقضاة بوصفه عقيدة رسمية للدولة، وعرفت (بالمحنة) بعد ان تحولت من خلاف فكري الى محنة عامة، وان من تعرض لهذه المحنة هو الامام احمد بن حنبل[١]، الذي كان عصره من ازهى عصور الاسلام سلطانا وحضارة وثقافة عاصر ثمان خلفاء من العباسيين، وشاهد عظمة الخلافة العباسية وكان عصره حافل بالكثير من ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة، لاضطهاد العباسيين خاصة في عهد الرشيد والمتوكل ،ولم يخل عهده من الثورات والفتن (التركي، ٢٠١٢ ، ص٣٥_٣٧).

ومن الثورات التي واجهته كثورة الراوندية [٢]، والزنادقة والخرمية، وان فتنة خلق القرآن حدثت في عهد الخليفة المأمون وهي القول بان القرآن مخلوق وليس منزل، آمن المأمون بهذا الاعتقاد وهو رأي المعتزلة[٣]،وتعرض عدد من العلماء للتعذيب ومنهم الامام احمد بن حنبل (العسيري، ١٩٩٦م، ص١٩٠_١٩١)،

---

(١) الامام احمد بن حنبل: هو احمد بن محمد بن هلال ولد في بغداد سنة (١٦٤هـ) ، يكنى بأبو عبدالله وهو مؤسس المذهب الحنبلي ، عرفه بزهده وورعه وتقواه ، له عدة مؤلفات ، توفي سنة (٢٣٢هـ) في بغداد (الجوزي، ١٩٨٨م، ص١٧).

(٢) الراوندية: هي فرقة خرجت عن فرق الامة في دعوتها بتناسخ الارواح وان روح الاله تناسخت في الانبياء والائمة ثم زعمت الحربية وادعت الحربية في زعيمها عبدالله بن عمرو بن حرب مثل دعوة البيانية في بيان سمعان وكلتا الفرقتين كافرة بربها وليست من فرق الإسلام (البغدادي، ١٩٧٧، ص٢٣٣-٢٣٤).

(٣) المعتزلة: هي فرقة اسلامية مؤسسها واصل بن عطاء افترقت الى عشرين فرقة كل فرقة تكفر سائرها، وقالت ان ليس لله عز وجل علم ولا قدرة ولا حياة، وزعموا ان الناس هم الذين يقدرون اكسابهم وانه ليس لله في اكسابهم، وسموا بالمعتزلة لاعتزالهم قول الامة باسرها واتفاقهم على دعواهم في الفاسق من امه الاسلام بالمنزلة بين المنزلتين (البغدادي، ١٩٧٧، ص ٩٣-٩٤).

وكان في بغداد تياران ثقافيان متضادان ابان حكم المأمون ، اولهما: التيار الاسلامي السلفي[١]،الممثل في مدارس المحدثين والفقهاء وطبقاتهم ومنهم الامام احمد ، وثانيهما: التيار المعتزلي الذي ظهر في البصرة وبدا بطبقة غيلان الدمشقي.

وكان احمد بن دؤاد (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م) له نفوذ في خلافة المأمون والمعتصم والواثق، وهو الذي حمل المأمون على القول بخلق القرآن سنة(٢١٢هـ/٨٢٧م)) وعلى امتحان العلماء في هذه المسالة في العام الذي توفى فيه(٢١٨هـ/٨٣٣م)، وبقيت هذه المحنة بين الدولة والشعب اكثر من عشرين عاما، وكان من اوائل الذين ذهبوا الى القول بخلق القرآن ، جهم بن صفوان (التركي، ٢٠١٢، ص٦٣).

وفي سنة(٢١٨هـ/٨٣٣م) رأى المأمون حمل الناس والعلماء والقضاة والمفتين على القول بخلق القرآن الكريم ، وارسل المأمون الى واليه اسحاق بن ابراهيم يأمره بسبعة اشخاص من المحدثين لكي يمتحنهم، وفي مقدمتهم الامام احمد بن حنبل الذي كان موقفه المتحدي في ادب العلماء وسمة الائمة، وبعث المأمون الى نائبه في بغداد يأمره بان يبلغ العلماء والقضاة في بغداد بان الخليفة لا يستعين على شيء من امور المسلمين الا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده وانه لا توحيد لمن يقر بان القرآن مخلوق، واجتمع العلماء في المجلس وفي مقدمتهم الامام احمد وكانوا مكبلين بالقيود والاغلال (العسيري، ١٩٩٦، ص٢٠٠)، ولما استعصى على المأمون بالتأثير على الامام احمد بن حنبل في الحجة والاقناع امر بأشخاصه مكبلا في الاغلال هو ورفيقه في المحنه محمد بن نوح[٢]، توفى محمد بن نوح في طريقه الى المأمون وصلى عليه الامام احمد بن حنبل، وبقي الخليفة يتوعده بالتعذيب والقتل ان لم يجبه بخلق القرآن، فدعا الامام احمد بن حنبل ربه ان لا يجمع بينه وبين الخليفة ، وهو في الطريق قبل وصولهم جاء اليهم خبر وفاة المأمون ، فرجع الامام احمد الى بغداد وحبس هناك (نغش، ١٩٨٠م ، ص٣٨٣).

تولى الخلافة بعد وفاة المأمون اخيه المعتصم(٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م)، ودخل بغداد وامتحن الامام احمد في مسالة خلق القرآن وضرب بين يديه، لكن الامام احمد كان ثابت على موقفه قوي

(١) السلفية: هي منهج الاقتداء بالرسول (ﷺ) والسلف من الصحابة والتابعين من اهل القرون الثلاثة الاولى وكل من تبعهم من الائمة الاربعة وسفيان الثوري والليث بن سعد وشيوخ الاسلام المحافظين على طريقة الاوائل ، ويؤكد منهاجها على الالتزام بالكتاب والسنة النبوية وترك البدع (حلمي،١٩٨٣، ص٣).

(٢) محمد بن نوح: هو ابو عبدالله محمد بن نوح بن مخلد العبسي ، احد الصالحين من اهل بغداد صحب الامام احمد بن حنبل في طريق المحنة الى المأمون وقد توفي في الطريق سنة (٢١٨هـ) (السمعاني، ج٤ ، ص١٩١).

الايمان، وكان الخليفة وجنوده سلاحهم البطش والجبروت، وكان الامام احمد سلاحه القرآن والسنة، تحمل العذاب في سبيل الله ويساله العفو والمغفرة (الذهبي، ج١١ ، ص٢٤١)، حاول الخليفة وابن ابي دؤاد حمل الامام احمد على القول بشيء من كلامهم فبقي على اصراره على كلامه وموقفه اصرارا شديدا، وكان يقول لهم اعطوني شيئا من كتاب الله وسنة نبيه واعادوه الى السجن وفشل الخليفة عدة مرات في ان يجعل الامام احمد يقول بغير القرآن (التركي، ص٦٣)، وكانت المناظرة في اواخر رمضان(٢١٩هـ/٨٣٤م) (الطبري، ج٨ ، ص٦٣٥).

وانتهى عهد المعتصم وجاء عهد الواثق(٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤١-٨٤٦م) وقد اشتد في القول بخلق القرآن حتى قتل بيده احمد بن نصر الخزاعي[١]، لعدم اقراره بخلق القرآن (البغدادي، ج٥ ، ص٣٨٦)، وبقي الامام احمد على رأيه وكان يجلد جلدا عظيما وفعلوا به ما فعلوا على ان يقول ان القرآن مخلوق، حتى قال له احد الناس قلها كما قالها الناس تسترح ، لكنه استمسك برأيه لعلمه أن عامة الناس ستقتدي برأيه، وأن جوابه يجب أن ينبثق من أصل شرعي لا من باب الرخص أو مسايرة المجتمع (الحويني، (د. ن) ، ج٥ ، ص٦)، وفي عهد المتوكل انتهى القول بخلق القرآن واظهر الميل الى السنة ونصر اهلها ورفع المحنة (نغش، ص٣٨)، وعاش الامام احمد بن حنبل مبجلا مكرما زاهدا في الدنيا والجاه والسلطان والمال، عمله العلم والحديث والسنة حتى توفاه الله يوم الجمعة من ربيع الاخر سنة(٢٤١هـ/٨٥٥م) (الذهبي، ج١١ ، ص٢١٢).

ثانيا: التوازن بين الولاء للسلطة والنقد الشرعي للانحرافات:

شهد العصر العباسي الاول توازنا بين الولاء للسلطة والنصيحة الشرعية ، التزم العلماء بطاعة الخلفاء من غير معصية ومارسوا دورهم الاصلاحي عبر النصيحة الشرعية والاحتجاج العلمي ضد الانحرافات في الحكم او الفكر او العقيدة، وظهر هذا التوازن في مواقف ائمة الفقه مثل ابي حنيفة النعمان ومالك بن انس والشافعي، الذين جمعوا بين احترام السلطة الشرعية والالتزام بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق ضوابط شرعية (عبد المنصور، ٢٠٢٣ م ، ص٤٨).

---

(١) احمد بن نصر الخزاعي: ابو عبدالله احمد بن نصر الخزاعي بن مالك بن الهيثم الخزاعي ، كان امرا بالمعروف ناهيا عن المنكر قوالا للحق ، وهو من اهل الحديث والتمسك بالسنة وكان من الرافضين بقول خلق القرآن في اثناء المحنة ، امر الخليفة الواثق بالله بقتله سنة (٢٣١هـ) (الذهبي، ج١١ ، ص١٦٦).

قد تحلى الخلفاء العباسيين تجاه علمائهم من المزايا التي افصحت عن عظيم الرعاية التي حظي بها العلماء في العصر العباسي الاول، وكان ذلك لسعة اطلاع بعض العلماء واحاطتهم بالمعرفة لكثير من جوانب الحياة لاسيما العلمية منها، لذا حرص الخلفاء قبل توليهم الخلافة على تقريب العلماء منهم ، لمكانتهم المرموقة (الحميري، ١٩٨٢م ، ج١ ، ص١٨٨)، وقد نال قسم من العلماء تكريم ورعاية السلطة الحاكمة، فقد تولى بعضهم منصب الوزارة منهم يحيى بن خالد البرمكي اشهر وزراء العصر العباسي الاول في عهد الرشيد، وهذا يدل على ان صاحبه يكون عونا للخليفة (السراي، ٢٠٠٦م ، ص١٢٩).

ولم يقتصر دور العلماء على السياسة الداخلية، بل كان لهم دور في السياسة الخارجية من خلال التمثيل الدبلوماسي ، وتنظيم العلاقات الدولية والتأثير في قرار السلم والحرب، الا ان بعض العلماء ابتعدوا عن السلطة لاسيما من اشتهر منهم بالزهد والورع فكانوا يعتذرون عن تولي المناصب او يقبلوها مكرهين (ابن كثير، ج١ ، ص٩٤ ؛ ابن خلدون، ج٣ ، ص١٩٤).

كان العلماء يوجهون النصح والارشاد للائمة وكانوا يحملون على كواهلهم هموم الامة، ولان العلماء مصابيح الهداية للامة ومرجعيتها والمسؤولون عن اعادة التوازن المختل في حياتها، ولان الخلفاء مهما كانوا على تقوى وورع فانهم لا يستطيعون القيام بشؤون الدولة (الطرطوشي، ٢٠٠٥ ، ص٦).

وكان على العلماء طاعة الخلفاء من اولي الامر ، وقد جاء رأي العلماء في طاعة الخلفاء منسجما مع التوجهات القرآنية والنبوية، ولم يلتزموا بهذه التوجهات بأنفسهم بل دعوا اليها كافة افراد الامة لما راوا فيها من اجتماع الكلمة ومساعدة الائمة على القيام بدورهم بدون عوائق، لما يترتب على العصيان وخروج عن السلطان من فتن واضطرابات، وعد الاوزاعي طاعة الائمة ولزوم الجماعة من علامات السير على هدى الصحابة والتابعين (الذهبي، ج١ ، ص١٧٠)، على الرغم من اجماع العلماء على وجوب طاعة الأئمة الا انهم وضعوا لها شروطا وحدودا تنتهي عندها وهو ما يسمى (بالعقد الاجتماعي) الذي حدده الاسلام، وان العلماء حددوا الشروط لتنظيم العلاقة بين الامة والرعية لا تنفك عن الاثار التي تلقوها عن الصحابة والتابعين، قال الليث بن سعد ازاء فتنة خلق القرآن "من ارادكم على معصية الله فلا تطيعوه" (ابن الجوزي، ص٣١٨).

كان الخلفاء والامراء بحكم ولايتهم قد تمتعوا بسلطات واسعة في العصر العباسي الاول، فكان للعلماء سلطات ادبية غير محدودة في نفوس الناس، كانت تفوق سلطات الخليفة وتطغى عليها (عبد الحكيم، ص١٤٠)، وكان لهم الدور في اصلاح اجهزة الدولة العباسية وما اصابها من اضرار وذلك

بطلب من الخلفاء العباسيين ،فبذل الرشيد جهوده لتقريب العلماء للاستعانة بهم في الحكم والتشريع ودعم الحركة العلمية والثقافية وليوليهم المناصب القضائية والوزارة لثقته بهم وعدالتهم ، فقبل بعضهم ورفض البعض الاخر، فالشافعي رفض تولي القضاء، وكذلك الفضيل بن عياض واكتفى باختيار بطانته وولاته حتى يعينونه على الخير (الطرطوشي، ص٣٠_٣١ ؛ المقريزي، ١٩٥٥م، ص٥٣_٥٥)، وقد شارك العلماء في الحياة السياسية بشكل مباشر من خلال العمل بوظائف الدولة مثل القضاء والمظالم وقاموا بأدوار مؤثرة في الحياة السياسية في العصر العباسي الاول وسعوا الى الخلفاء بالنصح والارشاد، ومن هذه الادوار، المشاركة في القضاء والتشريع والمساهمة في السياسة الخارجية (ابن الجوزي، ج٨ ، ص٦٤).

ثالثا: نماذج من العلماء المؤثرين سياسيا:

في العصر العباسي الاول(١٣٢-٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٧م)، لعب العلماء دورا مؤثرا فضلا عن التعليم والفتيا، فاصبح حضورهم مؤثرا في جميع مناحي الحياة السياسية وصياغة الوعي العام وكانت الدولة العباسية في بداياتها بحاجة الى الشرعية الدينية لإثبات احقيتها في الحكم لذلك اتجه الخلفاء الى العلماء يستفتونهم ويستأنسون بآرائهم، وظهر علماء جمعوا بين العلم والمواقف السياسية وتدخلوا في القضايا الكبرى التي تتعلق بحدود السلطة وحقوق الامة ومن بين هؤلاء العلماء الامام ابو حنيفة النعمان[١]، الذي رفض تولي القضاء، وعندما قامت الدولة العباسية وبدا الناس ينظمون تحت لوائها وكانوا يتوقعون ان يكون العدل على ايديهم ، اضم تحت لوائها ابو حنيفة النعمان لشدة حبه لأهل البيت، وجمع ابو العباس العلماء لاسيما علماء الكوفة وتوجهت الانظار الى ابي حنيفة صاحب العقل والعلم والدين والذكاء، وحصل على الثقة بكل رضا وانتقل الى الكوفة بعد ان استقرت الدولة الجديدة واستمر بتأييده لهذا الحكم حتى ان بدا يشعر ان هذا الحكم بدا ينحرف وابو حنيفة لا تحركه العواطف ولا العصبيات وهذا شان المؤمن الواعي (البغدادي، ج١٥، ص ٤٤٤).

استمر ابو حنيفة على ولاءه للدولة العباسية، وكان الخليفة ابو جعفر المنصور يدنيه اليه ويرفع قدره ويعطيه العطايا الجزيلة (ابو زهرة،١٩٦٠، ص٤٥-٤٦)، وكان موقف ابي حنيفة انه رفض العطايا لأنه كان يرى ان هذه الدولة ظالمة، والمال الذي يصرفونه، يصرفونه في غير وجه حق ، وهو حريص

(١) أبو حنيفة النعمان: هو النعمان بن ثابت أبو حنيفة بن ولد سنة (٨٠هـ) صاحب المذهب الحنفي احد المذاهب الإسلامية الأربعة، كان يبيع الخز ويأكل منه طلباً للحلال، توفى سنة(١٥٠هـ) في بغداد (السمعاني، ج٥، ص١١١).

على ان يبقى ماله حلالا وان يبقى بعزته ، وكان الحكام يرسلون له الهدايا ليس فقط اكراما وانما اختبارا للولاء (السويدان،٢٠١١،ص١٤٠-١٤٥).

كان لابي حنيفة موقف من ثورة محمد ذو النفس الزكية على المنصور فقد ناصره وكان يجهر بمناصرته له في درسه، بل انه ثبط بعض قواد المنصور عن الخروج لحربه وكان من اخطر المنادين في مناصره محمد ذو التفس الزكية على المنصور؛ لان ابو حنيفة تجاوز في حد النقد المجرد والولاء القلبي ، لذا اراد المنصور ان يختبره في طاعته وولاءه له وكان يبني بغداد واراد ان يجعله قاضيا (ابو زهرة،ص٤٨)، وعرض عليه امر القضاء فرفض ابو حنيفة تولي منصب القضاء وحلف المنصور ان يفعل وحلف الامام ان لا يفعل فقال له الربيع: (الا ترى الامير يحلف؟ فقال: هو اقدر مني على الكفارة ، فسجنه، وحبسه، وضربه، بالسوط) وبقي في السجن حتى وفاته في سنة (١٥٠هـ/٧٦٧م).

وان السبب الذي دفع المنصور ان يولي ابي حنيفة النعمان منصب القضاء؛ لأنه كان قريب من الناس وقضاياهم وكان ينتقد قضاء الكوفة اذا خالفت رأيه ويصرح بخطئها في اوقات صدورها، وكان ذلك يثير حفيظة القاضي عليه ويظن به السوء ويقول فيه عند الامراء ، فاذا قبل ان يولى منصب القضاء كان اعلان للولاء للدولة، وان رفض كان ذريعة الى التخلص منه (ابن عربيي، ص١٥٩-١٦٠)، وكان رفضه للقضاء ليس لأنه لا يوالي المنصور فقط بل لأنه يراه عملا خطيرا لا تقوى نفسه على احتماله ، ولا يقوى ضميره على تلقي تبعاته، ولا تقوى ارادته على ضبط نفسه عن اهوائها في الامور التي تكتنف منصبه ، ولا يقوى على تنفيذ الحق في كل الناس فهو يرى في القضاء محنة تسهل دونها كل محنة ، وان ابو حنيفة لم يكن رفيقا في اجوبته ، ولم يتخذ الحيلة مخرجا ، فكان يجار بالحق غير مبال بالنتائج ، بل مترقبا لها محتملا صبورا، فهو يرفض القضاء ويرفض الافتاء من غير تحايل، وانه يرفض العطاء لأنه من بيت مال المسلمين، وان المحنة لم تخرجه عن الحق وقد اوصى ان يدفن في جانب من المقبرة لم يجر فيه غصب دون الجانب الاخر (ابو زهرة، ص٤٩-٥١).

١. موقف الامام مالك بن انس من بيعه المنصور:

يعد الامام مالك بن أنس أحد أبرز ائمة الفقه الاسلامي ومن اعلام مدرسة اهل الحديث في المدينة المنورة، تميز بعلمه الغزير ومكانته الرفيعة بين العلماء والعامة، ولم يكن الامام مالك بعيدا عن التحولات السياسية التي شهدها العصر العباسي الاول.

ينسب الامام مالك الى بني تيم بن مرة ، بدا بطلب العلم وهو صغير لم يتجاوز عمره الثالثة عشر، فانطلق انطلاقة المجد الى العلم والمعرفة حتى بلغ من الامامة والريادة في العلم، وتميز الامام مالك برجاحة العقل وهذه الميزة يخصها الله سبحانه من يشاء من خلقه ، وعرف ايضا بالحفظ مع الاتقان والضبط منذ صغره ، وكان مالك بعيد عن الثورات والتعريض عليها ، وعن الفتن والخوض فيها ، اذ نزلت به محنة في العصر العباسي في عهد ابي جعفر ، وضرب في هذه المحنة ضربا بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفاه (ابو زهرة، ص٤٩-٥١).

وكان مالك قد ضرب بالسياط واختلف في سبب ذلك، حيث ان ابا جعفر نهى مالك عن الحديث : (ليس على مستكره طلاق)، وهو ان طلاق المكره ليس بشيء؛ لأنه يقاس على ذلك ان بيعه المكره ليست بشيء، فلو اكره انسان على مبايعة امام معين فان هذه البيعة تكون غير شرعية ثم دس اليه من يساله على رؤوس الناس فضربه بالسياط ، وان مالك بن انس لما ضرب حلق وحمل على بعير ، فقيل له : ناد على نفسك، فقال: الامن عرفني فقد عرفني، ومن لم عرفني فانا مالك بن انس بن ابي عامر الاصبحي وانا اقول: طلاق المكره ليس بشيء (ابو زهرة، ص٤٩-٥١).

٢. موقف القاضي ابو يوسف في التشريع والسياسة:

حظي القاضي ابو يوسف بمكانة بارزة ودور محوري في مجال التشريع والسياسة خلال العصر العباسي الاول، اذ كان ابو يوسف اهم من نقل فقه الامام ابو حنيفة من مجالس العلم الى اجهزة الدولة والف كتبا يعد من أوائل ما أعتمدته الدولة العباسية في القضاء ومنها: كتاب الخراج، كتاب الاثار، كتاب الحدود (السودوني، ١٩٩٢م ، ص٣١٧)، وبعد وفاة والده بقي عند والدته التي انكرت عليه حضوره حلقة ابي حنيفة ذا الحقته بـ " قصار" ليخدمه ويعمل لديه، الاَّ إنه كان يترك لقصار ويذهب الى حلقة ابي حنيفة ويجلس للاستماع اليه وكان ابو حنيفة يعتني به لما يرى فيه من حضوره وحرصه على التعلم وبقي يتردد الى المجلس على الرغم من رفض والدته، انتفع من علم ابي حنيفة حتى تقلد القضاء (البغدادي، ج١٤ ، ص٢٤٧_٢٤٨).

اخذ المذهب الحنفي عن ابي حنيفة بالتلقين، وحفظه بالتدوين وهو اول من الف في اصول الفقه الحنفي وكان الامام الاعظم يلقي مسالة عليهم حتى يسمع ما عندهم (ثابت، ، ٢٠١٩م ، ص١٧٥)، وقال ابو يوسف: من طلب المال بالكيمياء افلس، ومن طلب الدين بالكلام تزندق، ومن تتبع غريب

الحديث كذب (الذهبي، ج٨ ، ص٥٣٧)، تولى منصب القضاء في عهد هارون الرشيد واصبح اول قاضي قضاة في العصر العباسي الاول وكان له الحق في جمع القضاة ويعينهم ويعزلهم ويشرف عليهم، قال الرشيد(انت تولي القضاء في البلدان والامصار من تحت يديك وتعليتهم وعزلهم عليك)، وانه ولى عددا من القضاة ومنهم، يحيى بن عمران، ونصر بن بجير الهذلي (ابن عريبي، ص١٦١_١٦٢).

طلب منه الرشيد بتأليف كتاب الخراج يعمل في جباية الخراج والعشور والصدقات واراد رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم (الأنصاري، ص١٣)، وانه اشار الى الرشيد بضرورة الجلوس للمتظلمين مرة او اكثر في الشهر لما فيه من فائدة لتحقيق العدالة وخوف الظالمين من العقوبة فلا يتجاوزون على حقوق غيرهم (فوزي، ط١ ، ص٣١).

وذكر ابو يوسف في كتابه الخراج ، كيف فرض عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) لأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ان ابا بكر الصديق(رضي الله عنه)، كان يقسم العطاء بين الناس بالسوية على الصغير والكبير، والحر والمملوك، والذكر والانثى (القطان، ٢٠٠١،ص١٩٩)، وكان ابو يوسف اول من وضع الكتب على مذهب ابي حنيفة واول من دون في المذهب ، وذكر في كتابه الخراج انه اذا جمعت الصدقات جمع اليها ما يؤخذ للمسلمين من العشور، واما الخمس فهو لله والرسول ولذي القربة واليتامى والمساكين (خلاف، ١٩٨٨، ص١٣٧-١٣٨).

بعد ان انتشرت المذاهب الاربعة اصبح على القاضي ان يصدر احكامه وفق احد هذه المذاهب، واصبح المذهب الشائع في العراق هو مذهب ابي حنيفة النعمان وكان ابو يوسف القاضي قد عمل من خلال ولايته على نشر هذا المذهب فقد كان يولي القضاء لمن يتبع مذهب الامام ابي حنيفة (عثمان، ١٩٩٤، ٤٨).

٣. موقف الامام احمد بن حنبل وثباته في محنة خلق القرآن:

استطاع الامام احمد بن حنبل بأيمانه الصادق وصلابته في الحق ان يهزم المعتزلة التي ادعت خلق القرآن واتخذت الخليفة المأمون اداة لنشر بدعتهم، فقد ازاغوه عن طريق الحق الى طريق الباطل، وعندما خرج المأمون من بغداد لغزو الروم كتب الى اسحاق بن ابراهيم صاحب الشرطة ان يدعوا الناس الى القول بخلق القرآن، فاستدعى جماعة من العلماء والقضاة وائمة الحديث فامتنعوا وكان منهم الامام احمد بن حنبل، وقد استعصى امره على الخليفة المأمون ، وامر اتباعه بأشخاصه مكبلا بالأغلال هو ورفيقه محمد بن نوح الذي توفى في الطريق لملاقاة الخليفة المأمون (لاشين، ١٩٧٧،ص٩).

استمرت المحنه بعد وفاة المأمون اي في زمن الخليفة المعتصم وبقي الامام احمد مقيد بالأغلال في السجن ولاقى من الضرب والتعذيب الشديد لكن لم يقل بان القرآن مخلوق واصر على قوله بانه منزل وليس مخلوق ، كما ذكرنا سابقا، وكان هذا كله محبة للإمام احمد لأنه كان لله وفي الله وان السجن خلوة تعزله عن الخلق وتصله بالحق ،وان الامام احمد لم يستوحش من وحدته ولم يضجر من طول مكثه في السجن بل حوله الى ساحة للرياضة النفسية (الرومي، ١٩٦١،ص١٦٠-١٦١).

وحدثت مناظرة هامه للإمام احمد وهو في السجن حضرها المعتصم وكبار المعتزلة على راسهم ابن بي دؤاد، وسال الامام احمد عن قوله في القرآن وعندما تحدث معه لم يكن الخليفة مقتنعا بما اعلنه ، وانه كان مقتنعا في داخله ولم يجهر به خوفا من ثورة بن ابي دؤاد وغيره من قضاة المعتزلة، واستمرت المناظرة ثلاثة ايام وكان الامام على نفس موقفه ولم يقول بان القرآن مخلوق ، وقال ان القرآن من علم الله، وانتهت المحاكمة تقريبا ولما رأى المعتصم صدق لهجه الامام ، وعظم حججه ، وقوة اقناعه وثباته كادت الرأفة تعرف طريقها الى قلبه واراد برفع المحنة لولا تدخل ابي دؤاد وحرض المعتصم على الاستمرار في المحنة ، وطالب بالقتل للإمام هو والقضاة وكانت هذه المناظرة في سنة (٢١٩هـ/٨٣٤م) (لاشين، ص ١٠-١٣).

كان يرد على الخليفة بالبرهان الساطع والدليل القاطع ويعجز الخليفة عن ترهيبه وترغيبه ليقول بكلام المعتزلة، وكان المعتصم يقيم مباراة بين الجلادين لقتله بالسياط الموجعة ويحدثونه في الرجوع عن اصراره لكنه يقول لهم في كل مرة اعطوني شيئا من كتاب الله وسنة رسوله اقول به، وهكذا واجه الامام احمد المحنه في صبر جميل وشجاعة نادرة ، وكانت مدة حبسه ثلاثين شهرا الى ان خرج من السجن في شهر رمضان سنة(٢٢٠هـ/٨٣٥م) (ابن كثير، ج١٤، ص٣٩).

الخاتمة

في ختام هذا البحث حول موقف العلماء من الحياة الاجتماعية والسياسية في العراق خلال العصر العباسي الاول، يمكننا القول ان هذه الحقبة الزمنية تمثل نموذجًا فريدًا ومعقدًا للتفاعل بين السلطة الزمنية ممثلة في الخلافة، والسلطة المعنوية ممثلة في علماء الدين. لم تكن العلاقة بين الطرفين خطية او احادية البعد، بل كانت علاقة جدلية اتسمت بالمد والجزر، وبالتعاون والصراع، وبالتقريب والاقصاء، بحسب الظروف السياسية وطبيعة الشخصيات التي مثلت كلا الجانبين. ومن هنا يمكننا حصر ابرز ما توصلنا اليه بما يلي:

١. طبيعة العلاقة الجدلية: اتسمت العلاقة بين العلماء والسلطة العباسية بالتعقيد وعدم الثبات؛ فتراوحت بين التعاون الوثيق لترسيخ الشرعية، وبين الصراع والصدام عند محاولة السلطة فرض رؤاها العقدية بالقوة.

٢. العلماء كقوة اجتماعية مستقلة: لم يكن العلماء مجرد وعاظ، بل شكلوا قوة ضغط سياسية واجتماعية فاعلة، مستمدين نفوذهم من التفاف الجماهير حولهم واستقلاليتهم المالية النسبية عن الدولة.

٣. منح وسحب المشروعية: لعب العلماء دوراً محورياً في إعطاء الغطاء الشرعي للنظام (مثل القاضي أبو يوسف)، أو ممارسة المعارضة السلمية عبر رفض المناصب الرسمية (مثل الإمام أبو حنيفة)، مما أثر على هيبة السلطة.

٤. المشاركة في إدارة الدولة: تجلى دور العلماء في تطوير النظم القانونية والفقهية من خلال تولي مناصب القضاء، حيث استطاعوا مواءمة الشريعة مع احتياجات الدولة والمجتمع المتنامية.

٥. الصمود في وجه المحن: مثلت "محنة خلق القرآن" قمة المواجهة، حيث أثبت ثبات الإمام أحمد بن حنبل قدرة النخبة الدينية على قيادة الرأي العام وكسر شوكة الاستبداد الفكري للسلطة.

ترسيخ المرجعية الأخلاقية: نجح علماء هذا العصر في وضع أسس "السلطة المستقلة"، التي تقوم على مبدأ النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما خلق توازناً بين حقوق الحاكم ومسؤولياته تجاه الرعية.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

اولاً: المصادر الأولية:

١. ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم. (١٩٩٧). الكامل في التاريخ (ط١، ج٥). دار الكتاب العربي.

٢. ابن الأخوة، محمد بن أحمد بن علي. (١٩٧٦). معالم القربة في أحكام الحسبة (رضا شعبان، تح.). المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

٣. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج. (١٩٨٨). مناقب الإمام أحمد (عبد الله بن عبد المحسن التركي، تح.) (ط٢). دار هجر.

٤. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. (١٩٨٥). الفصل في المال والأهواء والنحل (محمد إبراهيم نصر، تح.) (ج٥). دار المعرفة.

٥. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. (١٩٦٢). جمهرة أنساب العرب (عبد السلام محمد هارون، تح.). دار المعارف.

٦. ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون. (١٩٨١). العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (سهيل زكار، تح.) (ط١، ج٣). دار الفكر.

٧. ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد. (د.ت). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (إحسان عباس، تح.) (ج١، ج٤، ج٦). دار صادر.

٨. ابن سعد، محمد بن سعد. (د.ت). الطبقات الكبرى (ج٦، ج٧). دار صادر.

٩. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (١٩٩٧). البداية والنهاية (محمد فوزي، تح.) (ط١، ج١، ج١٢، ج١٤). دار إحياء التراث العربي.

١٠. أبي يوسف، يعقوب بن إبراهيم. (١٩٧٩). كتاب الخراج (محمد إبراهيم البشا، تح.). دار المعرفة.

١١. البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد. (١٩٧٧). الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية (ط٢). دار الآفاق الجديدة.

١٢. التركي، عبد الله بن عبد المحسن. (٢٠١٢). أصول مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ط١). مؤسسة الرسالة.

١٣. التلمساني، محمد بن أبي بكر. (١٩٨٣). الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة (ط١). دار الرفاعي للنشر والطباعة.

١٤. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي. (٢٠٠٩). الجامع الكبير "سنن الترمذي" (شعيب الأرناؤوط، تح.) (ط١، ج٣). دار الرسالة العالمية.

١٥. الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس. (١٩٣٨). الوزراء والكتاب (ط١). مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي.

١٦. الحموي، ياقوت بن عبد الله. (١٩٧٧). معجم البلدان (فريد عبد العزيز الجندي، تح.) (ط٢، ج١، ج٢، ج٤). دار صادر.

١٧. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي. (د.ت). تاريخ بغداد (ج١، ج٥، ج١٤، ج١٥). دار الكتب العلمية.

١٨. الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم. (١٩٥٢). الجرح والتعديل (ط١، ج٧). مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.

١٩. السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد. (د.ت). الأنساب (ج٤، ج٥، ج١٠). دار المعرفة.

٢٠. السويدان، طارق. (٢٠١١). الإمام أبو حنيفة النعمان (ط١). شبكة الإبداع الفكري.

٢١. السودوني، أبو الفداء زين الدين بن قطلوبغا. (١٩٩٢). تاج التراجم (محمد خير رمضان، تح.) (ط١). دار القلم.

٢٢. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. (٢٠٠٤). تاريخ الخلفاء (حمدي الدمرداش، تح.) (ط١، ج١). مكتبة نزار مصطفى الباز.

٢٣. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. (د.ت). الملل والنحل (ج١). مؤسسة الحلبي.

٢٤. الطبري، محمد بن جرير. (١٩٧٦). تاريخ الرسل والملوك (محمد أبو الفضل، تح.) (ط٢، ج٥، ج٧، ج٨). دار المعارف.

٢٥. الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد. (٢٠٠٥). سراج الملوك (نعمان صالح، تح.) (ط١). دار العاذرية.

٢٦. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. (١٩٨٢). صبح الأعشى في صناعة الإنشا (إبراهيم الأبياري، تح.) (ط٢). دار الكتاب المصري.

٢٧. الكوفي، الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح. (١٩٨٤). تاريخ الثقات (ط١). دار الباز.

٢٨. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. (١٩٥٥). الذهب المسبوك في ذكر مناهج الخلفاء والملوك (جمال الدين الشيال، تح.). مكتبة الخانجي.

٢٩. المكي، تقي الدين محمد بن أحمد. (١٩٩١). العقد الأمين في تاريخ البلد الأمين (محمد عبد القادر، تح.) (ط١، ج٥). دار الكتب العلمية.

٣٠. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي.(١٤١٤هـ). لسان العرب (ط٣، ج٣. دار صادر–بيروت) .

٣١. الوشمي، صالح سلمان. (١٩٧٩). أبو مسلم الخراساني "صاحب الدعوة العباسية" (حسن الفهد، تح.). نادي القصيم الأدبي.

٣٢. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق. (د.ت). تاريخ اليعقوبي (ج٢). دار صادر.

ثانيا: المصادر الثانوية.

٣٣. أبو زهرة، محمد. (١٩٦٠). أبو حنيفة (ط٣). دار الفكر العربي.

٣٤. أبو زهرة، محمد. (٢٠٢٠). مالك وحياته وعصره–آراؤه وفقهه (ط٤). دار الفكر العربي.

٣٥. أمين، حسين. (١٩٨٦). تاريخ الدولة العباسية. دار الشؤون العامة.

٣٦. حمادة، محمد ماهر. (١٩٨٥). الوثائق السياسية والإدارية في العصر العباسي الأول (ط٤). مؤسسة الرسالة.
٣٧. حسين، طه. (د.ت). الفتنة الكبرى (ط٧). دار المعارف.
٣٨. خلاف، عبد الوهاب. (١٩٨٨). السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية. دار القلم.
٣٩. شبارو، عصام محمد. (د.ت). قاضي القضاة في الإسلام. دار النهضة العربية.
٤٠. صالح، عبد العزيز صالح. (د.ت). الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق. مكتبة دار زمان.
٤١. طلس، محمد أسعد. (١٩٦٠). تاريخ الأمة العربية (ج٥). دار الحلم للنشر.
٤٢. عثمان، محمد رأفت. (١٩٩٤). النظام القضائي في الفقه الإسلامي (ط٢). دار البيان.
٤٣. العسيري، أحمد المعمور. (١٩٩٦). موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم (عليه السلام) (ط١). د.ن.
٤٤. الفاخوري، حنا. (د.ت). الجامع في تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم. دار الجيل.
٤٥. القطان، مناع بن خليل. (٢٠٠١). تاريخ التشريع الإسلامي (ط٥). مكتبة وهبة.
٤٦. لاشين، موسى شاهين. (١٩٧٧). دراسة المحنة وسيرة الإمام أحمد بن حنبل. دار النشر للثقافة.
٤٧. المرجاني، راغب. (٢٠٠٩). ماذا قدم المسلمون للعالم (ج١). مؤسسة أقرأ للنشر والتوزيع.
٤٨. مصطفى حلمي. (١٩٨٣). السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية. دار الدعوة.
٤٩. مصطفى، شاكر. (١٩٨٤). التاريخ العربي والمؤرخون: دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام (ط٢، ج١). دار العلم للملايين.
٥٠. الميدالي، عبد الرحمن بن حسن. (١٩٩٨). الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها (ط١، ج١). دار القلم.
٥١. المناصير، عبد الحفيظ. (٢٠٠٠). الحياة السياسية في العصر العباسي الأول. دار مجدلاوي للنشر.
٥٢. المناصير، محمد عبد الحفيظ. (٢٠٠٠). الجيش في العصر العباسي الأول (١٣٢هـ – ٢٣٢هـ). دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
٥٣. الموسوي، مصطفى عباس. (١٩٨٢). العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية. دار الرشيد.
٥٤. النابودة، حسن محمد عبد الله. (٢٠٢٤). مقتل أبي مسلم الخراساني وأثره في الأوضاع السياسية للخلافة العباسية. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، (٢٢)، ١٠٠.
٥٥. مبورك، بن يحيى. (٢٠١٠). الإمام مالك وعمله بالحديث من خلال كتابه الموطأ (ط١). دار ابن حزم.
٥٦. محمود، نوال ناظم. (٢٠١٨). التعليم في العصر العباسي الأول في العراق. دار ومكتبة كلكامش.
٥٧. موسى جواد. (٢٠١٦). القضاة والمسؤولية القضائية في العصر العباسي الأول بين الإعفاء والاستعفاء. مجلة الأستاذ الباحث للدراسات القانونية والسياسية، (٢)، ١٢١–١٢٢.
٥٨. موسى جواد. (٢٠١٧). دور العلماء في الدعوة إلى إصلاح البطانة في العصر العباسي. مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، ٥(١١)، ٢٦٠–٢٦٨.
٥٩. الحكيم، حسن عيسى. (٢٠٢٤). رعاية الخلفاء العباسيين للحركة العلمية. مجلة الدراسات، (٧٥)، ٥٣–٥٦.

٦٠. السامرائي، مهدي عبد الحميد. (٢٠١٢). الخليفة أبو جعفر المنصور ودوره في بناء مدينة بغداد. مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، (١٤)، ٢٨٥-٢٨٦.

٦١. عبد المنصور، محمد محسن. (٢٠٢٣). علاقة علماء الكوفة بالسلطة في العصر العباسي الأول. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (٤٦)، ٤٨.

٦٢. ثابت، رمضان. (٢٠١٩). أبو يوسف القاضي أعلام الفكر الإسلامي. مجلة الأزهر، ١٧٥.

٦٣. ابن عريبي، حسنية أمحمد. (٢٠١٠). النظم الإسلامية "القضاء في العصر العباسي الأول". مجلة الجامعي، (٢٠)، ١٥٩-١٦٢.

٦٤. راشد، توفيق مسعود، ومسعود، علي سعد. (٢٠١٩). أبو مسلم الخراساني ودوره في تأسيس الدولة العباسية (١٢٥هـ - ١٣٢هـ). (٦)، ١٥١.

٦٥. الحويني، أبو إسحاق محمد بن يوسف بن شريف. (د.ت). البدعة وأثرها في محنة المسلمين (ج٥). د.ن.

٦٦. محمد نغش. (١٩٨٠). التعريف بكتاب محنة الإمام أحمد بن حنبل. الجامعة الإسلامية، ٣٨٣.

٦٧. الرومي، أحمد عبد الجواد. (١٩٦١). أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا (ط١). المكتبة التجارية الكبرى.

٦٨. عبد الحليم محمود. (١٩٧٢). الفضيل بن عياض. دار الشعب.

٦٩. جاسم، سهام جميل. (٢٠١٢). الحضارة الإسلامية. كلية التربية، جامعة الأنبار.

٧٠. فوزي، فرحات. (د.ت). الخليفة المجاهد هارون الرشيد (ط١).

ثالثاً: الرسائل والاطاريح الجامعية

٧١. سهى سلسبيل، وغدير مشيك. (٢٠٢٢). مدينة بغداد ودورها السياسي والحضاري خلال العصر العباسي الأول [رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية، جامعة ٨ ماي ١٩٥٤].

٧٢. السراي، شيماء بدر عبد الله نصر. (٢٠٠٦). علماء واسط وأثرهم في الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية والاقتصادية في العصر العباسي الأول [رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة واسط].

٧٣. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين. (٢٠٠٤). دور العلماء في الحياة السياسية والاقتصادية في العصر العباسي الأول [أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة المنصورة].

٧٤. سارة عبد الله، وسعد أحمد. (٢٠١٩). القضاء في بغداد [رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الشارقة].

٧٥. الديب، نجاة موسى. (١٩٨٦). الزندقة في العصر العباسي الأول ودور العلماء في الرد عليها [رسالة ماجستير، جامعة أم القرى].

٧٦. محمد عبد الله علي حمدي. (٢٠٢٥). دور بيت الحكمة والمدارس النظامية في تطوير التعليم وأثره على التعليم حالياً. المجلة العلمية، (٥٨).

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: م.د. زهراء احمد عبد الزهرة

الجامعة:

الكلية: التربوية المفتوحة / البصرة

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني: zhmed50@gmail.com

الهاتف: ٠٧٧٣٠٢١٤٠٧٠

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام:٢٢/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ١٢/ تموز/٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (أوروبا، تاريخ بولندا، التضامن، ليخ فاليسا، النقابات العمالية)

عنوان البحث

دور ليخ فاليسا في نقابة التضامن في بولندا ١٩٨٠-١٩٨١

ملخص البحث

يعد السياسي البولندي ليخ فاليسا (Lech walesa) من الشخصيات السياسية المؤثرة التي لعبت دورًا محوريًا في تحويل بولندا وقيادتها بعيدًا عن الكتلة الاشتراكية. بدأ نشاطه خلال إضرابات العمال في حوض بناء السفن لينين في غدانسك، وتوج لاحقًا برئاسته لبولندا من عام ١٩٩٠ إلى عام ١٩٩٥. أثير الجدل حول هذه الشخصية القيادية ودورها وارتباطاتها الخارجية والدعم الدولي الذي استقطبته، لتسهيل خروج بولندا من الكتلة الشرقية. تناول البحث في المحور الاول مساهمات فاليسا خلال المراحل الأولى التي أدت إلى تأسيس نقابة تضامن العمالية ويستكشف المحور الثاني التطورات الداخلية في بولندا خلال عام ١٩٨٠ ودور فاليسا في تأسيس تضامن. يحلل المحور الثالث رد فعل فاليسا على الاضطرابات الداخلية وإعلان الأحكام العرفية في عام ١٩٨١. وتخلص الدراسة إلى أنه على الرغم من أن بعض الاتهامات الموجهة ضد فاليسا المستندة إلى حقائق، إلا أن حركة التضامن تظل علامة فارقة في التاريخ البولندي، حيث شكلت بشكل كبير مشهد المعارضة في البلاد.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Dr. Zahraa Ahmed AbdulZahra
University:
College: Open Education College /Basra
Department: History
Country: Iraq
Email: zhmed50@gmail.com
Phone: 07730214070

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 22/ June / 2026
Acceptance Date: 12/ July / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Europe, History of Poland, Soldidarity, Lech walesa, Trad Unions)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

Lech Walesa's Role in the Solidarity Trade Union in Poland 1980-1981

Abstract

The Polish politician Lech Wałęsa played a pivotal role in transforming Poland and leading it away from the socialist bloc. His activism began during the workers' strikes at the Lenin Shipyard in Gdansk and later culminated in his presidency of Poland from 1990 to 1995. Wałęsa's actions, influence, and international connections have attracted both admiration and controversy, particularly regarding the support he secured to facilitate Poland's departure from the Eastern Bloc. The first section examines Wałęsa's contributions during the early stages that led to the establishment of the Solidarity trade union. The second section explores the internal developments in Poland during 1980 and Wałęsa's role in founding Solidarity. The third section analyses Wałęsa's response to the internal unrest and the declaration of martial law in 1981. The study concludes that although some accusations against Wałęsa are grounded in fact, the Solidarity movement remains a landmark in Polish history, significantly shaping the country's opposition landscape.

المقدمة

يحظى موضوع "دور ليخ فاليسا في نقابة التضامن في بولندا ١٩٨٠-١٩٨١" بأهمية بالغة في التاريخ السياسي المعاصر؛ وذلك للدور المحوري الذي تفرد به ليخ فاليسا (Lech Walesa) وطبيعة التغييرات التي شهدتها الساحة السياسية لبولندا، اذ كانت بؤرة شرارة التغيير في الكتلة الشرقية في خضم تصاعد الحرب الباردة، وفي ذلك السياق المعقد تبنى فاليسا الدور القيادي فكان حلقة الوصل بين العمال المضربين والحكومة البولندية من جهة وبين اولئك العمال العمق الدولي والكنيسة من جهة اخرى، وتتضاعف القيمة العلمية للبحث في ظل ندرة الدراسات الاكاديمية باللغة العربية التي تناولت الموضوع.

ينظم البحث في سياق تحليلي يتناول دور فاليسا في المرحلة التمهيدية التي سبقت نشأة نقابة التضامن، لينتقل إلى بحث التطورات الداخلية في بولندا ١٩٨٠ ودوره في تأسيس النقابة وتثبيت ركائزها، وصولا إلى استعراض موقفه من الاضطرابات الداخلية في بولندا واعلان الحكم العسكري ١٩٨١.

اعتمد البحث على المصادر الاجنبية باللغتين الانكليزية والبولندية، والتي تنوعت مابين وثائق الارشيف الوطني البريطاني Papers on the Conduct of Relations with Eastern Europe و وثائق الاستخبارات البولندية المنشورة في معهد الذاكرة الوطني Instytut Pamięci Narodowej ، والتي تضمنت معلومات قيمة تخص كواليس تلك الحقبة الزمنية، ووثائق الاستخبارات الامريكية لا تقل اهميه في كشف ابعاد الموقف الدولي، فضلا عن عدد من الاطاريح الجامعية والبحوث الاكاديمية والكتب التي اسهمت في سد الثغرات المعلوماتية للبحث.

أولاً: دور فاليسا في المرحلة التمهيدية لنشأة نقابة التضامن

كانت الاضرابات التي اندلعت في المدن البولندية ١٩٧٠ –١٩٧١ ولا سيما مسفن لينين في مدينة غدانسك على ساحل بحر البلطيق، في السابع عشر من كانون الاول ١٩٧٠ وكذلك تضحيات العمال فيه بمثابة النواة التي انبثقت منها نقابة التضامن(Solidarity) في نهاية عقد السبعينات، اذ شكل العمال لجنة الاضرابات والا عتصام المفتوح وكان فاليسا[1](Lech Walesa) عضوا فعالا فيها، وعلى الرغم من عضويته في النقابة العمالية الرسمية التابعة للحكومة الشيوعية (karbel, J. ,1992 ,PP: 5–7)، إلا ان ذلك لم يثنيه عن الاشتراك في الاضرابات ولعب دورا فيها، اجبرت تلك الاضرابات الحكومة على التراجع عن سياستها الاقتصادية المتمثلة في زيادة الأسعار (kaya, 1989, 13)، ادى الدور القيادي لفاليسا واستمرار الاضرابات إلى تواجده في مكاني اللجنة العمالية للاضراب والنقابة العمالية الحكومية و كان لذلك اثراً في دفع عجلة المفاوضات بين المضربين والحكومة.

انتهت الاضرابات في الخامس والعشرين من تموز ١٩٧١، اذ عمدت السلطات إلى قمع الانتفاضة، الا ان محاولات العمال ومن ضمنهم فاليسا لم تتوقف، فقد مارس فاليسا نشاطه كمناهض للحكومة، وباندلاع الاحتجاجات مرة اخرى عام ١٩٧٦ نتيجة رفع الاسعار تجددت الاحتجاجات منطلقة

(١) ليخ فاليسا: ترجع اصول اسرة ليخ فاليسا الى فرنسا من حيث هاجر الجد الاكبر في القرن السابع عشر، وسكنت الاسرة منطقة دوبريزن Dobrzyn المحيطة بقرية بوبوو Popowo في بولندا، ولد ليخ فاليسيا ، في التاسع والعشرين من ايلول ١٩٤٣ في بولندا في منطقة بوبوو، وقد كان والده معتقلا لتورطه باعمال المقاومة البولندية، اكمل ليخ دراسته الابتدائية في مدرسة القرية التي كانت الكنيسة تديرها، عرف بانه هادئًا، محبا للرياضة عندما كان صبيًا صغيرًا، و معروفًا بطبيعته الصريحة والعناد بقدر ما كان معروفاً قدرته على ايجاد الحلول لبعض الامور، ولكن فقر الأسرة زج به في معترك الحياة والعمل في مرحلة مبكرة من شبابه، واتاح برنامج التصنيع الجديد الذي نفذه النظام= =الشيوعي فرصة لفاليسا الذي درس في الاعدادية المهنية، وعلى الرغم من مستواه المتقدم في الرياضيات والفيزياء لكنه لم يكمل دراسته فعمل ميكانيكيا، وسرعان ما وجد نفسه ملتحقا بالجيش الا انه لم يرغب ان يكمل مسيرته فيه، ليلتحق بعد ذلك في العمل كهربائياً في غدانسك في مسفن لينين ككهربائيا في عام 1967، ولم تمض مدة طويلة حتى تزوج، امضى عشر سنوات قبل انتقاله الى موقع آخر، وخلال تلك الفترة اسهم بصورة فاعلة بالتأسيس لنقابة التضامن واستمر في زعامتها من (١٩٨٠ – ١٩٨٩)، كما توج نشاطة السياسي والنقابي بحصوله على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٨٣، ومع انهيار النظام الشيوعي في بولندا تولى رئاسة الجمهورية بين عامي (١٩٩٠ –١٩٩٥)، وفي ٢٠٠٠ حاول الدخول والمنافسة في الساحة السياسية بتاسيس حزب جديد، غير ان محاولته لاستعادة دوره القيادي لم تنجح الامر الذي دفعه لاعنزاله الحياة السياسية قبل ان يعلن استقالته من التضامن عام ٢٠٠٦.للمزيد من التفصيلات ينظر: (Charles Evans,2012,PP:2–3 ; Lech Wałęsa'sArchitects of Peace Foundation ; https://www.britannica.com/biography/Lech–Walesa)

من منطقة رادوم (Radom) ومصانعها، اذ انبثق منها نقابات عمالية صغيرة مستقلة وسرية في اجزاء مختلفة من بولندا، كما تمخض عن الاضراب نشأة مجاميع مدافعة عن حقوق المدنية والمفكرون والنقاد شكلت لجنة الدفاع عن العمال (Komitet Obrony Robotników) وتعني workers defense (committee) والتي رمز لها (KOR)، اذ لمع ليخ فاليسا بوصفه قيادياً ناشطاً ابان الاحتجاجات التي نظمتها تلك المنظمات السرية (تيسمانيانو، ف . ، ١٩٩٦، ١٤٦).

وفي الاول من آب ١٩٧٦ القي القبض على فاليسا من قبل قوات الامن البولندية لمساهمته في نشر منشورات مضادة للشيوعية وداعمة لحقوق الانسان والديمقراطية، فضلا عن تحريض العمال على المطالبة بحقوقهم، وبعد خروجه من المعتقل انضم الى اضرابات مسفن غدانسك بعد تسلله خلسة الى داخل المسفن ليعتلي الجدار ويرفع صوته مخاطبا الادارة "لا نصدق اكاذيبكم بعد الآن، ولن نخدع مرة اخرى حتى نضمن حقوقنا وسنبقى حيث نحن " (Evans C., 2012, PP: 2–3; Catalyst of Poland's Crisis ,August, 21, 1980, P12)، وتوجه فاليسا الى زملائه حاثهم على الاضراب لتبدأ اولى صفحات الاحداث التي تمخض عنها ولادة (نقابة التضامن) فيما بعد، ومن جانب اخر بات فاليسا عاطل عن العمل، متنقلا بين اعمالا مؤقته لكسب عيشه (Myant, 1982, 92).

كرست لجنة الدفاع عن العمال جهودها على جمع التبرعات للمساهمة بإعانة المتضررين، موضحة للسلطات التي كانت تنظر بعين الريبة إلى نشاطها بأن جمعيتها ستحل نفسها فور الافراج عن المعتقلين، لكن ذلك لم يتحقق فسعت لجنة الدفاع عن العمال إلى توسيع نشاطها، اذ بادرت إلى اصدار اول منشور سري في ايلول ١٩٧٦، دعت من خلالها الى ترسيخ افكار التحرر وحرية التعبير والتجمع وحق تكوين الجمعيات وحرية النشر، وطبعت تلك المنشورات السرية مع اظهار اسماء القائمين عليها بصورة واضحة، وفقاً لما نصت عليه اتفاقية هلسنكي (Helsinki Effect)[١] في آب ١٩٧٥ التي تحمي حقوق الانسان، واتفاقية العمل الدولية ١٩٠١، لتشن الحكومة البولندية حملة اعتقالات طالت فاليسا وفقد

(١) هلسنكي: الاتفاقية التي كانت ثمرة لمؤتمر الامن و التعاون في اوربا الذي عقد في العاصمة الفنلندية هلسنكي عام ١٩٧٥، بمشاركة معظم الدول الاوربية والاتحاد السوفيتي وبانضمام الولايات المتحدة الامريكية لهم، هدفت الاتفاقية إلى تقليل حدة التوتر بين المعسكرين الشويعي والرأسمالي وتعزيز مبادئ الامن والتعاون في اوربا، تضمنت عدد من البنود ابرزها: ١. احترام سيادة الدول وعدم التدخل في الشؤون الداخليه ٢. الامتناع عن استخدام القوة او التهديد بها. ٣. احترام الحريات الاساسية وحقوق الانسان. ٤. تعزيز التعاون الاقتصادي إلى جانب العلمي والثقافي بين الدول المشاركة. كان للاتفاقية اثراً واضحا في تنشيط الحركات المطالبة بالاصلح وحقوق الانسان في دول اوربا الشرقية. للمزيد من التفصيلات ينظر: (Daniel C. Thomas, 2001)

على اثرها وظيفته(Cienciala, 2011, 21) كانت تلك البذرة التي بذروها لحصد نقابة التضامن فيما بعد.

اتجه اعضاء لجنة الدفاع عن العمال إلى توسيع نطاق اهدافهم ليشمل مواجهة سياسات الحكومة الشيوعية، عبر تبني نهج معارض عام ١٩٧٧، وممارسة انشطة نقدية هدفت إلى مجابهة سياسات النظام السياسي في بولندا ، على امل احداث تغيير على غرار ما حدث في تشيكسلوفاكيا [١]، غير ان ذلك لم يستمر اذ تم تغيير اسم المنظمة الى (لجنة الدفاع عن الامن الاجتماعي)، وسعت بالضغط على الحكومة البولندية للوفاء بالالتزاماتها ببيان حقوق الانسان، وكان ذلك التغيير مرحلياً لابعاد شبح التدخل العسكري السوفيتي عن بولندا (الناصر، ٢٠١٩، ١٧٠-١٧١).

وعلى صعيد التطورات الداخلية كان ليخ فاليسا اول من اقترح انشاء نقابات جديدة للمضربين منذ عام ١٩٧٠، غير ان لجنة الدفاع عن العمال وانصارها التي رعت اول لجنة نقابات حرة في عام ١٩٧٨، وكونت بذرة امل في وقتها وانضم اليها ليخ فاليسا وناشطين آخرين على الرغم من انهم لم يكونوا واثقين من نجاحها، وقد ابقتهم الاستخبارات البولندية تحت نظرها خشية من تماديهم في نشاطهم المناوئ للشيوعية (Ost , 70 ,1990).

بات الشارع البولندي كفوّهة بركان على وشك الانفجار مما دفع بالحكومة البولندية الى العمل على امتصاص غضب الشارع وتهدئة حدة الازمة التي مرت بها بالبلاد، فتبنت سياسات اكثر انفتاحا تجاه المعارضين معترفة بأكثر من عشرين تجمعا عمالياً ليصبح نشاطها علنيا، فكان ذلك بداية تسرب الديمقراطية الى بولندا من خلال افكار ناشطي المنظمات والجمعيات المستحدثة في بولندا، غير ان لجنة الدفاع عن العمال كانت الاكثر اهمية بين المنظمات اذ مدت اذرعها لاحتواء الطبقة العاملة من خلال مد طرق التواصل وكسب الثقة (Myant,1982, 94).

---

(١) شهدت تشيكوسلوفاكيا مرحلة اصلاحية ١٩٦٨ عرفت بربيع براغ قادها ألكسندر دوبتشيك بهدف اصلاح الاوضاع الاقتصادية السياسية ضمن إطار ما عرف " الاشتراكية ذات الوجه الانساني "، اذ تضمنت تلك الاصلاحات الحريات العامة ورفع القيود عن الاعلام مع تقليص هيمنة الحزب الشيوعي على الحياة السياسية، لكن الاتحاد السوفيتي قابلها بالرفض الشديد اذ اعتبرها المعسكر الشرقي تهديدا للنظام الاشتراكي، مما ادى إلى تدخل عسكري اعاد فرض هيمنة النظام الشيوعي في آب ١٩٦٨ وانهى التجربة الاصلاحية. المصدر: للمزيد من التفصيلات ينظر: (عيسى، ٢٠٢٣، ص ٣٨٩-٣٩٣)

تبلورت الافكار المعارضة البولندية في نهاية السبعينات حول مفهوم التغيير والاصلاح وباتت تتطلع الى التنظيم الذاتي للمجتمع وانبثاق منظمات ومؤسسات مستقلة عن النظام السياسي الحاكم للمطالبة بحقوقهم الاقتصادية وحرياتهم المتضمنة حرية التعبير والصحافة الحرة، وعلى نسق تلك المطالبات، انشأت صحافة غير قانونية شبه سرية بدعم من اتحاد العمل الامريكي والمنضمات والصناعية[1] اذ تم تمويلها من الاستخبارات الامريكية والادارة الامريكية. للمزيد من التفصيلات ينظر: (زهراء احمد عبد الزهرة الناصر، ٢٠١٩، ١٧٢ – ١٨٨؛ Cienciala, 2011 , 25)

يذكر المؤلف توني كايا (tony kaya) بان فاليسا كان فعالا بين العمال واستطاع ان يكسب تأييد شعبي كبير بينهم؛ كونه من الطبقة العمالية وله القدرة على ايصال الافكار بصورة مبسطة لهم من خلال الاجتماعات المكثفة لاسيما عام ١٩٧٨، الا انه رجح ان يأخذوا خطوة الى الوراء ويتريثوا في الاضراب لان حركتهم ليست بالقوة التي تتمكن من مواجهة السلطات البولندية، لكنه استمر على الوتيرة نفسها في نشاطه حتى اعتقل في ذكرى الحفل التأبيني للعمال الذين قتلوا في اضرابات (١٩٧٠)، الا انه سرعان ما افرج عنه بسبب غليان الشارع والوسط العمالي، اذ لم ترغب السلطات الحكومية باشعال المزيد من الاضرابات، كان فاليسا بات عاطلاً عن العمل ومتفرغاً لنشاطه السياسي معارضاً للحكومة (Protocol No.13, of the Politburo Meeting on,1980, July 18;kaya, 1989, 49-50).

تكرر اعتقال فاليسا، لكنه كان مختلفاً اذا ما قارناه مع ناشطي المعارضة، اذ سرعان ما كان ينجو من قبضة السلطات وكانت الشكوك تحوم حوله بعدم ولائه التام للمعارضة، ومما زاد من تلك الشكوك هو عدم تعرضه للتعذيب كأي معتقلا اخر من العمال الذين اعتقلوا، لاسيما وانه كان عضوا في نقابة العمال الشيوعية الرسمية (Protocol No.13, of the Politburo Meeting on ,1980, July 18).

وفي الوقت نفسه خيم التوتر على المشهد السياسي في بولندا وباتت الكنيسة اكثر حذراً في تعاملها مع الوضع في بولندا بغية عدم اثارة الاتحاد السوفيتي الذي كان يلوح بالتدخل العسكري اذا ما تم تصعيد وتيرة الانتفاضات وعمل المعارضة، الا انها كانت تدعم المنظمات المعارضة للسلطات البولندية بشكل

(١) تمثل الدعم الامريكي بمعونات غير مباشرة مثل الوكالات الحكومية والبرامج السرية اذ قدمت تمويلاً غير معلناً بما في ذلك شبكات مرتبطة ب اتحاد العمال الامريكي – مؤتمر المنظمات الصناعية، وهو أكبر اتحاد نقابي امريكي تأسس في ١٩٥٥، وتم توفير معدات طباعة وورق وغيرها من الوسائل التي ساعدت بنشر الصحافة السرية في بولندا. للمزيد من التفصيلات حول اشكال الدعم الامريكي ينظر: (Gregory F, 2014,PP: 145- 168).

غير مباشر وان ما عزز شعبية الكنيسة هي انتخاب البابا يوحنا بولس الثاني Pope John Paul II's [١] البولندي في ١٦ تشرين الاول ١٩٧٨، اذ كان الامر بمثابة دعما و فخرا للبولنديين، وان زيارته بولندا عام ١٩٧٩ كانت دعما صريحا لوح من خلاله بدعمه للديمقراطية والمسيحية للمزيد من التفصيلات حول زيارة البابا ينظر (ممدوح ، حليم (٢٠١١) ؛ ، ١٩٨٢، ٩٥ –٩٦ Karatncky ,2011 ;Maynt ,1989 Agust,27 En Polonia ya no tiene manana el el :(communism,1979,19

ثانياً: التطورات الداخلية في بولندا ١٩٨٠ ودور فاليسا في تأسيس (نقابة التضامن)

خططت المعارضة بقايدة ليخ فاليسا ورفاقه لاقامة حفل تأبيني للعمال الذي تم قتلهم في اضرابات عام ١٩٧٠، الا ان فاليسا كان خاضعا لمراقبة الاستخبارات البولندية، ونظراً لخشية رفاقه بالمعارضة من احتمالية اعتقاله، فقد وضعوا خطة لتهريبه في حال قيام الحكومة بتلك الخطوة، وبالفعل داهمت القوات الامنية مكان تواجده لغرض اعتقاله عشية التاسع من كانون الاول ١٩٧٩ المصادف ذكرى الاضرابات الاولى عام ١٩٧٠، الا انهم نجحوا في تهريبه ليحضر يوم الاحتفال بعد ان تجمهر العمال المشاركين بالاحتفال ليعتلي فاليسا في مسفن غدانسك ١٩٧٩ بشكل حماسي، ودعا اثناء ذلك العمال العمال الى توحيد جهودهم وتقديم مطالبهم الى الحكومة لبناء نصب تذكاري للعمال الذين اريق دمهم في ١٩٧٠، داعيا بان يشهد العام المقبل وضع حجر الاساس لهذا النصب التذكاري، وبعد انتهاء الاحتفال بايام فصل اثنى عشر عاملا بينهم فاليسا الذي كان قد عاد إلى العمل قبل مدة وجيزة من ذلك ، فضلاً عن اغتيال عدد منهم لكن الاغتيالات التي اتهمت الحكومة البولندية فيها لم تصل الى فاليسا ,kaya) (52–51 ,1989. وهذا يضيق دائرة الشك حول تعامل السلطات البولندية مع فاليسا.

بعد انتشار اخبار الاغتيالات في مدينة غدانسك عزمت السلطة البولندية على اعتقال فاليسا الذي اصبح آنذاك شخصية معروفة وذو شهرة في المدينة، الا ان جيرانه قاموا بمضايقة دورية الامن البولندي وصب الماء الساخن ورمي الادوات المنزلية عليهم لاتاحة الفرصة لهروب فاليسا، الذي اصبح هاربا و

(١) يوحنا بولس الثاني: اسمه كارول جوزيف بوتيلا، ولد في ١٨ آيار ١٩٢٠، في بولندا، اكمل دراسته الجامعية في جامعة جاغيلونيان، حيث درس اللغات، وعمل كموظف مكتبة، انخرط في سلك الكهنوت عام ١٩٤٦، ليصبح اسقف عام ١٩٥٨، ومن ثم كاردينال ١٩٦٧، واخيراً حبراً اعظم خلفاً للبابا بولس الاول، واعتبر البابا واحد من اقوى شخصيات القرن العشرين، حيث ساهم باسقاط النظام الشيوعي، توفي في ٢ نيسان ٢٠٠٥. للمزيد ينظر: Arragon) Perrone,2012)

عاطلا عن العمل، وفي هذه المدة نشط اكثر في اعمال المعارضة السرية وعقد عدد من الاجتماعات السرية في غدانسك وغدينيا (Ghdenia). ((Lech Wałęsa TV interview, (n.d))

وفي غضون ذلك كانت الحكومة البولندية عاجزة عن معالجة الازمات الاقتصادية التي شهدها البلد بسبب سياستها الاقتصادية المتهرئة ، وتصاعد الديون الدولية بداية ١٩٨٠ وتلكؤ مشاريعها الاقتصادية واخفاقها بوعودها امام الشعب، فضلا عن سوء الاوضاع الزراعية التي توالت في السنوات الاخيرة على بولندا مما اسهم في اضعاف الاقتصاد البولندي بشكل كبير، وذلك ما استغله الاعلام الغربي وقيامه بتحشيد ماكنته الاعلامية لبث الاحباط بين ابناء الشعب البولندي واصفة مجتمعهم بمصطلحات التخلف ووجود فجوة بالمستويات المعيشية بين الكتلتين الغربية والشرقية واستخدام مزيد من سياسة الاحباط بوسائل الاعلام (بريجنسكي ، ١٩٩٩ ، ٢٠-٢١ ؛ Jeffry ٨٦-٨٩ ؛ Martin Myant , 1982 , P99) ١٩٩٢).

ان التصور الذي زرعه الغرب لدى مجتمعات اوربا الشرقية، بان الكتلة الغربية خالية من البطالة ومرفهة وانهم الاكثر ذكاء و تقدما في حين ان الكتلة المناوئة(الشرقية) تمر باعسر الظروف الاقتصادية، هذا ما قوض الروح المعنوية واضعف الايمان بالمبادئ الشيوعية لدى تلك الشعوب، فقد وظف الغرب الماكنة الاعلامية لاطفاء روح الشيوعية لدى تلك الشعوب وان ما ساعد في ذلك السلطات المتعسفة والوضع الاقتصادي المتراجع في بلدان الكتلة الشرقية وعلى رأسها بولندا (زبيغنيو برجنسكي ، ١٩٩٩، ٤١ ؛ Batara ,1994, 150).

أدت الاضطرابات الذي شهدها الوضع الاقتصادية في بولندا إلى تبني الحكومة لاجراءات متسارعة للحد من تفاقم الازمة من خلال انتهاجها سياسة التقشف الاقتصادي، ففي تموز عام ١٩٨٠ رفعت الحكومة اسعار المواد الغذائية وعلى رأسها اللحوم ،الا ان مردودها جاء عكسياً اذ تصاعد استياء الشعب البولندي، تبع ذلك طرد احدى العاملات من مسفن غدانسك آنا فالينتينوفيتش (Anna Walentynowicz)[1]، فكانت بمثابة الشرارة التي اشعلت الاضراب، اذ تبنى زملائها موقفاً مساندا باعلانهم الاضراب عن العمل، الذي سرعان ما تحول إلى انتفاضة اجتاحت المدن البولندية، والتي

(١) آنا فالينتينوفيتش: عاملة بولندية تعمل في مسفن غدانسك، بدأت كعاملة لحام ثم كعاملة رافعة، وقد فصلت من وظيفتها بسبب نشاطها السياسي، بينما ادعت الحكومة انها فصلت لاسباب تأديبية، فكان فصلها الفتيل الذي اشعل الاضرابات البولندية.المصدر: (A Worker, Op.Cit)

اختلفت عن سابقتها، اذ احتل العمال المنتفضين المصانع، ليجد العمال ليخ فاليسا يعتلي السياج وينضم لهم بعد ان طرد من عمله قبل ثمانية اشهر نتيجة محاولته تنظيم نقابة عمال مستقلة، استطاع فاليسا ان يكسب التأييد الشعبي بين المنتفضين بلغته البسيطة وخطاباته التي لامست افكارهم ، وصلت اليهم بكل بساطة، اذ عبر عن المشكلات المعقدة بجمل بسيطة فهمها العمال (Eringer, 1982, 39; Ralph waldo,(n.d); Catalyst of Poland's Crisis, 1980, 21,August).

شهدت مدينة لوبلن(Lublin) اكثر الاضرابات زخماً وتطرفاً في تموز من عام ١٩٨٠، اذ قطع عمال سكك الحديد الخطوط بين بولندا والاتحاد السوفيتي، وكانت القضايا الاقتصادية على رأس مطالبهم فضلاً عن بعض الشؤون سياسية و قانون العمل وغيرها، فكانت مطالبهم بان تكون ايام العمل خمسة ايام في الاسبوع، ورفع الرقابة عن الصحافة والنقابات العمالية التي اعلنت تمردها واضرابها على اوامر الحكومة البولندية (Batara ,1994 ,80 ; Sjursen 1997, 189).

لم تتبنى السلطات البولندية المتمثلة برأس الهرم الرئيس البولندي ادوارد جيريك (Edward Gierek)[1] اي موقف تجاه الاضرابات ساعية لتهدئة المضربين وانهاء الاضرابات باستخدام سياسة التهدئة والوعود التقليدية من قبل المكتب السياسي ، وعلى الرغم من التقارير التي رفعتها الاستخبارات البولندية والتي نبهت إلى خطورة الاضرابات داعية الحكومة إلى تجنب التهديدات المتزايدة التي بات تواجه النظام الشيوعي، لكن التغاضي من السلطات البولندية اتاح الفرصة لقادة الاضرابات بتوسيع نطاقها في معظم المدن البولندية، لتخرج من اطار الاضرابات العمالية إلى اضراب جماعي، بل وتبلورت مطالب المضربين لتصبح اكثر دقة مما كانت عليه عام ١٩٧٦، كان الانقطاع عن العمل

(١) ادوارد جيريك: ابرز القادة الشيوعيين في بولندا، ولد في مدينة بوريباكا الفرنسية عام ١٩١٣، في عائلة بولندية مهاجرة، لينضم هناك إلى الحزب الشيوعي، تم ترحيله من فرنسا على اثر تنظيمه اضرابا عام ١٩٣٤، شارك في صفوف المقاومة البلجيكية المناهضة للنازية في الحرب العالمية الثانية(١٩٩٣ – ١٩٤٥)، كان شخصية فاعلة في النشاط السياسي في مجتمع البولنديين المهاجرين، واسس فرع لحزب العمال البولندي في بلجيكا، تدرج في عدد من المناصب ليصبح السكرتير الاول للحزب بعد احتجاجات عام ١٩٧٠، واستمر في منصبه حتى عام ١٩٨٠، امتازت سياسته بالتركيز على الجانب الاقتصادي بهدف تحسين المستوى المعيشي عبر الاقتراض من الدول الغربية لتمويل المشاريع الصناعية لكن تلك السياسة ساهمت في اغراق البلد بالديون ودخوله بأزمة اقتصادية خانقة نتج عنها اضطرابات واضرابات عمالية، وعلى الرغم من ذلك الا انه اسهم في القضاء على ازمة السكن التي عانت منها بولندا، من خلال بنائها ٢٠٠ الف شقة السكنية وهذا مالم تشهد بولندا مثيله حتى عام ٢٠١٩، اضافة إلى انتاج السيارات وبناء اكبر محطات القطار في اوربا في تلك الفترة، وتوفي جيريك ٢٠٠١.للمزيد من التفصيلات ينظر: (John E. Jessup, 1998, P 238; https://en.wikipedia.org/wiki/Edward_Gierekhttps)

ذات طابع عفوي في بادئ الامر، وحاولت ادارات المصانع امتصاص غضب العمال عن طريق دفع زيادة تعويضية في الاجور تراوحت بين ١٠-١٥% لانهاء الاحتجاجات بصورة اسرع، ومنع اتساع نطاقها ، إلا إن السلطات البولندية اثبتت ومنذ اندلاع الاضرابات عجزها عن احتواء الازمة، فما ان ينتهي اضراب يبدأ اخر، وبات الاتحاد السوفيتي قلقا ايضا مما تشهده بولندا من غليان جماعي يضر بسمعة الشيوعية على الصعيد العالمي لا سيما ان المضربين هم العمال (Welch, A.Kemp , 2008, P233).

وتظافرت جهود اعضاء اللجنة المنظمة للاضرابات التي تكونت من ثلاثة عشر عضواً، كان ابرز مهامها ادارة الاضرابات في منطقة بحر البلطيق اي المدن الساحلية وكان ليخ فاليسا عضوا مميزا بها، ففي الرابع عشر من آب ١٩٨٠، عملوا على توزيع ولصق الملصقات المطالبة بعدد من حقوق العمال كزيادة الرواتب لتعويض ارتفاع الاسعار ماجعل العمال يتجمهرون حول الملصقات في السادسة صباحا من اليوم الرابع عشر من آب ١٩٨٠، فما كان من ادارة المسفن الا ان تتولى زمام المبادرة ساعية للتفاوض مع العمال والحيلولة دون اضرابهم لكن ذلك لم ينجح لان الوعود التي اطلقها المدير كانت بمثابة تهدئة لامتصاص غضب العمال وتثبيط عزيمتهم واندفاعهم نحو فكرة الاضراب (Catalyst of Crisis , Engir ,Robert,1982, P40 ; Poland's, August , 21, 1980, P12).

وفي السياق ،نفسه رجح فاليسا ان تكرار تجربة الاضرابات اضفى للناشطين نضجاً ، وجعلهم اكثر خبرة في ادارة الاحتجاجات ، معلقاً اماله على التغيير الواقعي الذي ستحدثه النقابات المستقلة لا سيما ان المعارضة قد تبلورت على مدى سنوات ، غير انه كان يدرك ان السلطات البولندية بدورها يعلمون ان فاليسا وفريقه من الناشطين وراء حراك العمال ، مما يعني انهم لايملكون الا بضع ساعات قبل الاعتقال (Engir ,1982, 53) .

وبناء على توجيهات فاليسا الذي ترأس اللجنة التنظيمية اندلع الاضراب في الرابع عشر من آب ١٩٨٠ في مسفن غدانسك، لينتقل الاضراب بسرعة الى كافة انحاء البلاد بزعامة فاليسا وشكل المضربون لجنة للتفاوض مع ادارة المسفن، وسببت تلك الاضرابات ضغطاً كبيراً على الحكومة البولندية، مما دفعها لتبني سياسة التهدئة والمراوغة مع اللجنة الممثلة للمضربين، الا ان فاليسا كان حازما في مطالب اللجنة وابى ان يتنازل عن اي جزء من المطالب التي قدمتها والتي خصت العمل والاجور وتشكيل نقابة قانونية رسمية واحترام حرية الفكر والرأي وغيرها من الأمور (Engir ,1982, 40; Myant,1982,105).

سعت السلطات البولندية في الخامس عشر من آب للحد من انتشار الاضرابات والحيلولة دون امتدادها لمدن اخرى، فأتخذت اجراءات صارمة للحيلولة دون توسعها منها حظر الاتصالات في جميع انحاد البلاد وتعطيل جميع وسائلها، ومراوغة ادارة المسفن في التفاوض مع اللجنة الممثلة للمضربين، مما حفز الاخيرة على المطالبة باحضار جهات اعلى من مدير المسفن اي اعضاء يمثلون الحكومة المركزية في وارشو للتفاوض معها وتقديم مجموعة مطالب تمثلت باعادة كلا من آنا وفاليسا إلى عملهما، ورفع الاجور لعمال وموظفي المسفن ومنحهم الحرية الفكرية (Sjurse, 1997 , 190).

واصل ممثلو المضربين عقد اجتماعاتهم بصورة مكثفة في اطار السعي لتنسيق الجهود وتوحيد المواقف لجميع المضربين في المدن البولندية، و تمخضت عن بيان تم اعلانه في السابع عشر من آب ١٩٨٠، اشار إلى الجهود الرامية لتنسيق مطالب العمال في جميع المؤسسات المضربة وتوحيدها، اوضح البيان فكرة طرح المطالب المشتركة والتي تمثل جميع العمال مع استمرارية الاضراب لحين تسوية جميع المطالب التي سيتم طرحها (حوا و الحاج ، ١٩٨١ ، ٢١٦ – ٢١٧ ؛ MacEachin ,2000 4-5).

واثر الجهود التي بذلها فاليسا في مسعاه كمفاوض مع عدد من زملائه في اللجنة الممثلة عن المضربين، وافقت الحكومة على مطالبهم، مبدية تعاونها للوصول الى تسوية مرضية للعمال، ونتيجة لذلك فقد بدأ العمال بالتراجع عن الاضراب، الا ان الزيادة في الاجور التي اقرتها الحكومة جاءت محدودة وطفيفة، الامر الذي اسهم في تدهور المشهد الداخلي ودفع الحركة العمالية نحو مزيد من التصعيد، فاندفعوا بغضب اكبر من ذي قبل وانضم اليهم عمال النقل والمصانع الاخرى إذ عدوا موافقته بمثابة خيانة لهم فاخذوا يرددون عبر المايكرفون هتافات وصفته بالخائن وكتبوا على جدران المسفن كلمة "خائن"، فما كان امام فاليسا الا التراجع عن التسوية والانضمام الى العمال مرة اخرى لمواصلة الاضراب (Touriaine and others , 1983, 39 ; MacEachin ,2000, 4-5 ; Welch , 2008, 333 ; Paczkowski and Byrne , Pxxx -8)

ويظهر ذلك ان العمال نظروا إلى تصرف فاليسا بوصفه تعبيراً عن نزعة فردية اذ رأوا انه حقق مصلحته الشخصية بالعودة للعمل في الميناء، متجاهلا مطالبهم الجماعية، مما ادى إلى تصاعد حالة الغضب والاستياء في اوساط العمال.

وبانضمام فاليسا الى الاضراب مرة اخرى نادى على العمال بمكبرات الصوت، لكن العمال انقسموا نصفين جزء لم يستمع له وتجاهله وغادروا، والجزء الآخر عادوا ليتم انتخاب لجنة جديدة ممثلة عن

المضربين، وكتبت قائمة من ٢١ مطلبا كان اهم ما ورد فيها (للمزيد من التفصيلات ينظر: (Mephlet, n.d 5)

١. قبول النقابات العمالية الحرة المستقلة عن الحزب الشيوعي وفقاً لاتفاقيةرقم (٨٧) لمنظمة العمل الدولية[١].

٢. ضمان الحق في الاضراب وضمان امن المضربين

٣. إطلاق سراح جميع السجناء السياسيين ووقف قمع الشعب.

٤. اتاحة المعلومات لوسائل الاعلام حول تشكيل لجنة الاضراب بين المصانع ونشر مطالبها

٥. اتخاذ اجراءات تخرج البلاد من أزمتها.

تم اختيار اعضاء اللجنة من العمال الاكبر سناً لكن فاليسا بقي ضمن اللجنة، وكانت المطالب الجديدة بمثابة برنامج يطمح للتغيير السياسي الذي طوروه قادة المعارضة خلال عامي ١٩٧٨-١٩٧٩، وبهذا تحولت الاضرابات الى حركة وطنية بعد سلسلة الاحداث وتفاقم حالة الاضرابات في معظم المدن البولندية، فكتب فاليسا عن هذه اللحظة بان" التضامن نشأ في تلك اللحظة بالذات عندما تطور اضراب عمال المسفن الى اضراب يشمل المصانع والشركات التجارية ايضا".Alain. p. 1980, , others) 12)

حازت الاضرابات على دعماً كنسياً مادياً ومعنوياً عن طرق تمويل المضربين وقادة الاضراب، ومعنوياً من خلال تواجدها في مواقع الاضراب لاسيما اضراب مسفن لينين في غدانسك وقد لقى ذلك تأييدا شعبياً بين المضربين الذين عملوا على وضع الصلبان والزهور على بوابات المسفن وصور البابا يوحنا بولس الثاني، فضلا عن اقامة قداسا داخل فناء المسفن و توزيع الطعام ووضعوا صليبا كنصب تذكاري للعمال الذين ازهقت ارواحهم في اضراب ١٩٧٠ واعطى القس الذي يمثل الكنيسة، شارة مادونا السوداء[٢] لفاليسا، الذي بدوره الذي بقي يرتديها طوال مدة الاضراب، واصبح هنريك يونكوفسكي[٣]

---

(١) اتفاقية منظمة العمل الدولي رقم ٧٨ وتسمى ايضاً اتفاقية الحرية النقابية وحماية حق التنظيم ١٩٤٨ وتعد هذه الاتفاقية من اهم الاتفاقيات الاساسية في مجال حقوق العمال، تضمن للعمال حق تكوين النقابات والانضمام اليها بحرية دون تدخل او قيود تعسفية. للمزيد من التفصيلات ينظر النص الاصلي للاتفاقية: https://www.ilo.org

(٢) تشير شارة مادونا السوداء الى المسيح او امه السيدة مريم العذراء وهو رمز للديانة المسيحية. للمزيد من التفصيلات ينظر : https://www.britannica.com/topic/The-Black-Madonna

(٣) هنريك يونكوفسكي: كاهن بولندي ولد عام ١٩٣٥ومن الشخصيات التي كانت داعمة لحركة التضامن، لعب دوراً دينياً وداعماً للحركة العمالية اذ قدم الدعم المعنوي والديني للعمال، وكان له نشاطا دينيا في الاحداث التي قام بها=

Henryk Jankowski مستشارا رئيسيا لفاليسا الذي يقود لجنة الاضراب ، وبدء المضربون ببناء علاقة وثيقة مع فاليسا، الذي استطاع باسلوبه البسيط ان يلامس مشاعر العمال وعقائدهم وكان يقوم بالصلاة كل ليلة معهم ، ووضح لهم بانه ليس زعيمهم وانما هو في خدمتهم (Documentary film,(n.d) ; Andrzej Paczkowski and Malcolm Byrne , 2007 , Pxxx).

وظف فاليسا العاطفة الدينية لتعزيز شعبيته وكسب تأييدهم، وفي المقابل فان مشاركة رجال في الاضرابات ومنحهم لفاليسا رمزية دينية عكس دعماً معنوياً للحركة الاحتجاجية ورسخ مكانته بوصفه قائد لها.

احكم فاليسا قبضته على قيادة العمال من خلال التواصل معهم وسماعهم والانصات الى مشاكلهم الشخصية ايضا، مما جعله شخصية مستبده في نظر ممثلي المضربين الذين وصفوه بالغرور، حتى بالقرارات التي يجب ان تكون مشتركة مع اعضاء اللجنة كان هو من يسيطر عليها ويفرض رأيه، لكنه من ناحية اخرى اقترح الاستعانة بمستشارين اكاديميين لمساعدة لجنة الاضراب، الا ان زملائه في اللجنة كانوا رافضين خشية من ان يأتي تدخل المستشاريين لصالح الحكومة البولندية ومن ثم يخفف من زخم الاضراب العمالي، لكن فاليسا دافع عن فكرته بان المستشاريين سيضيفون للجنة من خلال خبرتهم ما تفتقر اللجنة له، وبهذا فان فاليسا استطاع من خلال علاقته بالكنيسة ودعمه للمستشاريين الاكاديميين وتواجدهم في لجنة الاضراب ان يوحد قوى المعارضة من العمال والكنيسة والمثقفين وبهذا ارضى معظم الشعب البولندي)حوا و الحاج ، 1981، ص 215؛ (1982, P90 Myant.

حصل فاليسا على دعم من الولايات المتحدة الامريكة التي كان لها اليد الطولى في تأجيج الوضع في اوربا الشرقية وبولندا بشكل خاص، اذ ابدت الادارة الامريكية دعما لفاليسا زعيم المضربين، مستفدة من العامل الديني ومكانة البابا ذو الاصول البولندي بذلك، وتظافرت جهود البابا المسيحي والولايات المتحدة للتنسيق في دعم الاضرابات وتعزيز فرص نجاحها وتحقيق اهدافها، في الوقت نفسه سعوا إلى تفادي احتمال الغزو السوفيتي لبولندا، بعد ان خيم شبح خيار التدخل العسكري السوفيتي على المشهد البولندي، لاسيما عقب قيام السوفيت بحشد خمس عشرة فرقة من قواتهم على حدودهم مع بولندا، في الوقت ذاته كان هناك تواصل بين فاليسا والادارة الامريكية والبابا بهدف توجيه حركة

=العمال البولنديين، توفي عام ٢٠١٠. المصدر: (Krzysztof Rakowski via, study 128, search, https://contestedhistories.org/wp-content/uploads/Poland_-Henryk-Jankowski-Statue-in-Gdansk-Published-1.pdf)

التضامن عبر زعيمها والعمل على ضبط الخطاب المعادي للاتحاد السوفيتي مع تخفيف حدة المواقف التي تبناها المضربون لتجنب تصعيد ينتج عنه هجوم سوفيتي، فابلغت الادارة الامريكية فاليسا بضرورة تفويت الفرصة على السوفيت وعدم منحهم اي ذريعة لعبور الحدود (Lobianco (n.d) ;Luce, 2025, April .27).

واستجابة للرسالة التي وصلت لفاليسا من الولايات المتحدة الامريكة والبابا، قام فاليسا عشية المفاوضات مع الوفد الحكومي المرسل الى غدانسك، بتقديم استقالته من اللجنة الممثلة للاضرابات وذلك لاسباب غير مقنعه، اذ ادعى بانه يخشى التصعيد اكثر والوصول الى اراقة الدماء كما ان صراعاته مع السلطات ربما لن تفيد مسار المفاوضات في التوصل الى اتفاق مع الوفد الحكومي المفاوض حيث يكون تأثيره سلبي على سير المفاوضات، الا ان اللجنة رفضت استقالته (Lech Wałęsa TV interview, n.d)).

وفي مقابلة اجراها فاليسا مع صحيفة نيويورك تايمز اكد فيها ان الهدف الذي ظل ثابتاً لديه هو القضاء على الشيوعية مشيراً إلى اعتماده على الدعم الغربي خاصة الدعم الذي قدمته الولايات المتحدة الامريكية (interview, (n.d Lech Wałęsa TV)). ويفهم من ذلك ان دور فاليسا قد تداخل مع حسابات المعسكر الرأسمالي الذي استفاد من الحركات المعارضة داخل الكتلة الشيوعية بوصفها احد الوسائل المؤدية إلى تقويض بنيتها من الداخل.

بوصول الوفد الحكومي الى غدانسك ودخولهم المسفن مركز الاضرابات حاول فاليسا تهدئة العمال المنتفضين الذين هاجموا سيارات الوفد الحكومي، لتبدأ المفاوضات بعدها بين الطرفين والتي بداها فاليسا بتوبيخ الوفد الحكومي بشأن المحاكمات الصورية التي تعرض لها هو واي معارض للحكم ولاسيما نشطاء لجنة الدفاع عن العمال الا ان الوفد الحكومي زعم بان بولندا خالية من السجناء السياسيين، غير ان فاليسا بين لهم بان الشعب البولندي يعرف تلك الامور حتى وان لم تكن حديث الاعلام، وبالانتقال الى مطالب العمال التي عرضت على الوفد فقد رفض الاخير جميع المطالب، الا ان وقوف فاليسا بقوة وحزم بوجه الوفد منح زملائه زخما ووشجاعة (2022), ARTE ; 4 ,(n.d), Pa Mephlet)).

استمرت المفاوضات عدة ايام وترافق ذلك مع استمرار تجمع العمال المضربين الذين كانوا يفترشون الارض وينامون في مواقع الاضراب، وكان لفاليسا حضور ملفت بينهم، ورؤيته يمازحهم ويتجاذب اطراف الحديث معهم، مما ترك انطباعاً وتأثيرا كبيرا في نفوسهم (Tom Lobianco ، (n.d); Sjursen,1997, 194).

وفي سياق المباحثات بين الجانبين رفض الوفد الحكومي مطالب لجنة الاضرابات، زاعمين ان مطالبهم لن توافق عليها وارشو وموسكو فمثلا تشكيل نقابات مستقلة تتضارب مع ايديولوجية الحكومة والحزب الحاكم الذي يحكم باسم العمال باعتباره حزب اشتراكي يمثل الطبقة العاملة، وطلبوا ان تشكل نقابات جديدة تحت ادارة الحكومة البولندية، هذا مارفضته لجنة الاضرابات التي اصرت على استقلال النقابات الجديدة المزمع انشائها، واشتدت المناقشات في المفاوضات بشأن هذا الامر، فكان لفاليسا دورا بتهدئة الاطراف المتفاوضة، طالبا من زملائه ان يطرحوا الامر على طاولة التصويت والانتخابات، وان ذلك لن يضعف الضربة التي تلقتها الحكومة حتى لو كانت تشرف على النقابات الجديدة، الا ان اغلب اعضاء اللجنة الممثلة للاضراب لم يوافقوا، وبهذا باءت محاولات فاليسا بالفشل، وارتفعت شحنة الغضب فيما بين ممثلو الاضرابات ، و عندما حدثت الخلافات بين اعضاء لجنة ممثلي الاضرابات تقوى موقف الحكومة مما شجعها على الاستهانة بعدد من المطالب العمالية المطروحة على طاولة التفاوض (Tom Lobianco , (n.d); Sjursen,1997, 194).

في الثامن والعشرين من آب ١٩٨٠ تم التوصل الى اتفاق لنقطة الخلاف وابدا الوفد الحكومي ستجابه لعدد من المطالب العمالية منها حق الاضراب وحرية الصحافة، ولكن تغيب الوفد عن اجتماعات التفاوض في التاسع والعشرين من آب، وبثت اشاعات بان الجيش سيهاجم المضربين ليفض الاضرابات باساليب قمعية، الا ان المضربين واصلوا اضرابهم وواجهوا تلك الاشاعات واصروا على مطالبهم وتمسكوا باللجنة الممثلة لهم ، محققين بذلك نجاحاً كبيراً لمطالبهم مما دفع بالوفد الحكومي إلى اعلان موافقة الحكومة على الاتفاقية في الثلاثين من آب ١٩٨٠ ((Lech Walesa TV interview, (n.d) (Sjursen,1997, 65;)

وردا على الشائعات التي بثت بين العمال من قبل جهاز الاستخبارات البولندي الذي وظف ذلك لتثبيط معنويات واندفاع العمال الذين كانوا يأملون وينتظرون التغيير، كان هناك ردا للولايات المتحدة الامريكة والفاتيكان بلهجة تحذيرية بان بولندا ليست هنغاريا او تشيكسلوفاكيا، وان الجيش السوفيتي سيجابه مقاومة شديدة من لدن البولنديين كما انهم سيحظون بدعم الكنيسة اذا ما وقع اي حدث، وان فاليسا هو ابنهم البار وهو من يحرك الجماهير العمالية، بل ولوحوا لهم بانقلاب ضباط الجيش البولندي ضد القوات السوفيتية، وفي الوقت نفسه شكل مستشار الامن القومي للرئيس الامريكي بريجنسكي فريقا ليبقي الادارة الامريكية على اطلاع تام بالتطورات في الشارع البولندي، بل واكد الرئيس جيمي

كارتر[١] Jimm Cartar تحذيراته لموسكو على غرار تصاعد حدة التوتر في بولندا (Domber, 2008, P:28; P.C.R.E.E, 1981,6 February).

من جانب آخر وفي خضم التصادمات واختلاف الاراء في الداخل البولندي، غادر فاليسا قاعة المفاوضات، وخرج مخاطبا الاف العمال بشكل عفوي، عندما كانوا ينتظرون نتائج التفاوضات وبدء خطابه بتعاطف مع المضربين قائلا "سنذهب جميعا الى منازلنا ونستحم ونذهب الى الفراش وغداً في وقت لاحق سيكون لبولندا المزيد من المواطنين، والآن دعونا نغني النشيد الوطني لبلدنا هذا"، ومن ثم وجههم بقوله " دعونا نغني ترنيمة دينية لله لاننا الآن لا نستطيع الذهاب الى ابعد من ذلك بدون الله " (ARTE ,(2022 ;Touriaine and others , 1983, 40 ; Goldfarb , 1992, 91; Lech Walesa TV interview,(n.d); Bartkowski,2009 , 4). لطالما ركز فاليسافي خطاباته على الحس الديني حاثا البولنديين على التمسك الديني، وكان ذلك توظيفا ناجحاً في استقطاب شعبية اكبر.

وفي ظهيرة الحادي والثلاثون من آب ١٩٨٠، وقع وفد الحكومة على النقاط المتفق عليها وسلمت الى لجنة ممثلو الاضرابات، ليلقي على اثره فاليسا خطابه للجماهير مبينا لهم بانهم حصلوا على كل ما بوسعهم الوصول اليه مقارنة بالوضع الحالي، وان ما تبقى من مطالب سيحصلون عليها في الوقت المناسب معللا ذلك بحصولهم على اهم مطلب هو ادارة النقابات العمالية بشكل مستقل، وهذا ضمانا كبيرا لمستقبل العمال البولنديين، ليتوجه الوفد الحكومي وممثلو الاضرابات الى قاعات المؤتمر وامام كاميرات الاعلام تم توقيع اتفاقية غدانسك، وقدم فاليسا شكره للمضربين واللجنة قائلا " لقد قاتلنا، ليس من اجل انفسنا او مصالحنا الخاصة، بل من اجل البلد ومن اجلكم جميعا، والآن بنفس الاصرار والشجاعة التي اظهرناها في الاضراب سنعود الى العمل اعتباراً من الغد، وتبدأ حياة جديدة لنقابتنا ودعونا نحرص على ان تبقى مستقلة تعمل من اجلنا جميعا ولصالح البلد من اجل بولندا، اعلن ان الاضراب قد انتهى " (ARTE ,(2022؛ Touriaine and others ، ١٩٨٣، ٤٠ ؛ Goldfarb , 1992, 91; Lech Walesa TV interview,(n.d); Bartkowski,2009 , 4) يبدو ان فاليسا اراد

(١) جيمي كارتر : الرئيس التاسع والثلاثون للولايات المتحدة الامريكية (١٩٧٧-١٩٨١) ، ولد عام ١٩٢٤ في ولاية جورجيا الامريكية اكمل دراسته فيها والتحق بكلية جورجيا الجنوبية الغربية ومن ثم معهد جورجيا للتكنلوجيا ، ليلتحق بالاكاديمية البحرية بعد ذلك ليتخرج منها عام ١٩٤٣ حاصلا على بكلوريوس في العلوم ، اصبح ضابطاص في البحرية الامريكية متخصصاً في الغواصات النووية ، اشتهر بتبنيه سياسة حقوق الانسان في الخارجية ، وابرام اتفاقية كامب ديفد بين مصر والكيان الاسرائيلي عام ١٩٧٨ ، حاز على جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٠ تقديراً لجهوده الانسانية ، توفي عام ٢٠٢٤ . للمزيد من التفصيلات ينظر : Zelizer J. E ,2010, 1-15.

ان يوضح اتهام زملائه له بالدكتاتورية فاوضح " حتى ان كنت ابدو دكتاتورا، الا اني لطالما شعرت بالمسؤولية عن الدماء التي اريقت في كانون الاول ١٩٧٠ وان سبب ذلك كانت قيادتي غير الكفوؤة " (kaya , 1989, 67). لم يكن تبرير فاليسا لدكتاتوريته في اتخاذ القرارات داخل لجنة الاضرابات وفي تزعم الاضرابات مقنعا، الا ان توظيفه العامل الديني اسهم في تغطية بعض من سلبياته.

بات المضربين البولنديين يعيشون تفاصيل نجاحهم من خلال تبني اجراءات تخص النقابة، اذ خططوا بشكل دقيق لتنظيم عملهم ونقابتهم، ففي السابع عشر من تشرين الاول اجروا انتخاب (٣٠) ممثلا من لجان الاضراب ممثلة لجميع مصانع البلد، مؤسسين بذلك (نقابة التضامن المستقلة)، مشكلين اللجنة التنسيقية للنقابة، التي بدأت بأنشاء مقرا للنقابة متخذة من فندق "مورسكي" Morski في غدانسك مقرا لها، و كان اسم التضامن مستوحى من اسم النشرة اليومية التي اصدرها المضربين والتي لعبت دوراً في تحريك الاضرابات، وبانتخاب فاليسا رئيسا للجنة الوطنية المؤقتة للنقابة، تزاحم الصحفيون في بابه ونقلوا خطاباته التي اصبحت حديث الوكالات الاعلامية العالمية، كما استلم عدد من الدعوات من زعماء سياسيين من الولايات المتحدة الامريكية وفرنسا واليابان وغيرها مما خلق ارباكا لدى السلطات الشيوعية البولندية والسوفيتية، اذ لم يكن الشيوعيين يهابون ظهور النقابة بحد ذاتها وانما حجمها وشعبيتها وديناميكيتها، فكانت ابعاد التضامن حاسمة في تحديد استراتيجيات السلطة (National Security Archive Cold War Reader , 2007 ,11).

كشفت هذه الدعوات والاتصالات التي جمعت بين فاليسا و المعسكر الغربي عن حجم التداخل بين حركة المعارضة في بولندا والمصالح الغربية، الامر الذي عزز ما اشارت اليه الوثائق والصحف والدراسات من وجود دعم غربي لحركة التضامن في مواجهة النظام الشيوعي، كذلك لم تبدي الولايات المتحدة انكاراً لاهتمامها بالاحداث البولندية بل تناولت وسائل الاعلام لا سيما صحيفة نيويورك تايمز، تطورات الحركة ودور قيادتها بصورة مكثفة، وبناء على ذلك ادرك كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدةالامريكية ان اي تحول في المشهد البولندي من شأنه ان ينعكس على طبيعة التوازن الاستراتيجي القائم بين المعسكرين.

وعلى الوتيرة نفسها فقد توافدت مجاميع من البولنديين من جميع انحاء البلاد للحصول على استشارة حول كيفية فتح فروع للنقابة في المدن الاخرى، وكان فاليسا من جانبه يجد ان تلك الوفود لنقابة التضامن فرصة لتوحيد البلاد تحت راية التضامن وان التحدث لهم او للشعب البولندي سيرسخ القيم التي

تتبناها التضامن فضلاً عن برنامجها السياسي والاقتصادي والتي وجد البولنديين ان فاليسا يجسد تلك القيم (Andrzej and Malcolm ,2007, 12).

ويطرح هذا الامر تساؤلاً بشأن قدرة فاليسا بوصفة عاملا للكهرباء في مسفن لينين، على صياغة برامج سياسية واقتصادية خاصة للنقابة، خصوصاً مع قيامه بتهميش اعضاء لجنة الدفاع عن العمال الذين شكلوا النخبة الفكرية والثقافية الداعمة للاضرابات، يضاف إلى ذلك ما اتسم به من اسلوب قيادي ذات نزعة فردية وهيمنة واضحة وتجاهل لآراء عدد من اعضاء اللجنة النقابية.

ان ما يشير الى تعاونه مع الحكومة هو انتقاد زملائه له ولتحسن وضعه المعيشي بعد ان كان عاطلا عن العمل، اصبح يعمل كرئيس للنقابة ومنحته الحكومة شقة جديدة وكبيرة في حي راق في غدانسك بعد وقت قصير من الاضراب، هذا ما اعاد شبح الخيانة ليخيم على حياة فاليسا الذي اتهم بانه متواطئ مع الحكومة لاسيما مع تمييزه بالمعاملة حين كان رهن الاعتقال، اذ اعترف بنفسه انه كان له طاهي خاص في المعتقل واعتقل في فيلا تابعة للسلطات (Lech Walesa TV interview, (n.d)).

من جانب آخر فان ليخ فاليسا احاط نفسه بمستشارين من رجال دين وخبراء من خارج الاضراب، اسهم ذلك في بث الشك في نفوس زملائه اعضاء اللجنة من ان فاليسا قدم تنازلات بعد وقت قصير وذهب بجهود المضربين للهباء، وطالبوه بالتنحي عن زعامة النقابة لصالح احد زملائه الذي صنف بأنه الاكفأ، لكن فاليسا رفض مطلبهم مستندا بذلك على شعبيته (وحبه الذي اودعه في قلوب العمال) من خلال تواجده وخطاباته، وبالفعل وقع ما خشي اعضاء النقابة منه، اذ تراجعت الحكومة عن عدد من بنود الاتفاقية، واستمرت الخلافات بين فاليسا وزملائه لتصل الى منعطف خطير (sierpnia 1980...", as cited in Instytut Pamięci Narodowej, (n.d)).

ويستدل على تواطئ فاليسا من احداث الرابع والعشرين من تشرين الاول حين سعى الحزب الحاكم إلى اعادة تأكيد سلطته عبر اثارةالمواجهة مع حركة التضامن في محكمة وارشو واثناء التصديق على اتفاقية غدانسك من قبل المحكمة، وبالرغم من صدور موافقة القضاء على قوانين النقابة، الا انه اضاف فقرة تمثلت بان النظام الاساسي يتطلب بعض التعديلات بما في ذلك الاتحاد مع النقابات العمالية الحكومية، ليتسنى للحكومة انتهاك الدور القيادي للنقابة ويمكن حلها لانتهاكها القوانين، فجاء على اثره غضب فاليسا وزملائه الا ان ردهم كان معتدلا، اذ طالبوا بالاستئناف امام المحكمة، وقد وافق قادة التضامن في اقاليم بولندا على مقترح فاليسا بالاكتفاء بذلك، الا ان اعضاء اللجنة الوطنية ارادوا اعلان الاضراب العام، وهددوا به اذا لم يتم تسجيل التضامن بشكل قانوني دون شروط، فانهم سوف يستأنفون

الاضرابات، وبالفعل بدأت اللجنة بتوزيع خطط الاضراب في جميع انحاء بولندا الا انها الغيت بعد ان اصدرت المحكمة تسوية في العاشر من تشرين الثاني (Agency , 1980 Centeral Intelligince).

وهكذا بات هناك (٢٣) نقابة عمالية في البلاد تابعة للحزب الحاكم تضم (٥) ملايين عضو، يقابلها التضامن الذي تضم (٦) ملايين عضو، ذلك ما ثبط من عزيمة السلطات البولندية الساعية لاستعادة سلطتها على النقابات وتوحيدها، وبالمقابل لم تعترف التضامن بالنقابات العمالية الحكومية، بل حاولت استبعاد الاعضاء المشكوك بولائهم للتضامن (خشية من جواسيس السلطة البولندية المزروعة بينهم)، عن أي مناصب ادارية في التنظيم الداخلي لها، وهذا ما انبثق عنه العديد من الخلافات الداخلية والانشقاقات، لان ادارة التضامن وعلى رأسهم فاليسا، ارادوا ان يقصوا الذين لديهم ازدواجية الانتماء. (Narodowej, (Nr 117 . 1980 grudzień ... , as cited in Instytut Pamięci)

((n.d)ربما كانت تلك الخطوة من فاليسا هي مخطط لها لابعاد الشبهات عن نفسه

عجلت التحديات التي واجهت الطرفين من عودة الاضطرابات في بولندا لا سيما بعد اعتقال عددمن الناشطين، فعادت الاضرابات في جميع انحاء البلاد وهنا بدأت نقابة التضامن تفقد سيطرتها على المضربين، في حين رأى فاليسا ان يتم التعامل مع تلك التطورات بالحل السلمي التفاوضي، وهذا ما اكد عليه الدعم الدولي والكنيسة، من جانب آخر كانت ادارة التصامن مدركة ان اتفاقية غدانسك لم تتطرق إلى فرض قيود على الشرطة والقوات الامنية في النهج الاساليب القمعية التي تتبعها ضد المضربين، وبتواتر الاحداث افلتت ادارة التضامن زمام السيطرة على اعضائها فبدأت التظاهرات تندلع قبل الموعد المحدد من ادارة التضامن، ولم يفض العمال اضرابهم حتى تصدر الحكومة موافقتها على اجراء محادثات بشأن اجراءات الشرطة ومن جانب آخر دعت السلطات فاليسا لوضع حد للاضرابات (Agency, 1980 Centeral Intelligince).

ان الخطر الذي شعر به السوفيت من جراء تصاعد وتيرة الاضرابات ومطالبهم التي اوقدت نار (الفتنة) وخوف الاتحاد السوفيتي من انتشارها في الكتلة الاشتراكية، دفعته لتبني خطوات احترازية لمراقبة الوضع البولندي عن كثب بواسطة استنفار الاستخبارات البولندية واجهزت الدول الاشتراكية المجاورة لبولندا التي كانت تنقل صورة مركزة ودقيقة من موقع الحدث (1980 sierpian’ 12... , as cited in Instytut Pamięci).

ونظراً لخشية الولايات المتحدة الامريكية من التدخل السوفيتي العسكري، ومن ثم احكام سيطرتهم على بولندا وارضاخها للشيوعية وتفويت الفرصة على المعسكر الرأسمالي من ايجاد موطئ قدم لهم في

وارشو مركز حلف وارشو [١] (Warsaw Treaty Organization)، ما جعلها تبث تقارير واخبار عبر الاذاعات التي تستهدف دول اوربا الشرقية، بان القوات السوفيتية على الحدود البولندية وان على المضربين والمعارضة التهدئة لتجنب ذلك التدخل (kaya, 1989, 73–74) على الرغم من ان حركة التضامن نشأت في ظل ظروف وازمات داخلية ومطالب عمالية، فإن حجم الدعم الغربي المقدم يوضح مدى تأثير الولايات المتحدة في توجيه مسارها.

اثرت الاضرابات العمالية بشكل خطير على الصناعة البولندية وشلت جزء من اقتصاد البلاد ومن ثم زادت من حدة الازمة الاقتصادية، مما نتج عنه انقساماً في الصف الداخلي لحزب العمال البولندي الحاكم، فكان جزء يريد تنفيذ مطالب العمال وانقاذ البلد من منزلق خطير، في حين ذهب آخرون الى استخدام القمع ضد الاضرابات لاسكاتهم، لان تلبية مطالبهم هو تشجيع على المزيد من المطالب، وكان امتثال الحكومة لمطالب العمال الواحد والعشرون هي نجاح للعمال وتحقيق لخطط منظمي الاضرابات، اذ عد فاليسا ذلك النجاح هو من صنعه (Nr 117 . 1980 grudzień 26... , as cited in Instytut Pamięci,1980; Paczkowski and Byrne, 2007, 142).

على اثر تلك الاحداث طُرحت الازمة البولندية على طاولة حلف وارشو عندما عقد اجتماعه في الخامس من كانون الاول ١٩٨٠ في موسكو، ووبخ ليونيد برجنيف (Leonid Brezhnev)[٢]

---

(١) حلف وارشو: تحالف عسكري وسياسي تأسس في الرابع عشر من آيار عام ١٩٥٥ ضم دول المعسكر الاشتراكي في اوربا الشرقية بقيادة الاتحاد السوفيتي، بهدف تعزيز التعاون الدفاعي المشترك ومواجهة النفوذ الغربي المتمثل بحلف شمال الاطلسي خلال مرحلة الحرب الباردة وكان الحلف اداة رئيسة لترسيخ الهيمنة السوفيتية على دول اوربا الشرقية، فضلا عن كونه اطاراً لتنظيم السياسات الامنية للدول الاعضاء انتهى الحلف رسميا بانهيار الانظمة الشيوعية في اوربا الغربية وتفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١.المصدر للمزيد من التفصيلات ينظر: (العابدي، ٢٠١٩،ص٥٥– ٦٣ ؛ https://www.britannica.com)

(٢) ليونيد برجنيف: شخصية سياسية سوفيتية، ولد في التاسع عشر من كانون الاول ١٩٠٦، في مدينة كامنسكوي (باوكرانيا حاليا) في اسرة عمالية بسيطة، تخرج من كلية الهندسة عام ١٩٢٧، وعمل مهندسا ومساحاً للاراضي وكان له دوراً في تأسيس التعاونيات الزراعية ومصادرة ممتلكات الملاك، ودرس التعدين ايضاً، وفي عام ١٩٣١ التحق بالحزب الشيوعي ليبدأ مسيرته السياسية اذ تدرج خلالها في عدد من المناصب، ففي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩–١٩٤٥) عمل في مهام سياسية داخل الجيش السوفيتي، تولى مناصب ادارية في الحزب في مولدوفا واوكرانيا، ليصبح بعد ذلك سكرتيراً للحزب عام ١٩٥٠، انضم إلى المكتب السياسي للحزب عام ١٩٥٧، وفي عام ١٩٧٠ وصل إلى قمة السلطة في الاتحاد السوفيتي عندما اصبح الأمين العام للحزب الشيوعي، وهو المنصب الذي جعله الحاكم الفعلي للاتحاد السوفيتي حتى وفاته عام ١٩٨٢، تبنى برجنيف سياسة خاصة عرفت "بمبدأ برجنيف"، التي اكدت حق الاتحاد=

الاعضاء الممثلين لبولندا وعزا غليان الشارع البولندي الى انقسام الصف داخل حزب العمال البولندي وتنخر تنظيمه ووحدته، وطالبت موسكو بدورها حزب العمال البولندي باتخاذ مواقف اكثر صرامة ضد المضربين واعمال الشغب التي شهدتها بولندا، حاثة الحزب على استعادة تنظيمه ووحدته، كما دعاهم إلى امتصاص غضب الشعب والعمال من خلال اجراء محاداثات معهم ومع الكنيسة بل والائتلاف مع التضامن اذا ما تطلب الامر (Paczkowski and Byrne, 2007, 142).

يتضح من مجمل التطورات التي شهدتها بولندا ان تلك الاحداث شكلت نقطة تحول مهمة في تاريخ بولندا، وكشفت عن عمق الازمة التي يواجهها النظام الشيوعي، كما اسهمت تلك التطورات في بروز حركة التضامن بوصفها قوة مؤثرة استطاعت توحيد مطالب العمال في اطار تنظيمي يتضمن ابعاد سياسية تجاوزت الجانب النقابي، الامر الذي انعكس على طبيعة الصراع بين المعسكرين وجعل من بولندا احدى ساحات التنافس الاستراتيجي بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي.

ثالثاً: موقف فاليسا من الاضطرابات الداخلية في بولندا واعلان الحكم العسكري ١٩٨١

بحلول عام ١٩٨١ شهدت بولندا تصاعد وتيرة الازمة الاقتصادية، وبالمقابل رفعت التضامن سقف مطامحها لتغيير الواقع البولندي، في حين طلبت الحكومة البولندية من ادارة التضامن ايقاف العمال عن الاضراب والسيطرة على تلك الفوضى والتفاوض حول طلباتهم دون النزول الى الشارع والانتفاض، جاء رد الادارة بانها سوف تحقق للحكومة ذلك المطلب اذا ما منحتها جزء من المسؤولية في تحديد السياسة الاقتصادية للبلاد، هذا ما لم تقبله الحكومة الشيوعية البولندية، عادّة ذلك بمثابة تحدي للدور القيادي لحزب العمال البولندي، فاحتدم الصراع ووجد فاليسا نفسه في منتصفه . (Nr 117 1980 grudzień 26 , as cited in Instytut Pamięci,1980).

في كانون الثاني ١٩٨١ استقبل البابا يوحنا بولس الثاني ليخ فاليسا في الفاتيكان وحظي الاخير بحفاوة الاستقبال، وتمخض الاجتماع عن حصول نقابة التضامن على تأييد ودعم البابا واكد فاليسا على النتائج المترتبة وفق ذلك وان ذلك الدعم يحض الشعب البولندي على المطالبة بحقوقه وعلى رأسها حق تكوين جمعيات حرة، وابلغ البابا يوحنا فاليسا بان مشروعه في تأسيس التضامن كان حجر الزاوية في المناطق الساحلية وفي مراكز مدن صناعية اخرى في بولندا، كان دافعا مشتركاً بين الكنيسة والتضامن لتعزيز الاصلاح الاخلاقي للمجتمع البولندي ((waldo (n.d).

=السوفيتي في التدخل لحماية الانظمة الاشتراكية في دول الكتلة الشرقية. للمزيد من التفصيلات ينظر:)برجنيف، 1978، https://www.britannica.com/biography/Leonid-Ilich-Brezhnev)

لم يكن لدى الكتلة الشرقية حلولاً جذرية للأزمة، لأن الوضع البولندي كالنار التي اضرمت ومن الممكن ان تصل الى الدول الاشتراكية الأخرى، وذلك ما كان يخشاه رؤساء وقادة تلك الدول، بل والاكثر من ذلك فقد طالبتهم موسكو بتوفير الدعم الاقتصادي لبولندا في ازمتها تلك، كحل لتخفيف حدة الازمة، لكن ذلك شكل ضغطاً على دول حلف وارشو، وذهبت موسكو إلى ابعد من ذلك حين ابلغتهم بأن جميع واردات النفط ستتحول الى بولندا دون غيرها من الدول، للحيلولة دون وقوع انهيار اقتصادي وسعيا لاخماد الغليان في البلد (Dmitrukowski ,2009, 12).

من جانب آخر وجهت السلطات البولندية اصابع الاتهام للتضامن مدعية ان من يحركها هم اعداء الاشتراكية و الراغبين بهز الانظمة الشيوعية وزعزعت استقرارها السياسي والاقتصادي، محملة العمال مسؤولية زيادة سوء الازمة الاقتصادية بسبب نقص الانتاج الصناعي والتخلف عن سداد ديون القروض الامريكية، خاصة عمال مناجم الفحم، في حين القت التضامن اللوم على الحزب الحاكم محملة اياه المسؤولية الكاملة باعتباره المهندس الوحيد للازمة (Dmitrukowski ,2009, 12).

اتهم الاتحاد السوفيتي الكتلة الغربية وعلى راسها الولايات المتحدة الامريكية بالوقوف وراء التطورات التي تشهدها بولندا، معتبره ان ما جرى هناك لا ينفصل عن سياق الصراع بين المعسكرين، ومحاولتهم اضعاف النظام الاشتراكي في اوربا الشرقية، ولم تكن تلك الاتهامات التي طرحها الاتحاد السوفيتي مجرد خطاب اعلامي، بل استناداً إلى مؤشرات رصدت في اجهزة الحزب الشيوعي وفروعه في الدول الاشتراكية، حيث استقطبت الولايات المتحدة بعض الكوادر البولندية، موظفة تلك الكوادر في اطار استراتيجيتها الهادفة إلى اضعاف المنظومة الشيوعية لا سيما خلال عهد الرئيس الامريكي رونالد ريغان(Ronald Reagan)[1] بل وذهبت الادارة الامريكية الى ابعد من ذلك اذ قامت بتوظيف البعد الديني في بولندا عبر استثمار تأثير الكنيسة الكاثوليكية في المجتمع البولندي، من خلال قنوات تواصل

(١) رونالد ريغان: الرئيس الاربعين للولايات المتحدة الامريكية (١٩٨١–١٩٨٨)، ولد عام ١٩١١ في مدينة تامبيكو في ولاية الينوي الامريكية، ونشأ في اسرة متوسطة الحال، درس الاقتصاد والاجتماع في كلية يوريكا، من ثم دخل عالم التلفزيون كمذيع قبل ان يتجه إلى التمثيل السينمائي في هوليوود في العقد الثالث من القرن العشرين، تولى نقابة ممثلي الشاشة، لينطلق بنشاطه السياسي ضمن الحزب الديمقراطي، غير انه انتقل لاحقا إلى الحزب الجمهوري لتبنية افكار محافظة، اصبح حاكماً لولاية كاليفورنيا عام ١٩٦٧ –١٩٧٥، ليتولى الرئاسة عام ١٩٨١، طبق في فترة ادارته سياسة عرفت "بالريغانية" ركز من خلالها على دعم الاقتصاد السوق وتقليل الضرائب والانفاق الحكومي، كما لعب دوراً مهماً في دعم الحركات المناهضة للشيوعية، وبانتهاء ولايته ابتعد تدريجياً عن المجال السياسي اثر اصابته بمرض الزهايمر، وتوفي عام ٢٠٠٤. للمزيد من التفصيلات ينظر: (Curtis Patrick, 2011)

غير مباشرة شملت شخصيات سياسية ودبلوماسية مثل زبيغنو برجنسكي (Zbigniew Brzezinski)[١]، مما عزز النفوذ الغربي داخل بولندا خلال تلك المرحلة (Domber, 2008, 9).

وعلى خطى العمال طالب الفلاحين بالاعتراف الحكومي بنقابة التضامن الريفي التي تمثل الفلاحين وتسجيلها كنقابة مستقلة بشكل رسمي، وجاء ذلك بدعم وتشجيع من نقابة التضامن العمالية، علما ان نشاط هذه النقابة بدأ عام ١٩٧٨ وتواصلت مع لجنة الدفاع عن العمال، الا ان ما احدثته انتفاضة العمال من تغييرات شجعت الفلاحين على المطالبة بحقوقهم واستقلالهم بنقابة، ولم تكن نقابة التضامن العمالية الوحيدة التي دعمت الحركة وساندتها بل لعبت الكنيسة دوراً في ذلك، غير ان الحكومة رفضت في العاشر من شباط ١٩٨١ طلبهم المقدم في المحكمة للاقرار برسمية التضامن الريفية، وسمحت لهم بتكوين نقابات داخل هيكلية النقابات العمالية (as ، Nr 123. 1981 styczeń cited in Instytut Pamięci,1980).

حظيت مطالب الفلاحين لانشاء نقابة خاصة بهم على غرار نقابة التضامن العمالية، بدعم من العمال الذين اضربوا معهم، الا ان فاليسا كانت له نظرة مختلفة، اذ مال إلى التهدئة وتبني سياسة امتصاص غضب الشارع بمخاطبة الفلاحين والعمال، مبينا لهم ان على البولنديين تكثيف جهودهم جميعا للعمل من اجل انقاذ اقتصادهم المتدهور، ولهذا فان على الشعب التنازل والعمل يوم السبت اذا تطلبت مصلحة البلد، كما طالب بفض الاضرابات والثقة بهم، الا ان مشكلة التضامن الريفي لم تحل وبقيت على القرار السابق للحكومة كجزء من التضامن العمالي، في حين عقد فاليسا هدنة لمدة تسعين يوما جمدت على اساس ذلك الاضرابات في بولندا (kaya , 1989 , 75).

من جهة اخرى فان الاضطرابات الناتجة عن تباين الاراء والمواقف داخل التضامن ادت الى بروز تصدع وانقسامات داخلية، وكان ليخ فاليسا احد ابرز اسبابها بسبب اسلوبه القيادي الذي اتسم بالتفرد بصنع القرار اذ وصفه زملائه بالنزعة التسلطية والتفرد باتخاذ القرارات، واسهمت الخلافات التي توالت

---

(١) زبيغنو برجنسكي: هو رجل سياسة ودكتورا جامعيا امريكيا، ولد عام ١٩٢٨ في وارشو بولندا، حصل على دكتوراه في الفلسفة و عمل استاذا للسياسة الخارجية الامريكية في عدد من الجامعات الامريكية، تولى منصب مستشارالرئيس الامريكي للامن القومي ١٩٧٧-١٩٨٠، من اهم الاحداث الدولية في مدة توليه منصب مستشار الامن القومي، تطبيع العلاقات مع الصين وتوقيع معاهدة سالت ٢ (SALT II) وتشجيع المعارضين في اوربا الشرقية والتاكيد على حقوق الانسان لتقويض نفوذ الاتحاد السوفيتي، وتبنى اراء سياسة متشددة ومناهضة للشيوعية، ومؤيد قوي للحرب في فيتنام، توفي برجنسكي عام ٢٠١٧ تاركاً عدد من المؤلفات السياسية ترجمت اغلبها إلى العربية.للمزيد من التفصيلات ينظر: (Charles Gati,2017, https:/ www.politico.com)

على النقابة في ترسيخ ذلك الانطباع، لاسيما بعد امعان فاليسا بفرض اراءه على اعضاء ادارة التضامن، الامر الذي عمق حالة التوتر والخلاف الداخلي للتضامن، وادراكا من فاليسا لخطورة الوضع تراجع خطوة الى الوراء لتفادي المواجهة مع زملائه على خلفية الاختلاف بالاراء والقرارات، كما سعى من جهة اخرى إلى تجنيب البلاد خطر الانزلاق نحو حرب اهلية، من خلال تبني نهج التفاوض مبتعداً عن التصعيد المباشر، مؤكداً ان التصعيد والتهديد بالاضرابات قد تؤدي إلى استفزاز الحكومة البولندية والاتحاد السوفيتي وبالتالي جر البلاد الى احداث لا تنسجم مع اهداف التضامن وتوجهاتها (Myant,1982 ,121).

يكشف ذلك ان فاليسا على دراية نسبية للتطورات المحتملة في البلاد والاجراءات التي من المحتمل ان تتخذها الحكومة، كما يقود ذلك إلى الاعتقاد بأن قدرته على استشراف الاحداث والتحذير من انزلاق البلاد نحو صدام داخلي، تثير تساؤلات حول حجم المعلومات والدعم الذي كان يحظى به، لاسيما في ضوء ما اظهرته وثائق الخارجية الامريكية والارشيف البولندي من دور امريكي في توجيه مسار الازمة، مما يرجح اطلاع فاليسا على جزء من سيناريو الاحداث.

ابدت الكنيسة موقفها من نشاط التضامن، داعية فاليسا على الالتزام بالنهج السلمي في ادارة الاضرابات الامر الذي جعله حريصاً على الالتزام بتوجيهاتها وتبني العمل السلمي في الاحتجاجات والاضرابات، وفي السياق نفسه صرحت الحكومة البولندية على لسان رئيسها فويتشيخ جارزولسكي (Wojciech Jaruzelski)[١] القائل بأن "البولندي لن يطلق النار على البولندي"، في اشارة إلى تجنب المواجهة المسلحة (Nr 117 . 1980 grudzień … , as cited in Instytut Pamięci,1980;

(١) جارزولسكي: شخصية عسكرية وسياسية بولندية، ولد عام ١٩٢٣ في كوروف في بولندا، في عائلة ارستقراطية، وتلقى تعليمه في مدرسة كاثوليكية خاصة، وباندلاع الحرب العالمية الثانية هاجر مع عائلته إلى سيبريا، وفي عام ١٩٤٣، انضم إلى القوات البولندية التي انشأها الشيوعيين، ليلتحق لاحقا بمدرسة الضباط، فكان ضابطاً ذكياً ومجتهداً وعضواً في الحزب الشيوعي، وبانتهاء الحرب قرر البقاء في الجيش البولندي، عام ١٩٥٦اصبح اصغر ضابط برتبة جنرال في المؤسسة العسكرية، وتدرج في المناصب واصبح عضواً في اللجنة المركزية عا م١٩٦٤، ورئيساً لهيئة الاركان عام ١٩٦٥، ووزيراً للدفاع البولندي عام ١٩٦٨، ارتبط اسمه باحداث مفصلية في اوربا الشرقية كغزوا تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وضرب اضرابات العمال في بولندا ١٩٧٠، وفي ١٩٨١ تولى منصب السكرتير الاول حزب العمال البولندي الموحد الذي كان يتولى الحكم . ليتخذ قرار لانقاذ الحكم الشيوعي من حركة التضامن، اذ اعلن الاحكام العرفية في البلاد، وعمل على قمع الاحتجاجات، انسحب جارزولسكي من العمل السياسي عام ١٩٩٠ وتوفي عام ٢٠١٤. المصدر: T, 2004)

(Dmitrukowski, 2009, 3). وهو ما عزز توجه جميع الاطراف نحو تبني نهجاً سلمياً للتقليل من العنف في الانتفاضات.

استمر تفاوض التضامن مع الحكومة من شهر شباط وطيلة شهر آذار من عام ١٩٨١، وكان هناك اصرار على الاعتراف بـ(التضامن الريفي) كنقابة مستقلة وليس ضمنية، و تمخضت التسويات عن اتفاق اولي تضمن عدد من المواد اهمها ان تقوم التضامن بفض جميع التظاهرات وتقديم ضمانات بالسيطرة على التظاهرات والاضرابات العمالية، غير ان الحكومة رفضت التصديق على (التضامن الريفي)، وفوضت الامر الى البرلمان البولندي، وبذل فاليسا جهودا لاستحصال موافقة زملائه لعقد اتفاقية مع الحكومة، حاثاً على تقريب وجهات النظر بين الطرفين، لكنهما تبنيا مواقف متطرفة، الامر الذي كاد يودي بالمفاوضات إلى الفشل ، وهو ما سعى الى تجنيب التضامن الانزلاق به، فنجده قدم عدد من التنازلات للحكومة من خلال اتفاقية وارشو التي فرضها فاليسا على اعضاء التضامن (Nr.124 . 1981 styczeń ... , as cited in Instytut Pamięci,1980; Macechin , US intelligence and the Polish crisis 1980–1981 ,2000, 79). تمثلت رؤية فاليسا بان تحقيق الاهداف يأتي عبر خطوات تدريجية متسلسلة وتجنب المواجهة المباشرة والتصعيد وهو ما اثار خلافاً داخل التضامن إذ لم يلقى ذلك قبولاً.

وفي الثلاثين من آذار ١٩٨١، في تمام الساعة الواحدة ظهراً، استؤنفت المفاوضات بين اللجنة المركزية لحزب العمال البولندي برئاسة راكوفسكي ونقابة التضامن برئاسة فاليسا، تمخضت عن عدد من النتائج منها (Nr.163. 1981 marzec 31.... ، Instytut Pamięci,1980 as cited in):

١. اعلان التضامن عن تأجيل الاضراب العام، ويعاد النظر في القرار بتاريخ الحادي والثلاثون من آذار

٢. اعتماد قانون النقابات العمالية من قبل مجلس النواب.

٣. بذل الجهود لتجنب النزاعات المستقبلية بين الطرفين، وذلك من خلال عقد اتفاقية في العاشر من نيسان ١٩٨١.

٤. يرفض اقامة نقابة تضامن فلاحية بشكل مستقل، ويسمح بان تكون فرع ضمن اطار نقابة التضامن العمالية.

وفي حال وقوع هجوم من قبل السلطات على مراكز النقابات واعضائها فسيعلن قادة التضامن الاضراب العام فوراً.

ساهمت طبيعة فاليسا الاستبدادية في امعان الانقسام داخل لجنة التضامن، ما عكس تضارب في برنامج التضامن، فمن ناحية زعمت منظمة التضامن بانها لا تطمح للسلطة السياسية، ومن ناحية اخرى فانها عملت منذ تاسيسها على تبني ما يرسخ الديمقراطية السياسية داخل بلد نظامه السياسي استبدادي، ولكن اول ما واجهته نقابة التضامن هي استبدادية زعيمها(Kaya,1989,79) . وبهذا فان فاليسا انتهك الديمقراطية _ المبدأ الاساسي التي اسست عليه النقابة _ حين تولى زمام الامور بنفسه لاتخاذ القرارات المصيرية للتضامن.

انعكس الهدوء النسبي الذي شهدته بولندا بعد اتفاقية وارشو على نشاطات الحكومة والتضامن على حد سواء اذ نال فاليسا شيء منه، فحظي بدعماً دولياً من خلال تلقيه دعوات رسمية، اذ وجهت له دعوة من اليابان قام بتلبيتها في الحادي عشر من آيار ١٩٨١ بصفته زعيم حركة التضامن في بولندا مع وفد من عشرة اعضاء، فألقى خطابا عن الديمقراطية وحقوق العمال مبينا تجربتهم التي نجحت بان تخلق نقابة ديمقراطية مستقلة في بولندا مركز حلف وارشو الاشتراكي (British Pathé،١٩٨١).

استغرقت زيارة فاليسا إلى اليابان اسبوعا وكانت تلك الزيارة الخارجية الثانية له بوصفه زعيماً لنقابة التضامن بعد زيارته للبابا في الفاتيكان في ايطاليا، اذ نظمت الدعوة اكبر منظمة عمالية يابانية، سوهيو(Sohoy) [١]، كما قام بجولة في مصانع اليابان التكنولوجية وخطوط سكك الحديد الوطنية اليابانية، وفي مؤتمر صحفي له صرح بان التضامن ترغب بالاستفادة في كيفية تنظيم نقابة التضامن على غرار نقابات اليابان، وان مهمته هي الدراسة والتعلم من التجربة اليابانية رغبة بأن تصبح بولندا يوما مثل اليابان وبقوة اقتصادها وتمخضت زيارته عن توقيع اتفاقية صداقة بين النقابتين، وعلى اثر تلك الاتفاقية ارفدت التضامن بمعدات مكتبية من طابعات وغيرها (British Pathé,1981).

وفي السياق نفسه حظيت نقابة التضامن بدعماً ماليا عبر قنوات مرتبطة بالكنيسة الكاثوليكية التي كانت تمول ليس فقط من الولايات المتحدة بل حتى دول اوربية على رأسها المانيا الغربية التي باتت تضخ المساعدات المالية للتضامن عبر اتصالات النقابة بالفاتيكان، اما الولايات المتحدة فكانت تمولهم

(١) سوهيو: هو مختصر للمجلس العام لنقابات العمال في اليابان (Nihon Rōdōkumiai Sōhyōgikai) نقابة عمالية في اليابان في الخمسينات إلى السبعينات القرن العشرين، تأسست كحركة نقابية نقابية ديمقراطية عام ١٩٥٠، وانضوت عدد من النقابات المهنية تحت قيادتها، ولعبت دوراً فاعلاً في الحركة العمالية اليابانية والمطالبة بحقوقهم كتحسين ظروف العمل والاجور، وشاركة في بعض الاحتجاجات والاضرابات، استمر نشاطها حتى ١٩٨٩ عندما اندمجت تحت التكتل النقابي الجديد (رينغو).للمزيد من التفصيلات ينظر: Masao ; (https://www.britannica.com/topic/Sohyo Inoue, 2009و (PP:1-2

عن طريق تواصلها مع البولنديين المهاجرين [١]، الهدف من ذلك تعزيز النفوذ الغربي في بولندا والسيطرة على التضامن وادارتها(Nr.139 , 1981 luty 13, as cited in Instytut Pamięci) . فكان ذلك ناقوس الخطر الذي دقته الاحداث البولندية لتنبيه الاتحاد السوفيتي.

وفي غضون ذلك اشتدت الازمة الاقتصادية في بولندا، وقام الحزب الحاكم بتحميل مسؤولية تفاقم الازمة للعمال بسبب اصرارهم على شل اقتصاد البلد، بتحريك امريكي وبمساعدة دول المعسكر الغربي، اذ عجزت الحكومة عن الحصول على ائتمان من الولايات المتحدة الامريكية وسداد الديون لنقص الانتاج جراء الاضرابات، لاسيما مناجم الفحم، فكان رد التضامن على ذلك بأن الاقتصاد مسؤولية الدولة وان الحزب الحاكم ضعيفاً وغير فعالاً وذلك يدل على عدم كفاءة الحزب وفساده، واعلنت الحركة انها ما كانت لتضرب لو اوقت الحكومة بوعودها (Jaruzelski2005, 75).

وبزدياد ركود الانتاج الزراعي والصناعي تفاقمت حدة الازمة الاقتصادية فباتت بولندا عاجزة عن تلافيها، وكانت سياسة الحكومة الاقتصادية متخبطة في قراراتها الاقتصادية، فقلصت من دعمها للمواد الغذائية الاساسية وتقليل الكميات في الاسواق، فبات المواطن عاجزا عن توفير مستلزماته اليومية، ما دفع العمال الى كسر الهدوء الذي احدثته اتفاقية وارشو والنزول الى الشارع منتفضاً ضد قرارات الحكومة، فباتت التضامن محرجة امام جماهيرها التي وعدتهم بتحسن الوضع الاقتصادي اذا ما تخلوا عن الاضرابات، فما كان امام التضامن الا ان تطالب الحكومة بالسماح للعمال بممارسة حق المشاركة في السلطة من خلال الانتخاب الديمقراطي، فضلاً عن مشاركة الحكومة في ادارة المصانع وتوزيع الارباح ووضع الخطط الاقتصادية، هذا الطلب هدد مراكز ومناصب الحكومة الشيوعية التي ادركت ان هذه الخطوة قد تمنح التضامن معلومات عن الاقتصاد والسيطرة عليه ومشاركتهم السلطة، فاتهمت بدورها التضامن بطمعها بالسلطة السياسية والسيطرة المباشرة، وعلى الرغ=من قيادة فاليسا لوفد مفاوضات مع الحكومة الا انها سرعان ما انهارت، بعد ان طلبت الحكومة منه قائمة مطالب على راسها دعم التضامن لقرار الحكومة في زيادة الاسعار، وانهاء النشاط السياسي، مع التأكيد على طلب مسبق قدمته الحكومة وهي عمل التضامن كنقابة عمالية رسمية تابعه للحكومة، ودعم البرنامج الاقتصادي الحكومي المرفوض

(١) هناك عدد كبير من البولنديين المهاجرين الذين يعيشون في الولايات المتحدة والدول الغربية، اذ وصل عددهم مايقارب عشرة مليون شخص من اصل بولندي ولديهم تواصل مع اقرباء واصدقاء داخل بولندا، فكانوا الاخيرين يتلون صورة براقة عن المجتمع الغربي، ما جعلت البولندين بداخل بولندا يشعرون بحجم الفجوة بينهم وبين المجتمعات الغربية، اضافة إلى التمويل الذي يجري للنقابة عن طريقهم. للمزيد من التفصيلات ينظر: (الناصر، ٢٠١٩، ص١٧٨ –١٨٣).

شعبياً، وبالمقابل تكافئهم الحكومة بوظائف حكومية مرموقة كمدراء ومستشارين اقتصاديين (Jaruzelski,2005, 8).

وهكذا طلبت الحكومة من نقابة التضامن المساعدة لانتشال البلاد من الوضع الاقتصادي المتردي، وتزامن ذلك مع عقد التضامن المؤتمر الوطني الاول في الخامس من ايلول ١٩٨١ لمناقشة مطالب العمال وعموم الشعب البولندي ومناشدات الحكومة التي طلبت مساعداتهم (Brolewicz,1983,25) وهو الامر الذي يقود الباحثة إلى التساؤول، هل ارادت الحكومة استدراج التضامن إلى صفها، ام ان ضعفها وعجزها عن المشكلات الاقتصادية هو الذي دفعها إلى طلب المساعدة من التضامن ؟ وهل لبت الاخيرة ذلك الطلب ؟

لقد تبنت التضامن تصعيدا في موقفها مشددة على مطالبها، اذ دعت الى انتخابات ديمقراطية للبرلمان البولندي، وانشاء لجنة الرقابة الاجتماعية للاشراف على انتاج وتوزيع المواد الغذائية، ومواصلة العمال العمل ايام السبت دون اي عطلة شهرية من اجل رفع الانتاجية في المصانع والتوقف عن الاضرابات التي تضر بانتاجية المصانع، ومن الاستفادة من السلع التي تنتجها المصانع لتلبية احتياجات الشعب بدلاً من مناشدة الاتحاد السوفيتي لاخراج البلاد من التدهور الاقتصادي الذي تشهده بولندا (MacEachin 2000 , Us Intelligence and The Polish Crisis 1980 – 1981,80-81; Domber, 2014 ,Empowering Revolution, 45-46).

استغل فاليسا مطلب الحكومة ليطرح تساؤله ما اذا ما كانت المحادثات بين الطرفين ندية اي ان التضامن متساوية مع الحكومة في القوة والسلطة، مماجعل اعضاء التعاون يتبنون العبارة كشعارا لتجديد روح التعاون، ولم تكن هذه العبارة جديدة اذ سبق وان طرحها من فاليسا في نهاية مفاوضات آب ١٩٨٠، الا انها اخذت حيز اكبر هذه المرة (Nr 158.[1981 marzec]...، as cited in Instytut Pamięci). ربما لزيادة تأثير فاليسا وشعبيته، وقوة التضامن ومعاملتها الند بالند مع الحكومة مماجعلها تتبنى شعار يساويها بقوة السلطات الشيوعية في بولندا.

ثبتت نقابة التضامن بسياستها التصعيدية مع الحكومة حول اي قضية تطرح سياسية كانت ام اقتصادية، اذ احتدم النزاع بين التضامن و الحكومة حول قضية ادارة المصانع ومسفن لينين وجعله تحت ادارة مستقلة عن الحكومة، الا ان الاخيرة تجاهلت مطلبهم (kaya ,1989, 84). لانها تدرك ان ارخاء قبضتها عن مصادر الانتاج هي ازاحة فعلية للسلطة الشيوعية عن الاقتصاد ومصادر تمويلها.

فضلا عن ذلك فإن البرلمان البولندي كان على وشك سن قانون رفعت مسودته الحكومة يتجاهل جميع مطالب التضامن حول المصانع بما فيها المسفن، الامر الذي استفز التضامن التي اصدرت على اثره انذاراً اخيراً طالبت فيه البرلمان رفض قانون الحكومة المزمع تشريعه وسن قانون التضامن، واذا ما رفض البرلمان ذلك ستتخذ نقابة التضامن عدد من الاجراءات على راسها القيام باستفتاء عام للبت في الامر، كما تبنوا سياسة تصدير الافكار التحررية وتصدير فكرة النقابات الحرة الديموقراطية المستقلة عن الحكومة الشيوعية الى عمال اوربا الشرقية، ودعتهم للانضمام الى النضال العمالي (Myant,1982 , 137). مثل ذلك خطراً هدد النفوذ السوفيتي وايديلوجيته التي تحكم المنطقة مما سبب كابوساً للحكومات الشيوعية اجمعها.

ومن تلك اللحظة ابدت التضامن محاولاتها بشكل علني بنشر افكارها وتشجيع عمال اوربا الشرقية على ما اسماه السوفيت " الاضطراب البولندي "، فما كان من الحكومة الا ان هاجمت التضامن بشراسة بشأن الرسالة التي اطلقتها النقابة، فادركت التضامن بدورها ان المواجهة النهائية مع الحكومة باتت قريبة، وطالما ادرك فاليسا مخاطر التصعيد مع الحكومة، ونصح اعضاء نقابة التضامن بان ذلك لن ينتج عنه سوى التراجع والنكسة للنقابة، وان مخاطره كبيرة عليهم جميعا، وان الرسالة التي وجهتها التضامن الى عمال اوربا الشرقية استفزازية بلا معنى، ويفترض العمل على برنامج للتعاون مع السلطات لانتشال البلد من الازمة الاقتصادية بدلا من تلك التصعيدات، واعتقد فاليسا ان عقد مؤتمر التضامن وما تمخض عنه من مقررات من ضمنها الادارة المستقلة للمصانع، اقحمت التضامن بازمة جديدة ستلقي بظلالها على نشاطها (as cited in Instytut Pa mięci،... Nr 93.1980 grudzień).

وعلى الصعيد نفسه مارس طلاب بولنديين نشاطا بنشر افكار التضامن بالتحرر من الشيوعية وتبني الديمقراطية، في جامعتهم في المانيا الشرقية، فكان رد السلطات الالمانية شديد، اذ قامت بفصلهم وطردهم الى خارج المانيا ليقلهم القطار الى بولندا (Nr. 129 1981 styczeń.... ، as cited in Instytut Pa mięci).

ادركت بولندا بشكل خاص والكتلة الشرقية بشكل عام ان النقابة برزت كقوة سياسية جديدة تسعى إلى ترسيخ نفسها كحزب ذي أيديولوجية بعيدة كل البعد عن الاشتراكية، مطالبة بإقالة النشطاء من مناصبهم، وإغلاق بعض مدارس الحزب لتكييفها مع احتياجاتها، وممارسةضغوط متزايدة على اتحاد الطلاب لقطع صلاته بالحزب ونفوذه، ومعارضة تدريس المواد السياسية والأيديولوجية، وغيرها، ومن جهة اخرى حاولت التضامن تبني تصعيدا من خلال شنها حملة واسعة النطاق، أسفرت عن مزيد من

الفوضى والاضطراب، ليصبح الوضع البولندي اكثر تعقيداً وضبابية (Nr.130 .1981 styczeń، as cited in Instytut Pamięci).

بادر فاليسا باتخاذ مجموعة من الاجراءات لعلها تنهي الاحتقان، فقدم مقترحاً حول الادارة المستقلة للمصانع، عرض اولا على رئاسة التضامن مختزلا خطوة عرضها على اعضاء الادارة جميعاً وتمت الموافقة عليها بواقع ثلاثة اصوات الى واحد، لاحقاً صوت البرلمان البولندي على المسودة التي تم التفاهم بشأنها مسبقا بين فاليسا والحكومة، وباضافة تعديلات اسهمت في تهدأت موقف الحكومة وضمان موافقتها، وابرزها منح الحكومة حق النقض ضد ترشيحات التضامن لمديري المصانع (Kaya,1989, 85; myant ,1982 , 142).

ادرك اعضاء التضامن ولا سيما اعضاء اللجنة التي همشت في تشريع القانون ومسودته، ان فاليسا حصل على اقل ما يمكن من مطالب النقابة، وعلى الرغم من عدم رضاهم على سياسته واجراءاته المتخذه لكنهم ا تجنبوا الانتقاد العلني لسياسته القائمة على "التسوية والاعتدال "، وفضلوا التشكيك باساليبه غير الديموقراطية بدلا عن ذلك، ذلك للحفاظ وحدة الصف داخل النقابة، ومن ثم اجهاض جهود السلطات الشيوعية البولندية بصناعة الانقاسامات داخل التضامن (Kaya,1989, 85; myant ,1982 , 142).

في اواخر ايلول ١٩٨١، استأنف مؤتمر التضامن انعقاده، ليناقش عدد من القضايا وعلى رأسها كيفية وصول فاليسا الى الصفقة الاخيرة مع الحكومة، ولماذا تناقش فاليسا مع عدد محدد من الاعضاء ولماذا لم ينتظر جلسة كاملة للجنة للبت في القرار، فما كان من ليخ فاليسا الا ان دافع عن نفسه بقوة مبينا انه لم يكن خطأه اذا لم يحضروا اعضاء هيئة رئاسة النقابة، وبالتالي عليهم استجواب الذين فشلوا في الحضور، اما اللجنة الوطنية فتبنوا اقتراحا يوبخ فاليسا لتجاهله اللجنة الوطنية وعدم تقديم مقترح القانون لها، في حين تمت تصفية زعيم التضامن الريفي جان رولكسي (Jan Rolowski)[١] بحادث مدبر لتصويته ضد اجراء فاليسا (Nr.130 .1981 styczeń...، as cited in Instytut Pamięci).

(١) جان رولسكي: اول زعيم لنقابة التضامن الريفي بعد تقنينها عام ١٩٨١ (ttps://en.wikipedia.org/wiki/Rural_Solidarity)

هناك احتمالان لتصفية هذه الشخصية، اما ان تكون ضمن مسلسل الاغتيالات للعناصر المخالفة لخط فاليسا او ان تكون الاغتيالات بأيدي السلطات الشيوعية لغرض العبث بالتضامن وخلخلت ثقتها بنفسها.

وبناءا على الاحداث السابقة فقد علقت انتخاب رئيس جديد للجنة الوطنية، وبالرغم من القاء فاليسا ومنافسيه خطابات في المؤتمر الا ان خطابه لاقى برود من الاعضاء، غير ان فاليسا كان قد عزف على وتر الوحدة في خطابه الثاني والذي يعد وتر حساس لدى الاعضاء قائلا: " دعونا نترك حججنا دعونا نبقى معاً النصر ممكن بالنسبة لنا "، وحصد على اثره فوزاً انتخابياً قدر بنسبة ٥٥%، لكن الحقيقة انه تحول بعين الجميع شخص استبدادي قيد الاعمال الراديكالية للنقابة، وكشف ذلك من خلال تراجع شعبيته والدعم الذي حصل عليه في السابق، من جانب اخر فإن بانتخابه ادرك زعماء التضامن ان الاتحاد داخل التضامن ضرورة لمنع خوض ازمة داخلية (styczeń 1981. Nr.130...، as cited in Instytut Pamięci).

على اثر النشاط المتصاعد للتضامن فقد وجهت الحكومة البولندية لهم في الثامن عشر من ايلول ١٩٨١ خطاباً شديد اللهجة، مبينة انها من الممكن ان تستخدم جميع الخيارات الممكنة للدفاع عن الصف الاشتراكي ومكانته وحماية مصالحه الحيوية لبولندا، محذرة التضامن ومذكرة بانها الفرصة الاخيرة امامهم للتخلي عن طموحاتهم السياسية، للاستيلاء لتدريجي على السلطة (جريدة الثورة ، ١٩ ايلول ١٩٨١، ٧).

واصل فاليسا سياسة الاستبداد فيما طرح من قضايا على الساحة السياسية، فبعد ما شهد اقتصاد البلد ازمة حادة هددت بانهياره، اثار ذلك امتعاض قادة التضامن تجاه سياسة التعاون مع الحكومة التي انتهجها فاليسا اذ كانت محاولة يائسة لاصلاح الوضع وانقاذ وجود حزب العمال البولندي قبل انقاذ الشعب، لكن السؤال هنا هو هل كان لدى الحكومة استعدادا للتنازل عن جزء من سلطتها مقابل استقطاب التضامن واقناعها بالاجراءات الحكومية التقشفية المرفوضة من الشعب البولندي ؟ لقد استغل فاليسا الوضع وطرح مقترحا جديدا قضى باتفاقية ثلاثية يمكن ان تتبلور اذ اظهرت النقابة تراجعاً عن الاضرابات والتخلي عن العمال اذا ما شرعت الحكومة بقمعهم، وطلب من زملائه في اللجنة الوطنية للتضامن بوضع حد للاضرابات العشوائية، الا ان اللجنة ردت عليه بالرفض، فما كان منه الا ان اعلن عن عزمه السفر الى وارشو لعقد اجتماع ثلاثي الاطراف يضم فاليسا ورئيس الوزراء جارزولسكي والكاردنيال جوزيف كليمب(Jozef Glemp) ممثل الكنيسة، وعلى الرغم من اعتراض اللجنة الا ان

فاليسا اوضح لهم انه لا يطلب موافقتهم، فغادر غدانسك على امل نجاح تفاوضه على الاتفاقية الثلاثية المزمع عقدها (Macechin , 2000, US intelligence and the Polish crisis 1980-1981, 34-83).

وفي الرابع من تشرين الثاني ١٩٨١ عقد الاجتماع بين الاطراف الثلاث، وبالرغم من البرود الذي احاط علاقة الكاردنيال كلمب ممثل الكنيسة بفاليسا، الا ان الاخير كان يأمل الحصول على دعم لمقترحاته، الا ان مقترحات الحكومة جاءت موائمة لمصالحها فقط، اذ اقترحت تشكيل جبهة وطنية تمثل سبع مؤسسات معظمها تحت سيطرة الحزب الحاكم، وبذلك لم تتمكن التضامن من تقديم الدعم لاي برنامج اصلاح تم تطويره من قبل اللجنة الوطنية للنقابة، فما كان امام فاليسا الاان رفض الاقتراح الحكومي، لينتهي الاجتماع بالاتفاق على مزيد من المفاوضات، وعاد فاليسا إلى غدانسك خالي الوفاض واضعاً نفسه في موقف لا يحسد عليه امام زملائه في ادارة التضامن بعد ان تحداهم، وعلى اثر ذلك صوتت الاخيرة على اضراب عام في غضون ثلاث اشهر اذا فشلت مفاوضات فاليسا مع الحكومة في الوقت الذي باتت فيه سياسة التفاوض مع الحكومة باعثة على اليأس (Nr.139 , 1981 luty 13... as cited in Instytut Pamięci ،).

وعلى الصعيد الدولي فقد كانت احداث بولندا ذات اثر بارز بالسياسة الدولية ومسار الحرب الباردة اذ نزلقت الكتلتين الرأسمالية والاشتراكية بتبادل الاتهامات حول الوضع البولندي المضطرب، فوجه الاتحاد السوفيتي باسم اتهاماته للغرب الذي يسعى الى تحويل بولندا الى قضية دولية وخلق جو من التوتر مع اثارة القلق وشحذ النفوس ضد الكتلة الشرقية في الساحة الدولية من خلال توظيف مسألة خطر التدخل العسكري السوفيتي كمادة اعلامية تأجج الساحة الدولية بشكل عام وبولندا بشكل شخاص، مثلما ورد في بيانات جلسات منظمة حلف شمال الأطلسي (NATO)[١]، وان ذلك الاحتدام في الحرب الباردة بين الطرفين، وظفته الولايات المتحدة الامريكية لتضييق الخناق على السوفيت والسعي لتعزيز

(١) حلف شمال الاطلسي: تحالف عسكري دفاعي تأسس بناءً على معاهدة شمال الاطلسي في الرابع من نيسان عام ١٩٤٩ يتبنى سياسة الدفاع الجماعي، وكان اهم اسباب انشائه هو الوقوف بوجه المد الشيوعي في اوربا لا سيما بعد الاطاحة بالحكومة الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا على يد الحزب الشيوعي عام ١٩٤٨، يضم ١٢ دولة ومن ثم توسع ليشمل ٣٢ دولة، وكانت السويد اخر دولة تنضم الى الحلف في عام ٢٠٢٤، يقع مقر الحلق في بروكسل، كانت اهم اهدافه مواجهة التهديد السوفيتي بعد الحرب العالمية الثانية، الا ان تلك الاهداف تغيرت وفق المتغيرات في الساحة الدولية، ليصبح هدفه الحالي ضمان وحرية جميع الاعضاء والدفاع عن اوربا سياسياً اقتصادياً. للمزيد ينظر: (NATO History, https://www.nato.int)

نفوذها ليس فقط في المناطق المحاذية للمناطق الشيوعية بل والتسلل إلى منطقة نفوذ الاتحاد السوفيتي هذا من جانب، والسعي لزيادة ميزانيات التسلح، وتقويض الانفراج على الساحة الدولية من جانب آخر (as cited in Instytut Pamięci ، .....Nr.131 .1981 styczeń).

وعلى الصعيد الداخلي فقد كان هناك ادراك من السلطات البولندية للخطر المحدق بالكتلة الاشتراكية جميعا والتهديد الذي شهدته بولندا بات يهدد جميع حكومات الكتلة المذكورة وذلك بتمادي طموحات التضامن التي مثلت مسماراً في نعش النظام الاشتراكي في اوربا الشرقية، فاخذت تعد العدة للانقضاض على التضامن والقضاء عليها بشكل ساحق، وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني كان لرئيس الوزراء الجنرال جارزولسكي لقاءً مع مندوب سوفيتي عسكري رفيع المستوى، ليطلب حزب العمال البولندي على اثرها من البرلمان تفعيل قانون الطوارئ، وارسلت الحكومة مشروعها حول الاصلاح الاقتصادي للبرلمان متجاهلة مقترحات التضامن ومشاركتهم بتقرير مصير منابع الانتاج الذي كان مشتركا وفق الاتفاقيات السابقة (as cited in Instytut Pamięci ،...Nr.132 .[1981 styczeń).

في الثاني من كانون الاول ١٩٨١وعلى اثر الاجراءات الحكومية الاخيرة اعلن فاليسا حالة الطوارئ القصوى، وبدأ يدرس الخيارات المتاحة للتضامن على اثر الضغط المتزايد من الحكومة البولندية، فلم يستطع قبول اقتراح الحكومة بشأن جبهة الاتفاق الوطني، اذ كان مدركا ان هذا الخيار لم يعد له اهمية اذا ما سحقت الحكومة التضامن فضلا عن فقدان شعبية النقابة وزخمه كشخص قيادي، كما كان لديه خيار الاستقالة من منصب رئيس مجلس ادارة التضامن، الا ان مستشاروه اثنوا عن ذلك، اذ كان كلا الخيارين بمستوى الصعوبة نفسه والتي تعني التخلي عن رفاقه، فدفعه يأسه في انقاذ الموقف وتبني موقف رفقائه في النقابة، ومحاولة منه معالجة بعض الامور، في حين صمم اعضاء مجلس الادارة على اتخاذ موقف قوي ضد الحكومة وايدهم فاليسا . وعلى الرغم من ميوله الى اخيار التسوية، الا انه قيم الوضع الذي ممكن ان يجر الناقبة الى الانشقاق (Hahn , 1987 , 211).

وفي اليوم التالي اصدرت اللجنة الوطنية للتضامن بيانا نص على استخدام الحكومة للمفاوضات كوسيلة لاخفاء خططها التي تهدف الى مهاجمة النقابة، مهددة اعلان الاضراب العام خلال الاربع وعشرين ساعة القادمة اذا ما أقر البرلمان قانون لطوارئ، الحكومة من جانبها نشرت في الاذاعة الرسمية تصريحات واسعة مفادها ان التضامن كانت تخطط للاطاحة بها , 2008 , Domber) .Supporting the Revolution America , Democracy,38-39; Maynt, 1982,156)

لطالما حاول فاليسا تجنيب التضامن مواجهة الحكومة خشية من تعرض اعضائها الى القمع والاعتقال، الا ان الحكومة استخدمت ما حدث في المدة الاخيرة كذريعة للمواجهة، والتي سعى فاليسا الى تجنيبهم ذلك لمدة عام، هذا ما اخبر به اللجنة الوطنية للتضامن في اجتماعها في الحادي عشر من كانون الاول ١٩٨١، مبينا لهم انه لا يرغب بمواجهة السلطات، وايدت اللجنة من جانبها اضراباً عاماً في البلاد على ان يكون في السابع عشر من الشهر نفسه.(Eringer, 1982, 1-2;)

وفي اليوم نفسه شرعت الحكومة باتخاذ اجراءات ضد التضامن، اذ داهمت مكاتبهم، وقد علمت الحكومة بمقترح اعضاء التضامن المتمثل باجراء استفتاء حول اذا ما كانت الحكومة صالحة لادارة البلاد، واذا جاءت نتيجة التصويت سلبية فتشكل حكومة مؤقتة، وعلى اثرها تم قطع جميع الاتصالات عن غدانسك، لينهي فاليسا الاجتماع ويعود الى بيته ينتظر لحظة الاعتقال (Eringer , 1982 ,3 ; Supporting the Revolution America , Democracy,42-43 ، ٢٠٠٨ ، Domber).

لم يقتصر الامر على قطع الاتصالات بل انتشرت دبابات الجيش في انحاء البلاد وقطعت الطرق بين المدن، واقامة الحواجر حول المدن الكبرى، وبحلول الساعة الثالثة صباحا من يوم الثاني عشر من كانون الأول اعتقلت الشرطة الاف الناشطين من اعضاء التضامن، وبعد ثلاث ساعات اعلن جارزولسكي على شاشة التلفزيون البولندي ان الجيش استولى على بولندا معلنا بذلك الاحكام العرفية التي اذيعت قراراتها، وكان اهم ما جاء بها:

١. تعليق النقابات والمجاميع الطلابية.

٢. فرض رقابة على جميع الرسائل البريدية.

٣. ويمكن قتل عمال المصانع اذا ما عصوا الاوامر العسكرية

وتشكل مجلس عسكري لحكم البلاد في الوقت الذي تم فيه اعتقال قادة التضامن، وعلى راسهم فاليسا، بعد ان رفض لقاء جارزولسكي الذي ابلغه عن طريق السلطات المحلية بانه يريد اللقاء به، الا انه رفض، وباعتقال فاليسا الى منتجع في اطراف وارشو، وساوم المجلس العسكري فاليسا بان يتم الافراج عنه في حال تأييده للاحكام العرفية وتولي امر جماهير التضامن لتهدئتهم من خلال خطاباته التي كان لها وقع في نفوس العمال (Eringer , 1982, 3; Hahn , 1987,211).

وفي ظل الضغوطات التي مارستها الحكومة على فاليسا لمساومته كان الاخير يراوغهم ويسعى جاهداً لايصال رسائل إلى رفاقه من اجل رفع الروح المعنوية لديهم، والبقاء على وجود التضامن والحفاظ على وحدة الصف فيها، ومحاولة التوصل الى اتفاق مع الحكومة من جانب آخر، لكن الامر لم يكن

قراراً شخصياً اذ كان عليه الرجوع الى اعضاء ادارة التضامن قبل اتخاذ اي قرار (Hahn,1982, 189; radio KRLA , (n.d)).

لم يعان فاليسا مثل زملائه قادة التضامن من الظروف القاسية في معسكرات الاعتقال بل كان قد وضع في منتجع تابع لقادة الحزب الحاكم، وسمح له بالاستماع الى المذياع، وسمح له بالزوار مع مراقبة الحرس له، رجح الباحثين ان تلك المعاملة التي حظي بها فاليسا كانت لاجل اغرائه، ولمحت له بان بامكانه انقاذ التضامن، مع ابداء مقترحات حول التفاوض مع فاليسا عن طريق الكنيسة، الا ان تلك المحادثات لم تتمخض عن شيء يصب بمصلحة الطرفين، وكان فاليسا مدركا لاهداف الحكومة التي تتمثل بتفكيك التضامن واتحاد اعضائها (radio KRLA, (n.d)).

اصبحت زوجته دانوتا (Danuta) متحدثة باسمه اثناء اعتقاله، اذ كانت تخاطب الغرب والصحف الغربية واعلام الامم المتحدة، في حين صلى البولنديين في قداس عيد الميلاد ١٩٨١ لفاليسا قائلين " ارشدنا يافاليسا من ساحل البحر حتى سيليزيا.. وان التضامن سيعلو مرة اخرى وينتصر.." (Cirtautas ,1997,8; Brolewicz,1983,94)

على الرغم من اعتقال ابرز قادة التضامن، الا ان الكثير من اعضاءها استمروا بممارسة نشاطاتهم سراً، وكانت زوجة فاليسا هي حلقة الوصل بينهم وبينه، لكن ذلك لم يكن مؤثرا في ظل الاحكام العرفية التي اطبقت على بولندا، على الرغم من وضعهم مخطط لتفعيل دور التنظيم السري، وقيادة مظاهرة ضد الاحكام العرفية، واخطروا فاليسا الذي خشي بدوره ان تقضي الحكومة على التنظيم السري بعد هذه المظاهرة، مما جعله يرضخ للحكومة ليحصل على حريته فكتب الى جارزولسكي مخاطبا اياه حول الاتفاق المزمع عقده، ووقع اسفل الرسالة بانه جندي مخلص في جيش جارزولسكي، هذا ما اثار انتقادات الناشطين له لما كتبه، باعتباره جندي لدى الحكومة والنظام الشيوعي، لكنه حصل بالمقابل على حريته في تشرين الثاني ١٩٨٢ واحتفل به البولنديين برفع شعار علق على بيته "نريدك انت والتضامن"، الا ان فاليسا جردته الاحكام العرفية من سلطته، ولم يبقى للتضامن اي شيء علني، وتجاهلت الحكومة مخاطبات فاليسا لها ومحاولة الجلوس على طاولة التفاوض، ولهذا انزوى فاليسا مع عائلته دون نشاط سياسي يذكر في هذه المدة (Hahn, 1987,191 ; Waldo,(n.d)). وهكذا اسدل الستار على اهم فترة تأسيسية للتضامن وللحركة الديمقراطية المطالبة بتحرير بولندا من قيود الشيوعية، وعلى الرغم من التحديات التي واجهت النقابة والناشطين من سياسة البشط التي مورست من قبل

السلطات البولندية الا ان فاليسا اسس للقيم الديمقراطية في قلوب البولنديين وانشأ قاعدة جماهيرية يستند عليها ستمكنه من اعادة نشاطه في السنوات المقبلة.

ان الشكوك التي دارت حول فاليسا وعلامات الاستفهام التي وضعت على الكثير من تصرفاته ومواقفه ومعاملة الدولة له كانت كانت محط جدال، حتى بعد سقوط النظام الشيوعي وتأسيس نظام ديمقراطي في بولندا بل حتى عام الى ٢٠٠٠ عندما اتهم فاليسا بالخيانة للتضامن والحركة العمالية، لعمله كمخبر للسلطات الشيوعية والاتحاد السوفيتي، لكن تم تبرئته من اي تعاون وذلك من قبل محكمة خاصة، غير ان الوثائق التي كشفت عام ٢٠١٦في منزل تشيسلاف كيشزاك وزير الداخلية في مدة الحكم الشيوعي في بولندا، تم الاستدلال بها بعد موت الوزير السابق الذي ترك ورقة بخط يده يذكر ان هذه تعود الى فاليسا الذي توج كبطل للتضامن ونال جائزة نوبل عام ١٩٨٣، وتولى رئاسة الجمهورية ١٩٩٠ [(١)]، واذا ما كشفت هذه الوثائق في وقتها لما كان فاليسا اي شيء مماذكر (Radio KDMT, (n.d); Waldo; (n.d)).

اتهم عدد من الديمقراطيون المدافعون عن فاليسا ونضاله الديمقراطي بان الوثائق مزيفة، وان المدة الشيوعية لا تخلوا من التزييف والتزوير لاستهداف العناصر المعارضة لسياستهم من قبل الاجهزة الاستخبارية وتشويه سمعتهم وابتزازهم، الا ان خبراء الوثائق اثبتو ان الوثائق حقيقية وانها تحمل توقيع فاليسا بتعهده للعمل كمخبر بين عناصر المعارضة والعمال لصالح السلطات الشيوعية، كما وقد ادرجت وصولات بمبالغ استلمها فاليسا مقابل عمله ذلك، لم يكن فاليسا وحده من تعرض الى اتهامات الخيانة بل هناك العديد من شخصيات المعارضة والديمقراطيين الذين اتهموا بـ(التواطئ والخيانة) الا ان الصدى الاعلامي الاكبر كان لفاليسا بوصفه زعيم التضامن ورئيس وزراء بولندا ما بعد مرحلة النظام الشيوعي (wiersma, 2009,108-111 Foy ,2016 ; Swboda and). ويرجح ان يكون عمل فاليسا مع الاستخبارات البولندية هي جزء من مخطط نفذه الغرب لاختراق اجهزة السلطات الشيوعية والعمل على نخرها من الداخل.

---

(١) ان التحول السياسي الذي شهدته بولندا بعد اتفاقية الطاولة المستدية عام ١٩٨٩ بين الحكومة الشيوعية والتضامن، واسفر عنها انتخابات شبه حرة حققت فيها التضامن التي تمثل المعارضة انتصارا كبيراً مهد لانهاء الحكم الشيوعي، وفي ١٩٩٠ اجريت اول انتخابات رئاسية بعد انهيار النظام الشيوعي، وتمكن فاليسا من الفوز بمنصب رئيس الجمهورية ليصبح اول رئيس منتخب ديمقراطياً لتنتقل بولندا من النظام الشيوعي إلى النظام الديمقراطي.للمزيد من التفصيلات ينظر: (https://www.history.com/this-day-in-history 1990 Lech Walesa elected president of Poland, 9, February,2010, Article, Cited in:)

وقد فند العديد من الباحثين الاوربيين التهم التي وجهت الى فاليسا بحجة انهم يريدون الانتقاص من دوره الاستثنائي في تقويض الحكم الشيوعي وتأسيس جمهورية ديمقراطية في بولندا وعدت التهم مؤامرات وادعاءات ضد شخصه، وان دوره وجهوده في النضال من اجل الحرية اثبت انها تهم مزيفة يراد الانتقاص بها من مزايا فاليسا (wiersma, 2009,212 Swboda and)، السؤال هنا لماذا هناك من يدافع عنه بشتى الوسائل هذاما يوضح اكثر عمل فاليسا كعميل مزدوج.

كان لليخ فاليسا اقرباء يقيمون في الولايات المتحدة الامريكية وبالتحديد في نيويورك اذ كتب ولتر كتابا اسماه اخي ليخ فاليسا، وقد زاروه بعد خروجه من الاعتقال عام ١٩٨٢، هذا ما يثير الكثير من علامات الاستفهام، فهل كانت خيوط الوصل بينه وبين المعارضة البولندية في الغرب او للحصول على الدعم الغربي ؟ لا سيما وان المؤلف الذي كتب الكتاب بشكل قصة او مذكرات، يعكس صورة رديئة جداً عن بولندا وتطورها في حين كانت الاخيرة في وقتها ثاني اكبر الدول الصناعية في الكتلة الشرقية، وان كانت هناك ازمة اقتصادية فهذا لا يبرر وصف بولندا بالتردي في تلك المدة. للمزيد من التفصيلات ينظر : (Brolewicz,1983).

الخاتمة

توصلت الباحثة لعدد من النتائج:

- ادى ليخ فاليسا دوره بشكل ذكي تجلى ذلك من خلال ازدواجية الميول والانتماء، ما منحه زخماً وشعبيةً دون زملائه من قيادات التضامن، كما تبنى سياسة (خذ وطالب) مع الحكومة، في سبيل الحصول على مبتغى النقابة بخطوات مدروسة وبطيئة لتجنيب التضامن سيناريو حمام الدم الذي استقرئه الغرب ونبهوا قادة التضامن وعلى رأسهم فاليسا.
- ان الوثائق البولندية والامريكية فضلاً عن الصحف الامريكية اكدت الاتهامات التي وجهت لفاليسا بوصفه عميل مزدوج، اذ رُشق بكمية اتهامات من المعسكرين جعلت الحقيقة مشوهة فالمعسكر الغربي بعد عشرات السنين يتكلم عن فاليسا بانه عميل ومخبر للسلطات الشيوعية، في حين اتهمه المعسكر الشرقي بتواصله مع الغرب ونخر الكتلة من خلال نشاطاته في التضامن والمعارضة وبدعم من الكتلة الغربية على رأسها الولايات المتحدة، وعلى الرغم من تلك التهم الا ان ذلك لا ينفي دوره الفاعل الذي تمخض عنه ولادة التضامن كنقابة مستقلة والتي حضيت بدعماً دولياً وشعبية اقليمية، ورفعت من مكانة فاليسا وجعلته رمزاً من رموز السلام والديمقراطية ومنحه زخماً اعلامياً.
- حاول فاليسا انتهاج سياسة مرنة وموائمة لجميع الاطراف للوصول إلى هدفه وهو تمزيق المعسكر الشيوعي وزرع نقابة مناهضة لسياستهم في عقر دارهم وكان ذلك بداية النهاية للنظام الشيوعي في بولندا.
- وعلى الرغم من اعلان الاحكام العرفية التي قمعت التضامن واوقفت نشاطهم، واسدل الستار على اهم مرحلة تأسيسية للتضامن وللحركة الديمقراطية المطالبة بتحرير بولندا من قيود الشيوعية، على الرغم من تعرض النقابة والناشطين الى القمع، الا ان فاليسا اسس للقيم الديمقراطية في قلوب البولنديين وأصبح لديه قاعدة جماهيرية يستند عليها ومكنته من اعادة نشاطه بعد ان رفعت الحكومة الاحكام العرفية في الثاني عشر من تموز ١٩٨٣.

المصادر والمراجع

١. برجنيف، ليونيد ١٩٧٨، مذكرات ليونيد برجنيف، بيروت.

٢. بريجنسكي، زبيغنو (١٩٩٩)، رقعة الشطرنج، مركز الدراسات العسكرية.

٣. تيسمانيانو، فلاديمير (١٩٩٦)، تاريخ اوربا الشرقية، ترجمة امل رواش، القاهرة.

٤. جريدة الثورة (١٩/ايلول / ١٩٨١) العراق، العدد ٤١٤٢

٥. حليم، ممدوح (٢٠١١)، دور البابا يوحنا بولس الثاني في انهيار الكتلة الشرقية الشيوعية، مجلة الاقباط متحدون، العدد ٢٤٣٧.

٦. حوا، هدى و الحاج، سلمى (١٩٨١)، بولندا " رسالة مفتوحة إلى اعضاء الحزب العمالي الموحد وثائق معارضة ماركسية، بيروت.

٧. عيسى، سعد عيسى(٢٠٢٣)، الازمة التشيكوسلوفاكية ٥ كانون الثاني –٢٦ آب لسنة ١٩٦٨، رسالة ماجستير كلية التربية بنات، جامعة البصرة.

٨. ميكال، بيار (١٩٩٣)، تاريخ العالم المعاصر ١٩٤٥–١٩٩١، ترجمة يوسف ضومط، دار الجيل، بيروت.

٩. الناصر، زهراء احمد عبد الزهرة (٢٠١٩)، سياسة الويات المتحدة الامريكية تجاه بولندا ١٩٧٠ – ١٩٨١، اطروحة دكتوراه (غير منشورة) كلية الآداب، جامعة البصرة.

١٠. هجرس، سعد (١٩٨٩)، بولندا بين الممكن والمستحيل، مجلة المنار، العدد ٥٧، بيروت، ايلول ١٩٨٩.

11. 1980 sierpiań 18 Berlin – informacja nr 1/80 wywiadu wojskowego NRD o rozwoju sytuacji w PRL, poufne, Cytowane w: Instytut Pamięci Narodowej Komisja ścignia zbrodni przeciwko narodowi polskiemu, Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty": tom 16.

12. 1980 sierpian' 12, Berlin- Pismo Ericha Mielkego` do kirerowniko`w jednostek organiza cyjnych MBP dotyczące sytuacji w PRL, poufne, Cytowane w: Instytut Pamięci Narodowej Komisja ścignia zbrodni przeciwko narodowi polskiemu, Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty": tom 16.

13. 1990 Lech Walesa elected president of Poland, 9, February,2010, Article, Cited in: https://www.history.com/this-day-in-history

14. Adrian Karatncky (1989 Agust,27), How we help Solidarity win, The Washington Post.

15. ARTE, (2022), Deep Thought: an interview with Lech Walesa, Cited in: https://www.youtube.com/watch?v=UhllYEzv-xw

16. Bartkowski, Maciej(2009), Poland's Solidarity Movement (1980-1989), CNC International Center on Nonviolent Conflict, December.

17. Brolewicz, Walter (1983), My brother Lech Walesa, New York.

18. Catalyst of Poland's Crisis: She Doesn't Mince Words, A Worker Tied to Dissidents Dimissed for Her Activities(1980 August, 21), article, The New York times.

19. Catalyst of Poland's Crisis: She Doesn't Mince Words; A Worker Tied to Dissidents Dimissed for Her Activities (1980, August,21), article, The New York Times.

20. Cienciala, Anna M (2011), Lecture Notes 18.Poland 1957-1980/81, Czechoslovakia, 1968-80; Hungary 1957 -1980. Poland 1957-1980/81.
21. Cirtautas, Arista Martia(1997), The Polish Solidarity Movemant revolution, democracy and natural rights, London.
22. Domber Gregory F (2008), Supporting the Revolution America, Democracy, and the End of the Cold War in Poland 1980-1989, Dissertation Submitted to The Faculty, Columbian College of Arts and Sciences.
23. Domber, Gregory F(2014), Empowering Revolution: America, Poland, end of the Cold War (new cold war history), University of North Carolina press.
24. En Polonia ya no tiene manana el el comunismo (1979), article, magazine rack.
25. Eringer, Robert(1982), Strik for freedom, the story of Lech Walesa and polish solidarity, New york, 1982
26. Evans, Charles(2012), Lech Wałęsa: The Solitary Man who inspired.
27. From solidarity to martial Low(2007), A documentary history, The Polish of crisis of 1980 -1981, National Security Archive Cold War Reader, New York.
28. Gati, Charles (2017. December, 17), Zbigniew Brzezinski: The Professor-Strategist 1928-2017, Politic Magazin, Cited in: https:/ www.politico.com
29. Goldfarb, Jeffry C (1992), After the Fall the Pursuit of Democracy in Central Europe, New York.
30. Hahn, Werner G(1987), Democracy in a communint party Poland's experience since 1980, New York.
31. Henry Foy, Lech Walesa was informant, say Polish investigators, article, Cited in: Financial Times, https://www.ft.com
32. Inoue, Masao(2009), The International Encyclopedia of Revolution and protest, John Wiley &Sons, Ltd, Vol.3.
33. Japan: Solidarity Lech Walesa arrives for talks with Japanese unions management 1981, News film, Film ID:VLVAEYWMD3O10LXOJN4RIVXI6DZX0, Cited in ; British Pathé, https://www.britishpathe.com
34. Jessup, John E(1998), An Encyclopedic Dictionary of Conflict resolution 1945-1996, Westport. https://en.wikipedia.org/wiki/Edward_Gierekhttps
35. karbel Jerome(1992), the origins of Solidarity: workers intellectuals, and the making of an oppositional movement, University of California.
36. Kaufman, Michael T. and Kulish, Nicholas(2014, May, 25), Gen. Wojciech Jaruzelski, Slidarity's foil, Dies at 90, article, The New York Times.
37. Lech walesa, Documentary film(n.d), Cited in: Notre Histoir, https://www.youtube.com/watch?v=oeU1mcvSnu8
38. Lech Walesa: The Shipyard | Peace Films by Errol Morris, Lech Wałęsa TV interview, The New York Times, Cited in: https://www.youtube.com/watch?v=F_kVbLubBxM
39. Lech Wałęsa's speech upon receiving the Nobel Peace Prize, cited in: Lech Walesa © Architects of Peace Foundation ;
40. Lobianco, Tom(n.d), From the archives the fox and the pope lessons from former Polish president Lech Walesa, article, cited in: Harvard Kennedy School, www.hks.harvard.edu/ce ;

41. Lobianco, Tom, From the archives the fox and the pope lessons from former Polish president Lech Walesa, article, cites in Harvard Kennedy School, cited in: www.hks.harvard.edu/ce
42. Luce. Edward(2025, April, 27), The Dinner That Helped Save Europe, article, The new York Times.
43. MacEachin, Duoglas J. (2000), Us Intelligence and The Polish Crisis 1980 – 1981, Washington.
44. Macechin, Douglas (2000), US intelligence and the Polish crisis 1980-1981, Washington.
45. Mateusz Szpytma, Green Solidarity - Independent trade unions in the countryside in the years 1980-1989, article, cited in: Institute of national remembrance. https://ipn.gov.
46. Memorandum, Poland Government solidarity agreemnts (1980, December, 31), Secret document, cited in: Centeral Intelligince Agency National Foreign Assessment Center.
47. mitrukowski, Tomasz(2009), Polish martial law the crisis of communism, Thesis, Naval Postgraduat School, California.
48. Mr Pridham (Warsaw) to Lord Carrington, 6 February 1981, 10.15 a.m., Tel. No. 921 Immediate, Confidential (FCO 28/4542, ENP 212/2), Cited in: P.C.R.E.E 1979-1982, Vol. X.
49. Myant, Martin (1982), Poland, a Crisis for Socialism.
50. NATO History, Discover the untold stories of NATO, from its birth onwards. Dig deeper, and you will find out what went on behind closed doors, Cited in: https://www.nato.int/
51. Nr 117. 1980 grudzień 26, Moskwa – Tezy do rozmów Józefa Czyrka1 z Andriejem Gromyką, Przed Ipo 13 Grudnia Paǹstwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty”: tom 16.
52. Nr 117. 1980 grudzień 26, Moskwa – Tezy do rozmów Józefa Czyrka1 z Andriejem Gromyką, Przed Ipo 13 Grudnia Paǹstwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty”: tom 16 ; Paczkowski, Andrzej and Byrne, Malcolm(2007), From Solidarity to Martial Law: The Polish Crisis of 1980–1981 New York
53. Nr 117. 1980 grudzień 26, Moskwa – Tezy do rozmów Józefa Czyrka1 z Andriejem Gromyką, Przed Ipo 13 Grudnia Paǹstwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty”: tom 16.
54. Nr 117. 1980 grudzień 26, Moskwa – Tezy do rozmów Józefa Czyrka1 z Andriejem Gromyką, Przed Ipo 13 Grudnia Paǹstwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty”: tom 16.
55. Nr 123. 1981 styczeń 11, Warszawa – Notatka płk. Albína Kožucha1 z narady przedstawicieli ministerstw spraw wewnętrznych krajów socjalistycznych w Warszawie, ściśle tajne, Przed Ipo 13 Grudnia Paǹstwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty”: tom 16.
56. Nr 158.[1981 marzec 12], Berlin – Notatka z ofi cjalnej wizyty Oskara Fischera1 w PRL w dniach, Przed Ipo 13 Grudnia Paǹstwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL

1980 – 1982, Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty": tom 16.

57. Nr 93.1980 grudzień 5, Moskwa – Stenogram ze spotkania przywódców państw członkowskich Układu War szaw skiego, (Początek godz. 11.00), Dokument opublikowany w : Instytut Pamięci Narodowej Komisja ścignia zbrodni przeciwko narodowi polskiemu, Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty": tom 16.
58. Simatupang, Batara(1994), The Polish Economic Crisis Background, Causes and Aftermath, London.
59. Nr. 129. 1981 styczeń 28, Warszawa – Notatka Władysława Napieraja dla Józefa Czyrka na temat relegowania z Wyższej Szkoły Wzornictwa Przemysłowego w Halle trojga polskich studentów, Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty": tom 16.
60. Nr.124. 1981 styczeń 16, Budapeszt – Informacja nr 2 o reakcjach społeczeństwa węgierskiego na wydarzenia w Polsce w dniach 9–15 stycznia 1981 r. opracowana w Wydziale Agitacji i Propagandy KC WSPR, poufne (fragment), Cytowane w: Instytut Pamięci Narodowej Komisja ścignia zbrodni przeciwko narodowi polskiemu, Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty":tom16.
61. Nr.130.1981 styczeń 30, Praga – Pismo Jana Mitręgi do Władysława Napieraja dotyczące sposobu przedstawiania wydarzeń w PRL centralnemu aktywowi KPCz oraz reakcji społeczeństwa czechosłowackiego na te wydarzenia, tajne, Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty": tom 16.
62. Nr.131.1981 styczeń, Praga – Analiza dotycząca zmiany sposobu informowania w CSRS o sytuacji w PRL, poufne, Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty": tom 16.
63. Nr.132.[1981 styczeń?, Ostrawa?] – Analiza Ocena wydarzeń w Polsce (fragment), Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty": tom 16.
64. Nr.139, 1981 luty 13, Berlin – Informacja o działalności organizacji polskich emigrantów، zachodnich organizacji rewanżystowskich i ziomkostw, partii politycznych oraz innych wrogich ośrodków skierowanej przeciwko PRL (fragmenty), Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty": tom 16,
65. Nr.163. 1981 marzec 31, Berlin – Informacja wywiadu wojskowego NRD o aktualnej sytuacji w PRL, stan na 31 marca 1981 r., godz. 4.00, tajne!, Przed Ipo 13 Grudnia Państwa bloku wschodniego wobec kryzysu w PRL 1980 – 1982, Seria „Dokumenty": tom 16.
66. Ost, David(1990), Solidarity and the Politics of Anti-Politics: Opposition and Reform in Poland since 1968, Philadelphia.
67. Pa Mephlet(n.d), Solidarity with solidarnosc socialist challenge, London.

68. Paczkowski, Andrzej and Byrne, Malcolm, (2007), Solidarity of Matrial Law: the Polish crisis of 1980-1981, A Document History, Central European University press.
69. Patrick, Curtis(2011), Reagan what was he really like, Vol., New York.
70. Perrone, Arragon(2012), Pope John Paul II's Role in the Collapse of Poland's Communist Regime: Examining a Religious Leader's Impact on International Relations, Thesis, University of Connecticut – Storrs.
71. Protocol No.13, of the Politburo Meeting on (July 18,1980), Cited in Andrzej Paczkowski and Malcolm Byrne, P47.
72. Radio KDMT, Internet Archive Python library, San Francisco, cited in: https://archive.org.
73. radio KRLA, Internet Archive Python library, San Francisco, Cited in: https://archive.org/
74. Rakowski via(n.d), Krzysztof, Henryk Jankowski statue Gdansk, Poland, case study 128, search, cited in: contested Histories. https://contestedhistories.org/wp-content/uploads/Poland_-Henryk-Jankowski-Statue-in-Gdansk-Published-1.pdf
75. Ralph waldo, Lech walesa an outlin historical biography, the solidarity trades union, article, cited in: age – of the sage. https://www.age-of-the-sage.org/history/historical/biography/lech_walesa_solidarity.html
76. Simatupang, Batara(1994), The polish Economic Crisis Background, Causes, and Aftermath Contribution, London, 1994.
77. Sjursen, Helene (1997), Western Policy making Policy making in the Polish crisis, Thesis, university of London.
78. Swboda, Hannes and wiersma, Jan Marinus (2009), Politics of the Past: the use and abuse of History, The socialist Group in the European Parliament.
79. Thomas, Daniel C (2001), The Hellsinki Effect International norms, Human rights, and the Demis of communism, Princeton University Press.
80. Tony kaya(1989),Lech walesa world leaders past and present,NewYork.
81. Touriaine, Alain and others(1983), Solidarity Poland 1980 – 81, translated by David Denby, University of Cambridge.
82. Welch, A.Kemp, (2008), Poland under communism: a Cold War history, Cambridge University Press.
83. https://www.age-of-the-sag.org
84. https://www.britannica.com
85. https://www.britannica.com/biography/Lech-Walesa
86. https://www.britannica.com/biography/Leonid-Ilich-Brezhnev
87. https://www.britannica.com/biography/Wojciech-Jaruzelski
88. https://www.britannica.com/topic/Sohyo
89. https://www.britannica.com/topic/The-Black-Madonna
90. https://www.encyclopedia.com/history/encyclopedias-almanacs-transcripts-and-maps/jaruzelski-wojciech-b-1923
91. https://en.wikipedia.org/wiki/Rural_Solidarity
92. https://www.ilo.org

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: م.د. عمار حسين مصطفى

الجامعة:

الكلية:

القسم: وزارة التربية / مديرية تربية كركوك

البلد: العراق

البريد الالكتروني:
ammar12qaa@gmail.com

الهاتف: ٠٧٨٠٨٩١٦٨٤٣

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ١٥/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٥/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (القير، الآجر، بلاد الرافدين، الموارد الطبيعية، القصب)

عنوان البحث

القير واستخداماته في العراق القديم

ملخص البحث

تهدف الدراسة الى تسليط الضوء على استخدام القير في العراق القديم وتعدد استخداماته وتطوره عبر التاريخ، حيث نجد أن بداية استخدام القير خلال عصور ما قبل التاريخ كان لحفظ جرار الحبوب؛ وذلك لحمايتها من الحشرات والقوارض والتلف بسبب الظروف المناخية، كما استخدام القير في ربط مقابض الأدوات المنزلية المصنوعة من العظام أو الحجر للملاعق والسكاكين وغيرها، فيما إشارت الدراسة الى زيادة استخدام القير خلال العصر السومري (٣٢٠٠-٢٠٠٤ ق.م) واستخدامه كمادة انشائية مهمة في بناء الزقورات، فضلاً عن استخدامه في عصر فجر السلالات(٢٩٠٠-٢٣٠٠ ق.م) لتزيين الدمى والتماثيل والتطعيم بالحجر والصدف وغيرها، وفي العصر الاكدي (٢٣٠٠-٢١٥٠ ق.م) شاع استخدامه بصناعة القوارب والمراكب المائية كطلاء يغطي طبقات القصب لمنع تسرب الماء الى داخل القوارب مع إستمرار استخدامه في البناء، كما شهد العصر البابلي الحديث(٦٢٦-٥٣٩ ق.م) تطوراً ملحوظاً في استخدام القير؛ إذ استخدم في ربط صفوف الحجر والآجر لشارع الموكب المؤدي لبوابة عشتار واستخدامه في تثبيت الاعمدة البنائية للبوابة وربط قنوات المجاري للمدينة.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Dr. Ammar Hussein Mustafa
University:
College:
Department: Ministry of Education / Kirkuk Education Directorate
Country: Iraq
Email: ammar12qaa@gmail.com
Phone: 07808916843

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 15/ June / 2026
Acceptance Date: 5/ July / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Tar, bricks, Sumerians, Assyrians, Babylonians)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

Tar and Its Uses in Ancient Iraq

Abstract

The study aims to shed light on the utilization of bitumen (pitch) in ancient Iraq, its diverse applications, and its development throughout history. It is observed that the early use of bitumen during prehistoric times was intended for preserving grain jars to protect them from insects, rodents, and climate-induced damage. Bitumen was also employed to bind the handles of household utensils—such as spoons and knives—made of bone or stone. Furthermore, the study indicates an increase in the use of bitumen during the Sumerian period (3200–2004 BC), where it served as an essential construction material in building Ziggurats. During the Early Dynastic period (2900–2300 BC), it was used to decorate figurines and statues, as well as for stone and shell inlays. In the Akkadian period (2300–2150 BC), its use became widespread in shipbuilding and watercraft manufacturing as a coating over reed layers to prevent water leakage, while its application in construction continued.The Neo-Babylonian period (626–539 BC) witnessed a remarkable development in the utilization of bitumen; it was used to bind rows of stone and baked bricks for the Processional Way leading to the Ishtar Gate, to secure the gate's structural columns, and to connect the city's sewage channels.

المقدمة

يعد موضوع القير واستخداماته في العراق القديم من المواضيع المهمة، إذ إن هذه المادة الحيوية ارتبطت بحياة الانسان منذ بداية تكوينه الاجتماعي وظلت من المواد الطبيعية المهمة التي لعبت دوراً كبيراً في حضارات العراق القديمة؛ إذ دخلت بحياة الانسان الاجتماعية واليومية بشكل مباشر منذ عصور ماقبل التاريخ، حيث استخدم السكان هذه المادة اللزجة ذات اللون الأسود في مجالات متعددة؛ كخزن الحبوب؛ البناء؛ صناعة الأدوات المنزلية؛ القضاء؛ الطب؛ السحر؛... وغيرها من الاستخدامات مما جعلها سلعة لا تقل أهمية عن المعادن والاحجار الكريمة، فقد طوع الانسان هذه المادة المهمة لخدمته، إذ عرف سكان وادي الرافدين بوقت مبكر مزج الآجر المفخور باللبن وشده بالقير مع بعضه البعض لزيادة تماسكه مما يسهل في ذلك تشييد وبناء جدران واسوار قوية ومتماسكة وسميكة على الرغم من التكاليف العالية وبسبب شحة القار وندرته في مناطق معينة من البلاد وتوفيرها بشكل غزير في أماكن أخرى، فقد اعتمد على القار بشكل كبير في بناء المعابد؛ المساكن؛ الزقورات؛ تعبيد الطرق وغيرها، وفي هذا البحث سنتناول دراسة مادة القير بالتفصيل وتأثيرها في حياة الانسان كونها عاملاً مهماً لا يمكن الاستغناء عنه.

اولاً: تعريف القير ومصادره.

عُرف القير بوصفه مادة رابطة ولاصقة منذ عصور ماقبل التاريخ والعصور اللاحقة، وقد ادرك العراقيون القدماء أهمية القير في استخداماتهم العمرانية والمنزلية لتوفره محلياً، وقد ورد القير في اللغة السومرية بالمصطلح (E. SIR. RA) ويقابله في اللغة الاكدية (Ittu) (the Original Institute, 1956, p. 98)، كما تعددت أنواعه فمنه السائل والجاف والمسحوق والجبلي (Grayson.A.K, 1987, p. 174). تعددت مصادر القير في العراق في مناطق عدة منها منطقة هيت على نهر الفرات وقد اشارت العديد من النصوص المسمارية الى "ينابيع القار في مدينة ايدُ îtu" (هيت) (علي، ١٩٨٧، صفحة ١٦٩) ، حيث كان ينقل بواسطة السفن والقوارب عبر نهر الفرات كما عرف له مصدر آخر في مناطق كفري شمال كركوك (المتولي، ٢٠٠٧، صفحة ٢٤١).

وتشير الأدلة الاثارية عن مكمن اخر من مكامن القير في منطقة مادكا (جبل القير) والذي يعتقد انه يقع ضمن السلسلة جبلية تمتد الى الجنوب الشرقي من مدينة كفري الحالية(محافظة ديالى). وقد ورد ذكر هذا الجبل بنصوص عديدة تعود للملك كوديا حاكم مدينة لكش(٢١٤٤-٢١٢٤ ق.م) (المتولي، ٢٠٠٧، صفحة ٢٩٥)، فيما ورد مكان اخر يعتقد انه مدينة (كفري)، وربما اشتق اسم المدينة على الارجح من الكلمة الاكدية كُبرُم kuprum وتعني القُفر (السَّمن) او القير (Frayne.D, 1992, p. 58).

ومن المرجح أن مدينة اِيدُ îdu (هيت حالياً) ظلت من المصادر الرئيسة لانتاج هذه المادة في العراق القديم وكثيراً ما اوردت النصوص المسمارية الاقتصادية ذكرا لجلب كميات كبيرة منها استخدمت بالدرجة الاساس لطلاء الأبنية؛ الجدران؛ الارضيات؛ السقوف والاواني المنزلية ولا سيما المصنوعة من الفخار او السلال لكونها مادة عازلة من الرطوبة والتلف، وجاء ذكرها في اخبار حملة الملك الاشوري توكلتي ننورتا الثاني (٨٩١-٨٨٤ ق.م) على منطقة الفرات الاعلى، اذ يخبرنا الملك انه اقام مسلة للآلهة في موضع (ينبوع القار) في اِدُ îdu هيت (حسن، ١٩٨٩، صفحة ١٢١) .

كما وصفت النصوص المسمارية الصفات الجيولوجية لبعض الاراضي ففي النص المذكور أنفا للملك توكلتي ننورتا وعند اجتيازه مدينة ايد idu (هيت) ذكر انه شاهد فيها "ينبوع القار" (Grayson.A.K, 1987, p. 174) وهو ما تشتهر به هذه المدينة بالفعل من انتاج القار فضلا عن

العيون والحمم الكبريتية الحارة والفوّارة KÚM.MA أميم ememu (Others, 2000, p. 172) . كما جاء وصف بعض انواع الاراضي بصيغة خابو hapu أي الارض السوداء (رشيد، العلوم الانسانية والطبيعية، ١٩٩١، صفحة ٣٧٩).

ويرد نص مهم يعود للملك سرجون الأكدى(٢٣٣٤-٢٢٧٩ ق.م) الذي يقول فيه(كانت امي، خائفة كما لم اعرف ابي، عشق اخوة ابي التلال، مدينتي هي اوزيبرانو الكائنة على شاطئ الفرات، حملت امي الكاهنة بي، وبالسر ولدتني فوضعتني في سلة من السلال، وبالقير ختمت غطائي ورمتني بالنهر الذي لم يغمرني فرفعني وحملني الى ((اكي)) السقاء) (رو، ١٩٨٤، صفحة ٢٠٨).

وقد شاع استخدام القير ومشتقاته على نطاق واسع في حضارات العراق القديم لأغراض عديدة كاستخدامه مادة عازلة تمنع تسرب الرطوبة الى المباني ولرصف الساحات فضلاً عن استخدامه في تغليف الجداران الداخلية والخارجية للقوارب والسفن ويذكر نص من مدينة كيرسو(تل تلو : في محافظة ذي قار) يعود تاريخه للسنة التاسعة من حكم الملك شولكي(٢٠٩٤-٢٠٤٧ ق.م) ويتضمن استخدام زيت السمسم والقير لأغراض تغليف ودلك قوارب الاله تموز(اله الزراعة والرعي والخصوبة) والالهة نانشة (اله العدالة وناصرت الفقراء والمظلومين) وزوجها نندار(سيد واله القوة) (واخرون، ١٩٩٢، صفحة ٢٠١).

وبما إن مادة القير من المواد الانشائية الرابطة بين طبقات الأبنية، فقد استخدم مع اللبن والآجر والحجر في عملية تشييد الأبنية (Marcel.J.P, 1979, p. 131) ، وفي إقامة الجسور وبناء البوابات وجدران المسناة وأرصفة الموانئ (الاعظمي خ.، ١٩٩٢، صفحة ٢٣). وذلك لما تمتاز به هذه المادة من قدرة على مقاومة الرطوبة والمياه الجوفية فضلا عما تمتاز به من التمدد؛ اللزوجة؛ الليونة؛ المرونة العالية في الالتصاق وسد المسامات فضلاً عن سهولة الحصول عليها وتصنيعها (كريم، ١٩٩٠، الصفحات ٤٦-٤٨). لذا فقد كان لاستخدامات هذه المادة تأثير أساس في عملية الحفاظ على الابنية المختلفة من التآكل

ثانياً: استخدام القير في عصور ماقبل التاريخ.

ظهرت بشكل جلي وواضح أولى استخدامات القير في موقع زاوي حجي في محافظة أربيل حيث عثر في الطبقة الثانية بتنقيبات كهف شانيدر الذي يعود للعصر الحجري الحديث (١٢٠٠٠-١٠٠٠٠

ق.م)على بعض القبور وفيها كمية من الأدوات الجنائزية ومنها سكاكين من حجر الصوان ولها مقابض طويلة من العظام المثبتة بالقير (الحمداني، ٢٠١١، صفحة ١٥٧).

اما في دور حسونة (٦٠٠٠- ٥٥٠٠ ق.م) عندما بدأت أولى محاولات زراعة القمح والشعير بحدود (٥٦٠٠ ق.م) وأصبحت الحاجة لخزن الفائض عن حاجة الانسان من الحبوب في حفر داخل البيوت وتسمى محلياً بالأجفار وكانت تغطى تلك الحفر أو الاجفار بطبقة من التراب ثم طبقة من القير الذي بدوره يمنع تسرب المياه الى الحفر كما يحافظ على الحبوب من التلف بسبب الحشرات؛ الحيوانات والسراق (الحمداني، ٢٠١١، صفحة ١٨٨).

كما استخدمت الجرار الكبيرة كما في قرية حسونه (جنوب الموصل) في الطبقات الخمسة السفلى كمخازن للحبوب حيث وجدت على هيئة احواض أو جرار كبيرة من الطين غير المفخور مدفونة حتى حافاتها في الارض وتغطى فوهتها بالتراب والقير (الدباغ، ١٩٨٥، صفحة ١٢٥). وترد إشارات اثارية إن سكان قرية جرمو (قرب مدينة كركوك) كانوا يتناولون الطعام بملاعق مصنوعة من العظام وادوات أخرى مصنوعة من حجر الصوان ذات مقابض خشبية أو من العظام مثبتة بالقير (رو، ١٩٨٤، صفحة ٧٨). ففي تل العبيد (قرب مدينة اور) عثرت التنقيبات الاثرية على تماثيل الام التي عادةً ما تكون بهيئة امرأة رشيقة في وضعية القيام ذات رأس افعواني متموج تكسوه لمعة من الشعر المصنوع والمثبت بالقير دور العبيد (٣٨٠٠ ق.م) (رو، ١٩٨٤، صفحة ٩٩).

لم يقتصر استخدام القير على حفظ الحبوب فحسب؛ بل تجلت معرفة الانسان مزج الآجر المفخور باللبن وشده مع بعضه البعض بواسطة القير لزيادة التماسك مما يسهل في ذلك تشييد وبناء جدران واسوار قوية وسميكة بالرغم من الصعوبات الكبيرة في توفيره؛ إذ إن القير كان يجلب من مناطق بعيده نسبياً (رو، ١٩٨٤، صفحة ٤٤)، كما استخدمت بشكل خاص في إكساء الحمامات والمجاري المعمولة من الآجر، وقد تم العثور على حمامات ومجاري للمياه فيها في مدينة اشنونا(وتسمى حالياً تل اسمر وتقع في محافظة ديالى ٨٠ كم شمال شرق بغداد، نقبت فيها بعثات عدة كبعثة جامعة شيكاغو في ثلاثينات القرن الماضي)، (رشيد ق، ١٩٨٧، صفحة ١٢٣) وتربيص (تقع هذه المدينة الاشورية على بعد بضع كيلومترات شمال العاصمة الاشورية نينوى، وتعرف حالياً باسم شريف خان) (سليمان، الكتابة المسمارية والحرف العربي، ١٩٨٢) وقد كسيت بالقير من الداخل لمنعها من التآكل بفعل المياه والرطوبة (المنمي، ٢٠٠٥، صفحة ١٨).

وقد أصبحت مادة الطين في وسط العراق وجنوبه المادة الرئيسة للبناء والأوفر اقتصاداً والأقل كلفةً والأكثر قدرةً على تشكيلها وتطويعها بأنامل البنائين الذين كانت مساكنهم من اللبن المشوي بالشمس والخشب والحصران للتسقيف (سعيد، ١٩٨٥، صفحة ٩٧). وتطلى من الأعلى بطبقة من الطين الذي يدام سنوياً أو كل بضعة سنين لتأثره بمياه الأمطار. وقد جعلت جدران البيت سميكة وطليت أوجهها الداخلية السفلى بالقير، لمنع تسرب الرطوبة إليها والقضاء على الحيوانات والحشرات المنزلية، في حين طليت الجدران من الخارج في الغالب باللون الأبيض لكي يعكس وهج الشمس الحارة في فصل الصيف. وبنيت بعض المساكن من اللبن والطابوق، واستعملت الدعامات الخشبية في الأبواب وعضاداتها وأقفالها في البيوت التي كان أصحابها من الميسورين (Oppenheim.A.L, 1970, p. 123)

لذلك فقد أدرك المعمار العراقي القديم أهمية ما يحيط به من مواد وإمكانية الإفادة منها في حياته العملية ومنها الأخشاب وقصب البردي في عملية البناء وجعل منها حزماً أو الواحاً تربط مع بعضها البعض لرفع السقوف الخشبية أو الحصيرية (المنمي، ٢٠٠٥، صفحة ١٥)، وظهرت هذه السقوف بشكل عقود بنائية وربما هذه الحالة كانت بدايات تعلم الإنسان فكرة استخدام العقود في البناء (شريف، ٢٠١٤، صفحة ١٧٧).

شاع استخدام القير كمادة رابطة كانت توضع بين صفوف اللبن، وذلك لتفادي التشققات أو الانهيار الحاصل في الجدران المبنية باللبن أو الآجر ، فضلاً عن تسوية صفوف اللبن ، إذ كان يتم طلاء الحصير بمادة القير والزفت وذلك لمنع تسرب الرطوبة والمياه إلى داخل الجدران (مظلوم، البيئة والمعمار في بلاد الرافدين واستعمال مادة اللبن، ١٩٨٧، صفحة ٦٤) ، وهكذا استخدمت الأخشاب والقصب ممزوجاً بالقير في التسقيف فضلا عن عملية تسليح مسافات الجدران وجعلها كعوارض في أصل بناء الجدران ، وذلك لتشكيل موازنة إنشائية واستقرار كامل في البناء من خلال طلائها بمادة القير أو الزفت لكي تكون عازلة للرطوبة والحشرات والقوارض (سعيد، ١٩٨٥، صفحة ١٠٣).

وقد استخدم القير منذ اقدم العصور كمادة لاصقة فضلا عن كونه مادة عازلة للرطوبة في الاماكن التي يكون فيها البناء عرضة للتلف بسب الامطار او مياه المجاري (الاعظمي خ.، ١٩٩٢، صفحة ٢٤)، وغالبا ما تكون ارضيتها مبلطة بالحجر مع وجود بالوعة لتصريف المياه (Joan.A, 2001, p. 58).

ثانياً: استخدام القير في العصر السومري والاكدي.

أ- استخدام القير في العصر السومري (٤٠٠٠-٢٨٠٠ ق.م)

بدأ ظهور استخدم القير كمادة أساسية في البناء عند السومريين (٣٨٠٠ق.م) بشكلٍ مبكر من خلال النصوص السومرية التي تشير لاستخدامه في بناء الزقورات من خلال طلاء السطح الخارج للزقورة مما يزيد من تماسك الحجارة واظهار الجمالية العالية للأسطح الخارجية فضلاً عن المحافظة على تلك الاسطح من العوامل المناخية لأطول فترة ممكنة (الواشي، ١٩٧٣، صفحة ١٢٨). وقد استخدم القير كمادة أساسية في بناء الزقورات وخير نموذج يجسد ذلك زقورة اور التي تعد أول زقورة تم بنائها في بلاد الرافدين شيدها الملك اورنمو (٢١١٢٠- ٢٠٩٥ ق.م) وأعاد ترميمها الملك شولكي (٢٠٩٤-٢٠٤٧ ق.م) على انقاض مباني اقدم منها، اذ تم بنائها على قاعدة مستطيلة من اللبن ومغلفة بالآجر وقد كسيت الطبقة الخارجية من الزقوة بالقير (المتولي، ٢٠٠٧، صفحة ٣١). اما زقورة انكي في اريدو والتي شيدها الملك اورنمو على انقاض معابد اريدو القديمة وهي مربعة الشكل مشيدة من اللبن ومحاطة من جهاتها الأربع بجدار من الاجر والقير (المتولي، ٢٠٠٧، صفحة ٣٤).

كما استخدم القير مع القصب كمادة عازلة بين الجدران في بناء الزقورات في سومر، فيما شاع استخدامه بشكل واسع في جنوب العراق خلال العصور اللاحقة من خلال صناعة المشاحيف بعد صناعتها من القصب وطلائها بالقير لمنع تسرب الماء داخل المشحوف، اما الملك "أنتمينا" حاكم لكَش (٢٤٠٠-٢٣٧٥ ق.م) الذي قام بحفر قناة مائية استمدت مياهها من نهر دجلة واستخدم في بناء أُسسها مواداً من الآجر والقير (عبدالرحمن، ٢٠٠٠، صفحة ٢٠١٨)، وأقام على جوانبها مصدات ترابية واقية لإيصال المياه إلى أراضي لكَش وبلغ طول تلك القناة ما يقارب (١٣٠-١٤٠) كيلو متراً، وبمرور الوقت ونتيجة لشدة انحدار مجرى هذه القناة نحو أراضي لكَش توسعت القناة عمقاً وعرضاً وأصبحت فرعاً مهماً لنهر دجلة (الاحمد، ١٩٨٥، صفحة ١٧٨).

اما عصر الوركاء فقد استخدم القير في تجميل بعض المنحوتات وخصوصاً البشرية منها بإضافته الى رأس التمثال لتصفيف الشعر وتلوينه لإضفاء نوع من الجمالية الحقيقية له (السعدي، ٢٠١٨، صفحة ٢٠١)، فيما ظهر نقشٌ عثر عليه في المعبد البيضوي (معبد ننخورساك) يتمثل بالاله ننكرسو بمشهد وهو يقبض بمخلبيه على اسدين ومرتكز برجليه على ظهرهما وهما بشكل متعاكس يحاولان

يعضان جناحيه، وقد شكل هذا المشهد النحتي من خليط من الطين والقير ويعتقد انه يعود لحكم الملك انتمينا حاكم لكش (النواب، ٢٠٢٠، صفحة ٤٧) .

ان التماثيل المكتشفة في اور على اختلاف أنواعها طليت في بعض الاحيان بالقير ثم صبغت باللون الاسود والابيض، فهناك تماثيل لأشكال آدمية ترتدي لباسا مؤلفا من قبعة مدببة ورداء طويل مزين بالحراشف ويمثل هؤولاء الرجال – الاسماك، ولبعض الاشكال الاخرى جسم انسان ورؤوس واجنحة الطيور، بعضها يمثل الها صغيرا ذا نظرة خيرة بذقن ورداء طويل قد ضم يديه ووضعهما على صدره وكأنه ماسك شيئا ما والبعض الآخر تماثيل طينية للتنين (مشخوشو: وهو من اشهر الكائنات الأسطورية المقدسة في حضارات بلاد الرافدين ويعني بالسومرية التنين الغاضب) (الدوري، ٢٠٠٩، صفحة ١٢٧).

ب- استخدام القير في عصر فجر السلالات(٢٨٠٠- ٢٣٥٠ ق.م)

اما في عصر فجر السلالات فقد ظهرت مجموعة من التماثيل التي تعود إلى الدور الثاني من هذا العصر حيث عثر على هذه التماثيل في معبد آبو بموقع تل أسمر القريب من محافظة ديالى، وتتألف مجموعة التماثيل من (١٢) تمثال، أبرزها تمثالان يمثلان الإله آبو ويبلغ ارتفاعه (٧٦ سم) وزوجته بارتفاع ٥٩ سم (Pstgate, 2003, p. 33). وطفلهما المميز بأجزاء من ساقيه المثبتتان وملتصق بقاعدة تمثال الأم، كما أن القاعدة الأسطوانية التي يقف عليها تمثال الإله آبو (اله الخصوبة والنبات والزراعة واقترن اسمه في التقويم البابلي بشهر آب)، وقد نفذ على القاعدة مشهد بالنحت البارز يمثل طائر العاصفة الأسطوري المسمى (زو) (موتكات، ١٩٧٥، صفحة ١٠٨) كما تميز تمثال الإلهين بالمبالغة بكبر وسعة حجم العيون وذات بؤبؤ كبير أسود، كما أنهما مثلا وهما واقفين يمسكان قدحاً بكلتا يديهما المتشابكتين أمام الصدر، كما يلاحظ صغر حجم هذه الأيدي بالنسبة لحجم الجسم، فيما كان رأسيهما متجهان إلى الأعلى بهيئة التطلع، اما شعر اللحية بالنسبة للإله آبو مقسم إلى حقول أفقية غائرة وهي مطلية بالقير وأسلوب النحت لهذه التماثيل هو أسلوب النحت التجريدي الهندسي (التكعيبي)، والمتمثلة في شكل اللحية والوجه وهي ذات زوايا حادة وتظهر في شكل الأنف الكبير البارز والفم المطبق، ومثل الإله آبو وهو يرتدي وزرة تنتهي بأهداب وزوجته ترتدي رداء يغطي الجسم ويترك الكتف الأيمن (موتكات، ١٩٧٥، صفحة ١٥٧)، وتشبه هذه التماثيل و طريقة تصفيف الشعر الملامس لشعر اللحية المعمول بالقير مع مجموعة التماثيل من تل خويرة في شمالي سورية (مظلوم، النحت من عصر فجر السلالات حتى العصر البابلي الحديث، ١٩٨٥).

ومن النماذج الأخرى والتي استخدم القير في تصميمها كانت لأشكال تصور ماعز تقفز على أرجلها الخلفية مستندة إلى شجرة والتي مثلت بشكل ساق شجرة فيها فرعين رئيسين تستند الأقدام الأمامية للماعز عليه، وفروع ثانوية عددها أربعة في كل فرع رئيسي تنتهي أحداها بوردة ذات ثمانية أوراق من الذهب وقد صنع جسم الماعز من الخشب وكسي رأسه وسيقانه بالذهب وبطنه برقائق الفضة والقرنان والشعر واللحية من اللازورد، وتم استعمال القير في تثبيتها، القطعة بارتفاع (٥٠ سم)، ومن عصر فجر السلالات أيضاً وجدت الأفاريز المطعمة بالصدف والحجر بطريقة التكفيت (يقصد بها استخدام أرضية سوداء من القير الشديد الالتصاق وتنفيذ المشاهد الفنية من اللازود الأزرق والحجر الجير الأحمر والصدف)، ومن تلك الأفاريز ما عثر عليه في معبد ننخورساك في موقع تل العبيد وارتفاع الإفريز (٢٠ سم) مصنوع على قطعة من اللازورد، نفذت عليها أشكال طُعمت بحجر الكلس على هيأة طيور ومثبتة بالقير والإفريز مؤطر بإطار من النحاس، ومن نفس المعبد إفريز آخر يصور أبقار تسير الواحدة خلف الأخرى من اليسار إلى اليمين الأبقار من الصدف والحجر الكلسي المثبتة بالقير ايضاً، الإفريز بارتفاع (٢٢ سم) (موتكات، ١٩٧٥، صفحة ١٢٤).ويبقى الأشهر من تلك القطع المنفذة بطريقة التطعيم هي راية أور(واحدة من أشهر القطع الاثرية المكتشفة في بلاد الرافدين: وهي بمثابة وثيقة صورية تختصر فلسفة الحكم والمجتمع في الحضارة السومرية: وهي عبارة عن صندوق خشبي مجوف ذو شكل شبه منحرف تضيق جدرانه الى الأعلى يعود تاريخه لعصر فجر السلالات (٢٦٠٠-٢٤٠٠ ق.م) ويبلغ طولها ٤٩,٥ سنتمتر وارتفاعها ٢١,٥ سنتمتر تغطي جدرانها لوحات من الفسيفساء مصنوعه بدقة متناهية حيث رصعت بأشكال من الصدف والحجر الجيري الأحمر واللازورد الأزرق الثمين ثبتت هذه المكونات بالقير (Woolly, 1934, pp. 25-27)

ج- استخدام القير في العصر الأكدى (٢٣٥٠- ٢١٥٠ ق.م)

بالرغم من استخدام القير بشكل واسع في العمارة وصناعة الأدوات المنزلية وتزيين المى وغيرها من الاعمال التي ارتبطت بشكل مباشر بالقير واستخداماته في هذا الصر والعصور السابقة، الاّ أنه شاع في هذا العصر استخدام القير في صناعة وسائط النقل النهرية المهمة التي استخدمت في العصور الاكدية من خلال طلاء الاسطح الخارجية والداخلية لمنع تسرب الماء للمراكب النهرية، وقد ظلت معروفة ومستخدمة حتى وقت قريب في الاقسام الوسطى والجنوبية من العراق (الهاشمي، الملاحة النهرية في بلاد الرافدين، ١٩٨١، صفحة ٤٥)، ويبدو ان القفة ظهرت منذ العصر الاكدي (٢٣٥٠ – ٢١٥٠

ق.م) اذ وردت تسميتها في النصوص المسمارية بصيغة "قُبُّ ***quppu***" ومن خلال هذه التسمية يُفهم بأن اصل القُفّة هي سلة القصب قُبّ ***quppu***.

والقفّة بصورة عامة، قارب شبه دائري قطره يتراوح بين ٥ – ٨ اقدام، تمتاز بعمقها وارضيتها المسطحة، وتصنع القفة على غرار حياكة سلال القصب ويستخدم سعف النخيل والقصب في اعدادها ثم تُطلى بالقير والطين من الداخل والخارج، كما استخدمت المجاذيف لتسييرها في النهر، ومن الخواص التي تميزت بها القفف أنها كانت ذات شكل دائري وتمتاز بعمق وأرضية مسطحة (الهاشمي، الملاحة النهرية في بلاد الرافدين، ١٩٨١، صفحة ٤٦)، وعادةً ما يغطى قعرها بالجلود ويغلف بالكتان وقطع الصوف التي تمزج مع الطين والقير ضماناً لعدم تسرب المياه من خلال أجزائها (كونتينو، ٢٠١٩، صفحة ٨٥).

ثالثاً: استخدام القير في العصر البابلي الحديث:

كشفت اعمال التنقيب الاثرية الألمانية في مدينة بابل (١٨٩٩–١٩١٧) بقيادة كولد فاي عن بقايا شبكة من القنوات التي يعتقد انها كانت مخصصة لتصريف المياه الفائضة في بعض المواقع المهمة من المدينة، مثل كالقصور؛ الزقورات والأسوار، وتمثل قنوات التصريف المبنية تحت بوابات السور الغربي والشرقي للمدينة المحطة الأخيرة لتجمع المياه وتصريفها باتجاه نهر الفرات (كوليني، ١٩٧٩، صفحة ١٥٨) ، ويعود بناء بعض تلك القنوات إلى عهد الملك نَبوخذ نصر الثاني(٦٠٥–٥٦٢ ق.م)، كما يشير إلى ذلك في إحدى كتاباته: **(مخارج الماء ثبتُها بداخله (يقصد السور) وبنيت صفوفها بالآجر والقير وسيَجتُ الفتحة بالحديد)** (الهاشمي، تاريخ الري في العراق القديم، ١٩٨٣، صفحة ٧٧).

ولضمان عدم تسرب المياه من داخل تلك الأنابيب التي كانت على الأغلب ذات أبدان اسطوانية الشكل فقد صنعت بدقة في تصميمها بحيث تكون إحدى نهايتيها قمعية الشكل ليتسنى تركيب بعضها بالبعض الآخر بسهولة، ثم تغليفها بمادة رابطة (الطين والقير)، تعزز تماسكها وقوتها (رويتر، ١٩٨٥، صفحة ٩٠)، كما عثرت البعثة على اثار استخدم الطين والقير كمونة رابطة في الابنية المشيدة بالآجر (رشيد، صناعة الطابوق في العراق القديم، ١٩٨١، صفحة ٤٥). ولكون الطين مادة رابطة بين قطع الآجر والحجر وتتصلب جزيئاتها فيزياوياً فكان استعمالها للأغراض البنائية بشكل ملفت ومتطور (الاغا، ٢٠٠٤، صفحة ٥٠)

أما معبد عشتار الذي خصص لعبادة الآلهة عشتار آلهة الحب والحرب في مدينة بابل والذي يقع بين البيوت السكنية ويحيط به شوارع ضيقة تؤدي بدورها إلى شارع الموكب (رويتر، ١٩٨٥، صفحة ٧٣)، وقد تم تخطيطه بشكل مستطيل بلغ أبعاده ٣٧,١٢× ٣١,٠٥، فضلاً عن تزيين جدرانه الخارجية من جميع الجهات بطلعات ودخلات بُنيت باللبن المغلف بالآجر والقير موزعة كالآتي: في الجدار الشرقي والذي يحتوي على مدخل كانت تدعمه خمس طلعات، بينما ضم الجدار الغربي خمس طلعات أيضاً، أما الجدار الجنوبي فاحتوى على برجين على جانبي المدخل الرئيسي للمعبد وكان يزين كل منهما ثلاث طلعات شكلت عليها لغرض جمالي بالدرجة الأولى، أما الجدار الشمالي فوجد مدعوماً بست طلعات متناسقة الابعاد، وقد تم تشييد هذا المعبد بكل اجزائه البنائية من اللبن والآجر والقير كمادة إنشائية (شريف، ٢٠١٤، صفحة ١٦٦).

كذلك أظهرت أعمال التنقيب في بوابة عشتار عن استخدام عمود مدور في الفناء الأمامي والقريب من السور الرئيس للبوابة ، وكان هذا العمود يستند على قاعدة مربعة طول قطرها ١,٤٠م، وقد شيد من الآجر مع استخدام القير والطين كملاط بين صفوف الآجر بينما رصفت الصف الخارجي على شكل دائري، وكانت القاعدة التي يستند عليها بدن العمود تشبه فتحة البئر وهي ذات قاعدة أسطوانية الشكل (كولدفاي، ١٩٨٥، الصفحات ١٩-٢٠). وتزودنا النصوص من الملك نَبوخذنصر الثاني الذي يذكر جهوده الكبيرة في متابعة مشاريع الري، وإحدى تلك النصوص ذكر فيه قيامه بإصلاح إحدى القنوات المائية المهمة في بابل والمسماة "ليبيل هاغالا" والتي تعني (خيراً عميقاً) أو (وفيراً)، ومما جاء في النص (أما بالنسبة لليبيل هاغالا، القناة الواقعة شرقي بابل فقد كانت خراباً وقد سدت مجراها مجموعة من البقايا كما امتلأت بالأنقاض، فقد بحثت عن مجراها الأصلي فبنيت لها من شاطئ الفرات وحتى شارع أيبور – شابو الذي يعني أسمه (عسى أن لا يتضايق أبداً) مجرى من القار، ومن أيبور – شابو شارع بابل المخصص للاحتفال بانتصار الإله مردوك (مردوك: من المعبودات البارزة في بلاد الرافدين، وتركزت عبادته بشكل رئيس في بلاد بابل وخصه البابليون بالعبادة والتقديس منذ الألف الثاني قبل الميلاد. للمزيد ينظر: الهاشمي، مردوخ عظيم آلهة بابل، ١٩٨٧، صفحة ٤٠)، سيدي العظيم، نصبت جسراً على القناة عندما وسعت مجراها) (روثن، ١٩٨٤، الصفحات ٦٤-٦٥).

ولكون الطين مادة رابطة بين قطع الاجر والحجر وتتصلب وتتماسك جزئياتها فيزياويا فكان استعمالها للأغراض البنائية بشكل ملف ومتطور (الاغا، ٢٠٠٤، صفحة ٥٠) .

رابعاً: استخدام القير في العصر الاشوري الحديث.

فقد كشفت أعمال التنقيب في بعض القصور الملكية الآشورية عن وجود مادة القير في شبكات يعتقد انها لتصريف المياه غير النظيفة وكانت هذه الشبكات عبارة أقنية أو أنابيب فخارية مربوطة بعضها البعض بواسطة فتائل من القير لمنع تسرب المياه، وقد وضعت هذه الانابيب تحت مستوى أرضية الغرف والحمامات والمطابخ باعتبارها الأكثر استخداماً للمياه والأكثر حاجة في تصريفها وهي متصلة مع بعضها البعض ومرتبطة بقناة رئيسة تأخذ طريقها لتلقي بثقلها إما في مستودع كبير أشبه ما يكون بـ (القسطل) أو تصب مباشرةً في النهر، وكان يراعى في ذلك أن تكون نهاية فتحة القناة إلى الخارج مُسيّجة بإحكام لمنع دخول الحيوانات من خلالها وتأمينها أيضاً من دخول المتسللين واللصوص، وقد استخدموا في بناء تلك الأنابيب أو المجاري فضلاً عن الآجر المفخور مادة القار التي تزيد من تماسك قطع الآجر وتحول دون تسرب المياه إلى أطرافها الخارجية (خلف، ٢٠٠٥، صفحة ٨٨)، وللحفاظ على تلك المصاريف من التآكل بسبب الظروف المناخية فإن الحاجة كانت تدعو إلى إكسائها بمادة القار من الخارج للحيلولة دون تأثرها بتلك الظروف وكان يراعى أيضاً أن تكون فوهات تلك الأنابيب من الأعلى مجهزة بغطاء صحني مشبك لمنع دخول الأوساخ والأحجار الصغيرة التي تنجرف مع مياه الأمطار القوية إلى داخل المجرى وتؤدي إلى انسداده (رويتر، ١٩٨٥، صفحة ٩٠).

وتواصلَ هذا الاهتمام بأعمال الري من قبل ولده أدد – نيراري الأول (١٣٠٧–١٢٧٥ ق.م) الذي تسلم زمام أمور البلاد من بعده، وذكر في أحد نصوصه: "في الوقت الذي كان يتم حجز المياه في سدود أقامها والدي لهذا الغرض حدثت فتحة في الوسط ومن أجل تهدئة هيجان المياه أغلقت هذه الفتحة بالحجر والقار وقمت بعمل ثلاث فتحات من أجل توزيع المياه" (عبدالرحمن، ٢٠٠٠، صفحة ٨٥).

وكان الملك اشور ناصربال الثاني قد قام بحفر عدد من الابار داخل محيط القصر لتزويد القصر بالمياه الصالحة للشرب وتم طي البئر بالقير واللبن المفخور والمصنوع خصيصا من اجل البئر ومن ثم تقويسه على نحو ملائم ، وقد كان معظمه منقوشا باسم الملك، وقد بلغ قطر البئر من الاسفل (١,٧) مترا والخارجي (٢,٢٥) متر عند الفوهة، وفي البئر الاخر توجد مصطبة او منصة مصنوعة من الاجر المفخور وتعود الى الملك نفسه وكانت مشيدة بدقة من الاجر ومرصوفة بمونة من القار والغرض من هذه المنصة رفع منبع البئر والمحافظة على الماء نقيا وغير ملوث بسبب الحيوانات المتواجدة في القصر (Mallowan, 1952, pp. 13–14) ونظام تصريف المياه هذا قد وجد في مصطبة القصر الملك

سرجون الثاني في خورسباد والتي وجد فيها نظام تصريف المياه الثقيلة وحتى بالنسبة لتبليط الساحات بالاجر المنبسط والقير فقد كانت هذه الساحات تنحدر بشكل تدريجي وطفيف نحو الوسط لسهولة انسياب المياه وتصريفها (كونتينو، ٢٠١٩، صفحة ١٩٢)، وقد استعمل القير والاجر بكثرة في بناء مجاري تصريف المياه الثقيلة تحت الارض حتى كان المزيج القيري يصب في قالب حول آجرة كبيرة وبعد ازالة القالب تبقى الاجرة ملصقة بالطبقة القيرية (الاعظمي خ.، ١٩٩٢، صفحة ٢٦).

كما أقام الأشوريون على الأودية العميقة التي كان يمر منها النهر عدد من القناطر التي قطعت الوديان بشكلٍ عرضي وسمحت من خلالها بعبور المياه والسيول الجارفة إلى حيث مسارها دونما توقف، وأضخم هذه القناطر هي تلك الواقعة بالقرب من قرية جروانة في منطقة الشيخان، وذكر أسمها على الأرجح مقترناً باسم الموقع الذي أقيمت فيه، فعرفت بين أوساط الباحثين بعبارة جروانة، وتعد هذه العَبّارة من أبرز أقسام المشروع نظراً لحجم الجهد الهندسي في بنائها، ولا تزال آثارها قائمة إلى الآن عند القرية المعروفة باسم جروانة، ويبلغ طولها الإجمالي نحو (٢٨٠–٣٠٠) متراً تقريباً، وارتفاعها نحو (٩) أمتار، وعرض المجرى المائي (٢٢) متراً، وتتألف من (١٣) فتحة ذات شكل مقوس عرض كل منها (١٥) متراً باستثناء فتحة الوسط التي تقطع المجرى فإنها تبلغ (٣٠) متراً، وقد طُليَّ حوضها بالقار لمنع تسرب الرطوبة إلى أجزائها الساندة، واستخدم في بنائها ما يقارب مليوني حجرة زنة الواحدة منها نحو ربع طن، وطولها نصف متر، ويحتضن القنطرة أو العَبّارة من الجانبين جدارٌ أُنشئ لحصر المياه ومنعه من التسرب باتجاه اليمين أو اليسار، ولا شك أن هذه المواصفات الهندسية للمشروع تدل على ضخامة هذا العمل الكبير والجهود التي بذلت لإنجازه، ولولا المتابعة المباشرة من لدن الملك، كما يشير إلى ذلك أحد الباحثين "ما كنا لنرى مثل هذه المشاريع تنجز بهذه الكيفية، وما كانت لتأخذ هذا الحجم من الاهتمام والمتابعة" (عبدالرحمن، ٢٠٠٠، صفحة ٤٨). فضلا عن بناء المسناة على نهر دجلة من الجهة الشرقية لحماية المدينة اشور من انجرافها بنهر دجلة وكانت هذه المسناة قد شيدت بالحجارة والقير (مظلوم، مسح ميداني اجرته البعثة العراقية للتنقيب للعام ١٩٧٨/١٩٧٩ بموجب خطة وضعها الدكتور طارق عبدالوهاب مظلوم رئيس البعثة، إرشيف مدينة آشور).

وكانت القصور مزودة ايضا بقنوات عمودية لتصريف مياه الامطار التي تتراكم في الاسطح خلال موسم الشتاء الى القنوات المدفونة تحت مصاطب القصر لكي تنقلها الى الخارج وربما تنقل هذه المجاري المياه التي ترش على البلاطات لغرض تبريدها في فصل الصيف (Layard.H, 1965, p. 186).

ولقد اكشفت العديد من البلاطات في قصر الملك اشور ناصر بال الثاني(٨٣٣-٨٥٩ ق.م) ذات اشكال مربعة في اماكن كثيرة من الطبقة العليا لأرضية ساحة البيتانو الداخلية فضلا عن وجود فتحة وسط كل بلاطة وفائدة هذه الفتحة هي تصريف المياه غير القنوات (المجاري) (Vonsodon.W, 1981, p. 254) .

(ونلاحظ أيضا ان قاعة عرش الملك سنحاريب(٧٠٥- ٦٨١ ق.م) تؤدي الى حمام وهي من خصائص القصور العامة إذ وجد في ارضية الحمام نوع من الاجر المطلي بالقار ضد المياه والذي كان يحفظ الاجزاء السفلى من الجدران ايضا ، وفي مكان منخفض من الارضية هناك حفرة او حفرتان بأغطية من الحجر) (ساكز، ١٩٧٩، صفحة ٢٧٣).

ولقد كشفت التنقيبات العراقية الاخيرة قطعاً سليمة جزئيا لمادة ارضية الحمامات في القسم الرئيس من القصر لبلاطات طينية نضيجة للحمامات والمساحات الخارجية واحواض مستطيلة للمياه وكانت هذه البلاطات تتكون من طبقتين من بلاط الطين وكانت تغطيها طبقة من القير لكي لا ينفذ منها الماء (Vonsodon.W, 1981, p. 254).

اما البوابة الغربية لمدينة اشور التي أعاد بنائها الملك شلمنصر الثالث(٨٥٩-٨٢٤ ق.م) فقد كشفت التنقيبات الاثرية عن أرضية مصفوفة بالآجر وقد كسيت بطبقة من القير فيما عمل شلمنصر الثالث شبكة مجاري لخروج ماء الامطار خارج البوابة وهي عبارة قناة من الاجر المطلي بالقير (الاسود، ١٩٨٢، صفحة ٦١)، كما استخدم القير في ربط وتغطية الحجر والاجر المصفوفة في الساحة الامامية لبوابة المشلال في اشور والتي ورد ذكرها في نصوص شلمنصر الثالث(٨٥٩-٨٢٤ ق.م)الخاصة بإعادة بناء بوابات المدينة، اما المنقب الألماني فالتر اندريه فقد كشفت تنقيباته عن شبكة طرق رئيسية بعرض (٧متر) مبلطة بالحجارة والقير المخلوط بالحصى الناعم مما يجعلنا نعتقد ان استخدام اقير اصبح بشكل متطور جدا في العاصمة اشور (أندريه، ١٩٨٧، صفحة ٨٨).

فلو تطرقنا الى بناء اسوار مدينة كلخو (نمرود) فقد كانت هناك اسوار خارجية تحميها من جميع جهاتها الأربع تقريبا فضلا عن السور الغربي المطل على نهر دجلة والذي يسمى سور المسناة، والمتكون من احجار الكلس وبسمك (٦,٥) م وبارتفاع ما يقرب من (١٠) امتار وتقريبا بمقدار (١٣) صفا من حجر الكلس الضخمة التي ثبتت بواسطة القير، وهو الجزء الصغير والوحيد الذي تم التنقيب عليه في

الجهة الغربية للمدينة بالنسبة للأسوار الخارجية (الاعظمي م.، ١٩٩٢، صفحة ٢١٩). اما الملك اسرحدون الثاني (٧٢٢- ٧٠٥ ق.م) فقد أعاد بناء اسوار مدينة النمرود على أسس من الحجارة غير المهندمة ربطت بعضها البعض بالقير (Mallowan.M.E.L, 1966, p. 67).

كما استخدم القير في طلاء جدران القصر المحروق في النمرود بارتفاع (٦٥سم) بينما غطت الأرضية بطبقة من الآجر المغطى بطبقة من القير (جي، ١٩٥٢، صفحة ١٩٩)' وفي العاصمة الاشورية دور شروكين (١٥كم شمال نينوى) وتحديدا في البوابة الشرقية فقد كشفت التنقيبات عن سقف البوابة المرتكز على الاعمدة الخشبية وعلو السقف طبقة من الحصران مطلية بالطين على شكل طبقة عازلة تكسوها طبقة من القير ثم تبليط من الاجر وقد سويت فواصله بفتائل من القير (جرجيس، ٢٠٠٨، صفحة ٤٠٢).

ومن الاستخدامات الاخرى للآجر هو بناء قنوات تصريف مياه الامطار في واجهات الزقورات وكانت تطلى تلك القنوات بالقير وكذلك استخدم الاجر في بناء مجاري تصريف المياه وتبليط الساحات المحيطة بالزقورات (جرك، ١٩٨٨، صفحة ١٦٧)، وقد عثرت التنقيبات الاثرية الألمانية في مدينة اشور على عدد كبير من الملاعق والسكاكين المصنوعة من العظام ومقابض من القير فضلاً عن مغارف مصنوعة من الطين (الحمداني، ٢٠١١، صفحة ٦٤).

خامساً: استخدام القير في الاحكام القضائية والسحر والحرب.

أ- استخدام القير في الاحكام القضائية.

ورد استخدام القير بالأحكام القضائية للعصر الاشوري الوسيط من خلال عقوبة قصاص الزانية المحجبة أو المرأة الحرة، حيث كان الجلد وسكب القير على رأسها، ومع أن القانون شدد على عقوبة الزانية المحجبة إلا انه لم يؤكد إدانتها إلا بعد إثبات الشهود، في حين لم يكن القانون يسمح بذلك في اثناء محاكمة النساء من المتحجبات واكتفى بإدانتهن في حال ثبوت تلبسهن بالجرم المشهود، ولم تكن المكافأة المادية التي حددها القانون الآشوري للذي يقبض على زانية أو أمة مجزية وانما كان الخوف من المسؤولية الجزائية المترتبة على ذلك، فقد انزل القانون عقوبات صارمة بحق من يتستر على تلك الظاهرة بجلدهم بالسوط، وثقب آذانهم وربطهما بقضيب خلف رأسه وسكب القير عليه (سليمان، نماذج من الكتابات المسمارية: النصوص القانونية، ٢٠٠٢، صفحة ١٢٥).

ب- استخدام القير في السحر.

ان مادة القير كانت تقدم للحماية من خلال تمائم البازوزو (شيطان ذو نزعة شريرة لكنه العدو اللدود للجني لابارتوالتي، حيث كانت الأمهات ترتدي قلادات تحمل رأس بازوزو المصنوعة من القير لحماية أنفسهن واطفالهن) من الجني الانثوي لابارتوالتي (هو واحد من اخطر الشياطين في العالم السفلي ويتميز عن الشياطين الأخرى بأنه كان يتمثل برأس لبؤة أو صقر وانياب حمار وأقدام ذات مخالب حادة وجسد آدمي مشعر ويمسك الافاعي بيده، وهو الأكثر شراً وخوفاً للنساء الحوامل والأطفال حديثي الولادة والاجنة في الارحام) (الماجدي، ١٩٩٨) على شكل التي تعيش على مص دماء الاطفال والحيوانات، وهناك مجموعة من الدمى من الالف الثالث لها استعمالات سحرية وكانت مطلية بالجبس او الالوان اثناء استعمالها في الطقوس او الشعائر الدينية، وفي مدينة آشور عثر على دمى مدفونة تحت ارضيات البيوت لحماية ساكنيها من الجن الشريرة وهي تعود للعصر الاشوري الحديث. وهناك انواع اخرى من التماثيل تنفع لحماية البيت والقصر والعبد ولكل الشرور، وقد اعد عددا من التراتيل المقدسة التي اعدت لمثل هذه التماثيل (الدوري، ٢٠٠٩، صفحة ١٢٧).

ان بعض مظاهر الطقوس السحرية عندما يمتنع المريض عن الاكل والشرب ويعتقد انه مسحور، فأنه يتعيين الساحر او الساحرة، استخدام طريقة خاصة لازالت السحر من خلال النص (هي تذهب الى الشارع، تدخل البيوت.... تقع في الشارع، هي تأخذ الفرح من الشابات،... حينما الساحرة تراني، هي تمشي خلفي، قطعت طريقي بسحرها، هي اخذت بعيدا الهي والهتي، (الشخصية) وهكذا دمى الشمع، الخشب، العجين، القير، والطين، صهرت او احرقت بالنار). وطبعا هي تمثل الساحر، والتعويذة وجهت الى الهة الليل، اله النار كيرا او الالهة الاخرى، او الى السحرة انفسهم ويبدو ان هذه الطقوس الطويلة والمعقدة خصصت لذوي المكانة الاجتماعية العالية جدا، ربما للناس الأغنياء (الدوري، ٢٠٠٩، صفحة ١٣٥).

ومن الطقوس الأخرى هي التطهير لدمية ذات تأثير سحري، إذ... تؤخذ الدمية الى ثلاثة دروب أو طرق تؤدي الى البيت، اضافة الى تنظيف البيت، سميت طقوس التطهير هذه...(بالغضب الحاد) الذى يكمن في نقل الى هيكات(دمية بثلاث رؤوس) توضع في ثلاثة دروب ترافقها بعض التراتيل لتفادي غضبها وتأثيرها. وفي طقوس التطهير نص للماشتو يوضح: (ذلك الطقس، لابد من تنظيف بيتك، تأخذ الطين خارج البيت، وتعمل دمية للماشتو تضعها عند رأس المريض). وربما الجن لا ترغب بالعيش في

البيت النظيف . فيما يرد نص اخر لشيوع استخدام القير في السحر(هم يعملون دمى لي اما من خشب الطرفاء او شجرة الارز او السمن او الشمع او من قشور السمسم او القار او الطين او عجين [او من] عجينة مرة لنبات علفي او عجين القمح المحمص وهم يطعمونها اما الى كلب او الى خنزير او الى طير في السماء او الى سمكة في الاعماق. شمش هؤلاء هم، هذه صورهم، انا احرقتها، منذ زمن ليس الان. هذه الدمى تقدمينها الى الهتك العظيمة هم صنعوا [دمى] لي، وضعوها في ثدى الجثة،... [كذلك] دفنتها في تقاطع الطرق،.....) (الدوري، ٢٠٠٩، صفحة ٢٣٨).

مثلت دمى الساحرات الشر وتقوم على تدمير الدمية التي صنعت من العجين والشمع والقير والجص والهدف منها إيقاع الأذى بالشخص المسحور، وفي الناحية الاخرى، مثلت الدمى الارواح الصديقة التي يستعان بها ان تبقي الشر بعيدا، وذلك بدفنها في اماكن معينة في البيت لتأمين حمايته، ولهذا الغرض، استعمل الخشب واعواد الطرفاء (الدوري، ٢٠٠٩، صفحة ٧٩).

ومن الجدير بالذكر ان حماية البيوت كانت تتم بوضح تماثيل واقفة في المداخل او تدفن تحت العتبة، ففي مدينة اور عثر على تماثيل طينية في صناديق من الآجر المفخور وضعت على الارضية اسفل الجدران وكانت هذه الصناديق مزودة بغطاء مفتوح من احد جهاته باتجاه وسط الغرفة حيث كان التمثال يراقب من خلالها. وفي اور ايضا عشر على نماذج ممثلة للآلهة الام وجد ان رؤوسها على شكل افاع بزينة رأس من القار مع نسبة تحوير رأس المرأة واستخدام الوشم بشكل قرصات من الطين مدورة، ويبدو ان تحوير الرؤوس البشرية وخاصة لنساء الالهة الام اعتقادات خاصة بالخصوبة والولادة ومحاولات لجلب الفأل الحسن وطرد الجن الشريرة (الدوري، ٢٠٠٩، صفحة ١٢٦).

ج- استخدام القير في الحرب.

اما استخدام القير خلال المعارك فتشير الأدلة الاثرية على وجود اثار للقير على فتحات ومزاغل الرماة اعلى الاسوار الخارجية للمدن ما يجعلنا نعتقد ان القير والزيت الماء المغلي كان احد عناصر الدفاع الهجوم البارزة لحماية القلاع والمدن من خلال غليه وصبه من اعلى الاسوار على جنود العدو للدفاع عن المدينة (Mallowan, 1952, p. 40)، كما استخدم كعنصر مهم في صناعة الأسلحة بتثبيت رؤوس السهام والرماح بالقير لضمان تماسكها وعدم انفصالها عند اختراق الدروع (العراقيين، ١٩٨٥).

سادسا: استخدام القار في المسارج.

كشفت التنقيبات الاثرية في مدينة النمرود على عدد من المسارج كانت تستخدم للإنارة في وكانت المسارج بأشكال متنوعه منها كروية وبيضوية أو نصف دائري ومزججة بالألوان وترتكز على قاعدة اسطوانية قصيرة تعلوها انبوبة فخارية لوضع الفتيل ويلاحظ ان اعلى المسرجة قشرة او طبقة من القير لتثبيت أنبوب الفتيل ويعتقد ايضاً ان الاشوريين استخدموا زيت القار لإشعال الفتيل وانارة الأماكن المظلمة (the Original Institute, 1956, p. 98).

كما استخدم القصب المغمس بالقار واشعاله للإنارة والاستدلال وهنا نود الإشارة ان خلال العصور الاشورية شاع استخدام القصب وبعض سيقان النباتات المغمسة بالزيت أو القار للإنارة (ساكز، ١٩٧٩، صفحة ٣٠٤).

اما في مدينة اشور فقد عثرت التنقيبات الاثرية على مسارج لإنارة مساكنهم على شكل صحن غير عميق ذي ميزاب محزوز يمر فيه فتيل مصنوع من الصوف وقد استخدم النفط الخام للوقود الذي كان يوفر لهم ضياءً أفضل من الزيت، الذي كانوا يستخرجونه من بذور السمسم أو زيت الزيتون (احمد، ١٩٩٢، صفحة ٩٤)، وكانوا إذا أرادوا لهباً من نور عمدوا الى استعمال المشاعل المكونة من حزمة من القصب غطيت بالزيت أو القير، التي غالباً ما نرى الجنود الآشوريين في المنحوتات الجدارية وهم يحملون مثل هذه المشاعل في حملاتهم العسكرية (الراوي، ١٩٩١، صفحة ٢٧٢).

الخاتمة

١- استخدم القير بنطاق واسع في حضارات العراق القديمة بدأً من عصور ما قبل التاريخ والعصور اللاحقة، وتعددت استعمالاته في مجلات شتى.

٢- تشير الدلائل والنصوص الاثرية الى ذكر أماكن استخراج القير من مدينة هيت والقيارة ومناطق أخرى قرب كركوك.

٣- يعتقد ان بدايات استخدام القير كانت مع اكتشاف الزراعة، حيث أصبحت الحاجة له لحفظ الحبوب المخزونة بجرار من الفخار وتغطى بطبقة من القير لحمايتها من التلف بسبب العوامل الجوية والآفات والحشرات.

٤- بدأ استخدام القير كمادة انشائية للعمارة والبناء خلال العصور السومرية وفجر السلالات من خلال بناء الزقورات وإنشاء القنوات المائية الى جانب استخدامه في تزيين التماثيل وتثبيتها.

٥- في العصر الاكدي دخل القير مرحلة جديدة من التطور من خلال استخدامه في صناعة القوارب والمراكب النهرية (القف) بطلاء الأجزاء الخارجية والداخلية المصنوعة من القصب بمادة القير لمنع تسرب الماء الى داخل تلك القوارب.

٦- ادرك المعمار العراقي أهمية استخدام القير في بناء العقود من الاجر والحجر والقير وبناء السقوف البنائية من القصب والخشب وطلائه بالقير للحفاظ عليه من تسرب الامطار وحمايته من الآفات والحشرات.

٧- استخدم القير والاجر في العصر البابلي بفرش شارع الموكب المؤدي الى بوابة عشتار، وفي اشور فقد استخدم القير والحصى بتبليط الشوارع الرئيسية للعاصمة اشور فضلاً عن استخدامه في صفوف الارضيات الخاصة ببوابات المدينة وبناء المسناة على نهر دجلة لحماية المدينة من خطر الفيضانات..

٨- استخدم القير ببعض الاحكام القضائية لمعاقبة الجناة كعقوبة الزانية المحجبة.

٩- دخل القير كعنصر فعال في اعمال السحر والعرافة الى جانب بعض التراتيل الخاصة بهذه الاعمال.

١٠- في الحرب وإدارة المعارك كان القير والزيت المغلي احدى وسائل الدفاع عن المدن من خلال سكبه من اعلى الاسوار عبر فتحات في الاسوار لتصب بشكل مباشر على رؤوس الأعداء.

المصادر والمراجع

.London .Nimrod .(٢٠٠١) .and Qates.D, Joan.A

.Wiesbaden .A Concise Dictionary of Akkadian .(٢٠٠٠) .Black.J and Others

Frayne.D, R. (1992). The Early Dynastic List of Geographical Names. New Havan.

Grayson.A.K. (1987). The Royal Inscriptions of Mesopotamian,Assyrian Periods,1 (Vol. Vol.1). Toronto.

. London . Road to Nineveh .(١٩٦٥) .Layard.H

Mallowan, M. (1952). The Excavations at Nimrud (Kalhu). IRAQ.

Mallowan.M.E.L. (1966). Nimrud and its Remains. London.

.Traditional Building Materials Ancient Mesopotamia Architecture .(١٩٧٩) .Marcel.J.P ،Sumer

Oppenheim.A.L. (1970). Glass and Glasses making in Ancient Mesopotamia . New York .

Pstgate, J. (2003). Early Mesopotamia,. New York.

the Original Institute. (1956). Assyrian Dictionary of the Original Institute of the University of Chicago -CAD. S, p. 57.

Vonsodon.W, u. a. (1981). Assyriologie und Uorderoiatishe Archaologie,. Berlin.

Woolly, L. (1934). Ur Excavation. London: British Museum Press.

انطوان موتكات. (١٩٧٥). *الفن في العراق القديم* (المجلد ١). (عيسى سليمان وسليم طه التكريتي، المترجمون) بغداد: مطبعة الاديب البغدادية.

اوسكار رويتر. (١٩٨٥). *بابل المدينة الداخلية (المركز)*. (نوال خورشيد سعيد وعلي يحيى منصور، المترجمون) بغداد: الهيئة العامة للاثار والتراث.

تقي الدباغ. (١٩٨٥). الثورة الزراعية والقرى الاولى. تأليف *حضارة العرق* (المجلد ج١، صفحة). بيروت: دار الجيل.

جورج رو. (١٩٨٤). *العراق القديم*. (حسين علوان حسين، المترجمون) بغداد: وزارة الثقافة والاعلام.

جورج كونتينو. (٢٠١٩). *الحياة اليومية في بابل وآشور*. (سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، المترجمون) بغداد: دار الشؤون الثقافية.

جي كوليني. (١٩٧٩). بابل كتراث حضاري. *سومر*.

حازم عبودي السعدي. (٢٠١٨). *التمثلات الفلسفية في الاعتال الفخارية النحتية لحضارتي العراق ومصر القديمتين*. القاهرة: مركز الكتاب الاكاديمي.

حكمت بشير الاسود. (١٩٨٢). صيانة البوابة الغربية لمدينة آشور. *سومر*.

خالد الاعظمي. (العدد ١٣، ١٩٩٢). القار والاسفلت المستعمل في بعض الابنية والمواقع الاثرية القديمة. *مجلة التراث والحضارة*، صفحة .

خالد الاعظمي وصبيحة محمد كريم. (العدد٤٦، ١٩٩٠). ديمومة المواد القيرية ومجالات استعمالها في ابنية وادي الرافدين. *سومر*، صفحة .

خزعل الماجدي. (١٩٩٨). *بخور الالهة: دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين في العراق القديم*. عمان: الاهلية للنشر والتوزيع.

خضير عباس لامي وعبدالحميد الواشي. (١٩٧٣). *الاصول التاريخية للنفط العراقي*. بغداد: وزارة الثقافة والاعلام.

خلف زيدان خلف. (٢٠٠٥). *عمارة القصر الملكي في العصر الاشوري الحديث، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل*.

رضا جواد الهاشمي. (١٩٨١). الملاحة النهرية في بلاد الرافدين. *سومر*(العدد ٣٧).

رضا جواد الهاشمي. (١٩٨٣). تاريخ الري في العراق القديم. *سومر*.

روبرت كولدفاي. (١٩٨٥). *بوابة عشتار*. (علي يحيى منصور، المترجمون) بغداد: وزارة الثقافة والاعلام.

رويدة فيصل موسى النواب. (٢٠٢٠). الأسد في الفكر العراقي القديم. *مجلة جامعة ابن رشد في هولندا*.

رياض عبدالرحمن امين الدوري. (٢٠٠٩). *السحر في العراق القديم في ضوء المصادر المسمارية*. بغداد: الهيئة العامة للاثار والتراث.

سامي سعيد الاحمد. (١٩٨٥). الزراعة والري. تأليف *حضارة العراق،ج٢* (صفحة دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر). بغداد.

سهيلة مجيد احمد. (١٩٩٢). *صناعة الاغذية في العصور القديمة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل*.

صالح فليح حسن. (العدد٢٣، ١٩٨٩). طريق القير الى بابل، دراسة في الجغرافية التاريخية. *مجلة الجمعية الجغرافية العراقية*، صفحة .

طارق عبدالوهاب مظلوم. (١٩٨٥). النحت من عصر فجر السلالات حتى العصر البابلي الحديث. تأليف *حضارة العراق* (الإصدار العدد ٣٧). بغداد: دار الحرية للطباعة والنشر والتوزيع.

طارق عبدالوهاب مظلوم. (١٩٨٧). البيئة والمعمار في بلاد الرافدين واستعمال مادة اللبن. *بحوث الندوة القطريو الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب*.

عامر سليمان. (١٩٨٢). *الكتابة المسمارية والحرف العربي*. الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر.

عامر سليمان. (٢٠٠٢). *نماذج من الكتابات المسمارية: النصوص القانونية* (المجلد ج١). بغداد: المجمع العلمي العراقي.

عبدالرحمن يونس عبدالرحمن. (٢٠٠٠). *المياه في حضارة بلاد الرافدين في ضوء المصادر المسمارية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد*.

علي شحيلات وعبدالعزيز الياس الحمداني. (٢٠١١). *مختصر تاريخ العراق، تاريخ العراق القديم* (المجلد ج٦). بيروت: دار الكتب العلمية.

فاروق ناصر الراوي. (١٩٩١). الاوضاع الاجتماعية. تأليف *موسوعة الموصل الحضارية*. الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر.

فاضل عبدالواحد علي. (١٩٨٧). وثيقة التحرير للملك السومري اوتوحيكال. تأليف *موسوعة الجيش والسلاح* (المجلد ج١، صفحة). بغداد: دار الحرية للطباعة.

فاضل عبدالواحد علي واخرون. (العدد ٧، ١٩٩٢). الادباء السومريون واحداث التاريخ. *مجلة افاق عربية*.

فالتر أندريه. (١٩٨٧). *استحكامات آشور*. بغداد: الهيئة العامة للاثار والتراث.

فرج بصمه جي. (١٩٥٢). نمرود. *سومر*.

فوزي رشيد. (١٩٨١). صناعة الطابوق في العراق القديم. *مجلة النفط والتنمية*.

فوزي رشيد. (١٩٩١). العلوم الانسانية والطبيعية. تأليف *موسوعة الموصل الحضارية* (صفحة). الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر.

مارغريت روثن. (١٩٨٤). *تاريخ بابل*. (زينة عازار وميشال ابي فاضل، المترجمون) بيروت: منشورات عويدات.

مجموعة من الباحثين العراقيين. (١٩٨٥). *حضارة العراق* (الإصدار ج٢). بغداد: دار الحرية للطباعة والنشر.

محمد طه محمد الاعظمي. (١٩٩٢). *الاسوار والتحصينات الدفاعية في العمارة العراقية القديمة، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد.*

محمد عجاج جرجيس. (٢٠٠٨). *نموذج تخطيط وبناء العواصم الاشورية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ العربي.* بغداد.

مؤيد سعيد. (١٩٨٥). العمارة من عصر فجر السلالات الى نهاية العصر البابلي الحديث. تأليف *حضارة العراق* (الإصدار ج٣). دار الحرية للطباعة والنشر.

نوالة متولي محمود المتولي. (٢٠٠٧). *مدخل في دراسة الحياةالاقتصادية لدولة أور الثالثة في ضوء الوثائق المسمارية (المنشورة وغير المنشورة)* (المجلد ١). بغداد: الهيئة العامة للاثار والتراث.

هاري ساكز. (١٩٧٩). *عظمة بابل.* بغداد: دار الكتب للطباعة والنشر.

وسام بحر جرك. (١٩٨٨). *الزقورة ظاهرة حضارية مميزة في العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد.*

وسناء حسون يونس حسن الاغا. (٢٠٠٤). *الطين في حضارة بلاد الرافدين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل.*

ئاري خليل كامل المنمي. (٢٠٠٥). *اهم العناصر المعمارية في ابنية العراق القديم،رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل.*

يوسف شريف. (٢٠١٤). *تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور.* بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: م.د. معاد إبراهيم محمد

الجامعة: تكريت

الكلية: التربية للبنات

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:
moad.e.mohamad@tu.edu.iq

الهاتف: ٠٧٧٠٢٠٠٨١٨٩

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ١٣/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٢٨/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (نظام الالتزام الضريبي، تونس، الجباية، التجار، الملتزمين).

عنوان البحث

نظام الالتزام الضريبي في تونس وآثاره الإدارية والاقتصادية والاجتماعية (١٧٠٥-١٨٣٧) دراسة تاريخية

ملخص البحث

تفكك هذه الدراسة البنية الهيكلية والآثار الاقتصادية والاجتماعية لنظام الالتزام الضريبي (القبالات) في تونس الحسينية (١٧٠٥-١٨٣٧) وهي فترة مفصلية سبقت منعرج التحديثات العسكرية وتبحث الدراسة عبر مقاربة تاريخية تحليلية في الجذور الفقهية والممارسات الإدارية للنظام، راصدةً آليات اشتغاله القائمة على المزايدات والمحسوبية، وتشريح الخارطة الاجتماعية للملتزمين (المماليك، الأعيان، وجالية القرانا).إدارياً، تُثبت الدراسة كيف أدى النظام إلى عسكرة الجباية عبر مؤسسة "المحلة"، ونشوء إدارة موازية قوضت سلطة المركز والخزندار. واقتصادياً، تكشف دور النظام في تخريب الفلاحة والحرف التقليدية (الشاشية والنسيج) واستنزاف السيولة وتدهور الريال التونسي بسبب آلية "التسابيق"(الضرائب المدفوعة سلفاً للخزينة)، مما عمق العجز المالي. اجتماعياً، تتبع البحث مسارات التمايز الطبقي، وإفقار الرعية وتحولهم إلى عمال بالأجر اليومي نازحين، وانتشار الأوبئة والفرار من الجباية. وتخلص الدراسة إلى أن نظام الالتزام شكّل معبراً بنيوياً قاد تونس تلقائياً نحو ارتهان قرارها السياسي، حيث أخذت سيادتها تتبدد خطوة تلو الأخرى لتفقد مكانتها السيادية في المستقبل.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Dr. Maad Ibrahim Muhammad
University: Tikrit
College: Education for Women
Department: History
Country: Iraq
Email: moad.e.mohamad@tu.edu.iq
Phone: 07702008189

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 13/ / 2026
Acceptance Date: 28 / June / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Tax-Farming System, Tunisia, Taxation, Merchants, Tax Farmers (Al-Multazimun).

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Tax Compliance System in Tunisia and Its Administrative, Economic and Social Effects (1705-a Historical Study 1837)

Abstract

This study deconstructs the structural framework and the economic and social impacts of the tax farming system (known as "al-Iltizam") in Husseinite Tunisia (1705–1837), a pivotal period preceding the turning point of military modernization. Through a historical and analytical approach, the study examines the jurisprudential roots and administrative practices of the system, observing its mechanisms of operation based on bidding and favoritism, and dissecting the social map of the tax farmers (Mamluks, notables, and the Qaranah community). Administratively, the study demonstrates how the system led to the militarization of tax collection through the institution of the "Mahalla," and the emergence of a parallel administration that undermined the authority of the central government and the treasurer. Economically, it reveals the system's role in the destruction of agriculture and traditional crafts (such as the weaving of the chechia and textiles), the depletion of liquidity, and the devaluation of the Tunisian rial due to the mechanism of "advance taxes" (taxes paid in advance to the treasury), which exacerbated the financial deficit. Socially, the research traces the paths of class differentiation, the impoverishment of the populace, and their transformation into displaced daily wage laborers, along with the spread of epidemics and flight from taxation.

المقدمة

يُمثل النظام الجبائي المرآة العاكسة لطبيعة العلاقة الجدلية بين السلطة السياسية والمجتمع والمحدد الأساسي لمدى استقرار الدول أو تآكل بنيتها المؤسساتية وفي التاريخ الحديث لولاية شمال إفريقيا شكّل "نظام الالتزام الضريبي" (أو ما عُرف محلياً بالقبالات) الأداة الحيوية التي أدارت من خلالها الدول موازناتها المالية إذ تداخلت فيه التنظيمات العثمانية الوافدة مع الموروث الفقهي المالكي والممارسة السياسية المحلية للمخزن التونسي وتكتسب تونس خلال العهد الحسيني (١٧٠٥-١٨٣٧) أهمية استثنائية كنموذج رائد لدراسة هذا التداخل البنيوي وتأثيراته المتعدية للبعد المالي الصرف.

أهمية البحث

تتبلور أهمية هذا البحث في كونه يتجاوز السرد الوصفي التقليدي لآليات جمع الضرائب متجهاً نحو تفكيك "البنية الهيكلية" للالتزام الضريبي كمنظومة تشريعية ومؤسساتية واقتصادية واجتماعية وتكمن قيمته العلمية في تسليط الضوء على الحقبة الممتدة من تأسيس الدولة الحسينية عام ١٧٠٥ حتى قبيل التحديثات العسكرية الكبرى عام ١٨٣٧ وهي الفترة التي شهدت مؤسسة القبالات (التزام الضرائب) وتحولها من أداة ظرفية لجمع السيولة إلى ركيزة بنيوية تسببت في أزمات نقدية واجتماعية حادة عجلت فيما بعد باختراق السيادة التونسية عبر الديون.

إشكالية البحث وفجوته العلمية

تتمحور إشكالية البحث حول السؤال الجوهري التالي: كيف تحول نظام الالتزام الضريبي في تونس (١٧٠٥-١٨٣٧) من آلية مالية طارئة لتوفير السيولة النقدية للدولة إلى أداة لتفكيك البنى الإدارية وتخريب القطاعات الإنتاجية وإعادة تشكيل البنية الاجتماعية للمجتمع التونسي؟

تسعى هذه الدراسة لسد "فجوة علمية" واضحة في الدراسات التاريخية السابقة والتي غالباً ما فصلت بين الأثر المالي الصرف للنظام وتداعياته ودراسة المجتمع من خلال الأرقام والسكان، أو تعاملت مع الجباية كإجراء إداري معزول عن مسألة ارتهان الإرادة السياسية والسيادة الوطنية التونسية في القرن التاسع عشر.

خطة البحث والمنهجية

في سبيل الإحاطة الدقيقة بأبعاد هذه الإشكالية أتبعت الدراسة خطة منهجية متدرجة زاوجت فيها بين ادوات المنهج التاريخي التحليلي لتتبع الجذور التشريعية وتطور الأحداث واليات المنهج (الاجتماعي) لتشريح التحولات الطبقية والديموغرافية المؤثرة في بنية المجتمع. وتتوزع خطة البحث على خمسة مباحث متكاملة حيث يفتتح بـ (المبحث التمهيدي: المرتكزات التاريخية والجبائية للدولة التونسية قبل العهد الحسيني) لتأصيل الجذور التاريخية يليه (المبحث الأول: المؤسسة التشريعية والأصول الفقهية لنظام التزام الضرائب الحسيني) للوقوف على التطورات القانونية والمراسيم البايوية ثم ينتقل البحث لـ (المبحث الثاني: الهيكلة الاقتصادية للالتزام وآليات تشغيل بورصة اللُّزم الجبائية) لتشريح طرق المنح وفئات الملتزمين ليعقبه (المبحث الثالث: المنظومة الجبائية بين التصدع الإداري والتحولات العسكرية والارتهان السياسي للمخزن) في رصد للأثر المؤسساتي والسياسي وصولاً إلى (المبحث الرابع: التداعيات النقدية والتحولات الاجتماعية وبنية الاحتجاج في المجتمع التونسي) الذي يدرس بعمق تخريب القطاعات المنتجة والأزمات الاجتماعية والديموغرافية الناتجة عن تعسف الملتزمين.

المبحث التمهيدي: المرتكزات التاريخية والجبائية لتونس قبل العهد الحسيني

المحور الأول: الجذور العثمانية وتطور البنية الجبائية قبل عام ١٧٠٥

شهدت تونس مع مطلع القرن الثامن عشر تحولاً سياسياً وجبائياً جذرياً تمثل في نجاح الحسين بن علي في تأسيس الدولة الحسينية عام ١٧٠٥ ورث النظام الجديد تركة مثقلة من الاضطرابات السياسية والصراعات العسكرية التي ميزت العهد المرادي السابق مما جعل المسألة المالية وتأمين الموارد الاقتصادية للخزينة (بيت المال) على رأس أولويات البايات الحسينيين ومن هنا تبلور نظام الالتزام الضريبي كآلية أساسية لإدارة الجباية ليس فقط لجمع الأموال بل كأداة لإعادة هندسة القوة السياسية والاجتماعية في البلاد.

لم يكن نظام الالتزام الضريبي (الذي يُعرف محلياً وفي الوثائق التونسية بـ "المرابحة" أو "التقبيل" أو "اللزوم") وليد الصدفة في العهد الحسيني بل كانت له جذور ممتدة في الهياكل الجبائية الإسلامية والعثمانية فمنذ انضواء تونس تحت الراية العثمانية في أواخر القرن السادس عشر جلب العثمانيون معهم نمطاً إدارياً يعتمد على تفويض جباية المقاطعات والضرائب غير المباشرة إلى أفراد يدفعون مبلغاً مقدماً للدولة مقابل حق تحصيلها (بن عاشور، ١٩٨٠، ٤٥).

المحور الثاني: واقع الجباية الاستخراجية والمرتكزات الاقتصادية والاجتماعية الموروثة عن العهد المرادي

خلال العهد المرادي (١٦٣١-١٧٠٢) تطورت هذه الممارسة الإدارية نتيجة حاجة البايات المستمرة للمال لتمويل الحروب الأهلية وشراء ولاء القبائل الحضرية والبدوية إلا أن الجباية كانت تتسم بالارتجالية والعنف في الغالب حيث كانت "المحلة" العسكرية (وهي الحملة المسلحة التي يقودها الباي أو ابنه مرتين في السنة: محلة الصيف ومحلة الشتاء) هي الأداة الرئيسية لانتزاع الضرائب المباشرة مثل "العشور" على الحبوب (والمجباة وهي الضريبة الشخصية هي ضريبة سنوية مفروضة على الأشخاص البالغين المستقرين) و"المكس" من السكان (الباجي المسعودي، ١٩٨٩، ١١٢). تميز العهد المرادي بعدم استقرار سياسي واقتصادي انعكس بشكل مباشر على البنية الجبائية لتونس فقد كان النظام الجبائي يعتمد على ازدواجية واضحة بين "الأداءات الشرعية" كالعشور والزكاة (التي كان يقل مردودها بسبب تمرد القبائل وصعوبة السيطرة على الدواخل) و"المغارم والمكوس" الوضعية والتعسفية التي فرضها

البايات المراديون لتغطية نفقات حروبهم الأهلية وصراعاتهم مع ديرية الجزائر (الشرقي، ٢٠٠٤، ٨٨-٨٩؛ الوزير السراج، ١٩٧٠، ج٢، ٤١٥).

وعندما انهار الحكم المرادي ودخلت البلاد في فوضى "عصر الدايات" والتدخل الجزائري تفككت أوصال الإدارة المالية وغدت طرق التجارة غير آمنة مما تسبب في انكماش الموارد الجبائية التقليدية وانخفاض عائدات القرصنة البحرية (الجهاد البحري) التي كانت تشكل رافداً مالياً مهماً للخزينة (Cherif, 1986, 78) ونظراً لضعف جهاز الدولة المركزي في رصد المداخيل التجأ المراديون بشكل مكثف إلى لزوم الكمارك (الحرك) وقبالات التجارة الخارجية والداخلية وتفويتها إلى تجار أجانب (يهود ليفورنيين ومسيحيين) ووجهاء محليين مقابل مبالغ مسبقة دفعت بالعملة الصعبة (Cherif, 1984, Vol. 1, 74-75) هذا الاعتماد المفرط على الجباية الاستخراجية المباشرة والالتزامات الظرفية تسبب في إرهاق الإنتاج الفلاحي وهجرة المزارعين لأراضيهم (الخماسة) ودخلت البلاد في أزمة اقتصادية خانقة في أواخر القرن السابع عشر مهدت الطريق لسقوط الدولة المرادية وقيام الدولة الحسينية في تونس عام ١٧٠٥ على أنقاض نظام جبائي متهالك (ابن أبي الضياف، ١٩٩٠، ج١، ١٨٢-١٨٤) هذا التدهور الاقتصادي الحاد هو الذي جعل الحسين بن علي عند اعتلائه العرش عام ١٧٠٥ يدرك أن استقرار حكم أسرته الناشئة مشروط بإعادة تنظيم هيكلي وشامل للمنظومة الجبائية وتوسيع رقعة الالتزام.

المبحث الأول: المؤسسة التشريعية والأصول الفقهية لنظام القبالات الحسيني

المحور الأول: مفهوم الالتزام الضريبي (القبالات) في الفقه الإسلامي والممارسة العثمانية

شهد الفقه الإسلامي منذ العصور الوسطى نقاشاً طويلاً حول مشروعية "ضمان الخراج" أو ما عُرف لاحقاً بنظام "الالتزام" حيث اعتبره عدد من فقهاء المالكية والشافعية من قبيل "بيع الغرر" أو تضمين ما لم يجب إلا أن الضرورات المالية للدولة الإسلامية فرضت اللجوء إليه تحت مسميات "القبالة". والقبالة لغةً هي التعهد والالتزام وفي الاصطلاح الجبائي تعني: أن يتكفل شخص (المقَبِّل أو الملتزم) بدفع مبلغ مالي معين لبيت المال بصفة دورية مقابل تفويضه من قِبل السلطة لجمع الضرائب والرسوم المفروضة على إقليم معين أو نشاط اقتصادي محدد (كالموانئ والأسواق) على أن تكون أرباحه هي الفارق بين ما يجمعه فعلياً وما يدفعه للخزينة (التواتي، ١٩٩١، ١٤٥-١٤٦؛ الداودي، ١٩٨٩، ١١٢).

مع توسع الدولة العثمانية وبروز الحاجة إلى سيولة نقدية عاجلة لتمويل الحروب وإدارة الولايات البعيدة انتقلت الممارسة من نظام "التيمار" (الإقطاع العسكري) إلى نظام "الالتزام" (Iltizam) في القرن السادس عشر ثم تطور في نهاية القرن السابع عشر (١٦٩٥) إلى نظام "المالكانة" (الالتزام مدى الحياة) (Inalcik, 2000, 103-104). وفي تونس تداخل المفهوم الفقهي للقبالة مع الممارسة العثمانية فأصبحت "القبالات" تشمل قبالة الملح وقبالة الأسواق وقبالة الحرك (الكمارك) وكان الملتزم (صاحب القبالة) يمثل سلطة تنفيذية جائرة في كثير من الأحيان حيث تمنحه السلطة "أمر الباي" لجمع الجباية مستعيناً بالقوة العسكرية (المحلة) مما شرعن لنمط إنتاجي وجبائي يعتمد على وسيط مالي بين الرعية والمركز الإداري للحكم (ابن خلدون، ١٩٨٤، ٢٦٤-٢٦٦).

المحور الثاني: التطور التشريعي والمراسيم البايوية المنظمة للالتزام (١٧٠٥ - ١٨٣٧)

مع صعود الحسين بن علي وسلالته إلى سدة الحكم عام ١٧٠٥ دخل نظام الالتزام الضريبي مرحلة جديدة من "المؤسسة القانونية" والتقنين عبر المراسيم البايوية (الأوامر) ففي عهد حسين بن علي (١٧٠٥ - ١٧٤٠) وعلي باي وعثمان باي تحول الالتزام من أداة طارئة إلى الركيزة الأساسية لمالية الدولة وصدرت مراسيم بايويّة تنظم كيفية إجراء "البتة" (المزاد العلني) لبيع القبالات في قصر باردو حيث كانت الدولة تحدد شروطاً صارمة للملتزمين تشمل تقديم ضمانات مالية وكفلاء (ضامني وجه) من كبار تجار الحاضرة لضمان عدم التهرب (البارودي، ١٩٩٥، ٢١٠-٢١١؛ بيرم الخامس، ١٨٨٤، ج٢، ٦٣-٦٥).

وتطور التشريع الجبائي ليشمل تحديد المدد القانونية للالتزام (غالباً ما تكون سنة قابلة للتجديد) وحددت المراسيم بدقة الأنواع التشريعية للالتزامات (التميمي، ١٩٩٨، ٤٥). وفي عهد حمودة باشا (١٧٨٢ - ١٨١٤) بلغت هذه المنظومة ذروتها التشريعية حيث أُدمجت قبالات زيت الزيتون والحبوب والمنسوجات (الشاشية) ضمن قوانين صارمة تمنع الاحتكار العشوائي وتلزم الملتزمين بتقديم دفاتر حسابية تُراقب من قِبل "دفتردار" الدولة (المسؤول المالي) (Valensi, 1977, 118-120). غير أن هذا التطور التشريعي كان يحمل في طياته بذور أزمة إذ إن القوانين ركزت على حماية مداخيل الباي ومستحقات الملتزمين دون وضع حدود قانونية تحمي الرعية من شطط الملتزمين وهو ما مهد للأزمة الهيكلية لمالية تونس قبيل منتصف القرن التاسع عشر تحت حكم مشير البايات (حسين باي ومصطفى باي).

المبحث الثاني: الهيكلة الاقتصادية للالتزام وآليات تشغيل بورصة اللُّزم الجبائية

المحور الأول: قنوات منح القبالات (المزايدات العلنية، التعيين المباشر، وأثر المحسوبية)

يُعرّف نظام الالتزام الضريبي في السياق التاريخي للدولة الحسينية في تونس بأنه عقد مالي وإداري بمقتضاه تفوض الدولة (الباي) إلى أحد الأفراد (الملتزم أو اللزام) حق جباية ضريبة معينة أو استغلال مرفق اقتصادي أو احتكار تجارة مادة محددة في إقليم جغرافي معين مقابل مبلغ مالي مقطوع ومتفق عليه مسبقاً يتم دفعه إلى خزينة الدولة (دفتر دار) سنوياً أو على أقساط (ابن أبي الضياف، ١٩٦٣، ج٢، ١٥٤).

شهدت البنية المالية للدولة العثمانية تحولاً جوهرياً تمثل في تراجع مؤسسة "التمار" لصالح نظام الالتزام لتوفير السيولة النقدية العاجلة (Shaw, 1962, 26–28). وكان يتم منح الالتزام عبر آليات إدارية محددة تشرف عليها "السرايا" (القصر الحاكم):

١. المزايدات العلنية (البتة – المناداة): كانت الطريقة الرسمية المعتمدة تُطرح المقاطعة أو القبالة في مزاد علني يُعرف بـ "المناداة" في ديوان الولاية أو قصر باردو ويفوز به من يقدم أعلى مبلغ معجل يدفع للخزينة ويسمى "المُعجّلة" ويتعهد بدفع قسط سنوي ثابت وهو "المؤجّلة" (أحمد السعيد سليمان، ١٩٨٧، ٤٥–٤٦؛ بيرم الخامس، ١٨٨٤، ٣٢).

٢. صك الالتزام (التسجيل والتوجيه): يُحرر عقد رسمي يُسجل في دفاتر "المحاسبات" يوضح القيمة المالية والمدة الزمنية (غالباً عام واحد قابل للتجديد) والحدود الجغرافية أو النوعية للالتزام (شمام، ١٩٧٠، ٨٩). وكان يلجأ للتعيين المباشر دون مزايدات في حالات الاضطرابات الأمنية أو كمكافأة للقادة العسكريين (الدوري، ١٩٧٤، ١١٢–١١٤).

٣. الضمانات المالية والمحسوبية: كان يُشترط في الملتزم أن يكون من أصحاب الثروة والجاه أو أن يقدم كفيلاً مالياً (ضامناً) من كبار التجار أو الأعيان لضمان سداد المبالغ في حال عجز عن التحصيل (التليلي، ١٩٧٩، ٢١٠) إلا أن الرشوة (البرطيل) والمحسوبية شكلتا المحرك الخفي للنظام فتحول تدريجياً إلى صراع نفوذ داخل القصور حيث منح كبار المسؤولين الالتزامات لأتباعهم مما أدى إلى احتكار فئات محددة للثروات (عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ١٩٨٦، ٩٢).

المحور الثاني: الطبقية المجتمعية للملتزمين (الأعيان، المماليك، التجار "البلدية"، وجالية "القرانا")

تشكلت خريطة اجتماعية معقدة للملتزمين تعكس توازن القوى الاقتصادي والسياسي في تونس:

– الأعيان (وجهاء الريف والمدن): برزوا كقوة وسيطة استغلت نفوذها وعلاقاتها بالفلاحين للاستحواذ على التزامات الأراضي الزراعية وضبط الإنتاج مقابل الحصول على الفائض (محمد الهادي الشريف، ١٩٩٣، ٨٧).

– التجار الحاضرية ("البلدية"): توفرت لديهم السيولة النقدية الكافية للدخول في المزايدات ودفع "المعجلة" فدمجوا رأس المال التجاري بالنظام الضريبي كوسيلة آمنة لاستثمار أموالهم (أندريه ريمون، ١٩٧٤، ج١، ٢٠١–٢٠٣).

–المماليك (الكشاف والأمراء وعسكر الإقليم): هيمنوا بقوة السلاح والنفوذ السياسي على أوسع المقاطعات ربحية واستخدموا فائض الالتزام لبناء ثرواتهم الخاصة وشراء الولاءات (Panzac, 1996, 310–312).

– الجاليات الأجنبية واليهود (القرانا): لعبوا دوراً حاسماً بفضل شبكاتهم الدولية وسيولتهم الضخمة وفي تونس احتكر "القرانا" (اليهود الليفورنيون المنحدرون من إيطاليا) التزامات الكمارك والتجارة الخارجية وعملوا كصيارفة ومقرضين للباشوات والملتزمين الآخرين (ليلى الصباغ، ١٩٨٩، ج٢، ١٤٥–١٤٧).

المحور الثالث: الأوعية الجبائية الخاضعة للالتزام (المكوس، المَجْبَى، لُزم الأسواق، والأملاك البايوية)

تنوعت مجالات الالتزام والضرائب الملتزم بها في تونس بشكل واسع ليشمل كل عصب اقتصادي ويمكن تقسيمها إلى:

– نظام التزام جباية الأقاليم (اللزومات الترابية والمَجْبَى): ويتعلق بجمع الضرائب المباشرة كالعشور والزكاة والمجباة (ضريبة الرأس على الرعايا والماشية) من القرى والقبائل وكان يُسند غالباً للقياد (الحكام المحليين) أو مشايخ القبائل (بن يوسف، ١٩٧٢، ١٤٣؛ لطفي عبد البديع، ١٩٩١، ٢١٥–٢١٧).

–التزام المحاصل والكمارك والمكوس (اللزومات التجارية): وشمل جباية الرسوم الجمركية غير الشرعية على الصادرات والواردات (الحرك) واحتكار تجارة المواد الحيوية كالزيت والملح والجلود والتبغ والشمع (المعروف بـ "البارات") (عزيز العظمة، ١٩٩٥، ٧٤؛ Mantran, 1961, 55).

– التزام الحرف والأسواق (اللزومات الحضرية): مثل جباية رسوم "الدلالة" وفتح الحوانيت وضريبة الوزن (القبان) من الحرفيين في أسواق تونس العاصمة كالشواشين، الدباغين، والسراجين (المنصوري، ٢٠٠٣، ١١٨؛ Faroqhi, 1999, 88–90).

_ لُزم الأملاك البايوية (الميرية): وهي الالتزامات الخاصة بالأراضي والمنشآت التابعة مباشرة لخاصة الحاكم (الباي)، وتشمل المزارع الواسعة معاصر الزيوت، طواحين الغلال ومصائد الأسماك (توفيق كيروش، ٢٠٠٢، ١٥٨–١٦٠).

المبحث الثالث: المنظومة الجبائية بين التصدع الإداري والتحولات العسكرية والارتهان السياسي للمخزن

المحور الأول: تراجع دور الإدارة المالية المركزية (الخزندار) ونشوء "الإدارة الموازية" لشبكات الملتزمين

في ظل النظام الإداري التقليدي كان "الخزندار" (وزير المالية) يمثل قمة الهرم الجبائي والمسؤول عن ضبط الدفاتر وتوجيه الجباة الرسميين ومع تغلغل نظام الالتزام، تقلص هذا الدور المباشر إذ تحول الخزندار إلى مجرد مراجع دفتري يتلقى الأقساط الثابتة المتفق عليها مسبقاً من الملتزمين بينما انتقلت سلطة تقدير الضرائب وفرض الإتاوات الإضافية (الفائض والمضاف) إلى أيدي الملتزمين (الرافعي، ١٩٨٢، ٤٥–٤٧؛ الجبرتي، ١٩٩٨، المجلد الأول، ١١٢–١١٤) وما عمق هذا التراجع هو نشوء "بورصة القبالات" في أسواق المزايدات فأصبحت "القبالة" سنداً ماليّاً قابلاً للتداول والتنازل من الباطن لملتزمين أصغر (ملتزمي الفايض) مما خلق دورة ماليّة مستقلة تماماً عن رقابة الإدارة المركزية (أبو حسين، ٢٠٠٢، ٨٨–٩٠؛ Raymond, 1973, 201–203).

أدى عجز الإدارة المركزية عن الوصول المباشر إلى الأطراف والأرياف البعيدة إلى الاعتماد المطلق على القوى المحلية النافذة وهنا برز دور "القادة" وشيوخ القبائل كركيزة أساسية حيث تحولوا إلى

"وسطاء ماليين وإداريين إلزاميين" للدولة وللملتزمين الحواضر العاجزين عن دخول مناطق القبائل دون حماية الشيخ المحلي (التميمي، ١٩٩٣، ١٣٤-١٣٦؛ Hourani, 1991, 254-256) ونتيجة لذلك تحولت القيادة المحلية من وظيفة تابعة للدولة إلى "سلطة مستقلة بحكم الأمر الواقع" حيث بات الوالي المركزي عاجزاً عن عزل أي قائد محلي طالما أنه يضمن تدفق أموال الالتزام (التريكي، ١٩٨٩، ٦٢-٦٥؛ الوردي، ٢٠٠٥، ج١، ١٧٥-١٧٨).

لم يكن نظام الالتزام مجرد أداة اقتصادية بل أفرز "إدارة متكاملة " تشكلت من شبكات مصالح معقدة تضم الملتزمين والكتاب، والصيارفة (خاصة من اليهود والمسيحيين الذين كانوا يمولون دفع القسط المسبق للالتزام)، (أمين، ١٩٩٨، ٢١٠-٢١٣) امتلكت هذه الشبكات سجوناً خاصة بها لمعاقبة الفلاحين المماطلين وعينت محكمين محليين لحل النزاعات الزراعية بعيداً عن المحاكم الشرعية الرسمية (مرسي، ١٩٩١، ٣١٥-٣١٧؛ سعيد، ١٩٨٦، ١٤٥-١٤٨) كان لهذا الوضع أثر مدمر على "هيبة الدولة" وصورتها السيادية حيث بدا الحكام في عيون الرعية عاجزين ومجردين من سلطة حماية مواطنيهم مما أضعف الولاء السياسي (Cuno, 1992, 67-70).

المحور الثاني: عسكرة الجباية (مؤسسة "المحلة" كأداة قسرية لخدمة قوى الالتزام)

أدى الاعتماد المتزايد على نظام الالتزام إلى "عسكرة الإدارة" الجبائية بشكل سافر حيث تحولت عملية استخلاص الضرائب إلى حملة عسكرية شبه سنوية تجسدت في مؤسسة "المحلة" وهي عبارة عن فيلق عسكري يقوده غالباً ولي العهد (باي الأمحلة) يطوف أرجاء البلاد مرتين في السنة: "محلة الصيف" للشمال والمناطق الزراعية و"محلة الشتاء" للجنوب والمناطق الرعوية والواحات (مصطفى كريم، ١٩٩٤، ٨٩-٩٢) كان الارتباط وثيقاً بين الملتزم والمحلة فكبار الملتزمين كانوا يرافقون المحلة أو يطلبون تحريك مفرزة عسكرية منها لإخضاع القبائل والقرى الممتنعة عن دفع "اللزمة" أو "العشور" ولم يكن دور المحلة يقتصر على إرهاب الرعية بل كانت تفرض خططاً جائرة تُعرف بـ "النزول" و"الميرة" حيث يُجبر الأهالي على إطعام الجند وخيولهم مجاناً (الباجي المسعودي، ١٩٨٩، ١٦٥-١٦٧؛ الهلالي، ٢٠٠٢، ١١٠-١١١) هذه العسكرة المفرطة ألغت أي أفق لتطوير المدن والارياف وحولت العلاقة بين الدولة والمجتمع إلى علاقة "غالب ومغلوب"، مما تسبب في حرق المحاصيل وسجن الشيوخ وتدمير البنية الاقتصادية (Clancy-Smith, 1994, 102-104).

المحور الثالث: ارتهان القرار السياسي للباي والنزاعات القضائية الجبائية

لم تكن العلاقة بين الباي والملتزمين الكبار علاقة تبعية مطلقة بل كانت علاقة "ارتهان متبادل" وتخادم مصلحي فرضته الأزمات المالية الهيكلية ومع تراجع عوائد القرصنة البحرية، تحول نظام "الالتزام" (Lézma) إلى الشريان الأساسي لتمويل الدولة وبما أن جباية الضرائب كانت تتطلب سيولة نقدية عاجلة، فقد ارتهن القرار السياسي لطبقة "الملتزمين الكبار" الذين كانوا يقدمون سلفيات مالية ضخمة للباي مقابل احتكار جباية الضرائب أو تصدير المنتجات الاستراتيجية كالقمح والزيت والصوف (أحمد بن أبي الضياف، ١٩٩٩، ج٤، ١١٢-١١٤؛ محمد الهادي الشريف، ٢٠٠٧، ٨٥-٨٦) لعب "المماليك" الذين صعدوا في هرم السلطة الإدارية (مثل مصطفى خزندار) دور الوسيط والشريك لهؤلاء التجار (اليهود "التوانسة" و"القرانا"، والإيطاليين والفرنسيين) هذا التحالف أدى إلى توجيه السياسة الاقتصادية للدولة لحماية مصالح الملتزمين فعندما كان الباي يحتاج إلى قروض عاجلة لدفع رواتب الجند كان يضطر إلى إصدار "فرمانات" تمنح الملتزمين امتيازات قضائية وإعفاءات أو ترفع نسب الضرائب على الرعية لتسديد تلك الديون مما جعل القرار السيادي رهينة لإرادة الملتزمين (البشروش، ١٩٨٢، ٤٥؛ Valensi, 1977, 210-212).

شهدت العلاقة بين "الرعية" و"الملتزمين" صراعاً قضائياً مريراً ناتجاً عن الجشع الجبائي وتجاوز الملتزمين للقوانين العرفية والشرعية إذ فرضوا مغارم إضافية (مظالم) لضمان هامش ربح شخصي ضخم مستغلين سلطة المرتزقة المرافقين لهم (الإمام، ١٩٨٠، ٢٣٣-٢٣٥) أمام هذا التعسف طورت الرعية آليات للمقاومة القانونية تمثلت في رفع "الشظايا" (الشكاوى والعرائض) إلى الباي مباشرة باعتباره المرجع القضائي الأعلى وصاحب "مجلس المظالم" (بيرم الخامس، ١٨٨٤، ج٢، ٧٨) كان التحكيم البايوي أداة سياسية حساسة فمن جهة كان الباي يدرك أن الضغط الجبائي المفرط قد يؤدي إلى انتفاضة القبائل وهجر الفلاحين لأراضيهم (الخلو الجبائي) فكان يتدخل أحياناً عبر عزل بعض الملتزمين لتخفيف الاحتقان (الشاطر، ١٩٩٠، ١٤٨-١٥٠) ومن جهة أخرى كان هذا التحكيم يتسم بالبراغماتية فالباي لا يستطيع إضعاف الملتزمين تماماً لأنهم يمثلون ركيزة ماليته فكان التحكيم ينتهي بتسويات وسطية تضمن استمرار تدفق الأموال إلى "باردو" مع إعطاء مسكنات مؤقتة للرعية (Perkins, 2004, 34-36).

المبحث الرابع: التداعيات النقدية والتحولات الاجتماعية وبنية الاحتجاج في المجتمع التونسي

المحور الأول: انكماش القطاعات الإنتاجية (تراجع الفلاحة، خنق التجارة، وتفكك طوائف الحرف)

شهد الريف التونسي تدهوراً حاداً نتيجة تعاظم جشع الملتزمين الذين فرضوا إتاوات إضافية وفاحشة عُرفت بـ "الفايض" و"المضاف" و"الكشوفية" مستغلين غياب الرقابة المركزية (أحمد شلبي بن عبد الغني، ١٩٩٧، ٢١٤–٢١٥؛ عبد الكريم رافق، ١٩٦٨، ١٤٢) هذا الإرهاق الجبائي أفرز ظاهرة خطيرة في البنية الاجتماعية والاقتصادية للريف عُرفت بـ "الفلاحين الهاربين" أو "الفارّين" إذ دفع "الخوف من الجباية" وسياط الملتزمين بآلاف الفلاحين إلى هجر قراهم وأراضيهم الزراعية طواعية واللجوء إما إلى المدن للعمل في مهن هامشية أو الهروب نحو المناطق الجبلية والصحراوية البعيدة عن يد السلطة الجبائية أدى هذا النزوح الجماعي إلى ظاهرة "الأراضي الموات" أو "الخراب"، حيث بارت مساحات شاسعة من التربة الخصبة وتدهورت نظم الري التقليدية لأن الملتزم الذي كان ينظر لالتزامه كحق مؤقت رفض الاستثمار في إصلاح البنية التحتية الزراعية مما انعكس سلباً على الإنتاجية العامة وتسبب في مجاعات متكررة (عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ١٩٨٧، ٩٨–١٠٠؛ Shaw, 1962, 64–66).

لم تقتصر جباية الالتزام على الأراضي الزراعية بل امتدت لتشمل الشرايين التجارية عبر ما عُرف بـ "لُزم المكوس" وضرايب العبور (الترانزيت الداخلي) كانت الطرق التجارية بين المدن والأقاليم مقطعة الأوصال نتيجة تعدد المحطات الجبائية (المراصد والبوابات) التي يلتزمها أفراد من المماليك أو الإنكشارية، أو الأعيان المحليين (ليلى عبد اللطيف أحمد، ١٩٧٨، ٢٠١–٢٠٣) وكل ملتزم مكس كان يسعى لتعظيم أرباحه عبر فرض رسوم اعتباطية غير مقيدة بالقوانين السلطانية (القانون نامه) على البضائع العابرة هذا التعدد اللامتناهي للرسوم عند مداخل المدن وضفاف الأنهار وضرايب الموانئ أدى إلى ارتفاع جنوني في الأسعار النهائية للبضائع نتيجة تراكم ضرايب العبور (الجبرتي، ١٩٨٣، المجلد الثاني، ١١٨–١١٩)، وانكفاء التجارة الداخلية وتحولها إلى تجارة محلية ضيقة خوفاً من مصادرة البضائع أو فرض إتاوات فجائية (محمد أنيس، ١٩٦٢، ٨٥) وتضررت التجارة الخارجية؛ إذ إن التجار الأجانب واجهوا تعسف ملتزمي الكمارك والموانئ مما دفع بكثير من السفن التجارية إلى تغيير مساراتها نحو موانئ أكثر أماناً مما أصاب الحركة التجارية بالشلل والركود (Raymond, 1973, Vol. 1, 247–249).

طالت مخالب نظام الالتزام البنية الحرفية المدنية من خلال التزام الطوائف الحرفية وأسواق المدن الكبرى حيث كانت السلطة المحلية تبيع حق جباية الضرائب من الحرفيين (صناع النسيج، دابغي الجلود، وصناع الشاشية) إلى ملتزمين يُطلق عليهم "أصحاب المقاطعات" (توفيق كنعان، ١٩٨١، ١١٢-١١٤) وفي تونس تأثرت صناعة الشاشية (التي كانت ركيزة الصادرات التونسية) بنظام الالتزام بشكل كارثي حيث فرض ملتزمو "سوق الشواشين" ضرائب باهظة على المواد الخام المستوردة كالصوف الإسباني والصبغات وضاعفوا الرسوم على دكاكين الإنتاج والتوزيع (ابن أبي الضياف، ١٩٩٠، المجلد الأول، ١٦٧-١٦٩) ؛ (بيرم الخامس، ١٨٨٤، الجزء الثاني، ٤٤-٤٥) أدى هذا الضغط الجبائي المتواصل إلى إفلاس صغار الحرفيين لعدم قدرتهم على دفع الإتاوات المسبقة وانخفاض جودة المنتجات التقليدية بسبب لجوء الحرفيين إلى مواد خام أرخص لتغطية كلفة الالتزام الهبوط الحاد في القدرة التنافسية للصناعات المحلية أمام المنتجات الأوروبية التي بدأت تغزو الأسواق مما عجل بانهيار المنظومة الطائفية الحرفية التقليدية وتفككها (Islamoglu-Inan, 1987, 210-212).

المحور الثاني: ألية التسابق النقدي وتدهور الريال وتمهيد المسار نحو الارتهان للقروض الخارجية

شهدت تونس في النصف الأول من القرن التاسع عشر أزمة نقدية حادة ارتبطت بنيوياً بآلية "تسبيق الأموال" إذ كانت خزينة الباي تعاني عجزاً مزامناً بسبب النفقات العسكرية الطموحة (مثل بناء جيش نظامي على النمط الأوروبي وإنشاء قصر المحمدية والمدرسة الحربية بباردو) ولتغطية هذا العجز لجأ الباي إلى كبار التجار المحليين والأجانب للحصول على قروض عاجلة وقصيرة الأجل تحت مسمى التسابيق وهي الضرائب أو الاموال الجبائية الاستثنائية التي كان الباي الحاكم أو السلطة المركزية يفرض جبيتها وتحصيلها من الرعايا أو القبائل أو التجار أو لزام الضرائب (القباض) بصفة مسبقة وقبل حلول موعدها (محمد الهادي الشريف، ١٩٩٥، ٨٩) مقابل هذه التسابيق ، منح الباي هؤلاء الدائنين امتيازات استخلاص الضرائب أو احتكار تصدير المنتجات الاستراتيجية كزيت الزيتون والحبوب أدت هذه الآلية إلى تفريغ السوق المحلية من السيولة النقدية الحقيقية (المسكوكات الذهبية والفضية) التي كانت تنتهز الفرصة وتُهرَّب إلى الخارج كأرباح أو لسداد ثمن البضائع المستوردة (الشاطر، ١٩٩١، ١٤٢-١٤٤) ولمواجهة قلة السيولة لجأت الدولة إلى تخفيض عيار العملة حيث تم التلاعب بالوزن ونسبة المعادن الثمينة في "الريال التونسي"مما أدى إلى تدهور قيمته الحمائية والتنافسية أمام العملات الأجنبية كـ " بوجو" الجزائري أو " الفرانك" الفرنسي، تسبب هذا الانهيار النقدي في مضاربات واسعة النطاق وارتفاع

جنوني في الأسعار واهتزاز ثقة التجار الأجانب بالمنظومة النقدية التونسية (Valensi, 1977, 2001–203).

نتج عن تكرار "تسابيق الأموال" وعجز الدولة عن السداد الفوري تحول هذه السلفيات القاتلة إلى "ديون داخلية" ضخمة ومتراكمة تُقيد في سجلات الخزينة (دفتر السندات) بفوائد ربوية مرتفعة جداً تتراوح غالباً بين ١٢% و١٥% وأحياناً تصل إلى ٢٠% (النقرة، ١٩٧٤، ٤٥–٤٦). انعكست آثار هذه البيئة غير المستقرة بشكل مباشر في صعود طبقة نافذة من "المرابين" وأصحاب الرأسمال المالي المحلي (مثل عائلات صاموبل، شاما، وبقش) والرأسمال الأجنبي المستقر في تونس من فرنسيين وإيطاليين وإنكليز حظوا بحماية قناصلهم فتحولوا إلى "شركاء" في إدارة القرار الاقتصادي لتونس(ابن أبي الضياف، ٢٠٠١، ج٤، ١١٥–١١٧) أصبح لزاماً على الدولة التونسية أن تُخصص الجزء الأكبر من مداخيل الكمارك واللزمات لسداد فوائد الديون الداخلية لهؤلاء الوكلاء وعندما عجزت الدولة تماماً عن الوفاء بهذه السندات الداخلية في أواسط القرن التاسع عشر تمكن القناصل الأجانب من التدخل المباشر لـ "تدويل" هذه الديون وتحويل السندات الداخلية المحلية إلى قروض خارجية معترف بها دولياً مما نزع السيادة المالية عن الدولة التونسية (Ganiage, 1968, 88–90).

ارتكز النظام الجبائي في تونس منذ العهد العثماني على "نظام الالتزام". وقبيل عام ١٨٣٧ (نهاية عهد مصطفى باي وبداية عهد أحمد باي) أظهر هذا النظام عيوباً هيكلية قاتلة حيث كان الملتزمون يستغلون ضعف الرقابة الإدارية لابتزاز الفلاحين والمنتجين المحليين وتحصيل أضعاف المبالغ المتفق عليها، بينما لا يصل إلى ميزانية الدولة إلا النزر القليل هذا الجشع أدى إلى خراب الإنتاج الفلاحي وهجرة الفلاحين لأراضيهم مما تسبب في انكماش الوعاء الضريبي مستقبلاً (مصطفى كريم، ١٩٨٠، ٢١٠–٢١٢) علاوة على ذلك فإن المبالغ التي كان يدفعها الملتزمون مسبقاً كانت تُستهلك فوراً في مصاريف البلاط وسداد الديون العاجلة مما خلق "عجزاً هيكلياً ومزمناً" في الميزانية إذ أصبحت الدولة تعيش على مداخيل السنوات المقبلة مع حلول عام ١٨٣٧ وجد أحمد باي نفسه أمام خزينة شبه فارغة واقتصاد زراعي منهار وجهاز جبائي عاجز (التليلي، ١٩٨٥، ٦٧) هذا الاختناق المالي الداخلي الذي أحدثه نظام الالتزام هو الذي قطع الشك باليقين لدى الإدارة التونسية بأنه لا مفر من اللجوء إلى الاقتراض الخارجي المباشر من البنوك الأوروبية مما جعل نظام الالتزام بمثابة الجسر الذي عبرت فوقه

القوى الاستعمارية لفرض الكومسيون المالي (الوصاية المالية) فيما بعد (Perkins, 2004, 34–35).

المحور الثالث: المجتمع التونسي بين سلطة المال والأوبئة والهروب الكبير

تزامن تزايد الحاجة المالية للدولة التونسية لتغطية نفقات الجيش والتحديث مع بروز نظام الالتزام (قَبْالة الجبايات) الذي فرز طبقة "ثرية مالية" هجينة، تشكلت من كبار موظفي الدولة (المخزن)، وتجار الحواضر، وبعض الأعيان المحليين، والوسائط الأجانب (الشاطر، ١٩٩٠، ٢٠٥–٢٠٧). لم تعد الثروة قائمة على الملكية العقارية التقليدية أو الجاه القبلي، بل تداخلت شبكات الثروة والنفوذ عبر ثلاثة محاور جغرافية رئيسية:

١. الحاضرة (تونس العاصمة): حيث تمركزت النخبة السياسية والمالية (مثل عائلات خزندار، وبن عياد، وشمامة، والزاروق) التي احتكرت لزمات المكوس والكمارك والقروض لتمويل خزينة الباي المفلسة (ابن أبي الضياف، ١٩٩٩، ج٤، ١٤٢–١٤٣).

٢. الساحل: بوصفه مركز الإنتاج الزيتوني والتجاري المفتوح على التصدير حيث تحالف أعيان المدن الساحلية مع السلطة لضمان عقود التزام جباية الزيتون.

٣. الجريد: بوابة تجارة القوافل وإنتاج التمور حيث فرض الملتزمون الكبار سطوتهم على الواحات عبر التحكم في مياه الري وشراء المحاصيل سلفاً بأسعار بخسة بنظام الرهنية (Ganiage, 1968, 118–120).

هذا التداخل ولّد فئة "البرجوازية كوكلاء محليين للدول الأوربية التي نمت ثرواتها من خلال امتصاص الفائض الاقتصادي للبلاد وتحويله في كثير من الأحيان إلى المصارف الأوروبية مما ساهم في رهن السيادة الوطنية قبل الاحتلال العسكري وأدى الضغط الجبائي المتزايد واختراق البضائع المصنعة الأوروبية للأسواق التونسية إلى خلخلة ركائز الاقتصاد التقليدي وإفقار أوسع الطبقات المنتجة

١_ الفلاحون والبدو: واجه الفلاحون المستقرون في الشمال والوسط، والقبائل الرعوية (البدو) في الجنوب ترسانة من الضرائب المرهقة مثل "المجلّب" و"العشور" وضريبة "الإعانة" ولعجزهم عن الدفع صودرت أراضيهم ومواشيهم لفائدة الملتزمين والدولة أو اضطروا لبيعها بأسعار زهيدة والوقوع في فخ

المديونية للمرابين فتحول الفلاح الحر إلى "خماس أو عامل أجير في أرضه السابقة والخماس هو العامل الفلاحي الذي يعمل في أرض غيره أرض المالك مقابل التزامات المالك حيث يتكفل صاحب الأرض بتوفير الارض والبذور واداوت الانتاج والحيوانات المستخدمة في الحرث مقابل ان يتكفل الخماس بالجهد البدني الكامل من حرث الارض وبذرها وسقيها وصولا الى الحصاد وجمع المحصول حيث يأخذ الخماس جزءا يعادل الخمس وتذهب الاربعة اخماس المتبقية لصاحب الارض (محمد الهادي الشريف، ١٩٩٣، ٩٤؛ Valensi, 1977, 245-247).

_ الحرفيون (أهل الحرف والأسواق): لما دخلت البضائع الاوربية المستوردة ضُربت الحرف التقليدية (مثل الشاشية، والمنسوجات الصوفية والحريرية) في الحاضرة والمدن الكبرى فلم تستطع الصمود أمام تدفق المنسوجات البريطانية والفرنسية الرخيصة، فتفككت الطوائف الحرفية " وأفلس المعلمون الحرفيون وتحولوا إلى عمال باليومية (الهادي التيمومي، ١٩٨٥، ٧٨-٨١).

نتج عن هذا الانهيار الشامل حركة نزوح ريفي واسع النطاق نحو الحاضرة والمدن الساحلية الكبرى، حيث تحولت هذه الجموع النازحة والمفقرة إلى والمهمشة جدا اصبحت بلا ملكية تعيش على هامش المدن في أكواخ وتعمل في المهن الشاقة مما غير شكل التركيبة الاجتماعية للمدينة التونسية، (الحبيب بالعيد، ٢٠٠٢، ١١٢-١١٤). وأدت حالة الفقر المدقع وسوء التغذية إلى ضعف مناعة المجتمع فاجتاحت البلاد أوبئة قاتلة كالكوليرا والتيفوس، لعل أبرزها مجاعة وأوبئة التي حصدت أرواح قرابة ثلث سكان تونس (Ben Mustapha, 1983, 88-90) كما دفع التهميش ببعض الفئات إلى "الخروج عن طاعة الباي" واللجوء إلى الجبال، وبروز ظاهرة الصعاليك وقطاع الطرق كنوع من الاحتجاج الاجتماعي اليائس بالإضافة إلى انتشار ظاهرة التسول حول الزوايا والتكايا في المدن الكبرى (مصطفى كريم، ١٩٨٠، ١٦٥-١٦٧).

شهدت البنية الاجتماعية لتونس إبان العهد العثماني حالات متكررة من عدم الاستقرار الناتج مباشرة عن وطأة "نظام الالتزام" الجبائي لم يكن الملتزم مجرد موظف تنفيذي بل تحول إلى سلطة إقطاعية مستبدة تسعى إلى تعظيم أرباحها الشخصية على حساب الفلاحين والفقراء في الحواضر هذا التعسف الذي تمثل في فرض إتاوات وضرائب غير قانونية أدى إلى اختلال التوازن الاجتماعي وفجّر موجات من الاحتجاج والتمرد أخذت طابعين:

الانتفاضات القبلية: تمثلت في رفض القبائل في الأرياف دفع الأموال المبالغ فيها فكانت تصطدم عسكرياً مع حاميات جباة الضرائب وتصادر قوافل المخزن (عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ١٩٨٢، ١٤٢-١٤٤؛ أحمد شلبي بن عبد الغني، ١٩٩٧، ٢١٠-٢١١).

الانتفاضات الحضرية: داخل المدن الكبرى، قاد العامة والحرافيش وأحياناً بتوجيه من العلماء ونقباء الأشراف ثورات عارمة ضد الولاة والملتزمين حيث كانت الأسواق تُغلق وتُحرق دور الجباة احتجاجاً على غلاء الأسعار والضرائب الجائرة (محمد أنيس، ١٩٩٣، ٨٨؛ Shaw, 1962, 115-116).

وارتبطت الكوارث الطبيعية في التاريخ الحديث بالبنية الاقتصادية السيئة فلم تكن المجاعات والأوبئة مجرد ظواهر بيئية بل كانت "كوارث مصنعة أجتماعيا وعندما كان الضغط الجبائي يشتد يضطر الفلاحون إلى تسليم معظم محصولهم (بما في ذلك حبوب المخزون والتقاوي) للملتزمين (المقريزي، ١٩٩٠، ٦٥-٦٧) نتج عن هذا السلوك نمط عيش هش يعتمد على سوء التغذية الحاد مما أضعف المناعة الجماعية للسكان وجعلهم عرضة للأوبئة الفتاكة كالطاعون والكوليرا (البيطار، ١٩٦٣، ٤١٢) هذه الدورة الصعبة أحدثت تحولات ديموغرافية مرعبة تمثلت في انكماش حاد في أعداد السكان وقوة العمل المنتجة وانهيار التركيبة العمرية للمجتمع نتيجة ارتفاع وفيات الأطفال والنساء واختفاء حواضر كاملة وتحول مناطق زراعية شاسعة إلى أراضٍ بور، مما غيّر من الخارطة السكانية والاجتماعية لعقود طويلة (دانتزا، ٢٠٠٤، ١٨٥-١٨٦؛ Dols, 1977, 231-233).

أمام العجز عن دفع الضرائب المتراكمة والتهديد بالتعذيب أو السجن من قبل رجال الملتزم لجأ الإنسان في تلك الفترات إلى استراتيجيات دفاعية واجتماعية لضمان البقاء أبرزها الهروب والفرار وتجلت هذه الظاهرة في ثلاثة مسارات رئيسية:

١_ ظاهرة التخلي عن الأرض (القرى الخالية): ترك الفلاحون أراضيهم الزراعية هرباً إلى الجبال أو الصحاري أو اندمجوا في تجمعات سكانية أخرى تحت أسماء مستعارة وهو ما أدى إلى تدمير المنظومة الزراعية وظهور ما يُعرف تاريخياً بـ "القرى المهجورة" أو "الخراب" (صلاح عيسى، ١٩٧٨، ٩٥-٩٦).

٢_ اللجوء إلى الزوايا والطرق الصوفية: كانت الزوايا تتمتع بحصانة دينية وسياسية تمنع جباة الضرائب والجيوش من دخولها فتحولت الزوايا والتكايا إلى ملاذات آمنة لآلاف الفارين حيث وجدوا فيها الإطعام والأمان مقابل الانخراط والدخول في الطرق الصوفية (المحبي، ١٩٧٠، ج١، ١١٤).

٣_ الاحتماء بالمحاماة والامتيازات الأجنبية: في المراحل المتأخرة، ومع تغلغل النفوذ الأوروبي عبر نظام "الامتيازات الأجنبية" لجأ الأعيان والتجار وبعض الفلاحين إلى القنصليات الأجنبية للحصول على صفة "محمي" لتعفيهم تماماً من القضاء المحلي ومن دفع الضرائب والجبايات للدولة مما مزق النسيج الاجتماعي وعزل فئات واسعة عن سلطة الدولة والتزاماتها الوطنية (الجبرتي، ١٩٩٨، ج٢، ٣٠١-٣٠٣؛ Issawi, 1982, 74-76).

الخاتمة

شكلت هذه الدراسة النسقية لنظام الالتزام الضريبي (القبالات) في تونس (١٧٠٥-١٨٣٧) محاولة لتفكيك الخلفيات التشريعية والآثار الهيكلية لمنظومة جباية تفوق أثرها الجانب المالي المحض ليعيد صياغة المشهد الإداري والاقتصادي والاجتماعي للبلاد التونسية ومن خلال التتبع المنهجي، تخلص الدراسة إلى جملة من الاستنتاجات المترابطة:

١_ أثبتت الدراسة أن العهد الحسيني نجح في نقل نظام الالتزام من طابعه العفوي والمتقطع الموروث عن العهد المرادي إلى نموذج "ممنهج ومقنن" عبر المراسيم البايوية والبتات العلنية في قصر باردو ليصبح الركيزة التشريعية الجوهرية لمالية المخزن التونسي.

٢_ أدى التوسع في منح (القبالات) الالتزام الضريبي إلى ظهور شبكة نفوذ مالية وإدارية موازية قوامها الملتزمون الكبار والكتاب، والصيارفة الأجانب والمحليين الأمر الذي همّش الدور التنفيذي المباشر لوزير المالية (الخزندار) وحوّل القادة المحليين وشيوخ القبائل إلى وسطاء ماليين مستقلين بحكم الأمر الواقع، مما أضعف هيبة السلطة المركزية.

٣_ عسكرة الجباية وإلغاء الإدارة المدنية: كشفت الدراسة عن التلازم الوثيق بين قوى الالتزام والآلة العسكرية، إذ غدت مؤسسة "المحلة" (الصيفية والشتوية) الأداة الأساسية لاستخلاص اللزمات قسراً مما قضى على فرص تطور إداري مدني وحوّل علاقة السلطة بالرعية إلى علاقة إخضاع قوامها "الغالب والمغلوب".

٤_ تخريب البنية الإنتاجية واستنزاف النقد: أثبتت الدراسة أن جشع الملتزمين أدى بشكل تلقائي إلى تخريب القطاع الفلاحي (ظاهرة هجرة الأراضي والخراب) وشلل المسالك التجارية الداخلية وإفلاس الطوائف الحرفية (الشواشين والنسيج) فضلاً عن تجفيف السيولة النقدية من المعادن الثمينة عبر آلية "التسابيق" مما دفع بالباي لتخفيض عيار "الريال التونسي" وتدهور قيمته.

٥_ الاستقطاب الطبقي والأزمة الديموغرافية: فرز النظام تمايزاً طبقيّاً حاداً تمثل في صعود مجموعة ثرية احتكرت الثروة جغرافياً (بين الحاضرة والساحل والجريد)، يقابلها إفقار واسع للطبقات المنتجة

وتحولها عمال مهاجرين من الريف إلى المدينة مما جعل المجتمع عرضة للكوارث المصنعة إجتماعيا كالمجاعات والأوبئة الفتاكة (الكوليرا والطاعون) وظواهر الفرار والاحتماء بالقنصليات والزوايا.

٦. أثبتت الدراسة أن العجز المزمن في الميزانية وتراكم الديون الداخلية الناجمين عن التسابيق الربوية لنظام الالتزام، هما اللذان مهدا الطريق تاريخياً لارتهان القرار السياسي للباي واللجوء للقروض الأوروبية.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

١. ابن أبي الضياف، أحمد. (١٩٦٣). إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (ج٢، ج ٣ ، ط١). الدار العربية للكتاب.

٢. ابن أبي الضياف، أحمد. (١٩٩٠). إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (ج١، ط٢). الدار العربية للكتاب.

٣. ابن أبي الضياف، أحمد. (١٩٩٩). إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (ج٤). الدار العربية للكتاب.

٤. ابن أبي الضياف، أحمد. (٢٠٠١). إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (قسم ٤). الدار العربية للكتاب.

٥. ابن خلدون، عبد الرحمن. (١٩٨٤). المقدمة (ط١). دار القلم.

٦. أبو حسين، عبد الرحيم. (٢٠٠٢). الإدارة العثمانية في الولايات العربية. دار الساقي.

٧. أمين، مصطفى مسعد. (١٩٩٨). النظام الإداري والمالي في مصر العثمانية. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨. أنيس، محمد. (١٩٦٢). مدرسة التاريخ المصري في العهد العثماني. دار الجيل للنشر.

٩. أنيس، محمد. (١٩٩٣). الدولة العثمانية والشرق العربي في التاريخ الحديث. دار الجيل.

١٠. الباجي المسعودي، محمد بن محمد. (١٩٨٩). الخلاصة النيقية في تاريخ الإيالة التونسية (تحقيق عبد الحفيظ منصور، ط٢). دار الغرب الإسلامي.

١٢. البارودي، رشاد. (١٩٩٥). التنظيمات الإدارية والمالية في إيالة تونس خلال القرن الثامن عشر (ط١). دار الغرب الإسلامي.

١٣. البشروش، التوفيق. (١٩٨٢). ربيع الأرباض: الأزمة الجبائية والانتفاضة الشعبية في تونس (١٨٦٤). منشورات الجامعة التونسية.

١٤. بالعيد، الحبيب. (٢٠٠٢). دراسات في تاريخ تونس الحديث والمعاصر. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس.

١٥. بن عاشور، محمد الفاضل. (١٩٨٠). الحركة الأدبية والفكرية في تونس (ط٣). الدار التونسية للنشر.

١٦. بن يوسف، محمد. (١٩٧٢). مشرع الملك في نظام دولة بني تركي (تاريخ الدولة الحسينية) (تحقيق أحمد الطويلي، ط١). دار بوسلامة للنشر.

١٧. بيرم الخامس، محمد. (١٨٨٤). صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار (ج١ و٢، ط١). مطبعة مقتطف مصر / المطبعة الأميرية.

١٨. البيطار، عبد الرزاق. (١٩٦٣). حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. مجمع اللغة العربية.

١٩. التواتي، مصطفى. (١٩٩١). المؤسسات المالية والجبائية في الفكر الإسلامي وتطبيقاتها في المغرب العربي (ط١). الدار التونسية للنشر.

٢٠. التليلي، البشير. (١٩٧٩). الحركات القومية والاجتماعية في تونس الحسينية (ط١). دار المشرق.

٢١. التليلي، البشير. (١٩٨٥). الحركات الوطنية والقومية في تونس والجزائر في القرن التاسع عشر. دار الطليعة للنشر.

٢٢. التميمي، عبد الجليل. (١٩٩٣). بحوث ورسائل في التاريخ العربي العثماني (ط٢). منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية.

٢٣. التميمي، عبد الجليل. (١٩٩٨). دفاتر المجباة والجبايات التونسية في العهد الحسيني: دراسة وثائقية (ط١). منشورات مركز سرمدي.

٢٤. التيمومي، الهادي. (١٩٨٥). انتفاضة ١٨٦٤ في تونس: دراسة في أسبابها وأبعادها. دار التنوير للنشر والتوزيع.

٢٥. التريكي، صلاح الدين. (١٩٨٩). الإدارة المحلية والقبيلة في تونس في عهد الشراكة والالتزام. الدار التونسية للنشر.

٢٧. الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (١٩٨٣). عجائب الآثار في التراجم والأخبار (المجلد الثاني). دار الجيل.

٢٦. الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن. (١٩٩٨). عجائب الآثار في التراجم والأخبار (ج ١). دار الجيل.

٢٨. الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (١٩٩٨). عجائب الآثار في التراجم والأخبار (ج٢). دار الجيل.

٢٩. الحجوي، محمد بن الحسن. (١٩٨٢). النظام المالي والجبائي للإيالة التونسية عبر التاريخ (ط١). دار الثقافة.

٣٠. دانتزا، دانيال. (٢٠٠٤). الطاعون في الإمبراطورية العثمانية (ترجمة مصطفى فؤاد). دار المدار الإسلامي.

٣١. الداودي، أبي جعفر أحمد بن نصر. (١٩٨٩). الأموال (ط١). دار الكتب العلمية.

٣٢. الدوري، عبد العزيز. (١٩٧٤). التاريخ الاقتصادي للعراق في القرن الرابع الهجري. دار المشرق.

٣٣. الرافعي، عبد الرحمن. (١٩٨٢). تاريخ الحركة الوطنية وتطور نظام الحكم في مصر (ط٧). دار المعارف.

٣٤. رافق، عبد الكريم. (١٩٦٨). بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦-١٧٩٨) (ط٢). دار الدساتير.

٣٥. ريمون، أندريه. (١٩٧٤). الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر (ترجمة عبد الجليل التميمي، ج١). منشورات الجامعة التونسية.

٣٦. سعيد، عبد الله. (١٩٨٦). التطور الاقتصادي والاجتماعي في متصرفية جبل لبنان: نظام المقاطعات والالتزام (ط١). دار المدى.

٣٧. سليمان، أحمد السعيد. (١٩٨٧). دراسات عن الملتزمين وتاريخ نظام الالتزام في مصر. دار المعارف.

٤٠ .الشاطر، خليفة. (١٩٨٤). التبعية والتحولات في مرحلة ما قبل الأستعمار أيالة تونس من ١٨١٥-١٨٥٧. منشورات الجامعة التونسية .

٣٨. الشاطر، خليفة. (١٩٩٠). تونس في القرن التاسع عشر (ط١). المكتبة العتيقة.

٣٩. الشاطر، خليفة. (١٩٩١). تونس في القرن التاسع عشر: ١٨١٥-١٨٨١. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس.

٤٠. شلبي بن عبد الغني، أحمد. (١٩٩٧). أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم). الهيئة المصرية العامة للكتاب / دار المعارف.

٤١. الشرقي، منيرة. (٢٠٠٤). الجباية في تونس في العهد المرادي: آلياتها وتأثيراتها الاقتصادية (ط١). منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

٤٥. الشريف، محمد الهادي. (١٩٨٦). السلطة والمجتمع بتونس في عهد حسين بن علي (١٧٠٥-١٧٤٠). منشورات الجامعة التونسية (كلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس) .

٤٢. الشريف، محمد الهادي. (١٩٩٣). تاريخ تونس: من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال. دار الجنوب للنشر / سيراس للنشر.

٤٣. الشريف، محمد الهادي. (١٩٩٥). المسألة النقدية والأزمة المالية في تونس خلال القرن التاسع عشر. منشورات الجامعة التونسية.

٤٤. الشريف، محمد الهادي. (٢٠٠٧). تاريخ تونس: من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال. دار الجنوب للنشر.

٤٥. شمام، محمود. (١٩٧٠). مؤسسات الدولة التونسية في العهد الحسينى (ط١). مطبعة الإرادة.

٤٦. الصباغ، ليلى. (١٩٨٩). الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني (ج٢). مؤسسة الرسالة.

٤٧. عبد البديع، لطفي. (١٩٩١). الدفاتر السلطانية العثمانية: دراسة في الوثائق المالية والاقتصادية. دار النهضة العربية.

٤٨. عبد الرحمن، عبد الرحيم عبد الرحمن. (١٩٨٢). الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية. دار الكتاب الجامعي.

٤٩. عبد الرحمن، عبد الرحيم عبد الرحمن. (١٩٨٦). الريف المصري في القرن الثامن عشر (ط٣). مكتبة مدبولي.

٥٠. عبد الرحمن، عبد الرحيم عبد الرحمن. (١٩٨٧). الريف المصري في القرن الثامن عشر (ط٣). مكتبة مدبولي.

٥١. عبد اللطيف أحمد، ليلة. (١٩٧٨). الإدارة في مصر في العهد العثماني. مطبعة الجامعة العربية.

٥٢. العظمة، عزيز. (١٩٩٥). الكتابة التاريخية والمنهج النقدي: دراسات في التاريخ الاقتصادي العثماني. دار الطليعة.

٥٣. عيسى، صلاح. (١٩٧٨). الثورات الشعبية في مصر العثمانية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٥٤. الإمام، رشاد. (١٩٨٠). سياسة حمودة باشا في تونس (١٧٨٢-١٨١٤). منشورات الجامعة التونسية.

٥٥. كريم، مصطفى. (١٩٨٠). النظام الجبائي التونسي في القرن التاسع عشر (١٨١٥-١٨٨١) / الاضطرابات الاجتماعية في تونس. منشورات الجامعة التونسية / الدار التونسية للنشر.

٥٦. كريم، مصطفى. (١٩٩٤). المحلة ودورها الجبائي والسياسي في تونس في القرن التاسع عشر. سيراس للنشر.

٥٧. كنعان، توفيق. (١٩٨١). الصناعات والحرف التقليدية في الولايات العربية العثمانية. دار العلم للملايين.

٥٨. كيروش، توفيق. (٢٠٠٢). المؤسسات المالية والضرائب في المغرب العربي في العهد العثماني. ديوان المطبوعات الجامعية.

٥٩. مرسي، أحمد مغازي. (١٩٩١). الشرقية في العهد العثماني: دراسة في الإدارة والالتزام. دار المعارف.

٦٠. المنصوري، لطفي. (٢٠٠٣). اللزومات والضرائب غير المباشرة في تونس في القرنين ١٨ و١٩ (ط١). كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس.

٦١. المقريزي، أحمد بن علي. (١٩٩٠). إغاثة الأمة بكشف الغمة. دار الهلال.

٦٢. المحبي، محمد الأمين. (١٩٧٠). خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (ج١). دار صادر.

٦٣. الوزير السراج، محمد بن محمد. (١٩٧٠). الحلل السندسية في الأخبار التونسية (ج٢، ط١). دار الكتب الشرقية.

٦٤. النقرة، التهامي. (١٩٧٤). الأزمة المالية التونسية في القرن التاسع عشر (١٨٦٠-١٨٦٩). الرائد الرسمي للجمهورية التونسية.

٦٥. الهلالي، عبد الحميد. (٢٠٠٢). المجتمع التونسي في القرن التاسع عشر من خلال تقارير المراقبين المدنيين. منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

٦٦. الوردي، علي. (٢٠٠٥). لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (ج١، ط٢). دار الرشيد.

٦٧.فالنسي، لوسيت ، ترجمة مصطفى التليلي ،الفلاحون التونسيون: الاقتصاد الريفي وحياة الارياف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ٢٠١٥، دار سيناتر

الدوريات:

١. ابو نصر ، محمد جميل ، الدولة التونسية في القرن الثامن عسر، ١٩٨٢، مجلة الغرب المسلم والبحر المتوسط ، ١٩٨٢ ، العدد ٣٣

(Foreign Language References)

1 .Ben Mustapha, K. (1983). La Tunisie au XIXème Siècle: Impôts et Crises Sociales. Éditions Bouslama.

2 .Cherif, M. H. (1984). Pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn Bin Ali (1705-1740) (Vol. 1). Publications de l'Université de Tunis.

3 .Cherif, M. H. (1986). Pouvoir et société dans la Tunisie de Hédi Bey (1705-1759) (Vols. 1 & 2). Publications de l'Université de Tunis.

4 .Clancy-Smith, J. A. (1994). Rebel and Saint: Muslim Notables, Populist Protest, Colonial Encounters (Algeria and Tunisia, 1800-1904). University of California Press.

5 .Cuno, K. M. (1992). The Pasha's Peasants: Land, Society, and Economy in Lower Egypt, 1740-1858. Cambridge University Press.

6 .Dols, M. W. (1977). The Black Death in the Middle East. Princeton University Press.

7 .Faroqhi, S. (1999). Approaching Ottoman History: An Introduction to the Sources. Cambridge University Press.

8 .Ganiage, J. (1968). Les origines du Protectorat français en Tunisie (1861-1881). Maison Tunisienne de l'Édition.

9 .Hourani, A. (1991). A History of the Arab Peoples. Harvard University Press.

10 .Inalcik, H. (2000). The Ottoman Empire: The Classical Age 1300-1600. Phoenix.

11 .Islamoglu-Inan, H. (1987). The Ottoman Empire and the World-Economy. Cambridge University Press.

12 .Mantran, R. (1961). L'évolution économique de la Tunisie aux XVIIe et XVIIIe siècles (1ère éd.). Institut des Hautes Études de Tunis.

13 .Panzac, D. (1996). Commerce et navigation dans l'Empire ottoman au XVIIIe siècle. Éditions CNRS.

14 .Perkins, K. J. (2004). A History of Modern Tunisia. Cambridge University Press.

15 .Raymond, A. (1973). Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe siècle. Institut Français d'Archéologie Orientale (IFAO.(

16 .Shaw, S. J. (1962). The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1517-1798. Princeton University Press.

17 .Valensi, L. (1977a). Fellahs et Bedouins dans la Tunisie du XIXe siècle. Mouton & Co.

18 .Valensi, L. (1977b). Tunisian Peasants in the Eighteenth and Nineteenth Centuries. Cambridge University Press

19. Mu‘alla, Asma. (2004). Tunis and the Ottoman Sublime Porte: The Trusteeship Relations, 1777–1814. London: RoutledgeCurzon.

Foreign Theses and Dissertations

1.Raymond, A. (1953). British Policy towards Tunisia, 1830–1881 [Doctoral dissertation, University of Oxford.

الملاحق

الجدول: (١) بنية نظام الالتزام الضريبي وآليات الجباية في تونس

المحور	المؤسسة/الأداة	الفترة	المضمون التاريخي	الأثر الإداري	المصدر
تعريف الالتزام	اللزمة/المُلْتَزِم	1705-1837	إسناد حق جباية مورد أو ضريبة لشخص أو جماعة مقابل مبلغ سنوي/موسمي يدفع للخزينة؛ يتيح للملتزم تحصيل أكثر من المبلغ المدفوع عند نجاح الموسم.	حوّل الجباية إلى علاقة تعاقدية غير مباشرة بين الدولة والرعية، ورفع دور الوسطاء المحليين.	(Mu‘alla 2004، 143- فالنسي؛ 145 ٢٠١٥، ٩١- ١٦٠)
الإدارة المحلية	القايد/العامل/الشيوخ	1705-1814 ثم-1814 1837	اعتمد الباي على القايد والعامل والشيوخ في ضبط القبائل والقرى وتقدير الجباية وجمعها؛ وكان الخضوع الضريبي علامة على الاعتراف بسلطة الباي.	تعزيز المركزية البايات مع بقاء الجباية مرتبطة بالمساومات المحلية.	(أبو نصر، ١٩٨٢، ٣٣- ٣٦-٦٦ ؛ الشريف، ١٩٨٦ ، ١٨٥-٢٦٠)
المحلة والجباية	المحلة البايات	خاصة القرن 18وبدايات 19	المحلة حملة سياسية-عسكرية موسمية لتثبيت الطاعة وجمع الضرائب من الجهات الداخلية والقبائل.	جعلت القوة العسكرية جزءاً من الإدارة المالية؛ فالامتناع الضريبي قد يتحول إلى عصيان سياسي.	(Mu‘alla 2004، 120- 150؛ ابن أبي؛ الضياف، ١٩٦٣، ج ٤. ٣، ٤٠-٩٥)
النقد والمقايضة	الريال/القرش/العينيات	1705-1837	كانت الجباية تجمع نقداً وعيناً بحسب الجهة والمحصول؛ والحبوب والزيت والماشية من الموارد التي تظهر في سجلات الريف والتجارة.	صعوبة توحيد الحسابات المالية وتذبذب دخل الدولة تبعاً للمواسم والأسعار.	(فالنسي، ٢٠١٥، ١٦١-٢٦٠؛ الشاطر، ١٩٨٤، ٤٥- ٩٠)

الضرائب غير المباشرة	الكمارك والاحتكارات	1815-1837	بعد تراجع موارد القرصنة البحرية ازداد وزن الرسوم الجمركية واحتكارات التصدير في مالية الدولة.	انتقال تدريجي من موارد الحرب البحرية إلى موارد التجارة والجباية الداخلية.	الشاطر ، ، ١٩٨٤، ، ٧٠-١١٥؛ (Raymond, A. 1953 20-55)،

الجدول: (٢) أهم موارد الدولة ومداخيلها المرتبطة باللزمات والضرائب

المورد/اللزمة	طبيعة المورد	مجال التحصيل	اتجاه القيمة المالية	الدلالة على البحث	المصدر
العُشر/ضرائب الحبوب	ضريبة زراعية عينية أو نقدية	الشمال والحبوب : باجة، الكاف، الوطن القبلي، مناطق السهول	متذبذبة بحسب المطر والمحصول؛ ترتفع في سنوات الخصب وتضعف في سنوات القحط.	تكشف ارتباط دخل الدولة بالزراعة المطرية وضعف انتظام الموازنة.	(فالنسي، ٢٠١٥، ٩١-١٦٠، ٢٦١-٣٣٠)
لزمات الزيت والزيتون	إيراد زراعي وتجاري	الساحل، صفاقس، سوسة، المنستير، جربة/الجنوب الشرقي	تزداد أهميتها مع نمو الطلب المتوسطي على الزيت، خصوصاً في القرن 19.	تربط بين الضريبة والإنتاج والتصدير، وتوضح أثر اللزمة على الفلاحين والتجار.	(فالنسي، ٢٠١٥، ١٧٠-٢٣٠؛ شاطر، ، ١٩٨٤، ٩٠-١٣٠)
المجبى/المعاليم الشخصية والقبلية	تكليف نقدي أو مختلط	القبائل والجهات الداخلية	غير ثابت؛ يرتبط بعدد الخاضعين وقدرة الدولة على الإحصاء والقوة.	يفسر التوتر الاجتماعي بين المخزن والقبائل، وأثر الجباية في الهجرة أو التمرد.	(أبو نصر، ١٩٨٢، ٣٣-٦٦؛ ابن أبي الضياف،١٩٦٣، ج. ٣، ٨٥-١٤٠)
الكمارك	رسوم تجارة خارجية	موانئ تونس وحلق الوادي وصفاقس وسوسة وبنزرت	تزايد نسبي بعد 1815مع انحسار القرصنة وتوسع المبادلات	تعكس تحول الدولة نحو الاعتماد على التجارة	(Raymond, A. 1953 20-60؛ الشاطر، ، ١٩٨٤، ١٠٠-

			الأوروبية.	الخارجية.	١٤٥)
الملح والتبغ والاحتكارات	لزمات/امتيازات احتكارية	المدن والموانئ والأسواق	دخل نقدي أكثر انتظاماً من الضرائب الزراعية لكنه محدود بالطلب المحلي.	يبين استعمال الدولة للامتيازات الاحتكارية كبديل عن الإدارة المباشرة.	(الشاطر، ، ١٩٨٤، ١١٥-١٦٠؛ فالنسي،٢٠١٥، ٢٣٠-٢٧٠)
غرامات الطاعة والمصادرات	مورد استثنائي سياسي-جبائي	القبائل الممتنعة أو الخصوم السياسيون	مرتبط بالأزمات والحملات؛ ليس مورداً سنوياً مستقراً.	يكشف الجانب القسري في الجباية وعلاقة الضرائب بالسلطة.	(Mu‘alla) 2004، 130- 150 ؛ ابن أبي الضياف،١٩٦٣ ،ج. ٣، ١٠٠-١٦٠)

الجدول: (٣) مؤشرات تقريبية عن السكان والقدرة الضريبية في تونس

المؤشر	الفترة/النطاق	القيمة أو الاتجاه	طبيعة الرقم	أثره في نظام الالتزام	المصدر
عدد سكان تونس/البلاد	أواخر القرن 18 وبداية القرن19	لا توجد إحصاءات رسمية دقيقة؛ الدراسات تعتمد تقديرات الرحالة والسجلات المحلية.	تقديري/غير سنوي	غياب الإحصاء الدقيق جعل اللزمات تقديرية ومجالاً للمساومة بين الدولة والملتزمين.	(فالنسي، ٢٠١٥، ١٣-٩٠؛ أبو نصر، ١٩٨٢، ٣٣-٦٦)
سكان الريف والقبائل	1705-1837	ثقل ديموغرافي ريفي وقبلي واضح مقارنة بالمدن.	اتجاه تاريخي	جعل الضرائب الزراعية والقبلية محوراً مالياً وسياسياً للدولة.	(فالنسي،٢٠١٥، ١٣-٩٠، ٩١-١٦٠؛ الشريف، ١٩٨٦، ١٨٥-٢٦٠)
المدن الساحلية	1815-1837	نمو دور المدن والموانئ مع التجارة الأوروبية بعد تراجع القرصنة.	اتجاه اقتصادي/ديموغرافي	رفع أهمية الكمارك والاحتكارات واللزمات التجارية.	(الشاطر، التبعية ، ١٩٨٤، ٧٠-١٤٥؛ (Raymond, A. 1953 20-60)،
الهجرة	فترات القحط	نزوح أو انتقال	ظاهرة اجتماعية	أضعف قدرة	(فالنسي،

والتحرك الداخلي	والضغط الجبائي	موسمي/قبلي عند اشتداد الجباية أو سوء المحصول.	موثقة وصفياً	الدولة على تثبيت المكلفين ورفع كلفة الجباية.	٢٠١٥، ٢٦١-٣٣٠؛ ابن أبي الضياف،١٩٦٣، ج. ٣، ١٢٠-١٧٥)

الجدول: (٤) صادرات الزيت والحبوب وعلاقتها بالضرائب واللزمات

السلعة	المناطق المنتجة/الموانئ	الفترة الأبرز	وضع الصادرات	الأثر المالي والضريبي	المصدر
زيت الزيتون	الساحل، صفاقس، سوسة، المنستير، جربة؛ موانئ الساحل وصفاقس	القرن-18 1837	من أهم سلع التصدير المتوسطية، ويزداد حضوره في القرن التاسع عشر.	رفع قيمة لزمات الزيت والزيتون والكمارك، وربط الفلاح بالسوق الخارجية.	(فالنسي، ١٩٧٧، ١٧٠-٢٣٠؛ الشاطر، التبعية ،١٩٨٤، ٩٠-١٣٠)
الحبوب/القمح والشعير	الشمال والسهول : باجة، الكاف، الوطن القبلي؛ موانئ تونس وبنزرت	1705-1837	التصدير متذبذب جداً تبعاً للأمطار والحاجة الداخلية والأسعار.	كلما ارتفعت الغلة زادت حصيلة العشر والكمارك؛ وفي القحط تقل الحصيلة وتظهر أزمات اجتماعية.	(فالنسي،٢٠١٥، ٩١-١٦٠، ٢٦١-٣٣٠؛ Mu‘alla 2004 ،140-145)
الماشية والصوف والجلود	القبائل والداخل	القرن-18 بداية19	سلع تجارية داخلية وخارجية ثانوية مقارنة بالزيت والحبوب.	تدخل في الجباية القبلية ومعاليم الأسواق، وتظهر أثر الاقتصاد الرعوي في المالية.	(فالنسي،٢٠١٥، ٢٣٠-٣٠٠؛ الشريف، ١٩٨٦ ، ٢٤٠-٣١٠)
المرجان والمنتجات البحرية	السواحل الشمالية/طبرقة وما حولها	قبل وأثناء العهد الحسيني	نشاط تجاري ارتبط بالامتيازات الأوروبية القديمة.	يوضح وجود موارد بحرية وتجارية إلى جانب الضرائب الزراعية.	Mu‘alla 2004 ،140-145 ؛ (Raymond, A. 1953 10-30،

الجدول: (٥) الآثار الإدارية والاقتصادية والاجتماعية لنظام الالتزام

نوع الأثر	المظهر التاريخي	النتيجة المباشرة	النتيجة بعيدة المدى	المصدر
إداري	اعتماد الدولة على القايد والملتزم والشيخ في التقدير والتحصيل.	تخفيف كلفة الإدارة المباشرة على الخزينة.	تقوية الوسطاء المحليين وظهور شبكات نفوذ مالية-إدارية.	(أبو نصر، ١٩٨٢،٣٣-٦٦ ؛ ٢٠٠٤ ؛ Mu‘alla 2004، (143-145
مالي	دفع مبلغ مسبق أو متفق عليه للخزينة مقابل حق التحصيل.	تأمين سيولة سريعة للباي.	تعريض الرعية للضغط لأن الملتزم يسعى لتعظيم ربحه.	(Mu‘alla 2004، 143-145؛ فالنسي، ٢٠١٥، ١٦١-٢٦٠)
اقتصادي	ارتباط اللزمات بالمحاصيل والأسواق والكمارك.	تذبذب دخل الدولة مع المناخ والأسعار.	تشجيع الدولة على احتكار موارد معينة والاعتماد على التجارة الخارجية.	(فالنسي،٢٠١٥ ، ٩١-٣٣٠؛ الشاطر، ١٩٨٤، ٧٠-١٦٠)
اجتماعي	احتكاك مباشر بين الجباة والسكان والقبائل.	شكاوى ومفاوضات ومقاومات موضعية.	تكوين ذاكرة اجتماعية سلبية تجاه الجباية المخزنية.	(ابن أبي الضياف،١٩٦٣ ،ج. ٣، ص ٨٥-١٧٥؛ الشريف، ١٩٨٦، ١٨٥-٣١٠)
سياسي-عسكري	استخدام المحلة لضبط الامتناع الضريبي.	ربط الطاعة بدفع الضريبة.	تحويل الجباية إلى أداة سيادة داخلية قبل الإصلاحات المركزية اللاحقة.	(Mu‘alla 2004، 120-150؛ ابو نصر ١٩٨٢، ٣٣-٦٦)

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: م.م. سامي حسن حمود

الجامعة: تكريت

الكلية: التربية للعلوم الانسانية

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:
samiaboomr1980@gmail.com

الهاتف: ٠٧٧٠٢١٨٠٩٧٢

الباحث الثاني

الاسم: أ.د هاشم صائب محمد الجنديل

الجامعة: تكريت

الكلية: التربية للعلوم الانسانية

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:hashim.saab@tu.edu.iq

الهاتف: ٠٧٧٠٣٠٥٢٥٧٩

تاريخ الاستلام: ٦/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ١٩/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (صلح الحديبية، الروايات التاريخية، السيرة النبوية، المفاوضات، السياسة النبوية)

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

عنوان البحث

صلح الحديبية (٦ هـ): الظروف، المفاوضات، النتائج السياسية

ملخص البحث

يتناول هذا البحث الروايات التاريخية المتعلقة بصلح الحديبية سنة (٦هـ)، ويهدف إلى تحليلها للكشف عن الظروف التي أحاطت بالصلح، وطبيعة المفاوضات التي جرت بين المسلمين وقريش، والنتائج السياسية التي ترتبت عليه، بوصفه أحد أهم الأحداث السياسية في السيرة النبوية. واعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي، من خلال جمع الروايات الواردة في المصادر التاريخية الأصيلة، وتحليل مضامينها، ومقارنتها، والاستفادة من الدراسات الحديثة في تفسيرها وربطها بسياقها التاريخي. وقد تناول البحث الظروف التي سبقت الصلح، والمفاوضات التي أفضت إلى عقده، ثم أبرز النتائج السياسية التي أسهمت في إعادة تشكيل موازين القوى في الجزيرة العربية. وتوصل البحث إلى أن صلح الحديبية مثّل تحولًا سياسيًا واستراتيجيًا في تاريخ الدولة الإسلامية.

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Asst. Lect Sami Hassan Hammoud
University: Tikrit
College: Education for Humanities
Department: History
Country: Iraq
Email: samiaboomr1980@gmail.com
Phone: 07702180972

Second Researcher
Name: Prof. Dr. Hashim Saib Mohammed Al-Jandeel
University: Tikrit
College: Education for Humanities
Department: History
Country: Iraq
Email: hashim.saab@tu.edu.iq
Phone: 07703052579

Receipt Date: 6/ July / 2026
Acceptance Date: 19 / July / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Treaty of Hudaybiyyah, historical accounts, the Prophetic biography, negotiations, Prophetic statecraft)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Treaty of Hudaybiyyah (6 A.H): Circumstances, Negotiations, and Political Outcomes

Abstract

This research examines the historical accounts related to the Treaty of Hudaybiyyah in 6 AH. It aims to analyze these accounts to uncover the circumstances surrounding the treaty, the nature of the negotiations between the Muslims and the Quraysh, and its political consequences, considering it one of the most significant political events in the Prophet's biography. The research employs an analytical historical methodology, collecting accounts from authentic historical sources, analyzing their content, comparing them, and utilizing modern studies to interpret them and connect them to their historical context. The research addresses the conditions preceding the treaty, the negotiations that led to its conclusion, and then highlights the political outcomes that contributed to reshaping the balance of power in the Arabian Peninsula. The research concludes that the Treaty of Hudaybiyyah represented a political and strategic turning point in the history of the Islamic state.

المقدمة

يُعد صلح الحديبية من أبرز المنعطفات السياسية في السيرة النبوية، لما ترتب عليه من تحولات عميقة في مسار الدولة الإسلامية وعلاقاتها بالقوى الفاعلة في الجزيرة العربية. فعلى الرغم من أن بعض المسلمين رأوا في شروط الصلح عند إبرامه نوعًا من التنازل، فإن مجريات الأحداث اللاحقة أثبتت أنه كان فتحًا سياسيًا واستراتيجيًا مهّد لمرحلة جديدة من الاستقرار والانتشار، وأرسى أسسًا راسخة لإدارة العلاقات السياسية على أساس التفاوض، واحترام العهود، وتقديم المصلحة العامة.

وقد حفظت المصادر التاريخية روايات متعددة تناولت وقائع صلح الحديبية، بدءًا من أسبابه وظروفه، مرورًا بالمفاوضات التي جرت بين النبي ﷺ وقريش، وانتهاءً بالنتائج التي أسفر عنها هذا الحدث. وتمثل هذه الروايات مادة تاريخية مهمة لفهم طبيعة السياسة النبوية في إدارة الأزمات، وآليات التعامل مع الخصوم، وكيفية توظيف الوسائل السلمية لتحقيق أهداف الدولة الإسلامية دون الإخلال بثوابتها.

ويهدف هذا البحث إلى دراسة الروايات التاريخية المتعلقة بصلح الحديبية دراسة تحليلية، للكشف عن الظروف التي أحاطت بالصلح، وبيان طبيعة المفاوضات التي أفضت إلى إبرامه، وتحليل نتائجه السياسية في ضوء الروايات التاريخية والمصادر الأصيلة، مع الإفادة من الدراسات الحديثة في تفسير تلك الروايات وربطها بسياقها التاريخي. واعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي، من خلال جمع الروايات المتعلقة بصلح الحديبية من مصادرها الأصلية، وتحليل مضامينها، ومقارنتها، واستنباط دلالاتها السياسية، بما يسهم في إبراز المكانة التي يحتلها هذا الحدث في تطور السياسة النبوية، وإظهار دوره في ترسيخ دعائم الدولة الإسلامية وتمهيد الطريق لفتح مكة.

صلح الحديبية (٦ هـ): الظروف، المفاوضات النتائج السياسية.

يُعدُّ صلح الحديبية من أبرز الأحداث المفصلية في التاريخ الإسلامي، إذ شكّل نقطة تحول استراتيجية في مسار الدعوة الإسلامية والعلاقات بين المسلمين وقريش، فقد بدا في ظاهره صلحاً يحمل تنازلات مؤلمة للمسلمين، إلا أن نتائجه البعيدة المدى أكدت أنه كان فتحاً حقيقياً، كما وصفه القرآن الكريم بقوله تعالى:(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) (سورة الفتح: الآية: ١)، وعند عقد صلح الحديبية، لم يكن جميع الصحابة راضين عن الشروط التي وُقّعت بين النبي ﷺ وقريش، إذ بدت لهم الشروط قاسية وفيها نوع من التنازل عن حقوق المسلمين، حتى أن بعضهم أبدى اعتراضاً صريحاً على ذلك، فقد روى عن المسور بن مخرمة[١]،قائلا ((فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي)) (البخاري، ١٤٠٧هـ، ج٣، ص١٨٢، رقم الحديث٢٧٣١).

وتذكر الروايات أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ظلّ متأثرًا من ذلك الموقف، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه يسأله، فقال له: ((يا أبا بكر، أليس هو نبي الله؟ قال: بلى. قال: ألسنا على الحق؟ قال: بلى. قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، وأن الحق معه)) (العسقلاني، ١٣٧٩هـ، ج٥، ص٣) ، كما تذكر الروايات أن الصحابة عندما طُلب منهم التحلل من الإحرام بعد كتابة الصلح ترددوا في الامتثال لشدة ما وجدوا في أنفسهم من الحزن، قال: ((ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحروا، ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله، اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. ففعل، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً)) (ابن هشام، ١٩٥٥م،ج٢، ص٣١٦) ، وتدل هذه المواقف على أن اعتراض الصحابة لم يكن تمردًا على القيادة

(١) المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي الزهري، أبو عبد الرحمن، من فضلاء الصحابة وفقهائهم. أدرك النبي صلّى الله عليه وسلم وهو صغير وسمع منه. وكان مع خاله عبد الرحمن بن عوف، ليالي الشورى، وحفظ عنه أشياء. وروى عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من أكابر الصحابة. وشهد فتح إفريقية مع عبد الله بن سعد. وهو الّذي حرض عثمان على غزوها. ثم كان مع ابن الزبير، فأصابه حجر من حجارة المنجنيق في الحصار بمكة فقتل ، ينظر: (العسقلاني، ١٤١٥ هـ،ج٦ ، ص٩٣-٩٤؛ الزركلي، ٢٠٠٢ م، ج٧، ص٢٢٥).

النبوية، بل كان نابعًا من الغيرة على الدين وحماسة الإيمان، إذ لم يدركوا آنذاك الحكمة البعيدة التي أرادها الله من الصلح، حتى نزل قوله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) (سورة الفتح: الآية: ١)

أولاً: الظروف التاريخية والسياسية:

في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، خرج النبي محمد ﷺ من المدينة المنورة مع نحو ألفٍ وأربعمائة من أصحابه (الطبري، ١٣٨٧ هـ، ج٢، ص٦٢١)،

وَقِيلَ: أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ (ابن الأثير، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ج٢، ص٨٢)، وقيل الف وثلاثمائة (الذهبي، د، م، د، ت،ج٢، ص٢٠٧)، وفي رواية عن قتادة ، قال: قلت لسعيد بن المسيّب[١]، ((كم كانوا في بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة. قال: قلت: فإنّ جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال: أوهم رحمه الله! هو الّذي حدّثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة)) (الدينوري، ١٩٩٢م، ج١، ص١٦٢) ، عازمين على دخول مكة المكرّمة لأداء العمرة دون نية القتال، مُعلنين نيتهم بوضوح من خلال حملهم للهدي وإشهار الإحرام، وذلك لتأكيد سلمية مقاصدهم بشكل واضح (الحكمي، ١٤٠٦هـ، ج١، ص٥٦)، وفي ذلك الوقت، كان الوضع السياسي في الحجاز معقّداً فقد أتى هذا الخروج بعد انكفاءٍ لقوة قريش عقب غزوة الأحزاب (٥ هـ) (خليل،١٤٢٥ هـ، ج١، ص١٨٥).

ما سمح للمسلمين بأن يزداد شأنهم السياسي والعسكري، غير أن مكة ظلت تحت سيطرة قريش التي رأت في تحرّك المسلمين تهديداً لمكانتها واستقرارها (خليل،١٤٢٥ هـ، ج١، ص١٨٥)، وعندما وصل المسلمون إلى منطقة الحُدَيْبِيَة اعترضتهم قريش ومنعتهم من دخول الحرم، وارسلت لهم عروة بن مسعود[٢]، كما في رواية الواقدي ((وَأَقْبَلَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتّى أناخ راحلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثُمّ أَقْبَلَ حَتّى جَاءَهُ، ثُمّ قَالَ: يَا مُحَمّدُ، إنّي تَرَكْت قَوْمَك، كَعْبَ بْنَ لُؤَيّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيّ عَلَى أَعْدَادِ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ مَعَهُمْ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، قَدْ اسْتَنْفَرُوا لَك أَحَابِيشَهُمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَهُمْ يُقْسِمُونَ بِاَللهِ لَا يُخَلّونَ بَيْنَك وَبَيْنَ الْبَيْتِ حَتّى تَجْتَاحَهُمْ....)) (المغازي، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ج٢، ص٥٩٣-٥٩٤)، الأمر الذي دفع إلى سلسلة من المفاوضات بين الطرفين. وقد أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان رضي الله

---

(١) وهو ابن المسيب بن حزن بن أبي وهب القرشي أبو محمد روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم روى عنه الزهري وقتادة ويحيى بن سعيد الأنصاري ينظر: (ابن أبي حاتم،١٢٧١هـ/ ١٩٥٢ م ،ج٤، ص٥٩).

(٢) عروة بن مسعود بن معتّب، بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف الثقفي وأمّه سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف وكان أحد الأكابر من قومه : ينظر (العسقلاني،ج٤، ص ٤٠٦).

عنه إلى قريش مبعوثًا عنه، الذي مكث في مكة للتفاوض على السماح للمسلمين بأداء العمرة، انتهت بتوقيع ما يُعرف بـ صلح الحُدَيْبِيَة (أبو شُهبة، ١٤٢٧ هـ، ج٢ ، ص٣٣١).

ثانيا: المفاوضات السياسية في صلح الحديبية: (رسل النبي ﷺ ورسل قريش)

اولا : رسل النبي ﷺ إلى قريش :

١- خِرَاش بن أميّة الخُزاعي[١]: أول رسولٍ للنبيّ ﷺ إلى قريش

تُعدّ بعثة خِراش بن أميّة الخُزاعي من أبرز المحاولات الدبلوماسية التي سبقت صلح الحديبية، إذ سعى النبيّ ﷺ من خلالها إلى إيصال رسالة سلمية إلى قريش تؤكد أنّ قدوم المسلمين لم يكن بغرض القتال، بل لأداء العمرة وإظهار نية التعايش. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ((وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا خِرَاشَ بْنَ أُمَيَّةَ الْخُزَاعِيَّ، فَبَعَثَهُ إِلَى قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ، وَحَمَلَهُ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ الثَّعْلَبُ، لِيُبَلِّغَ أَشْرَافَهُمْ عَنْهُ مَا جَاءَ لَهُ، فَعَقَرُوا بِهِ جَمَلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَرَادُوا قَتْلَهُ، فَمَنَعَتْهُ الْأَحَابِيشُ، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)) (ابن هشام، ج٢، ص٣١٤). تُبرز هذه الرواية طبيعة التوتر السياسي بين المسلمين وقريش في تلك المرحلة، إذ عكست ردّة فعل قريش تجاه رسول النبيّ ﷺ حالة العداء والريبة التي سادت قبل الصلح، كما أنّ الاعتداء على جمل النبيّ حمل دلالة رمزية كبيرة في الثقافة العربية، إذ يُعدّ تعدّيًا على هيبة المبعوث ومكانة مرسله (ابن حبان، ١٤١٧ هـ ،ج١، ص٢٨٢).

ويكشف موقف الأحابيش الرافض لقتل خِراش عن وجود تباين داخل مكة، بين من يميل إلى التصعيد ومن يدعو إلى التهدئة، وهو ما مهّد لاحقًا لمناخ التفاوض والصلح (الأعظمي، ٢٠١٠م، ص٢١٤)، لقد مثّلت هذه الحادثة خطوة أولى في سلسلة المبادرات السياسية التي انتهجها النبيّ ﷺ لتجنّب الصدام المسلح، وأظهرت وعيًا سياسيًا متقدّمًا في إدارة العلاقات مع الخصوم على أساس الحوار قبل الحرب، بما يعكس فهماً عميقاً لمبادئ السلم والدبلوماسية في الدولة الإسلامية الناشئة (حميد الله، ٢٠٠٦م، ص٩١)، وهكذا يتّضح أنّ إرسال خِراش لم يكن مجرّد واقعة عابرة، بل محطة أساسية في رسم

(١) خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل بن منقذ بن عفيف بن كليب بن حبشيّة بن سلول الخزاعي ثم الكليبي يكنى أبا نضلة، وهو حليف بني مخزوم مدني شهد مع رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحديبية وخيبر وما بعدهما من المشاهد، وبعثه رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام الحديبية إلى مكة، فآذته قريش وعقرت جمله، فحينئذ بعث إليهم رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان بن عفان، ينظر: (القرطبي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢ م، ج٢، ص٤٤٥ ؛ابن حجر العسقلاني،ج٢، ص٢٣١).

معالم السياسة النبوية القائمة على التوازن بين الدعوة والسلم من جهة، والاستعداد للقوة والدفاع من جهة أخرى (مؤنس، ٢٠١٧م، ص١٢٣).

رُسُلُ النبيّ ﷺ إلى قريش: عثمانُ بن عفّان (رضي الله عنه):

حين قرّر رسولُ الله ﷺ أن يبعث رسولًا إلى قريش لتوضيح مقصده من القدوم إلى مكة، كان الهدف الأساس من هذه الخطوة تجنّب المواجهة المسلحة وتهيئة مناخٍ تفاوضيّ يضمن سلامة المسلمين وحقّهم في أداء العمرة. وقد دعا النبيّ ﷺ عمرَ بن الخطاب (رضي الله عنه) للقيام بهذه المهمة، غير أنّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قد اعتذر عن الذهاب الى مكة ، لأسباب تتعلق بعداوات مع قريش في الماضي اضافة الى ذلك عدم وجود احد من بني عدي في مكة جعلت منه يختار عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قَالَ ابْنُ هشام: ((... ثُمَّ دَعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لِيَبْعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ فَيُبَلِّغَ عَنْهُ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مَا جَاءَ لَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي وَلَيْسَ بِمَكَّةَ من بني عدى أَحَدٌ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفَتْ قُرَيْشٌ عَدَاوَتِي إِيَّاهَا وَغِلْظَتِي عَلَيْهَا وَلَكِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ أَعَزَّ بِهَا مِنِّي. عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ...)) (ابن هشام، ج٢، ص٣١٤؛ الطبري، ج٢، ص٦٢٣.؛ ابن كثير، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٦ م، ج٣، ص٣١٨) ، استجاب النبيّ ﷺ لمشورة عمر (رضي الله عنه)، فاختار عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ليكون مبعوثه إلى قريش، نظرًا لما يتمتع به من مكانةٍ مرموقةٍ في مكة وصلة قرابة بأشرافها، مما يمنحه حصانةً اجتماعية وسياسية تسهّل مهمته. وقَد اورد السهيلي : ((فَخَرَجَ عُثْمَانُ إِلَى مَكّةَ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ حِينَ دَخَلَ مَكّةَ، أَوْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا، فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمّ أَجَارَهُ حَتّى بَلّغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَانْطَلَقَ عُثْمَانُ حَتّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَعُظَمَاءَ قُرَيْشٍ، فَبَلّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَا أَرْسَلَهُ بِهِ فَقَالُوا لِعُثْمَانِ حِينَ فَرَغَ مِنْ رِسَالَةِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَيْهِمْ إنْ شِئْت أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ فَقَالَ مَا كُنْت لِأَفْعَل حَتّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ. وَاحْتَبَسَتْهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَالْمُسْلِمِينَ أَنّ عُثْمَانَ بْنَ عَفّانَ قَدْ قُتِلَ)) (الروض الأنف ، ج٧، ص٦٣) ، وقد حمل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) رسالة واضحة مفادها أنّ النبي ﷺ ((لم يأتِ لحربٍ أو قتال، وإنما زائرًا لهذا البيت ومعظِّمًا لحرمته)) (الواقدي ،المغازي، ج٢،ص٦٠٠ ؛ ابن كثير، ج٤، ص١٧٠).

وهذه الصيغة الخطابية تعكس المقصد الديني والسلمي للحركة النبوية، وتؤكد الطابع التعبّدي للرحلة لا الطابع العسكري. ويمثّل هذا الحدث مثالًا متقدّمًا على النضج السياسي في إدارة الأزمات

والتفاوض، إذ أحسن النبي ﷺ اختيار المبعوث من الناحية القبلية والنفسية، بما يضمن إيصال الرسالة من دون استفزاز الطرف المقابل. وكان هذا الإجراء يعكس دبلوماسيةً نبويةً واعية، قادرة على قراءة موازين القوى القبلية واستثمارها لتحقيق مكاسب سياسية ومعنوية (عيّاش، ٢٠١٨، ص١٢٢؛ الجبوري، ٢٠٢٠، ص٨٨)، ويبدو أنّ اختيار عثمان بن عفان رضي الله عنه جاء تعبيرًا عن فطنةٍ سياسيةٍ راقيةٍ في التعامل مع الخصم، إذ فضّل الرسول ﷺ أن يبعث من يحظى بالقبول لدى قريش لتخفيف حدّة التوتر وفتح أبواب الحوار (الغزالي، ٢٠١٤، ص٢٧٤). ومن خلال هذا التحرك، يمكن القول إنّ بعثة عثمان بن عفان لم تكن مجرد مهمةٍ دبلوماسيةٍ عابرة، بل خطوة استراتيجية محورية في مسار صلح الحديبية، إذ أسهمت في تهيئة الظروف النفسية والسياسية التي أفضت إلى إبرام الاتفاق، والذي مثّل بدوره تحولًا نوعيًّا في مسار العلاقات بين الدولة الإسلامية الناشئة وقريش، وأسّس لمرحلةٍ جديدة من التوازن السياسي والاعتراف المتبادل بين الطرفين.

ثانيا : رسل قريش إلى النبي ﷺ:

١- بديل بن ورقاء الخزاعي[١] ودوره في مفاوضات الحديبية الأولى:

يُعَدُّ بديل بن ورقاء الخزاعي من الشخصيات البارزة التي لعبت دورًا سياسيًا مهمًّا في بدايات مفاوضات صلح الحديبية، إذ مثّل خزاعة — القبيلة التي كانت على صلة وثيقة برسول الله ﷺ — في محاولة تقريب وجهات النظر بين المسلمين وقريش فذهب بديلُ بن ورقاء الخزاعي، في رجالٍ من خزاعة، فكلّموه وسألوه ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنّه لم يأتِ يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيت ومعظّمًا لحرمته (البخاري، ج٣، ص ١٩٣ ؛ ابن الاثير ، ج٢، ص٨٣ ؛ العواجي، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ، ج٢، ص٥٨٠)، ثم قال لهم نحوًا مما قال لبشر بن سفيان[٢]، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمدًا لم يأت لقتال، وإنما جاء زائرًا هذا البيت. فاتهموهم وجبهوهم، وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالًا، فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبدًا، ولا تحدث بذلك عنا العرب ، ثم قال الزهري: وكانت خزاعة عيبةَ نصحِ رسولِ الله ﷺ مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئًا كان بمكة (العواجي، ج٢، ص٥٨٠)، وتُبرز هذه الرواية الطبيعة السلمية التي انطلق منها النبي ﷺ في توجهه إلى مكة،

(١) بديل بْن ورقاء بْن عمرو بْن ربيعة بْن عبد العزى بْن ربيعة بن جزيّ بن عامر بن مازن الخزاعي ، ينظر: (الأصبهاني، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، ج١، ص٤٢١ ؛ ابن الأثير، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م)، ج١، ص٢٠٣).

(٢) هو بشر بن سفيان العتكيّ ذكره الخرائطي في الهواتف، من طريق عبد الله ابن العلاء، قدم الى رسول الله صلّى الله عليه وسلم عندما توجّه يريد مكّة في عام الحديبيّة ، ينظر : (ابن حجر،ج١، ص٤٢٩).

إذ أكّد لوفد خزاعة أنّ هدفه أداء العمرة وتعظيم شعائر الله، لا إثارة القتال أو التحدي السياسي. وقد مثّل هذا اللقاء مرحلة تمهيدية مهمة في مسار المفاوضات؛ فخزاعة كانت تُعدّ حلقة وصل بين الطرفين لما عُرف عنها من الحياد النسبي والعلاقات المتينة مع النبي ﷺ. كذلك إلى البعد السياسي والاجتماعي عندما وصف خزاعة بأنها ((عيبة نصح رسول الله))، وهو وصفٌ يدل على عمق الثقة التي أولاه النبي ﷺ لهذه القبيلة (المباركفوري، ٢٠٠١م، ص١١٣).

وكان مجيء بديل ومن معه من خزاعة كان من أوائل المؤشرات على وجود طرف ثالث يحاول التهدئة، إلا أن تصلّب موقف قريش جعل الحل العسكري أو الصلح الحذر هو الخيار الوحيد المطروح (علوش، ١٩٩٠م، ص٩٦) ، وفي السياق نفسه، أن هذا الموقف مثّل اختبارًا مبكرًا لحكمة القيادة النبوية في إدارة الأزمة، إذ اختار النبي ﷺ التهدئة وتجنب التصعيد رغم استفزازات قريش، مما مهّد لاحقًا لنجاح صلح الحديبية كحدث سياسي فارق في تاريخ الدعوة الإسلامية (الباشا، ١٩٩٥م، ص٦٢) ويبدو لي أن لقاء بديل بن ورقاء بالنبي ﷺ كان نقطة تحول في السياسة النبوية قبيل الصلح، إذ أسّس لمرحلة من التواصل غير المباشر بين الطرفين والتفاهم قبل اللجوء إلى المواجهة.

٢- الحُليس بن عَلقمة[١] سيد الأحابيش وَمَوْقِفُهُ السِّيَاسِيّ فِي أَحْدَاثِ الحُدَيْبِيَة :

تُعَدُّ رواية بعث قريشٍ للحُلَيْس بن عَلْقَمة الكناني من أبرز الشواهد التاريخية التي تكشف طبيعة التوازنات السياسية والاجتماعية خلال مفاوضات صلح الحديبية، إذ مثّلت هذه الحادثة لحظة فاصلة بين الموقف المتشدد لقريش والميل السلمي لبعض زعماء القبائل الحليفة لها ، قال ابن هشام :((ثُمَّ بَعَثُوا إلَيْهِ الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ أَوْ ابْنَ زَبَّانَ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدَ الْأَحَابِيشِ، وَهُوَ أَحَدُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ....)) (علوش ،ج٢، ص٣١٢).

ولما رآه الرسول صلّى الله عليه وسلم قال: (إن هذا من قوم يتألهون أي إنه متدين فابعثوا الهدي أمامه ليراه. رأى الحليس الهدي في الوادي فعاد الى قريش قبل أن يصل الى الرسول صلّى الله عليه وسلم إعظاما لما شاهد، وأخبرهم بما رأى، فأجابوه: اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك. فاستشاط الحليس غضبا وصاح: يا معشر قريش! والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصدّ عن بيت الله من جاء معظما له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلّن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد (خطاب، ١٤٢٢هـ، ج١، ص٢٧٤).

---

(١) هو الحليس بن علقمة بن عمرو بن الأوقح بن جذيمة بن عامر بن عوف بن الحارث بن عبد مناة بن كنانة رئيس الأحابيش يوم أحد ، ينظر: (ابن ماكولا، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ج٢، ص٤٩٧ ؛ الزركلي، ج٢، ص٢٧٠).

تظهر هذه الرواية بوضوح دهاء القيادة النبوية في التعامل مع القوى القبلية؛ فقد أدرك النبي ﷺ طبيعة شخصية الحليس المتدينة وميله إلى احترام الشعائر، فأمر بعرض الهدي أمامه ليوقظ في نفسه مشاعر التعظيم للحرم، وهو ما نجح فعلاً في إحداث تأثير عميق قلب موقفه من الحياد إلى التأييد الضمني للنبي محمد ﷺ. و على هذا الحدث فإن النبي ﷺ استثمر حسّ الحليس الديني فحوّله من رسول لقريش إلى شاهد على نُبل نية المسلمين (المباركفوري، ج١، ص٣١٠) كما يعد هذا الموقف بأنه مثال على الحنكة السياسية النبوية القائمة على فهم البنية (علوش، ص٥١٤) الاجتماعية للقبائل العربية، وتقدير أثر الرموز الدينية في تليين المواقف العدائي. بالاضافة الى ذلك لم تكن غضبة الحليس مجرد انفعال قبلي، بل تعبيرًا عن تصدع التحالف السياسي لقريش، إذ لم يعد كل حلفائها راضين عن سياستها تجاه النبي ﷺ (خطاب، ص ١٩٢).

من خلال هذا الموقف، يتضح أن بعثة الحليس شكّلت تحوّل في مسار التفاوض، إذ كشفت عن انقسام داخلي في جبهة قريش بين دعاة التشدد ودعاة التعقل، وهو ما مهد الطريق لاحقًا لإتمام صلح الحديبية الذي غيّر موازين القوى.

٣- عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ[١] رَسُولُ قُرَيْشٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ

في سياق المفاوضات التي جرت بين النبيّ محمد ﷺ وقريش خلال أحداث صلح الحديبية، برزت شخصية عروة بن مسعود الثقفي بوصفه أحد أبرز المبعوثين من قريش إلى النبي ﷺ. وتشير المصادر التاريخية إلى أن اختياره لم يكن اعتباطيًا، بل لما له من مكانةٍ رفيعةٍ في قريش وثقيف، ولما عُرف عنه من حكمةٍ واتزانٍ في معالجة النزاعات بين القبائل العربية. يقول ابن هشام:((ثُمَّ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَا يَلْقَى مِنْكُمْ مَنْ بَعَثْتُمُوهُ إِلَى مُحَمَّدٍ إِذْ جَاءَكُمْ مِنَ التَّعْنِيفِ وَسُوءِ اللَّفْظِ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّكُمْ وَالِدٌ وَإِنِّي وَلَدٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ بِالَّذِي نَابَكُمْ، فَجِئْتُكُمْ حَتَّى آسَيْتُكُمْ بِنَفْسِي)) (ابن هشام، ج٢، ص٣١٣؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٤، ص١٩٠؛ السهيلي، ج٢، ص٣١٣). وتورد الرواية أن قريشًا قبلت اقتراحه لما له من مكانة معتبرة، إذ قالوا له: ((صدقْت، ما أنت عندنا بمتهم)). ثم خرج حتى أتى النبي ﷺ، وجلس بين يديه متحدثًا إليه بلهجةٍ يغلب عليها التحذير من مواجهة قريش، فقال: ((يا محمد، أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضّها بهم إنها قريش خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور،

(١) عروة بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف.. ويكنى أبا يعفور، ينظر: (ابن سعد، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج٦، ص٤٥).

يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوةً أبدًا)) (الطبري، ج٢، ص٦٢٦؛ الصَّلاَّبي، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م،ج١، ص٧٥).

غير أن الحوار لم يخلُ من حدّةٍ لفظية؛ فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه حاضرًا، فردّ على عروة بقوله: (امصص بظر اللات، أنحن ننكشف عنه) فقال عروة: (من هذا يا محمد)، فقال ﷺ: (هذا ابن أبي قحافة)، فقال عروة: (أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها) (السهيلي، ج٢، ص٣٦٩ ؛ ابن الأثير، ج٢، ص٢١٨). وأثناء حديث عروة مع النبي ﷺ، كان يمدّ يده إلى لحية النبي، فكان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يقرع يده (الواقدي، المغازي، ج٢، ص٥٩٥ ؛ الحرضي،ج١، ص٣١٤).

إنّ هذه الرواية بما تحمله من مشاهد واقعية تؤكد عمق الانبهار الذي تولّد لدى عروة بن مسعود من هيبة الرسول ﷺ ومكانته في نفوس أصحابه، إذ انعكست صورة المجتمع النبوي في الحديبية بوصفها مجتمعًا منضبطًا، متماسكًا حول قيادته، الأمر الذي مثّل انعطافًا سياسيًا حاسمًا في مسار التفاوض مع قريش. ومن الناحية التحليلية، يبرز موقف عروة مثالاً مبكرًا على الاعتراف المعارض بـ"الشرعية المعنوية" للنبي ﷺ، قبل أن تتحول إلى شرعيةٍ سياسية بعد الصلح (الحكمي، ج١، ص١٢٠ ؛ الصَّلاَّبي، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٦٢٥)، وكان عروة من أكابر قبيلة ثقيف معروف برجاحة العقل ، ولقد شهد النبي ﷺ منه هيبةً عظيمةً، فعاد إلى قومه بصدق القول عن حال المسلمين (الذهبي، ج١، ص٢٣٠ ؛ العواجي، ج٢، ص٥٦٢). وكان هذا اللقاء يمثّل نقطة تحولٍ في الاعتراف المتبادل بين قريش والنبي ﷺ، ويمهد لتسويةٍ سلميةٍ قائمةٍ على احترام المكانة لا الهيمنة وبذلك، تعكس هذه الرواية إنموذجا مركبًا من الواقعة التاريخية والسلوك السياسي النبوي، إذ التزمت فيها القيادة النبوية بثبات المبدأ وسعة الصدر في مواجهة المفاوض المعارض، مما أضفى على شخصية الرسول ﷺ بعدًا قياديًا متفردًا اعترف به حتى خصومه (حميد الله ،ص٩٤-٩٥).

٤- سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو[١] إِلَى الرَّسُولِ ﷺ لِلصُّلْحِ:

تُعَدُّ بعثةُ سُهَيْلِ بن عمرو إلى النبي ﷺ من أبرز اللحظات المفصلية في أحداث صلح الحديبية، إذ مثّلت نقطة التحول من حالة التوتر العسكري إلى المسار التفاوضي بين الطرفين (علوش،

(١) سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ وَدِّ بْنِ نَصْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ حَسَلِ بْنِ عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، يُكَنَّى أَبَا يَزِيدَ، ينظر: (ابن هشام، ج٢، ص٣١٦؛ ابن سعد، ج١، ص٤٢٦ ؛ الأصبهاني، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨م ، ج٢، ص١٣٢٤؛ البيهقي، ١٤٠٥ هـ، ج٤، ص١٣٤).

ج١، ص٦٤٣)، وقد أورد ابن هشام: ((ثُمَّ بَعَثَتْ قُرَيْشٌ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، أَخَا بَنِي عَامِرِ ابْنِ لُؤَيٍّ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالُوا لَهُ: ائْتِ مُحَمَّدًا فَصَالِحْهُ، وَلَا يَكُنْ فِي صُلْحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامه هَذَا، فو الله لَا تُحَدِّثُ الْعَرَبُ عَنَّا أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنْوَةً أَبَدًا. فَأَتَاهُ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقْبِلًا،)) (علوش، ج٢،ص٣١٦).

قَالَ:((قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ. فَلَمَّا انْتَهَى سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكَلَّمَ فَأَطَالَ الْكَلَامَ، وَتَرَاجَعَا، ثُمَّ جَرَى بَيْنَهُمَا الصُّلْحُ)) (علوش، ج٢،ص٣١٦ ؛ الطبري،ج٢، ص٦٣٣). ويُفهم من هذا التوجيه أن قريشًا كانت حريصةً على حفظ مكانتها أمام العرب، واعتبرت دخول النبي ﷺ إلى مكة في تلك السنة إضعافًا لمركزها السياسي، مما دفعها إلى اختيار سهيل بن عمرو، وهو من عقلائها وأهل الرأي فيها، ليكون ممثلها في هذا الصلح، لما عُرف عنه من حنكةٍ وبلاغةٍ وقدرةٍ على التفاوض (ابن كثير، ج٣، ص ٣١٩، الندوي، ١٤٢٥هـ، ج١، ص٣٨١) في دلالةٍ على معرفته بمكانة سهيل السياسية والاجتماعية، وأن اختياره دليلُ رغبةٍ صادقةٍ من قريش في التهدئة. وبعد أن انتهى سهيل إلى مجلس النبي ﷺ تَكَلَّمَ فَأَطَالَ الْكَلَامَ، وَتَرَاجَعَا، ثُمَّ جَرَى بَيْنَهُمَا الصُّلْح (الطبري، ج٢، ص٦٣٢، ابن سيد الناس، ج٢، ص١٦٠، الحكمي، ج١، ص١٧٣)، وهو ما يشير إلى مفاوضاتٍ مطوّلةٍ اتّسمت بالحكمة من جانب الرسول ﷺ في ضوء الدهاء السياسي من جانب سهيل، وتُظهر الروايات اللاحقة ردود الفعل داخل الصف الإسلامي تجاه بعض بنود الصلح التي بدت مجحفةً في ظاهرها (البخاري، ج٤، ص١٠٣ ؛ مسلم، د.ت، ج٣، ص١٤١١).

ومن أبرزها موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ جاء في الحديث: ((فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ بِرَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَوَ لَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَوَ لَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطَى الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا....)) (البخاري، ج٤، ص١٠٣؛ مسلم، ج٣، ص١٤١١).

وقد عبّر هذا الحوار عن طبيعة الصراع الداخلي بين الإيمان والتصور البشري للكرامة، فبينما نظر عمر إلى الأمر من زاوية المصلحة الظاهرة للمسلمين، كان النبي ﷺ يستحضر الرؤية الإلهية الأعمق، مؤكّدًا موقفه بقوله: ((أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي)) (البيهقي، ج٩، ص٣٧٢ ؛ الهيثمي، د.ت، ج٣، ص١٠). ويمثل هذا الموقف ذروة النضج السياسي في سيرة النبي ﷺ، إذ استطاع أن يُقدّم مبدأ "الواقعية السياسية" في إدارة الصراع، من خلال قبوله بشروطٍ ظاهرها التنازل، لكنها فتحت الباب لاحقًا لانتصارٍ ديني ومعنوي كبير (الغزالي، ص٢٤٧)، ويعد هذا الموقف أنموذجًا في فقه الموازنات والمصالح العليا للدولة الإسلامية الناشئة (السرجاني، ٢٠١٩، ص٣٨٦). أما

عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ظلّ يستشعر عِظَمَ ما بدر منه يومئذٍ، فقال كما ورد في الروايات:((مَا زِلْتُ أَتَصَدَّقُ وَأَصُومُ وَأُصَلِّي وَأُعْتِقُ، مِنْ الَّذِي صَنَعْتُ يَوْمَئِذٍ! مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا)) (ابن أبي شيبة، ١٩٩٧م، ج١، ٦٤ ؛ ابن كثير، ج٤، ص١٧٨).

٥- شروط الصلح:

بعد أن تمَّ الاتفاق على مبادئ الصلح دعا رسولَ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) ليكتب شروط الصلح، فقال له: ((اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فاعترض سهيل بن عمرو ممثل قريش قائلاً: أما الرحمن فما ندري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهمّ ، فاستجاب النبي محمد ﷺ لذلك (السهيلي، ج٧، ص٦٥).

وقال لعليٍّ: اكتب باسمك اللهمّ. ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو)) (ابن هشام، ج٢، ص ٣١٧ ؛ الحلبي، ١٤٢٧هـ، ج٣، ص٢٩)، فاعترض سهيل مجددًا قائلاً: ((لو شهدتُ أنك رسول الله ما قاتلتك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فأمر النبي ﷺ عليًّا أن يكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو)) (ابن هشام، ج٢، ص ٣١٧ ؛ الحلبي، ج٣، ص٢٩)، وقد نصَّت بنود الصلح – كما تذكر المصادر التاريخية – على أن يُوضع القتال بين الفريقين عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأن من جاء إلى محمد ﷺ من قريش بغير إذن وليّه يُرد إليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد ﷺ لا يُرد، وأن يكون بين الفريقين عهدٌ قائم على الوفاء وعدم الغدر، وألا يكون هناك إغلال أو إسلال، وأن من أراد الدخول في حلف محمد ﷺ دخل فيه، ومن أراد الدخول في عقد قريش وعهدهم دخل فيه (الطبري،ج٢، ص ٦٣٤ ؛ ابن كثير، ج٤، ص١٩٢؛ الغزالي، ج١، ص٣٣٤).

ويُعد هذا الاتفاق نقلة نوعية في العلاقات بين المسلمين وقريش؛ إذ منح الاعتراف العملي بكيان الدولة الإسلامية في المدينة، وإن لم تُقرّ به قريش صراحة. كما أبرز شخصية النبي ﷺ كقائدٍ سياسيٍّ بارعٍ يتعامل بمرونةٍ مع الواقع لتحقيق الأهداف العليا للدعوة. وكان صلح الحديبية انتصارًا دبلوماسيا للنبي محمد ﷺ، إذ أسّس لمرحلة جديدة من السلم والاعتراف المتبادل بين المسلمين وقريش، ومهّد لانتشار الإسلام في الجزيرة العربية دون قتال (الصلابي، ص ٦٤٥).

أما من الناحية الفقهية، فقد استند العلماء إلى هذا الصلح في تأصيل أحكام المعاهدات والسلم في الإسلام، وعدّوه أصلًا في مشروعية الصلح السياسي بين المسلمين وغيرهم إذا تحقق به المصلحة العامة (الدوري، ١٩٩٧، ص ١٥٦).

النتائج السياسية لصلح الحديبية:

أسفر صلح الحديبية عن نتائج سياسية بعيدة الأثر، تجاوزت مجرد إيقاف القتال بين المسلمين وقريش، لتشكل مرحلةً جديدة في تاريخ الدولة الإسلامية، إذ أسهمت بنود المعاهدة في إعادة رسم خريطة العلاقات السياسية في الجزيرة العربية، وأوجدت واقعًا جديدًا اعترفت فيه قريش ولأول مرة بالمسلمين كدولة طرفًا سياسيًا مستقلًا. فقد كان قبولها الدخول في معاهدة مع النبي ﷺ اعترافًا ضمنيًا بوجود الدولة الإسلامية ومكانتها، إذ إن عقد المعاهدات لا يكون إلا بين قوتين متقابلتين، الأمر الذي انعكس على مواقف القبائل العربية التي كانت تترقب موقف قريش من المسلمين، فأصبح الإسلام قوةً سياسيةً يحسب لها حساب، بعد أن كان ينظر إليه بوصفه حركةً معارضةً لسلطان قريش (خطاب، ج١، ص٣١٨ ؛ الصلابي، ج١، ص٦٨٣- ٦٨٤).

ومن أبرز النتائج السياسية التي أفرزها الصلح أنه وفر للمسلمين حالةً من الأمن والاستقرار، أتاحت للنبي ﷺ توجيه جهوده إلى نشر الدعوة الإسلامية بين القبائل العربية وخارج الجزيرة العربية، بعد أن توقفت المواجهة العسكرية مع قريش. وقد عدت الحديبية اعظم انتصار للمسلمين: ((فَمَا فُتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ الْتَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْهُدْنَة وَوضعت الْحَرْب أَوزَارهَا وَأمن النَّاس كلم بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَالْتَقَوْا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمُنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلَّمْ أَحَدٌ فِي الْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنَكِ السَّنَتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ.)) (السهيلي، ج٢، ص٣٢٢ ؛ ابن كثير، ج٣، ٣٤٢) وقد خرج الرسول الله ﷺ إلى الحديبية في نحو ألفٍ وأربعمائة من أصحابه، ثم خرج بعد عامين إلى فتح مكة في عشرة آلاف مقاتل، وهو ما يدل على ما أحدثته الهدنة من انتشار واسع للإسلام وتعاظم قوة المسلمين (ابن هشام، ج٢، ص٣٢٢ ؛ ابن كثير،ج٣، ص٣٢٤)، كما أتاح الصلح للدولة الإسلامية إعادة ترتيب أولوياتها السياسية والعسكرية، بعد أن أُمن جانب قريش، فتوجه النبي ﷺ إلى معالجة الأخطار الأخرى التي كانت تهدد الدولة الإسلامية، فكانت غزوة خيبر من أبرز ثمار هذه الهدنة، كما هيأت الظروف لإرسال الكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، في خطوة عكست انتقال الدعوة الإسلامية من الإطار المحلي إلى المجال الدولي، وأظهرت الثقة التي اكتسبتها الدولة الإسلامية بعد استقرار وضعها الداخلي (أبو شهبة، ج٢، ص٣٤٠).

وأسهمت نتائج الصلح كذلك في تعزيز المكانة السياسية للمسلمين بين القبائل العربية، وانعكس ذلك في دخول عدد من كبار رجالات قريش في الإسلام، وفي مقدمتهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

وعثمان بن طلحة، فضلاً عن تزايد إقبال القبائل على الإسلام بعد أن زالت الحواجز التي فرضتها الحرب. ولم يكن ذلك مجرد توسع عددي، بل كان تحولًا سياسيًا واجتماعيًا عزز نفوذ الدولة الإسلامية، ومهد لقيام تحالفات جديدة مالت كفتها لصالح المسلمين (الغزالي، ج١، ص٣٧٤).

وانتهت هذه النتائج جميعها إلى أعظم مكسب سياسي حققه صلح الحديبية، وهو تمهيده لفتح مكة؛ إذ أثبتت الأيام أن الهدنة لم تكن تنازلًا سياسيًا كما تصور بعض الصحابة عند توقيعها، وإنما كانت خطوة استراتيجية بعيدة المدى، هيأت الظروف لانتقال المسلمين من مرحلة الدفاع إلى مرحلة المبادرة (ابن هشام ، ج٢، ص٣٢٢ ؛ السهيلي، ج٦، ص٤٦٨)، وقد أشار ابن القيم إلى هذه الحقيقة بقوله: ((كانت الهدنة مقدمة بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له ومفتاحًا ومؤذنًا بين يديه)) (زاد المعاد، ج٣، ص٣٠٩)، وهو ما تؤيده مجمل الروايات التاريخية التي جعلت من صلح الحديبية نقطة التحول السياسي الأبرز في مسيرة الدولة الإسلامية قبل فتح مكة (الشامي،ج٥، ص٦٥).

الخاتمة

خلص البحث إلى أن صلح الحديبية لم يكن مجرد اتفاق لوقف القتال بين المسلمين وقريش، وإنما مثّل تحولًا سياسيًا مفصليًا في مسيرة الدولة الإسلامية، إذ كشفت الروايات التاريخية عن عمق السياسة النبوية في إدارة الصراع، وتغليب المصالح الاستراتيجية بعيدة المدى على المكاسب الآنية. وقد بينت الدراسة أن الظروف التي أحاطت بالصلح، وطبيعة المفاوضات التي سبقته، تعكس قدرة النبي (صلى الله عليه وسلم) على توظيف الوسائل السياسية والدبلوماسية لتحقيق أهداف الدولة الإسلامية، مع المحافظة على ثوابتها ومبادئها.

كما أوضحت الروايات أن نتائج الصلح تجاوزت إطار الهدنة المؤقتة، لتسهم في ترسيخ المكانة السياسية للدولة الإسلامية، وتهيئة البيئة المناسبة لانتشار الدعوة، وإعادة تشكيل موازين القوى في الجزيرة العربية، فضلًا عن تمهيد الطريق لفتح مكة، الذي مثّل الثمرة السياسية الكبرى لهذا الصلح. وتؤكد هذه النتائج أن السياسة النبوية قامت على رؤية استراتيجية جمعت بين الحكمة والمرونة، واستثمرت التفاوض والوفاء بالعهود بوصفهما وسيلتين لتحقيق المصالح العليا للدولة الإسلامية. ويؤكد البحث أهمية إعادة قراءة الروايات التاريخية في ضوء مناهج التحليل التاريخي، لما توفره من دلالات تسهم في فهم تطور الفكر السياسي في صدر الإسلام، وإبراز البعد الحضاري للسياسة النبوية في إدارة العلاقات الداخلية والخارجية.

المصادر والمراجع

١. أبو شُهبة، محمد بن محمد بن سويلم. (١٤٢٧هـ). السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (ط٨، ج٢). دار القلم.

٢. الأعظمي، وليد. (٢٠١٠م). دراسات في السيرة النبوية والسياسة الشرعية. دار ابن كثير.

٣. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران. (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م). معرفة الصحابة (ط١، ج١، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي). دار الوطن للنشر.

٤. الباشا، عبد الرحمن رأفت. (١٩٩٥م). صور من حياة الصحابة. دار الأدب الإسلامي.

٥. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي. (١٤٠٧هـ). صحيح البخاري (ط٣، ج٣، ج٤، تحقيق: مصطفى ديب البغا). دار ابن كثير.

٦. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني. (١٤٠٥هـ). دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (ط١، ج٤). دار الكتب العلمية.

٧. الجرجاني، عبد الله بن عدي. (١٤١٦هـ). الكامل في ضعفاء الرجال (ط١، ج٣، تحقيق: سهيل زكار). دار الفكر.

٨. الحكمي، حافظ بن محمد بن عبد الله. (١٤٠٦هـ). مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة (ط٢، ج١). الجامعة الإسلامية.

٩. الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد نور الدين ابن برهان الدين. (١٤٢٧هـ). السيرة الحلبية (ط٢، ج٣). دار الكتب العلمية.

١٠. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. (١٤٢٢هـ). تاريخ بغداد (ط١، ج٤، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا). دار الكتب العلمية.

١١. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. (د.ت). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (ج٢). المكتبة التوفيقية.

١٢. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. (١٤٠٥هـ). سير أعلام النبلاء (ط١، ج١، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومجموعة من المحققين). مؤسسة الرسالة.

١٣. الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله. (د.ت). تاج العروس من جواهر القاموس (ج٢، تحقيق: علي شيري). دار الفكر.

١٤. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي. (٢٠٠٢م). الأعلام (ط١٥، ج٧). دار العلم للملايين.

١٥. السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد. (د.ت). الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام (ج٢، ج٦، ج٧). دار إحياء التراث العربي.

١٦. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (د.ت). تاريخ الخلفاء (تحقيق: حمدي الدمرداش). مكتبة نزار مصطفى الباز.
١٧. الشامي، نور الدين علي بن محمد. (د.ت). سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (ج٥). دار الكتب العلمية.
١٨. الصَّلاَّبي، علي محمد محمد. (١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م). الانشراحُ وَرَفعُ الضِّيق في سِيرة أبي بَكْر الصِّديق شخصيته وَعَصره (ط١، ج١). دار التوزيع والنشر الإسلامية.
١٩. الصَّلاَّبي، علي محمد محمد. (١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م). السِّيرةُ النّبوية عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث (ط٧، ج١). دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٠. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر. (١٣٨٧هـ). تاريخ الرسل والملوك (ط٢، ج٢). دار التراث.
٢١. العواجي، محمد بن محمد. (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م). مرويات الإمام الزهري في المغازي (ط١، ج٢). (د.ن).
٢٢. الغزالي، محمد. (٢٠١٤م). فقه السيرة (ج١). دار الشروق.
٢٣. علوش، أحمد. (١٩٩٠م). السيرة النبوية. دار الدعوة.
٢٤. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي. (١٢٧١هـ/١٩٥٢م). الجرح والتعديل (ط١، ج٤). دار إحياء التراث العربي.
٢٥. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي. (١٩٩٧م). مسند ابن أبي شيبة (ط١، ج١، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي وأحمد بن فريد المزيدي). دار الوطن.
٢٦. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري. (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م). أسد الغابة في معرفة الصحابة (ج١). دار الفكر.
٢٧. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري. (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م). الكامل في التاريخ (ط١، ج٢، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري). دار الكتاب العربي.
٢٨. ابن حبان، أبو حاتم محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي الدارمي البُستي. (١٤١٧هـ). السيرة النبوية وأخبار الخلفاء (ط٣، ج١، صحّحه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء). الكتب الثقافية.
٢٩. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد. (١٣٧٩هـ). فتح الباري شرح صحيح البخاري (ج٥). دار المعرفة.
٣٠. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد. (١٤١٥هـ). الإصابة في تمييز الصحابة (ط١، ج٢، ج٤، ج٦، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض). دار الكتب العلمية.
٣١. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (١٤٢١هـ). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (ط١، ج٢، تحقيق: خليل شحادة). دار الفكر.

٣٢. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري البغدادي. (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م). الطبقات الكبرى (ط١، ج١، ج٦، تحقيق: محمد عبد القادر عطا). دار الكتب العلمية.

٣٣. ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد بن محمد بن أحمد اليعمري. (١٤١٦هـ). عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (ط١، ج٢، تحقيق: إبراهيم محمد رمضان). دار القلم.

٣٤. ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم. (١٩٩٢م). المعارف (ط٢، ج١، تحقيق: ثروت عكاشة). الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣٥. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي. (١٣٩٥هـ / ١٩٧٦م). السيرة النبوية من البداية والنهاية لابن كثير (ج٣، تحقيق: مصطفى عبد الواحد). دار المعرفة.

٣٦. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي. (د.ت). البداية والنهاية (ج٣، ج٤). دار إحياء التراث العربي.

٣٧. ابن ماكولا، سعد الملك أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر. (١٤١١هـ/١٩٩٠م). الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب (ط١، ج٢). دار الكتب العلمية.

٣٨. ابن هشام، أبو محمد جمال الدين عبد الملك بن أيوب الحميري المعافري. (١٩٥٥م). السيرة النبوية (ط٢، ج٢، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين). دار إحياء التراث العربي.

٣٩. حميد الله، محمد. (٢٠٠٦م). الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (ط٧). دار النفائس.

٤٠. خليل، عماد الدين. (١٤٢٥هـ). دراسة في السيرة (ط٢، ج١). دار النفائس.

٤١. خطاب، محمود شيت. (١٤٢٢هـ). الرسول القائد (ط٦، ج١). دار الفكر.

٤٢. الدوري، عبد العزيز. (١٩٩٧م). دراسات في العصور الإسلامية المبكرة. مركز دراسات الوحدة العربية.

٤٣. السرجاني، راغب. (٢٠١٩م). السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة. دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٤. السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله. (د.ت). الروض الأنف (ج٢، ج٧). (د.ن).

٤٥. الشامي، نور الدين علي بن محمد. (د.ت). سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (ج٥). (د.ن).

٤٦. عيّاش، محمد. (٢٠١٨م). الدبلوماسية في العهد النبوي، دراسة تحليلية. دار النور.

٤٧. الغزالي، محمد. (٢٠١٤م). فقه السيرة. دار الشروق.

٤٨. القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري. (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م). الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ط١، ج٢، تحقيق: علي محمد البجاوي). دار الجيل.

٤٩. المباركفوري، صفي الرحمن. (٢٠٠١م). الرحيق المختوم (ج١). دار الوفاء.

٥٠. مسلم، أبو الحسن بن الحجاج القشيري النيسابوري. (د.ت). المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (ج٣، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي). دار إحياء التراث العربي.

٥١. مؤنس، حسين. (٢٠١٧م). السياسة والدبلوماسية في العهد النبوي. مكتبة الأنجلو المصرية.

٥٢. الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان. (د.ت). المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي (ج٣، تحقيق: سيد كسروي حسن). دار الكتب العلمية.
٥٣. الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي المدني. (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م). المغازي (ط٣، ج٢، تحقيق: مارسدن جونس). دار الأعلمي.
٥٤. الحرضي، يحيى بن أبى بكر بن محمد بن يحيى العامري. (د.ت). بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل (ج١). دار صادر.
٥٥. الجبوري، سامر. (٢٠٢٠م). البنية السياسية في قريش زمن النبوة. مركز دراسات التاريخ الإسلامي.
٥٦. الندوي، فخر الدين علي أبو الحسن. (١٤٢٥هـ). السيرة النبوية (ط١٢، ج١). دار ابن كثير.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: م.م. عامر عبود ادهام عكله

الجامعة: كركوك

الكلية: التربية للعلوم الانسانية

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:
aimrabood@uokirkuk.edu.iq

الهاتف: ٠٧٨٢٤٥٧٥٠٥٠

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ٢٢/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٣٠/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (العصر العباسي الأول، علماء الطب، علماء الفلك، الترجمة العلمية، بيت الحكمة)

عنوان البحث

دور علماء العصر العباسي في ازدهار علوم الطب والفلك (١٣٢هـ-٧٥٠م/٢٣٢هـ-٨٤٧م)

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دور علماء العصر العباسي في علوم الطب والفلك خلال المدة الممتدة بين ١٣٢هـ/٧٥٠م و٢٣٢هـ/٨٤٧م وهي مرحلة تعد من أبرز مراحل الازدهار العلمي في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. يهدف البحث إلى بيان العوامل المختلفة التي أسهمت في تهيئة البيئة المناسبة لنمو العلوم مع التركيز على دور العلماء في نقل المعارف الطبية والفلكية من الحضارات السابقة وتطويرها وإعادة صياغتها بما يتلاءم مع متطلبات المجتمع الإسلامي واعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي من خلال دراسة المصادر التاريخية والمراجع المتخصصة وتحليل إسهامات العلماء في مجالي الطب والفلك ضمن سياقها الحضاري. وقد توصلت الدراسة إلى أن الاستقرار السياسي الذي شهدته الدولة العباسية الأولى إلى جانب رعاية الخلفاء العباسيين للعلم والعلماء أسهما في تنشيط حركة الترجمة وظهور المؤسسات العلمية والطبية التي أصبحت مراكز لإنتاج المعرفة وتطويرها.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Asst. Lect. Amer Abboud Edham Akla
University: Kirkuk
College: Education for Humanities
Department: History
Country: Iraq
Email: aimrabood@uokirkuk.edu.iq
Phone: 07824575050

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 22/ June / 2026
Acceptance Date: 30/July / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (First Abbasid Era, Medical Scholars, Astronomers, Scientific Translation, Bayt al-Hikma)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Role of Scholars of the Early Abbasid Period in the Development and Flourishing of the Sciences of Medicine and Astronomy (132 AH / 750 CE – 232 AH / 847 CE)

Abstract

This study examines the role of scholars of the early Abbasid period in the development and flourishing of medical and astronomical sciences during 132–232 AH (750–847 CE), a phase regarded as one of the most prominent periods of scientific prosperity in the history of Arab-Islamic civilization. The research aims to clarify the various factors that contributed to creating a favorable environment for the growth of these sciences, with particular emphasis on the scholars' role in transmitting medical and astronomical knowledge from earlier civilizations and developing and reformulating it in accordance with the needs of Islamic society. The study adopts a historical-analytical approach through the examination of historical sources, as well as the analysis of scholars' contributions to medicine and astronomy within their broader civilizational context. The findings indicate that the political stability of the early Abbasid state, together with caliphal patronage of knowledge and scholars, stimulated the translation movement and the emergence of scientific and medical institutions, which became centers for the production and advancement of knowledge.

المقدمة

شهدت الحضارة الإسلامية للفترة (١٣٢هـ-٧٥٠م/٢٣٢هـ-٨٤٧م) تحولات حضارية وعلمية عميقة جعلتها من أبرز المراحل في تاريخ الحضارة الإسلامية، فقد توافرت خلال هذه الفترة ظروف سياسية واقتصادية وثقافية أسهمت في دعم الحركة العلمية وتشجيع العلماء على البحث والتأليف والترجمة مما أدى إلى ازدهار مختلف فروع المعرفة ولا سيما علوم الطب والفلك التي ارتبطت بحاجات الدولة والمجتمع على حد سواء، وقد أسهم الخلفاء العباسيون في توفير بيئة مناسبة لنمو العلوم من خلال رعاية العلماء وتشجيع حركة الترجمة وإنشاء المؤسسات العلمية الأمر الذي أدى إلى انتقال كم كبير من المعارف الطبية والفلكية من الحضارات اليونانية والفارسية والهندية إلى الحضارة الإسلامية غير أن أهمية هذه المرحلة لا تكمن في عملية النقل وحدها بل في قدرة العلماء المسلمين على تطوير تلك المعارف وإضافة إسهامات أصيلة أسهمت في بناء تقاليد علمية جديدة، تنبع أهمية هذه الدراسة من كونها تسلط الضوء على إسهامات العلماء في بناء النهضة العلمية الإسلامية، وما قدموه من إنجازات أسهمت في تطور العلوم ولا سيما الطب والفلك وأسست لنهضة علمية كان لها أثر بارز في تطور المعرفة والحضارة الإسلامية عبر العصور ومن هذا المنطلق يسعى هذا البحث إلى دراسة طبيعة إسهامات هؤلاء العلماء وتحليل أثرها في تطور المعرفة العلمية والحضارية.

مشكلة البحث:

تنطلق مشكلة البحث من محاولة الكشف عن طبيعة الدور الذي أداه علماء العصر العباسي في تطوير علوم الطب والفلك خلال الفترة الممتدة بين (١٣٢هـ-م /٢٣٢هـ-٨٤٧ م) ومدى تأثير إسهاماتهم العلمية في بناء النهضة العلمية الإسلامية.

ويتفرع عن مشكلة البحث السؤلان الآتيان:

١. ما دور العلماء العباسيين في ازدهار علوم الطب خلال المدة (١٣٢هـ-م /٢٣٢هـ-٨٤٧ م)؟

٢. ما دور العلماء العباسيين في ازدهار علوم الفلك وأثر إسهاماتهم العلمية خلال المدة (١٣٢هـ-م /٢٣٢هـ-٨٤٧ م)؟

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من أهمية المرحلة التاريخية التي يتناولها، إذ يمثل العصر العباسي الأول مرحلة التأسيس الحقيقي للنهضة العلمية الإسلامية كما تبرز أهمية الدراسة في تسليط الضوء على إسهامات العلماء الذين كان لهم دور محوري في تطوير علوم الطب والفلك وإبراز أثر تلك الإسهامات في بناء الحضارة الإسلامية وتتمثل أهمية البحث كذلك في إبراز دور التفاعل الحضاري بين المسلمين والأمم الأخرى في إنتاج المعرفة العلمية وبيان أن النهضة العلمية الإسلامية قامت على أساس الاستفادة من التراث الإنساني وتطويره كما يسهم البحث في توضيح المكانة التي احتلتها العلوم التطبيقية داخل المجتمع العباسي ودورها في خدمة الدولة والمجتمع.

أهداف البحث:

١. دراسة دور علماء العصر العباسي الأول في تطوير وازدهار علوم الطب والفلك خلال المدة (١٣٢هـ/٧٥٠م–٢٣٢هـ/٨٤٧م) وبيان إسهاماتهم العلمية في هذين المجالين.

٢. تقويم أثر البيئة العلمية وحركة الترجمة والمؤسسات العلمية في دعم إنجازات علماء الطب والفلك وأثرها في النهضة العلمية الإسلامية وانتقال المعرفة إلى الحضارات الأخرى.

البيئة العلمية لازدهار الطب والفلك في العصر العباسي الأول

تمثل البيئة العلمية التي شهدها العصر العباسي الأول إحدى أهم العوامل التي أسهمت في تطور وازدهار علوم الطب والفلك خلال المدة الممتدة بين (١٣٢هـ/٧٥٠م و٢٣٢هـ/٨٤٧م) فقد هيأت الظروف السياسية والثقافية والفكرية التي رافقت قيام الدولة العباسية مناخا مناسبا لنمو الحركة العلمية وشجعت على استقطاب العلماء والمترجمين والأطباء والفلكيين من مختلف الأقاليم (القفطي، ٢٠٠٥، ص. ٨٧). كما أسهم اهتمام الخلفاء العباسيين بالعلم ودعمهم للمؤسسات العلمية في تعزيز مكانة المعرفة داخل المجتمع الإسلامي الأمر الذي انعكس بصورة مباشرة على تطور العلوم وازدهارها (ابن جلجل، ١٩٨٥، ص ١٤٧)، ومن أجل بيان أثر هذه البيئة في النهضة العلمية يتناول هذا الفصل الأحوال السياسية والثقافية التي ساعدت على تنشيط الحركة العلمية ودور حركة الترجمة والمؤسسات العلمية في نقل المعارف وتطويرها فضلاً عن التعريف بأبرز علماء الطب والفلك وإسهاماتهم خلال العصر العباسي الأول.

أولاً: الأحوال السياسية والثقافية وأثرها في الحركة العلمية

شهدت تلك المرحلة ظروفًا سياسية وثقافية ساهمت في تنشيط الحركة العلمية وتهيئة بيئة مناسبة لازدهار علوم الطب والفلك كما كان للاستقرار السياسي ودعم الدولة للعلماء أثر بارز في تعزيز النشاط العلمي وتوسيع مجالات المعرفة، الأمر الذي أسهم في بروز نهضة علمية واضحة (ابن أبي أصيبعة، ١٩٩٨، ص ٢٥٤).

ثانياً: قيام الدولة العباسية واستقرار الأوضاع السياسية وأثره في رعاية العلم

مثّل قيام الدولة العباسية سنة(١٣٢هـ/٧٥٠م) تحوّلًا بنيويًا في تاريخ الدولة الإسلامية إذ لم يكن انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين مجرد انتقال سياسي بل كان انتقالًا في طبيعة الرؤية الحضارية للدولة فقد اتجه العباسيون منذ وقت مبكر إلى بناء شرعية جديدة لا تقوم على العصبية القبلية وحدها بل على الجمع بين النسب الهاشمي والإدارة المركزية والانفتاح على العناصر الثقافية غير العربية ولا سيما الفارسية والسريانية واليونانية والهندية وقد أوجد هذا التحول بيئة سياسية وثقافية قادرة على احتضان العلوم العقلية والتطبيقية، ومنها الطب والفلك لأن الدولة الجديدة احتاجت إلى أدوات معرفية لإدارة العمران وتنظيم الخراج وضبط المواقيت ورعاية الصحة العامة وخدمة البلاط ومؤسسات الحكم (شلبي، ١٩٨٧، ص ٢١١)، ولم يكن الاستقرار السياسي الذي تحقق في العصر العباسي الأول استقرارًا مطلقًا خاليًا من الصراعات فقد شهدت الدولة ثورات ومنازعات داخلية إلا أن قيام مركز سياسي قوي في بغداد منح الخلافة قدرة على توجيه الموارد نحو البناء الإداري والعلمي وقد كان تأسيس بغداد سنة (١٤٥هـ-٧٦٢م) وفي عهد أبي جعفر المنصور حدثًا ذا دلالة عميقة؛ فهي لم تكن عاصمة سياسية فحسب بل صارت مركزًا جامعًا للعلماء والأطباء والمترجمين والكتّاب والحساب والفلكيين مما جعلها بيئة مناسبة لتلاقح المعارف الوافدة من المشرق والغرب ومن ثم فإن ازدهار الطب والفلك في هذه المرحلة لا يمكن فصله عن انتقال الثقل السياسي إلى العراق حيث كانت توجد تقاليد علمية سابقة في الحيرة وجندي سابور وحرّان وسائر المراكز السريانية والفارسية (السيوطي، ٢٠٠٣، ص 234)، وقد ساعد اتساع الدولة العباسية على إدخال جماعات علمية متعددة في الحضارة الإسلامية؛ فالأطباء والمترجمون النصارى والفرس المتخصصون في الإدارة والحساب والهنود أصحاب الخبرة في الرياضيات والفلك وجدوا في بغداد وسائر المراكز العباسية مجالًا للعمل والإنتاج وهنا تظهر أهمية الاستقرار السياسي في كونه لم يؤدِّ فقط إلى الأمن، بل إلى تكوين سوق علمية وثقافية نشطة، تقوم على الرعاية والنسخ والترجمة والمناظرة والطلب الرسمي للمعرفة ومن هنا

أخذت العلوم الطبية والفلكية تنتقل تدريجيًا من كونها معارف موروثة إلى علوم تمارس داخل مؤسسات ورعاية سلطانية ومجالس علمية (Young et al , 1990/ p26).

ومن جهة أخرى، فقد فرضت حاجات الدولة العباسية نفسها على مسار العلوم فالطب كان ضرورة لبلاط الخلفاء والولاة والجيش والمجتمع، والفلك كان متصلًا بتحديد الأوقات والقبلة والتقويم والملاحة وبعض الشؤون الإدارية لذلك لم تكن رعاية الطب والفلك ترفًا ثقافيًا بل كانت جزءًا من احتياجات الدولة المركزية وقد أسهمت هذه الحاجة العملية في رفع مكانة العلماء لأن الطبيب والفلكي لم يعودا مجرد أصحاب معرفة نظرية بل أصبحا جزءًا من جهاز الدولة الحضاري والإداري(Nasr, 1968 / p77) .

كما أن العصر العباسي الأول شهد انتقالًا واضحًا من مرحلة التلقي المحدود للمعارف الأجنبية إلى مرحلة الترجمة المنظمة. فقد كان المنصور من أوائل الخلفاء الذين اهتموا بالكتب الفلكية والطبية ويُذكر في سياق عهده الاهتمام بترجمة مواد هندية وفارسية ويونانية وهي مواد مهدت لاحقًا لتطور علم الأزياج والحساب الفلكي والطب النظري و(الأزياج) هو علم يعتمد على الجداول الفلكية التي تُستخدم لحساب مواقع الكواكب والنجوم في أوقات مختلفة وقد كانت هذه البدايات مرتبطة بحاجة الدولة إلى علم مضبوط لا يقوم على الرواية العامة بل على الحساب والمشاهدة والتجربة (Gutas, 1998 / p32) .

ومن هنا يمكن القول إن قيام الدولة العباسية أوجد الإطار السياسي اللازم لازدهار العلوم بينما منح الاستقرار النسبي والثراء الاقتصادي والرعاية المركزية العلماء فرصة للتفرغ والتخصص وقد انعكس ذلك بصورة واضحة في بروز أطباء كبار مثل (أسرة بختيشوع سرة طبية مسيحية اشتهرت في العصر العباسي، وكان أفرادها من كبار الأطباء في بلاط الخلفاء، وساهموا في نقل وتطوير الطب اليوناني) وظهور فلكيين ورياضيين مثل (إبراهيم بن حبيب الفزاري)، (ويعقوب بن طارق)، (ومحمد بن موسى الخوارزمي) في أواخر القرن الثامن للميلاد، ويمكن فهم أدوارهم إلا في إطار البيئة العباسية التي وفرت لهم إمكانات العمل ومجال الانتقال بين الثقافات، والدعم الرسمي والاجتماعي (الخطيب البغدادي، ٢٠٠١، ص ٢٠٤).

ثالثاً: دور الخلفاء العباسيين في تشجيع العلماء ودعم المؤسسات العلمية

ارتبط ازدهار الطب والفلك في العصور العباسية ارتباطًا وثيقًا بسياسة الخلفاء تجاه العلم والعلماء فالخلافة العباسية منذ خلافة أبي جعفر المنصور (١٤٥هـ-٧٦٢م) أدركت أن القوة العلمية والمعرفية لا تقوم على السيف والإدارة فقط بل تحتاج إلى امتلاك المعرفة (الدوري، ٢٠٠٥، ص ١٠٨). وقد كان المنصور ذا اهتمام خاص بالحساب والنجوم والطب، لا سيما أن بناء عاصمة جديدة مثل بغداد اقتضى

معرفة هندسية وفلكية وتنظيمية. ومن ثم أسهم عهده في وضع الأساس الأول لعلاقة البلاط العباسي بالعلماء والمترجمين (Sarton, 1927/ p520) ، ثم جاء عصر هارون الرشيد ليشهد اتساعًا في رعاية الأطباء والمؤسسات الطبية ففي عهده سنة (١٥٠هـ-٧٧٠م) برزت أسرة بختيشوع وهي أسرة طبية سريانية الأصل ارتبطت بجندي سابور ثم بالبلاط العباسي وكان لأفرادها أثر مهم في نقل التقاليد الطبية اليونانية والسريانية إلى المجال العربي الإسلامي وقد مثّل حضور هؤلاء الأطباء في البلاط نموذجًا على العلاقة الوثيقة بين السلطة والعلم إذ كان الطبيب مقرّبًا من الخليفة ومشاركًا في الحياة الثقافية وذا تأثير في توجيه الاهتمام بالترجمة والتعليم الطبي (ابن أبي أصيبعة، ١٩٦٥، ص١٨٣).

برز يوحنا بن ماسويه في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م)، ثم ازداد نفوذه العلمي في عهد المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م)، ولا سيما بعد إنشاء بيت الحكمة في سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م، حيث عُدَّ من أبرز الأطباء والمترجمين في العصر العباسي الأول. وقد حظي برعاية الخلفاء العباسيين، فتولى الإشراف على تعليم عدد من الأطباء والتلاميذ، وأسهم بفاعلية في الممارسة الطبية والتأليف والترجمة، مما جعله أحد أهم أعلام النهضة العلمية في ذلك العصر. ويكشف بروز هذه الشخصية العلمية أن البلاط العباسي لم يكن مجرد مستهلك للمعرفة، بل اضطلع بدور فاعل في إنتاجها من خلال توفير الرواتب للعلماء، وإنشاء مجالس البحث والمناظرة، وإغناء خزائن الكتب، وتعزيز التواصل العلمي بين الباحثين وبهذا أسهمت الدولة العباسية في نقل المعرفة الطبية من نطاق الخبرة الفردية إلى إطار مؤسسي قائم على التنظيم والتخصص الأمر الذي أسس لتطور الطب بوصفه علمًا منهجيًا داخل الحضارة الإسلامية (Meyerhof,1935,p 91)، ومع تولي الخليفة العباسي عبد الله المأمون الخلافة سنة (١٩٨هـ/٨١٣م) بلغت سياسة الدولة في رعاية العلوم والمعارف مرحلةً أكثر نضجًا واتساعًا، إذ ارتبط عهده بازدهار بيت الحكمة وتحوله إلى مؤسسة علمية رائدة في الترجمة والبحث والتأليف. وقد أولى المأمون اهتمامًا بالغًا بالترجمة المنهجية، فشجع نقل مؤلفات العلماء اليونانيين، ولا سيما كتب بطليموس وجالينوس وأرسطو، كما دعم إنشاء برامج للرصد الفلكي وإجراء القياسات العلمية بهدف مراجعة المعارف الموروثة والتحقق من دقتها وتصويبها. وتعكس هذه السياسة العلمية المتقدمة رؤية المأمون التي تجاوزت مجرد اقتناء الكتب وجمعها، لتتجه نحو إنتاج المعرفة، واختبارها، وتقويمها، وتوظيفها في خدمة الدولة والحضارة الإسلامية (حسن، ٢٠٠١، ص. ١٠٩). ولعلم الفلك في عهد المأمون مكانة خاصة فقد ارتبطت به أعمال الرصد وقياس محيط الأرض وإعداد الأزياج (الذهبي، ٢٠٠٤، ج١٢، ص، ١١٧). ولا يمكن النظر إلى هذه الإنجازات بمعزل عن الدعم الرسمي لأن الرصد

الفلكي يحتاج إلى أدوات ومراصد وجماعة من العلماء وتراكم زمني في الملاحظة وقد أسهم ذلك في انتقال الفلك الإسلامي من مرحلة الاعتماد على الترجمة إلى مرحلة بناء تقليد رصدي وحسابي مستقل نسبيًا(Kennedy, 1956/ p130). ، لم تقتصر سياسة الخلفاء العباسيين في رعاية العلماء على مجالي الطب والفلك وإنما امتدت لتشمل مختلف فروع المعرفة كالفلسفة والرياضيات والكيمياء والعلوم اللغوية ومع ذلك احتل الطب والفلك مكانة استثنائية ضمن اهتمامات الدولة؛ لارتباطهما المباشر بمتطلبات الإدارة والحياة العامة فقد عُدَّ الطب علمًا ضروريًا للمحافظة على صحة الخليفة وأفراد البلاط وأبناء المجتمع فضلًا عن دوره في تطوير الممارسة العلاجية والوقائية في حين اكتسب علم الفلك أهمية خاصة لاعتماده في تحديد مواقيت العبادات وتنظيم التقويم الهجري ورصد الظواهر الفلكية بما يخدم الشؤون الدينية والإدارية للدولة وانطلاقًا من هذه الأهمية العملية حرص الخلفاء على استقطاب العلماء المتخصصين في هذين المجالين من خلال استدعائهم إلى البلاط العباسي وتوفير الدعم المالي والمعنوي لهم وإسناد المناصب العلمية والطبية إليهم الأمر الذي أسهم في تعزيز مكانتهم العلمية والاجتماعية (عاشور، ١٩٩٧، ص ١٢٥)، يُعدُّ بيت الحكمة من أبرز المؤسسات العلمية التي ازدهرت في العصر العباسي وقد مثّل مع خزائن الكتب والمجالس العلمية أحد أهم مظاهر الرعاية الرسمية للعلم والمعرفة وترجع بدايات تأسيسه إلى عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠–١٩٣هـ/٧٨٦–٨٠٩م) حين أُنشئت خزانة كبيرة للكتب ضمّت مؤلفات عربية وفارسية ويونانية وهندية، ثم شهد توسعًا كبيرًا وتحولًا إلى مركز علمي متكامل في عهد ابنه الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨–٢١٨هـ/٨١٣–٨٣٣م)، ولا سيما بعد سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م، إذ دعم المأمون حركة الترجمة واستقدم العلماء والمترجمين من مختلف الأقاليم، ويعد بيت الحكمة مؤسسة علمية تُعنى بجمع المخطوطات وترجمتها ونسخها وحفظها وإتاحتها للباحثين(ابن النديم، ٢٠٠٩، ص٣٠٤). وتظهر أهمية الخلفاء أيضًا في قدرتهم على حماية العلماء ومنحهم الشرعية الاجتماعية. فحين يتقرب الطبيب أو الفلكي من الخليفة، فإن ذلك يرفع مكانته أمام المجتمع ويجعل علمه موضع تقدير ومن هنا تحولت المعرفة العلمية إلى جزء من الهيبة الحضارية للدولة وكان الخلفاء يدركون أن التفوق العلمي يعزز صورة الخلافة بوصفها وارثة لحضارات العالم القديم وقادرة على تجاوزها وإعادة إنتاجها داخل الإطار الإسلامي (فروخ، ١٩٨٣، ص ١٠٧).

رابعاً: مكانة العلم والعلماء في المجتمع العباسي الأول

احتلَّ العلم والعلماء مكانةً رفيعة في المجتمع العباسي الأول، نتيجة السياسة التي انتهجها الخلفاء في تشجيع المعرفة ورعاية أهلها إلى جانب التطورات الثقافية التي شهدتها الدولة وفي مقدمتها انتشار صناعة الورق واتساع حركة التأليف والنسخ والترجمة الأمر الذي أسهم في ازدهار الحياة العلمية واتساع تداول الكتب بين العلماء وطلاب العلم وفي هذا السياق برزت علوم الطب والفلك بوصفهما من أهم العلوم التطبيقية التي ارتبطت باحتياجات الدولة والمجتمع مما أكسب المشتغلين بهما منزلةً علمية واجتماعية مرموقة واتسم كثير من علماء العصر العباسي الأول بالنزعة الموسوعية إذ جمعوا بين أكثر من حقل معرفي فبرز منهم من أتقن الطب والفلسفة واللغة أو الفلك والرياضيات والجغرافيا وهو ما يعكس طبيعة العلوم في الحضارة الإسلامية التي قامت على التكامل المعرفي وعدم الفصل بين التخصصات(ابن النديم، ١٩٧٨، ص١١٧). وقد أولى مؤرخو التراجم عنايةً كبيرة بتوثيق سير هؤلاء العلماء ومؤلفاتهم، كما يظهر بوضوح في كتب الطبقات والفهارس، وهو ما يعكس إدراك المجتمع العباسي لأهمية العلماء ودورهم في ترسيخ النهضة العلمية وبناء الحضارة الإسلامية (القفطي، ٢٠٠٥، ص. ١٤٥).واكتسب الأطباء مكانة خاصة لقربهم من الخلفاء والوزراء ولدورهم في العلاج والتعليم والتأليف الأمر الذي أسهم في ترسيخ تقاليد طبية عربية إسلامية واضحة المعالم (Meyerhof, 1931/ p108).كما حظي الفلكيون بمكانة مهمة نتيجة ارتباط علمهم بالمواقيت والقبلة والتقويم مما جعل الفلك علما ذا وظيفة دينية واجتماعية إلى جانب قيمته العلمي (King, 1993/ p44). أسهم الانفتاح العلمي على تراث الحضارات السابقة في ترسيخ مكانة العلماء خلال العصر العباسي الأول ولا سيما منذ خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٦–١٥٨هـ/٧٥٤–٧٧٥م)، الذي شرع في استقدام الكتب العلمية من الهند وفارس ثم شهدت حركة الترجمة تطورًا ملحوظًا في عهد هارون الرشيد (١٧٠–١٩٣هـ/٧٨٦–٨٠٩م) قبل أن تبلغ ذروة ازدهارها في عهد الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨–٢١٨هـ/٨١٣–٨٣٣م) عندما أصبحت الترجمة مشروعًا علميًا ترعاه الدولة بصورة مباشرة من خلال دعم المترجمين وتوفير الكتب وإنشاء المؤسسات العلمية، وفي مقدمتها بيت الحكمة. ولم يكن الهدف من هذه الحركة مجرد نقل المعارف الأجنبية إلى اللغة العربية، بل تمثّل في استيعابها ونقدها والإفادة منها في تطوير العلوم الإسلامية، الأمر الذي أدى إلى دمج التراث الطبي والفلكي اليوناني والفارسي والهندي في البنية العلمية للحضارة العربية الإسلامية (الخطيب البغدادي، ٢٠٠١، ص ٢٠٧). تُظهر المصادر التاريخية أن المكانة المتميزة التي حظي بها العلماء في العصر العباسي الأول (١٣٢–٢٣٢هـ/٧٥٠–٨٤٧م) لم تكن نتيجة عامل منفرد، وإنما جاءت ثمرةً لتفاعل عوامل سياسية وعلمية واجتماعية أسهمت الدولة العباسية في ترسيخها منذ

قيامها فقد بدأ الاهتمام برعاية العلم في عهد الخليفة أبي العباس السفاح (١٣٢–١٣٦هـ/٧٥٠–٧٥٤م) بوصفه أحد الوسائل الداعمة لاستقرار الدولة الناشئة ثم اتخذ هذا الاهتمام طابعًا مؤسسيًا أكثر وضوحًا في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦–١٥٨هـ/٧٥٤–٧٧٥م)، الذي شجع استقدام العلماء ورعى ترجمة المؤلفات العلمية ولا سيما في مجالات الطب والفلك والرياضيات واستمر هذا النهج في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠–١٩٣هـ/٧٨٦–٨٠٩م)، قبل أن يبلغ ذروته في عهد الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨–٢١٨هـ/٨١٣–٨٣٣م) الذي جعل من دعم العلم وحركة الترجمة وإنشاء المؤسسات العلمية سياسةً رسمية للدولة، الأمر الذي أسهم في ترسيخ البيئة العلمية وازدهار النشاط الفكري في العصر العباسي الأول (Gutas, ١٩٩٨, pp. ١–٣٢; Kennedy, ٢٠٠٤, pp. ٩٧–١١٨; Lyons, ٢٠٠٩, pp. ٧٧–١٠٢).

حركة الترجمة ونقل العلوم إلى الحضارة الإسلامية

مثلت حركة الترجمة في العصر العباسي الأول أحد أهم العوامل التي أسهمت في ازدهار العلوم إذ أتاحت انتقال المعارف الطبية والفلكية من الحضارات اليونانية والفارسية والهندية إلى الحضارة الإسلامية مما وفر قاعدة علمية مهمة أسهم العلماء في تطويرها والبناء عليها(Gutas, 1998, pp. 1–32).

أولاً: نشأة حركة الترجمة في العصر العباسي الأول وأسبابها

لم تكن حركة الترجمة في العصر العباسي الأول ظاهرة ثقافية مستقلة، بل ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بمتطلبات بناء الدولة العباسية وتعزيز مؤسساتها الإدارية والعلمية. فمع انتقال مركز الخلافة إلى العراق، واجهت الدولة تراثًا علميًا غنيًا في المراكز الحضارية، مثل جندي سابور وحران والمدائن، التي ضمت مؤلفات في الطب والفلك والعلوم الأخرى باللغات السريانية واليونانية والفهلوية. وأمام هذه المعطيات، غدت ترجمة هذا التراث واستيعابه ضرورة علمية وإدارية أسهمت في دعم مؤسسات الدولة وتلبية احتياجاتها، ولم تعد مجرد نشاط ثقافي أو اهتمام فكري محدود (عاشور، ١٩٩٧، ص٣٢١). وقد ارتبطت البدايات الأولى للترجمة العلمية بعهد الخليفة أبي جعفر المنصور الذي أبدى اهتماما واضحا بالعلوم المرتبطة بإدارة الدولة ويظهر ذلك في استقدام عدد من العلماء والأطباء من جندي سابور فضلا عن اهتمامه بالمؤلفات الفلكية الهندية التي أفادت في تنظيم التقويم والحسابات الزمنية وقد شكل هذا التوجه نقطة البداية لعملية نقل منظمة للمعرفة من اللغات الأجنبية إلى العربية (Sarton, 1927/ p565). كان الدافع الطبي من أبرز العوامل التي أسهمت في ازدهار حركة الترجمة خلال العصر العباسي الأول، إذ فرض التوسع العمراني ونمو المدن الكبرى، وفي مقدمتها بغداد، الحاجة إلى توفير المعرفة

الطبية وتطوير أساليب العلاج بما يواكب متطلبات المجتمع والدولة. كما أولى الخلفاء العباسيون عناية خاصة باستقطاب الأطباء المهرة، فاعتمدوا على الخبرات العلمية التي امتلكها الأطباء السريان، الذين حافظوا على التراث الطبي اليوناني، ولا سيما مؤلفات جالينوس، ونقلوها عبر مدارسهم العلمية. وقد أسهم ذلك في جعل الطب من أوائل العلوم التي شهدت نشاطًا ترجميًا واسعًا، الأمر الذي مهد لتطور الدراسات الطبية في الدولة العباسية (ابن القفطي، ١٩٠٣، ص ٢٨٦). رتبطت حركة الترجمة في العصر العباسي الأول بالحاجات الإدارية والعلمية للدولة ولا سيما في مجالات الفلك والطب والرياضيات إذ استُقدمت المؤلفات اليونانية والهندية والفارسية لترجمتها إلى العربية خدمةً لمتطلبات الدولة وقد هيأت السياسة الثقافية للخلفاء العباسيين بيئةً مواتية لاستيعاب هذه العلوم كما أسهم عدد من الوزراء في رعاية هذا النشاط، وفي مقدمتهم خالد بن برمك وأبناؤه ولا سيما يحيى بن خالد البرمكي ثم الفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى البرمكي الذين شجعوا المترجمين وخصصوا الأموال لاقتناء الكتب ودعموا العلماء مما أسهم في تحويل الترجمة إلى نشاط علمي منظم وأفضت هذه الجهود إلى تطور المصطلح العلمي العربي وأرست الأساس لازدهار العلوم التطبيقية في العصر العباسي الأول (Hitti, 2002, pp.310–316).

ثانياً: دور بيت الحكمة في ترجمة المؤلفات الطبية والفلكية

يمثل بيت الحكمة أحد أبرز المظاهر المؤسسية للحركة العلمية في العصر العباسي الأول رغم اختلاف الباحثين حول طبيعته الدقيقة وحدود وظائفه إلا أن الثابت تاريخيا أن هذه المؤسسة ارتبطت بجمع الكتب وترجمتها وحفظها وإتاحتها للعلماء مما جعلها مركزا مهما في نقل المعرفة الطبية والفلكية إلى العربية وقد تطور بيت الحكمة تدريجيا من خزانة كتب تابعة للخلفاء إلى مركز يستقطب العلماء والمترجمين من مختلف الخلفيات الثقافية وأسهم هذا التطور في توفير بيئة علمية تتيح تبادل الخبرات بين الأطباء والفلكيين والمترجمين الأمر الذي انعكس بصورة مباشرة على جودة الترجمات المنجزة خلال القرن الثالث الهجري (Young et al, 1990/ p58).

ثالثاً: أبرز المترجمين وإسهاماتهم في نقل المعارف العلمية

ارتبط ازدهار حركة الترجمة في العصر العباسي الأول بظهور نخبة من العلماء الذين جمعوا بين إتقان اللغات والمعرفة العلمية، فكانوا حلقة الوصل في نقل التراث اليوناني والهندي إلى العربية، وأسهموا في ترسيخ أسس النهضة العلمية الإسلامية (سزكين، ٢٠٠١، ج٥، ص١٣٦). ومن أبرزهم قسطا بن لوقا الذي نقل مؤلفات في الطب والرياضيات والفلك، وأضاف إليها شروحًا علمية أسهمت في تسهيل الإفادة منها كما برز الحجاج بن يوسف بن مطر بترجمته مؤلفات إقليدس وبطليموس، مما كان له أثر

كبير في تطور الرياضيات والفلك عند المسلمين وأسهم ثابت بن قرة في مراجعة الترجمات وتنقيحها فضلاً عن إضافاته العلمية التي تجاوزت حدود النقل إلى الإبداع، في حين واصل آل بختيشوع نقل الخبرة الطبية السريانية إلى العربية وأسهموا في تطوير التعليم والممارسة الطبية داخل الدولة العباسية وقد اتسمت أعمال هؤلاء المترجمين بالدقة العلمية إذ اعتمدوا مقارنة النسخ وتصحيح الأخطاء وشرح المصطلحات وصياغة مقابلات عربية للمفاهيم العلمية مما جعل الترجمة عمليةً نقديةً وإبداعية لا مجرد نقل حرفي وأسهمت هذه الجهود في ترسيخ العربية لغةً للعلوم وأرست الأسس التي قامت عليها الإنجازات اللاحقة في الطب والفلك خلال العصر العباسي وما بعده (سزكين، ٢٠٠١، ج٣، ص٢٣٤).

علماء الطب والفلك في العصر العباسي الأول

شهد العصر العباسي الأول ظهور عدد من العلماء الذين كان لهم دور بارز في تطوير علوم الطب والفلك حيث أسهموا في نقل المعارف العلمية وتطويرها من خلال الترجمة والتأليف والتعليم والممارسة العلمية، مما جعلهم من أبرز رواد النهضة العلمية الإسلامية في هذه المرحلة (ياقوت الحموي، ١٩٩٥، ص١٧٩).

أولاً: أبرز علماء الطب وإسهاماتهم العلمية

شهد العصر العباسي الأول ظهور نخبة من الأطباء الذين أسهموا بصورة مباشرة في نقل المعرفة الطبية وتطويرها وتحويلها من معارف مترجمة إلى علم قائم على التعليم والممارسة والتأليف وقد ارتبطت هذه الظاهرة بالنمو الحضاري الذي شهدته بغداد وغيرها من المدن الكبرى، وبالرعاية التي قدمتها الدولة للعلماء والمؤسسات الطبية وتميزت هذه المرحلة بظهور شخصيات علمية كان لها أثر عميق في تكوين المدرسة الطبية العربية الإسلامية التي أصبحت فيما بعد إحدى أهم المدارس الطبية في العالم الوسيط (القزويني، ٢٠٠٠، ص٣٢٧). ومع تطور الحركة العلمية برز جبرائيل بن بختيشوع بوصفه أحد أهم الأطباء في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري وقد جمع بين الخبرة العملية والمعرفة النظرية وأسهم في تعليم عدد من الأطباء الذين أصبح لهم دور مهم في الحياة العلمية اللاحقة كما ارتبط اسمه بتطوير العلاقة بين الطب والمؤسسة السياسية إذ أصبح الطبيب جزءا من البنية الإدارية والثقافية للدولة العباسية ولم يعد مجرد معالج للأمراض فحسب (القِفْطي، ٢٠٠٥، ص٢٨٤)، ومن الشخصيات البارزة أيضا يوحنا بن ماسويه الذي يعد من أهم أطباء العصر العباسي الأول فقد عمل في بغداد وشارك في النشاط العلمي المرتبط بالترجمة والتعليم الطبي وتميزت مؤلفاته بالجمع بين الخبرة السريرية والمعرفة النظرية الأمر الذي جعله من أكثر الأطباء تأثيرا في تكوين الجيل الطبي اللاحق كما أن دوره في تعليم

التلاميذ أسهم في نقل الخبرة الطبية إلى أجيال جديدة من العلماء(Ullmann, 1972/ p73). أما حنين بن إسحاق فعلى الرغم من شهرته مترجما فإنه كان طبيبا بارزا أيضا فقد مكنه تكوينه الطبي من فهم النصوص الجالينوسية فهما عميقا ومن ثم تقديم ترجمات دقيقة أصبحت أساس التعليم الطبي في العالم الإسلامي وتميزت أعماله بقدر كبير من الدقة المنهجية حيث كان يقارن بين النسخ المختلفة ويبحث عن المعنى العلمي قبل صياغته بالعربية وقد ساعد ذلك على رفع مستوى المعرفة الطبية في البيئة العباسية بصورة ملحوظة (Meyerhof, 1935/ p97). وتكمن أهمية هؤلاء العلماء في أنهم لم يقتصروا على نقل الطب القديم بل أسهموا في إعادة تنظيمه وتبويبه وتدريسه فقد أصبحت المؤلفات الطبية تدرس بصورة أكثر منهجية وبدأت تظهر محاولات للتمييز بين أنواع الأمراض وطرائق العلاج والأدوية المختلفة وكما ساعدت التجربة السريرية التي مارسها الأطباء داخل المستشفيات والقصور على تطوير المعرفة الطبية وإغنائها بالملاحظات العملية (الزركلي، ٢٠٠٢، ص١٩٨)، ومن النتائج المهمة لهذا النشاط العلمي نشوء بيئة طبية متخصصة داخل بغداد فقد أصبح هناك أطباء ومترجمون ومعلمون وطلاب علم الأمر الذي ساعد على تكوين مجتمع علمي طبي متكامل نسبيا ولم يكن هذا المجتمع العلمي منفصلا عن حركة الترجمة أو عن الرعاية السياسية بل كان نتاجا مباشرا لهما ومن هنا يمكن القول إن الطب في العصر العباسي الأول انتقل من مرحلة التلقي المحدود إلى مرحلة التأسيس العلمي المنظم (حسن، ٢٠٠١، ص٢٣٦)، كما أن تطور المصطلح الطبي العربي يعد من أهم إنجازات هذه المرحلة. فالمترجمون والأطباء اضطروا إلى إيجاد مقابلات عربية للمفاهيم اليونانية والسريانية، الأمر الذي أسهم في تكوين لغة طبية عربية قادرة على التعبير عن أدق التفاصيل العلمية. وقد شكلت هذه اللغة الأساس الذي اعتمدت عليه المؤلفات الطبية الكبرى في القرون اللاحقة(Sezgin, 1970/ p226) . ويظهر من خلال دراسة نشاط الأطباء في العصر العباسي الأول أن دورهم تجاوز حدود الممارسة الطبية إلى الإسهام في بناء المعرفة نفسها. فقد شاركوا في الترجمة، والتأليف، والتعليم وتنظيم المؤسسات الطبية، مما جعلهم أحد أهم عناصر النهضة العلمية التي شهدتها الدولة العباسية خلال الفترة الممتدة بين (١٣٢هـ و٢٣٢هـ) (السيوطي، ٢٠٠٣، ص٢٩٧).

ثانياً: أبرز علماء الفلك وإسهاماتهم العلمية

إذا كان الطب قد استفاد من حركة الترجمة والمؤسسات الطبية، فإن علم الفلك شهد بدوره تطورا كبيرا خلال العصر العباسي الأول بفضل جهود مجموعة من العلماء الذين جمعوا بين المعرفة الرياضية والفلكية، وأسهموا في تطوير الحسابات والرصد وإعداد الأزياج (Meyerhof, 1931, p/423). ومن

أوائل هؤلاء العلماء محمد بن إبراهيم الفزاري الذي يعد من الرواد الأوائل للفلك الإسلامي. وقد ارتبط اسمه بترجمة بعض المعارف الفلكية الهندية إلى العربية، كما شارك في إدخال مفاهيم جديدة إلى البيئة العلمية الإسلامية. وتمثل أهمية الفزاري في كونه أحد الجسور التي انتقلت عبرها المعارف الفلكية الأجنبية إلى العلماء المسلمين، مما مهد الطريق لتطور علم الفلك في المراحل اللاحقة (Sarton, 1931/ p35).

كما برز يعقوب بن طارق بوصفه أحد العلماء الذين أسهموا في نقل وتطوير المعارف الفلكية. فقد استفاد من المصادر الهندية والفارسية، وشارك في بناء تقاليد فلكية جديدة داخل الدولة العباسية وتكمن أهمية أعماله في أنها مثلت مرحلة انتقالية بين الترجمة والإبداع حيث لم يكتف بالنقل، بل سعى إلى توظيف المعارف الموروثة في معالجة قضايا فلكية عملية(Rashed, 1996/ p164) .

ويحتل محمد بن موسى الخوارزمي مكانة مركزية في تاريخ الفلك العباسي. فعلى الرغم من شهرته الواسعة في الرياضيات فإن إسهاماته الفلكية كانت ذات أثر بالغ وقد أسهم في إعداد أحد أهم الأزياج الفلكية المبكرة كما استفاد من المعارف الهندية في تطوير الحسابات الفلكية وتمثل أعماله مرحلة مهمة في انتقال الفلك الإسلامي من الاعتماد على المصادر المترجمة إلى إنتاج معرفة أكثر استقلالاً (Saliba, 1994/ p78). وكما ظهر حبش الحاسب الذي يعد من أبرز علماء الفلك في أوائل القرن الثالث الهجري وقد ارتبط اسمه بإعداد الأزياج وتحسين الحسابات الفلكية كما شارك في تطوير الأدوات المستخدمة في الرصد وتكشف أعماله عن مستوى متقدم من المعرفة الرياضية والفلكية وعن اهتمام واضح بالدقة العلمية في معالجة الظواهر السماوية (Kennedy, 1956/ p147). ومن العلماء الذين كان لهم دور مهم أيضا سند بن علي الذي شارك في النشاط الفلكي المرتبط بعهد المأمون وقد أسهم في عمليات الرصد وإعداد الجداول الفلكية وكان جزءا من الجهود الجماعية التي هدفت إلى تحسين المعرفة الفلكية وتصحيح بعض المعطيات الموروثة عن بطليموس وقد تميز علماء الفلك في العصر العباسي الأول بأنهم لم يكونوا مجرد مترجمين، بل كانوا باحثين يسعون إلى اختبار المعارف القديمة من خلال الحساب والرصد وهذا ما يفسر ظهور برامج الرصد الفلكي التي شهدها عصر المأمون والتي شكلت خطوة مهمة نحو بناء تقليد علمي قائم على الملاحظة المباشرة (ابن الأثير، ٢٠٠٣، ص١٩٧). كما أن إعداد الأزياج يمثل أحد أهم الإنجازات الفلكية في هذه المرحلة فالزيج لم يكن مجرد جدول حسابي بل كان أداة علمية متكاملة تستخدم في تحديد مواقع الأجرام السماوية وحساب الأزمنة والمواقيت وقد أسهمت هذه الأزياج في تطوير التطبيقات العملية للفلك وربطت بين المعرفة النظرية والحاجات اليومية للمجتمع والدولة (King, 1993/ p53)، وتكشف دراسة أعمال هؤلاء العلماء عن أن الفلك في العصر العباسي الأول لم يكن

علما هامشيا بل كان جزءا من المشروع العلمي للدولة فقد ارتبط بالتقويم والمواقيت والجغرافيا والملاحة كما ارتبط بالهيبة الحضارية للخلافة التي سعت إلى امتلاك أحدث المعارف المتاحة في عصرها (فروخ، ١٩٨٣، ص٢٣٦)، ومن هنا يمكن القول إن علماء الفلك خلال الفترة ١٣٢هـ–٢٣٢هـ نجحوا في وضع الأسس التي قامت عليها الإنجازات الفلكية الكبرى في القرون اللاحقة فقد وفروا المادة العلمية والمنهجية التي استفاد منها من جاء بعدهم وأسهموا في تحويل الفلك إلى أحد أكثر العلوم تطورا داخل الحضارة الإسلامية(King, 1993/ p53) .

ثالثاً: العلاقة بين العلماء والسلطة العلمية والثقافية في العصر العباسي الأول

تميز العصر العباسي الأول بعلاقة وثيقة بين العلماء والسلطة السياسية وهي علاقة كان لها أثر مباشر في تطور علوم الطب والفلك فلم يكن العلماء يعملون في عزلة عن الدولة بل كانوا جزءا من مشروع حضاري واسع سعت الخلافة من خلاله إلى ترسيخ مكانتها بوصفها مركزا للعلم والمعرفة (Rashed, 1996/ p258). وقد تجلت هذه العلاقة بصورة واضحة في رعاية الخلفاء للأطباء والفلكيين. فالأطباء كانوا يتولون علاج الخلفاء وأفراد البلاط، بينما كان الفلكيون يشاركون في تحديد المواقيت وإعداد التقويمات وإجراء الحسابات المرتبطة بالشؤون الإدارية. ومن ثم أصبح العلماء شركاء فعليين في إدارة بعض الجوانب الحيوية للدولة (Nasr, 1968/ p83). كما أن ارتباط العلماء بالبلاط وفر لهم إمكانات كبيرة لم تكن متاحة في بيئات أخرى. فقد حصلوا على الرواتب، وإمكانية الوصول إلى المكتبات، والفرصة للتعاون مع علماء آخرين. وساعدت هذه الظروف على التفرغ للبحث والتأليف والترجمة، وهو ما انعكس بصورة مباشرة على مستوى الإنجاز العلمي وفي المقابل استفادت السلطة من العلماء في تعزيز مشروعها الحضاري فقد شكلت الإنجازات الطبية والفلكية دليلا على تفوق الدولة العباسية، وأسهمت في ترسيخ صورتها بوصفها راعية للعلم ولذلك لم تكن الرعاية العلمية عملا خيريا مجردا بل كانت جزءا من سياسة ثقافية تهدف إلى بناء الشرعية والهيبة الحضارية للدولة (Young et al, 1990/ p71).

ومن المظاهر المهمة لهذه العلاقة مشاركة العلماء في المشروعات العلمية الكبرى التي دعمتها الدولة فقد تطلبت عمليات الترجمة، وجمع الكتب والرصد الفلكي وتطوير المؤسسات الطبية موارد مالية وتنظيمية كبيرة لا يمكن توفيرها إلا من خلال السلطة المركزية وقد أدى هذا التعاون إلى ظهور نمط من العمل العلمي الجماعي الذي ميز العصر العباسي الأول عن كثير من المراحل السابقة (القفطي، ٢٠٠٥، ص٤٣٢)، كما أن هذه العلاقة أسهمت في رفع المكانة الاجتماعية للعلماء فالقرب من البلاط

منح الأطباء والفلكيين مكانة خاصة داخل المجتمع وجعلهم جزءا من النخبة الثقافية للدولة وقد انعكس ذلك في كثرة الإشارات إليهم في كتب التراجم والفهارس وفي الاهتمام بحفظ أخبارهم ومؤلفاتهم وعلى الرغم من إيجابيات هذه العلاقة فإنها لم تكن علاقة تبعية مطلقة فقد احتفظ كثير من العلماء باستقلالهم العلمي النسبي وواصلوا البحث والتأليف وفق معايير علمية تتجاوز المصالح السياسية المباشرة وهذا ما يفسر استمرار تأثير مؤلفاتهم لقرون طويلة بعد انتهاء العصر العباسي الأول (ابن النديم، ٢٠٠٩، ص٣٢٧). وتشير الدراسات الحديثة إلى أن نجاح النهضة العلمية العباسية كان نتيجة تفاعل بين السلطة والعلماء والمؤسسات الثقافية فالدولة وفرت الرعاية والموارد والعلماء وفروا المعرفة والخبرة والمؤسسات وفرت الإطار التنظيمي الذي سمح بتراكم الإنجازات العلمية (Saliba, 2007/ p52). ومن ثم فإن دراسة العلاقة بين العلماء والسلطة تكشف أن ازدهار الطب والفلك خلال الفترة (١٣٢هـ–٢٣٢هـ) لم يكن نتاج جهود فردية معزولة بل كان ثمرة شبكة معقدة من العلاقات السياسية والثقافية والعلمية التي جعلت من الدولة العباسية الأولى إحدى أهم البيئات المنتجة للمعرفة في التاريخ الإسلامي (المسعودي، ٢٠٠٥، ص٤٥٨).

دور علماء العصر العباسي الأول في تطور وازدهار علوم الطب والفلك

شهد العصر العباسي الأول تطورا ملحوظا في علوم الطب والفلك بفضل جهود العلماء الذين أسهموا في نقل المعارف السابقة وتطويرها مما جعل هذه المرحلة من أبرز مراحل الازدهار العلمي في الحضارة الإسلامية (ابن جلجل، ١٩٨٥، ص٢٤١).

أولاً: دور العلماء في تطور علوم الطب

أدى علماء الطب في العصر العباسي الأول دورا مهما في تطوير المعرفة الطبية من خلال الترجمة والتعليم والممارسة العلمية، الأمر الذي أسهم في ترسيخ أسس الطب الإسلامي وتقدمه.

ثانياً: تطوير المعرفة الطبية وترجمة التراث الطبي اليوناني والفارسي والهندي

شكلت المعرفة الطبية أحد أبرز المجالات التي شهدت تطورا ملحوظا خلال العصر العباسي الأول ويرجع ذلك إلى الجهود التي بذلها العلماء والأطباء في استيعاب التراث الطبي للأمم السابقة وإعادة صياغته ضمن إطار علمي جديد فقد ورث المسلمون كما كبيرا من المعارف الطبية اليونانية والفارسية والهندية إلا أن هذه المعارف لم تنتقل بصورة تلقائية إلى الحضارة الإسلامية بل احتاجت إلى جهود علمية كبيرة تمثلت في الترجمة والمراجعة والتفسير والنقد (ابن النديم، ١٩٧٨، ص١٧١).

وقد لعب الأطباء المترجمون دورا محوريا في هذه العملية حيث عملوا على نقل مؤلفات أبقراط وجالينوس وغيرهما من أعلام الطب القديم إلى اللغة العربية ولم تكن الترجمة مجرد عملية لغوية بل كانت عملية علمية معقدة تتطلب فهما دقيقا للمصطلحات الطبية وللخلفيات النظرية التي تقوم عليها تلك المؤلفات ومن هنا اكتسبت الترجمات الطبية قيمة علمية كبيرة لأنها ساهمت في توفير أساس معرفي متين للأطباء المسلمين(Meyerhof, 1935/ p103). كما استفاد العلماء من التراث الطبي الفارسي الذي كان مزدهرا في جنديسابور وهي المدينة التي احتفظت بتقاليد طبية عريقة قبل قيام الدولة العباسية وقد انتقلت خبرات أطباء جنديسابور إلى بغداد وأسهمت في تطوير الممارسة الطبية والتعليم الطبي ولم يقتصر تأثير هذا التراث على الجوانب العلاجية فحسب بل شمل تنظيم المؤسسات الطبية وأساليب تدريب الأطباء(Ullmann, 1972/ p81). أما الطب الهندي فقد أسهم بصورة خاصة في إثراء المعارف المتعلقة بالعقاقير والأدوية وبعض أساليب العلاج وقد أدت عملية المقارنة بين المدارس الطبية المختلفة إلى توسيع آفاق المعرفة الطبية لدى العلماء المسلمين الذين لم يكتفوا بقبول الآراء الموروثة بل سعوا إلى اختبارها والاستفادة من أفضل ما فيها ومن هنا بدأت ملامح مدرسة طبية عربية إسلامية تتشكل تدريجيا خلال القرن الثالث الهجري (سزكين، ٢٠٠١، ج٣، ص١٧٩)، وقد تميز العلماء في العصر العباسي الأول بقدرتهم على دمج هذه المؤثرات المختلفة داخل منظومة معرفية واحدة فبدلا من بقاء الطب اليوناني والفارسي والهندي علوما منفصلة جرى توظيفها في إطار علمي جديد يعتمد اللغة العربية أداة للتعبير العلمي وقد أدى ذلك إلى ظهور مصطلحات طبية دقيقة وإلى توحيد جانب مهم من المعرفة الطبية المتداولة بين الأطباء(Pormann & Savage-Smith, 2007/ p61).)، ومن أبرز نتائج هذا النشاط العلمي أن الطب تحول من معرفة مقتصرة على فئات محدودة إلى علم قابل للتدريس والتأليف فالمؤلفات المترجمة أصبحت تدرس للطلاب كما ظهرت شروح واختصارات وتعليقات ساعدت على تسهيل فهمها وقد مهد ذلك الطريق لظهور مؤلفات طبية عربية أصيلة في المراحل اللاحقة وهو ما يدل على أن دور علماء العصر العباسي الأول لم يقتصر على النقل بل شمل التأسيس العلمي للطب الإسلامي (الدوري، ٢٠٠٥، ص٢٨٧).

ثالثاً: تطور المؤسسات الطبية والمستشفيات وأساليب التعليم الطبي

ارتبط تطور الطب في العصر العباسي الأول بنمو المؤسسات الطبية التي وفرت بيئة مناسبة للممارسة والتعليم وقد ساعد الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي على توفير الموارد اللازمة لإنشاء المراكز الطبية واستقطاب الأطباء ذوي الخبرة الأمر الذي أسهم في رفع مستوى الخدمات الصحية وفي

تطوير المعرفة الطبية التطبيقية (ابن أبي أصيبعة، ١٩٩٨، ص٢٥٧). وكانت المستشفيات من أهم المؤسسات التي استفاد منها الأطباء في تطوير مهاراتهم العلمية فقد أتاحت لهم فرصة مراقبة الحالات المرضية المختلفة ومقارنة أساليب العلاج ونتائجها وكما ساعدت على تحويل الطب من علم نظري يعتمد على الكتب فقط إلى علم تطبيقي يقوم على الملاحظة والخبرة المباشرة وقد ورث العباسيون بعض التقاليد المؤسسية من جنديسابور إلا أنهم طوروها بما يتلاءم مع احتياجات المجتمع الإسلامي وأصبح الطبيب يتلقى تدريبا عمليا إلى جانب الدراسة النظرية وهو ما انعكس على مستوى الكفاءة الطبية التي تميز بها كثير من أطباء العصر العباسي الأول (ابن أبي أصيبعة، ١٩٦٥، ص١٨٧)، كما لعبت المجالس العلمية دورا مهما في التعليم الطبي فقد كان الأطباء الكبار يعقدون حلقات تعليمية يشرحون فيها المؤلفات الطبية ويناقشون المشكلات العلاجية المختلفة وقد أسهمت هذه المجالس في نقل الخبرة الطبية بين الأجيال وفي تكوين نخبة من الأطباء القادرين على مواصلة عملية التطوير العلمي (الطبري، ٢٠٠١، ص٢٠٤)، ومن الجوانب المهمة أيضا ارتباط التعليم الطبي بالمكتبات وخزائن الكتب فقد أصبحت النصوص الطبية المترجمة متاحة للدارسين بصورة أوسع مما ساعد على انتشار المعرفة الطبية وتوحيد أسس التعليم وأدى ذلك إلى ظهور بيئة علمية تسمح بالمقارنة بين الآراء المختلفة وبمناقشة القضايا الطبية بصورة أكثر منهجية (Sezgin, 1970/ p233). كما أن قرب الأطباء من البلاط العباسي وفر لهم فرصا إضافية للتعلم والتجريب فالتعامل مع الحالات المرضية المعقدة داخل القصور أتاح لهم اكتساب خبرات عملية مهمة كما شجعهم على تطوير أساليب العلاج وتحسين مستوى الممارسة الطبية (الدوري، ٢٠٠٥، ص١٤٢)، إن المؤسسات الطبية في العصر العباسي الأول لم تكن مجرد أماكن للعلاج بل كانت مراكز لإنتاج المعرفة الطبية وتطويرها وقد أسهمت هذه المؤسسات بصورة مباشرة في بناء القاعدة العلمية التي قامت عليها الإنجازات الطبية اللاحقة في الحضارة الإسلامية (شلبي، ١٩٨٧، ص١٧٦).

إسهامات العلماء في التأليف والتجريب والممارسة الطبية

لم يقتصر دور علماء الطب في العصر العباسي الأول على ترجمة المؤلفات أو تدريسها بل امتد إلى التأليف والتجريب والممارسة العملية فقد أدرك الأطباء أن المعرفة الطبية لا يمكن أن تتطور بالاعتماد على النقل وحده ولذلك سعوا إلى اختبار الآراء الطبية الموروثة ومقارنتها بالخبرة السريرية التي اكتسبوها من خلال ممارسة الطب (عاشور، ١٩٩٧، ص١٤٥)، وقد أسهمت هذه الممارسات في ظهور مؤلفات طبية تجمع بين المعرفة النظرية والخبرة العملية فالأطباء لم يكتفوا بشرح مؤلفات جالينوس وأبقراط

بل أضافوا إليها ملاحظات مستمدة من تجاربهم الخاصة وكان لهذه الملاحظات أثر مهم في تطوير بعض جوانب التشخيص والعلاج (العبيدي، ٢٠١٠، ص٢٠٤).

كما أن التجريب لعب دورا متزايدا في العمل الطبي فقد أصبح الأطباء أكثر اهتماما بمراقبة تأثير الأدوية وتسجيل نتائج العلاج وهو ما أسهم في تحسين فهمهم للأمراض وطرائق التعامل معها وعلى الرغم من أن التجريب في هذه المرحلة لم يصل إلى المستوى الذي عرفته العلوم الحديثة فإنه مثل خطوة مهمة نحو ربط المعرفة الطبية بالملاحظة العملية(Ullmann, 1970/ p67). وتكشف تراجم الأطباء أن كثيرا منهم جمع بين العمل الطبي والتأليف والتعليم. وقد أدى هذا الجمع بين النظرية والتطبيق إلى خلق بيئة علمية قادرة على تطوير المعرفة الطبية بصورة مستمرة ومن هنا أصبح الطبيب العباسي شخصية علمية متكاملة تمارس العلاج وتكتب الكتب وتدرب التلاميذ في الوقت نفسه (القزويني، ٢٠٠٠، ص٢٠٧)، ويعد هذا التطور أحد أهم مظاهر ازدهار الطب خلال العصر العباسي الأول إذ إنه نقل الطب من مرحلة الاعتماد الكامل على التراث القديم إلى مرحلة المشاركة في إنتاج المعرفة الطبية وصياغتها داخل الحضارة الإسلامية (فروخ، ١٩٨٣، ص٣٢١).

أولاً: دور العلماء في تطور علوم الفلك

حظي علم الفلك باهتمام كبير في العصر العباسي الأول حيث أسهم العلماء في تطوير معارفه النظرية وتطبيقاته العملية من خلال الرصد والحساب وإعداد الأزياج مما جعله من أبرز العلوم التي ازدهرت خلال هذه المرحلة.

ثانياً: تطوير المراصد الفلكية والوسائل الرصدية

شهد علم الفلك في العصر العباسي الأول تطورا ملحوظا بفضل اهتمام العلماء بالرصد المباشر للظواهر السماوية وقد أدرك الفلكيون أن الاعتماد على المؤلفات الموروثة وحدها لا يكفي لفهم حركة الأجرام السماوية بدقة ولذلك اتجهوا إلى تطوير الوسائل الرصدية وإجراء ملاحظات منتظمة تساعد على اختبار المعارف السابقة (ابن خلدون، ٢٠٠٤، ص٣٤٥).

وقد بلغت هذه الجهود مرحلة مهمة في عهد المأمون حيث دعمت الدولة عمليات الرصد وشجعت العلماء على متابعة حركة الكواكب والنجوم وكان الهدف من هذه الأنشطة التحقق من صحة الجداول الفلكية المتداولة وتصحيح ما قد يكون فيها من أخطاء وقد شكل ذلك تحولا مهما من مرحلة التلقي إلى مرحلة الفحص العلمي(Saliba, 1994/ p84) .

كما أسهم العلماء في تحسين الأدوات المستخدمة في الرصد فتم تطوير بعض الآلات الفلكية التي ساعدت على قياس الزوايا وتحديد مواقع الأجرام السماوية بصورة أكثر دقة ولم يكن تطوير هذه الأدوات عملا تقنيا فحسب بل كان جزءا من مشروع علمي أوسع يهدف إلى رفع مستوى المعرفة الفلكية داخل الدولة العباسية (الزركلي، ٢٠٠٢، ص٣٠٤). وتكشف المصادر أن الرصد الفلكي أصبح نشاطا جماعيا يشارك فيه عدد من العلماء وهو ما يدل على نمو روح التعاون العلمي خلال هذه المرحلة وقد ساعد هذا التعاون على تبادل الخبرات وعلى تحسين دقة النتائج التي توصل إليها الفلكيون ومن ثم فإن المراصد والوسائل الرصدية لم تكن مجرد أدوات مساعدة بل كانت من أهم العوامل التي أسهمت في تطور علم الفلك خلال العصر العباسي الأول ومهدت الطريق للإنجازات الفلكية التي ظهرت في القرون اللاحقة (سزكين، ٢٠٠١، ج٣، ص٢٣٦).

ثالثاً: دور العلماء في تطور علوم الفلك

أسهم علماء العصر العباسي الأول في تطوير علم الفلك من خلال توظيف المعارف المترجمة وإخضاعها للحساب والمراجعة مما أدى إلى تحقيق تقدم ملحوظ في إعداد الأزياج وتطوير الحسابات الفلكية المرتبطة بحركة الأجرام السماوية والمواقيت.

رابعاً: إسهامات العلماء في الحسابات الفلكية وإعداد الأزياج

يعد إعداد الأزياج الفلكية من أبرز الإنجازات العلمية التي تحققت خلال العصر العباسي الأول إذ مثلت الأزياج أداة علمية متكاملة اعتمد عليها العلماء في تنظيم الحسابات الفلكية وتحديد مواقع الأجرام السماوية وضبط المواقيت ولم يكن ظهور هذه الأزياج نتيجة الترجمة وحدها بل كان ثمرة جهود علمية متراكمة شارك فيها عدد من الفلكيين الذين جمعوا بين المعرفة الرياضية والخبرة الرصدية (المسعودي، ٢٠٠٥، ص٤٦٨)، وقد بدأت هذه العملية مع انتقال المعارف الفلكية الهندية والفارسية واليونانية إلى البيئة الإسلامية حيث عمل العلماء على دراسة تلك المعارف ومقارنتها وإعادة صياغتها بما يتلاءم مع احتياجات المجتمع الإسلامي وكان من أوائل الثمار العلمية لهذا الجهد ظهور جداول فلكية اعتمدت على الحساب الرياضي الدقيق بدلا من الاعتماد على التقديرات العامة التي كانت سائدة في بعض البيئات السابقة (Sezgin, 1978/ p167). ويحتل محمد بن موسى الخوارزمي مكانة بارزة في هذا المجال، إذ أسهم في إعداد زيج يعد من أقدم الأزياج الإسلامية التي وصلت أخبارها إلى المؤرخين وقد استند الخوارزمي إلى معارف هندية وفارسية سابقة لكنه لم يكتف بنقلها بل أعاد تنظيمها وصياغتها في إطار علمي جديد يتناسب مع متطلبات الحساب الفلكي في الدولة العباسية ومن هنا أصبحت أعماله مرجعا

مهما للعلماء الذين جاءوا بعده(Saliba, 1994/ p91).). كما أسهم حبش الحاسب في تطوير الأزياج من خلال إدخال تحسينات على الحسابات الفلكية والعمل على زيادة دقة الجداول المستخدمة في تحديد مواقع الشمس والقمر والكواكب وقد عكست أعماله تطورا واضحا في مستوى التفكير الرياضي والفلكي داخل البيئة العباسية حيث أصبح الاعتماد على القياس والحساب أكثر وضوحا من المراحل السابقة (ياقوت الحموي، ١٩٩٥، ص٣٠٤).

ولم يكن الهدف من إعداد الأزياج تحقيق معرفة نظرية مجردة، بل كانت لهذه الجداول وظائف عملية متعددة فقد استخدمت في تحديد أوقات الصلاة وضبط بدايات الشهور القمرية وتنظيم التقويم فضلا عن استخدامها في بعض الأنشطة الجغرافية والملاحية ولهذا اكتسبت الحسابات الفلكية أهمية كبيرة داخل المجتمع الإسلامي وأصبحت جزءا من الحياة العلمية والإدارية في الدولة (King, 1993/ p66) .

إن إعداد الأزياج تطلب تفاعلا مستمرا بين الترجمة والرصد والحساب فالعلماء كانوا يقارنون بين ما تذكره المؤلفات القديمة وبين النتائج التي يحصلون عليها من الملاحظة المباشرة وهو ما ساعد على كشف بعض الأخطاء وتصحيحها ومن هنا بدأت ملامح المنهج النقدي تظهر بصورة واضحة في علم الفلك العباسي وقد أدى هذا النشاط العلمي إلى تكوين تقليد فلكي جديد داخل الحضارة الإسلامية يقوم على الجمع بين التراث الموروث والخبرة العلمية المكتسبة ومن ثم فإن الأزياج لم تكن مجرد جداول حسابية بل كانت تعبيرا عن مرحلة متقدمة من تطور الفكر العلمي في العصر العباسي الأول (الذهبي، ٢٠٠٤، ص٣٢٤).

خامساً: أثر الدراسات الفلكية في الجغرافيا والمواقيت والملاحة

لم تقتصر آثار الدراسات الفلكية في العصر العباسي الأول على المجال النظري بل امتدت إلى عدد من المجالات التطبيقية التي ارتبطت بالحياة اليومية وبإدارة الدولة فقد أسهمت المعارف الفلكية في تطوير الجغرافيا وتحسين طرق تحديد المواقيت وتوفير أدوات أكثر دقة للملاحة والتنقل (ابن كثير، ٢٠٠٣، ص٢٦٥). وفي مجال المواقيت كان لعلم الفلك أهمية خاصة في المجتمع الإسلامي بسبب ارتباطه بالشعائر الدينية فقد احتاج المسلمون إلى تحديد أوقات الصلاة بدقة ومعرفة بدايات الأشهر القمرية وتحديد مواسم الحج والصيام وقد أدى ذلك إلى اهتمام العلماء بالحسابات الفلكية المرتبطة بحركة الشمس والقمر وإلى تطوير وسائل تساعد على ضبط الزمن بصورة أكثر انتظاما (Rashed, 1996/ p233).

أما في مجال الجغرافيا، فقد استفاد العلماء من الحسابات الفلكية في تحديد المواقع والمسافات فقياس خطوط العرض وبعض المحاولات المتعلقة بتقدير أبعاد الأرض اعتمدت بصورة كبيرة على

المعارف الفلكية وقد ساعد ذلك على تحسين مستوى المعرفة الجغرافية وتطوير الخرائط والوصف المكاني للأقاليم المختلفة (اليعقوبي، ٢٠٠٢، ص٤٥٠). كما كان للدراسات الفلكية أثر واضح في الملاحة ولا سيما في المناطق التي اعتمدت على النقل البحري فقد ساعدت معرفة مواقع النجوم واتجاهاتها على تحديد المسارات البحرية وتقليل الأخطاء أثناء السفر وعلى الرغم من أن الملاحة الإسلامية بلغت مراحل أكثر تقدما في العصور اللاحقة فإن الأسس العلمية التي قامت عليها بدأت بالتشكل خلال العصر العباسي الأول ومن الجوانب المهمة أيضا أن الفلك أسهم في تعزيز التفكير الكمي والرياضي داخل الحضارة الإسلامية. فالحسابات المرتبطة بالمواقيت والجغرافيا والملاحة دفعت العلماء إلى تطوير مهاراتهم الرياضية وهو ما انعكس إيجابا على علوم أخرى مثل الرياضيات والهندسة ومن هنا فإن أثر الفلك تجاوز حدوده المباشرة ليؤثر في البناء العلمي للحضارة الإسلامية بصورة عامة (Nasr, 1968/ p91). وتدل هذه المعطيات على أن الفلك في العصر العباسي الأول لم يكن علما منفصلا عن المجتمع، بل كان علما وظيفيا يسهم في معالجة قضايا عملية تمس حياة الأفراد والدولة ولذلك حظي باهتمام كبير من الخلفاء والعلماء على حد سواء (حسن، ٢٠٠١، ص١٦٣).

نتائج الإسهامات العلمية وأثرها الحضاري

أسفرت الجهود العلمية التي بذلها علماء العصر العباسي الأول في مجالي الطب والفلك عن آثار حضارية واسعة تجاوزت حدود التقدم العلمي إلى الإسهام في بناء أسس النهضة العلمية الإسلامية وتعزيز مكانة الحضارة الإسلامية في تاريخ العلم (سزكين، ٢٠٠١، ج٣، ص٢٣٦).

أولاً: أثر إنجازات علماء الطب والفلك في الحضارة الإسلامية

أسفرت الجهود التي بذلها علماء العصر العباسي الأول في الطب والفلك عن نتائج حضارية عميقة أثرت في مسار الحضارة الإسلامية لقرون طويلة فقد أدت هذه الجهود إلى تأسيس بنية علمية متماسكة سمحت بتراكم المعرفة وانتقالها من جيل إلى آخر كما أسهمت في تحويل العلوم من نشاط فردي محدود إلى نشاط مؤسسي منظم (شلبي، ١٩٨٧، ص٣٥٦). وفي مجال الطب أدى نشاط الأطباء والمترجمين إلى توفير قاعدة معرفية واسعة مكنت العلماء اللاحقين من الانطلاق نحو مراحل أكثر تقدما من البحث والتأليف فقد أصبحت العربية لغة للطب وتكونت مكتبة علمية غنية بالمؤلفات المترجمة والمشروحة كما تطورت الممارسة الطبية داخل المؤسسات العلاجية وقد شكل ذلك الأساس الذي قامت عليه الإنجازات الطبية الكبرى في القرون التالية (Pormann & Savage-Smith, 2007/ p79). أما في مجال الفلك فقد أسهمت أعمال العلماء في بناء تقاليد علمية قائمة على الحساب والرصد

وإعداد الأزياج وقد وفرت هذه التقاليد قاعدة متينة للإنجازات الفلكية التي شهدتها الحضارة الإسلامية في العصور اللاحقة كما أن ربط الفلك بالحاجات الدينية والإدارية ساعد على ترسيخ مكانته داخل المجتمع الإسلامي (كحالة، ١٩٩٣، ص٢٣٤)،ومن النتائج المهمة أيضا أن هذه الإنجازات عززت الثقة بالمعرفة العلمية وشجعت على استمرار حركة البحث والتأليف فالعلماء الذين جاءوا بعد العصر العباسي الأول وجدوا أمامهم تراثا علميا غنيا يمكن البناء عليه وتطويره وهو ما يفسر استمرار ازدهار العلوم في القرون التالية (العبيدي، ٢٠١٠، ص١٨٧).

ثانياً: انتقال العلوم الطبية والفلكية إلى أوروبا وتأثيرها العالمي

لم تقتصر آثار النهضة العلمية العباسية على العالم الإسلامي، بل امتدت إلى مناطق أخرى من العالم ولا سيما أوروبا في العصور الوسطى. فقد أصبحت المؤلفات الطبية والفلكية العربية مصدرا أساسيا للمعرفة العلمية في عدد من المراكز الأوروبية، وذلك بعد ترجمتها إلى اللاتينية في مراحل لاحقة (الآلوسي، ٢٠٠٧، ص٢٣٥). ويعود هذا التأثير إلى أن العلماء العباسيين لم يكتفوا بنقل التراث القديم، بل أعادوا تنظيمه وتطويره وإضافة عناصر جديدة إليه ولذلك فإن ما وصل إلى أوروبا لم يكن مجرد ترجمات للنصوص اليونانية بل كان تراثا علميا خضع لعمليات شرح ونقد وتطوير داخل البيئة الإسلامية (Saliba, 2007/ p71). وفي مجال الطب انتقلت كثير من المفاهيم والمصطلحات والطرائق العلاجية التي تطورت في الحضارة الإسلامية إلى المدارس الطبية الأوروبية كما أن النظام التعليمي الذي ارتبط بدراسة المؤلفات الطبية العربية أسهم في تشكيل جانب مهم من الثقافة الطبية الأوروبية خلال العصور الوسطى (العبيدي، ٢٠١٠، ص٣٢٤).

أما في الفلك فقد استفادت أوروبا من الأزياج والحسابات الفلكية التي طورها العلماء المسلمون كما استفادت من الأدوات والمفاهيم الرياضية المرتبطة بها وقد أدى ذلك إلى توسيع المعرفة الأوروبية بالظواهر السماوية وإلى تحسين دقة الحسابات الفلكية المستخدمة آنذاك (السامرائي، ١٩٨٥، ص٢٤٦).ومن هنا يمكن القول إن الإنجازات العلمية التي تحققت في العصر العباسي الأول لم تكن ذات أثر محلي فقط، بل شكلت جزءا من التراث العلمي الإنساني الذي انتقل بين الحضارات وأسهم في تطور المعرفة العالمية (فروخ، ١٩٨٣، ص٢٤٦).

ثالثاً: تقويم دور علماء العصر العباسي في بناء النهضة العلمية الإسلامية

تكشف دراسة جهود علماء العصر العباسي الأول أن هذه المرحلة مثلت نقطة الانطلاق الحقيقية للنهضة العلمية الإسلامية. فقد استطاع العلماء خلال الفترة الممتدة بين (١٣٢هـ و٢٣٢هـ) أن يضعوا الأسس التي قامت عليها التطورات اللاحقة في الطب والفلك وسائر العلوم العقلية (الزركلي، ٢٠٠٢، ص٣٠٨).

ويتمثل الإنجاز الأول في نجاحهم في استيعاب التراث العلمي السابق وإعادة إنتاجه داخل إطار ثقافي جديد فقد تحولت العربية إلى لغة علمية قادرة على التعبير عن المفاهيم الطبية والفلكية الدقيقة، وأصبحت وسيلة لنقل المعرفة وتطويرها كما أسهم العلماء في بناء شبكة من المؤسسات العلمية التي وفرت بيئة مناسبة للتعليم والبحث والتأليف (الذهبي، ٢٠٠٤، ص٢٠٤). أما الإنجاز الثاني فيتمثل في الانتقال التدريجي من مرحلة الترجمة إلى مرحلة الإبداع العلمي فعلى الرغم من أن الترجمة كانت نقطة البداية فإن العلماء لم يتوقفوا عند حدود النقل بل سعوا إلى اختبار المعارف الموروثة وتطويرها وإضافة خبراتهم الخاصة إليها وقد ظهر ذلك بوضوح في تطور الممارسة الطبية وفي تحسين الحسابات الفلكية وإعداد الأزياج (ابن خلدون، ٢٠٠٤، ص٥٦٣). ويتمثل الإنجاز الثالث في تأسيس تقاليد علمية طويلة الأمد فالأساليب التي طورها العلماء في التعليم والتأليف والرصد والحساب أصبحت جزءا من الثقافة العلمية الإسلامية، واستمرت آثارها قرونا طويلة بعد انتهاء العصر العباسي الأول وهذا يدل على أن إسهاماتهم لم تكن إنجازات مؤقتة بل كانت عناصر تأسيسية في تاريخ العلم الإسلامي (ابن كثير، ٢٠٠٣، ص٢٤٦). وعند تقويم دور هؤلاء العلماء يتضح أنهم كانوا حلقة الوصل بين التراث العلمي القديم والإنجازات الإسلامية اللاحقة فقد نجحوا في بناء قاعدة معرفية متينة وفي خلق بيئة علمية سمحت بتراكم المعرفة واستمرارها ولذلك يمكن اعتبار العصر العباسي الأول مرحلة التأسيس الفعلي للعلوم الطبية والفلكية في الحضارة الإسلامية (كحالة، ١٩٩٣، ص٢٣٦). ومن ثم فإن عنوان البحث "دور علماء العصر العباسي الأول في تطور وازدهار علوم الطب والفلك (١٣٢هـ/٧٥٠م–٢٣٢هـ/٨٤٧م)" يجد مبرره العلمي في أن هذه الفترة شهدت تشكل البنية الأساسية للنهضة العلمية الإسلامية ففيها ظهرت حركة الترجمة المنظمة وتطورت المؤسسات الطبية ونشأت التقاليد الفلكية الرصدية وتكونت طبقة من العلماء القادرين على الجمع بين النقل والإبداع وبذلك أصبحت هذه المرحلة إحدى أهم المراحل المؤسسة في تاريخ الحضارة الإسلامية وتاريخ العلوم على السواء (ابن جلجل، ١٩٨٥، ص١٨٦).

الخاتمة

خلص البحث إلى أن العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ/٧٥٠-٨٤٧م) مثّل مرحلةً حاسمةً في تشكّل البنية المعرفية للعلوم الإسلامية، ولا سيما في مجالي الطب والفلك، إذ أسهم تضافر الاستقرار السياسي ورعاية الخلفاء للعلم والعلماء ودعم حركة الترجمة وإنشاء المؤسسات العلمية في ترسيخ بيئةٍ معرفيةٍ محفزة للإنتاج العلمي وقد أفضت هذه المقومات إلى استيعاب التراث العلمي للحضارات السابقة وإعادة توظيفه وتطويره بما أسهم في إرساء تقاليد علمية أصيلة شكلت منطلقًا للتقدم العلمي في الحضارة الإسلامية. وأظهرت الدراسة أن علماء هذه المرحلة لم يقتصر دورهم على نقل المعارف بل أسهموا في نقدها وتنظيمها وتطويرها بالاعتماد على الملاحظة والتجربة، ففي مجال الطب أسهموا في تعريب المؤلفات الطبية، وتطوير التعليم والممارسة الطبية وترسيخ الطب بوصفه علمًا قائمًا على أسس علمية أما في مجال الفلك فقد حققوا تقدمًا ملحوظًا في إعداد الأزياج، وتحسين أساليب الرصد وتطوير الحسابات الفلكية، وتوظيفها في خدمة المواقيت والجغرافيا والملاحة.

وتؤكد نتائج البحث أن المنجزات العلمية للعصر العباسي الأول أرست الأسس التي قامت عليها النهضة العلمية الإسلامية في العصور اللاحقة، وكان لها أثر بارز في انتقال المعرفة إلى أوروبا خلال العصور الوسطى، بما يعكس الدور المحوري لعلماء هذه المرحلة في ترسيخ المكانة العلمية للحضارة الإسلامية وإثراء التراث الإنساني.

نتائج البحث:

١. توصلت الدراسة إلى أن الاستقرار السياسي ورعاية الخلفاء العباسيين للعلم والعلماء خلال الفترة (١٣٢هـ-٢٣٢هـ/٧٥٠م-٨٤٧م) أسهما بصورة مباشرة في تهيئة البيئة المناسبة لازدهار علوم الطب والفلك.

٢. أثبتت الدراسة أن حركة الترجمة كانت الركيزة الأساسية في نقل التراث الطبي والفلكي اليوناني والفارسي والهندي إلى الحضارة الإسلامية، مما وفر قاعدة علمية متينة للعلماء المسلمين.

٣. بينت الدراسة أن علماء العصر العباسي الأول لم يقتصر دورهم على ترجمة العلوم، بل أسهموا في تطويرها من خلال التأليف والتجريب والرصد وإعداد الأزياج وتحسين الممارسات الطبية.

٤. كشفت الدراسة أن المؤسسات العلمية والطبية، وفي مقدمتها بيت الحكمة والمراكز الطبية، كان لها دور مهم في تنظيم النشاط العلمي وتطوير التعليم والبحث في مجالي الطب والفلك.

٥. توصلت الدراسة إلى أن الإنجازات العلمية التي حققها علماء العصر العباسي الأول أسهمت في تأسيس النهضة العلمية الإسلامية وأثرت لاحقا في انتقال المعارف الطبية والفلكية إلى أوروبا والعالم.

توصيات البحث:

١. تشجيع إجراء دراسات علمية متخصصة تتناول أعلام الطب والفلك في العصر العباسي الأول للكشف عن إسهاماتهم العلمية بصورة أكثر تفصيلا.

٢. الاهتمام بتحقيق المخطوطات الطبية والفلكية المرتبطة بالعصر العباسي الأول ونشرها وفق أسس علمية حديثة تتيح الإفادة منها للباحثين.

٣. دعم البحوث الأكاديمية التي تدرس دور المؤسسات العلمية العباسية في تطور العلوم التطبيقية والطبيعية داخل الحضارة الإسلامية.

٤. تعزيز تدريس تاريخ العلوم العربية والإسلامية في المؤسسات التعليمية لإبراز دور العلماء المسلمين في بناء الحضارة الإنسانية.

٥. تشجيع الدراسات المقارنة التي تبرز أثر المنجز العلمي العباسي في تطور العلوم العالمية وفي انتقال المعرفة إلى الحضارات الأخرى.

المصادر والمراجع:

أولًا: (المصادر الأولية)

١. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم. (١٩٩٨). عيون الأنباء في طبقات الأطباء (تحقيق نزار رضا). بيروت: دار مكتبة الحياة.

٢. ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد. (٢٠٠٣). الكامل في التاريخ. بيروت: دار الكتب العلمية.

٣. ابن النديم، محمد بن إسحاق. (٢٠٠٩). الفهرست (تحقيق إبراهيم رمضان). بيروت: دار المعرفة.

٤. ابن جلجل، سليمان بن حسان. (١٩٨٥). طبقات الأطباء والحكماء (تحقيق فؤاد سيد). بيروت: مؤسسة الرسالة.

٥. ابن خلدون، عبد الرحمن. (٢٠٠٤). المقدمة. بيروت: دار الفكر.

٦. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (٢٠٠٣). البداية والنهاية. بيروت: دار الفكر.

٧. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي. (٢٠٠١). تاريخ بغداد. بيروت: دار الكتب العلمية.

٨. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. (٢٠٠٤). سير أعلام النبلاء (ج١٢). بيروت: مؤسسة الرسالة.

٩. السيوطي، جلال الدين. (٢٠٠٣). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٠. الطبري، محمد بن جرير. (٢٠٠١). تاريخ الرسل والملوك. بيروت: دار الكتب العلمية.

١١. القزويني، زكريا بن محمد. (٢٠٠٠). آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت: دار صادر.

١٢. القفطي، جمال الدين علي بن يوسف. (٢٠٠٥). إخبار العلماء بأخبار الحكماء. القاهرة: دار الآفاق العربية.

١٣. المسعودي، علي بن الحسين. (٢٠٠٥). مروج الذهب ومعادن الجوهر. بيروت: المكتبة العصرية.

١٤. ياقوت الحموي، شهاب الدين. (١٩٩٥). معجم الأدباء. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

١٥. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. (٢٠٠٢). تاريخ اليعقوبي. بيروت: دار صادر.

ثانيًا: (المراجع الحديثة)

١٦. الألوسي، عبد الستار. (٢٠٠٧). العلم والعلماء في الحضارة العربية الإسلامية. عمّان: دار الشروق.

١٧. العبيدي، حميد عبد الله. (٢٠١٠). الحركة العلمية في العصر العباسي. بغداد: دار الشؤون الثقافية.

١٨. عاشور، سعيد عبد الفتاح. (١٩٩٧). العصر العباسي الأول. القاهرة: دار النهضة العربية.

١٩. الدوري، عبد العزيز. (٢٠٠٥). العصر العباسي الأول. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

٢٠. الزركلي، خير الدين. (٢٠٠٢). الأعلام (ط١٥). بيروت: دار العلم للملايين.

٢١. السامرائي، كمال. (١٩٨٥). مختصر تاريخ الطب العربي. بغداد: وزارة الثقافة والإعلام.

٢٢. سزكين، فؤاد. (٢٠٠١). تاريخ التراث العربي: الطب والصيدلة (ج٣). الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٢٣. سزكين، فؤاد. (٢٠٠١). تاريخ التراث العربي: الرياضيات والفلك (ج٥). الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٢٤. شلبي، أحمد. (١٩٨٧). التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

٢٥. فروخ، عمر. (١٩٨٣). تاريخ العلوم عند العرب. بيروت: دار العلم للملايين.

٢٦. كحالة، عمر رضا. (١٩٩٣). معجم المؤلفين. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٢٧. حسن، أحمد يوسف. (٢٠٠١). العلوم والتقنية في الحضارة الإسلامية. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

List of Sources and References:

1. .Gutas, D. (1998). Greek thought, Arabic culture: The Graeco-Arabic translation movement in Baghdad and early Abbasid society (2nd–4th/8th–10th centuries). Routledge.
2. Kennedy, E. S. (1956). A survey of Islamic astronomical tables. Transactions of the American Philosophical Society, 46(2), 123–177.
3. King, D. A. (1993). Astronomy in the service of Islam. Variorum.
4. Meyerhof, M. (1931). Hunain ibn Ishaq and the transmission of Greek medicine. Isis, 16(1), 100–140.
5. Meyerhof, M. (1935). Studies in medieval Arabic medicine: Theory and practice. Institut Français d'Archéologie Orientale.
6. Nasr, S. H. (1968). Science and civilization in Islam. Harvard University Press.
7. Pormann, P. E., & Savage-Smith, E. (2007). Medieval Islamic medicine. Edinburgh University Press.
8. Rashed, R. (Ed.). (1996). Encyclopedia of the history of Arabic science (Vol. 1: Astronomy – Theory and practice). Routledge.
9. Rashed, R. (Ed.). (1996). Encyclopedia of the history of Arabic science (Vol. 3: Technology, alchemy and life sciences). Routledge.
10. Saliba, G. (1994). A history of Arabic astronomy: Planetary theories during the golden age of Islam. New York University Press.
11. Saliba, G. (2007). Islamic science and the making of the European Renaissance. MIT Press.
12. Sarton, G. (1927). Introduction to the history of science (Vol. 1: From Homer to Omar Khayyam). Carnegie Institution of Washington.
13. Sarton, G. (1931). Introduction to the history of science (Vol. 2). Carnegie Institution of Washington.
14. Sezgin, F. (1970). Geschichte des arabischen Schrifttums (Bd. III: Medizin). E. J. Brill.
15. Sezgin, F. (1978). Geschichte des arabischen Schrifttums (Bd. VI: Astronomie). E. J. Brill.
16. Ullmann, M. (1970). Die Medizin im Islam. E. J. Brill.
17. Ullmann, M. (1972). Islamic medicine. Edinburgh University Press.
18. Ullmann, M. (1978). Die Natur- und Geheimwissenschaften im Islam. E. J. Brill.

19. Young, M. J. L., Latham, J. D., & Serjeant, R. B. (Eds.). (1990). Religion, learning and science in the Abbasid period. Cambridge University Press.
20. Gutas, D. (1998). Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early Abbasid Society (2nd–4th/8th–10th Centuries). Routledge.
21. Hitti, P. K. (2002). *History of the Arabs* (10th ed.). Palgrave Macmillan.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: م.م. عماد احمد حميد

الجامعة: كركوك

الكلية: التربية للبنات

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:
imadahmed@uokirkuk.edu.iq

الهاتف: ٠٧٧٠١٢٧٤٥٥٢

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ٧/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٢١/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (عون الرفيق بن محمد، أشراف مكة، آل عون، الحجاز، الدولة العثمانية، إمارة مكة، التاريخ العثماني)

عنوان البحث

عون الرفيق بن محمد ١٨٤١-١٩٠٥ دراسة في شخصيته وعلاقته بالدولة العثمانية

ملخص البحث

يتناول هذا البحث شخصية الشريف عون الرفيق بن محمد، أحد أبرز أشراف مكة المكرمة في العهد العثماني، والمنتمي إلى أسرة آل عون الهاشمية. نشأ في بيئة علمية ودينية أسهمت في تكوين شخصيته السياسية والإدارية. تناول البحث صفاته المتمثلة بالحزم والاهتمام بالعلم والعلماء، ودوره في تنظيم شؤون الإمارة، فضلاً عن تأسيس فرقة الخويّة لتعزيز الأمن والنظام في الحجاز. كما سلط الضوء على علاقته بالدولة العثمانية التي اتسمت بالتعاون والتوازن السياسي والإداري. وناقش أثر سياساته في استقرار المجتمع الحجازي وتنظيم شؤونه، مبيناً مكانته بوصفه شخصية مؤثرة في تاريخ الحجاز خلال أواخر القرن التاسع عشر.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Asst. Lect. Emad Ahmed Hamid
University: Kirkuk
College: Education for Women
Department: History
Country: Iraq
Email: imadahmed@uokirkuk.edu.iq
Phone: 07701274552

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 7/ June / 2026
Acceptance Date: 21/ June / 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Awn Al-Rafiqbin Muhammad, Sharifs of Mecca, Al-Awn Family, Hijaz, Ottoman Empire, Emirate of Mecca, Ottoman History)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

Awn al-Rafiq ibn Muhammad (1841-1905): A Study of His Personality and His Relationship with the Ottoman State

Abstract

This study examines the personality of Sharif Awn Al-Rafiq ibn Muhammad, one of the most prominent Sharifs of Mecca during the Ottoman era and a member of the Hashemite Al-Awn family. Raised in a scholarly and religious environment, he developed notable political and administrative abilities. The study discusses his firmness, support for learning and scholars, and his efforts to organize the affairs of the Emirate, including the establishment of the Khuwwa Force to strengthen security and order in the Hejaz. It also highlights his balanced relationship with the Ottoman state and discusses the impact of his policies on the stability of Hejazi society and the organization of its affairs, demonstrating his standing as an influential figure in the history of the Hejaz during the late 19th century.

المقدمة

يعد تاريخ أشراف مكة المكرمة من الموضوعات المهمة في الدراسات التاريخية المتعلقة بالحجاز، لما للأشراف من دور بارز في الحياة السياسية والدينية والإدارية ولاسيما خلال العهد العثماني الذي شهد تداخلاً واضحاً بين السلطة المحلية والسلطة المركزية في إدارة شؤون الحجاز وقد حظيت مكة المكرمة بمكانة استثنائية في العالم الإسلامي، الأمر الذي جعل إدارتها تحظى باهتمام بالغ من قبل الدولة العثمانية، التي اعتمدت على أشراف مكة في تنظيم شؤون المدينة والمحافظة على استقرارها.

ومن بين الشخصيات التي برزت في تلك المرحلة الشريف عون الرفيق بن محمد، الذي يعد من أبرز أشراف آل عون المنتسبين إلى آل البيت، إذ جمع بين المكانة الدينية والنفوذ السياسي واستطاع أن يؤدي دوراً مهماً في إدارة مكة والحجاز خلال فترة حكمه. كما ارتبط اسمه بعدد من الإجراءات الإدارية والتنظيمية التي كان لها أثر واضح في الحياة العامة داخل مكة، فضلاً عن علاقته بالدولة العثمانية وطبيعة دوره السياسي في الحجاز.

اهمية البحث

تكمن أهمية البحث في كونه يسلط الضوء على شخصية تاريخية كان لها حضور مؤثر في تاريخ مكة المكرمة خلال أواخر القرن التاسع عشر مع بيان نسبه الهاشمي، ونشأته، وحياته السياسية والإدارية، إضافة إلى دراسة طبيعة العلاقة التي ربطته بالدولة العثمانية وأثر تلك العلاقة في إدارة الحجاز.

اهداف البحث

ويهدف البحث إلى التعرف على الدور الذي مارسه الشريف عون الرفيق في الحياة السياسية والإدارية، وبيان مكانته ضمن أشراف مكة، فضلاً عن تحليل أبرز ملامح سياسته الداخلية وطبيعة إدارته لشؤون الحجاز كما يسعى البحث إلى إبراز طبيعة العلاقة بين الأشراف والدولة العثمانية ومدى انعكاسها على استقرار المنطقة وتنظيمها الإداري.

منهجية البحث

اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي من خلال تتبع الأحداث والوقائع المتعلقة بالشريف عون الرفيق وتحليلها في ضوء الظروف السياسية والاجتماعية التي شهدها الحجاز خلال تلك المرحلة،

مع الاستفادة من عدد من المصادر التاريخية والكتب التي تناولت تاريخ مكة وأشرافها والعلاقات العثمانية في الحجاز.

مشكلة البحث

تكمن مشكلة البحث في قلة الدراسات التاريخية المتخصصة التي تناولت شخصية عون الرفيق بن محمد بصورة مستقلة ومتكاملة، بالرغم من دوره السياسي والإداري في الحجاز خلال العهد العثماني، إذ إن أغلب الدراسات تناولته بصورة موجزة ضمن الحديث العام عن أشراف مكة أو تاريخ الحجاز، دون التركيز على طبيعة شخصيته وإدارته وعلاقته بالدولة العثمانية وينطلق البحث من تساؤل رئيس يتمثل في:

ما طبيعة الدور السياسي والإداري الذي مارسه الشريف عون الرفيق بن محمد في الحجاز خلال العهد العثماني، وما أثر علاقته بالدولة العثمانية في إدارة مكة المكرمة واستقرارها؟

خطة البحث

قسم البحث إلى مبحثين رئيسين تناول المبحث الأول نسب الشريف عون الرفيق ونشأته وحياته وصفاته، في حين خُصِّص المبحث الثاني لدراسة دوره السياسي والإداري في الحجاز وعلاقته بالدولة العثمانية، وصولاً إلى أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الاول

الشريف عون الرفيق بن محمد واصوله التاريخية

يعد تاريخ الأشراف في مكة المكرمة من الموضوعات المهمة في دراسة تاريخ الحجاز، لما لهم من دور ديني وسياسي واجتماعي في إدارة شؤون المنطقة، ولا سيما خلال العهد العثماني الذي اعتمد بدرجة كبيرة على نظام الإمارة المحلية في الحجاز وفي هذا السياق تبرز شخصية الشريف عون الرفيق بن محمد بوصفه أحد أبرز أشراف آل عون الذين تولوا مسؤوليات إدارية وسياسية في مكة، وكان لهم حضور واضح في الحياة العامة.

وتكمن أهمية دراسة هذه الشخصية في كونها تمثل نموذجاً للقيادة الشريفة التي جمعت بين المكانة النَسَبية الهاشمية والدور السياسي ضمن إطار العلاقة مع الدولة العثمانية فضلاً عن إسهامها في الحياة العلمية والاجتماعية في مكة المكرمة. كما أن دراسة نسبه ونشأته تُعد مدخلاً أساسياً لفهم طبيعة تكوينه الفكري والسياسي وكيف أثرت البيئة المكية في تشكيل شخصيته.

وانطلاقاً من ذلك يتناول هذا المبحث نسب الشريف عون الرفيق بن محمد ونشأته بوصفها الأساس الذي بنيت عليه شخصيته ودوره لاحقاً، مع بيان مكانته ضمن أشراف آل عون وأثر البيئة الدينية والعلمية في تكوينه منذ مراحل حياته الأولى .

المطلب الاول

نسب الشريف عون الرفيق ونشاته

يعد نسب الشريف عون الرفيق بن محمد ونشأته من الجوانب الأساسية في دراسة شخصيته التاريخية إذ يمثل النسب الهاشمي أحد أهم عناصر المكانة الاجتماعية والسياسية في مكة المكرمة، لاسيما عند أشراف آل عون الذين ارتبطوا ببيت النبوة وشكلوا جزءاً مهماً من البنية السياسية للحجاز **(الزركلي، ٢٠٠٢ ص١٢)** ومن خلال تتبع نسبه وأصوله يمكن فهم الخلفية التي انطلق منها في تكوينه العلمي والاجتماعي ومدى تأثير البيئة المكية في بناء شخصيته منذ الصغر.

كما أن دراسة نشأته ومولده تتيح فهماً أعمق للظروف التي أحاطت بتكوينه المبكر سواء من الناحية الدينية أو العلمية أو الاجتماعية.

إذ نشأ في بيئة علمية داخل المسجد الحرام، مما أسهم في تشكيل وعيه الفكري وربطه المبكر بمجالس العلماء وشيوخ مكة. ولذلك فإن هذا المطلب يهدف إلى بيان نسبه الشريف ونشأته بوصفهما الأساس الذي انطلقت منه ملامح شخصيته ودوره لاحقاً.

الفرع الأول

نسب الشريف عون الرفيق بن محمد ومولده ونشأته

هو الشريف عون الرفيق بن محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن محمد بن حسين بن عبدالله بن أبي نمام محمد بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة بن أبي محمد بن أبي سعد بن سعد حسن بن علي بن قاد بن إدريس بن المطعم بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبدالله بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب عليه السلام **(الزركلي،** ٢٠٠٢ ص١٥) ويعد هذا النسب من الأنساب الهاشمية العريقة المتصلة ببيت النبوة عبر الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وهو ما منح أسرته مكانة دينية واجتماعية وسياسية رفيعة في المجتمع المكي وفي الحجاز عموماً، حيث كان للأشراف دور مهم في إدارة شؤون مكة والحياة الدينية والسياسية فيها. **(الهيلة، ١٩٩٤ص٢١)**

أما مولده فقد وُلد الشريف عون الرفيق في منطقة الشامية ويُقال في دار الجيلاني دار الجيلاني (هي دار فخمة عظيمة البناء، واقعة بمحلة الشامية، جوار بازان الماء بناها كان يلقب الجيلاني وكان غنياً واسع الثروة؛ لبنائه هذه الدار العظيمة الكبيرة وقد جعلها وقفاً على أمراء مكة) **(غازي، ٢٠٠٩ ص١٠٢)** وكانت ولادته في أواخر شهر ذي الحجة سنة ١٢٥٦هـ، الموافق لمنتصف شهر فبراير سنة ١٨٤٠م. وقد سُمّي بهذا الاسم من قبل السيد إسحاق أحد شيوخ السادة، فاشتهر باسم "عون الرفيق" وعُرف بهذا الاسم في المصادر التاريخية.

وقد نشأ الشريف عون الرفيق في بيئة مكية دينية وعلمية أثرت في تكوين شخصيته منذ الصغر، إذ كان قريباً من العلماء ومجالس العلم في المسجد الحرام، وتلقى العلوم على أيدي عدد من مشايخ مكة والمدرسين في الحرم الشريف، مما أسهم في بناء تكوينه العلمي والثقافي في وقت مبكر، وجعله على صلة مباشرة بالعلماء والبيئة الدينية في الحجاز.

الفرع الثاني

صفات الشريف عون الرفيق وتكوينه العلمي والاجتماعي

اتصف الشريف عون الرفيق بن محمد بعدد من الصفات الخَلقية والخُلقية التي جعلت منه شخصية بارزة في تاريخ إمارة مكة، إذ كان أسمر اللون، صغير الجسم، قوي البنية، يتمتع بملامح توحي بالهيبة والصلابة، وقد عُرف بالحزم والعقل الراجح والدقة في اتخاذ القرار، إضافة إلى كونه ذا فطنة ودهاء في إدارة شؤون الحكم والسياسة. **(البلادي، ٢٠٠٢ ص٥٢)**

وقد امتاز الشريف بقوة الإرادة والشخصية، فلم يكن يتردد في اتخاذ أي قرار يراه مناسباً لمصلحة الدولة والمجتمع، وكان عالي الفهم والإدراك، واسع الاطلاع، يميل إلى طلب العلم والبحث، مما جعله قريباً من العلماء ومجالسهم. كما جمع بين الصرامة في الحكم والعدل في التعامل، فكان يعرف بأنه شديد في الحق وفي الوقت نفسه عادل في قراراته، صديق وفيّ لمن يثق به وعدو شديد لمن يعاديه.

ومن الناحية العلمية فقد تلقى علومه على أيدي كبار علماء مكة المكرمة والمدرسين في المسجد الحرام، ومن أبرزهم: الشيخ محمد الشافعي والشيخ محمد منصوري المالكي، والشيخ أحمد بن عيسى وأبو شعيب الدكالي، وإبراهيم السباعي وغيرهم من العلماء. وقد استمر في طلب العلم حتى بعد توليه الإمارة، إذ لم ينقطع عن مجالس العلماء وكان حريصاً على تقريبهم منه والاستفادة من علمهم، رغم انشغاله بأمور الحكم والإدارة. (البلادي، ٢٠٠٢ ص٣٢)

ومن الناحية الاجتماعية عُرف الشريف عون الرفيق بالتواضع والبساطة، وكان ميالاً للعدل ومحباً للإنصاف، بعيداً عن التكلف والمظاهر الرسمية الثقيلة، إذ كان يرتدي لباساً بسيطاً عبارة عن جبة داكنة اللون مع غطاء للرأس والعقال. وكان يستقبل الزوار في أيام الجمعة، لكنه كان يحدد أعداداً محدودة في بعض الأوقات، حفاظاً على النظام وهيبة المجلس، كما كان يكره الخوض في القضايا الإدارية داخل المجالس العامة.

وفي جانب العدالة، وُصف الشريف بأنه شديد الحرص على تطبيق القانون والنظام، حتى في أدق الأمور، إذ كان يتعامل بحزم مع أي تجاوز أو خلل يمس الأمن العام، ومن المواقف التي رويت عنه أنه

كان يأمر باتخاذ إجراءات صارمة تجاه بعض المخالفات التي كانت تُسبب ضرراً للناس، مما يعكس اهتمامه الكبير باستقرار المجتمع. (مجاهد، ١٩٩٤ ص٢٢)

كما اشتهر بأسلوبه في ضبط بعض القضايا الاجتماعية بطريقة تنظيمية حيث كان يستخدم أساليب إدارية لتأديب المخالفين والحفاظ على النظام العام، مما جعله شخصية مهابة بين الناس في مكة.

أما من الناحية العقائدية والفكرية فقد تأثر الشريف عون الرفيق بالدعوة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حيث كان يميل إلى محاربة بعض المظاهر التي اعتُبرت مخالفات شرعية في ذلك الوقت، مثل تعظيم القبور والمشاهد.

وقد ورد أنه أمر في بعض الفترات بالنظر في إزالة بعض المباني والقباب المقامة على القبور، ومنها ما يتعلق بمقبرة حواء وغيرها من المقامات، إلا أنه واجه اعتراضات من بعض الجهات، فتوقف عن تنفيذ بعض تلك القرارات احتراماً للظروف العامة، مع الحفاظ على موقفه الديني.

كما تأثر بعدد من العلماء الذين كانوا قريبين منه، ومنهم الشيخ أحمد بن عيسى، الذين كان لهم دور في توجيه بعض قراراته المتعلقة بالإصلاح الديني داخل مكة، حيث كانت تلك الأفكار تهدف إلى محاربة البدع من وجهة نظرهم وتعزيز مفهوم التوحيد ومع ذلك، فقد اتسمت مواقفه بالمرونة في بعض القضايا، إذ لم يكن متشدداً بشكل مطلق، بل كان يوازن بين الاعتبارات الدينية والاجتماعية والسياسية، مما يعكس شخصية قيادية تجمع بين الفكر الديني وإدارة الدولة.

الفرع الأول

حياة الشريف عون الرفيق بن محمد وأعماله الإدارية والعسكرية

شهدت مرحلة حكم الشريف عون الرفيق بن محمد نشاطاً سياسياً وإدارياً بارزاً في مكة المكرمة، اتسم بمحاولات واضحة لإعادة تنظيم القوة الداخلية وتعزيز سلطة الإمارة في ظل الظروف التي كانت تمر بها الحجاز خلال العهد العثماني. ويمكن فهم هذه المرحلة بوصفها مرحلة انتقالية في بنية الحكم المحلي، حيث برزت فيها الحاجة إلى ضبط الأمن الداخلي وتوسيع أدوات السلطة التنفيذية.

وفي هذا السياق، ارتبط اسم الشريف عون الرفيق بإشرافه على عملية تدريب عسكري منظم جرى ضمن ترتيبات أشرف عليها أمير مكة المكرمة الشريف عبد الله بن محمد بن عون، حيث تم التركيز على تدريب فئات من سكان مكة على استخدام السلاح الناري، وبشكل خاص البنادق، باعتبارها أداة أساسية في التنظيمات العسكرية الحديثة آنذاك. وقد جرى هذا التدريب في حلقات منظمة شملت تعليم أساسيات الرمي واستخدام السلاح، إضافة إلى تدريبات ميدانية تهدف إلى رفع الجاهزية القتالية. واستمر هذا البرنامج لفترة تقارب أربعة أشهر، وهي مدة قصيرة نسبياً لكنها كانت كافية لتشكيل نواة قوة محلية منظمة ذات طابع شبه نظامي ومن الناحية التحليلية يمكن النظر إلى هذا النشاط بوصفه محاولة لخلق توازن بين السلطة المركزية العثمانية والسلطة المحلية في مكة، إذ كانت الإمارة تعتمد في بعض فتراتها على تشكيل قوات محلية لضبط الأمن الداخلي، خصوصاً في ظل التحديات الاجتماعية والقبلية التي كانت تشهدها المنطقة. (السباعي، ١٩٩٩ ص٨٢)

ومن أبرز ما ارتبط باسم الشريف عون الرفيق في هذا السياق أيضاً تأسيسه لفرقة عسكرية خاصة عُرفت باسم فرقة الخوزانية وهي فرقة كانت تمثل ذراعاً تنفيذياً مباشراً له داخل المدينة. وقد تميزت هذه الفرقة بكونها مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالشريف وتنفذ أوامره دون وسائط إدارية معقدة مما منحها سرعة في الحركة وفاعلية في تطبيق القرارات.

وتشير طبيعة هذه الفرقة إلى أنها كانت تتكون من عناصر تم اختيارها بعناية، غالباً من فئات اجتماعية غير مندمجة في الطبقة التقليدية للأعيان، وهو ما يفسره بعض المؤرخين بأنه محاولة لضمان الولاء المباشر للسلطة دون ارتباطات اجتماعية أو قبلية قد تؤثر على القرار. وقد ساهم هذا التشكيل في تعزيز نفوذ الإمارة، لكنه في الوقت نفسه أدى إلى ظهور حالة من الحساسية الاجتماعية تجاه دورها، نتيجة ما نُقل عن بعض الممارسات التي وُصفت بأنها صارمة في تطبيق الأوامر أو في التعامل مع المخالفين. (الزركلي، ٢٠٠٢ ص٤٢)

ومن الناحية الاجتماعية، ارتبطت هذه الفرقة ببعض الممارسات التي انعكست على الحياة اليومية في مكة حيث وُصف نفوذها بأنه كان واسعاً في بعض الفترات الأمر الذي جعلها محل جدل بين الأهالي، خصوصاً فيما يتعلق بطريقة تنفيذ الأوامر وتطبيق النظام.

كما تنتقل في هذا السياق بعض الروايات ذات الطابع الاجتماعي المرتبط بحياة الشريف اليومية، والتي تعكس طبيعة السلطة في تلك المرحلة. ومن هذه الروايات ما يتعلق بوجود اهتمام خاص ببعض الحيوانات داخل البيئة المحيطة بالإمارة، ومنها حادثة الفيل التي وردت في بعض المصادر الشعبية، حيث كان يُعامل معاملة خاصة داخل الأسواق، ويُسمح له بالتجول وتناول الطعام، في إطار صورة تعكس مزيجاً من السلطة الرمزية والحضور الاجتماعي للإمارة داخل الفضاء العام. وتشير الروايات إلى أن هذا الحيوان تعرض لاحقاً لمرض، ما استدعى تدخل الأطباء لفحصه، وقد تم التعامل مع الحالة باعتبارها جزءاً من الرعاية الخاصة المرتبطة بممتلكات الإمارة. (البلادي، ٢٠٠٢ص٢١)

ومن الناحية الرمزية تعكس هذه الروايات طبيعة العلاقة بين السلطة والمجتمع وكيف كانت السلطة الإمارتية حاضرة في تفاصيل الحياة اليومية بما في ذلك الرموز غير التقليدية التي تعكس الهيبة والنفوذ. كما ارتبطت شخصية الشريف عون الرفيق بحضور قوي في الفضاء العام إذ كان له تأثير مباشر في الأسواق والمجالس، وكان يُنظر إليه كشخصية ذات هيبة سياسية واجتماعية الأمر الذي جعل التعامل معه يتسم بالحذر والاحترام في الوقت نفسه، وقد انعكس هذا النفوذ في قدرته على فرض النظام داخل المدينة، سواء عبر الوسائل الإدارية أو عبر القوة التنفيذية المرتبطة به. (فطائي، ٢٠٢٢ ص٦١)

الفرع الثاني

وفاة الشريف عون الرفيق بن محمد وأثرها السياسي والإداري

تمثل وفاة الشريف عون الرفيق بن محمد نقطة تحول مهمة في تاريخ إمارة مكة، إذ أدت إلى إحداث فراغ إداري مؤقت في السلطة المحلية، استدعى تدخل الدولة العثمانية لتنظيم مرحلة انتقالية في الحكم. وقد ترتب على ذلك تعيين وكيل لإدارة شؤون الإمارة، حيث تولى الشريف علي بن عبد الله باشا مهمة الإشراف على الإدارة المحلية بصفة مؤقتة، إلى حين صدور القرار النهائي من مركز الدولة في إسطنبول بشأن ترتيبات الإمارة. وتعكس هذه المرحلة طبيعة العلاقة بين السلطة المحلية في الحجاز والسلطة المركزية العثمانية، إذ كانت الإمارة تعتمد على نظام التعيين والمصادقة من قبل الدولة، مما يجعل أي انتقال في السلطة يخضع لإجراءات إدارية مركزية قد تستغرق وقتاً الأمر الذي يؤدي إلى فترات انتقالية تتسم بعدم الاستقرار الكامل. (غازي، ٢٠٠٩ ص١٠٢)

وخلال هذه المرحلة الانتقالية ظهرت بعض الإشكالات المرتبطة بإعادة تنظيم السلطة داخل مكة خصوصاً فيما يتعلق بضبط الأجهزة التنفيذية وإعادة ترتيب الصلاحيات، وهو ما يعكس أهمية الدور الذي كان يلعبه الشريف عون الرفيق في إدارة الشأن الداخلي قبل وفاته.

كما تشير بعض الروايات إلى أن وفاته لم تكن مجرد حدث شخصي، بل شكلت نهاية مرحلة سياسية وإدارية كان لها أثر واضح في تنظيم الحياة العامة داخل مكة، إذ ارتبط اسمه بجملة من الإجراءات التنظيمية، أبرزها تشكيل القوة التنفيذية الخاصة (فرقة الخوزية)، والتي كان لها دور في فرض النظام، وإن كانت محل جدل اجتماعي لاحقاً توفى عون في مكة ودفن في قبه عن عمر ناهز ٦٧ عاما (المكي، ١٩٨٦ ص٣١)

ومن الناحية التاريخية يمكن القول إن تأثيره امتد حتى بعد وفاته إذ بقيت بعض الأنماط الإدارية التي ارتبطت بفترة حكمه موضوع دراسة ومناقشة بين المؤرخين، خصوصاً ما يتعلق بأساليب ضبط الأمن الداخلي وآليات تنفيذ السلطة داخل المدينة. (البلادي، ٢٠٠٢ ص٥١)

وبذلك، فإن وفاة الشريف عون الرفيق بن محمد لا تُعد حدثاً عابراً في السرد التاريخي بل تمثل محطة مفصلية أعادت تشكيل التوازن الإداري والسياسي في مكة المكرمة خلال تلك المرحلة ومهدت لمرحلة جديدة من التنظيم الإداري تحت إشراف الدولة العثمانية.

المبحث الثاني

الشريف عون الرفيق بن محمد ودوره السياسي والإداري في الحجاز

شهد الحجاز خلال العهد العثماني أهمية سياسية ودينية كبيرة، كونه يضم أقدس البقاع الإسلامية المتمثلة بمكة المكرمة والمدينة المنورة، الأمر الذي جعل الدولة العثمانية تولي اهتماماً خاصاً بإدارة هذه المنطقة والمحافظة على استقرارها. وقد اعتمدت الدولة في إدارة الحجاز على أشراف مكة الذين جمعوا بين المكانة الدينية والنفوذ السياسي، وكان من أبرزهم الشريف عون الرفيق بن محمد الذي برز اسمه بوصفه أحد الشخصيات المؤثرة في إدارة مكة وشؤون الحجاز خلال تلك المرحلة.

وقد اتسمت فترة حكم الشريف عون الرفيق بتعدد الأدوار السياسية والإدارية التي مارسها، إذ لم يقتصر دوره على الجوانب الشكلية للإمارة، بل امتد إلى تنظيم الأمن الداخلي، وتعزيز سلطة الإمارة،

وإدارة العلاقات مع الدولة العثمانية، فضلاً عن اهتمامه بالجوانب الاجتماعية والإدارية داخل مكة المكرمة. كما ارتبط اسمه بعدد من الإجراءات التنظيمية والعسكرية التي هدفت إلى فرض النظام والمحافظة على الاستقرار العام.

ومن هذا المنطلق، يسعى هذا المبحث إلى دراسة الدور السياسي والإداري الذي مارسه الشريف عون الرفيق في الحجاز، مع بيان طبيعة علاقته بالدولة العثمانية، وأثر سياسته الإدارية في إدارة مكة وتنظيم شؤونها الداخلية.

المطلب الأول

العلاقة السياسية بين الشريف عون الرفيق والدولة العثمانية

ارتبطت إمارة مكة المكرمة خلال العهد العثماني بعلاقة سياسية وإدارية وثيقة مع السلطة المركزية في إسطنبول إذ كانت الدولة العثمانية تنظر إلى الحجاز باعتباره مركزاً دينياً مهماً في العالم الإسلامي، الأمر الذي جعلها تحرص على دعم الأشراف الذين يتولون إدارة مكة، مقابل الحفاظ على الأمن والاستقرار وضمان سير شؤون الحج والحياة العامة.

وفي هذا السياق، برز الشريف عون الرفيق بن محمد بوصفه أحد أشراف مكة الذين تمكنوا من إقامة علاقة سياسية متوازنة مع الدولة العثمانية، حيث اعتمدت هذه العلاقة على المصالح المتبادلة بين الطرفين، فالدولة كانت بحاجة إلى شخصية محلية تمتلك الشرعية الدينية والاجتماعية لإدارة الحجاز، في حين اعتمد الشريف على الدعم العثماني لتثبيت نفوذه وتعزيز سلطته داخل مكة (العهد العثماني الثاني في مكة، ٢٠٢٠).

كما اتسمت هذه العلاقة بطابع إداري وسياسي معقد، نظراً لحساسية موقع الحجاز وأهميته الدينية، الأمر الذي جعل الشريف عون الرفيق يمارس دوراً سياسياً مهماً في إدارة شؤون المنطقة، مع المحافظة على التوازن بين متطلبات السلطة العثمانية وطبيعة المجتمع الحجازي.

الفرع الأول

طبيعة العلاقة بين الشريف عون الرفيق والدولة العثمانية

قامت العلاقة بين الشريف عون الرفيق والدولة العثمانية على أساس التعاون السياسي والإداري إذ كانت الدولة العثمانية تعتمد على أشراف مكة في إدارة الحجاز بحكم مكانتهم الدينية والاجتماعية بين سكان المنطقة. وقد مثّل الشريف عون الرفيق نموذجاً للشريف الذي استطاع الحفاظ على علاقات مستقرة مع السلطة العثمانية، مع احتفاظه بمكانته المحلية داخل مكة المكرمة.

وقد أدركت الدولة العثمانية أهمية دعم الأشراف في الحجاز، نظراً لما يتمتعون به من نفوذ ديني مستمد من انتسابهم إلى آل البيت، وهو ما منحهم قبولاً واسعاً بين الأهالي والحجاج الوافدين إلى مكة. لذلك كانت إسطنبول تحرص على تأكيد علاقتها بالأشراف عبر منحهم الألقاب الرسمية والأوسمة والتأييد السياسي.

وفي المقابل، كان الشريف عون الرفيق يدرك أهمية المحافظة على العلاقة مع الدولة العثمانية، لكونها تمثل السلطة العليا في العالم الإسلامي آنذاك، فضلاً عن كونها توفر الدعم السياسي والعسكري اللازم لاستقرار الإمارة. وقد انعكس هذا التعاون في طبيعة الإدارة المحلية داخل مكة، حيث كان الشريف يمارس سلطاته ضمن إطار التبعية الاسمية للدولة العثمانية.

كما حصل الشريف عون الرفيق على عدد من الأوسمة والنياشين من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، الأمر الذي يعكس مكانته لدى الدولة العثمانية وتقديرها لدوره في إدارة الحجاز والمحافظة على استقرار المنطقة.

الا ان هنالك العديد من العوامل التي اثرت على امارة الشريف عون الرفيق منها تعديات القبائل حيث واجه الشريف منذ الايام الاولى من توليه أرسل الشريف عون الرفيق فرقة ١٨٨٣ يونيو هـ / ١٣٠٠ ففي شهر شعبان من عام، كما أصدر أوامره إلى من العساكر العثمانية، ومثلها من رجال البادية والقبائل إلى للمشاركة مع قواته في إخضاع بين مالك.

فضلا عن القرارات الحكومية التي كان لها الدور في اشعال الفوضى في الحجاز فضلا عن الادارة المحلية والعساكر النظامية التي كانت قليلة العدد وضعيفة التسليح وعاجزة في الحد في الحد من اعتداءات القبائل بشكل حاسم (الجاسم، ١٩٩٧ ص٤١).

الفرع الثاني

أثر العلاقة العثمانية في تعزيز سلطة الشريف عون الرفيق

أسهمت العلاقة التي جمعت الشريف عون الرفيق بالدولة العثمانية في تعزيز نفوذه السياسي والإداري داخل الحجاز، إذ وفرت له الدولة دعماً رسمياً مكّنه من تثبيت سلطته داخل مكة المكرمة، وإدارة شؤون الإمارة بصورة أكثر استقراراً.

وقد ظهر أثر هذا الدعم في تمكن الشريف من تنظيم بعض التشكيلات الأمنية والإدارية التي ساعدت على فرض النظام داخل المدينة، فضلاً عن تعزيز حضوره السياسي بين الأهالي والقبائل. كما أن الاعتراف العثماني بشرعيته منح إمارته طابعاً رسمياً عزز من هيبته داخل المجتمع الحجازي ومن الناحية السياسية، ساعدت هذه العلاقة على تحقيق نوع من التوازن بين السلطة المحلية والسلطة المركزية، إذ كان الشريف يدير شؤون مكة اليومية، في حين بقي مرتبطاً بالدولة العثمانية من الناحية الرسمية والسياسية. وقد ساعد هذا النظام على استمرار الاستقرار النسبي في الحجاز خلال فترة حكمه (علوان، ٢٠١٣ ص٥١).

كما أن العلاقة مع الدولة العثمانية أسهمت في توسيع نفوذ الشريف خارج الإطار المحلي، إذ أصبح يمثل حلقة وصل بين الإدارة العثمانية وسكان الحجاز، وهو ما منحه مكانة سياسية متميزة مقارنة بغيره من الشخصيات المحلية في تلك المرحلة.

المطلب الثاني

دور الشريف عون الرفيق بن محمد في إدارة الحجاز

اضطلع الشريف عون الرفيق بن محمد بدور مهم في إدارة الحجاز خلال العهد العثماني إذ لم تكن مهامه مقتصرة على تمثيل السلطة السياسية في مكة المكرمة، بل امتدت لتشمل الجوانب الأمنية والإدارية والاجتماعية، فضلاً عن تنظيم العلاقة بين السلطة المحلية وسكان الحجاز. وقد فرضت طبيعة الحجاز

الدينية والسياسية على الشريف أن يتعامل مع أوضاع معقدة ومتنوعة، نتيجة توافد الحجاج من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، إضافة إلى التحديات القبلية والإدارية التي كانت تواجه الإمارة في تلك المرحلة (المكي، ١٩٨٦ ص٨١)

وقد اتسمت سياسة الشريف عون الرفيق بالحزم في إدارة شؤون مكة، مع سعيه إلى تعزيز الاستقرار الداخلي والمحافظة على مكانة الإمارة، وهو ما انعكس في عدد من الإجراءات التنظيمية والعسكرية التي اتخذها خلال فترة حكمه. كما أسهمت شخصيته القوية وعلاقته بالدولة العثمانية في تعزيز نفوذه السياسي داخل الحجاز، الأمر الذي جعله واحداً من أبرز أشراف مكة في أواخر القرن التاسع عشر. (الحجبي، ١٩٨٤ ص٩١)

الفرع الأول

سياسة الشريف عون الرفيق في إدارة الأمن والنظام

أولى الشريف عون الرفيق اهتماماً كبيراً بالجانب الأمني داخل مكة المكرمة، إذ كان يرى أن استقرار المدينة يمثل أساساً لاستمرار نفوذ الإمارة والمحافظة على مكانة الحجاز الدينية والسياسية. ولهذا عمل على تنظيم بعض القوى المحلية التي تساعده في فرض النظام وضبط الأمن الداخلي خصوصاً في ظل تزايد أعداد السكان والحجاج وما يرافق ذلك من مشكلات اجتماعية وأمنية.

ومن أبرز الإجراءات التي ارتبطت بفترة حكمه تأسيس فرقة عسكرية خاصة عُرفت باسم "الخويّة"، والتي كانت تمثل قوة تنفيذية مرتبطة مباشرة بالشريف. وقد أُنشئت هذه الفرقة بهدف تنفيذ الأوامر بسرعة وفرض سلطة الإمارة داخل مكة، فضلاً عن متابعة القضايا الأمنية ومراقبة الأوضاع العامة.

وقد اختار الشريف أفراد هذه الفرقة من طبقات اجتماعية مختلفة، وكان الهدف من ذلك ضمان ولائهم المباشر للسلطة، بعيداً عن تأثير بعض القوى التقليدية أو النفوذ القبلي. كما أن هذه الفرقة اكتسبت نفوذاً واسعاً داخل المجتمع المكي، الأمر الذي جعلها أداة مهمة في تثبيت سلطة الشريف. (العثماني ص١١٠)

ومن جهة أخرى، ارتبطت سياسة الشريف بالحزم في التعامل مع المخالفات والتجاوزات، إذ كان يميل إلى فرض النظام بصورة صارمة، ويحرص على معاقبة من يخل بالأمن أو يعتدي على حقوق

الآخرين. وقد انعكس ذلك في عدد من المواقف التي أظهرت حرصه على تحقيق العدالة والمحافظة على الاستقرار داخل المدينة كما أن اهتمامه بالأمن لم يكن مقتصراً على الجانب العسكري فحسب بل امتد إلى تنظيم الحياة العامة داخل مكة، وضبط العلاقات بين الأهالي، ومراقبة الأسواق وبعض المظاهر الاجتماعية، وهو ما يعكس طبيعة السلطة المحلية في الحجاز خلال تلك المرحلة. (غازي، ٢٠٠٩ ص٩٨)

الفرع الثاني

أثر سياسة الشريف عون الرفيق في المجتمع الحجازي

كان لسياسة الشريف عون الرفيق أثر واضح في المجتمع الحجازي، إذ ساهمت إجراءاته الإدارية والأمنية في تعزيز هيبة الإمارة وترسيخ حضورها داخل مكة المكرمة. وقد اتسمت شخصيته بالقوة والحزم، الأمر الذي جعل الأهالي ينظرون إليه بوصفه شخصية قادرة على فرض النظام والمحافظة على الاستقرار.

ومن الناحية الاجتماعية حرص الشريف على الظهور بمظهر الحاكم القريب من الناس رغم ما عُرف عنه من هيبة وشدة في بعض المواقف، فقد كان يستقبل الزوار ويهتم بمتابعة بعض القضايا العامة بنفسه، كما كان حريصاً على إظهار العدل في التعامل بين الناس، الأمر الذي عزز من مكانته داخل المجتمع المكي. (دحلان، ١٩٩٣ ص٦٥)

كما ساعدت سياسته الإدارية في تقوية مركز الإمارة داخل الحجاز خصوصاً في ظل التحديات التي كانت تواجه المنطقة آنذاك، سواء من الناحية القبلية أو الأمنية أو الإدارية. وقد استفاد الشريف من الدعم العثماني ومن مكانته الدينية بوصفه من الأشراف المنتسبين إلى آل البيت، مما مكّنه من توسيع نفوذه والمحافظة على استقرار الإمارة لفترة من الزمن.

ومن الجوانب المهمة في سياسته أيضاً اهتمامه بتنظيم الحياة العامة داخل مكة، إذ كان يتابع بعض القضايا المرتبطة بالأسواق والسكان، ويحرص على التدخل المباشر في بعض الأحيان لمعالجة المشكلات أو فرض النظام، وهو ما يعكس طبيعة الإدارة المحلية في الحجاز خلال العهد العثماني وعلى الرغم من أن بعض الإجراءات التي اتخذها الشريف عون الرفيق أثارت جدلاً بين الأهالي،

خصوصاً ما يتعلق بنفوذ بعض القوى المرتبطة بالإمارة، فإن فترة حكمه بقيت تمثل مرحلة مهمة في تاريخ إدارة مكة، لما شهدته من تنظيم إداري وأمني أسهم في تعزيز سلطة الإمارة والمحافظة على استقرار الحجاز .فضلا عن مساهمته في الانجازات العمرانية حيث قام بعده انجازات حضارية في امارته منها المطبعة الاميرية احمد بيت المال فضلا عن قلعة اجياد وكانت عامرة في عهد الجنود الاتراك في عهد العثمانيين فضلا عن تصليح وترميم .

الخاتمة

تناول البحث شخصية عون الرفيق بن محمد بوصفه أحد أبرز أشراف مكة المكرمة خلال العهد العثماني، إذ مثّل نموذجاً للشخصية التي جمعت بين المكانة الدينية المستمدة من النسب الهاشمي والدور السياسي والإداري في إدارة الحجاز. وقد أظهر البحث أن الشريف عون الرفيق نشأ في بيئة دينية وعلمية داخل مكة المكرمة، الأمر الذي أسهم في تكوين شخصيته العلمية والسياسية، وجعله قريباً من العلماء ومجالس العلم في المسجد الحرام وأوضحت الدراسة أن العلاقة بين الشريف عون الرفيق والدولة العثمانية اتسمت بالتعاون السياسي والإداري، إذ اعتمدت الدولة العثمانية على أشراف مكة في إدارة الحجاز نظراً لمكانتهم الدينية والاجتماعية، في حين استفاد الشريف من الدعم العثماني في تعزيز نفوذه السياسي والإداري داخل مكة المكرمة. كما أظهرت الدراسة أن هذه العلاقة أسهمت في تحقيق نوع من الاستقرار السياسي والإداري في الحجاز خلال فترة حكمه.

النتائج

١. ينتمي الشريف عون الرفيق بن محمد إلى أسرة آل عون الهاشمية المنتسبة إلى آل البيت عليهم السلام.

٢. أسهمت البيئة العلمية والدينية في مكة المكرمة في تكوين شخصيته الفكرية والسياسية.

٣. اتسمت شخصية الشريف عون الرفيق بالحزم والقدرة على إدارة شؤون الإمارة.

٤. كان للشريف عون الرفيق دور واضح في تنظيم الأمن الداخلي في مكة المكرمة.

٥. مثّلت فرقة "الخويّة" إحدى الوسائل التي اعتمد عليها الشريف في تعزيز سلطة الإمارة.

٦. اتسمت علاقة الشريف عون الرفيق بالدولة العثمانية بالتعاون السياسي والإداري.

٧. أسهم الدعم العثماني في تعزيز مكانة الشريف السياسية داخل الحجاز.

٨. شكّلت فترة حكم الشريف عون الرفيق مرحلة مهمة في تاريخ إمارة مكة خلال العهد العثماني.

المصادر والمراجع

البلادي ,ع .ب .(2002) .الاشراف على تاريخ الاشراف ط .1بيروت :دار النفائس .

الجاسم ,ن .ع .(1997) .الاشراف والعثمانيين في نهاية القرن التاسع عشر ط .1د.م .

الحجبي ,م .ص .(1984) .اعلام الانام بتاريخ بيت الله الحرام تحقيق اسماعيل الحافظ .مكة المكرمة :جامعة ام القرى.

الزركلي ,خ .ا .(2002) .الاعلام قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين ط .15بيروت : دار العلم للملايين .

السباعي ,ا .(1999) .تاريخ مكه دراسات في السياسية والعلم والاجتماع .الرياض :دار الملك عبد العزيز.

السباعي ,ا .(2020) .العهد العثماني الثاني في مكة .

العثماني.(n.d.) .Y .. ,

المكي ,ع .ا .(1986) .تاريخ امراء البلد الحرام عبر عصور الاسلام عصر النبي صلى الله عليه وسلم حتى وقتنا الحاصر .الطائف :مكتبة المعارف .

الهيلة ,م .ا .(1994) .التاريخ والمؤرخون بمكه من القرن الثالث عشر ط .1مكة المكرمة :مؤسسة الفرقان .

دحلان ,ا .ز .(1993) .خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام تحقيق محمد امين .بيروت :دار الساقي .

علوان ,ع .ن .(2013) .تطور اوضاع الحجاز الداخلية في عهد الشريف اعون الرفيق .1995-1882جامعة بغداد كلية الاداب :مجلة الاداب.

غازي ,ع .ا .(2009) .افادة الانام بذكر اخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى باتمام الكلام ط .1مكة المكرمة :مكتبة الاسدي .

فطائي ,ف .ب .(2022) .الشريف عون الرفيق ومواقفه من العقيده السلفية .مركز سلف للبحوث والدراسات .

مجاهد ,ز .م .(1994) .الاعلام الشرقية في المائة الرابعة عشر للهجرة ط .2بيروت :دار الغرب الاسلامي .

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

معلومات الباحث

الباحث الاول

الاسم: م.م. عتاب عماد داود سلمان

الجامعة: كركوك

الكلية: التربية للعلوم الانسانية

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:

etabemad@uokirkuk.edu.iq

الهاتف: ٠٧٧١٧٨٩١٠٩٩

الباحث الثاني

الاسم:

الجامعة:

الكلية:

القسم:

البلد:

البريد الالكتروني:

الهاتف:

تاريخ الاستلام: ١٦/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٣٠/ تموز /٢٠٢٦

تاريخ النشر: أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (المدن اليمنية، الزراعة، الأوضاع الاقتصادية، ياقوت الحموي، معجم البلدان)

عنوان البحث

الاحوال الزراعية في المدن اليمنية من خلال كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي (٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م)

ملخص البحث

ان للزراعة مكانة محورية في تاريخ وعمران المدن اليمنية كونها من المصادر الاساسية للعيش والاستدامة في المجتمع اليمني ولدراستها أهمية كبيرة في معرفة وفهم الاحوال الاقتصادية. اذ أبدى المسلمون اهتمامهم بالعلوم الجغرافية والتاريخية ومنهم ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٦م) إذ كان له مؤلفات عديدة رافقت كتاب (معجم البلدان) الذي وجهت اليه انظار المؤرخين المحدثين فتناول أسماء المدن والأماكن والقرى والاصقاع وجاء بمعنى كل واحد منها ودراسة احوالها الزراعية وغيرها. وتناول المدن اليمنية التي اشتهرت بالمحاصيل الزراعية كالحبوب او الحمضيات والفواكه والنخيل والبخور والعطور وجاءت دراستها مقارنة مع ما ذكر في المصادر الأخرى وتحليلها، كما ان الحموي بين دور أنظمة الري ووسائلها مثل سد مأرب الذي كان له دور في ازدهار الزراعة وتنوع الانتاج، وبصورة عامة أشار إلى أن اغلب المناطق كانت تتمتع بخصوبة الأرض وتعتمد في الري على مياه الامطار أو الآبار مما ساعد السكان على القيام بطرق ري تقليدية مثل السدود والآبار والصهاريج.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Asst. Lect. Atab Imad Dawood Salman
University: Kirkuk
College: Education for Humanities
Department: History
Country: Iraq
Email: etabemad@uokirkuk.edu.iq
Phone: 07717891099

Second Researcher
Name:
University:
College:
Department:
Country:
Email:
Phone:

Receipt Date: 16/ June / 2026
Acceptance Date: 30/ July/ 2026
Publication Date: September / 2026

Keywords: (Yemeni cities, Agriculture, Economic conditions, Yaqut al-Hamawi, Muʿjam al-Buldān)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

Agricultural Conditions in Yemeni Cities, As Described in the Book "Mu'jam al-Buldan" by Yaqut al-Hamawi (1229 A.D / 626 A.H).

Abstract

Agriculture holds a pivotal place in the history and urban development of Yemeni cities, being a primary source of livelihood and sustainability in Yemeni society. Its study is of great importance in understanding economic conditions. Muslims have shown interest in geographical and historical sciences, including Yaqut al-Hamawi (d. 626 AH/1226 CE), who had numerous other works alongside his book "Mu'jam al-Buldan" (Dictionary of Countries), which have attracted the attention of modern historians. He discusses the names of cities, places, villages, and regions, explaining the meaning of each and examining their agricultural and other conditions. He also covers Yemeni cities renowned for their agricultural crops, including grains, citrus fruits, date palms, frankincense, and perfumes. His study compares and analyzes information from other sources. Furthermore, al-Hamawi highlights the role of irrigation systems and methods, such as the Marib Dam, which contributed to the flourishing of agriculture and the diversification of production. In general, he notes that most regions enjoyed fertile land and relied on rainwater or wells for irrigation, which enabled the inhabitants to utilize traditional irrigation methods such as dams, wells, and cisterns.

المقدمة

تعد الزراعة من اهم ركائز الحياة الاقتصادية في المدن اليمنية عبر العصور، اذ ارتبط ازدهار تلك المدن بخصوبة اراضيها وتوافر مياهها وتنوع محاصيلها، وقد أسهمت العوامل الطبيعية من مناخ وتربة وموارد مائية في تشكيل طبيعة النشاط الزراعي، مما انعكس على استقرار السكان ونمو العمران، ويعد كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي من ابرز المصادر الجغرافية التي حفظت لنا أوصافاً دقيقة للمدن اليمنية متضمناً اشارات مهمة إلى أحوالها الزراعية ومواردها الطبيعية.

وتكمن أهمية البحث في كونه يتناول جانباً اقتصادياً مهماً في تاريخ المدن اليمنية، كما يسهم في ابراز قيمة المعلومات التي اوردها في معجمه بشأن خصوبة الأراضي وتنوع المحاصيل واثر الزراعة في ازدهار المدن، وجاء اختيار الموضوع لإبراز مكانة الزراعة في الحياة الاقتصادية كما أن قلة الدراسات التي تناولت الأحوال الزراعية من خلال هذا المصدر شكلت دافعاً لاختياره أضافة الى الرغبة في تحليل نصوص ياقوت الحموي واستخلاص دلالاتها التاريخية.

ويهدف البحث إلى الكشف عن ملامح الاحوال الزراعية في المدن اليمنية، كما وردت في المعجم وتحليل النصوص المتعلقة بها، وبيان أثر النشاط الزراعي في الحياة الاقتصادية.

واقتضت طبيعة البحث تقسيمه الى مباحث تناول المبحث الأول ياقوت الحموي سيرته واسهاماته العلمية. أما المبحث الثاني خصص لدراسة اليمن في كتاب معجم البلدان، في حين جاء المبحث الثالث لبيان المدن اليمنية وزروعها ومحاصيلها. بينما المبحث الرابع يتطرق الى وسائل الري في المدن اليمنية.

ولإتمام هذا البحث اعتمدت مجموعة من المصادر الأساسية والمراجع التاريخية والجغرافية وكان من ابرزها كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، وصفة جزيرة العرب للهمداني، والبلدان اليمانية للأكوع، الأمر الذي ساعد على تكوين صورة واضحة عن الاحوال الزراعية في مدن اليمن منها صنعاء، ومأرب، وزبيد، وذمار ووبار وغيرها.

المبحث الأول: ياقوت الحموي سيرته واسهاماته العلمية

هو شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله ولد سنة (٥٧٤-٥٧٥هـ/ ١١٧٨-١١٧٩م) في بلاد الروم (المنذري، عبد العظيم بن عبدالقوي بن عبدالله، ١٩٨١، صفحة ج٣، ص٢٤٩). وقيل انه يوناني الاصل (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج١، ص٦) ولقب بالحموي نسبة الى سيده (عسكر بن نصر)[١] من أهل حماة من الشام عندما اشتراه كان تاجراً في بغداد أما لقبه ياقوت فهو دلالة على انه من الموالي[٢] (النهاوندي الزجاجي، عبد الرحمن بن اسحاق البغدادي، ١٩٨٦، صفحة ص٢٤٥) وعادة الأرقاء يسمون بأسماء الاحجار الكريمة (كالزمرد والياقوت) (اليافعي، ابو محمد عفيف الدين عبدالله، ١٩٩٧، صفحة ج٤، ص٤٨). ثم رحل إلى بغداد واشتغل بها وساعده ذلك على ان يسمع ويسجل كل ما يراه من العلماء والسكان (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج١، ص٦-٧) ثم انتقل إلى دمشق وحلب ومصر والتقى بأهل العلم والأدب والفضل، وفي احدى رحلاته التجارية الى آمد[٣] خالط أهلها والتقى بالشاعر اللغوي شميم الحلي[٤] الذي كانت له تصانيف كثيرة فأخذ عنه الشعر واللغة والادب (الحموي؛، ١٩٩٣، الصفحات ج٧، ٢٨٨٤-٢٨٨٥) وتتلمذ على يد سالم أحمد بن سالم ابو المرجى[٥] (الزركلي، خير الدين محمود بن محمد بن علي بن فارس، ٢٠٠٢، صفحة ج٣، ص٧٠) واخذ عنه اللغة العربية والأدب، والمؤرخ الواسطي ابن الدبيثي والفقيه الخطيب ابن تيمية محمد بن الخضر بن محمد وغيرهم اذ تأثر بهم وأخذ عنهم العلم والمعرفة (ابن الشعار، كمال الدين ابو البركات المبارك، ٢٠٠٧، الصفحات ج٧، ١٩٧-١٩٨) وكان لياقوت الحموي موسوعات علمية كبيرة ومن أشهرها (معجم البلدان) الذي يعد من أهم

(١) عسكر بن أبي نصر ابراهيم الحموي: تاجر من أهل حماة أقام في بغداد، " أشهر بكونه مولى ياقوت الحموي' إذ اشتراه وهو صغير فأحسن تربيته وعلمه القراءة والكتابة، وأشركه في رحلاته التجارية، ثم اعتقه وظل ياقوت ينتسب اليه بلقب الحموي وفاء له. (الحموي؛، ١٩٩٣، الصفحات ج٧، ص٢٨٨٢-٢٨٨٣).

(٢) الموالي: العبد المعتق او الحليف والناصر والمطبع او الولي. (النهاوندي الزجاجي، عبد الرحمن بن اسحاق البغدادي، ١٩٨٦، صفحة ص٢٤٥).

(٣) آمد: وهي أعظم من ديار بكر وأشهرها. (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج١، ص٥٦).

(٤) شميم الحلي: الأديب وعلامة اللغة والنحو والشعر، مهذب الدين ابو الحسن علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت تنقل بين ديار بكر والشام واستقر في الموصل ومن تصانيفه (الحماسة).

(٥) ابو المرجى، هو أحد شيوخ ياقوت الحموي. كان عالماً بالنحو والعروض واللغة ومن اهم مؤلفاته (القوافي). (الشعر). وأرجوزة في النحو. (أبن خلكان: ابو العباس شمس الدين أحمد؛، ١٩٩٠، صفحة ج٣، ص٣٣٩)

وابرز المراجع التاريخية والجغرافية فهو يتطرق إلى أسماء البلدان والمدن والاوطان والجبال والأودية والقيعان والانهار والبحار والاصنام والأوثان وذلك بترتيب الحروف الهجائية فهو يعد موسوعة شاملة لكل الجوانب التاريخية والجغرافية والحضارية وكذلك تميز بالدقة والامانة والعلمية والضبط اللغوي ومن تصانيفه الأخرى (معجم الادباء) إذ يضم أخبار اللغويون والنحاة والنسابين والقراء والخطاطين والكتاب والمؤرخين وكل ما صنف في الأدب وكان ترتيبها وفق الحروف الهجائية فقد كتب عن الاعلام بشكل مختصر إلا من التقى به أطال الحديث عنه (ابن المستوفي، شرف الدين ابي البركات المبارك، ٢٠١٦، الصفحات ص٤٧-٤٨).

ومن خلال ما ورد في كتب ياقوت الحموي تبين انه كان دقيقاً في المعلومات وضبطها ولديه اطلاع واسع في جوانب متعددة من العلوم والمعارف مما أدى ان تكون نصوصه مجتمعة وشيقة للقراءة اما ابن المستوفي قدم رواية تفصيلية في حياته وكتابه الأدبي واتبع الطابع الوصفي دون التحليل، بينما نلاحظ المنذري اقتصر على الجوانب الاساسية ولم يتطرق بتفصيل تام. ونجد ابن خلكان تكلم عنه بشكل متوازن وبمصداقية. في حين نرى ياقوت قدم نفسه في معجم الادباء بتفاصيل دقيقة باعتماده على توثيق المصادر في كتاب معجم البلدان اما بالنسبة للمعلومات الزراعية في معجمه بالرغم من ان الزراعة لم تكن موضوعه الاساسي الا أن يبدو لي تطرق الى أهم المحاصيل الزراعية عند ذكره للمدن اليمنية وأهم منتجاتها التي اشتهرت بها وهل هي أرض خصبة ام جافة جبلية أم سهلية وهكذا، فضلاً عن ذكره لوسائل الري التي كانت تروي الأراضي في تلك الأزمنة فبالتالي نجد المؤرخ والجغرافي ياقوت الحموي قد قدم مادة غنية في كتابه (معجم البلدان) وجعله مصدراً لكل من يهتم بالزراعة والتاريخ والجغرافية والاقتصاد.

المبحث الثاني: اليمن في كتاب معجم البلدان:

تناول الحموي اليمن في معجمه في عدة مواضع من الاجزاء المتفرقة فاليمن هي من اقدم المواطن عمراناً واغزرها تاريخيا واغناها حضارة وقيل سميت باليمن لوقوعها يمين الكعبة اي من كان واقفاً أمامها أو استقبلها تكون على يمينه، والشام على يساره وأشار إلى خصوبة الأرض واعتدال مناخها وكثرة أشجارها وثمارها وزروعها فاشتهرت بزراعة الجنوب كالحنطة والشعير كذلك النخل والورس[١] والكروم،

(١) الورس: هو نبات يشبه السمسم لونه أصفر يزرع باليمن ويصبغ به ويتخذ من الغمرة الوجه. (الانجري الفاسي، ابو العباس أحمد بن محمد؛، ١٤١٩هـ، صفحة ج٥، ص٣١٥).

كما كانت طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ٤٤٧ – ٤٤٨) وأشار إلى مدنها وقراها ومخاليفها[١] مثل مأرب ومخلاف صعدة والتعريف بالإقليم وطبيعته (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ٦٧-٧٠).

وتطرق الى مدنية حضرموت، وزبيد (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ٤٤٧ – ٤٤٨)، وعدن، وظفار (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٤، ٦٢-٨٩)، كما يذكر أسماء قبائلها وعاداتهم وتقاليدهم والاحداث التاريخية. وقد مُجدت المنطقة بالأشعار من حيت ثمارها ومناخها وامطارها، ذكرها بعض الاعراب في أبيات عن اليمن فيقول:

واني ليحييني الصبا ويُميتني *** اذا ما جرت بعد العشي جنوبُ

(الحموي؛، ١٩٨٨، صفحة ص٢١٣)

وأشادوا بملوك المدينة مثل ملوك تبع. والحديث عن أشهر الحضارات بالأدلة والاحاديث النبوية مثل سبأ.

ونرى انه ذكر قبائل المدينة ورؤسائها مع ذكر مختصر وبصفحات متفرقة عن الثروة الحيوانية والمعدنية لأنها لم تكن جزءاً أساسياً في كتابه، إذ اعتمد الحموي على نقل المعلومات من الهمذاني وكتاب صفة جزيرة العرب الذي يتكون من عدة أجزاء تتناول فيها أخبار اليمن وأنسابهم والأكليل ونقله للمعلومات ممن التقى بهم سنوياً.

المبحث الثالث: المدن اليمنية وزروعها

تعد اليمن من ابرز المناطق التي حظيت باهتمام كبير في تاريخ العالم العربي والإسلامي بسبب موقعها الجغرافي والمميز وتنوعه البيئي فهي تعتبر من اكثر الاماكن خصوبة، إذ تمتاز بطبيعة جغرافية غنية تشمل الجبال والسهول والهضاب مما ساهم ذلك في تنوع المحاصيل الزراعية والنباتية فهي تشتهر بثمارها وزروعها (الهمذاني: ابو محمد الحسن بن أحمد؛، ١٨٨٤، صفحة ج١، ص٥١)، إذ انتشرت

(١) المخاليف، وهي بمنزلة الكور والرساتيق، ومن اسماء قبائل اليمن. (الحموي، شهاب الدين عبد الله ياقوت بن عبد الله، ١٩٩٥، صفحة ج٥، ص٦٧).

فيها زراعة الكندر[١]، والورس وانواع أخرى من الاشجار والثمار (ابن الفقيه، ابو عبدالله احمد بن محمد، ١٩٩٦، صفحة ص٩٨).

- **أبرز المدن اليمنية:**

صنعاء: ذكرها الحموي بأنها قصبة اليمن واحسن مدنه وتقع في أعالي اليمن ومحاطة بالجبال كانت تسمى أزال نسبة إلى ازال بن يقطن بن عامر وسميت بالحصينة عندما دخلها الاحباش ووجدوها محكمة محصنة لذلك اطلق عليها الحصينة، ووصفها بانها أرض الزروع والثمار وتمتاز بطيب هوائها واعتدال مناخها مما جعلها يشببها بمدينة دمشق لكثرة الفواكه فيها، فيروي انه لا تفوقها مدينة أخرى من حيث المساحة والعمران والسكان وهكذا يعكس مكانتها الزراعية والمركزية (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص٤٢٦) وذكر البكري بأنها بلدة كثيرة الخيرات والاشجار اشتهرت بزراعة الزعفران والورس في المناطق القريبة منها (جبل المذخير)[٢] ذات مناخ معتدل وهواء طيب ومياه غزيرة، تتجلى صنعاء في سيرة المؤرخين أرض مباركة تجورها الثمر والزرع مرتين في العام وتشتهر بكثرة بساتينها ووفرة فاكهتها كالتين والرمان الذي جعلها مقصداً للناظرين ومثالاً للمدينة الخصبة (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص٤٢٦).

والعنبر (القزويني، زكريا بن محمد بن محمود؛، د.ت، صفحة ص٥٠)، وشاعت فيها ايضا ضروب الزهور والرياحين (الشهاري، جمال الدين علي بن عبدالله، ١٩٩٢، الصفحات ص٦٠-٦٦)، فضلاً عن زراعة الحبوب وبالأخص الحنطة التي كانت تزرع مرة واحدة في السنة والشعير التي كانت تثمر مرتين إلى ثلاث أو أربع مرات لشدة اعتدال المناخ (مجهول؛، ١٤٢٣، صفحة ص١٧٢).

يتبين لنا أن صنعاء كانت مدينة زراعية ذات موقع جغرافي مميز وذات مناخ معتدل تتوفر فيها المياه مما ساعدها ذلك ان تنتشر بها زراعة البساتين (النخيل) والحنطة والشعير والعنب والتين والرمان والعنبر وضروب الزهور والرياحين والبن ويظهر بوضوح مدى المكانة التي تميزت بها المدينة لدى

---

(١) الكندر: هو اللبان الابيض وهو ضرب العلك اذ ما أصابه الماء يبس وأشتد (ابن الفقيه، أحمد من محمد بن علي الانصاري، ٢٠٠٩، صفحة ج٦، ٣٦٢)

(٢) جبل المذخير: وهي من اعمال صنعاء تتميز بوفرة المياه والمزارع وبنت الورس وفي شفيره الزعفران ولا يسلك الا من طريق واحد وهو في مخلاف السحول. (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات الحموي ، ١٩٩٥ ، ج٥، ص٨٨ – ٩١.)؛ (البكري، سراج الدين ابو حفص عمر ؛، ٢٠٠٨، صفحة ج١، ص١٥٣).

المؤرخين وذكر بها الجوز والخوخ والاقحوان[١] والكروم (الرازي، ابو العباس احمد بن عبدالله ؛، ١٩٨٩، الصفحات ص١٤٥-١٤٦).

نلاحظ ان البلدانيين فسروا المنطقة كلاً حسب رأيه اذ اتفقوا بأنها مدينة واسعة الخيرات والاشجار وما يهمنا ما ذكره الحموي بأنها أحسن مدن اليمن يشتون ويصيفون مرتين مع اشارة الى تضاريس جبلية، بينما يشير البكري بمعلومات اقل تفصيلاً من الحموي وركز المنجم بوصفه للمنطقة بطريقة جغرافية رياضية من خلال المناخ والزراعة وقياس الظواهر الطبيعية. فكانت المدينة نقطة التقاء للمناهج المعرفية عند المؤرخين والجغرافيين تجسد التطور الجغرافي للحضارات الإسلامية.

مدينة حضرموت: التي تعد من أشهر واقدم مدن الجزيرة العربية اذ يشير الحموي بأنها تقع شرق عدن من الأراضي اليمنية فهي كناصية واسعة تشتمل على مدينتان تريم وشبام وتحيط بها رمال الاحقاف وبينها وبين صعدة ثلاثون فرسخاً (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٢)، ووفقاً لبعض الروايات القديمة والمؤرخين يذكرون ان شجرة اللبان رائحتها كانت شديدة لدرجة تكون قاتلة لذلك اطلقوا على بعض المناطق التي تنمو فيها (أرض الموت)، اذ ذكر اللبان في شرقي حضر موت الذي يعد أحد أهم انواع البخور في المنطقة (دماج، ليبيا عبدالله ناجي؛، ٢٠٠٩، صفحة ص٦٥). اما المنجم فقد وصف المدينة بكثرة الاشجار وزراعة النخيل ووجود المزارع والكروم (المنجم، أكام المرجان، المنجم سحاق بن الحسين؛، ١٤٠٨هـ، صفحة ص٥٣). وهناك اشارة مهمة جاء بها المقحفي وهو يذكر أهم الوديان الخصبة التي تمتد من ريده وشبوة غرباً إلى بلاد المعرة شرقاً فتتوافر فيها زراعة الحبوب والفواكه والخضر والبساتين وتعمد التمور القوت الرئيسي للمنطقة (المقحفي، ابراهيم أحمد؛، ٢٠٠٢، صفحة ج١، ص٤٧٨).

يتبين من النصوص المتاحة لمعجم البلدان انه لم يذكر نوعاً معيناً أو منتجاً من المحاصيل الزراعية بينما ركز على المسافات والبعد والتسمية والعلاقة الجغرافية التاريخية ولا يظهر البكري تفاصيلاً عن المحاصيل، فقط رؤيته بعض الظواهر الطبيعية والحضارية وذكره للقبائل، ولم توجد اي اشارة في كتاب الروض المعطار للحميري، في حين نجد في آكام المرجان ذكراً للمحاصيل الزراعية الا أن وصفه

(١) الاقحوان: هو نبات عشبي مزهر من الفصيلة النجمية يعرف بأزهاره البيضاء او الصفراء ذات القرص الأصفر في الوسط وينمو برياً كما يزرع للزينة ويستخدم بعضه في الطب وانواع الاعشاب. (ابن منظور، محمد بن مكرم؛، ١٩٩٤، صفحة ج١٢، ص٤٨٦).

لم يكن في المدينة نفسها ربما في الأودية القريبة منها. وبالرغم من تتبع المصادر والمراجع نجد تركيز المحاصيل الزراعية في الأودية القريبة من مدينة حضرموت التي كانت منطقة تجارية واسعة بحكم موقعها الجغرافي والمميز لطرق القوافل التجارية.

اما مدينة مأرب التي تعتبر من أهم وأضخم المعالم التاريخية في الجزيرة العربية في سبأ فقد ذكرت انها تقع بين حضرموت وصنعاء ومحاطة بالجبال وتمتاز باعتدال مناخها وخصوبة تربتها. كانت تتوفر فيها الزراعة بشكل دائمي اذ تزرع أراضيها في السنة مرتين الى ثلاث مرات كالحبوب مثل الحنطة والشعير وعادة بين محصول الشعير وزراعته شهرين (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ٣٤-٣٥)، كما يذكر مخلاف مأرب ذو طبيعة جغرافية مناسبة اذ تشتهر بزراعة البساتين (النخيل) وتمورها تفوق تمور صنعاء (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٥، ص٦٨) وذكرت في مصادر أخرى "كان بها نخل كثير وأكثر تمر صنعاء منها" (صفي الدين، عبد المؤمن بن عبد الحق؛، ١٤١٢، صفحة ج٣، ١٢٤) فهي مدينة زراعية واسعة لا تخلو من الثمار صيفاً وشتاءاً الا انه بعد هدم السد فجأة في سيل العرم لم تبقى فيه من الزروع والثمار غير الاثل والخمط وشيئاً قليل من السدر (الحميري، ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم؛، ١٩٨٠هـ، الصفحات ٥١٥ – ٥١٦).

يبدو من دراسة المصادر ان الحموي يصف السد وصفاً تاريخياً باعتباره وسيلة للري وتأكيده على وفرة الزراعة في المنطقة كالحبوب والبساتين والفواكه ويؤيده في ذلك القزويني ويرى البكري ان الموضع دائم الثمار في المواسم حتى أن النساء إذ خرجن وحملن المكتلات تمتلئ بالثمار وهي تمشي دون عناء ويشير بهذا الرأي الحميري وتتفق المصادر ان بعد انهيار السد وسيل العرم لم يبقى من الزرع غير الاثل والخمط وشيء قليل من السدر.

ونلاحظ ان اغلب المصار وحتى معجم البلدان لم تتوسع كثيراً في نطاق زراعة مأرب وعمرانها اذ تناولتها بشكل سردي قصصي فكان الاختلاف في الاسلوب فالنصوص التي قدمها البكري والقزويني كانت أكثر دقة في المعلومة وتكرارهم بزراعتها أكثر من مرة في السنة مما يعطي انطباعاً أن الزراعة كانت نعمة وفيرة عندهم الا انها انهارت بعد انهيا السد.

ويكثر اللبان على جمال مدينة ظفار التي تقع في اليمن على ساحل بحر الهند ولا يوجد في غيرها من المدن اليمنية الأخرى فيحصل عليه الناس عن طريق جرح الاشجار بالسكاكين فيسيل (الصمغ) اللبان (الكندر) ثم يتركونه يجف وبعدها يجمعونه فيعطيهم السلطان بعضاً منه ويأخذ الباقي (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٤، ص٦٠) فهو يعد نوع من انواع البخور الذي يصدر إلى الخارج ويعادل قيمته بالذهب، كما يوجد في جزيرة سقطرى في أعالي مرتفعاتها التي اشتهرت بالمر واللبان (علي، جواد؛، ١٩٩٣، صفحة ج١، ١٧٢) فقد استخدموا اللبان بطريقة الحرق كالبخور واستخدموه في الطقوس الدينية والمواد الطبية والعقاقير (الحمد، جواد مطر؛، د.ت، الصفحات ٤٣٥-٤٣٦).

أجمعت المصادر على وجود اللبان في منطقة ظفار وسقطرى وانعدامه في المدن الأخرى ولم تتعمق في زراعته بينما تشير مصادر أخرى على أهميته واستخدامه حتى في الحياة اليومية كالبخور واستعماله في الطقوس الدينية والتحنيط والعقاقير وغيرها ...

أما ذمار ومخلافها في معجمه فهي قرية او بلدة تبعد عن صنعاء ستة عشر فرسخاً[١] ومعنى ذمار "ما وراء الرجل مما يحق عليه ان يحميه" (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص٧)، بينما يصيف مخلافها اقليم ذات اوسع شمولاً وجغرافياً يشمل عدة قرى كثيرة الخيرات تنتشر في زراعة النخيل والاعناب والكروم مما يدل على وفرة الانتاج الزراعي (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ٦٨-٦٩)، وتشير المصادر بأنها "كثيرة البساتين والمزارع وكثيرة الخيرات" (البكري، ابو عبيدالله عبدالله بن عبد العزيز؛، ١٩٩٢، صفحة ج١، ص٣٦٤).

ومن خلال تتبع الموضوع نلاحظ ان الحموي قد وصف المنطقة بدقة بين ذمار ومخلافها ففي ذمار ركز على الانساب والقبلية بينما في مخلافها نجد الدراسات اهتمت بالجانب الزراعي مما يدل على وعي عميق ودقة بين التقسيمات الادارية والاجتماعية اذ ما لفت انتباهي الفرق عند الحموي فهو يبين كيف ان المنطقة كانت تدار مما يعكس ذلك نظاماً إدارياً واجتماعياً منسق.

(١) الفرسخ: هو مقياس قديم للمسافات استخدم عند العرب والفرس ويقدر بأنه ثلاثة اميال ويعادل تقريباً ٥-٥,٥ كم بحسب تقدير الميل العربي. (ابن منظور، محمد بن مكرم؛، ١٩٩٤، صفحة ج٣، ص٢٣)

وبين طيات رمال شبه الجزيرة العربية هناك مدينة تاريخية اثرية ورد ذكرها في معجم الحموي وبار: فهي ارض واسعة في اليمن ما بين نحران وحضرموت ويذكر انها كانت ارض قوم عاد الذين اهلكهم الله بعد أن أتاهم الرياح العاتية فلم يبقى منهم شيئاً وجاء وصفها (أخصب بلاد الله واكثرها نخلاً وشجراً وخيراً واعذبها ثمراً وعنباً وموزاً) (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ٣٥٦- ٣٥٧)، ووصفت بأنها كثيرة الخيرات وفيرة الزراعة كالنخل والتمر (القزويني، زكريا بن محمد بن محمود؛، د.ت، صفحة ص٦٣) يبدو ان المصادر تكرر ما يذكره الحموي.

اما مدينة آب: وهي بليدة باليمن وهنا تعني الزرع (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج١، ص٦٤) مستنداً إلى نص قرآني كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾(سورة عبس، آية: ٣١)، وهنا أراد الحموي توظيف الكلمة والخوض في المعنى والتفسير اللغوي والديني والفاكهة ما يأكله الناس، والأب تعني الكلأ وهو ما تأكله الانعام من المرعى (القرطبي المالكي، ابو محمد مكي بن ابي طالب؛، ٢٠٠٨، صفحة ج١٢، ص٨٠٦٦)، وهناك مصادر لا تذكر تفاصيل المنطقة وما تحتويه بل تكتفي بذكر موقعها (صفي الدين، عبد المؤمن بن عبد الحق؛، ١٤١٢، صفحة ج١، ص١٠)، وتشير البعض أن المنطقة غنية بالزراعة والفاكهة والحنطة والشعير والبن (المقحفي، ابراهيم أحمد؛، ٢٠٠٢، صفحة ج١، ص١٢) فنرى كتابه يذكر الانساب والقبائل دون التركيز على الجغرافية.

اما شبام فقد وصفت بأنها جبل عظيم قرب صنعاء وبينها وبينه مسيرة يوم، أي تبعد ثمانية فراسخ فهو يشير إلى مواضيع أخرى في شبام منها شبام حضرموت وشبام غرب صنعاء وأخرى حراز الا ان شبام قرب صنعاء صعب المسالك فهو ذو أراض خصبة وزراعية تكثر فيه الاشجار وزراعة العنب والنخل والكروم وتكثر فيه الضياع والكهوف (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص٣١٨) ووصفت بأنها عامرة بالزراعة والخيرات وكثرة المزارع والمياه فنجدهم يذكرونها كما يذكرها الحموي بوصف متكرر وفي اتفاق واحد (الاصطخري، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد؛، ٢٠٠٤، صفحة ص٢٦)، وذكرها ابن الفقيه بوصف تطرق اليه الحموي معتمداً عليه (ابن الفقيه، ابو عبدالله احمد بن محمد، ١٩٩٦، صفحة ص٩٨).

أما أثافت: هي قرية يمنية مشهورة بزراعة الكروم والعنب تقع على مسافة يوم من صنعاء وتعرف بأسم (درنا) قبل الاسلام ولمكانتها المميزة كان الشاعر الكبير الاعشى قد زارها وكان عنده معصرة للخمر

مما يدل على غزارة العنب والكروم وكثرة الانتاج وهذا له دور كبير في تجاراتها وقد سأل الأصمعي يوماً امرأة على اسم القرية فأجابته أما سمعت قول الاعشى:

أحب أثافة ذات الكروم *** عند عصارة أعنابها

(الهمذاني، ابو محمد الحسن بن أحمد ؛، ١٨٨٤، صفحة ج١، ص٦٦)

وزرد ذكرها بأنها كثيرة الزروع والكروم والعنب وذات مياه وعيون جارية (الهمذاني، ابو محمد الحسن بن أحمد ؛، ١٨٨٤، صفحة ج١، ص٦٦)؛ (ابن خرداذبة، ابو القاسم عبدالله بن عبدالله؛، ١٨٨٩، صفحة ٣٦)، تؤكد هذه المصادر بالاطلاع عليها بوصفها منطقة زراعية خصبة اشتهرت بالكروم والعنب الكثير وانتاج الخمر مما له الدور الكبير في التجارة وبالتالي قول الاعشى ووصفه وحبه للكروم يدل على مكانة القرية وأهميتها ورمزيتها في ذلك الحين.

ومن المدن التاريخية العريقة التي تطرق اليها الحموي زبيد وصفها (بأنها مدينة مشهورة) (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٣، ١٣١ – ١٣٢)، ولا يذكر فيها اي نوع من انواع المحاصيل الزراعية بينما يشير في مخلاف زبيد بأنه واد كثير الخيرات والنخيل (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٥، ص٧٠)، وذكر ابن بطوطة في زيارته الى زبيد بأنها تقع قرب صنعاء واسعة غنية الخيرات والمزارع والبساتين وتثمر فيها شجرة (النارجيل) وهي شجرة جوز الهند مما يدل على خصوبة أرضها وغزارة مياهها (ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن محمد ؛، ١٤١٧، صفحة ج٢، ص١٢٧)، ولا توجد أكثر ولا اغنى بعد صنعاء فيها الفواكه كالموز (البكري، ابو عبيدالله عبدالله بن عبد العزيز؛، ١٩٩٢، صفحة ج١، ص٣٦٥).

اذ يرى الحموي أن مدينة زبيد هو موضعاً جغرافيا يذكر فيه القبائل والحياة الاجتماعية ولا يذكر فيه زرع ولا نخل بينما نجد ذلك في مخلافها يشير الى واد ذي زرع ونخل كثير وهذا الوصف قد جاء به المؤرخين فيمكن القول بأن مخلاف زبيد هو أكثر إدارياً واجتماعياً وزراعياً.

أما الهجران: فهو موضع في حضرموت اذ تتقابل هاتان القريتان في أعلى جبل منبع حصين تعرفان بالهجران ويسكنها خودون من قبائل الصدف.

ويعرف الموضع بخصوبة الأرض وزراعتها ان تشتهر بالنخل والذرة والقمح والعنب مما يعكس هذا غنى المنطقة بالمحاصيل الزراعية، ويقول: (الهجران كفة ككفة النخل والدبر بها محفة) (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ٣٩٢-٣٩٣).

ونفهم من خلال هذا السياق بأن المنطقة رغم أنها جبلية الا أنها زراعية خصبة ويبين الحموي في ذلك مدى معرفته بالموضع وزراعته وفي مصادر أخرى تركز على الجوانب القبلية والزراعية، بينما تشير الأخرى على القبائل والانساب وذكرهم للمواقع والمدن لكن تحديداً لم يذكروا الهجران بتفاصيلها.

بينما مخلاف ذي جرة وخولان: هو مخلاف كبير نسبياً يسمى خزانة اليمن وذلك للتخزين الزراعي الكبير لعدد من المدن مثل القمح والشعير والذرة لفترة طويلة من الزمن ويقول (رأيت بجبل مسوراً برأ آتي عليه ثلاثون سنة ولم يتغير) الا أنه لم يصف خولان تحديداً أنما مخلافها (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٥، ص٦٩).

ويصف الهمداني مخلاف صعدة الى خولان بأنها كثيرة القرى والمزارع والاعناب والحبوب وذات مياه وفيرة وأرض خصبة وأكثر أودية خولان وأكرمها (وادي علاف) الذي يعد أكثر زرعاً وخيراً (الهمذاني: ابو محمد الحسن بن أحمد؛، ١٨٨٤، الصفحات ج١، ١١٣-١١٤)، وتأتي المصادر الأخرى تصفها بكثرة البساتين وزراعة الفواكه والخضر (ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي ؛، ١٩٣٨، صفحة ج١، ص٣٦).

اذاً خولان تختلف باختلاف رؤية ونظرة المؤرخين حول الموضع فهي لم تكن وصفاً للأمكنة انما وصفاً متكامل من حيث الدين والنسب والزراعة والمكانة الإدارية.

ومن بين الجبال التي تبرز في المنطقة وذكرهما الحموي (جبلان العركبة) وصفها بالدواسع يقع بين وادي رمع ووادي زبيد، وجبلان ريمة التي يقع بين وادي صنعاء ووادي رمع وأشار إلى وجود أنشطة زراعية في المنطقة واعتمادهم على الزراعة (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٢، ص١٠٢)، كما أشارت المصادر بانها واسعة الخيرات ذات طبيعة زراعية (الهمذاني: ابو محمد الحسن بن أحمد؛، ١٨٨٤، صفحة ج١، ص١٠٣).

ونرى الحموي أهتم بالموضوع وأحسن في ربط الموقع الجغرافي بالأنشطة الاقتصادية كالزراعة والثروة الحيوانية وادراكه العميق بين الانسان والطبيعة فأشار إلى الزراعة ولم ينوه الى تفاصيلها في حين أشارت المصادر الأخرى وصفاً متكاملاً يتناول البيئة الجغرافية والتاريخية.

أما صعدة: في مخلاف اليمن تبعد عن خيوان ستة عشر فرسخاً، وعن صنعاء ستون فرسخاً ووصفت (خصبة كثيرة الخير) (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص ٤٠٦)، وتؤكد المصادر الأخرى وصفها بالموقع واحتوائها على مدابغ الجلود (صفي الدين، عبد المؤمن بن عبد الحق؛، ١٤١٢، صفحة ج٢، ص٨٤١) يعكس طبيعتها الاقتصادية وأهميتها في التجارة.

يتضح من ذلك ان الحموي انفرد في تقديم وصفا دقيقاً للموقع وذكره للخصائص الاقتصادية والاثرية مما يعكس ذلك دورها في التجارة والبعد الزراعي والبيئي، بينما لا توجد تفاصيل زراعية أو بيئية في المصادر الاخرى فقط وصفهم بالموقع وأنها عامرة بأهلها وسكنها وهذا يبين التحولات التي تطرأ على الأماكن بين حضورها في المصادر القديمة وغيابها في الذاكرة الجغرافية الحديثة.

ولا يخفى ان شروم وصفت (قرية كبيرة عامرة باليمن فيها عيون وكروم) (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص٣٣٩)، وتبعد عن الهجيرة[١] خمسة وعشرون ميلاً، بالإضافة إلى المصادر الأخرى جاءت على نفس الوصف وتكرروا به ما جاء به الحموي (ابن خرداذبة، ابو القاسم عبدالله بن عبدالله؛، ١٨٨٩، صفحة ص١٨٩).

وهناك مدن لم يرد ذكرها من قبل الحموي على انها زراعية فمثلاً مدينة تعز[٢] وصفها قلعة عظيمة في اليمن (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٢، ص٣٤)، وبعض الدراسات تشير بأنها جبلاً يدعى صبر مطل على قلعة تعز[٣] فيه قرى ومزارع كثيرة وواسع الخيرات، أو

(١) الهجيرة: هي حصن جبلي قديم تقع بالقرب من شروم واشتهرت بموقعها الدفاعي المنيع وأسهمت في حماية المنطقة والسيطرة على الممرات الجبلية. (الحموي، شهاب الدين عبد الله ياقوت بن عبد الله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ص٨٨-٩١).

(٢) مدينة تعز: هي أشهر مدن اليمن وأعظمها شأناً تقع عند سفح جبل حبر وعرفت بموقعها الحصين ومكانتها السياسية والعلمية. (الحموي، شهاب الدين عبد الله ياقوت بن عبد الله، ١٩٩٥، صفحة ج٢، ص٤٨)

(٣) قلعة تعز: وهي أشهر قلاع المدينة تقع على السفح الشمالي لجبل صبر وتعد من هر ابرز الحصون التاريخية في اليمن. (الحجري، محمد بن أحمد بن علي؛، ١٩٩٦، صفحة ج١، ص١٥٣)

هي مدينة عامرة بالزروع والفواكه والمطيبات والاشجار وكثيرة المنافع والخيرات (ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن محمد؛، ١٤١٣، صفحة ص٩٦).

يبدو ان الحموي لم يقدم وصفاً متكاملاً بل جاء بكلمات مختصرة ووصفه للقلعة كوحدة ادارية، ولم تظهر لنا مادة مستقلة، بينما أوضحت الدراسات بأنها جبل حبر محاذاً للقلعة واسع الخيرات والزروع والاشجار. اذاً معجم البلدان يمثل مرجعاً جغرافياً مهماً لدراسة الاحوال الزراعية والبيئية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الدينية.

المبحث الرابع: طرق ووسائل الري في المدن اليمنية

تعد الزراعة الركيزة الاساسية لليمن فتنوع البيئة الجغرافية بين السهول والوديان والمرتفعات الجبلية تطلب ذلك توفير وتوجيه ممارسات زراعية بهدف ري المزروعات فنجد مدينة صنعاء في معجم البلدان لا يتناول بالتحديد طرق الزراعة والري الا أنه اكتفى بوصف المنطقة أسماً ومكاناً أي تعريفاً كاملاً بالمدينة وحالتها الاجتماعية والطبيعة البيئية من خلال تساقط الامطار مرة ومرتين في السنة (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص٤٢٦).

وقد اعتمدت مدينة صنعاء بالدرجة الأولى في سقيها للمزروعات على مياه الامطار فتسقط الامطار بغزارة لتجرف معها تلك الكورة بأسرها فيذهب الماء في مسارات مباشرة الى مزارعهم عن طريق مجاري مائية طبيعية يعملونها قبل هطول المطر (ابن رسته، ابو علي احمد بن عمر؛، ١٨٩٢، الصفحات ج٧، ١١٠-١١٤)، ووصفتها بعض المصادر بكثرة الآبار" وفي دساكرهم كأنما الاجباب المتناثرة لا يستطيع ان يشرب ماؤها من شدة بردها "، فهنا القرى الصغيرة المتناثرة او المزارع حول المدينة وهذا على أن صنعاء اعتمدت على مياه الآبار التي كانت باردة وعذبة تستخدم للشرب والسقي مما يعني جودتها من ذلك الوقت وساعدها على نمو الزراعة (الرازي، ابو العباس احمد بن عبدالله ؛، ١٩٨٩، صفحة ص١٤٧)، والناس كانوا يسكنون بالقرب من الآبار ويقيمون عندها فكل منزل يكون عند بئر او بئران (ابن رسته، ابو علي احمد بن عمر؛، ١٨٩٢، صفحة ج٧، ص١١٤)، واعتمادهم ايضاً على الغيول وهي المياه الجارية على سطح الأرض اذ تنبع من مناطق مرتفعة، ثم تتسرب الى الشقوق والانكسارات فتملؤها بالماء ثم تجري عن طريق فتحات الأودية (الرازي، ابو العباس احمد بن عبدالله ؛، ١٩٨٩، صفحة ص١٥٥).

ويظهر هناك تفاوتاً بين الحموي والمصادر الأخرى فيشير الحموي بشكل موسوعي غير متطرف إلى الزراعة واروائها وتبين المصادر الأخرى كانت أكثر دقة وتفصيلاً وتبين أهمية السيول وكيفية عمل المجاري والاستفادة منها في الري بينما دراسات أخرى قد تغيب فيها الحديث عن أساليب الزراعة وتكتفي بذكر الابار فنجد ابن الرازي أكثر دقة وتفصيلاً في الموضوع، وتبقى بقية المصادر ذات قيمة في الإطار الجغرافي.

ولا يبدو أنه يتناول مدينة حضرموت بشكل مفصل عن طرق واساليب الري والزراعة (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٢، ص٢٧٠) مما يعكس ذلك محدودية الرؤية الجغرافية وهذا يبين قلة المصادر المهتمة بهذا الأمر، ووصفت مدينة حضرموت بأنها "أرض خصبة ورخاء بما كانت تشرب من فضول مياه مأرب بما فيها العيون السائحة على الارض والمنبثقة من الجبال" (السقاف، السيد عبد الرحمن بن عبدالله؛، ١٤٢٥، صفحة ص٥٠) وهذه العبارة دلالة على ان الأرض اعتمدت على الري الطبيعي من عيون نابعة ومياه تنساب من فتحات الجبال.

وبالجدير بالذكر ان سكان جزيرة العرب قد لجؤو إلى الوسائل الصناعية وقد استغل سكان حضرموت مياه الامطار والافادة منها في الري اي قاموا بعمل السدود والخزانات، واقامة صهاريج تعرف بـ (النقب) وهي عبارة عن حفر لخزن مياه الامطار (علي، جواد؛، ١٩٩٣، الصفحات ج٣، ١٦٨ – ١٦٩ – ١٧١ – ٢٠٩.). كما أشارت المصادر إلى وجود آثار لشبكات الأرواء كانت معمولة بشكل منتظم. وهذا يعكس وعياً هندسياً وتقنياً وابتكار وسائل في المناطق قليلة المياه. ووجود مجموعة من الوديان في المنطقة التي تمثل العمود الفقري للزراعة مثل وادي دوعن ووادي عهد وهذا دليل على ان زراعتهم اعتمدت على مياه السيول الموسمية في السقي (المقحفي، ابراهيم أحمد؛، ٢٠٠٢، صفحة ج١، ص٤٧٨).

أما سد مأرب الذي بناه السبئيين يعد من أقدم وأدق أساليب الري والزراعة الذي اعتمد عليه اليمنيون من خلال استغلال مياه السيول وجمعها فاذا امتلأ الد فتحت ابوابه فسقوا مزارعهم وانتفعوا به على قدر حاجتهم. وهذا دليل على التطور والتقنية ومن خلاله انبتت الأرض بالمحاصيل الزراعية مما ساهم ذلك في الاستقرار الاقتصادي والازدهار الزراعي (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ٣٤–٣٥) وقد اعتمد أهل القرى على هذا السد واستمرار الزراعة ثلاث مرات في الموسم دلالة على كفاءته في سقي المزروعات (القزويني، زكريا بن محمد بن محمود؛، د.ت، صفحة

٦٠) واشتهرت اليمن بصناعة السدود لخزن المياه فكانوا يعملونها في ممرات ضيقة ومن ثم توزع المياه على الأراضي الزراعية والباقي يحتفظون به للري في مواسم الجفاف، وأشهر هذه السدود سد رمع في ظهر وسد الخافق بصعدة (الحديثي، نزار عبد اللطيف؛، د.ت، صفحة ٤٠).

اذاً الحموي من القلائل الذي يشير إلى طريقة بناء السد ووصفه والاستفادة منه في خزن المياه واستخدامه للزراعة بينما تذكر بقية المصادر كيفية اهم المحاصيل الزراعية في المنطقة دون التطرق إلى التفاصيل الأخرى.

ايضاً وصفه لمنطقة شبام وأهميتها الجغرافية والاستراتيجية واحتوائها على سد يملأ بالماء من خلال تساقط الامطار وبعدها يفتح السد ويعمل على ري المزروعات في القرى والمناطق المحيطة بها (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص٣١٨) وبالتالي اعتمادهم عليه في الزراعة وتخزين المياه التي يتم جمعها عن طريق مياه الامطار والعيون، وتطرقت المصادر الأخرى للسد اذ تتجمع في المياه وتسقي منه المزروعات (ابن الفقيه، ابو عبدالله احمد بن محمد، ١٩٩٦، صفحة ٩٨).

ولم ترد اشارات واضحة لطريقة الري في مدينة ظفار سواء عن طريق العيون أو القنوات فكانت دراسة موجهة إلى أسماء البلدان والمدن والمواقع، وأحياناً اشارات تاريخية واقتصادية. ونلاحظ غياب التفاصيل التقنية سواء بأنظمة الري أو الانشطة الزراعية وتوجهها نحو أسماء الاماكن والمواقع او معاني لغوية (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٤، ص٦٠).

وهذا لا يعني غيابها او عدم وجودها في الواقع التاريخي انما اعداد المؤلف على منهج معين في كتابه. وهذا يدعوا الباحثين المعاصرين إلى البحث وعدم الاكتفاء بالمصادر.

اما مدينة ذمار لم ترد تفاصيل دقيقة عن طرق الري واساليها واحوالها انما جاء باسمها وموقعها (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص٧). ومخلافها عامرة بالزراعة (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ٦٨-٦٩).

اذاً يوصى بأن هناك وسائل ري تكون اعتمادها بالدرجة الأولى على الامطار الموسمية او العيون والابار كما هو الحال في بعض المدن الأخرى، بينما تذكر المصادر انما الزراعة اعتمدت على مياه العيون الجارية وخاصة الجبلية فيها حيث تنحدر المياه بسهولة. كذلك وجود الابار التي تعتبر مصدراً

مهماً في المناطق الجافة ويأتي الوصف مكرر في بعض المصادر الأخرى (البكري، ابو عبيدالله عبدالله بن عبد العزيز؛، ١٩٩٢، صفحة ج١، ص٣٦٤).

يتبين ان الري في ذمار كان مزيجاً بين مياه الامطار والعيون والآبار مما ساهم في الازدهار الزراعي والاقتصادي، بينما الحموي لم يحدد عن وسائل الري بأي شكل من الاشكال.

وبالنسبة لمنطقة وبار فهي أخصب بلاد الله، فهذا يشير إلى أنها منطقة زراعية تتوافر فيها الأمطار والمياه السطحية ويعتمدون عليها في الزراعة (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ٣٥٦ – ٣٥٧) وتتفق الدراسات الأخرى على وجود مصادر مائية دون التطرق إلى وسائل الري، وهذا يعكس ثباتاً في الرؤية الجغرافية لدى العرب الجغرافيين (القزويني، زكريا بن محمد بن محمود؛، د.ت، صفحة ٦٣).

إذاً هناك مزيجاً جغرافياً في المصادر وغياب طرق الري يبدو ان هذه الاوصاف مبنية على روايات متناقلة.

وهناك إشارة لبليدة آب[١] بانيها كثيرة الزرع مما يوضح هذا وجود وفرة من المياه لري ولسقي المزروعات (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج١، ص٦٤).

يتبين بأن هناك دلالة واضحة على رؤية الحموي للطبيعة وتوفير المياه من خلال تساقط الامطار ومياه العيون.

اما مدينة أثافت فيها مزارع للعنب والكروم الا ان الحموي لم يذكر في معجمه نصاً دقيقاً وواضحاً حول طريقة الري وكيفية الزراعة، إذ أن زراعة الكروم تتطلب مصادر مياه وفيرة دائمة، يستنتج من ذلك ان الموضع كان يتمتع بمورد مائي كافي لازدهار الانتاج (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج١، ص٨٩).

يبدو هناك حلقة من حلقات التكامل المعرفي بين المصادر إذ زيارة الشاعر الكبير الأعشى اليها يؤكد مصداقية الروايات وذكره وجود معصر للخمر يدل على وجود بنية مائية مناسبة. وان المدينة تقع

(١) بليدة آب: وهي من نواحي اليمن وتقع ضمن مخاليفها تطورت بمرور الزمن لتصبح أحدى أهم المدن اليمنية. (الحموي، شهاب الدين عبد الله ياقوت بن عبد الله، ١٩٩٥، صفحة ج١، ص٧٩).

ضمن المواقع التي تتوافر فيها مياه العيون الجارية في منطقة مؤهلة للزراعة (الادريسي، محمد بن محمد بن عبدالله؛، ١٤٠٩، صفحة ج١، ص١٤٧).

يتضح من ذلك ان المنطقة كانت تتمتع بنظام ري تقليدي قد يكون عن طريق السواقي.

أما مدينة زبيد ومخلافها فهي وادياً خصباً لوجود النخل فيها مما يدل على وجود السيول المائية الموسمية فيها (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص١٣٢). وان هذا الوادي يسقي جميع ما يحيط به عن طريق السيول او مياه الجريان وتروي جميع الأراضي (الهمذاني: ابو محمد الحسن بن أحمد؛، ١٨٨٤، صفحة ج١، ص١١٦)، وهو الموضع الذي يعتمد على الغيل اي الماء الجاري او النابع من الجبال لسقي مزروعاتها.

وهذا يعكس أهميتها الزراعية وخصوبة المكان الذي يعتبر عاملاً أساسي في الاستقرار (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، الصفحات ج٥، ٣٩٢- ٣٩٣) يبدو ان الموضع غني بالزراعة والماء لوجود مصادر أخرى تذكر فيها وجود الاودية التي تعتبر من الخصائص الطبيعية لوفرة المياه.

أما بالنسبة لمخلاف ذي جرة وخولان فالمصادر القديمة لا تتوسع كثيراً في تفاصيل التقنية الزراعية (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٥، ص٦٩)، ونلاحظ من خلال الاطلاع على المصادر وجود نظم ري قد تكون عن طريق السواقي او الآبار او الجداول او سدود صغيرة اضافة الى مياه الامطار التي تعد العنصر الاساسي فيها.

وهناك مخالف لم يورد ذكرها في معجم البلدان فيها مخلاف صعدة إلى خولان التي اشارت اليها المصادر بأنها أرض خصبة ذات مياه وفيرة وخاصة وجود الاودية فيها مثل وادي علاف وهذا دليل على وجود طرق للري سواء عن طريق الامطار أو السيول أو بوسائل تقليدية أخرى (الهمذاني: ابو محمد الحسن بن أحمد؛، ١٨٨٤، الصفحات ج١، ١١٣ – ١١٤).

الا ان الحموي لم يذكر نصاً واضحاً حول المنطقة ووادي علاف كما أشارت اليه المصادر الأخرى واعتبرته مورد مائي مهم للمحاصيل الزراعية فبالتالي لا توجد نصوص دقيقة لنظام الري في الموضع.

ومن المناطق الجبلية جبلان العركبة فهي تقع بين وادي وادي رمع وزبيد ما يدل على خصوبة الموضع وجعلها صالحة للسكن (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٢، ص١٠١)، ولم يرد نصاً واضحاً عن وسائل الري المستخدمة وان لم تكن على درجة من التقنية الا أنهم أستخدموا السدود والقنوات والاودية او قد تكون مجاري مائية.

ايضاً جزيرة سقطرى لا يذكر فيها اي وسيلة للري او انها جزيرة شحيحة المياه نباتاتها جبلية تعتمد على موارد طبيعية محدودة (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص٢٢٧).

ومن المعروف أن المنطقة الجبلية لا يمكن زراعتها الا ان سكانها استفادوا من المرتفعات وجعلوا الزراعة فيها على شكل مدرجات (السيف، عبدالله بن محمد بن ناصر؛، ١٤١٦هـ، صفحة ص١٨٥).

يستنتج من ذلك أنه لا توجد وسيلة تسقى فيها نباتات المنطقة فقد تكون ناتجة من تجمع مياه الامطار او عيون جارية أو قد يلجأ سكانها إلى اقامة صهاريج، وخزانات تقليدية.

اما شروم فهي قرية تابعة لسقطرى وبها عيون جارية نتيجة سقوط الامطار او مياه سطحية متجمعة ساعدت على قيام الزراعة فيها (الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله، ١٩٩٥، صفحة ج٣، ص٣٣٩).

اذاً غياب وسائل الري في بعض المدن اليمنية أدى إلى محدودية الانتاج الزراعي في بعض المناطق مقارنة بغيرها التي توافرت وسائل ري أثرت على نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

الخاتمة

وخلاصة القول ان هذه الدراسة محاولة لفهم الاحوال الزراعية في اليمن من خلال كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، إذ أن جهوده الدؤوبة التي بذلها في عرض مواد معجمه تعطي للباحثين فرصة رسم خارطة كبيرة لذلك العالم الذي صوره لنا الحموي الذي أهتم كغيره من الجغرافيين والرحالة بتناول الاحوال الزراعية في المنطقة فقد أعتمد على كتب الفتوح والادب والتاريخ والجغرافية في ترجمته للمدن والاقاليم، إذ يبين الكتاب مدينة صنعاء ومأرب وذمار وزبيد وآب من أهم المناطق الزراعية التي تتوفر فيها الحبوب والنخيل والفواكه، مما يدل ذلك على أهمية الزراعة في اليمن وبذلك يمكن القول ان دراسة الأحوال الزراعية من خلال هذا المصدر لا تقتصر على بيان نوعية المحاصيل وخصوبة التربة بل تسهم في فهم اعمق لدور الزراعة في استقرار المجمعات اليمنية وتطورها الاقتصادي، كما أظهرت الدراسة القيمة العلمية لكتاب معجم البلدان باعتباره مصدراً جغرافياً وتاريخياً لفهم الأحوال الزراعية في معجمه الامر الذي يؤكد على أهمية الاعتماد على المصادر الجغرافية التراثية في دراسة المنطقة.

كما بينت الدراسة أن الحموي قد اعتمد في كثير من مادته على مشاهداته الشخصية الى جانب نقله عن الجغرافيين والرحالة والمؤرخين السابقين، مما أضفى على كتابه قيمة علمية وتاريخية كبيرة، أسهم ذلك في ابراز أثر الزراعة في النشاط الاقتصادي واستقرار السكان، كما أظهرت الدراسة ان التنوع الجغرافي والمناخي في اليمن كان له الأثر الواضح في تنوع المحاصيل الزراعية من منطقة إلى أخرى، وفي ضوء ذلك يتضح ان معجم البلدان يعد من أهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في دراسة تاريخ اليمن وجغرافيته الزراعية لما يقدمه من مادة علمية ثرية تساعد على فهم البيئة اليمنية وتطور النشاط الزراعي فيها، كما يفتح المجال امام دراسات مستقبلية تعني بالمقارنة بين روايات الجغرافيين والمؤرخين واستثمارها في كتابة التاريخ الاقتصادي والحضاري لليمن.

المصادر والمراجع

ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن محمد؛. (١٤١٣). *نشر المحاسن اليمانية*. دمشق: دار الفكر.

ابن الشعار، كمال الدين ابو البركات المبارك. (٢٠٠٧). *قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، تح: كامل سلمان الجبوري*. بيروت - لبنان.

ابن الفقيه، ابو عبدالله احمد بن محمد. (١٩٩٦). *البلدان، تح: يوسف الهادي*. بيروت: عالم الكتب.

ابن الفقيه، أحمد من محمد بن علي الانصاري. (٢٠٠٩). *تح: مجدي محمد مسرور*. د.م: دار الكتب العلمية.

ابن المستوفي، شرف الدين ابي البركات المبارك. (٢٠١٦). *تاريخ اربل، تح: سامي الصغار ، (دمشق، ٢٠١٦)*. دمشق: دار الغرب.

ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن محمد ؛. (١٤١٧). *رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار*. الرباط: أكاديمية المملكة المغربية.

ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي ؛. (١٩٣٨). *صورة الارض*. بيروت: دار صادر، افست، ليدن.

ابن خرداذبة، ابو القاسم عبدالله بن عبدالله؛. (١٨٨٩). *المسالك والممالك*. بيروت: دار صادر، أفست، ليدن.

أبن خلكان: ابو العباس شمس الدين أحمد؛. (١٩٩٠). *وفيات الاعيان وانباء الزمان، تح: احسان عباس*. بيروت: دار صادر.

ابن رسته، ابو علي احمد بن عمر؛. (١٨٩٢). *الاعلاق النفسية*. د.م.

ابن منظور، محمد بن مكرم؛. (١٩٩٤). *لسان العرب* (المجلد ط٣). دار صادر بيروت.

الادريسي، محمد بن محمد بن عبدالله؛. (١٤٠٩). *نزهة المشتاق في اختراق الافاق*. بيروت: عالم الكتب.

الاصطخري، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد؛. (٢٠٠٤). *المسالك والممالك*. بيروت: دار صادر.

الانجري الفاسي، ابو العباس أحمد بن محمد؛. (١٤١٩ه). *البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تح: أحمد عبدالله القرشي*. القاهرة.

البكري، ابو عبيدالله عبدالله بن عبد العزيز؛. (١٩٩٢). *المسالك والمالك*. د.م: دار الغرب الإسلامي.

البكري، سراج الدين ابو حفص عمر ؛. (٢٠٠٨). *خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تح: انور محمود زناتي*. القاهرة: مكتبة الثقافة الإسلامية.

الحجري، محمد بن أحمد بن علي؛. (١٩٩٦). *مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تح: اسماعيل الأكوع* (المجلد ط٢). د.م: دار الحكمة، اليمانية.

الحديثي، نزار عبد اللطيف؛. (د.ت). *أهل اليمن في صدر الاسلام دورهم واستقرارهم في الامصار*. سوريا: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الحمد، جواد مطر؛. (د.ت). *الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم خلال النصف الأول قبل الميلاد حتى عشية الغزو الحبشي*. جامعة عدن، الشارقة: دار الثقافة العربية.

الحموي؛. (١٩٨٨). *البلدان اليمانية، تح: إسماعيل بن علي الاكوع*. بيروت: مؤسسة الرسالة.

الحموي؛. (١٩٩٣). *معجم الادباء - ارشاد الأريب الى معرفة الاديب، تح: أحسان عباس*. بيروت : دار الغرب الاسلامي.

الحموي، شهاب الدين عبدالله ياقوت بن عبدالله. (١٩٩٥). *معجم البلدان* (المجلد ط٢). بيروت: دار صادر.

الحميري، ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم؛. (١٩٨٠ه). *الروض المعطار في خبر الاقطار، تح: احسان عباس* (المجلد ط٢). بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة.

الرازي، ابو العباس احمد بن عبدالله ؛. (١٩٨٩). *تاريخ مدينة صنعاء، تح: الحسين بن عبدالله العمري* (المجلد ط٣). بيروت - لبنان: دار الفكر.

الزركلي، خير الدين محمود بن محمد بن علي بن فارس. (٢٠٠٢). *الاعلام* (المجلد ط١٥). د.م: دار العلم للملاين.

السقاف، السيد عبد الرحمن بن عبدالله؛. (١٤٢٥). *آدام القوت في ذكر بلدان حضرموت*. د.م: دار المنهاج.

السيف، عبدالله بن محمد بن ناصر؛. (١٤١٦ه). *الزراعة في جنوب الجزيرة العربية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري*. المملكة العربية السعودية: جامعة الملك سعود، الرياض.

الشهاري، جمال الدين علي بن عبدالله. (١٩٩٢). *وصف صنعاء "مستل من كتاب المنشورات الجلية" تح: عبدالله محمد الحبشي*. صنعاء - الجمهورية اليمنية.

القرطبي المالكي، ابو محمد مكي بن ابي طالب؛. (٢٠٠٨). *الهداية الى بلوغ النهاية في معاني القرآن وتفسيره واحكامه، وجمل من فنون علومه، تح: الشاهد البو شيخي*. د.م: جامعة الشارقة.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود؛. (د.ت). *آثار البلاد واخبار العباد*. بيروت: دار صادر.

المقحفي، ابراهيم أحمد؛. (٢٠٠٢). *معجم البلدان والقبائل اليمنية*. صنعاء - الجمهورية اليمنية: دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع.

المنجم، أكام المرجان، المنجم سحاق بن الحسين؛. (١٤٠٨ه). *آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان*. بيروت: عالم الكتب.

المنذري، عبد العظيم بن عبدالقوي بن عبدالله. (١٩٨١). *التكملة لوفيات النقلة، تح: بشار عواد معروف* (المجلد ط٢). بيروت: مؤسسة الرسالة.

النهاوندي الزجاجي، عبد الرحمن بن اسحاق البغدادي. (١٩٨٦). *اشتقاق اسماء الله، تح: عبد الحسن المبارك* (المجلد ط٢). د.م: مؤسسة الرسالة.

الهمذاني: ابو محمد الحسن بن أحمد؛. (١٨٨٤). *صفة جزيرة العرب*. د.م: مطبعة بريل ليدن.

اليافعي، ابو محمد عفيف الدين عبدالله. (١٩٩٧). *امرأة الجنان وعبدة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تح: خليل المنصور*. بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية.

دماج، ليبيا عبدالله ناجي؛. (٢٠٠٩). *المحاصيل الزراعية في اليمن القديم (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير*. صنعاء: كلية الآداب (جامعة صنعاء).

صفي الدين، عبد المؤمن بن عبد الحق؛. (١٤١٢). *مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع*. بيروت: دار الجيل.

علي، جواد؛. (١٩٩٣). *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام* (المجلد ط٢). بغداد: جامعة بغداد.

مجهول؛. (١٤٢٣). *حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح: السيد يوسف الهادي*. القاهرة: دار الثقافة للنشر.

مجلة أرابخا للدراسات التاريخية والآثارية والأنثروبولوجية
العدد الثاني/ المجلد الأول أيلول ٢٠٢٦
IRAQI Academic Scientific Journals

عنوان البحث

نشأة وتكوين رالف بنش الأكاديمي في سياق التمييز العنصري بالولايات المتحدة الامريكية (١٩٠٤–١٩٣٤)

معلومات الباحث

الباحث الأول:

الاسم: ضياء الحق مشعل شويش

الجامعة: كركوك

الكلية: الآداب

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:
athm24003@uokirkuk.edu.iq

الهاتف: ٠٧٨٢٨٣٠٠١٦٨

الباحث الثاني

الاسم: أ.د. اديب صالح عبد

الجامعة: كركوك

الكلية: الآداب

القسم: التاريخ

البلد: العراق

البريد الالكتروني:
dr.adeeb@uokirkuk.edu.iq

الهاتف: ٠٧٧٠١٣٤٦٨٦٥

تاريخ الاستلام: ١٩/ حزيران /٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٣٠/ اب /٢٠٢٦

تاريخ النشر: / أيلول /٢٠٢٦

الكلمات المفتاحية: (رالف بنش، التمييز العنصري، التعليم في الولايات المتحدة، السود الامريكيون، جامعة هارفارد)

ملخص البحث

يتناول هذا البحث مسار التكوين الأكاديمي لرالف جونسون بنش (١٩٠٤–١٩٧١) خلال الفترة الممتدة من ولادته حتى حصوله على الدكتوراه من جامعة هارفارد، وذلك في سياق النظام العنصري القائم في الولايات المتحدة الأمريكية. تمحور البحث حول اشكالية اساسية هي: كيف تمكّن بنش، رغم كونه من أصل إفريقي في مجتمع يعاني من الفصل العنصري، من تحقيق إنجاز أكاديمي غير مسبوق تمثل في كونه أول أمريكي من أصل إفريقي يحصل على الدكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية من جامعة هارفارد عام ١٩٣٤ينطلق البحث من الخلفية الاجتماعية والاقتصادية لبنش، حيث ولد في ديترويت بولاية ميشيغان، لكنه أصبح يتيمًا في الثالثة عشرة من عمره، مما اضطره للانتقال إلى لوس أنجلوس تحت رعاية جدته لأمه، لوسي تايلور جونسون، التي كانت امرأة "عبدها الفقر في طفولتها لكنها لم تستسلم له أبدًا" . وقد واجه منذ صغره تحديات مادية جسيمة، حيث اضطر للعمل في وظائف متعددة تشمل بيع الصحف والعمل كخادم لدى ممثل سينمائي، مما يبرز العلاقة الجدلية بين وضعه الاجتماعي المتواضع وطموحه الأكاديمي.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – جامعة كركوك – كلية التربية الاساسية

IRAQI Academic Scientific Journals
Journal of ARAPKHA for Historical, Archaeological and Anthropological Studies
Number (2) / Volume (1) September 2026

Researcher Information

First Researcher
Name: Diaa Al-Haq Mashal Shweish
University: Kirkuk
College: Art
Department: History
Country: Iraq
Email: athm24003@uokirkuk.edu.iq
Phone: 07828300168

Second Researcher
Name: Prof. Dr. Adib Saleh Abdul
University: Kirkuk
College: Art
Department: History
Country: Iraq
Email: adeeb@uokirkuk.edu.iq
Phone: 07701346865

Receipt Date: 19/ June / 2026
Acceptance Date: 30/ September / 2026
Publication Date: / October / 2026

Keywords: (Ralph Bunche, Racial Discrimination, Education in the United States, Black Americans, Harvard University)

Ministry of Higher Education and Scientific Research - University of Kirkuk - College of Basic Education

The Title

The Academic Development of Ralph Bunche in the Context of Racial Discrimination in the United States of America (1904–1934)

Abstract

This research examines the academic trajectory of Ralph Johnson Bunche (1904–1971) from his birth until the awarding of his doctorate from Harvard University, set against the backdrop of the prevailing racial system in the United States. The central problematic of the research is as follows: How was Bunche, despite being of African descent in a society afflicted by racial segregation, able to achieve an unprecedented academic milestone, namely, becoming the first African American to earn a Ph.D. in Political Science and International Relations from Harvard University in 1934؟

The research proceeds from Bunche's socio-economic background. He was born in Detroit, Michigan, but became an orphan at the age of thirteen, which compelled him to move to Los Angeles under the care of his maternal grandmother, Lucy Taylor Johnson. She was a woman "who had been enslaved by poverty in her childhood but never surrendered to it." From an early age, Bunche faced severe material hardships, forcing him to work multiple jobs, including selling newspapers and working as a servant for a film actor. This highlights the dialectical relationship between his modest social standing and his academic aspirations.
.

المقدمة

يعد رالف بنش من الشخصيات الأكاديمية التي خرجت من رحم معاناة مجتمع السود في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان حصوله على شهادتي الماجستير والدكتوراه حدثا نادرا في زمانه ؛ اذ عد اول رجل من ذوي البشرة السوداء ينال شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية عام ١٩٣٤، في الولايات المتحدة الأمريكية ولم يقف تميزه عند الحد الاكاديمي بل دخل المسار الدبلوماسي عبر الأمم المتحدة فكان وسيطًا في حل الكثير من الأزمات الدولية كالصراع العربي – الإسرائيلي عام ١٩٤٨–١٩٤٩، وأزمة السويس ١٩٥٦–١٩٥٧ وأزمة الكونغو ١٩٦٠–١٩٦١.

يسلط البحث الموسوم (نشأة وتكوين رالف بنش الأكاديمي في سياق التمييز العنصري بالولايات المتحدة الأمريكية (١٩٠٤–١٩٣٤) على الظروف المحيطة بنشأة وتكوين رالف بنش وقد تضمن مبحثين تناول الأول جذور عائلة رالف بنش وولادته، وما عانته عائلته من ظروف الفقر والحرمان، وفقدانه لوالديه في سن مبكر من عمره ، ورعاية جدته له التي دفعته للالتحاق بالمدرسة، وإكماله لدراسته الجامعية وهو ما جاء به المبحث الثاني المعنون السيرة الأكاديمية لرالف بنش والتحاقه بالجامعة وحصوله على الماجستير والانضمام إلى الكادر التدريسي في جامعة هاورد (Howard University) في العاصمة واشنطن، وبذلك انضم إلى قسم العلوم السياسية، ويستكمل المبحث مسيرة بنش الأكاديمية بحصوله على الدكتوراه عام ١٩٣٤، فضلاً عن الأنشطة والمحاضرات المجتمعية التي كان يلقيها في مناسبات مختلفة.

المبحث الأول / رالف بنش: الولادة والنشأة:

١. الولادة وجذور العائلة

ولد رالف بنش (Ralph bunche) في ٧ أب عام ١٩٠٤ في ديترويت (Detroit) أكبر مدن ولاية ميشيغان (Michigan)، كان والده حلاقًا من زانيسفيل (Zanesville) التابعة لولاية أوهايو (The Voice, 1949)، ووالدته أوليف أكنيس جونسون (Olive Agnes Johnson) من توبيكا (Topeka) عاصمة ولاية كانساس (Kansas) (The Evening Star, 1959).

تعود جذور عائلة رالف بنش إلى الجد الأعلى لبنش جونسون (Johnson) فقد كان رجل حر من فرجينيا (Virginia) تزوج من إليانور مادن (Eleanor madden) في منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر في ولاية ميسوري (Missouri) التي كان سكانها من السود منقسمين بين عبيد واحرار، اشترى جونسون مائتي فدان وجعلها ملكًا لعائلته، إذ كان لديه ستة أبناء من ضمنهم توماس نيلسون جونسون (Tohomas Nelson Johnson) جد بنش الأعلى عمل في الزراعة غير أنه كان شغوفًا بالتعليم، التحق بكلية شرتليف (Shurtleff College) في مدينة التون (Alton) بولاية الينوى (Ilinois) عام ١٨٧٥، وكان من الخريجين السود القلائل، تزوج من فتاة تدعى لوسي تايلور (Lucy Taylor) أنجبت لوسي عشرة أطفال من ضمنهم أوليف (Olive) والدة رالف بنش في ٣ نيسان ١٨٨٢، توفي توماس في تشرين الثاني ١٨٩٠ متأثرًا بمرض الملاريا (Urquhart, 1995, pp. 23-24)، وفي إحدى المناسبات الاجتماعية التقت أوليف بفريد بنش (Fred Bunche) وتزوجا لاحقًا في ديترويت (Urquhart, 1995, pp. 23-24).

غادرت عائلة بنش ديترويت عام ١٩٠٧، إلى كليفلاند (cleveland)، بحثًا عن فرصة عمل، وانتقلت تباعًا بين تينيسي (Tennessee)، وتوليدو (Toledo) في ولاية أوهايو، حيث ولدت غريس (Grace) شقيقة رالف عام ١٩٠٩ (Henry, 1995, p. 2)، على إثر الولادة أصيبت أوليف بالحمى الروماتيزمية ونظرا لافتقار المنزل الى الحد الادنى من المقومات الصحية اللازمة لتوفير بيئة ملائمة لرعاية المريض اضطرت العائلة على العودة إلى ديترويت (Colored Community News, 1955)، أمضت أوليف عامين في مصحة لمرض السل، بينما كانت لوسي الجدة تعتني بالأطفال (Henry, 1995, p. 2).

٢. الالتحاق بالمدرسة

بدأ رالف الدراسة في ديترويت في سن السادسة من عمره وحصل على علامات جيدة (Young, 1968, pp. 13–14). في الوقت ذاته مر بأول تجربة تمييز عنصري عندما طُلب منه مغادرة حديقة ناشيفيل تين (The Sunday Star, 1960)(Park in Nashville Teen).

استمرت معاناة بنش العائلية بإصابة خالي تشارلي (chrlie) بمرض السل حينها انتقلت العائلة في أيار ١٩١٤ إلى البوكيرك (Albuquerque) في ولاية نيومكسيكو (New Mexico)، برفقة الجدة لوسي جونسون. عانت من صعوبة العيش حيث استقرت في بيت صغير مبني من الطوب، كانت البوكيرك تفتقر إلى الصناعة والحرف الأخرى، إذ لم تستطع العائلة الحصول على فرصة عمل في المدينة، وفي تشرين الأول ١٩١٥ انضم فريد والد بنش إلى العائلة في البوكيرك. (Urquhart, 1995, pp. 28–29).

تعلم رالف بنش في عائلته التي ضمت ثلاثة أجيال أن لكل فرد حقوقه وآراء وخصوصيته ، وأن عليه مسؤوليات تجاه الأسرة. إذ كُلِّف بأعمال منزلية بسيطة، على الرغم من أن الأهم لم يكن أن يُنجزها على أكمل وجه بل أن يتعلم المساهمة في شؤون المنزل. وكثيرًا ما كان يُطلب منه مساعدة "جدته في غسل الملابس، ووالدته في كنس الأرضيات، مما نمى لديه حب المساعدة، كانت هاتان المرأتان الجدة والوالدة لهما الدور الأهم في حياته ترويان له قصصًا من الحياة الواقعية ومن الكتاب المقدس، قصصًا تُسليه وتُعلمه في الوقت نفسه عن الحياة والعيش" (Haskins, 1974, pp. 11–12). وقد وصف عائلته لاحقًا "بأنها لم تنحنِ لأحد عملنا بجد، ولم نشعر بأي حرج لأننا لم نملك الكثير من المال" (Urquhart, 1995, pp. 23–24).

عندما بلغ الحادية عشرة من عمره دخل الصف السادس بمدرسة الحي الرابع الابتدائية في ألبوكيرك (Urquhart, 1995, p. 30). وكان الفصل بين الطلبة على أساس عرقهم في المدارس العامة كانت ممارسة شائعة في الولايات المتحدة منذ أواخر القرن التاسع عشر، واشترطت قوانين العديد من الولايات الأمريكية الفصل العنصري وسمحت به أحيانًا في المدارس. أما في المدارس ذات الأعراق المختلطة فكانت تمارس أساليب تميزية ضد الطلبة السود أثناء عملية التسجيل إما تفرض عليهم مهام دراسية صعبة، أو يجبر الطالب على الالتحاق ببرامج إضافية في حال عدم اجتيازه والتهديد بنقله إلى مدرسة أخرى (محمد، ٢٠٢٥، ص ٣٠٧).

من الجدير بالذكر أن عدد السكان السود في المراكز الحضرية الشمالية قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) قليلا ومتفرقًا، اذ كان غالبية السكان السود في الولايات المتحدة لا تزال متمركزة في الجنوب وتعمل في الغالب في الزراعة (Bunche, n.d., p. 572).

وتشير الإحصائيات إلى أن عدد الزنوج كان في تزايد نتيجة الهجرة الداخلية فخلال الحرب العالمية الاولى ، وصل السود الى ديترويت باعداد كبيرة جدا وفقًا لتعداد ١٩٢٠، بلغ عدد السكان الزنوج إلى ٤٠ ألف نسمة، بعد أن كان ٦ آلاف فقط عام ١٩١٠، ثم ارتفع عام ١٩٣٠، إلى ١٢٠ ألف نسمة، خلال أوائل العشرينات كانت الوظائف وفيرة لدرجة أنه لم يكن هناك منافسة كبيرة على العمل، لكن تدفق الوافدين أدى إلى اشتباكات بين الأطراف انعكست اثارها على طلبة المدارس (Bunche, n.d., p. 584).

في ظل تلك الظروف وجد بنش نفسه أحد طالبين من السود في فصل دراسي يضم ٦٥ طالبًا، وهذا ما أشعره بالحرج إذ لم يكن مقبولًا من قبل الطلاب الآخرين نظرًا للثقافة السائدة آنذاك، لكن مع تميزه الدراسي وحصوله على درجات جيدة تخلص من خجله، وبدأ التصرف بشكل طبيعي جدًا. على الرغم من حصوله على درجات A و B في المواد الدراسية وتعد مرتفعة من حيث التقييم ، غير ان تقييمه كان متواضع في السلوك ، اذ حصل على درجة C+ ؛ كونه يتحدث إلى زملائه أثناء أوقات الدرس (Haskins, 1974, pp. 19-20).

أدت المعلمة إيما بيل سويت (E.belle Sweet) (Atlanta Daily World, 1962) دورًا مهمًا في تجاوز رالف بنش الكثير من مشاكل التي واجهها في المدرسة وأبرزها التمييز العنصري (شبيب، ٢٠٢١، ص ٨٣٥). إذ منحته شعورًا بأهميته، وأنها لم تميز في تعاملها بين الزنجي وأي تلميذ آخر، وساعدت في تخفيف آثار التمييز العنصري عليه وتحدثت عنه لاحقًا "أنه مثل العديد من الطلاب الجيدين، كان ينهي عمله بسرعة أكبر من الآخرين، ويشعر بالملل في انتظارهم للحاق به" من درجة إعجابه بمعلمته والأثر الذي تركه سلوكها في نفسه أنه رغب أن يصبح معلمًا، وبات بفضل دعم معلمته اصبح يمتلك ثقة كبيرة بنفسه (Atlanta Daily World, 1962).

توفيت والدة بنش جراء مضاعفات الحمى الروماتيزمية عام ١٩١٧، وكانت في الخامسة والثلاثون من عمرها (The S.T. Croix Avis, n.d). لم يفق بنش من هول الصدمة ليتلقى فاجعة أخرى بعد ثلاثة أشهر من وفاة والدته إذ توفي والده (Colored Community News, 1955)، ومما زاد من مأساة ظروف العائلة أقدام خاله تشارلي (Charle) على الانتحار حيث أطلق النار على نفسه،

تولت جدته لوسي جونسون تربيته في ظروف بغاية الصعوبة؛ إذ بدت بروح محطمة؛ بسبب المأساة المزدوجة موت ابنتها أوليف وانتحار ابنها تشارلي وتحملها رعاية وتربية حفيدها، فضلاً عن الظروف الاجتماعية الصعبة بتعرض عائلتها إلى التمييز العنصري الذي كان سائدًا آنذاك في أوساط المجتمع الأمريكي (Raustiala, 2023, pp. 4–5).

ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من تحقق بعض المكاسب للأمريكيين السود بموجب التشريعات مثل قانون الحقوق المدنية الذي أجازه الكونغرس عام ١٨٧٥، غير أن التطبيق على أرض الواقع كان بطيئًا ، إذ فرضت قيود وضوابط مجتمعية بشدة قيدت حرية انتقالهم بين الولايات، فضلا عن عدم التوظيف في وظائف عامة، وإجبار الأمريكيين السود على السكن في مناطق (الغيتو الأسود) كما انه لم يتم دمج العمال السود في النقابات العمالية في نقابة واحدة لقلة أجور العامل الأسود (أحمد، ٢٠٢١، ص ص ١٤١–١٤٢).

ومن حالات التميز العنصري التي مر بها بنش انه تقدم عام ١٩١٩ بطلب الحصول على عضوية نادي التنس (West Side) القريب من منزله الا أن طلبه قوبل بالرفض؛ وأوضح رئيس النادي أن الإدارة تمنع دخول السود إليه (The S T. Croix Avis, 1960).

٣. انتقال رالف وعائلته إلى مدينة لوس أنجلوس (Los Angeles) وإكماله الثانوية

بعد تلك الظروف العصيبة انتقلت الجدة ببنش إلى مدينة لوس أنجلوس (Raustiala, 2023, p. 3)، ومن صور ما تعرض له من ممارسات عنصرية مُنع وصديقه من دخول مسبح عام بسبب لون بشرتهم (Urquhart, 1995, pp. 35–36).

إن وضع الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية سيء جدًا ومعقد؛ لأن تعريفه يختلف باختلاف الولايات، فقد يكون إنسانًا ما أبيض اللون وفق قانون ولاية ما ولكن ضمن قانون ولاية أخرى يعده أسود وهذا يخضع لقاعدة عنصرية بيولوجية في غاية التعقيد فيكفي أن يكون الجد الرابع زنجيًا ليصبح الفرد في عداد الزنوج الذين يعيشون في أحياء فقيرة غير صحية في مدن الشمال، أما في الجنوب، إذ تتجمع أعداد كبيرة من الزنوج فقد فرضت القيود وسنت القوانين التي تحد من حرية الزنجي ونشاطه. إذ بلغ عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية حسب إحصاء سنة ١٩٣٠ كان (١٢٢,٧) مليون نسمة وعدد الزنوج (١١,٩) مليون نسمة (حافظ والشرقاوي، ١٩٥٨، ص ص ٣٧٨–٣٧٩).

في مدرسة جيفرسون (Jefferson) الثانوية واجه بنش صورة أخرى من العنصرية بوصفه أحد الطلاب السود القلائل فعلى الرغم من تفوقه الدراسي لم تتم دعوته للانضمام إلى جمعية الشرف الخاصة

بالطلاب المتفوقين والذين حققوا علامات مدرسية عالية الأمر الذي ترك أثرًا سلبيًا في نفسه؛ إزاء ما تعرض له من تمييز عنصري. لذلك قرر ترك المدرسة وإيجاد فرصة عمل. لكن جدته رفضت قراره وغرست فيه الرغبة في التنافس مع زملائه البيض والتفوق عليهم وكانت نصيحتها له "دعهم يعرفون أنه يمكنك فعل أي شيء يمكنهم القيام به" (Henry, 1995, p. 3).

ومن الجدير بالإشارة أن التمييز العنصري كان طاغيًا في الولايات الأمريكية إذ منع الأمريكيين من أصل أفريقي تناول الطعام في المطاعم أو أكشاك الطعام، ولم يكن بإمكانهم ارتياد النوادي الليلية المخصصة للبيض، كان بإمكانهم استخدام وسائل النقل العام ولكن ليس في سيارات الأجرة المخصصة للبيض، ومنعوا حتى من الجلوس في شرفات دور السينما، كذلك كانت حدائق المدينة ونوافير المياه والملاعب والمدارس مقسمة على أسس عرقية واضحة (Edgar, 1992, p. 6).

بعد ان أخذ بنش بنصيحة جدته قرر المضي قدمًا بدراسته بدون جمعية الشرف، في الوقت ذاته اشتغل عامل توصيل لجريدة لوس أنجلوس تايمز (Los Angeles Times)، وعمل أيضًا في مطبعة الجريدة من الساعة الخامسة والنصف مساءً حتى الواحدة صباحًا، وكانت كلمات جدته تمثل خير دافع مشجع له "لا تقلق الكفاح جيد إنه يثبت قيمتك، عرقك لا علاقة له بقيمتك، مدى جودتك التي قد تثبتها يومًا ما لن يكون له علاقة بلونك ولكن بما في قلبك وعقلك وهذا شيء يمكنك التحكم فيه" (Colored Community News, 1955). وعمل كذلك في تركيب السجاد في مجموعة ستي ديي وركس (City Dye Works)، وكان يكسب مالاً جيدًا ساعده على سداد نفقات دراسته (Urquhart, 1995, pp. 35-36).

تخرج من الثانوية في عام ١٩٢٢، وحاز المرتبة الأولى على دفعته في مدرسة جيفرسون (Jefferson)، ربت المدير على كتفه قائلاً "لم أفكر فيك أبدًا على أنك زنجي يا رالف" ويستذكر لاحقًا ذلك الموقف وملاحظة المدير قائلاً "لقد أثرت بي تلك الملاحظة أكثر كل المرات التي منعت فيها من دخول الأماكن العامة" (The S T. Croix Avis, 1960).

وبسبب سجله الدراسي الممتاز، عُرضت عليه منحة دراسية في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس (UCLA). على الرغم من رغبته في الالتحاق بالجامعة غير أن حاجة العائلة دفعته إلى مواصلة العمل كعامل بناء وحصل على وظيفة ثانية كعامل نظافة. كان يخطط للبقاء في هذه الوظائف بعد انتهاء الصيف، يعلم أن الأسرة بحاجة إلى المال الذي كان يجلبه إلى المنزل كل أسبوع. لم توافق الجدة على استمراره في العمل والتخلي عن دراسته الجامعية وأعرب رالف عن امتنانه العميق لعزيمة

جدته الراسخة على التحاقه بالجامعة وإلا لكان مصيره كمعظم أصدقائه العشرين الذين كان يرافقهم في بداية سنوات دراسته الثانوية. كان معظم هؤلاء الأصدقاء أذكياء، وكما قال: "كانوا يمتلكون إمكانات هائلة لكن بعد تركهم المدرسة، أصبحوا بلا هدف" (Haskins, 1974, p. 31).

المبحث الثاني/السيرة الأكاديمية لرالف بنش والتحاقه بالجامعة

١. التحاق رالف بنش بجامعة كاليفورنيا

التحق رالف بنش بجامعة كاليفورنيا (University of California) في مدينة لوس أنجلوس عام ١٩٢٢. في الوقت الذي يميل فيه غالبية الطلاب السود إلى دراسة القانون والطب، كانت توجهات بنش تميل نحو العلوم السياسية وقد حظي بدعم وتأييد من أساتذته على هذا التخصص، كونه رأى ان الشؤون الدولية مجال يثير الاهتمام غطت المنحة الدراسية رسوم الدراسة والكتب، لكن كان عليه أن يعمل ليوفر متطلبات سكنه وطعامه ونفقاته الأخرى. في الوقت ذاته حرص على مساعدة العائلة، إذ حصل على بعض الأموال التي كان بأمس الحاجة لها عبر عمله في تنظيم وتنظيف الحدائق كتقليم نبات اللبلاب وإزالته عن المباني القديمة. ومع انتصاف عامه الدراسي الأول أدرك أنه قادر على إثبات جدارته، ورأى أن جدته على حق عندما أصرت على التسجيل في الجامعة (Urquhart, 1995, p. 37).

عانى بنش في نهاية العام الدراسي الأول من صداع شديد عزي ذلك في أول الأمر إلى ساعات العمل الإضافية التي كان يقضيها بتنظيف الصالة الرياضية للطالبات. تبين لاحقًا أن سبب الصداع قطعة من القش دخلت في أذنه اليسرى مما اضطرته إلى إجراء أكثر من عملية جراحية انتهت بالفشل مما أضعف من قابلية السمع لديه مدى الحياة (Urquhart, 1995, p. 38).

اتصف بنش بأنه اجتماعي الطبع ولديه العديد من الأصدقاء والزميلات ويحب الرحلات والحفلات، مارس فنون الخطابة والمناظرة، وأصبح رئيسًا لجمعية المناظرة في الفرع الجنوبي بجامعة كاليفورنيا، كما كتب مقالات في صحيفة ديلي بروين (Daily Bruin) الجامعية (Urquhart, 1995, p. 37). أكد خلالها على أهمية التعليم بوصفه حل شامل لتقدم السود في الولايات المتحدة الأمريكية والعلاج الشافي لمشاكلهم (Flynn, 1970, p. 12).

استحوذت ممارسة الرياضة على اهتمامات بنش فخلال السنة الدراسية الأولى لعب البيسبول وكرة القدم وكرة السلة، وبسبب نشاطاته الرياضية وشغفه فيها تعرض لإصابة في ساقه اليسرى مما أدى إلى اعتزاله لعب كرة القدم. واقتصر تركيزه على ممارسة كرة السلة خلال سنواته الثلاث الجامعية

(Haskins, 1974, p. 34). إذ فاز مع فريق جامعة كاليفورنيا ببطولة كرة السلة الجامعية على مستوى البلاد في السنوات الثلاث التي لعب فيها في الفريق الأول (Young, 1968, p. 20).

وخلال عطلته الصيفية عمل بنش نادلاً على متن السفينة التابعة لخط أدميرال لاين (Admiral Lines) (Urquhart, 1995, p. 38)، وفي مطبخ السفينة في تجهيز الطعام وتقشير البازلاء والبطاطس. عمل بشكل جيد ولاقى استحسان المشرفين على العمل واستمر بالعمل على متن السفينة خلال فصول الصيف الثلاثة التالية من سنوات الجامعة (Haskins, 1974, p. 36). مما جعله يحصل على المزيد من الأموال لتسديد مصاريف دراسته، ومساعدة جدته في تغطية مصاريف المنزل (Urquhart, 1995, p. 39).

فضلاً عن تميزه الدراسي كان نشطًا في النقاشات بين الأعراق سواء في أروقة الكلية أو مع الكليات المجاورة، إذ شارك في مسابقات الخطابة في الجامعة وأبرزها مشاركته عام ١٩٢٦، الموسومة "أن يسكن الإنسان في سلام" (Urquhart, 1995, p. 39).

تخرج من جامعة عام ١٩٢٧، بمرتبة الشرف الأولى في العلوم السياسية وألقى كلمة الوداع في حفل التخرج ونال خطابه إعجاب الحاضرين وقدم له أحد أعضاء مجلس الجامعة شيكًا بمبلغ مئة دولار تقديرًا لتميزه الدراسي (Urquhart, 1995, p. 39).

١. التحاق رالف بنش بدراسة الماجستير في جامعة هارفارد.

حصل على منحة (زمالة) زمالة لدراسة الماجستير في جامعة هارفارد (Harvard University) (النيرب، ١٩٩٧، ص ص ٦٢-٦٣) التي تعد واحدة من أعرق الجامعات الأمريكية تقع في مدينة كامبريدج (Cambridge) في ولاية ماساتشوستس (Massachusetts)، والأفضل من وجهة نظره لدراسة العلوم السياسية. واستعد بنش للدراسة والعمل أيضًا؛ كون منحة الزمالة لم تغطِ جميع النفقات بل اقتصرت الرسوم الدراسية فقط. لذا تعين عليه تأمين ثمن السكن والطعام والكتب والملابس، ولم يكن لديه حتى المال للانتقال من كاليفورنيا إلى ماساتشوستس. وقد أبدت سيدة تدعى باتون (Patton) اهتمامًا خاصًا به؛ عندما علمت بمشاكله المالية، إذ دعت إلى اجتماع لناديها الاجتماعي واقترحت أن يقيم النادي حفلًا خيريًا لإرسال الشاب بنش إلى جامعة هارفارد. شعر رالف بالحرج نوعًا ما من الفكرة برمتها، غير أنه كان بحاجة إلى بعض المال. لقد ذُهل عندما قدمت له السيدة باتون مبلغًا ضخمًا قدره ألف دولار (Haskins, 1974, p. 37).

التحق رالف في جامعة هارفارد في حقل العلوم السياسية، وأظهر تميزًا أثار إعجاب أساتذته في الكلية. كان عنوان رسالة الماجستير "النظرية السياسية للسير روبرت فيلمر Robert Filmer"، التي حصل عليها عام ١٩٢٨ (Raustiala, 2023, pp. 16–17).

بعد نيله شهادة الماجستير تلقى دعوة من جامعة هاورد (Howard University) في العاصمة واشنطن للانضمام إلى الهيئة التدريسية، وبذلك انضم إلى قسم العلوم السياسية في جامعة هاورد التي تعد أحد المراكز الأكاديمية المهمة للأمريكيين السود في الولايات المتحدة. كانت الجامعة بمثابة واحة فكرية له (The Sunday Star, 1960; Raustiala, 2023, pp. 16–17).

نظرًا للمقبولية التي حظي بها بين زملائه وتميزه في حضوره الأكاديمي أسندت إليه مهمة رئاسة قسم العلوم السياسية عام ١٩٢٨، وأصبح القسم بفضل إدارته من أكثر الأقسام جاذبية في الجامعة، إذ عرف عنه قربه من طلبته، وتصديه للمسائل التي تعنى بالتمييز العنصري والعرقي (The S T. Croix Avis, 1948).

في عامه الأول في جامعة هاورد التقى بفتاة تدعى روث إيثيل هاريس (Ruth Ethel Harris Young, 1968, p. 23), وكانت طالبة في أحد الفصول التي يدرسها بنش وسرعان ما انخرط الاثنان في علاقة عاطفية اختتمت بالزواج في ٢٣ حزيران ١٩٣٠ (The Sunday Star, 1960).

لم تشغله مهامه الإدارية والمحاضرات عن توصيف معاناة الأمريكيون السود في الولايات المتحدة الامريكية إذ كتب مقالة بعنوان (مختبرات السياسة الزنجية) ركز فيها على الفلسفة السياسية الداخلية للأمريكيين السود. ويصفها بأنها محافظة ويعزي ذلك إلى الخلفية الفلاحية لمعظم السود، وللحد من معاناتهم دعاهم إلى التحول من الانتخابات الوطنية إلى التركيز على الانتخابات المحلية، حيث يكون صوتهم أكبر في ميزان القوى، وقال يجب على السود أن يكونوا أكثر انتهازية وأقل مثالية مما كانوا عليه في الماضي، وأن يفتحوا عقولهم للفلسفات السياسية الليبرالية بل حتى الاشتراكية والبلشفية كي يتمتعوا بحق المواطنة (Henry, 1995, p. 27).

٢. تحولات رالف بنش الاجتماعية والأكاديمية

عاد رالف إلى جامعة هارفارد في خريف عام ١٩٢٩، بعد إجازة من جامعة هاورد لإكمال دراسته التمهيدية للدكتوراه (Urquhart, 1995, pp. 46–47).

يعد رالف بنش أحد الأكاديميين الأمريكيين القلائل من البيض والسود الذين أظهر اهتمامًا بالشؤون الإفريقية، وقد تميز عنهم بإجراء أبحاثًا ميدانية في أفريقيا لا سيما في غربها لمدة ثلاثة أشهر

كمتطلبات لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام ١٩٣٠ في جنوب أفريقيا وشرقها، وتعد تجربة استثنائية حول قضية العرق والفصل العنصري في جنوب أفريقيا، بدأ اطلاعه على أفريقيا من خلال بحثه في أطروحته، حيث قارن تأثير الإدارة الاستعمارية الفرنسية على الأفارقة في داهومي، وتوغولاند، وهي مناطق كانت تحت الإدارة الفرنسية (Keller, n.d., pp. 48–49 & Hill).

كانت الحالة المادية سيئة بالنسبة لرالف وزوجته إذ يعيشون على هامش ضيق جدًا من المال ومع ما كان يحصل عليه من دخل شهري، وبعض الأموال التي يستحصل عليها ومنها منحة مجلس التعليم العالي العام بمقدار أربعمئة دولار للعمل على أطروحته، كما وأقرت جامعة هاورد ترقيته إلى درجة أستاذ مساعد، اجتاز رالف امتحاناته العامة بنجاح وذهب إلى أفريقيا لإجراء أبحاث عن أطروحته للدكتوراه في عام ١٩٣٢ (Raustiala, 2023, pp. 21–22).

اختار موضوعًا مهمًا لأطروحته وغير مألوف في ذلك الوقت، ففي ثلاثينيات القرن العشرين كانت أجزاء واسعة من قارتي آسيا وأفريقيا تحت السيطرة الأوروبية، وكانت الإمبريالية سمة مركزية للسياسية العالمية قبل الحرب العلمية الثانية، اعتقد رالف أن قضية الاستعمار ذات أهمية بالغة؛ نظرًا لاتساع رقعة الأراضي المسيطر عليها، وتوقع أن يستمر الاستعمار في أفريقيا لعقود من السنوات لذا كانت دراسة الإدارة الاستعمارية مهمة له (Raustiala, 2023, p. 20).

غادر رالف بنش في ١٧ حزيران ١٩٣٢ ضمن بعثة بحثية ضمت سبعة أعضاء من هيئة التدريس بجامعة هوارد واشنطن متجهين إلى نيويورك، ومن هناك أبحروا على متن السفينة يوربا (Europa) إلى أوروبا، حيث كانت باريس مقر الدراسة البحثية الذي اختاره بنش لدراسة المجال العام للإدارة الاستعمارية على الساحل الغربي لأفريقيا (The Atlanta Daily World, 1932).

ركزت أطروحته للدكتوراه على مقارنة تأثير الإدارة الاستعمارية الفرنسية على الأفارقة في توغولاند وهي منطقة تديرها فرنسا بموجب انتداب عصبة الأمم مع تأثيرها في داهومي وهي مستعمرة فرنسية. أمضى ٧ أشهر في البحث الأرشيفي في كل من إنجلترا، فرنسا وسويسرا وثلاثة أشهر في غرب أفريقيا وقدم أطروحته عام ١٩٣٤، وكان أول أمريكي من أصل أفريقي يحصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية (Edgar, 1992, p. 7).

حملت أطروحته عنوان "الإدارة الفرنسية في توغولاند وداهومي" French Administration in Togoland and Dahomey والتي أشرف عليها آرثر هولكومب (Arthur Hocombe) رئيس قسم العلوم السياسية في جامعة هارفارد (Raustiala, 2023, pp. 21–22).

حصل رالف بنش على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية من جامعة هارفارد في شباط ١٩٣٤، عن عمر ناهز الثلاثين عامًا. لم تكن لحظة فخر له شخصيًا فحسب بل فخر للأمريكيين السود؛ لأنه أول رجل أسود في البلاد يحصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية. عاد بعد ذلك إلى جامعة هوارد لتدريس علماء السياسة السود الذين سيسيرون على خطاه (Haskins, 1974, p. 46).

حصلت أطروحته على جائزة توبان (Toppan)، كأفضل أطروحة في مجال العلوم الاجتماعية في عام ١٩٣٤ (The Sunday Star, 1960)، والتي مهدت الطريق لعمله اللاحق في الأمم المتحدة وقضايا الوصاية وإنهاء الاستعمار، بلغت أطروحته (٤٥٠) صفحة لم تنشر قط. (Urquhart, 1995, p. 54)

اتخذت آراء بنش السياسية منحى نحو اليسار خلال فترة تدريسه في جامعة هوارد وقد أدت الأزمة الاقتصادية العالمية (البديري، ٢٠٠٩، ص ص ٣٠-٣٤؛ الطيف، ٢٠١١) عام ١٩٢٩، إلى انجذاب المثقفون السود إلى القضايا اليسارية خلال ثلاثينات القرن العشرين وعلى الرغم من انجذابهم إلى الماركسية (عزيز، ٢٠٢٥، ص ص ٥٨-٥٩؛ اتالي، ٢٠٠٨، ص ص ١٣-١٤٩) إلا أن عقيدة الحزب الشيوعي الضيقة نفرت معظمهم، كان منزل بنش بمثابة ملتقى ثقافي يحتضن نقاشات فكرية بشكل دوري أسبوعي (Edgar, 1992, p. 7).

وخلال المدة ١٨-٢١ أب ١٩٣٣، عقد مؤتمر أمونيا الثاني (The Omaha Quide, 1933) والذي ضم ٢٠ رجلاً و ١١ امرأة من كبار قادة السود، وقد انتخب رالف بنش ضمن لجنة ثلاثية ضمت بالإضافة إليه كل من تشارلز (Charles) وهوبسن (Hobson)، لمتابعة الآثار العملية للبرنامج المقترح. وخلص المؤتمر الى أن السود لم يطوروا أي أساليب أو فلسفة لتغيير الوضع التاريخي لعملهم ، وانهم وفشلوا في تحقيق التوافق الضروري بين العامل الأبيض والأسود. كما رأى المؤتمر أن الحركة العمالية التقليدية في الولايات المتحدة الأمريكية غير فعالة في توجيه العمل المشترك بين الأبيض والأسود بسبب هيكلها الحرفي. دعا المؤتمر إلى إجراء تقييم نقدي لوضع الزنوج الحالي في المشهد الأمريكي والعالمي المتغير، وللنظر في المبادئ الأساسية للعمل المستقبلي ؛ انتخب المؤتمرون إلمر كارتر (Elmer Calter) محرر مجلة (Opportuniry) رئيسًا للمؤتمر (The Omaha Quide, 1933).

وجه بنش أشد الانتقادات إلى المنظمات التي تعنى بحقوق السود مثل الرابطة الوطنية للنهوض بالملونيين (NAACP) التي تعتمد ماليًا على الرعاة الليبراليين البيض، إذ قيد هذا الاعتماد استقلالها؛ لأنها لم تستطع اتخاذ القرارات دون التشاور أولاً مع رعاتها الذين كانوا يوجهونها باستمرار نحو الحذر والاعتدال والتسوية (Edgar, 1992, p. 8).

عُرف عن رالف بنش مشاركاته في شتى الفعاليات الفكرية التي تناقش المسائل التي يمر فيها المجتمع ، إذ شارك في المؤتمر السنوي الثامن عشر لكلية الدين جامعة هوارد في ٦ تشرين الثاني ١٩٣٤، في قاعة سوجورنر تروث (Sojourner Truth). ومن القضايا التي ناقشها المؤتمر الهتلرية، والفاشية (لمام، ٢٠٢٦، ص ص ٤١٩-٤٢١) والفلسفة الشيوعية (The Washington Times, 1934).

الخاتمة

- أدت جدة رالف بنش دورًا مهمًا في مساندته ودعمه في إكمال دراسته، وتميزه لاحقًا في مختلف مراحل الدراسة.
- إن نجاح وتفوق بنش لم يتوقف على دعم عائلته بل كانت لمدرسته ولا سيما معلمته إيما بيل سويت (E.belle Sweet) دور مهم في تشجيعه وتعاملت معه بروح إنسانية تجاوز من خلاله ممارسات التمييز العنصري التي كانت سائدة حينها.
- اتسمت طفولة ونشأة رالف بنش بالحرمان والقسوة فبعد وفاة الأم والأب وضيق العيش، اضطر إلى العمل في سن مبكرة لتوفير لقمة العيش، ولتوفير متطلبات الدراسة.
- لم يكن رالف بنش بمعزل عن معاناة أبناء جلدته، بل سخر أبحاثه ونتاجاته العلمية، إذ وظف موضوعي الماجستير والدكتوراه لدراسة هيمنة واستغلال الاستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية، وهذا يمثل شعور تام بالانتماء وتسليط الضوء على معاناة السود جراء ما تحمله رسالة الرجل الأبيض من قهر واستغلال لخيرات الشعوب المستعمرة.
- لم تكن تجربة رالف بنش تجربة شخصية فحسب بل تعد تجربة وجدت من رحم معاناة مارس فيها الرجل الأبيض كل الإجراءات التي تحط من قيمة وإنسانية السود في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص. إن حصول رالف بنش على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية من جامعة هارفارد في شباط ١٩٣٤، لم تكن لحظة فخر له شخصيًا فحسب بل فخر للأمريكيين السود؛ لأنه أول رجل أسود في البلاد يحصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية.

المصادر

١. أحمد، ريزان جلال. (٢٠٢١). سياسة الرئيس ليندون جونسون تجاه الزنوج وقانون الحقوق المدنية ١٩٦٣–١٩٦٨، دراسة تاريخية. مجلة دراسات تربوية، مركز البحوث والدراسات التربوية، (٥٥).

٢. اتالي، جاك. (٢٠٠٨). كارل ماركس أو فكر العالم، سيرة حياة (محمد صبح، ترجم). دمشق: دار كنعان.

٣. البديري، علي. (٢٠٠٩). على هامش الأزمة الاقتصادية العالمية المعاصرة الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩–١٩٣٣) وانعكاساتها على الدول الكبرى المؤثرة في النظام الدولي. مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية، (٢٦).

٤. الطيف، حارث عبدالرحمن. (٢٠١١). التطورات السياسية والاقتصادية في بريطانيا ١٩٢٩–١٩٣٣ (أطروحة دكتوراه). جامعة تكريت.

٥. حافظ، حمدي، والشرقاوي، محمود. (١٩٥٨). المشكلات العالمية المعاصرة. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

٦. شبيب، هدى مالك. (٢٠٢١). الأساليب الاتصالية في معالجة قضايا التمييز العنصري في المواقع الإلكترونية دراسة تحليلية لحساب منظمة الأمم المتحدة على تويتر. مجلة لاراك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، ٣(٤٢).

٧. عزيز، أحمد عدنان. (٢٠٢٥). إسهامات لينين الفكرية والسياسية في تطوير النظرية الماركسية. مجلة العلوم السياسية، (٦٩).

٨. لمام، سحر جميل. (٢٠٢٦). ظهور الفاشية في بريطانيا ١٩١٤–١٩٤٠. مجلة الملوية للدراسات الأثرية والتاريخية، ١٣(٤٤).

٩. محمد، فلاح خلف. (٢٠٢٥). دور الرابطة الوطنية لتقدم الملونين (NAACP) في حركة الحقوق المدنية حتى عام ١٩٦٥. مجلة جامعة الإمام جعفر الصادق (ع) للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ٥(١).

١٠. النيرب، محمد محمود. (١٩٩٧). المدخل في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية حتى ١٨٧٧ (الجزء الأول). القاهرة: دار الثقافة الجديدة.

١١. ٢٤June ،١٩٣٢)Atlanta Daily World.).

١٢. .١٧١Nu. ،٣٤Vol. .(٢٠February ،١٩٦٢)Atlanta Daily World.

١٣. Bunche, Ralph J. (n.d.). he Age of Fdr. Chicago The Political Status Of The Negro in T .and London: The University of Chicago Press

١٤. ٢٦March ،١٩٥٥)Colored Community News.).

١٥. ١-١٩٣٧September ٢٨The Travel Notes Of Ralph J. Bunche .(١٩٩٢)Edgar, Robert R. .United States of America .١٩٣٨January

١٦. .alph Johnson Bunche: Statement. New York: Dodd MeedR .(١٩٧٠)Flynn, James J.

١٧. Ralph Bunche: A Reluctant Hero. New York: Hawthorn Books .(١٩٧٤)Haskins, Jim. .Inc. Publishers

١٨. .Ralph J. Bunche. The University of Michigan Press .(١٩٩٥)Henry, Charles P.

١٩. Edmond J. (n.d.). Trustee For The Human Ralph J. Bunche: ،Hill, Robert A., & Keller .The United Nations and The Decolonization of Africa. Athens: Ohio University Press

٢٠. Ralph Bunche, The United Nations, and The Fight to End .(٢٠٢٣)Raustiala, Kal. .Man. Oxford University Press Empire: The Absolutely Indispensable
٢١. ١٧July ،١٩٥٩)The Evening Star.).
٢٢. ٩September ،١٩٣٣)The Omaha Quide.).
٢٣. .(٢٦February ،١٩٤٨)The S.T. Croix Avis.
٢٤. .١٩٤No ،١١٦Vol. .(١September ،١٩٦٠)The S.T. Croix Avis.
٢٥. .١٩٤No. ،١١٦The S.T. Croix Avis. (n.d.). Vol.
٢٦. ٧August ،١٩٦٠)unday Star. The S).
٢٧. ١٠March ،١٩٤٩)The Voice.).
٢٨. ٧November ،١٩٣٤)The Washington Times.).
٢٩. .New York/London: W.W .Ralph Bunche: An American Life .(١٩٩٥)Urquhart, Brian.
٣٠. .Norton Company
31. he. New York: Franklin The Picture Life of Ralph G. Bunc .(١٩٦٨)Young, Margaret B. .Watts Inc

Republic of Iraq
Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kirkuk
College of Basic Education
JAHAS

ISSUE: 2
VOLUME: 1

ONLINE ISSN: 3106-5422
PRINT ISSN: 3106-5414

Journal of ARAPKHA

FOR HISTORICAL, ARCHAEOLOGICAL AND ANTHROPOLOGICAL STUDIES

A PEER-REVIEWED QUARTERLY SCIENTIFIC JOURNAL ISSUED BY THE COLLEGE OF BASIC EDUCATION – UNIVERSITY OF KIRKUK.

DEPOSIT NUMBER AT THE HOUSE OF BOOKS AND DOCUMENTS IN BAGHDAD (2879) FOR THE YEAR 2025

E-MAIL : JOAHAS@UOKIRKUK.EDU.IQ